مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الحادي والثَّلاثونَ

سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الحادي والثَّلاثونَ

سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّادِسَ عشَرَ

سُورَةُ مَرْيَمَ

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾ [مريم: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الجمعُ بينَ العِلْمِ وحُسْنِ الخُلُقِ

بعد أن ذكرَ النّظمُ الجليلُ في الآية السّابقة أنّ الله تعالى أنعم على يحيى عليه السلام بإيتائه الحُكمَ في مقتبل سِنّه، حتّى فاق أقرانَه فهْمًا وعِلْمًا وإدراكًا، بيّنَ في هذه الآيةِ أنّ الله تعالى قد أكرمَه بحُسْن الخُلُق وسُهولةِ المَعْشرِ، بأن جَعله رقيقًا ذا حنانٍ شفوقًا بالخَلْق، طاهِرَ القلبِ، مُتّقيَ الأركانِ، فكما أوتيَ العِلْمَ والفِقْهَ، فقد أوتيَ الخُلُقَ الرّفيقَ، فوافقَ ظاهره وسِرّه، فكان شَفوقًا رحيمًا بالنّاس، متحقّقًا بالتّقوى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَنَانًا﴾: (حنن) أَصْلٌ يدُلُّ على الإشْفاقِ والرِّقَّةِ[1]، والحَنانُ، بالتَّخْفيفِ: الرَّحْمَةُ، تَقولُ: حَنَّ عليْه يَحِنُّ حَنانًا؛ وهو العَطْفُ والرَّحْمَةُ، والحَنّانُ في صِفَةِ الله، هوَ بالتَّشْديدِ، ذو الرَّحمة والتّعَطُّفِ، والحَنانُ: الرِّزْقُ والبركةُ[2]، وعَبَّر عنِ الرّحمة به في نحو قولِه تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾[3]، "أي: رحمةً وهيبةً، ووقارًا ورقّةَ قَلْبٍ، ورزقًا وبركةً"[4].

2) ﴿وَزَكَوٰةً﴾: (زكى، زكا) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَماءٍ وزيادَةٍ وطهارةٍ، ويُقالُ الطَّهارَةُ زَكاةُ المالِ، سُمّيَتْ بذَلِكَ لأَنَّها ممّا يُرْجَى به زَكاءُ المالِ، وهوَ زيادَتُهُ ونَماؤُهُ، أو لأَنَّها طَهارَةٌ، وحُجَّةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103]، والأَصْلُ كُلُّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حنن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حنّ).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 179.

راجِعٌ إِلَى هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ، وهُما النَّماءُ والطَّهارَةُ[1]، وبِزَكاءِ النّفس وطهارتها يصيرُ الإنسانُ بحيثُ يستحِقّ في الدّنيا الأوصافَ المحمودةَ، وفي الآخرة الأجرَ والمَثوبةَ، وهو أن يَتَحرّى الإنسانُ ما فيه تطهيرُه، قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾، والمراد في الآية الطّهارةُ في نيّته، ونقاءِ نفسِه مِنَ الخبائث في الأقوال والأفعال[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تمامُ الإنعامِ بحُسْن الباطنِ ونقائِهِ

يخبر النّظمُ الجليلُ في هذه الآية أنّ الله تعالى قد أنعمَ على يحيى عليه السلام بأن آتاهُ رحمةً ومَحبّةً مِن عنده، وطهارةً مِنَ الذّنوب والخبائث والآثام، ونقاءً في النّفس والنّيّة، ومَدَحَه بأنّه كان مُتّقيًا خائفًا مطيعًا لله تعالى، بتأديَة الفرائضِ واجتنابِ المُحَرّمات[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَحَنَانًا﴾:

مِن نِعَمِ الله على يحيى عليه السلام إيتاؤُه الشّفقةَ بعدَ الحُكم

عطف النّظمُ الجليلُ الحنانَ في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ على الحُكم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[4]، أي: كما أوليناه الحكمةَ والحُكمَ على النّاس، قد جعلناه ذا حنانٍ وشفقةٍ عليهم، وحُسْنِ نظرٍ فيما وليَه مِنَ الحُكم فيهم[5]، فكان مِن تمام الإنعام بعد إيتاء الحكمة أن جَعله رحيمًا رقيقَ القلبِ، مُشْفِقًا على الخَلْق، وذلك لدَفْع تَوَهّم ما يَرِد بالخاطر مِن أنّ الحُكم يوهِم الشّدّة في التّعامل، وفيه رِفعةٌ لقدر يحيى عليه السلام والعناية به.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 76.
(3) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 306.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 259.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 39.

جمع يحيى ﷺ الرّحمةَ في قلبه، والشّفقةَ على أبويه

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿وَحَنَانًا﴾:

جاء تعبيرُ النّظمِ القرآنيِّ بـ: ﴿وَحَنَانًا﴾ دونَ الرّحمة والشّفقة؛ لما في وصف الحنان مِن معنًى يُمَيّزُه عن غيره، ذلك أنّ هذا التّعبير دلّ على جمع يحيى ﷺ الرّحمةَ في قلبه، والشّفقةَ على أبويه.

وفي هذا الوصف إشارة إلى أنّ ذلك مُرْضٍ للّه تعالى؛ بخلاف الرّحمة والشّفقة فإنّ منهما ما هو غير مقبول؛ كالذي يُؤَدّي إلى ترك شيء مِن حقوق اللّه تعالى؛ كالحُدود بدعوى الرّحمة، أو للإشارة إلى تمييز يحيى ﷺ بتلك الرّحمة الزّائدة على ما في جِبِلّة غيره[1].

وممّا يُذْكَر في سَرّ التّعبير بالحنان دون الرّحمة، أنّ الحنين هو النّزاع المُتَضمّن للإشفاق، يقال: حنَّتِ المرأةُ والنّاقةُ لولدها، وقد يكون مع ذلك صوت؛ ولذا يُعَبّر بالحنين عنِ الصّوت الدّالّ على النّزاع والشّفقة، أو مُتَصَوّرٍ بصورته، وعلى ذلك حنينُ الجِذْعِ، ولمّا كان الحنين متضمّنًا للإشفاق، والإشفاقُ لا ينفكّ عنِ الرّحمة، عَبّر عن الرّحمة به في هذه الآية[2].

تفخيم شأنِ الحنان وتعظيمُه

دلالةُ التّنكير في: ﴿وَحَنَانًا﴾:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغة التّنكير في ﴿وَحَنَانًا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾؛ تفخيمًا لشأن الحنان الذي أعطاه اللّهُ تعالى له، أي: أعطيناه رحمةً عظيمةً جعلتُه مُشفقًا على الخَلْق، ليّنًا معهم، أو حنانًا ورحمةً عظيمةً مِنَ اللّه تعالى عليه[3].

صدورُ الحنانِ مِنَ الله تعالى دليلٌ على فخامته

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾:

عظّم النّظمُ الجليلُ الحنانَ الذي اختصّ اللّهُ تعالى به يحيى ﷺ، وذلك بنسبته إلى جنابه العظيم بقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 72.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 584.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 88.

﴿لَّدُنَّا﴾، فصدورُ هذا الحنانِ مِن لَدُن اللّه تعالى يدُلّ على التّعظيم؛ لذلك كان التّعبيرُ بـ (لدن)، وهي تدُلُّ على عنديَّة صدورٍ وامتدادٍ، لا عنديّةِ مكانٍ وتَحَيُّزٍ فيه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النّمل: 6]، أي: صادِرًا منه ﷻ، أي: مِن خزائن رحمتِه سبحانه[1]، فهو أبلغ مِن (عندنا) وأخصّ، أي: "وآتيناه رحمةً عظيمةً عليه، كائنةً مِن جنابنا، أو رحمةً في قلبه وشفقةً على أبويه وغيرهما"[2]، كما أنّ وصفَ حنانِ يحيى بكونه واردًا إليه مِن لَدُنِ اللّه تعالى يُشير إلى أنّه حنانٌ فائضٌ زائدٌ على المعتاد بينَ النّاس[3].

دلالةُ عطفِ الزّكاةِ على الحَنان بالواو:

الجمع بينَ رِقّةِ القلوبِ وطهارةِ النّفوس

عطف النّظمُ الجليل الزّكاةَ على الحنان بالواو في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾؛ للدّلالة على أنّه أعطاه عطاءً عظيمًا آخَر، أي: وأعطيناه كذلك طهارةً في النّفس، أبعدَتْهُ عنِ ارتكاب المعاصي[4]، فاللّهُ تعالى آتاهُ الطّهارةَ والنّقاءَ معَ الحِكمة وقوّة الإدراكِ، والطّهارةِ مِنَ الدّنس والذّنوب.

سِرّ التّعبير بـ: ﴿وَزَكَوٰةً﴾:

آثَرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بقوله: ﴿وَزَكَوٰةً﴾؛ لأنّه لفظٌ يجمع بين طهارةِ الظّاهِر والباطن؛ فيُطلَق على البَركة، والمراد: وصْفُ يحيى عليه السلام بكونه مباركًا نافعًا، مُعَلِّمًا للخير، وتُطلَق على الصّدَقة، والمراد: ما يُتَصَدّق به؛ لأنّ الزّكاة تتضمّن طهارةَ النّفسِ، والفيضَ على قومه بالصّدقات؛ فيكون التّعبير بها جَمَعَ بينَ طهارةِ الذّات وطهارةِ المُجتَمع مِنَ الموبقات[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لدن).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 259.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 76.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 21.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4618.

دلالةُ التّنكير في الحَنان والزّكاة:

تفخيمُ شأنِهما، وتعظيمُ مكانتِهما

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنِ الحنان والزّكاة بصيغة التّنكير في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ﴾؛ تفخيمًا لشأنهما وتعظيمًا لهما، فلمّا كانتا عطاءً مِنَ اللّه تعالى، كان وصفُ العَظَمة والفخامة لا يَنفَكّ عنهما، فما كان عطاءً مِنَ اللّه تعالى، كان فخمًا عظيمًا.

دلالةُ التّعبير بفعل ﴿وَكَانَ﴾:

رسوخ التّقوى مِن صفات الكمال في العِباد

عبّر النّظمُ الجليل عنِ اتّصافه بالتّقوى بالجملة المُصَدّرة بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾؛ للمبالغَةِ في رسوخ هذا الوصفِ به، فهو كأنّه مُتَحَلٍّ بالتّقوى جِبِلّةً وطَبْعًا[1]، فمُنْذُ أن بَلَغَ التّكليفَ اتّصفَ بالتّقوى، فلم يفعل معصيَةً، ولا هَمّ بها[2].

سِرُّ اختيار وصفِ التّقوى في: ﴿تَقِيّٗا﴾:

ليست تقوى الأنبياءِ عليهم السلام كأيّ تقوى، فهي صِفَةٌ راسخةٌ فيهم

اختار النّظمُ الجليل التّعبيرَ عنِ التّقوى في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ بالصّفة المُشبّهة، على وزن (فَعيل)[3]؛ للدّلالة على شِدّة خوفِه مِنَ اللّه تعالى، وأنّه كان متمكّنًا مِن صفة التّقوى، وأنّها راسخةٌ فيه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ نفسَه مملوءةٌ بالتّقوى؛ فكان إنسانًا كاملًا، سَويَّ الخلق والنّفس.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحنان والرّحمة:

الرّحمة رقّة القلب، والحنان رحمةٌ ظاهِرَةٌ في الأفعال

الرّحمةُ تدُلُّ على الرِّقّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ[4]، والرَّحْمَةُ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميّين رِقّةٌ وتَعطُّفٌ[5]، أمّا الحَنينُ: الشَّوق

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 179.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 39.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 281.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(5) الرّاغب، المفردات: (رحم).

وتَوَقانُ النفس، تقول منه: حَنَّ إليه يَحِنُّ حَنينًا، فهو حانٌّ[1]، وهو: النِّزاع المُتضمّن للاشتياق، يقال: حَنَّتِ المرأةُ، والنّاقةُ لولدها، وقد يكون مع ذلك صوتٌ، ولذلك يُعَبّر بالحنين عنِ الصّوت الدّالّ على النِّزاع والشّفقة، أو متصوّرٍ بصورته، وعلى ذلك حنينُ الجِذْع، وريحٌ حَنون، وقوسٌ حَنّانَة[2]. فيُلاحَظ أنّ الحنان قد يصاحبه الصّوت، فيكون الحنان هو الظّاهر مِنَ الرّحمة، لظهور أثرِ الرّحمة الكامنة في القلب على الأفعال، كالإشفاق والرّقّة، لذلك كان معناه في الآية الكريمة: "رحمةً وهيبةً ووقارًا، ورقّةَ قلبٍ، ورزقًا وبركةً"[3].

الزّكاة والطّهارة:

الطّهارة مِن (طَهَرَ)، والأصل فيها يَدُلُّ على نَقاءٍ وزَوالِ دَنَسٍ، ومِنْ ذَلِكَ: الطُّهْرُ، خِلافُ الدَّنَسِ، والتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وكُلِّ قَبيحٍ[4]، وقوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ [الحج: 26]، فحَثَّ على تَطْهيرِ الكعبةِ مِن نجاسةِ الأوثان[5].

الطّهارة التّنقية مِنَ الدّنس، والزّكاة تنقيَةُ النّفسِ مِنَ الآثام والعيوب

وأمّا الزّكاة فالأَصْلُ يَدُلُّ على نَماءٍ وزيادةٍ[6]، يقالُ: زكا الزّرعُ يَزكو: إذا حصل منه نُموٌّ وبركةٌ، ومنه الزّكاة، لما يكون فيها مِن رجاء البَركة، وتزكيَةِ النّفس، أي: تنميتها بالخيرات والبَركات[7]، فاستعمل في الآية الزّكاةَ؛ لأنّه أراد طهارةَ النّفسِ مِنَ الخبائث، ونقاءَ النّيّة مِنَ الآثام، فليس المراد في الآية التّنقيَةَ مِنَ الدّرن الفاسد والقبيح، بل التّنمية بالخير.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (حنن).
(2) الرّاغب، المفردات: (حن).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 179.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طهر).
(5) الرّاغب، المفردات: (طهر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى).
(7) الرّاغب، المفردات: (زكى).

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قبْلَها:

تَعَدّدُ الصّفاتِ الكريمة دليلٌ على عُلوّ قَدْرِ الموصوف

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة حنانَ يحيى عليه السلام وشَفَقتَه وتقواه، وكان ذلك دليلًا على حُسْن سيرتِه ومَعْشَرِه على العموم، جاءت هذه الآيةُ لتضيفَ إلى تلك الصّفات الكريمةِ صفاتٍ أُخْرى[1]، منها: برُّه بوالدَيه، وهو أسمى برّ، ثُمّ أتبعَه بنفي الصّفات التي تُناقِض صفة الحنان والزّكاة والتّقوى والبرّ، وهي صفةُ الجبّار العاصي.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبَرًّا﴾: (برّ) أصلٌ يدُلّ على الصِّدْقِ، وتَقولُ: بَرَّ اللّه حَجَّكَ وأَبَرَّهُ، وحِجَّةٌ مَبْرورَةٌ، أَيْ: قُبِلَتْ قبولَ العَمَلِ الصّادِقِ، ومِنْ هَذا البابِ قَوْلُهُم: هوَ يَبَرُّ ذا قَرابَتِه، وأَصْلُهُ الصِّدْقُ في المَحَبَّة، يُقالُ: رَجُلٌ بَرٌّ وبارٌّ، وبَرِرْتُ والِدي، وبررْتُ في يَميني[2]، والبِرُّ: الصِّدْقُ والطّاعةُ، وبَرَّ في يَمينِه يَبَرُّ، إذا صَدَقَهُ ولَم يَحْنَثْ، وبَرَّ رَحِمَهُ يَبَرُّ إذا وصَلَهُ، ويُقالُ: فلانٌ يَبَرُّ رَبَّهُ، أَي: يُطيعَهُ، ورجل بَرٌّ بذي قَرابَتِه وبارٌّ مِنْ قَوْمٍ بَرَرَةٍ وأَبْرارٍ[3]، والمُراد في الآية: وصْفُه بأنّه كان واسعَ الأخلاقِ، كريمًا محسنًا لوالديه[4]، صادقًا في محبّته لهما.

2) ﴿جَبَّارًا﴾: (جبر) أَصْلٌ وهوَ جِنْسٌ مِنَ العَظَمَةِ والعُلُوِّ والاسْتِقامَة، فالجَبّارُ: الَّذي طالَ وفاتَ اليَدَ[5]، والجبّار في صفة الإنسان يقال: لِمَن يَجْبُر نقيصتَه بادّعاء منزلةٍ مِنَ التّعالي لا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 21.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (برر).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 179.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبر).

يَستَحِقّها، وهذا لا يقال إلّا على طريق الذّمّ، كقوله ﷻ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: 15]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم: 32]، وقولِه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: 35]، أي: متعالٍ عن قبول الحَقّ والإيمانِ له، يقال للقاهِرِ غيرَه: جَبّارٌ، نحو: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: 45][1]، والمُراد في الآية التّكبُّر والعُقوقُ، أي: لم يكن مُتَكبّرًا عاقًّا لوالديه، ولا مُتطاوِلًا على الخَلْق[2].

3) ﴿عَصِيًّا﴾: عَصَى عِصْيانًا: إذا خرج عنِ الطّاعة، وأصله: أن يتمنّع بعَصاهُ، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121][3]، والعِصيانُ: خِلافُ الطّاعَة، عَصى العبدُ رَبَّهُ: إذا خالَفَ أَمرَه، وعَصَى فُلانٌ أَميرَه يَعْصيه عَصْيًا وعِصْيانًا ومَعْصيَةً إذا لَم يُطِعْهُ، فهوَ عاصٍ وعَصيٌّ، ويُقالُ للجَماعةِ إذا خَرَجَتْ عَنْ طاعةِ السُّلْطان: قَدِ اسْتَعْصَتْ عليْه[4]، والمراد في الآية: أنّه لم يكن مُخالفًا أمرَ اللّه تعالى[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

برّ الوالدين عنوانٌ لمكارم الأخلاق

في هذه الآية يخبر النّظمُ الجليل أنّ اللّه تعالى أثنى على يحيى ﵇، بأن جَعلَهُ بارًّا بوالديه، مسارعًا في طاعتهما ومحبّتهما، غيرَ عاقٍّ لهما، وأنّه كذلك لم يكن مُتكبّرًا عن طاعة ربّه، ولكنّه كان متواضعًا مُتذلّلًا للّه ولوالديه، يَأتَمِر لما أُمِرَ به، وينتهي عمّا نُهي عنه، لا يَعْصي ربّه، ولا والديه[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (جبر).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 393، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 88.
(3) الرّاغب، المفردات: (عصا).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عصا).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 393.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 160، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 306.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَبَرَّا﴾:

شِدّة العلاقةِ بينَ التّقوى والبِرّ

عطف النّظمُ الجليل وصفَ البرِّ على صفة التّقوى[1] في قوله تعالى: ﴿وَبَرَّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾؛ وذلك للدّلالة على تمكّنه من هذا الوصف؛ فكما أكّد اتّصافه بالتّقوى بأن وصَفَه بفعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، عطف على ذلك الوصف المَكين فيه صفةَ البِرّ بالوالدَين؛ للدّلالة على تمكّنه من برّ والديه[2].

وممّا يُذْكَر في سِرّ عطفِ البِرّ على التّقوى: أنّه يتضمّنُها افتراضًا لا فِعلًا؛ فقد يتّقي المَرءُ ولكن يفارقُه حُسْن التّوفيق بأن يكون بارًّا بوالديه، فعطف النّظمُ الجليلُ البرَّ هنا للإشارة إلى أنّه قد تحقّق بكلّ صفات التّقوى، وخَصّ من ذلك البرّ بالوالدين؛ للدّلالة على أنّه كان في الغاية القُصوى مِن برّ الوالدَين.

دلالةُ التّعبير بالاسميّة:

بِرُّه بوالديه صفةٌ ثابتة لا تزول عنه

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنِ اتّصافه ببرّ الوالدَين اسمًا لا فعلاً، في قوله تعالى: ﴿وَبَرَّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ دون: (يَبرّ والديه)؛ للدّلالة على تمكّنه مِن هذا الوصف؛ لأنّ التّعبير بالجملة الاسميّة يدلّ على ثبوت المعنى فيه ورسوخه، كما أنّها تدلُّ على تأكيد المضمون، فهو كان كثيرَ البرّ بهما، والإحسانِ إليهما على وجه التّأكيد والتّحقيق.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾:

استحقاقُ والديه البرّ بحُكم الولادة

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الوالدَين دون الأبوَين في قوله تعالى: ﴿وَبَرَّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾؛ للدّلالة على أنّ أبويه هما والداه، فليس كلّ أبٍ والدًا، فذَكر الوالدَين للدّلالة على أنّهما والداه وأنّه مِن صلبهما، فالأبُ في الأصل اللّغويّ يَدُلُّ على التَّربيَةِ والغَذْوِ، أَبَوْتُ الشَّيْءَ آبوهُ

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 280.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 77.

أَبَوًا: إِذا غَذَوْتُهُ، وبذلِكَ سُمّيَ الأَبُ أَبًا[1]، أمّا الوالِدُ ففي الأصل اللّغويّ هوَ دَليلُ النَّجْلِ والنَّسْلِ، وتَوَلَّدَ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ: حَصَلَ عَنْهُ[2]، وعلى ذلك: فكلُّ والدٍ يُطلق عليه أب، وليس كلّ أبٍ يُطلَق عليه والد.

دلالةُ الواو في: ﴿وَلَمْ﴾:

التّأكيد على صفة البرّ والحنان في يحيى عليه السلام

عطف النّظمُ الجليل انتفاءَ صفةِ التّكبّر والعُلوّ في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، على صفة التّقوى والبرّ، المُثْبتة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾[3]، تأكيدًا لصفة البرّ والحنان اللّتين امتنّ اللّهُ بهما عليه، ويلزم منهما أنّه لا يتّصف بوصف العُلوّ والاستكبار والتّعاظُم والعقوق، بأيّ حالٍ مِنَ الأحوال.

سِرُّ النّفي بـ: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾:

انتفاءُ التّكبّر والعقوق عنه انتفاءً فطريًّا

آثَرَ النّظمُ الكريم النّفيَ بأسلوب نفيِ الكونِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾؛ لما في نفي الكونِ من دلالةٍ على تأكيد انتفاءِ الوصف، فنَفْيُ الصّفةِ بهذا الأسلوبِ يَدُلُّ على انتفاء وجودها مِنَ الأصل، فصِفةُ الجبّار والعصيان منتفيَةٌ عنه منذ وجوده، وهذا النّفيُ يتناسَب مع ما منحَهُ اللّهُ تعالى مِن حنان وزكاةٍ وتقوى، فلم يبقَ فيه مِن هوى النّفس وشهواتِها ما يكون بسببه عاصيًا غيرَ مطيعٍ لمولاه.

سِرُّ اختيار نفي صفة الجبروت:

آثَرَ النّظمُ الكريم نفيَ صفةِ الجبروت في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ دون غيرها؛ وذلك اعتبارًا لما تقدّم مِنَ الوصف الدّالّ على الرّحمة والرّقّة واللّطف في التّعامل مع والديه ومعَ الخَلْق، ونقيضُ ذلك أن يكون متّصفًا بالعُلوّ والتّكبّر، فنفى عنه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبو).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولد).

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 280.

الصّفةَ التي تدُلّ على نقيض ما وهَبَه اللّهُ تعالى مِنَ الحنان والزّكاة، تأكيدًا لصفات الحنان والرّحمة؛ فهو ﷺ يُؤلّف ولا يُرَهّب.

سِرّ وصفِه عليه السلام بنفي التّجبّر:

نفيُ التّجبّر يَدُلّ على ثبوت التّواضُع

مدح القرآنُ الكريم يحيى عليه السلام بنفي التّجبّر في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، مع أنّ المُراد وصفُه بالتّواضع ولينِ الجانب؛ لأنّ رأسَ العباداتِ معرفةُ الإنسان نفسَه بالذّل، ومعرفةُ ربّه بالعَظَمة والكمال، ومَن عَرَف نفسَه بالذّلّ وعَرفَ ربَّه بالكمال، كيف يَليق به التّرفُّع والتّجبّر؟ لذلك نفى عنه هذه الصّفةَ السّلبيّةَ ليجمعَ له صورَ التّواضعِ والانكسارِ معَ ربّه ومعَ قومِه[1].

دلالةُ الجمع بين نفي التّجبّرِ والمعصية:

مع كونه رقيق الطّباع فإنّه شديدٌ في الحَقّ بلا معصية

جمع النّظمُ الجليل بينَ الوصفين في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ بلا عطف، فجعل الوصفَ الثّاني قيدًا للأوّل دون أن يعطفَه؛ إشارةً إلى أنّه قد يكون جبّارًا، والمُراد الشّدّة في تطبيق حدودِ اللّه على مَن يستَحِقّ ذلك، وهو يفعل ذلك مطيعًا للّه تعالى، وليس عاصيًا، فهو قائمٌ بحقوق اللّه جل جلاله، وحقوقِ العِباد على ما ينبغي[2].

بلاغةُ نفي المعصية في: ﴿عَصِيًّا﴾:

عصمةُ يحيى عليه السلام مِن ارتكاب المعصية

آثَرَ النّظمُ الكريمُ نفيَ المعصية بصيغة المبالغة (عصيّ)، دون اسمِ الفاعل (عاصٍ) في قوله تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾؛ مبالغةً في النّفي، أي: لم يكن عاصيًا بأيّ وجهٍ مِنَ الوجوه، وليس المُرادُ نفيَ المبالغة[3]؛ فنفيُ المبالغةِ يَؤولُ إلى أنّ قليل المعصية ليس منفيًّا، ويكون المنفيُّ الإكثارَ والمبالغةَ في العصيان، وهذا خِلافُ المُراد مِن بيان شِدّة تقواه.

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 199.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 179.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 393.

دلالةُ تقديم ﴿جَبَّارًا﴾ على ﴿عَصِيًّا﴾:

قدّم النّظمُ البليغ نفي صفة الجبّار على صفة العصيان في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾؛ لأنّ الجبروت أعلى في رُتبة السّوء مِنَ المعصية، فالعصيانُ نقيضُ الطّاعة، أمّا الجبروتُ فهو مِنَ الاستعلاء والتّعالي، ورأسُ الذّنوبِ والضّلالِ الاستكبارُ، فكان تقديمُ صفةِ الجبروت أبلغَ في الثّناء عليه، بتعجيل وصْفه بالخُلوّ مِن صفات السّوء والاستكبار والعصيان.

نـفـيُ صـفـةِ الـجـبروت يـتـضـمّـن نـفـيَ سواها

سِرّ اختلاف التّعبير: ﴿عَصِيًّا﴾، و﴿شَقِيًّا﴾:

النّاظر في هذه الآية القرآنيّة الواردة في قصّة يحيى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يجدُ تشابهًا لما سيأتي مِن قصّة عيسى عليه السلام، حيثُ قال جلّ شأنُه: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢﴾ [مريم: 32]؛ حيثُ نفى المعصيةَ في قصّة يحيى عليه السلام، ونفى الشّقاء في قصّة عيسى عليه السلام، فما السرُّ في ذلك، وما علته؟

نفيُ المعصيةِ تزكيَةٌ للنّفس، لا يَـلـيـق بـالـصّـالـحـين وصْفُ أنفسِهم بها

جوابه: أنّ الحديثَ في سياق قصّة يحيى كان إخبارًا مِنَ اللّه تعالى عن يحيى، ببركتِه وسلامِه عليه، وأمّا الحديثُ في قصّة عيسى عليه السلام فهو إخبارُ عيسى عليه السلام عن نفسه، فلمّا كان حديثًا عن نفسه لم يكن مناسبًا أن يزكّي نفسَه بنفي المعصية عنه؛ أدبًا مع اللّه تعالى، بل نفى عن نفسِه صفةَ الشّقاء، لتُناسِبَ نفيَ عقوقِه مع أمّه[1].

التّشابُهُ اللّفظيّ:

تشابهت هذه الآية: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، مع قوله تعالى في قصّة عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢﴾ [مريم: 32].

والنّاظر في الآيتين يجد تشابهًا واضحًا بينهما في المعنى، مع

(1) ابن جَماعة، كشف المعاني، ص: 246 - 247.

اختلاف الألفاظ في التّعبير؛ ففي قِصّة يحيى كان وصفُه ببرّ والديه، وفي قصّة عيسى عليه السلام كان الوصفُ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: 32]، وأمرُ ذلك واضحٌ؛ لأنّ يحيى جاء بطريقٍ طبيعيٍّ مِن أبٍ وأُمٍّ مع تأخّر الإنجاب؛ لذلك قال: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ أمّا عيسى عليه السلام فجاء بطريق المعجزة مِن أُمٍّ بلا أب؛ فناسب التّعبير بقوله: ﴿بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: 32]، وسبحان من يقول للشّيء كن فيكون.

أمّا عن سبب اختلاف الوصف في كلٍّ منهما؛ حيثُ وصفَ يحيى بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، ووصفَ عيسى بقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم: 32] مع اتّحاد الثّناء عليهما؛ لأنّ الله تعالى مدح يحيى بقوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾؛ فهو وصفٌ يدلّ على تمكّنِ التّقوى فيه بكلّ وجوهها، ومَن تمكّن مِنَ التّقوى لا يوصَف بالمعصية ولا بالتّقصير؛ فناسبَ نفي المعصيةِ بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، وهذا المعنى أَكّده قولُه تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ في سورة آل عمران [39]، والمرادُ: أنّه ممنوع مِنَ المعاصي.

أمّا قولُه تعالى في حقّ عيسى عليه السلام: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم: 32]؛ فمَلْحوظ فيه ما وقع مِن أتباعِه مِنَ الجريمة الكبرى بقولهم: (عيسى ابن الله) تعالى اللّهُ عن ذلك؛ فاستحَقّوا الوصفَ بالشّقاء لمقالتهم تلك، ولمّا كان عيسى عليه السلام معصومًا مِن ذلك، ولم يَرضَ بما وقع مِن أتباعه وتبرّأ منهم، قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 117]؛ لذلك ناسب التّعبير بقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم: 32](1).

وممّا يُذْكَر في سِرّ ذلك أيضًا: أنّ ما ورد في حَقّ يحيى عليه السلام إخبارٌ مِنَ الله تعالى بتزكيته؛ أمّا ما ورد في حَقّ عيسى عليه السلام فهو إخبارٌ منه عن نفسه، فناسب عدم التّزكية تأدّبًا مع الله(2).

ومِن مواطن اختلاف التّعبير في الآيتين أنّه مع يحيى قال: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾، ومع عيسى قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي﴾ [مريم: 32]، وسببُ ذلك: أنّه في قِصّة يحيى عليه السلام، عبّر عن صفات الإيجاب بـ ﴿وَكَانَ﴾؛ لذلك ناسب التّعبيرُ عن صفات السّلب بـ ﴿وَلَمْ يَكُن﴾، وفي قصّة عيسى عليه السلام، عبّر عن صفات الإيجاب بقوله: ﴿وَجَعَلَنِي﴾ [مريم: 31]؛ لذلك ناسب التّعبيرُ عن صفات السّلب بقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي﴾ [مريم: 32].

---

(1) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 325.
(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 140.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البرّ والإحسان:

الإحسان خُلوّ العمل مِنَ التّقصير، والبرّ الصّدقُ في المَحبّة

الإحسان مِنَ الحَسَن، وأصلُه شَجَرٌ مُصطّفٌّ بكثيب الرّمل، فالحَسَن هو الشّجَر، سُمّي بذلك لحُسْنه، والحَسَنة جبلٌ أملس ليس به صَدعٌ، والحُسْنُ: ضِدُّ القُبْح ونَقيضُهُ[1]، فالحَسن والإحسان والحسنة وغيرها، هو مَجيء الشّيءِ على صفة النّقاء في بابه، وخُلوّه مِن مخالطٍ شائب، فهو خُلوص الشّيء مِن كلّ ما يَعيبه، فيكون صافيًا نقيًّا في الشّكل والقول والعمل، فالحَسَن يخلو مِنَ التّقصير، والعيب[2].

أمّا البرّ: فأَصْلُهُ الصِّدْقُ في المَحَبَّةِ[3]، والبِرُّ: الصِّدْقُ والطّاعةُ، وبَرَّ في يَمينِه يَبَرُّ: إذا صَدَقَهُ ولَم يَحْنَثْ[4]، وقد آثَرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالبرِّ هنا؛ لأنّ المُراد الثّناءُ عليه بأنّه كان صادقًا في مَحبّته، فقد يُحْسِن الإنسانُ من غير أن يكون مُحِبًّا لِمَن يُحْسِن إليه، أو يتظاهر بذلك، فلمّا عبّر بالبرّ بيّن ذلك أنّه مُحْسِنٌ مُحِبٌّ لهما بصِدق.

الوالدَين والأبوين:

الأبُ: مِن التّربيّة والتّعهّد، والوالِد: المُنجِبُ

الأبُ مَن أصلهُ يَدُلُّ على التَّرْبِيَةِ والغَذْوِ، وأَبَوْتُ الشَّيْءَ آبوهُ أَبْوًا: إذا غَذَوْتُهُ، وبِذَلِكَ سُمّيَ الأَبُ أَبًا[5].

أمّا الوالِد فمِن (وَلَدَ)، والأصلُ هوَ دَليلُ النَّجْلِ والنَّسْلِ، وتَوَلَّدَ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ: حَصَلَ عَنْهُ[6].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(2) الشّمريّ، ألفاظ الإتقان والإحكام في القرآن الكريم، بحث في الفروق الدّلاليّة، مجلة الدّراسات الشّرقية، جامعة إسطنبول، العدد 39 لسنة 2021، ص: 116.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برّ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (برر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولد).

فالأبُ لا يُشتَرط أن يكون هو الوالِد، والوالِدُ هو مَن أنجب الابنَ، وبناءً على ذلك: يوجد فرقٌ بين الوالدَين والأبوَين مع اشتراكهما في المعنى العامّ مِن ناحية النّسب والقَرابة، لكن يفترق التّعبير بالأبِ عنِ الوالد في دلالته على الأجداد، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [يوسف: 38]، ودلالتُه على الرّعاية والتّربية؛ بخِلاف الوالِد فلا يَدُلُّ إلّا على الأب المباشر الذي أنجبه، يُؤكّد ذلك أنّ لفظ الوالد لم يَرِد في القرآن الكريم مجموعًا ممّا يدُلّ على أنّه مقصور على الأبِ المباشر، وفي الآية الكريمة عبّر بالوالدين دون الأبوين للدّلالة على أنّهما والداه، تصديقًا للواقع.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

العاقبة الحسنة ليحيى عليه السلام

بعد أن بيّن النّظمُ الجليل - فيما سبق - بعضَ صفاتِ يحيى التي منحها اللّهُ إيّاه تفضّلًا ومِنّة، جاءت هذه الآيةُ بختام القصّة لبيان العاقبة الحَسَنة التي سيلقاها يومَ العَرْض على اللّه تعالى(1).

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنّه بعد أنْ ذَكَر تلك الصّفاتِ والأعمالَ الصّالحةَ الحسنةَ، ذَكر اللّهُ تعالى جزاءَ ذلك الصّلاحِ في الدّنيا وفي الآخرة، فقال جلّ شأنه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَلَٰمٌ﴾: (سلم) أصلٌ يدُلّ على الصِّحَّةِ والعافيَة؛ فالسَّلامَةُ: أن يَسلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأَذى، واللّه جَلَّ ثَناؤُهُ هوَ السَّلامُ؛ لسَلامَتِه مِمّا يَلْحَقُ المَخلوقينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ(3)، والسِّلْمُ والسَّلامَةُ: التّعرّي مِنَ الآفات الظّاهرة والباطنة، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ [الصّافات: 79]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠﴾ [الصّافات: 120]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصّافات: 109]، كلّ هذا تنبيهٌ مِنَ اللّه تعالى أنّه جعلهم بحيث يُثْنَى عليهم، ويُدْعَى لهم(4)، والمُراد به في الآية: "السّلامة والأمان مِنَ الآفات، وفيه معنى التّحيّة والتّشريف"(5).

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 22.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 39.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 88.

2) ﴿يُبۡعَثُ﴾: (بعث) أَصْلٌ يدُلّ على الإثارَةِ، ويُقالُ: بَعَثْتُ النّاقَةَ: إذا أَثَرْتَها[1]، بَعَثْتُهُ فانْبَعَثَ، ويختلف البعثُ بحسب اختلاف ما عُلِّق به، فبَعَثْتُ البَعيرَ: أثرتُه وسيّرتُه، وقولُه ﷻ: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]، أي: يُخرجُهم ويُسَيّرُهم إلى القيامة، فالبعثُ ضربان: بَشريٌّ، كبعث البعير، وبعثِ الإنسانِ في حاجة، وإلهيٌّ يختصّ به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحدٌ، وهو إحياء المَوتَى، كقوله جلّ شأنه: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الرّوم: 56]، يعني: يوم الحشر[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دوامُ الأمان في كلّ أطوار الحياة مِن لطيف كَرَمِ الله

يُخبر النّظمُ الجليل في هذه الآية أنّ اللّه تعالى قد منّ عليه بالأمان في أطوار حياته، وأنّ الإكرام مرافقٌ له في كلّ ذلك، فله أمانٌ مِنَ اللّه يومَ وُلِد، مِن أن ينالَه الشّيطانُ مِنَ السّوء، بما ينال به بني آدمَ، وأمانٌ مِن اللّه تعالى ذَكَرُهُ له مِن فتنة القبر وعذابه، وأمانٌ مِن هول البعث، فهو آمِنٌ مِن عذاب اللّه يوم القيامة، يومَ الفَزَعِ الأكبر، فلا يَروعُه شيءٌ، أو يُفْزِعُه شيءٌ ممّا يُفْزِعُ الخَلْقَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾:

استمرارُ إكرام الله ليحيى عليه السلام

عطف النّظمُ الجليل السّلامَ في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ على قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾؛ تبييناً لكرامة هذا النّبيِّ الكريم عليه السلام عند اللّه تعالى[4]، فبعدَ إيتاءِ الحُكم في صباه، بيّن أنّه قد حَفّه السّلامُ مِنَ اللّه تعالى منذ يوم ولادتِه، ورافقَتْه يومَ موتِه، وستَحُفُّه يومَ يُبعث في الدّار الآخِرة، وفي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(2) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 160.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 77.

الجمع بينَ هذه الصّفات دليلٌ على استمرار تكريم اللّه ليحيى عليه السلام، بمُداوَمة العنايةِ الرّبانيّة له في كلّ أطوار حياته.

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾:

كمالُ الحياةِ في السّلامة مِنَ الأذى والضّرر

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ السّلامِ دونَ التّحيّة في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ للدّلالة على أنّه سَلِم من كلّ سوء منذ يوم ولادته[1]، كما أنّه يَسلَم ممّا يُسيء إلى دينه ومُعْتَقدِه يومَ يموت وإن كان قد قُتِل، فإنّ دينه سَلِم، ويَسْلَم كذلك مِن أهوال يوم البعث، فتحُفُّه السّلامةُ من كلّ جانبٍ في كلّ أطوار حياته؛ لذلك كان التّعبير بالسّلام هو الأَوْلَى مِنَ التّحيّة، لما يَحملُه السّلام من معنى الأمان في هذه المواطن.

دلالةُ التّنكير في: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾:

تفخيمُ السّلام وتعظيمُه

عبّر النّظمُ الجليل عنِ السّلام بصيغة التّنكير في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ دونَ التّعريف، كما في قصّة عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ [مريم: 33]؛ للدّلالة على فخامة هذا السّلام وتعظيمه، فهو سلامٌ يَحُفّه منذ يومِ ولادته - سلامٌ ليس كأيّ سلام - يُرافقُه منذ ولادته، وفي مَجرى حياته، ويومَ موته، ويومَ بَعْثِه في الحياة الآخِرة، ولأنّه مِنَ اللّه، والقليلُ مِنَ اللّه كثير، بخِلاف ما ورد مع عيسى عليه السلام بالمعرفة ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ [مريم: 33]؛ لأنّه صادرٌ مِن عيسى عليه السلام، والفرقُ بينَهما كبير، وممّا يُذْكَر في سِرّ ذلك أيضًا: أنّه يمكن أن يقال في سِرّ التّنكير: لمّا قُتِل يحيى عليه السلام لم يكتَمِل أَمرُ السّلام معه، فناسَبَ التّعبير بالنّكرة.

دلالةُ تقديمِ ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ على الجارّ والمَجرور:

سلامُ اللّه تعالى على عبده مُقدّم على غيره لفخامته

قدّم النّظمُ الجليلُ لفظَ السّلامِ على شِبه الجملة في قوله تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 180.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ تفخيمًا لشأن السّلام واهتمامًا به، فإنّ الحديث إنّما هو عنِ السّلام، فبدأ به وقَدّمه لينبِّهَ عليه وعلى أَهمّيّته.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّة في: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾:

سلامُ الله تعالى علـى عبـده لا يَزول

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنِ الدّعاء إليه بالسّلامة بالجملة الاسميّة دون الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ لإرادة الدّوام والثّبوت[1]، وهي كالخاتمة للكلام السّابق، وفي ذلك تأكيدٌ للمعنى وتقويةٌ له، وللدّلالة على أنّ السّلام ثابتٌ عليه لا يزول بتغيّر الزّمان، فهو حُكمٌ مِنَ اللّه تعالى، أنّى لعارض الزّمن أن يُؤَثّر فيه.

سِرُّ تقييد السّلام بيوم ولادته:

عنايةُ الله تَحُفُّه مِـن لـحـظة ميلاده

قيّد النّظمُ الجليل السّلامَ بكونه حاصلًا يومَ ولادته، في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾؛ للدّلالة على أنّ رعاية اللّه تعالى له حَفّتْهُ منذ يوم ولادته، وفي ذلك تكريمٌ له مِن أن ينالَه الشّيطانُ بسوءٍ كما ينال بني آدمَ، فحَفِظَهُ "ممّا يَلْحَقُهم عند الولادة وما بعدَها، في شيءٍ مِن أمر الدّين"[2].

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَيَوۡمَ﴾:

نـهـايـةُ سلامةِ الـدّنـيـا تنتهي بـبـدايـة سـلامِ حياة البرزخ

عطفَ النّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ على يوم ولادته في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾؛ للدّلالة على أنّ موته مشمولٌ بالسّلامة، فهو قد سَلِمَ مِن كُرَبِ الموت وما بعدَه[3]، ويَدُلّ على أنّ رعاية اللّه تعالى له ممتدّةٌ لا تنقطع وإنِ انقطعت حياتُه، وهذا مِن جليل الإكرام، وبليغِ الإنعام.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 393.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 180.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 180.

سِرّ تخصيصِ السّلامِ بقوله: ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾:

خصوصية حالته عند الموت، وسلامته من عذاب القبر

خَصّ القرآنُ الكريم يومَ الموتِ بالسّلام في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾؛ لأنّه يرى أشياءَ لا عهدَ له بها، وأحكامًا لم يعرفْها مِن قبل؛ لذلك كان الامتنان بالسّلام، ويجوز أن يكون المُرادُ السّلامَ مِن عذاب القبر.

سِرُّ تكرارِ ﴿وَيَوۡمَ﴾:

يومُ موتِه كيوم ولادتِه، يَسْلَم فيهما مِن عوارض السّوء

كرّر النّظم الجليل لفظ ﴿وَيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ للدّلالة على أنّ يوم موته مستقلٌّ بالسّلامة الخاصّة به، فهو إنشاءٌ لتسليم جديدٍ غيرِ متعلّقٍ بالسّلامة التي رافقته منذ يوم ولادته، فهي سلامةٌ مِن شأنها أن تعصمَه مِنَ السّوء في شأن الدّين، أمّا تلك السّلامة التي رافقته منذ يوم ولادته فهي تحفظه مِنَ الضّرر والأذى الذي يَضُرّ الحياة.

سِرُّ التّعبيرِ بالموت:

لا تنفكّ مفارقةُ الحياةِ عن كونها موتًا

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الموت دونَ الوفاة في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ لأنّ الوفاة تدلّ على استيفاء الحياة، وأنّه توفّي بعمره بلا سبب، ولمّا كان يحيى عليه السلام قد قُتِل قتلًا لم يناسب أن يعبّر عن ذلك بالوفاة، فعَبّر عنه بلفظ الموت الدّالّ على مُطلق المَوت.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارع: ﴿يَمُوتُ﴾:

استحضارُ الهيئة التي مات عليها يحيى عليه السلام

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ استحضارًا لتلك الحالة التي مات فيها[1]، والفعلُ المضارع يَدُلّ على تحريك المَشهد وتصويره، فهو يستجلب صورةَ موتِه، ويُقَرّر أنّ ذلك وقع مع مرافقة السّلام له، للدّلالة على أنّ السلّامة في شأن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 78.

الدّين بالحفاظ على مبادئه وتعاليمه، وإن حصل الموتُ بسببها فهي سلامةٌ له مِنَ السّوء بالتّخلّي عنِ الدّين.

دلالة العطفِ في: ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾:

من عظيم الإنعام السّلامة من أهوال يوم الحساب

عطف النّظمُ الجليل قولَه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ﴾ على يوم ولادته في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ للدّلالة على أنّه آمِنٌ يومَ البعث، ولا تنفكّ عنه السّلامةُ التي أمرَ اللّه تعالى بها له، فهو يسلم في ذلك اليوم مِن كلّ ما يُخاف منه[1]، وفيه دليل على دوام إنعام اللّه تعالى عليه بالرّعاية، وأنّ تلك الرّعاية والاعتناء لا ينقطع عنه في كلّ أطواره.

دلالة تكرار لفظ ﴿وَيَوۡمَ﴾:

كلّ يومٍ مِن تلك الأيّام مكينٌ مِنَ السّلامة

كرّرَ النّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿وَيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ للدّلالة على استقلال كلّ يومٍ مِن تلك الأيام بسلامٍ مختصّ به، مناسبٍ له، تأكيدًا للسّلامة، ومبالغةً في شأنها؛ مراعاةً لِعظَم كلّ يوم مِن هذه الأيام؛ فهو يحمل عنوانًا مستقلًّا لهذه المراحل.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يُبۡعَثُ﴾:

استحضارُ مشهدِ صورة البَعْثِ

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع الدّالّ على التّجدّد والاستمرار والمزاولة في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ تصويرًا لبعث الأموات، فيُحيل الفعلُ على استجلاب الصّورة، فكأنّ بعثَهُ حدثٌ مشاهَدٌ، يُظهر كيف ينتفض مِن تحت التّراب، ويعود للحياة.

دلالةُ بناء الفعل ﴿يُبۡعَثُ﴾ لما لم يُسَمّ فاعلُه:

للعِلْم بفاعله

عبّر النّظمُ الجليل عنِ البعث بالفعل المبنيّ للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ لأنّ باعثَ الموتى إلى الحياة الثّانية معلومٌ ظاهرٌ، فعَدمُ ذكرِه اكتفاءً بمعرفته، طلبًا للإيجاز في الألفاظ، كما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 180.

أنّ الاهتمام بالحديث كائنٌ عنِ السّلام عليه في ذلك يومَ البعث، لا بالنّظر إلى الباعِث ذاتِه.

دلالةُ تقييدِ البعثِ بـ: ﴿حَيًّا﴾:

الحياةُ الآخِرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون

قيّد النّظمُ الجليلُ البعثَ للحياة في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا﴾، ومعلومٌ أنّ بعث الأموات إنّما يكون للأحياء؛ فإنّما ذَكَره لبيان أنّها الحياةُ الحقيقة بالاهتمام، أي: هي الحياة التي ينتفع بها، كما أنّ فيه إجابةً لدعوة أبيه ﵇ في أن يكون رضيًّا[1]، ومن فائدة التّعبير بهذا الحال تأكيدُ البعثِ، وأنّ البعثَ متحقّقٌ بالجسم لا بالرّوح وحسب، كما أنّه يُنبّه على أنّه ﵇ مِنَ الشّهداء[2].

دلالةُ تخصيص هذه الأوقاتِ بالسّلام:

مَن سَلِم في مبتدأ أمره كان أجدرَ أن يسلَمَ مِن سواه

خَصّ النّظمُ الجليلُ هذه الأوقاتِ بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا﴾؛ لأنّها تُمَثّل أحوالَ بداية الأطوار؛ "طَوْرِ الوُرودِ على الدّنيا، وطَوْرِ الارتحال عنها، وطَوْرِ الورود على الآخرة، وهذا كنايةٌ على أنّه بمَحلّ العنايةِ الإلَهيّة في هذه الأحوال"[3]، فمَن سَلِمَ في بدايتها سَلِمَ ممّا يتبعها وما فيها من مهالك، وكان مِن غيرها أسلَم؛ لأنّها أصعبُ الأطوار[4]، فالعبدُ في هذه الأطوار أحوجُ ما يكون إلى رضا ربّه؛ لما فيه مِن ضعفٍ لقِلّة حيلته، وافتقاره إلى رحمة ربّه.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السّلامُ والتّحيّةُ:

التّحيّة مشتّقةٌ مِنَ الحياة، والسّلامُ مِنَ السّلامة والأمان

لفظُ التّحيّةِ أعمّ مِنَ السّلام؛ فيدخل فيها: حيّاكَ اللّهُ، ولكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 180.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 393.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 78.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 180.

البُشرى، ولقيتَ الخيرَ، ولا يقال لذلك سلامٌ، إنّما السّلامُ قولك: سلامٌ عليك[1]، والتّحية: (حيّاكَ اللّهُ) مشتقّة مِنَ الحياة، وقولُ المُصلّي في التَّشَهُّد: التّحياتُ للّه، معناه: البقاءُ للّه[2]، فالتّحيّة (حيّاكَ اللّهُ) هي دعاء بمعنى: أبقاكَ اللّه، وعَمَّركَ اللّه[3]، وأمّا التّحيّة بـ(السّلامُ عليكم) فمعناها: أمّنكم مِنَ العذاب والعاهة والأذى[4]، فآثَرَ في الآية الكريمة لفظَ السّلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ لأنّه لم يرِد أن يكون حيًّا، بلِ السّلامَةُ مِنَ الأذى والضّررِ وما يُناقِضُ الدّين.

الموتُ والوفاة:

المــوتُ ضِـدّ الحياة، والوفاة: استيفاءُ الأجلِ بتمامه

الموتُ يَدُلُّ على ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[5]، وهو ضِدُّ الحَياة[6]، وأمّا الوَفاةُ فهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام[7]، وتَوَفّي الميتِ اسْتيفاءُ مُدَّته - الّتي وُفيتْ لَهُ - وعَدَدِ أيامِه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنْيا[8]، وقد عُبّر عنِ الموت بالتَّوَفّي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: 42]، ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السجدة: 11][9]، فالإخبار في الآية بالموت دونَ الوفاة؛ للدّلالة على أنّه لم يَمُت على تمام حياته.

البعثُ والحَشْر:

البعثُ: إحياءُ الميّتِ، والحشر: جمعُ النّاسِ يومَ القيامة للحساب

"الحَشْرُ هو الجمع مع السّوق، والشّاهد قوله تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشّعراء: 36]، أي: ابعث مَن يجمع السّحرة ويسوقُهم إليك، ومنه: يوم الحشر؛ لأنّ الخَلْقَ يُجْمَعون فيه ويُساقون

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59.
(2) الخليل، العين: (حيو).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حيا).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 527.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(6) ابن منظور، اللّسان: (موت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(8) ابن منظور، اللّسان: (وفى).
(9) الرّاغب، المفردات: (وفى).

إلى الموقف"[1]، أمّا البعثُ فيُراد به إعادة الحياة، وهو يَدُلّ على الإِثارَةِ، ويُقالُ: بَعَثْتُ النّاقَةَ: إِذا أَثَرْتَها[2]، والبعث ضربان: بشريٌّ، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة، وإلهيٌّ يختصّ به الباري تعالى، ولم يَقْدِر عليه أحدٌ، وهو إحياء الموتى[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 144.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).

(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾

[مريم: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

طلاقةُ القُدْرة في الخَلْق بأسبابٍ وبغير أسباب

لمّا ذكر اللّهُ تعالى في الآيات السّابقة قصَّةَ زكريا عليه السلام وطلبِه الولدَ، وإجابةَ اللّه إيّاه رغمَ تَعَذّر أسبابِ الإنجاب مِن شيخٍ كبيرٍ وعَجوزٍ عاقر، وكان ذلك أمرًا يُتَعَجّب منه، جاءت هذه الآيةُ لتتحدَّثَ عمّا هو أعظمُ وأعجبُ في ولادة عيسى عليه السلام مِن أُمٍّ بلا أبٍ؛ فبينَ القِصّتين تشابهٌ في الغَرابة والعَجَب.

ومِن المناسبة أيضًا: بعد أن ذَكَر النّظمُ الجليلُ قِصّة زكريا عليه السلام، وأخبر أنّه قد وهبَه ولدًا في كِبَره وعُقْرِ زوجِه، أردف ذلك بذكر قِصّة مريمَ، وأخبر أنّها أنجبت ولدًا مِن غير أبٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡيَمَ﴾: اسم أمّ عيسى عليه السلام[1]، ومعناه بالعِبْرانيّة: خادمةُ اللّهِ، وأَمَةُ اللّهِ، أو المُحَرَّرَةُ[2]، وهي مريمُ ابنةُ عمرانَ، مِن سلالة داودَ عليه السلام، وكانت مِن بيتٍ طاهرٍ في بني إسرائيلَ، ونشأت نشأةً عظيمة، فكانت إحدى العابدات النّاسكات، وكانت في كفالة زوجِ أختِها زكريّا عليه السلام، ولها مِنَ الكرامات جليلةِ القَدْر ما أبهر أهلَها[3].

2) ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾: (نبذ) أَصلٌ يَدُلُّ على طَرْحٍ وإِلْقاءٍ، ونَبَذْتُ الشَّيْءَ أَنْبِذُهُ نَبْذًا: أَلْقَيْتُهُ مِنْ يَدي[4]، والنَّبْذُ: إلقاءُ الشّيءِ وطَرْحُه لقِلّةِ الاعتداد به، وانْتَبَذَ فلانٌ: اعتزلَ اعتزالَ من يَقلّ مبالاتُه بنفسه

(1) الرّاغب، المفردات: (مريم).
(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (مريم).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 23.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبذ).

فيما بين النّاس، قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ وقعد نَبْذَةً ونُبْذَةً، أي: ناحيةً مُعتَزلةً[1]، وانْتَبَذَ عَنْ قَوْمِه: تَنَحَّى، وانْتَبَذَ فُلانٌ إلى ناحيَةٍ أي تَنَحَّى ناحيَةً، أي: مُنفرِدٌ بعيد[2]، والمُراد به في الآية: "الانفراد، تَخَلّتْ للعبادة في مكانٍ ممّا يلي شرقيّ بيتِ المَقْدِس، أو مِن دارها، مُعْتَزِلةً عنِ النّاس"[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشّروع بقِصّة مريمَ، ونبئها العظيم

أمرَ اللّهُ تعالى في الكتاب بتِلاوة قِصّة مريمَ ونبئها العظيم، قائلًا: اذكر أيّها الرّسولُ الكريمُ في القرآن الكريم خبرَ مريمَ وقتَ اعتزالِها أهلَها في مكانٍ يلي شرقَ بيتِ المَقْدِس، فاتّخذت بينَها وبينَهم حجابًا وساترًا؛ للتّفرُّغ لعبادة ربِّها[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

الاشتراكُ في الغرابة والعَجَب في كلٍّ من قصّتي زكريا ومريم عليهما السلام

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ يجوز أن تكون عاطفةً لهذه الجملة على قوله جلّ شأنه: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ [مريم: 2] بتقدير: (اذكر)؛ فيكون العطفُ على هذا الفعل المُقدّر، ويكون هذا العطف مِن باب عطف القِصّة على القِصّة، مع اختلاف الجملتين؛ فيجوز عطفُ الإنشائيّة على الخبريّة[5]، ويجوز أن تكون هذه الجملةُ استئنافيّةً، خوطِبَ بها النّبيُّ ﷺ، وأُمِرَ بذِكر قِصّة مريمَ بعدَ قِصّة زكريا عليه السلام، لما بينهما مِن اشتباكٍ ومناسبةٍ وثيقة.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نبذ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نبذ).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 9.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 23، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 306.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 78.

دلالةُ التّذكيرِ بقصّة مريم إثرَ قصّة زكريا عليهما السلام:

طلاقةُ القُدْرة في الخَلْق بسببٍ وبغير سبب

أورد النّظمُ الجليل قصّةَ مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ بعد قِصّة زكريّا عليه السلام للمناسبة الظّاهرة بينهما، فإنّه قد أوجد الابنَ مِن أبوين في قصّة زكريّا رَغمَ تَعذّرِ أسبابِ الإنجابِ لِكِبَرِه ولِأنّ زوجه عاقر، وأمّا مع مريم عليها السلام فقد ولدت عيسى عليه السلام بلا أب، وقد ذكر هاتين القِصّتين مقترنتين في سورة آل عمران ومريم والأنبياء للتّقارب بينهما في المعنى، وللدّلالة على أنّ مِن أحسن طُرق التّعليم التّدرجَ بالانتقال مِنَ الأقرب مثالًا إلى الأصعب منه[1]؛ لذلك قدّم اللّهُ وِلادة يحيى على ولادة عيسى عليه السلام، وفي ذلك تذكيرٌ بكمال قُدرته تعالى على الخَلْق بأيّ كيفيّةٍ كانت، فهو الخلّاق القدير.

سِرُّ البَدءِ بقصّة يحيى قبلَ عيسى عليه السلام:

لا معقّب لأمر الله في الخلق، وقد بدأ بالمألوف، ثمّ ثنّى بغير المألوف

وبدأ بقصّة يحيى أوّلًا لأنّ خَلْقَ الولد مِن شخصين فانيين أقلُّ غرابةً مِن خَلْق الولدِ بلا أبٍ، فثنّى بقصة عيسى عليه السلام لأنها أغربُ مِن تلك[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ اللّه تعالى يخلق ما يشاء، تارةً بسببٍ قويٍّ، وتارةً أخرى بسببٍ ضعيف، وتارةً بلا سببٍ أصلًا[3].

سِرُّ التّعبير في قصّة مريم بـ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

تغيّر الأسلوب يَلفت النّظرَ ويثيرُ الاهتمام

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، دون ﴿ذِكۡرُ﴾ [مريم: 2] كما في قصّة زكريّا عليه السلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ [مريم: 2]؛ لأنّ قصّة مريم وعيسى عليهما السلام أغربُ مِن قصّة زكريّا ويحيى عليهما السلام، وقد أشار إلى ذلك بتغيير الأسلوب في

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 40 - 41.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 40 - 41.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 181 - 182.

السّياقين[1]، فإنّ تغيير الأسلوبِ يَلْفِت النّظرَ ويُثيرُ الاهتمامَ، وأنّ الخبرَ التّالي مغايرٌ لما قبلَه في عِظَم الشّأن.

دلالة افتتاح القصّة بفعل الذّكر:

تنبيه المتلقّين لعظم شأن القصّة التي ستتلى

افتتح النّظمُ الكريم القصّةَ بالأمر بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾؛ لزيادة الاهتمام بشأن القِصّة، وتشويقِ السّامعِ، ولَفتِ عنايتِه إلى أن يتدبّرها[2]، وفيه إشارةٌ إلى غرابة القِصّة، وأنّها جديرةٌ بالاهتمام والتّذكّر، لما فيها مِن دلائل بيّنةٍ، ومقاصد ساميةٍ في تغيير ما صار سائدًا قبلَ ميلاد عيسى عليه السلام، من قضية الإيمان بالأسباب والمُسبّبات، والعِلّة والمعلول، لدرجة أنّهم ادَّعوا أنّ الكون نشأ مِن منشئه على نظام العِلّة والمعلول؛ لذلك جاء ميلادُ عيسى ليَخْرِقَ نظامَ الأسبابِ والمُسَبَّبات، وليُعْلِنَ عن طَلاقة قُدْرته سبحانه وتعالى، وكلّ ذلك تستوحيه مِنَ التّعبير بالفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾، الذي يدُلّ على استدعاء الحقيقة الإيمانيّة في طلاقة قُدْرته سبحانه وتعالى، بعدَ أن غابت وضاعت وسطَ التّعلّق بالمادّيّات، وأنّهم لا يؤمنون إلّا بما هو موجود.

دلالةُ التّعبيرِ بشبه الجملة: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

شيوعُ ذِكْر قصّة مريم في كثير مِن آيات القرآن الكريم

قيّد النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ قصّةِ مريمَ عليها السلام بشِبه الجملة في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ تنبيهًا على أنّ ذِكْر هذه القصّةِ التي أُمِر رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم بذِكْرها، تَعَدّد وجودُها في كثيرٍ مِن آيات القرآن الكريم، في سورٍ عديدةٍ وليس في سورة واحدة، كالتي معنا (مريم)، وليس مجرّدَ ذِكْرِها وذِكْرِ فضلِها في كلامٍ آخَر مِن قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم[3]، فالحديثُ هذا لا يمكن أن يتغيّر؛ فهو إخبارٌ يقينيٌّ متواتِرٌ محفوظٌ بأمر اللّه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 79.

القرآن هو الكتاب الكامل

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

عرّف النّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾؛ لأنّه كتابٌ معهودٌ معروفٌ، وهو القرآن الكريم، فاللّام للعَهْدِ الذّهنيّ، فالكتابُ هو القرآن الكريم؛ فهو الكتابُ الكامل الذي إذا ذُكِرت كلمةُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لم تنصرِف إلّا إليه كمالًا؛ لأنّه كاملٌ في نسبته للّه تعالى، فلم يقع فيه تحريفٌ أو تبديلٌ كغيره مِنَ الكُتب السّماويّة، وكاملٌ في ما اشتمل عليه مِن شرائعَ وأحكامٍ وقَصَصٍ، ومنها هذه القِصّة.

ويجوز أن يكون المرادُ بالكتاب السّورةَ الكريمة، ويكون ذلك مِن باب المَجاز؛ لأنّ السّورةَ جُزءٌ مِنَ الكتاب؛ ولأنّ هذه السّورة الكريمة هي التي صُدِّرَت بقِصّة زكريا، المُستَتبِعَة لقِصّة مريمَ عليها السلام.

ذِكْرُ الأعيان إنّما يُرادُ منه ذِكْرُ قَصَصِهم وشأنِهم

بلاغة حَذْفِ المُضاف في قوله: ﴿مَرۡيَمَ﴾:

حَذَفَ النّظمُ الجليلُ المضافَ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، والتّقدير: نبأَ مريمَ، أو قِصّتَها، وإنّما كان هذا التّقديرُ لأنّ الذّكْرَ لا يتعلّق بالأشخاص والأعيان[1]، وفي هذا الحَذفِ إيجازٌ لظُهور المقصود مِنَ المَذكور، فليس المُرادُ ذِكْرَها بذاتها، بل ذِكْر شأنِها وما وقع لها.

تفخيمُ الوقتِ للحادثة العجيبة التي وقعت فيه

دلالةُ التّعبير بـ ﴿إِذِ﴾:

عبّر القرآنُ الكريمُ بـ ﴿إِذِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾؛ لتَعَدّدِ المُراد به؛ فيجوز أن يكون ﴿إِذِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ ظرفَ زمانٍ للفعل: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾، أو للمضاف المحذوف المقدّر بـ (نبأ) أو (قصّة)، على أن يكون ظرفًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 259.

لجميع الأحداث المَذكورة لاحقًا، فكلّها داخلةٌ في حيّز الظّرف[1]، كما أجازوا أن يكون اسمَ زمانٍ ليس ظَرفًا، بل يكون بدلَ اشتمالٍ مِن ﴿مَرۡيَمَ﴾، أي: اذكر زمنَ انتباذِها وما اتّفق لها حينَ انتبذت مِن أهلها ذلك المكانَ[2]، وإنّما كان المقصودُ مِن ذِكر مريمَ عليها السلام ذِكرَ وقتِها هذا، لأنّ أحداثَ القِصّة العجيبة وقعت فيه، وابتدأت[3]، ولهذا يظهر سِرّ التّعبير بـ ﴿إِذِ﴾ في تفخيم الوقتِ وتعظيمِه للحادثة الواقعة فيه، مِن أجل استحضارِ ذلك الوقتِ في ذِهْن السّامِع ومشاهدتِه؛ ليتَعَجّبَ منه[4].

سِرّ التّعبيرِ بالانتباذ:

لأنّـه اعـتـزالٌ يـحـمـل معنى طَـرحِ الإنـسانِ نفسَه عن أهله لعدم الاعتدادِ به

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالانتباذ في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنّه أُريدَ منه الاعتزالُ الذي يحمل معنى طَرحِ الإنسانِ نفسَه عن أهله لعدم الاعتدادِ به؛ فكأن مريمَ عليها السلام أرادت بذلك أن تطرحَ نفسَها بعيدةً عن أهلها، فاعتزلتْهُم وتَنَحَّتْ، وجلست في النّاحية الشّرقيّة للدّار، بدليل أنّها احتاجت إلى ضَرْب السّتر بينَها وبينَهم، وهذا المعنى يدُلّ عليه الانتباذُ دونَ البُعْدِ؛ لأنّ معنى الانتباذِ الطّرحُ والرّمي، فكأنّها ألقَتْ بنفسها في هذا المكانِ طَلبًا للخَلْوَةِ والانصراف إلى العبادة والطّاعة بالكلّيّة[5].

سِرُّ التّعبير بصيغة الافتعال في ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾:

تـكـلّـفـت واجـتـهـدت في الابـتـعـاد عـنِ الأهل

عبّر النّظمُ الجليلُ عنِ ابتعادها عن أهلها بالانتباذ بصيغة الافتعال، في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾؛ للدّلالة على تكلُّفِها ذلك، واجتهادِها لهذه العُزْلة، وطلبِها لها[6]، وفي ذلك إشارةٌ إلى شِدّة عُزْلَتِها عن أهلها.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 393.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 9.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 586.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 23.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.

دلالةُ تعلّق ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ بـ: ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾:

المقصود مِن خَلْوتها العبادة والانقطاع لله تعالى

علّق النّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ بشبه الجملة ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾؛ لبيان أنّ انتباذها لم يكن مِنَ البلدة التي فيها، بل كان مِن أهلها وحسب، فهي لم تُفَرِّد بعيدًا، فمقصودُ انتباذِها الخَلْوَةُ للعبادة، وأكثر مَن يُخالِطُ المرءَ أهلُه، فإذا طلب الخَلْوَة فيجب عليه العُزْلةُ مِن أهله، وقد أدركت ذلك فـ "اعتزلت وانفردت منهم، وأتت مكانًا شرقيًّا من بيت المَقْدِس، أو مِن دارها؛ لتتخلّى هنالك للعبادة"[1].

دلالةُ تقديم ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾:

تتحقّق الخَلْوَةُ باعتزال الأهلِ، لا بأهميّة المكان

قدّم النّظمُ الجليلُ شِبهَ الجملةِ مِنَ الجارّ والمَجرور: ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، على معمول الفعل ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، ولم يَقُل: (انتبذت مكانًا من أهلها)؛ لأنّ المقصودَ في الانتباذ هو اعتزالُ الأهلِ لا طلبُ المكان، فلو تحقّقتِ العُزْلةُ في البيت، أو في مكانٍ آخَر، فإنّه لا يَحْدُث فرقٌ؛ لأنّ المُراد هو العُزْلةُ مِنَ الأهل، لذا نَكّر المكانَ؛ لأنّ الميزة ليست به، بل باعتزال الأهل، فكان تقديمُ شِبه الجملةِ إظهارًا لشِدّة طلبِها الخَلْوة؛ للأُنس بذِكْر المولى الرّحيم، كما أنّه يحافظ على الفاصلةِ التي بُنِيَت على النّصب والتّنوين، فتكون متوافقةً معَ السّابق واللّاحق.

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿أَهۡلِهَا﴾:

تعلّقُ القلبِ بمولاه يَصرِفُه عن أقرب النّاس إليه

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الأهلِ إلى ضمير مريمَ عليها السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾؛ للدّلالة على أنّ قَصْدَها مِنَ الانتباذ والابتعاد هو الانقطاعُ عن أقرب النّاسِ إليها، لبيان شِدّة انصرافِها إلى عبادة ربّها في تلك العِزلة، فانقطاعُها عن أهلها يَدُلّ على ابتعادها عنِ النّاس جميعًا مِن باب أولى، ويُشير إلى أُنسِها بربّها، فاكتفت به عن الخَلْق والأهل جميعًا؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 259.

لذلك أغناها ربُّها وجعل رزقَها مِن عنده، وليس مِنَ البَشَر، ولمّا سُئِلَتْ عن مصدر رزقها: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 37].

دلالةُ التّعبيرِ بـ: ﴿مَكَانٗا﴾:

عدمُ تعلّق الغرضِ بتعيينه

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ المكان دون غيره كملجأ أو مَقرٍّ، في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾؛ لأنّ المكان هو مَوْضِعُ لكَيْنونةِ الشَّيْءِ فيه[1]، فهو يدُلّ على وجود الشّيء فيه وجودًا مطلقًا، فليس قصدُها الاستقرارَ أو اللّجوءَ والفِرار، فهي ليست هاربةً أو خائفةً، بل إنّما تبغي الاعتزالَ والتّفرُّدَ للخَلْوة والعبادة، وهذه تتحقّق بمكانٍ مطلقٍ لا بملجأٍ أو ملاذ.

سِرُّ تنكير ﴿مَكَانٗا﴾:

نكّرَ النّظمُ الحكيم لفظَ المكان في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾؛ لعدم أهميّة بيانِ الموضع في سياق القصّة، فنكّره إبهامًا له، وليس ثمّ غرضٌ يُفيده بيانُ المكانِ في مقاصد السّورة[2].

دلالةُ وصفِ المكان بالشّرقيّ:

مشرقُ الأنوار موئلُ الأرواحِ والأبصار

وصف النّظمُ الجليل المكانَ الذي انفردت به دونَ أهلها في قوله تعالى: ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ بأنّه كائنٌ في جهة الشّرق، وتبيين الجهة لا بدّ له مِن غرض؛ لأنّ انفرادها بالمكان المُفارِق لأهلها كافٍ في التّعبير، فلمّا وُصِفَ بكونه في ناحية الشّرق مِن أهلها فلا بدّ له مِن فائدة، وهي بيانُ أنها خَصّت جهةَ المَشرق لأنّها "مطالع الأنوار، وفي ذلك إشارةٌ إلى ما يأتيها مِنَ الرّوح الإلهيّ"[3]، فخُصّ الشّرقُ لأنّ قومَها كانوا يُعَظّمون جهةَ المَشرق، حيثُ تطلُعُ الأنوار[4]، ولأنّ جهة الشّرق أفضلُ الجهات، وفيه بشارةٌ وإشارةٌ بميلاد عيسى عليه السلام.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (مكن).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 80.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 23.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد الانفراد والانعزال وقعَ لقاءُ التّشريفِ والتّكريم

بعد أن ذكرتِ الآيةُ السّابقة الأمرَ بذكر نبأ مريم وتلاوته، وبيّنت أنّها انفردت عن أهلها في مكانٍ شرقيّ في ابتداء قصّتها، جاءت هذه الآيةُ ببيان ما جرى مِن أنّها تكلّفتِ اتّخاذَ أسبابِ تلك الخَلْوة، بأنِ اتّخذت حجابًا يسترها عنهم وعنِ النّاس - مِن باب أولى - لتَعبُدَ ربّها، ففاجأها المَلَكُ وتَمثّل لها بشرًا سَويًّا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجَابٗا﴾: (حجب) أَصْلٌ يدلّ على المَنْع، يُقالُ: حَجَبْتُهُ عَنْ كَذا، أَيْ: مَنَعْتُهُ[1]، والحَجْب والحِجاب: المَنْعُ مِنَ الوصول، يقال: حَجَبَه حَجْبًا وحِجابًا، وحِجاب الجَوْف: ما يَحجُبُ عنِ الفؤاد، وقولُه تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ [الأعراف: 46]، ليس يعني به ما يَحْجُب البصرَ، وإنّما يعني ما يمنع مِن وصول لذّة أهلِ الجنّة إلى أهل النّار، وأَذيّة أهلِ النّار إلى أهل الجنّة، وقال ﷻ: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشّورى: 51]، أي: مِن حيثُ ما لا يَراه مُكَلِّمُه ومُبَلِّغُه، والحاجبُ: المانِع عنِ السّلطان، والحاجبان في الرّأس لكونهما كالحاجبين للعين في الذّب عنهما[2]، والمُراد به في الآية أنّها جعلت بينها وبين أهلها ما يسترها في خلوتها مع ربّها[3].

2) ﴿رُوحَنَا﴾: (روح) أَصْلٌ يَدُلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرادٍ، وأَصْلُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجب).
(2) الرّاغب، المفردات: (حجب).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 9، والنّسفيّ، مدارك التنزيل: 2/ 329.

ذَلِكَ كُلِّه الرّيحُ، فالرّوحُ روحُ الإِنْسانِ، وإِنَّما هوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرّيحِ، والرّوحُ: جَبْرَئيلُ عليه السلام، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشّعراء: 193 - 194][1]، والرّوحُ يُذَكّر ويُؤَنّث، والجمع: أَرْواح، ويُسَمَّى القرآن روحًا، وكذلك جبريلُ وعيسى عليهما السلام[2]، وجُعِلَ اسمًا للجُزْء الذي به تحصل الحياةُ والتّحرّكُ، واستجلابُ المنافعِ، واستدفاعُ المَضارّ، وهو المَذكور في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]، وسُمّي أشرفُ الملائكةِ روحًا، نحو: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ﴾ [النبأ: 38][3]، والمُراد في الآية بالرّوح جبريل عليه السلام؛ لأنّ الدّين يحيا به وبوَحيه[4].

3) ﴿فَتَمَثَّلَ﴾: (مثل) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ للشَّيْءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أَيْ: نَظيرُهُ[5]، ومِثل: كلمةُ تَسْوِيَةٍ، يُقالُ: هَذا مِثْلُه ومَثَلُه، كَما يُقالُ: شِبْهُهُ وشَبَهُه، بمَعْنًى[6]، والمُمَثَّلُ: المُصَوّر على مثال غيره، يقال: مَثُلَ الشّيءُ، أي: انتصب وتَصَوّر، والتِّمثالُ: الشّيء المُصَوّر، وتَمَثَّلَ كذا: تَصَوّر، قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[7]، والمُراد به في الآية الكريمة: فتَصَوّر لها وتَشَبّه[8].

4) ﴿سَوِيًّا﴾: (سوي) أَصْلٌ يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ[9]، والسَّوِيُّ: ما يُصان عنِ الإفراط والتّفريط مِن حيثُ القَدْرُ والكيفيّة، ورجلٌ سَوِيّ: استوت أخلاقُه وخِلْقَتُه عنِ الإفراط والتّفريط[10]، وأَسْوَى الرّجلُ: إذا كانَ خَلْقُ ولدِه سَوِيًّا وخُلُقُه أيضًا، ولَمّا قالَ زَكَرِيّا لرَبِّه: اجْعَلْ لي علامَةً أَعلمُ بها وقوعَ ما بُشِّرْتُ به، قالَ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: 10]؛ أَي: تُمنَعُ الكلامَ وأَنت سَوِيٌّ لا أَخرسُ، فتَعْلَمُ بذَلِكَ أَن اللّه قَدْ وهبَ لَكَ الوَلَدَ، وقَوْلُه تَعالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ يَعْني: جبريل تمثّل لمَرْيَمَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (روح).
(3) الرّاغب، المفردات: (روح).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 9.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(7) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(8) الواحدي، البسيط: 14/ 214.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(10) الرّاغب، المفردات: (سوا).

وهيَ في غُرْفةٍ مُغْلَقٍ بابُها عليْها، محجوبةٌ عَنِ الخَلْق، فتَمَثَّل لَها في صورَةِ خَلْق بَشَرٍ سَويّ، والسَّويُّ: التّامُّ الَّذي قَدْ بَلَغَ الغايَةَ في شبابِهِ وتمام خَلْقِه وعَقْلِه[1]، وهذا المعنى هو المُراد في الآية الكريمة، أي: بَشَرًا معتدلًا تامًّا[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخَلْوةُ مع الله سبيلُ المِنَح والعطايا

يخبر النّظمُ الجليلُ أنّ مريم عليها السلام قدِ اتّخذَت مِن دون أهلِها ساترًا يسترها عنهم وعنِ النّاس، فأرسلنا إليها حين انتبذت مِن أهلها مكانًا شَرقيًّا، واتّخذَت مِن دونهم حجابًا، جبريلَ فتَشَبّه لها في صورة آدميٍّ سَويّ الخَلْق، في صورة رجلٍ مِن بني آدمَ، معتدلِ الخَلْقِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ التّعبيرِ بالفاء في قوله: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾:

سرعةُ المُبادَرة باتّخاذ أسبابِ الخَلْوة؛ شوقًا للأُنس بالمعبود

آثَرَ النّظمُ الكريم العطفَ بحرف الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾؛ لأنّها للتّرتيب والتّعقيب، ولبيان أنّها بادرت بالاجتهاد على إتمام ما انفردت لأجله، وهو الاستتار وتحقيقُ الخَلْوة، وهذا لا يتمّ إلّا باتّخاذ الحجابِ السّاتر، وقد فعلت ذلك على وجه الاهتمام والمتابعة والبِدار، تبيينًا لشِدّة شَغَفِها بعبادة الله تعالى.

دلالةُ التّعبير بالاتّخاذ في: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾:

التّكلّف في اتّخاذ المكان والحِجاب دليلُ الجِدّ والشّغف بالخَلْوة

عبّر النّظمُ الجليلُ عنِ استتارها مِن أهلها بالاتّخاذ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾، دون التّعبير بـ (أخذت)؛ لبيان أنّها أخذت ذلك الحِجاب بقصدٍ وتكلّفٍ[4]، وذلك لما في صيغة الافتعال مِن دلالةٍ على الكُلفة، وفي هذا إشارةٌ إلى اجتهادها وجِدّها

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 214.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 162 - 163.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.

في هذه الخَلْوة، وشِدّة رغبتها فيها، وفيه إشارةٌ إلى إحكام العُزْلَة التي أرادتها بإلهامٍ مِنَ اللّه تعالى لها؛ لتكون مؤهّلَةً لتَلَقّي أمرِ ربّها.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِن﴾:

قُربُ المكانِ الذي انتبذت إليه

جاء حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ للدّلالة على قُرب المكان الذي انتبذت إليه، أي: أدنى مكانٍ منهم[1]، فليس غرضها الابتعاد، بلِ الخَلْوة، وهي تتحقّق بأدنى مكان.

دلالةُ التّعبير بالظّرفيّة في: ﴿مِن دُونِهِمْ﴾:

احتجَبَتْ عن الجميع، حتّى عن أهلها

قيّد النّظمُ الجليل الاتّخاذَ بأنّه كائنٌ مِن دون أهلِها في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾؛ تأكيدًا لانتباذها منهم، واعتزالها إيّاهم[2]، فالحجابُ كان مِن أهلها، والحجابُ عن غير أهلها يكون مدلولًا ضمن ذلك، وهذا تعبيرٌ عن شِدّة احترازها، وقوّةِ استتارها.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمَجرور ﴿مِن دُونِهِمْ﴾:

الـدّلالـة على تقديم المقصود بالاحتجاب على الحِجاب نفسِه

قدّم النّظمُ الجليلُ شِبهَ الجملةِ مِنَ الجارّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ دون أن يقول: (فاتّخذت حجابًا من دونهم)؛ لأنّ الغَرَض مِنَ الحجاب هو أن يكون ساترًا مِن أهلها، فقدّم المقصودَ بالاحتجاب على الحجاب نفسه؛ وفيه مبالغةٌ في شِدّة الاستتار، بحيثُ إنّها قصدت أن تستتر عن أهلها الذين تحيا بينَهم.

سِرُّ التّعبير بالحجاب:

جعلت بينَها وبين أهلها ما يسترُها ويَمنعُ الوصولَ إليها

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبير بالحجاب في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ دون ساترًا؛ لوجود فرقٍ بينهما، فمادةُ (حجب) تدلُّ على المَنع مِنَ الوصول؛ يقال: حجبتُه حجابًا فمنَعَهُ مِنَ الوصول،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 23.

ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ [الأعراف: 46]، والمقصود من ذلك: ما يمنع من وصول لَذّةِ أهلِ الجنّة إلى أهل النّار، وأَذيَّة أهلِ النّار إلى أهل الجنّة، ولمّا كان الهدفُ هو منعَ الوصولِ بينَهما عبّر بالحِجاب؛ بخِلاف السّتر فإنّه لا يمنعُ مِنَ الدّخول والوصول على المَستور؛ لذلك كان تعبيرُ القرآن الكريم في هذا المشهد بالحجاب بأنّها جعلت بينَها وبين أهلها ما يسترُها ويَمنعُ الوصولَ إليها.

دلالةُ التّنكيرِ في: ﴿حِجَابٗا﴾:

إفـادةُ العموم والشّمول

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ الحجاب بصيغة التّنكير في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾؛ إبهامًا له، إذِ المقصود هو الخَلْوة والانفراد عنِ الأهل، وهذا يقع بأيّ حجابٍ ممكن، وليس مِن مقصود القِصّة في القرآن بيانُ تفصيلِ ما لا طائلَ تحتَه، كما أنّه يَدُلّ على تعظيم ذلك الحجاب، فيفصح عن اجتهادها في الانقطاع عن كلّ أحد.

دلالةُ الفاء في: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ﴾:

سُرعةُ المبادرة بالبِشارة تكريمًا لها

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفاء دون غيرها مِن حروف العطف، لعطف قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ على قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾؛ لبيان ما أكرمَها اللّهُ تعالى به في خَلْوتها تلك، وهذا يُبيّن أنّ إكرامَها بإرسال جبريل إليها كان عَقِبَ خَلْوتها، بلا مُهْلَةٍ طويلة، وفي هذا دلالةٌ على السّرعة والتّعقيب في أمر إرسال المَلَك إليها؛ لتعجيل البُشرى لها.

سِرُّ التّعبير بالإرسال دونَ البعث في: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ﴾:

الإرسالُ أخَصّ مِنَ البَعْث

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالإرسال دون البعث في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾؛ لأنّ الإرسال يتضمّن أنّ الرّسول يحمل رسالةً، والبعثُ أعّم مِنَ الإرسال؛ لأنّه "يجوز أن يبعث الرّجلُ إلى

الآخَر الحاجةَ تخصُّه دونكَ ودونَ المبعوث إليه، كالصّبيِّ تبعثُه إلى المَكتب، فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرسلتُه؛ لأنّ الإرسال لا يكون إلّا برسالة وما يَجْري مجراها"(1)، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59] فعبّر بالإرسال لأنّه تعالى حمّله رسالةً يُؤدّيها(2)، فآثَرَ النظم التّعبيرَ بالإرسال في الآية لأنّ جبريل عليه السلام كان يحمل مِنَ اللّه تعالى رسالةً مباركةً، وبُشْرَى ساميةً إلى مريم عليها السلام.

دلالةُ نونِ العَظَمة في: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ﴾:

عِظَمُ المُرسِل، وعِظَمُ مضمونِ الرّسالة

أسند بليغُ النّظم الفعلَ إلى نون التّعظيم في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾؛ للدّلالة على أنّ الإرسال وقعَ لأمرٍ يَدُلّ على عَظَمة اللّه تعالى(3)، أي: أرسلنا جبريلَ بما لنا مِنَ العَظَمة؛ ليَهَبَ لمريم ولدًا بلا أبٍ، وهذا أمرٌ جليل في غاية العِظَم والإعجاز.

دلالةُ تَعدّي الفعلِ ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ﴾ بـ (إلى):

الغاية تُفْصِح عن بلوغ الرّسولِ إليها

عدّى النّظمُ الجليلُ فعلَ الإرسالِ بحَرف الجَرّ (إلى) دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾، وهو حَرْفٌ دالٌّ على الغاية، أي: انتهى جبريلُ إليها؛ لأنّها هي المقصودة بالإرسال.

دلالةُ تقديم ﴿إِلَيۡهَا﴾ على المفعول به:

المقصود بالرّسالة مريم، وتقديمُها أولى مِن سِواه

قَدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة ﴿إِلَيۡهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾، فلم يقل: (فأرسلنا روحنا إليها)؛ وذلك اهتمامًا بها، وأنّ الأهَمّ في القِصّة بيانُ المُرسَلِ إليه لا الرّسولِ، لأنّ السّياق جاء ليتحدّثَ عن نبأ مريمَ وقصّتها، فتقديمُ ما له علاقةٌ بها أولى وأبلغ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 14/ 295، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 82.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.

دلالةُ الإضافة في: ﴿رُوحَنَا﴾:

تبيين علوّ المكانة بتشريفه بالإضافة

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّوح الدّالِّ على جبريل عليه السلام إلى ضمير التّعظيم في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾؛ تعبيرًا عن عُلوّ مقامِه عليه السلام، وتشريفًا له، وتوفيَةً للمَقام حَقَّه(1)، فالسّياق يقتضي التّعظيمَ والتّفخيم؛ لأنّه إرسالٌ مِنَ الله تعالى عظيمِ الشّأنِ، والمُرْسَلُ مَلَكٌ عظيم، والمُرسَلُ به بشارةٌ ونبأٌ عظيم.

دلالةُ العطف بالفاء في: ﴿فَتَمَثَّلَ﴾:

التّرتيب والتّعقيب

الجملة في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ معطوفةٌ على قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ بالفاء(2)؛ للدّلالة على التّرتيب والتّعقيب، أي: إنّه قد تمثّل لها عَقِبَ بلوغِه إليها، بلا مهلةٍ ولا فاصلٍ يطول، بحيث إنّها لم تَرَ صورتَهُ المَلائكيَّةَ.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ﴾:

انتقال جبريلَ عليه السلام من صورة المَلَكيّة إلى صورة البَشَريّة

دلّ التّعبير بقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ على أنّ جبريل عليه السلام انتقل مِن صورةِ المَلَكيّة إلى صورة البَشَريّة، وذلك لأنّ (مثَّل) يدُلُّ على مناظرة الشّيء بالشّيء، وهذا مِثْل هذا؛ أي: نظيرُه، والمُمَثّل: المُصَوّر على مِثال غيرِه؛ فكلُّ هذه المعاني تدلّ على أنّ التّعبير بقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ يُفيد انتقالَ جبريلَ عليه السلام مِن صورة المَلَكيّة إلى صورة البَشريّة؛ لتَأْنَسَ مريمُ عليها السلام في التّخاطُب معه، وفيه دلالةٌ على عدم نُبوّة مريمَ عليها السلام؛ لأنّ جبريل كلّمها على مِثال البَشَر.

دلالة التّعبير بصيغة التّفعّل: ﴿فَتَمَثَّلَ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم بقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ على وزن (تَفَعّل)؛ للإشارة إلى أنّ تَحَوّل جبريلَ عليه السلام مِنَ المَلَكيّة إلى صورة البشريّة كان لأجل مريمَ عليها السلام؛ مراعاةً لحالتها النّفسيّة والجسديّة؛ لأنّها لا تستطيع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 282.

التّعامل مع جبريل بصفته المَلائكيّة، وفيه إشارةٌ إلى عناية اللّه بها؛ حيثُ جعل جبريل يكون في لقائها على صورة البشر.

دلالة التّعبير بـ (اللّام) في: ﴿لَهَا﴾:

التّحوّل مِنَ المَلَكيّة إلى البَشَريّة مراعاةً لحال مريم

عبّر النّظمُ الجليل باللّامِ الجارّة التّعليليّة في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ للدّلالة على أنّ غاية التّمثّل بصورة البَشَر السّويّ، إنّما وقع لأجلها، أي: كان التّمثّل مُراعيًا حالَها، فهي منفردَةٌ لعبادة ربّها، تستوحِشُ مِن كلّ أحدٍ يَصرِفها عن مناجاة مولاها، فما حَدَث مِن تمثّلٍ إنّما وقع لأجلها.

دلالة تقديم الجارِّ والمَجرور ﴿لَهَا﴾:

اختصاصُ مريمَ عليها السلام بهذا التّمثّل

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملةِ مِنَ الجارّ والمَجرور ﴿لَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ دون أن يقول: (فتمثّل بشرًا لها)؛ لأنّ المقصود بالتّمثّل هي دون غيرها، فهو تَمثّل مناسبٌ لها، خاصّ بها، وأنّ صورتَه بهذه الهيئة الحسنة السّويّة ممّا كان خاصًّا بها، فلم يتمثّل بهذه الهيئة في موضع آخَر.

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿بَشَرًا﴾:

البَشَر حُسْنُ الهيئة، وهو أنسب لصفة السّويّ

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ البَشَر في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ لأنّ لفظ البَشَرِ "يَقْتَضي حُسْنَ الهَيْئَة؛ وذَلِكَ أنّه مشتقّ مِنَ البشارَة، وهي حُسْنُ الهَيْئَة، يُقال: رجلٌ بشير، وامرأةٌ بشيرة، إذا حَسُنَ الهَيْئَة"[1]، فلمّا أراد أن يبيّن أنّه سَويٌّ حَسَنُ الهيئةِ، كان التّعبيرُ عنه بأنّه بَشَر أبلغَ وأنسبَ للسّياق.

دلالة التّنكير في: ﴿بَشَرًا﴾:

جاء التّعبير القرآنيّ ﴿بَشَرًا﴾ مُنَكّرًا للدّلالة على الشّيوع وعدمِ تحديده، وفي ذلك إشارةٌ إلى عدم معرفتِها به، وتعيينها له.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276.

دلالةُ وصفه بكونه: ﴿سَوِيًّا﴾:

حُسْنُ الصّورة أدعى لتقبّل الدّعوة

وصف النّظمُ الجليل بشرًا بكونه سويًّا، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ للدّلالة على أنّه تحوّل إلى بشرٍ سويٍّ في خَلقه، حَسَنِ الشّكل، بحيثُ تألفُهُ العينُ؛ لئلّا تشتدّ نفرتُها وروعُها منه[1]؛ "وإنّما مُثّلَ لها في صورة الإنسان لتستأنسَ بكلامه، ولا تنفرَ عنه؛ ولو بدا لها في صورة الملائكة لنَفَرَت، ولم تقدر على استماع كلامه"[2]، وفيه دلالةٌ على استواء أخلاقِه وخَلْقِه عنِ الإفراط والتّفريط، وفي تمثيله بشرًا سويًّا بهذه الهيئة الجميلة اختبارٌ لعِفَّتِها، وابتلاءٌ لها، وما كان منها إلّا الورعُ والعَفافُ الدّالُّ على كمال طهارتها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَشَرُ والنّاس:

البَشَر مِن حُسْن الهيئة والمنظر، والإنسان مِنَ الحركة

الفرق بَين النّاس والبشر: "أَنّ قولنا البَشَر يَقْتَضي حُسْنَ الهَيْئَة؛ وذَلِكَ أَنّه مشتق مِنَ البِشارَة وهي حُسْنُ الهَيْئَة، يُقال: رجل بشير وامرأة بشيرة، إذا حَسُنَ الهَيْئَة، فسُميَ النّاس بشرًا لأَنّهم أحسنُ الحَيَوانِ هَيْئَةً، ويجوز أَن يُقال: إنَّ قَوْلنا بشر يَقْتَضي الظُّهورَ، وسُمّوا بشرًا لظُهور شَأْنهم، ومِنْه قيل لظاهِر الجلد بَشَرةً، وقَوْلنا: النّاس، يَقْتَضي النَّوْسَ، وهوَ الحَرَكَة، والنّاس جمعٌ، والبَشَر واحِدٌ وجمعٌ، وفي القُرْآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: 24]"[3]، وفي الآية الكريمة عبّر بلفظ البَشَر لأنّه أراد أن يُبيّن أنّه سويٌّ حَسَنُ الهيئة، فكان التّعبيرُ بلفظ البَشَر أبلغَ وأنسبَ للسّياق.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 329.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

اللّجوءُ إلى الله أمانٌ للخائفين

بعد أن ذكرتِ الآيةُ السّابقة أنّ اللّه تعالى أرسل جبريلَ عليه السلام لمريمَ في خَلْوتها، وأنّه قد تمثّل لها بصورة بشرٍ سويٍّ، تامِّ الخِلْقة، حَسَنِ الهيئة، جاءت هذه الآيةُ لتَقُصّ ما قالته له حينَئِذٍ، وما دار بينَهما مِن محاورةٍ ومناقشة، بعد أن رأته وفَزِعَت منه استعاذت باللّه تعالى، وقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ إنّي أستجير بالرّحمن منك إن كنت تقيًّا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعُوذُ﴾: (عوذ) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِد، وهوَ الالتِجاءُ إلى الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِق بشَيْءٍ أَوْ لازَمَهُ، أَعوذُ باللّه: أَلْجَأُ إِلَيْهِ[2]، والعَوْذُ: الالتجاء إلى الغير والتّعلّق به، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]، وقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 79]، أي: نلتَجِئ إليه ونستنصر به أن نفعل ذلك، فإنّ ذلك سوءٌ نتحاشى مِن تعاطيه[3]، عاذَ به يَعوذُ عَوْذًا وعياذًا ومَعاذًا: لاذَ به ولجأَ إليه واعْتَصَمَ، واللّه عز وجل مَعاذُ مَنْ عاذَ به، وملجأُ مَنْ لجأَ إليه، وهوَ عِياذي، أَي: مَلْجَئي، وعُذْتُ بفُلانٍ واسْتَعَذْتُ بهِ، أَي: لَجَأْتُ إِلَيْهِ[4].

2) ﴿تَقِيّٗا﴾: (وقى) أصلٌ يدلّ على دفع شيءٍ عن شيءٍ بغيره، والوقاية: ما يقي الشّيء، واتّقِ اللّهَ، أي: اجعل بينَك وبينَه كالوقاية،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 41 - 42، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 24.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (عوذ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عوذ).

واتَّقَيْتُ الشّيء: حَذِرْتُه، والاسم التَّقْوَى، والتَّقْوَى: جَعْلُ النّفسِ في وِقايَةٍ ممّا يُخاف، وفي تعارف الشّرع: حفظُ النّفسِ عمّا يُؤثِم، وذلك بترك المحظور[1].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

اللّجوءُ إلى الله تعالى حالَ دَهْمِ الخَوف

بيّنتْ هذه الآيةُ أنّ المَلَك الكريمَ لَمّا تبدّى لمريمَ بصورة البشر، وهي منفرِدَة في خَلْوتها في ذلك المكان المُحْتَجِب عن أهلها والنّاس، قد اعتراها الخوفُ والهلعُ، فقالت مستجيرةً باللّه تعالى منه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي: إنّي أستجير بالرّحمن منك، أن تنالَني بسوء إن كنتَ ممّن يتّقي اللّهَ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

قــوّةُ الإيـمـان تَـظْـهَـرُ ساعةَ المواجهة

فصل النّظمُ الجليل جملةَ: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ عمّا قبلَها لأنّها مستأنفة، جيء بها للدّلالة على شِدّة حَزْمها، وإخلاصِ عبادتِها للّه تعالى، وصدقِ تجرّدها له، والتجائها إليه، بحيثُ إنّها عند دَهْمِ الخُطوب لا تَرْكَن إلى سواه[3].

دلالةُ التّأكيد بـ: ﴿إِنِّيٓ﴾:

الاستعاذةُ بالله إعــلانٌ بـعـدم المبالاة بمَن رأته

عبّر النّظمُ الجليل عن تأكيد مقولتِها بتصديرها الجملة بـ ﴿إِنِّيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾؛ لأنّ المَلاكَ لَمّا تمثّل لها بصورة بَشر سَويٍّ حَسَنِ الخِلْقَة، و"كان على أنهى ما يكون من الجمال والخِلال الصّالحة والكمال، فكان بحيث يُستَبعَد غايةَ الاستبعاد أن يُتَعوَّذ منه، أكّدت فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزآباديّ، البصائر: (وقى).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 306.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 183.

﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾"[1]، فألقَتْ استعاذتَها على وجه التّأكيد؛ تعبيرًا عن عدم اهتمامها بمَن رأت، وعدمِ نظرِها لحاله وحُسْنِ خِلْقَتِه.

سِرّ التّعبير بالمضارع:

تصويرُ حالة الخوف التي كانت عليها مريم لحظة تمثُّل المَلَك

أوثِرَ التّعبير بالمضارع: ﴿أَعُوذُ﴾ دونَ الماضي (عذت)؛ للدّلالة على تصوير حالة الخوف التي كانت عليها مريمُ لحظة تمثّل الملك بشرًا سويًّا وهي منفردةٌ في خلوتها.

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿أَعُوذُ﴾:

ذِكْرُ الله جارٍ على لسان أهل الصّلاح في كلّ حال

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾؛ للدّلالة على الاستعاذة بالله تعالى في الحال، لحاجتها إلى ذلك ثَمّ، "أي: أعتصم به منك، إنّما خافتْه لانفرادها في خَلْوتها، وظَنّها أنّه يريدها على نفسها، وفي ذلك مِنَ الورع والعفاف ما لا غاية وراءَه"[2].

وممّا يُذْكر في سِرّ التّعبيرِ بالفعل ﴿أَعُوذُ﴾ دون (أستعيذ) أنّ لفظَ ﴿أَعُوذُ﴾ مِن صيغ الإنشاء؛ أي: إنشاءِ طلبِ العَوذ، بخلاف لفظ (أستعيذ)، فإنّه أخفى في إنشاء الطّلب، ولأنّ التّعبير بالفعل ﴿أَعُوذُ﴾ يأتي مِن باب الامتثال للمَطلب الرّبانيّ عندما يُصاب الإنسانُ بالهَلَع والفزَع، أن يتعوّذ بالله امتثالًا لأمر الله له بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ [المؤمنون: 97]، وهذا ما فعلته مريمُ عليها السلام عندما تمثّل لها المَلَك بشرًا سَويًّا[3].

سِرُّ استعاذتِها بصِفة الرّحمن:

استجلابُ آثارِ الرّحمة في دفع ما تتعرّض له

بيّن النّظمُ الجليل أنّها عليها السلام استعاذت بصِفة الرّحمن في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾؛ لأنّها أكثرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 89.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 276.

ما عهدت مِنَ اللّه تعالى رحمتَهُ وعطفَهُ ولطفَهُ بها، أي: أعوذ بـ "ربّي الذي رحمتُه عامّةٌ لجميع عباده في الدّنيا والآخرة، وله بنا خصوصيّةٌ في إسباغ الرّحمة وإتمام النّعمة"[1]، فهو إشارةٌ لما اعتادَت عليه مِن رحمة اللّه تعالى بها، فعطفت على تلك الرّحمة، التي سبق وأنْ حفّتْها ورَعَتْها.

وفيه إشارةٌ للمبالغة في اللّجوء والاعتصام به، واستجلابِ آثارِ الرّحمة الخاصّة في عصمتها ممّا دهمَها، ولأنّها أرادت أن يرحمَها اللّهُ بدفعِ مَن حسبَتْه داعِرًا عليها.

سِرُّ تقديمِ المستعاذِ به على المُستعاذ منه:

اللّـجـوءُ إلى جناب الجليل يُغني عمّن سِواه

قدّم النّظمُ الجليل المستعاذَ به ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، على المُستعاذ منه ﴿مِنكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ على ما جرت عليه العادة في الاستعاذة، كما في صيغة الاستعاذة: (أعوذ باللّه مِنَ الشّيطان الرّجيم)، وكقوله تعالى: ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: 36]؛ وذلك تقديمًا لذِكْر مَن يُلاذ به ويُحْتَمى به لأنّه الأهمّ؛ تعجيلًا لطلب الأمان في مواجهة الخطر، وما يخاف منه باللّه تعالى؛ إذ لا يخاف مَن كان اللّهُ تعالى سندًا له ومَلاذًا، وفيه مِنَ الأدب الرّفيع معَ اللّه تعالى، إذ لا يُقَدّم الخَطَرُ والمستعاذُ منه على ذِكْره.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيّة:

التّعبير بالشّكّ فيه حَثٌّ على إظهار تقواه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الشّرط ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، وهو دالّ على الشّكّ، وجيء به هنا قصدًا لتهييج خشيته[2]؛ حثًّا له على إظهار تقواه، وردًّا على اتّهامها إيّاهُ، وشكّها فيه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 81.

دلالةُ التّعبير بفعل الكينونة ﴿كُنتَ﴾:

فعلُ الكينونةِ يَدُلّ على أنّ الصّفةَ راسخة في الموصوف

عبّر النّظمُ الجليل عنِ اتّصافه بالتّقوى بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾؛ حثًّا من مريم عليها السلام على إظهار هذه التّقوى، وهذا أبلغ في الوعظ والتّذكير، والدّعوةِ إلى العمل بتقواه(1)، فإنّ فعل الكونِ يدلّ على أنّ الصّفة راسخةٌ في الموصوف رسوخًا وجوديًّا.

سِرُّ تخصيصِ الاستعاذة بالتّقوى:

التّقيُّ ذو نُهْيَةٍ يخاف الله تعالى

ذكر النّظمُ الجليل أنّ مريم عليها السلام خَصّتِ استعاذَتها بصِفة التّقوى، في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ دون غيرها؛ لأنّ غيرَ المُتّقي لن يباليَ بالاستعاذة(2)، فكان اعتمادُها على النّجاة منه - بعد ثقتها باللّه تعالى - أن يكون هو ممّن يتّقون اللّهَ، ويُبالون بالمُستَجير به، كما أنّ مقام الخَلْوة بين مَن ظنّتْهُ بشريًّا وفتاةٍ مُنفرِدَة عنِ النّاس، إنّما يُحتاج فيه إلى استدعاء صِفة التّقوى؛ لتكون الاستعاذةُ نافعةً معه، "أي: إنْ كان يُرْجَى منكَ أن تتّقيَ اللّهَ، فإنّي عائذةٌ به منك"(3)؛ لأنّ المُتّقي إنّما يكون ذو نُهَيَةٍ إذا ذُكِّرَ باللّه؛ لذلك كانتِ استعاذَتُها بالرحمن، ويمكن أن يَدُلّ هذا التّعبير على أنّ الاستعاذة من غير التّقيِّ تكون من باب أولى(4).

سِرُّ حَذْفِ جوابِ الشّرط لقوله: ﴿إِن كُنتَ﴾:

لدلالة السّياق عليه

حَذَفَ النّظمُ الجليل جوابَ الشّرطِ في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾؛ ثقةً بدلالة السّياق عليه، أي: إن كنتَ تقيًّا وتخافُ اللّهَ تعالى، فإنّي عائذةٌ به، فلا تتعرّضْ لي(5)، وإنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 81.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 330.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 207.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.

التّعبيرَ أثناءَ دَهْمِ ما يُتَوَقّعُ ضَرَرُه ويُخافُ منه، أدعى أن يكون بإيجازٍ وعَجَلةٍ تقتضيها الحالةُ والضّرورةُ، فليس المَقامُ مقامَ تفصيل.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

أعوذُ وألوذُ:

العَوْذُ التجاءٌ للتّجرّد، واللَّوذُ تَسَتُّرٌ للاحتماء

العَوْذُ الالتِجاءُ إِلَى الشَّيْءِ[1]، فهو الالتجاء إلى آخَر والتّعلّقُ به، يقال: عاذَ فلانٌ بفلان، ومنه قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 79]، أي: نَلْتَجِئ إليه، ونستنصِرُ به أن نفعل ذلك[2].

أمّا اللّوذُ فيَدُلُّ على إطاقَةِ الإِنْسانِ بالشَّيْءِ، مُسْتَعيذًا به ومُتَسَتِّرًا، وذَلِكَ إذا عاذَ به مِنْ خَوْفٍ أَوْ طَمَعٍ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ﴾ [النور: 63]، وكانَ المُنافِقونَ إذا أرادَ الواحِدُ مِنْهُم مُفارَقَةَ مَجْلِسِ رَسولِ اللّه ﷺ لاذَ بغَيْرِه مُتَسَتِّرًا ثُمَّ نَهَضَ[3]، أي: يستترون فيَلْتَجِئون بغيرهم، فيمضون واحدًا بعد واحدٍ[4]، فيُلْحَظ أنَّ العَوْذَ لا يُشترط فيه الخوف، بل التّجرّد مِنَ الحَول والقوّة، والالتجاءُ إلى رُكنٍ شديدٍ، كالتجاءِ العِباد إلى اللّه تعالى، أمّا اللّوذ فهو تستُّرٌ من شيءٍ يُخافُ منه، وفي الآية الكريمة عبّر بالعَوذ؛ لأنّها لم تطلُبِ التّستّر، بل لجأت إلى اللّه تعالى متجرّدةً من حولها وقوّتها.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(2) الرّاغب، المفردات: (عوذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوذ).
(4) الرّاغب، المفردات: (لوذ).

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

سكونُ فؤادِها بعد فزَعِها

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة أنّ مريمَ عليها السلام فزِعت مِنَ المَلَك لمّا تمثّل لها بشرًا في خَلْوتها، ولجأت إلى اللّه تعالى مستعيذةً منه، جاءت هذه الآيةُ لبيان جوابِ جبريلَ عليه السلام لمّا رأى فزَعها وعَلِمَ خوفَها؛ فبادر بإجابتها بما يُزيل به خوفَها فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، طالبًا بذلك تسكينَ روعِها، ونافيًا عنه ما قد تكون ظَنّته فيه مِن سوء[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِأَهَبَ﴾: أصله (وَهَب) ووَهَبْتُ لَهُ هِبةً، ومَوهِبَةً، ووَهْبًا، ووَهَبا إذا أَعْطَيْتُه[2]، والهِبةُ: العَطيَّة الخاليةُ عَنِ الأَعْواض والأَغْراض، وكلُّ ما وُهِبَ لَكَ مِنْ ولَدٍ وغَيْرِه: فهوَ مَوهوبٌ[3]، وهي: أن تجعل مُلْكَكَ لغيرك بغير عِوَضٍ، ويوصَفُ اللّهُ تعالى بالواهِب والوَهّاب، بمعنى: أنّه يعطي كلًّا على استحقاقه، يقال: وَهَبْتُهُ هِبَةً ومَوْهِبَةً ومَوْهِبًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

تسكين الرّوع بإظهار حُسْن المَقْصِد

بيّنت هذه الآيةُ أنّ المَلَك عليه السلام لمّا رأى منها الفَزَعَ وسمع منها التّعوّذَ قال لها مُزيلًا لما حصل عندها مِنَ الخوف على نفسها: ﴿إِنَّمَآ

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42، وينظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 397.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، (وهب).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (وهب).

(4) الرّاغب، المفردات: (وهب).

﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي: أنا لستُ ممّن تظنّين، ولا يقع منّي ما تتوهّمين مِنَ الشّرّ، فإنّما أنا رسولُ ربّك بعثني إليك؛ لأهبَ لك غلامًا طاهرًا مِنَ الذّنوب[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

الاستئناف لنفي أسباب الخوف

فُصلت هذه الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها جاءت في سياق المحاورة بين مريمَ عليها السلام وبين المَلَك؛ لذلك اكتفى بالرّبط بينهما لمجيئهما في الحوار، فلا حاجة إلى العطف لبيان الارتباط بينهما، الذي ظهر في استعاذتها منه وردِّه عليها.

دلالة القول في حديث المَلَك مع مريمَ عليها السلام:

الملائكةُ تكلّم البشر

دلّ التّعبيرُ بالقول في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ على أنّ الملائكة ناطقون، يُخاطِبون الآدميّين ويرونهم في صور الآدميّين، سواءٌ كان ذلك في مخاطبتهم للأنبياء أو لغير الأنبياء؛ فمُخاطَبةُ الأنبياءِ أمرُها ظاهرٌ ولا تحتاج إلى مثال، أمّا غيرُ الأنبياء فوقَع مع سارة امرأةِ إبراهيمَ عليه السلام، وكما هنا مع مريم عليها السلام.

ويكون المعنى: إنّي لستُ ممّن تخشَينَ أن يكون متّهمًا، مُؤَكِّدًا لأجل استعاذتها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: الذي عُذتِ به، أي: فأنا لستُ متّهمًا، متّصفًا بما ذكرْت[2].

بلاغة القَصْر في الآية:

قَصْر نفسِه على الرّسالة مبالغة في ابتغاء تطمينها

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نفي أسباب خوفِها بأسلوب القَصْر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ للدّلالة على تأكيد مضمون الخطاب، فقَصَرَ المَلَكُ نفسَه على الرّسالة

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 306.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.

لقطعِ جميعِ الظّنونِ والاحتمالات التي تكون في قلبها المُرتابِ الهَلِع، وهو قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، إذ قَصَر نفسَه على صفة الرّسالة قَصْرًا إضافيًّا؛ لأنّه جاء ردًّا على قولها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ المُقتضي اعتقادَها أنّه بشر[1].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَسُولُ﴾ دون غيره:

الدّلالة على حمله رسالة الهِبة لها

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الرّسول دون غيرِه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ وذلك لأنّ الرّسول يقتضي أنّه مُحَمّل برسالة، والرّسالة هنا وهْبُها ابنًا يكون مِنَ المُرسلين، فكان جبريل رسولًا بهذه الحَيثيّة، والمَجيء بصفة كونه رسولًا، المُشْعِرُ بالرّسالة فيه تشويقٌ لها، وهذا يناسِبُ حالةَ الهَلَعِ والخَوفِ التي ألَمّت بها، فعَجّل لها ما يُسَكّن قلبَها ويُهَدّئُ روعَها؛ فكأنه يقول لها: لستُ ممّن يُتَوقَّعُ منه ما توهّمتِ مِنَ الشّر.

دلالة إضافة ﴿رَسُولُ﴾ إلى الرّبوبيّة:

الرّسولُ مِن جناب المُحسنِ الكريم لا يأتي إلّا بخير

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ ﴿رَسُولُ﴾ إلى الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ زيادةً في اللّطف بها، وإيرادِ ما يُسكّن فؤادَها، تذكيرًا بلفظ الرّبّ المُحسنِ إليها، أي: الذي تعهّدَكِ ورعاكِ بما تعلمين ممّا سبق ووقع في حياتك، ولأنّ السّورة مُصَدّرة بالرَّحمةِ، التي مِن مقاصدها تعدادُ النّعم على عباد اللّه الصّالحين[2]، وفيه دلالةٌ على تشريفها وتثبيتها، وللإشعار بعِلّة الهِبة؛ لأنّ هِبَة الغلامِ لها مِن عطاءات الرّبوبيّة.

دلالة كاف الخطاب في: ﴿رَبِّكِ﴾:

تسليَةُ مريمَ عليها السلام وتثبيتُها بتعجيل تطمينها

أضاف النّظمُ البليغ لفظَ الرّبّ إلى ضمير المخاطبة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾: تسليَةً لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 81.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.

وتعجيلًا بتطمينها، أي: إنّما أنا رسولُ ربّك الذي استعذتِ به، فأنا لستُ ممّن يُتَوقّع منه السّوءُ، وفي ذلك تشريفٌ لها، كما أنّ فيه إشارةً إلى عِلّة الهبة، وذلك أنّ هبة الغلامِ لها عِلّةٌ لتربيتها ورعايتها[1].

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لِأَهَبَ﴾:

عِـلّـةُ الإرسـال وغايتُه

أدخل النّظمُ الجليل لامَ التّعليل على الفعل في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ لبيان عِلّة الإرسال، أي: إنّما أرسلني اللّهُ تعالى إليكِ لأكونَ سببًا في هبته غلامًا لك[2]، والتّعجيلُ ببيان عِلّة الرّسالة زيادةٌ في تبليغها ما يطمئنّ قلبُها به، فلم يكتف بذكر مطلقِ الرّسالة، بل أتبعَهُ بعِلّة الرّسالة والغاية منها.

بلاغة المَجاز في إسناد الهبة إلى المَلَك ﴿لِأَهَبَ﴾:

الإعـلام بالهبة يُجيز للرّسول نـسـبـةَ ذلـك لنفسه

أسند بليغُ النّظم فعلَ الهبة إلى جبريلَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ على طريقة المجاز العقليّ، لأنّ الإعلامَ بها كان مِن قِبَلِه، فأضاف الفعل إلى نفسه[3]، أو لأنّه جرى على يده، وذلك لأنّه هو مَن نفخ في جيبها بأمر اللّه تعالى[4]، فالواهبُ إنّما هو اللّه تعالى، وإنما كان جبريل موصلًا تلك الهبة.

سِرُّ التّعبيرِ بالهبة:

الهِبَةُ عطاءٌ بلا عوض

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الهبة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ لأنّها العَطيَّةُ الخاليةُ عَنِ الأَعْواضِ والأَغْراضِ، وكلُّ ما وُهِبَ لَكَ، مِنْ ولَدٍ وغَيْرِهِ: فهوَ مَوهوبٌ[5]، فالتّعبيرُ به يدُلّ على خُلوّ الهبةِ بهذا الغلام مِنَ العِوض، لما فيه من إشارةٍ إلى أنّها تستحِقّ هذه الهبةَ، لاستعدادها وما فيها من أسباب الاستحقاق،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 9.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وهب).

لأنّ معنى الوهّاب هو أن يعطيَ كلًّا على استحقاقه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[1].

ويُؤكّد هذا المعنى أنّ القرآن الكريم في امتنانه بالولد يأتي دائمًا بذِكْر الهبةِ دونَ غيرِها؛ للدّلالة على أنّ هذا العطاء بلا سببٍ مِنَ البَشَر، قال تعالى في حَقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: 100]، وفي حَقّ زكريا: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5]، وفي حَقّ البشر جميعًا: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩﴾ [الشورى: 49].

دلالةُ تعدُّدِ القراءات في: ﴿لِأَهَبَ﴾:

الــواهــب في الحقيقة هو الله، والإسناد إلى المَلَك مجازيٌّ

تعدَّدَتِ القراءات في قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ﴾ بين الهمزة والياء؛ فقرأ ورش وأبو عمرو ويعقوب وقالون بخُلف عنه بالياء: ﴿لِيَهَبَ﴾ وقرأ الباقون بالهمز[2]، فمن قرأ بالياء يكون المعنى: (ليَهَبَ لكِ الرّبُّ غلامًا)؛ لأنّ الواهب في الحقيقة هو الله، فيكون في الجملة ضميرٌ يعود إلى الرّبّ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، وعلى وجه إسناد الفعل إلى المتكلِّم: ﴿لِأَهَبَ﴾ يكون الإسنادُ مجازيًّا، ودورُ جبريلَ دورُ البلاغ، أو لكونه سببًا في هبته للنّفخ في دِرْعِها[3].

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمَجرور ﴿لَكِ﴾:

التّعجيلُ بذِكْر المقصود بالهبة

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملة مِنَ الجارِّ ﴿لَكِ﴾ على المفعول به ﴿غُلَٰمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾؛ لما في التّقديم مِنَ التّشويق إلى المفعول، ليكونَ أوقعَ في النّفس[4]، كما أنّ فيه تعجيلًا للمَسَرّة، وذلك بتقديم ذِكْر المقصود بالهبة؛ لأنّ العبارة جاءت في سياق تسكين رَوْعِها وتطمينها.

(1) الرّاغب، المفردات: (وهب).
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 317.
(3) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات: 5/ 815، والقاضي، البدور الزّاهرة: 1/ 198.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184.

مِن تمام البشارة تعجيل الإخبار ببلوغِه واكتمالِه

سرُّ التّعبير بالغلام:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الغلام دون الولد في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾؛ تفخيمًا لشأن البشارة به، وبيانًا للخير الذي فيها، وذلك ببيان كونه "ولدًا ذَكَرًا في غاية القوّة والرّجوليّة"[1].

مِن تمام التّبشير بالغلام أن يكون الغلامُ مُتميّزًا

سرُّ الوصفِ بقوله: ﴿زَكِيّٗا﴾:

وصف النّظمُ الجليل الغلامَ بأنّه ﴿زَكِيّٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾؛ تمييزًا للغلام وثناءً عليه؛ إذ مُجَرّد البُشرى بالغلام لن تكون بشرًى كاملةً، ولمّا كانتِ البُشرى مِنَ اللّه تعالى على لسان جبريل فهي في الغاية العليا مِنَ الفخامة والعَظَمة، فلا بُدّ أن تكون البُشْرَى بغلامٍ تَقَرُّ به العين، فكان الوصفُ بأنّه زكيٌّ وصفًا على ما يقتضيه الواقع، وفيه إشارةٌ إلى أنّه بلغَ أوانَ الطُّهرِ مِنَ الذّنوب؛ لأنّ الصّبيَّ لا يوصَف به إلّا اعتبارًا بما يَؤول إليه، وفيه بشارةٌ إلى بلوغه إلى سِنٍّ يوَصَف الشّخص فيه بالزّكاة.

المُتشابه اللّفظيّ:

تشابهت هذه الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، مع قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران: 45].

والنّاظر في الآيتين يجد أنّ موضع سورة آل عمران جاء بذِكر الملائكة جمعًا في قوله: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: 45]، وأمّا موضعُ سورةِ مريمَ فجاء بذِكْر المَلَك مُفْرَدًا في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، ولا تناقض في ذلك؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 184 - 185.

فالمرادُ جبريلُ في الموضعَين، ويكون المُراد بالجمع التّعظيمُ، باعتبار جبريلَ رئيسَ الملائكةِ، وإذا كان القائلُ هو الرّئيسُ فيجوز الإخبارُ عنه بالجمع؛ لوجود جمعٍ مِنَ الملائكة في صُحبته؛ ولأنّ جبريلَ عليه السلام لا ينزل لأمرٍ إلّا ومعه جماعةٌ مِنَ الملائكة.

وممّا يُذْكَر في سِرّ ذلك أيضًا: أنّ سورة مريمَ متقدّمةٌ في النّزول على سورة آل عمران، والأمر فيها مبنيٌّ على التّفصيل والإيضاح، بدليل اختصاصها بمشاهِد لم تأتِ في سورةٍ أخرى، فكان التّعيين بأن الذي كلّمَها هو جبريلُ عليه السلام؛ ليتناسَبَ مع المُهِمّة التي كُلّفَ بها، وهو النّفخُ لتكوين ميلاد عيسى في رحم أُمّه؛ أمّا سورةُ آل عمران فالأمر فيها مبنيٌّ على الاصطفاء والبشارة، وهذا يناسبه التّعبيرُ بجَمع المَلائكة.

وممّا يُذْكر في التّشابه بينَ الآيتين: التّعبير بالأُلوهيّة في سورة آل عمران، والرّبوبيّة في موضع سورة مريم، والمناسبة في كلٍّ منهما ظاهرة؛ لأنّ موضع سورةِ آل عمران جاء في إثبات الوحدانيّة للّه ربّ العالمين، وتنزيهه عنِ الشّريك والولد؛ لذلك كان اسمُ الجلالةِ هو المناسبَ في هذا السّياق؛ لأنّ وفد نصارى نجران الذين جاؤوا رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم ينسبون للّه الولد تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا؛ بخلاف موضعِ سورة مريم فهي مكيّة؛ فأَمرُ ادّعاءِ البُنُوّة للّه لم يكن موجودًا في هذا السّياق.

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾

[مريم: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

إبـداءُ التّعجّب مِن حالها بعد سماع البشارة العجيبة

بعد أن بيّنت الآيةُ السّابقة أنّ المَلَك قال لمريمَ ﵍: إنّه مرسَلٌ مِن ربّه إليها ليَهَبَ لها غلامًا زكيًّا، أثار ذلك عجبَها فبيّن في هذه الآية ما قالت له تعبيرًا عن ذلك التّعجّب، ووَقْع تلك البشارةِ عليها بقولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡسَسۡنِي﴾: (مسّ) أصلٌ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2]، والمسّ يقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس، وكنّي به عن النّكاح، فقيل: مسّها وماسّها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237][3]، ويُقالُ: مَسِسْتُ الشّيءَ أَمَسُّه مَسًّا، لَمَسْتَه بيَدِكَ، ثُمَّ اسْتُعيرَ للأَخذ والضَّرْبِ لأَنهما باليَدِ، واسْتُعيرَ للْجِماع لأنّه لَمَسٌ، وللجُنون كأَنّ الجِنَّ مَسَّتْه؛ يُقالُ: به مَسٌّ مِنْ جُنونٍ، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ أي لَم يَمسَسْني على جِهَةِ تزوُّجٍ[4].

2) ﴿بَغِيّٗا﴾: (بغي) أصل هو جِنْسٌ مِنَ الفَسادِ، قَوْلُهُم: بَغَى الجُرْحُ: إذا تَرامَى إلى فسادٍ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْ هَذا ما بَعْدَهُ، فالبَغِيُّ الفاجِرَةُ، تقولُ: بَغَتْ تَبْغي بغاءً، وهيَ بَغِيٌّ، ومِنْهُ أَنْ يَبْغيَ الإِنْسانُ على آخَرَ[5]، والبَغْيُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يُتَحَرّى، يقال:

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (مسس).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).

بَغَيْتُ الشَّيءَ: إذا طلبتُ أكثرَ ما يجب، بَغَى الجُرحُ: تجاوز الحَدّ في فساده، وبَغَتِ المرأةُ بغاءً: إذا فجرت، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: 33]، وبَغَتِ السّماء: تجاوزت في المَطر حَدّ المحتاج إليه[1]، والمراد به في الآية الكريمة الزّانيَةُ المجاهِرَةُ بالزّنى، الطّالبةُ له[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

التّعجّب مِنَ البشارة بالغلام بغير أسباب البَشَر

يخبر النّظمُ الجليل في هذه الآية أنّ مريم عليها السلام قالت لجبريل مجيبةً له بعدَ إخبارها برسالته، وبشارتها بالغلام الزّكيّ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ فمِن أيّ وجهٍ يكون لي ذلك الغلام؟ ولستُ بذاتِ زوجٍ أُرْزَقُ منه الغلام، كما أنّي لم أكن مِن أهل الفجور بحالٍ مِنَ الأحوال، فلم يمسسني بشرٌ لا بالحلال ولا بالحرام[3]، أي: "تعجّبتْ مِن هذا، وقالت: كيف يكون لي غلامٌ، على أيّ صفةٍ يوجد منّي، ولستُ بذات زوجٍ ولا يتصوّر منّي الفجور"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دلالة فصْل هذه الآية عمّا قبلَها:

اتّصال الكلامِ بين المُتحاوِرَين يُغْني عن حرف العطف

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾؛ لأنّها جاءت مستأنفةً واقعةً في المحاورة، فارتباطُ الكلام بينَ المُتحاورَين يُغْني عن حرف العطف، والغرضُ مِن هذا الاستئنافِ صرفُ المَلَكِ عن غايته التي جاء مِن أجلها؛ لأنّها لمّا علمت أنّه مرسلٌ مِنَ الله تعالى أرادت مراجعةَ ربّها في أمرٍ لم تُطِقْه، كمراجعة إبراهيمَ عليه السلام في قوم لوطٍ، فإنّ ذلك يَجُرُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 9.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 165.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 89.

لها ضُرًّا عظيمًا؛ إذ كيف سيتلقّى النّاسُ إتيانها بولدٍ من غير أبٍ معروف[1]، وممّا يُذْكَر في سِرّ الفصل: أنّ هذه الجملةَ جاءت جوابًا لسؤالٍ أثارتْهُ الآيةُ السّابقة عندما قال لها المَلَكُ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ فكأنّه قيل: (ماذا كان منها جوابًا على قول المَلَك لها).

دلالةُ الاستفهام في: ﴿أَنَّىٰ﴾:

التّعجُّبُ مِن هول الأمر، لا مِن قُدْرَة الله تعالى

استعمل النّظمُ الجليل اسمَ الاستفهام ﴿أَنَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾؛ للدّلالة على التّعجُّب والاستغراب، لتأثُّرِها بنظام الأسباب السّائد في الواقع والعرف لإنجاب الولد؛ فقالت: مِن أين وكيف ذلك[2]؟ وذلك تعبيرًا عن حيرتها وتعجُّبِها ممّا سمعت، أي: كيف يكون لي غلامٌ، والحال أنّي لم يمسني بشرٌ، ولم أكُ في يومٍ مِنَ الأيّام بَغيًّا[3]، وممّا يُذْكَر في سِرّ الاستفهام بـ ﴿أَنَّىٰ﴾: أنّه على وجه الحقيقة والاستفسار؛ أيكونُ ذلك الغلامُ بالتّزويج أو بغيره؟.

دلالة التّعبير بفعل الكَيْنونة ﴿يَكُونُ﴾:

الدّلالة على تَعَلّق البشارة بالحال والاستقبال

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الكون بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؛ لأنّه سيقع في الحاضر وقتَ مخاطبةِ المَلَك لها، وفي المستقبل باعتبار كونه غلامًا، فالإخبار عن ذلك بالمضارع تعبيرٌ عنِ الواقع.

سِرُّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿لِي﴾:

حالها مِنَ الطّهر والعفاف يجعلها تستبعد وقوعَ ذلك

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة مِنَ الجارّ والمجرور ﴿لِي﴾ على المسند إليه ﴿غُلَٰمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؛ للاعتناء بالمُقدَّم، ولأنّ موضع التّعجُّبِ أن يكون لها هي ذلك الغلامُ، نظرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 81 - 82.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 185.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 25.

لحالها مِنَ البكارة والعفاف، وامتناعها مِنَ البشر، وليس التّعجّب مِن قُدرة اللّٰه تعالى على إيجاده؛ لعلمها بقُدرته، بل تعجّبت أن يكون ذلك الغلامُ لها نظرًا لحالها.

سِرُّ تكرارِ لفظ ﴿غُلَٰمٌ﴾:

إعـادةُ المُبشَّر به بلفظه يُؤكّد وقوعَ التّعجُّب من شأنه

ذكر النّظمُ الجليل أنّ مريم عليها السلام كرّرت ذِكْر الغلام في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؛ وذلك إحالةً على ما جاء في البشارة، أي: الغلام الذي وصفته[1]، فأعادت اللّفظ نفسَه، لأنّ وقْعَ الخبرِ صرفَها عن كلّ شيءٍ إلّا إظهارَ التّعجّبِ ممّا قال لها، فأعادت اللّفظ الذي سمعته، كما أنّ فيه دلالةً على أنّ المقصود التّعجُّبُ مِنَ القول ذاته، فأعادته بلفظه.

دلالة الواو في: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ﴾:

أسبابُ الإنجاب غير موجودة

صدّر النّظمُ الجليلُ الجملةَ بحرف الواوِ الدّالِّ على الحاليّة في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ﴾ أي: كيف يكون ذلك والحالُ أنّه لم يباشرْني بالحلال رجلٌ[2]، وهذا الحال مفصِحٌ عن عِلّة تعجُّبِها مِنَ البشارة؛ لأنّها تعلم أنّ اللّه تعالى على كلّ شيءٍ قدير، ولكنّ مثارَ التّعجّبِ لديها هو حالها.

سِرُّ اختيار (المس) في: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي﴾:

دلالةُ المَسّ على العلاقة الزّوجيّة أبلغُ مِنَ اللّمس

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (المسّ) دون (اللّمس) في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾؛ لأنّ المَسّ أبلغُ وأدَلُّ في التّعبير عنِ المراد مِنَ اللّمس، فالمَسُّ كنايةٌ عنِ اختلاط الرّجل بالمرأة، وهذا ظاهرٌ في تعبيرات القرآن الكريم عنِ اتّصال الرّجل بالمرأة، وسمّاه مسيسًا من باب الحقيقة العرفيّة في لغة القرآن الكريم، والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله: ﴿وَإِن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 396.

﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49]؛ لذلك كان التّعبير بالمَسّ؛ لأنّها أرادت معنى الجماعِ بالحلال دون الحرام؛ لأنّ الجماع بالحرام يُسَمّى فجورًا، وإنّما يدلّ على ذلك لفظُ المَسّ دون اللّمس، وذهب بعضُ أئمّة التّفسير إلى أنّه يشمل الحلالَ والحرامَ، أي: في حالة الزّواج أو في غير الزّواج، أي: ولم يمسسني بشرٌ ما، لا بنكاحٍ ولا بزنى[1]، كما أنّ فيه مبالغةً في نفي عدم اتّصالها بأيّ بشر، لأنّ المَسّ يدلّ على جَسّ البشرة، بخلاف اللّمس، فأصلُه باليد ليُعْرَف مَسّ الشّيء، قال تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: 7]، وهذا غير مرادٍ هنا، ولأنّ نفيَ المَسّ أبلغُ مِن نفي اللّمس.

بلاغةُ الكناية في الآية:

مِن حُسنِ لغة القرآن حُسْنُ الأدب في التّعبير عن ما يَخدِش الحياءَ

كنّى النّظمُ الجليل بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ عنِ المباشرة بالحلال، كما في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237، الأحزاب: 49]، ونحوه كما قيل: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النّساء: 23]، وبنى عليها[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ القرآن الكريم يُؤْثِر التّعبير بلفظ المَسّ على سبيل الكناية، وهذا تعليمٌ قرآنيٌّ ينبغي الاقتداءُ به في كلّ ما يَخْدِش الحياءَ؛ لأنّ أسلوب القرآن يحمل هذه الخاصّيّة في تصوير المعاني بالهيئة النّابضة لها دونَ خَدْشٍ لحياءِ القارئ أو السّامع، ولأنّ التّعبير بالكناية هنا يدُلّ على إظهار كمال عفّتِها وبراءَتِها.

وممّا يدلّ على أنّ المراد بالكناية هنا المباشرةُ بالحلال قولُه بعد ذلك: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، فلمّا نفت بهذه العبارة كونها ليست بغيًّا، تبيّن أنّ المقصود بقولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ المباشرة بالحلال.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 25.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 396.

سِرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿بَشَرٌ﴾:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ البَشَر في جملة: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ دون غيره؛ لمناسبة لفظِ البَشَر للمَسّ؛ فلمّا ذَكَرتِ المَسَّ - والمَسُّ إنّما يكون بمباشرة البَشَرة - ناسبَ ذلك أن تأتيَ بلفظ البَشر لما فيه مِن دلالة على البَشَرة، فكان إيثارُ لفظِ البَشَر أنسبَ للسّياق، ولأنّ لفظ البَشَر أعمُّ؛ فلو قالت مثلًا: (ولم يمسسني رجلٌ) لكان ذلك مقصورًا على مرحلةٍ في حياة الإنسان، وهي مرحلة الرّجولة والبلوغ، لكنّها نفتِ المَسّ مِن أصله، ولأنّ لفظ ﴿بَشَرٞ﴾ بمنزلة المصدر، ومعلومٌ أنّ المَصدر يستوي فيه المُذَكّر والمُؤنّث، والمُفرد والمُثنّى والجمع؛ لذلك كان التّعبيرُ به أبلغَ في نفي الاتّصال بالرّجال مطلقًا، بزواجٍ أو بغيره.

المَسّ إنّما يكون بملامسة البَشَرة، والبَشَر أنسبُ لذِكْر المَسّ

دلالةُ التّنكير في: ﴿بَشَرٞ﴾:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ البشر بصيغة التّنكير في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾؛ لما في التّنكير مِن دلالةٍ على التّعميم، ومجيئُه في سياق النّفي لزيادة التّعميم وتأكيده، أي: لم يمسسني بشرٌ مطلقًا، سواءٌ أكان زوجًا أم غيرَ زوجٍ[1]، وهذا هو المناسب لسياق براءتها مِن كلّ سوء.

كمالُ عفّتِها ونزاهتِها عن كلّ سوء

دلالة الواو في: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾:

عطف النّظمُ الجليل قولَه تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي﴾؛ للدّلالة على أنّه داخلٌ مِن ضمن الحال التي تعجّبت بسببه، مِن أن تحمل بغلام بلا أب، كما أنّه يُفصِح عن كون المُراد بالمَساس المباشرة بالنّكاح، أي: كما أنّي لم يباشرني زوجٌ، لم أكن فاجرةً تبغي الرّجالَ بالحرام[2].

انتفاء كلّ أسباب الحمل

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 25.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 260.

سِرُّ التّعبير بنفي فعلِ الكينونة:

نفيُ الوجودِ أبلغُ في نفي الصّفة

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن النّفي بأسلوب نفي فعل الكون بـ ﴿وَلَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾؛ للدّلالة على تأكيد النّفي، ففِعْلُ الكونِ يدُلّ على تمكّن الوصفِ في الموصوف، فلمّا جاء في سياق النّفي دَلّ على تأكيد انتفاء الصّفة، والمراد بذلك تأكيدُ تبرئَةِ نفسِها مِنَ البِغاء[1].

سِرُّ التّعبير بـ ﴿أَكُ﴾:

مقامُ الخوفِ والهَلَعِ، مقامُ إيجاز

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بفِعْل الكونِ محذوفِ النّون في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾؛ لكونه أنسبَ لمقام التّعجُّبِ والتّهويلِ، فلمّا "هالَها هذا الأمر، أدّاها الحالُ إلى غاية الإسراع في إلقاء ما تريد مِنَ المعاني لها، لعلّها تستريح ممّا تصوّرتْهُ، فضاق عليها المقامُ، فأوجزت بحذف النّون مِن (كان)"[2].

وممّا يُذْكَر في سِرّ حَذْف النّون أنّ القاعدة العربيّة المعروفة في أنّ زيادة المَبنى تدُلُّ على زيادة المعنى، وبمفهوم المخالفة: قِلّةُ المبنى تدُلّ على خفاء المعنى وعدم ثُبوته، وهذا ما أرادته السيّدةُ مريم عليها السلام في نفي صفة البِغاءِ عن نفسها، حيثُ ذكرت الفعلَ منقوصًا مِن غير اكتماله، إشارةً إلى أنّه لا ينبغي اكتمالُ صفةِ البغي فيها، فضلًا عن وجودها.

سِرّ التّعبير بـ: ﴿بَغِيّٗا﴾:

انتفاءُ أسبابِ الحَمل بطريق الحلال والحرام

عبّر القرآن الكريم بقوله - حكاية عن قول مريم عليها السلام -: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ دون: (ولم أكُ بَغيّةً)؛ لأنّه مصروف عن وجهه، فهو فعيل بمعنى فاعل، ولأنّ (بَغيّ) وصفٌ يغلب على النّساء؛ فقلّما تقول العرب: (رجلٌ بَغيٌّ)؛ لذلك كان التّعبير بقوله: ﴿بَغِيّٗا﴾؛ لأنّه يجري مجرى (حائض) و(عاقر)[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 82.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 185.

(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 17/ 353.

آثَرَ النّظمُ الكريم نفيَ صفةِ البِغاء في قوله تعالى - حكايةً عن قول مريم عليها السلام -: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾؛ لأنّها لمّا نفت عن نفسها أسبابَ الحمل مِن طريق المُجاهَرة بالنّكاح الحلال، وهو الزَّواج، بقولها: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾، أتبعتْهُ بنفي أسبابِه مِن طريق المُجاهرة بالزّنى، بمعنى: أنّي لا يُعْرَف عنّي زواجٌ ولا يُعْرَف عنّي الفجورُ، فكيف سيُنسَبُ لي غلامٌ بلا أبٍ؟.

سِرُّ عدمِ التّعبير بالكناية في البَغيّ:

الفجورُ لا تليق به الكناية

عبّر القرآنُ الكريم بلفظ (المس) على سبيل الكناية في قوله - حكايةً عن قول مريم عليها السلام -: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ دون التّصريح، ولم يأتِ التّعبير بالكناية في أمر البَغيِّ؛ لأنّه فجورٌ لا يليق به أمر الكناية، وللتّفريق بين العلاقات الشّرعيّة التي شَرعَها اللّهُ تعالى للإنجاب (الزّواج)، والعلاقات غير الشَّرعيَّة.

المتُشابِهُ اللّفظيُّ:

تشابهت هذه الآيةُ: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾، مع قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ [آل عمران: 47].

والنّاظر في الآيتين يجد اتفاقًا واختلافًا بينَهما في السّياق العامّ، لكن بالنّظر والتّدقيق يجد أنّ موضعَ سورةِ مريم خلا مِن لفظ الرّبوبيّة؛ بخلاف موضع آل عمران، فخاطبت ربّها بقولها: ﴿قَالَتۡ رَبِّ﴾ [آل عمران: 47] ولم تخاطبِ الملائكةَ، مع أنّ الذي نقل لها البشارةَ هم الملائكة، وذلك مِن باب التّضرّع إلى اللّه سبحانه وتعالى مباشرةً دون واسطة؛ لأنّ البشارة منه أصلًا؛ لذلك كان اللّجوء إليه مباشرةً هو أقصرَ الطّرق الموصلة دونَ وسائط.

أمّا موضعُ سورةِ مريمَ فالهبة فيه مُسنَدَةٌ إلى جبريلَ عليه السلام - كما عبر عن ذلك النَّظم القراني -: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ لذلك وجّهتِ

الكلامَ إليه، ولم تبدأ بنداء ربّها كما في سورة آل عمران؛ لأنّ الهبة مسنَدةٌ إلى جبريلَ، والسّياق فيه ريبةٌ مِن أمره؛ لأنّها غيرُ مُتأكّدة بأنّه مِنَ الملائكة.

ومِن مواطن التّشابه فيهما التّعبيرُ بلفظ ﴿غُلَٰمًا﴾ في سورة مريم، و﴿وَلَدٌ﴾ في سورة آل عمران [47]، وسببُ التّنوّع أنّ موضع سورة آل عمران تقدّم فيه ذِكْر المسيحِ باسمه وكُنيته، قال تعالى: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: 45]؛ لذلك جاء التّعبيرُ بلفظ ﴿وَلَدٌ﴾ [آل عمران: 47]؛ أمّا سورةُ مريمَ فلم يتقدّم فيها ذلك، وإنّما الذي تقدّمَ التّعبيرُ بالغلام في قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، فأعادتِ السّؤال باللّفظ نفسِه الذي بُشِّرت به متوافقًا مع ما جاء على لسان جبريل.

وأيضًا: لأنّ سورة آل عمران سياقُها مختلِف؛ حيثُ نزلت الآياتُ الأوَلُ فيها رَدًّا على وفد نصارى نجران في ادّعائهم بُنوّة عيسى عليه السلام للّه ربّ العالمين، تعالى اللّهُ عمّا يقولون.

وممّا يُؤَكّد هذا المعنى أنّ مطلعَ سورةِ آلِ عمران ورد فيه قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: 6]، والتّصوير في الأرحام يتناسب معه التّعبير بالولد.

ومِنَ المتشابه أيضًا ذِكْر قولِه تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا﴾ في سورة مريم دونَ سورة آل عمران، فلم تَرِد فيها هذه الجملة، وذلك لأن سورة آل عمران ذَكَرت طهارةَ مريمَ عليها السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ [آل عمران: 42]، فدلّ ذلك على طهارتها وعِفّتِها، أمّا سورة مريم فأرادت أن تُؤَكّد على عِفّتِها وطهارتها؛ لأنّ الذي بَشّرَها مَلَكٌ في صورة رجل سَويّ الخِلْقة؛ لذلك خاطبته بهذه الجملة تحذيرًا له إن كان يريد بها سوءًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَسُّ واللّمسُ:

لَمَسَ: يَدُلُّ على تَطَلُّبِ شَيْءٍ ومَسيسه أَيْضًا، تَقولُ: تَلَمَّسْتُ الشَّيْءَ، إذا تَطَلَّبْتَهُ بيَدِكَ، واللَّمسُ أَصْلُهُ باليَد، ليُعْرَفَ مَسُّ الشَّيْءِ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى صارَ كُلُّ طالِبٍ مُلْتَمِسًا[1]، واللّمسُ: إدراك بظاهر البَشَرة، كالمَسّ، ويُعبّر به عنِ الطّلب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمس).

اللّـمـسُ طلبُ الـشّيء باليد، والمَسّ جَسُّه بها

﴿ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨﴾ [الجن: 8]، ويكنّى به وبالمِلامَسَةِ عنِ الجِماع(1)، أمّا المسّ فيَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَد(2)، ويُستعمل بمعنى إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فمِنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرٍ: ما يُصيبُ مِنْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأَكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزمر: 8](3)، فاللّمس أبلغ في التّعبير عن تلاقي البشرتين من المسّ لأنّه يدلّ على طلب الشّيء وتلمسّه باليد ومسّه، ولذلك استُعمِل المَسّ لما كان خفيفًا، كما عبر البيان الإلهي: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ [الأنبياء: 83] مِنَ الأدب الرّفيع؛ إذ جعل أيّوبُ ما حَلَّ به مِنَ الضُّرِّ كالمَسِّ الخفيف(4)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201]، فآثَرَ في الآية الكريمة التّعبيرَ بالمَسّ للمبالغة في نفي ملامستها أيّ بَشَرٍ.

(1) الرّاغب، المفردات: (لمس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مس).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 126.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الإتحاف بالجواب يزيل العَجَب

لمّا بيّنتِ الآية السّابقة أنّ مريم عليها السلام أبدت تعجّبَها مِن تبشيرها بغلامٍ وهي بذلك الحال، جاءت هذه الآية بجواب جبريل عليه السلام لرَدّ عَجَبِها، وتبيينِ الأمرِ لها، فقال المَلَك مُجيبًا لها عمّا سألت: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿هَيِّنٌ﴾: (هون) أصلٌ يَدُلُّ على سُكونٍ أَوْ سَكينَةٍ أَوْ ذُلٍّ، مِنْ ذَلكَ الهَوْن: السَّكينَةُ والوَقارُ، قالَ الله سُبْحانَهُ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63][2]، والهَوْنُ: مصدر هان عليه الشّيء، أي: خفَّ، وهَوَّنَهُ اللّه عليه، أي: سهّله وخفّفه، وشيءٌ هيّنٌ، على وزن فيعل، أي: سهلٌ[3]، ويقال: هانَ الأمرُ على فلان: سَهُل، قال اللّه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ [النور: 15][4].

2) ﴿مَّقْضِيًّا﴾: (قضى) أَصْلٌ يَدُلُّ على إِحْكامِ أَمرٍ وإِتْقانه وإِنْفاذِه لجِهَتِهِ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ، والقَضاءُ: الحُكْمُ، ولِذَلِكَ سُمّيَ القاضي قاضيًا، لأَنَّهُ يُحْكِمُ الأَحْكامَ ويُنْفِذُها[5]، القَضاءُ: فصْلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هون).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هون).
(4) الرّاغب، المفردات: (هان).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).

فعلًا، ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] أي: أمر بذلك، وقال: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4] فهذا قَضاءٌ بالإعلام والفصل في الحُكْم، أي: أعلمناهم وأوحينا إليهم وحيًا جَزمًا، وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١﴾ [مريم: 71]، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة: 210] أي: فُصِل، تنبيهًا أنّه صار بحيثُ لا يمكن تلافيه[1]، والمراد به في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أي: "كان خَلْقُه أمرًا محكومًا به، مَفروغًا منه، سابقًا في عِلْم الله أن يقع"[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

جواب المَلَك أزال أسبابَ التّعجّبِ

بيّنت هذه الآيةُ أنّ جبريل عليه السلام قال لها مجيبًا عن سؤالها: هكذا الأمر كما تصفين، من أنّك لم يمسسكِ بشرٌ، ولم تكوني بغيًّا، ولكنّ ربّك قال: إنّ خَلْقَ الغلام الذي سأهَبُهُ لكِ هيّنٌ، لا يتعذّر عليّ خَلْقُه، وهِبَتُه لكِ مِن غير أبٍ، كي نجعلَه علامةً وحُجّةً على خَلْقي، ورحمةً منّا لكِ، ولِمَن آمنَ به وصَدّقَه، وكان خَلْقُه منكِ أمرًا قد قضاه اللّهُ، ومضى في حُكْمِه وسابق عِلْمِه أنّه كائنٌ منكِ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصْل هذه الآية عمّا قبلَها:

الجواب في المحاورة أزال ما وقع مِنَ التّعجّب

فصل النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنفةٌ جيء بها ليُقَرِّر المَلَك مقالتَه التي قالها، وتحقيقًا لها، أي: الأمر كذلك، وكما قلتُ لك[4]، فعَدلَ عن إبطال مقالتِها إلى بيان هَوْن هذا الأمرِ على اللّه تعالى؛ تأكيدًا لوقوعه، وأنّه بحيثُ لا تنفع المدافعةُ، ويجب الإذعانُ والتّسليمُ.

(1) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 217.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 165.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.

سِرُّ التّعبير باسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكِ﴾:

ما يستغربه العِبادُ ويستعظمونه هو يسيرٌ هيّنٌ عند المولى الجليل

عبّر النّظمُ الجليل باسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكِ﴾ المُصَدّر بحرف التّشبيه دون (هذا) في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾؛ للدّلالة على فخامة هذا الحَدَث الخارقِ للعادَة، وعُلوّ قَدْرِه لجَمعِه لحالتين؛ حالةِ القُدْرة الإلَهيّة في خَرْق نواميس الإنجاب التي تختلف عن كلّ ما عداها في إنجاب البشر، وحالةِ البشريّة التي تختلف عن نظائرها في إنجاب البشر، وللدّلالة على أنّ المَلَك أراد موافقتَها على قولها، وبيانَ أنّ الأمر كما قُلْتِ أنتِ على وجه التّمام مِنَ المُشابهة، فاقتضى ذلك إدخالَ حرفِ التّشبيه على اسم الإشارة، "وجوابُ المَلَك معناه: أنّ الأمر كما قلتِ، نظير قوله في قصّة زكريا: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وهو عدولٌ عن إبطال مُرادها مِنَ المراجعة إلى بيان هَوْن هذا الخَلْق في جانب القُدْرة"[1].

سِرُّ فصلِ جملة: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

خَرْقُ نواميس الكون هَيّنٌ على الله تعالى

فصلَ النّظم الجليلُ الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ لأنّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، فهي جوابٌ لسؤالٍ نشأ عن لسان الحال، كأنّه يقول: كيف يكون بغير سبب؟ فجيء بالجملة جوابًا عن ذلك[2]، وأفاد هذا الاستئنافُ تقريرَ ما في الاستئناف الأوّل من بيان.

عِلّةُ إيثارِ التّعبيرِ بالرّبوبيّة:

الإحالةُ على لطائف الرّبّ في سياق السّورة

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ لأنّ السّورة قد بُنِيَت على الرّحمة واللّطف والإحسان بعباد الرّحمن، وكَثُر فيها ذلك، وقد صُدّرت بلفظ الرّبّ في أوّلها، فكان التّعبيرُ باسم الرّبّ إحالةً على تلك البداية وتلك الصّور[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 83.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 186.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 186.

ولم يُعَبِّر بلفظ الجلالة (اللّه) كما في سورة آل عمران بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: 47]؛ لأنّ سورة آل عمران مَبنيّةٌ على تأصيل أمر التّوحيد؛ فناسبَ التّعبيرَ بلفظ الألوهيّة، ويُؤكّد ذلك تكرارُ التّعبير بلفظ الجلالة في قصّة مريم عليها السلام، من ذلك قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: 33] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ [آل عمران: 45] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [آل عمران: 51].

سِرُّ إيثار التّعبيرِ بالاسميّة في: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾:

قدرةُ الله تعالى على الإيجاد والخَلْق حقيقةٌ راسخةٌ ثابتة

عبّر النّظمُ الجليلُ عن سُهولة خَلْقِ هذا الغلامِ بالجُملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾؛ تأكيدًا لمضمونها، وتقويةً للإخبار بها، فالإخبارُ بكونه هيّنًا سهلًا على اللّه تعالى مؤكّد، لما لها مِن دلالةٍ على الثّبوت، فسُهولةُ الخَلْق على اللّه تعالى بأيّ شكل مِنَ الأشكال حقيقة ثابتةٌ لا تنتقض بمَرّ الزّمان.

دلالةُ التّعبيرِ بضمير: ﴿هُوَ﴾:

الـدّلالـةُ على تخصيصه بالخَلْق تأكيدٌ للحُكم وإبطالٌ للاستغراب والاستعجاب

عبّر النّظم الجليل بالضّمير الغائب ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾؛ تعبيرًا عنِ الحال الذي وقع التّعجّبُ منه، وهو إيجادُ الغلام على هذه الهيئة مِن خُلوّ الأبِ، وانتفاءِ النّكاح والبِغاء[1]، أي: "ما ذكرتُ لكَ مِن هِبَة الغُلامِ مِن غير أن يمسَّكِ بشرٌ أصلاً"[2].

سِرّ التخصيصِ بـ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾:

إزالةً للاستغراب الواقع، وتأكيدًا لسهولة الخَلْق بدون أسباب

خَصّصَ القرآنُ الكريم خَلْقَ عيسى عليه السلام بكونه هيِّنًا على اللّه، مع أنّ كلّ شيءٍ هيِّنٌ على اللّه تعالى، لما أنّ التّعجّب وقع منه، فكان تخصيصُه بحُكم السّهولة تأكيدًا للحُكم، ونقضًا للاستغراب.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 186.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿عَلَيَّ﴾:

أَمرُ عيسى عظيمٌ جليلٌ، ولكنّه تحتَ قُدرةِ الله سهلٌ يسير

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الاستعلاء (على) المضاف إلى ضمير المُتكلّم العائدِ على الله تعالى ذِكْرُه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ﴾؛ للدّلالة على أنّه هيّنٌ على الله تعالى وحْده، فلا أحدَ غيرُه قادرٌ عليه[1]، وأفاد الاستعلاءُ تأكيدَ كونِ هذا الفعل مُتّصفًا بالسّهولة على الله تعالى، كما أنّه يُشير إلى إقرار التّعجّب منه مِنَ النّاس.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿هَيِّنٌۖ﴾:

خَلْقُ الشّيءِ بسببٍ وبغير سببٍ هيّنٌ على الله تعالى

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿هَيِّنٌۖ﴾ دون (سهل) في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ﴾؛ لأنّ السّهل أصلُه يَدُلُّ على لينٍ وخِلافِ حُزونَةٍ[2]، فالسَّهْلُ: نَقيضُ الحَزْن، والسَّهْلُ كُلُّ شَيْءٍ يميل إلى اللّين وقلّة الخُشونَة[3]، أمّا الهيّنُ فأصلُه يَدُلُّ على سُكونٍ أَوْ سَكينَةٍ أَوْ ذُلٍّ، مِنْ ذَلِكَ الهَوْنُ: السَّكينَةُ والوَقارُ[4]، هان عليه الشّيء، أي: خَفَّ، وهَوَّنَهُ اللّه عليه، أي: سهّلَه وخفّفه[5]، فالتّعبيرُ بلفظ الهَون أدلّ على خِفّة تكلفة الشّيء، دون السّهولة الدّالّة على اللّين وقلّة الخشونة، وذلك جريًا على خطاب العرب بما يُدَلّل على سهولة أمر إيجاد عيسى، وإلّا فالأمرُ عند اللّه تعالى بين الكاف والنّون.

دلالة الواو في: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾:

كرامةُ الله تعالى موصولةٌ لمريمَ ولوليدها

عطفَ النّظمُ الجليل قولَه تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ على مُقَدّرٍ، تقديرُه: لنبيّنَ به قدرتَنا، ولنجعلَه آيةً للنّاس، وعلى هذا تكون الواو من باب عطف العِلّة على العِلّة، ويجوز أن يكون من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 186.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سهل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سهل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هون).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (هون).

باب عطف المعلول على المعلول، عطف الخاصّ على العامِّ، والمعنى: نَهبُ الغلامَ من غير أبٍ، ونفعلُ ذلك لنجعلَه آية[1].

سرُّ التّعبير بالجملة الفعليّة في جَعْله آيةً:

الاستدلال به مكرّرٌ حاصلٌ بأمر الله تعالى

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالجملة الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾، دون التّعبير بالاسميّة كما في قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ﴾؛ للدّلالة على التّغاير بينَ الجُملتين في التّركيب، ولإفادة الدّلالة على دوام الهَون وإزالةِ التّعجُّب والاستبعاد، وللدّلالة على تجدّد هذه الآية[2]، ولأنّ جَعْلَه آيةً يتّصف بالتّكرار، فيحصل به الاستدلال على كمال قُدْرة اللّه تعالى على الإيجاد في مناسباتٍ عديدة، وإشارةً إلى أنّ كونَه آيةً إنّما كان بفعل اللّه تعالى وإرادته، فهو جَعله كذلك، فالعَجَبُ في قصّته والغرابةُ حاصلةٌ بفِعْل اللّه تعالى، وليست هي صفةً ذاتيّةً فيه، فاللّه تعالى جعله "بُرهانًا يستدلّون به على كمال قُدرة بارئهم وخالقِهم الذي نوّع خَلْقَهم، فخلق أباهم آدمَ مِن غير ذَكَرٍ ولا أُنثى، وخلق حواءَ مِن ذَكَرٍ بلا أُنثى، وخلق بقيّة الذّرّيّة مِن ذَكَر وأنثى، إلّا عيسى فإنّه أوجده مِن أُنثى بلا ذَكَر، فتمّت القِسْمَةُ الرّباعيّة الدّالّة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه"[3].

دلالة التّعبير باللّام في: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾:

لا تخلو هباتُ الجليلِ من عظيم الحِكَم

أدخل النّظمُ الجليل لامَ التّعليلِ على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾؛ لبيان عِلّة هذه الهبة، أي "ولنجعلَ وهْبَ الغلامِ آيةً لهم وبرهانًا، يستدلّون به على كمال قُدرتِنا نفعل ذلك"[4]، فليستِ الهبةُ والإكرام بهذا الغلام خاليةً مِن

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 211.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 212.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 90.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.

عظيم الحِكَم، بل هي إنّما حصلت إظهارًا للحَقّ، واستدلالًا على القُدرة والحِكمة، وتسجيلًا لرحمته تعالى.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبة إلى التّكلّم:

الخطابُ بصيغة التّعظيمِ أنسبُ لبيانِ كمالِ القُدرة

التفتَ النّظمُ الجليل مِنَ الغَيبة إلى التّكلّم في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾، فلم يقل: (وليجعله)؛ فعدلَ مِنَ الغيبة إلى التّكلّم بنون العَظَمة؛ إظهارًا لكمال قُدرته ﷻ[1]، فإنّ جَعْلَ الغلام هو آيةٌ عظيمة، وهي كائنةٌ بما للّه تعالى مِن عَظَمةٍ؛ تفخيمًا لشأن هذا الغلام، فخَلْقُ عيسى هو مِن آيات اللّه تعالى الجليلة، فكان التّنويهُ على ذلك بصيغة التّعظيم.

دلالة التّعبير بـ ﴿ءَايَةً﴾:

هبةُ الغلام على هذه الهيئة دليلٌ على قدرة الإحياء والبعث

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الآية دون المعجزة في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنّ المراد كونُ ذلك علامةً ودليلًا على كمال قدرة اللّه على البعث وإعادة الخَلْق؛ لأنّ مَن قَدَر على إنشاء الولد بلا أبٍ قادرٌ على الإحياء بعد الموت؛ فأَمرُ عيسى علامةٌ على كمال قدرة اللّه تعالى على البعث[2]، وليس المرادُ التّحدّي والإعجازَ؛ لذلك لم يُعبّر بالمعجزة.

دلالة التّنكير في ﴿ءَايَةً﴾:

كثرةُ الآياتِ في شأن عيسى عليه السلام

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنِ الآية بصيغة التّنكير في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ تعظيمًا لها، وتفخيمًا لشأنها، وذلك لتَعدّد الآياتِ فيها؛ فخَلْقُه بلا أبٍ آيةٌ، وكلامُه للنّاس في المَهْد آيةٌ، إلى غير ذلك ممّا هو مَطْويٌّ في شأن عيسى عليه السلام.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 186.

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

خَلْقُ عيسى بلا أبٍ آيةٌ للنّاس على وقوع البعث

قيّد النّظمُ الجليلُ آيةَ خَلْقِ عيسى ﷺ بأنّها كائنةٌ للنّاس في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾، والمراد بالنّاس: عمومُ النّاس أو قومها، أي: أنعمنا به عليكِ وعلى "النّاس بالهداية والدّعاء إلى عبادة اللّه وتوحيده، فيهتدون بهديه، ويسترشِدون بإرشاده"[1]، فهو تنويهٌ بأنّه قد روعيَ في خَلْقه شأنُ النّاسِ مِن أوّل الأمر، وأنّها آيةٌ جيء بها بحيثُ يقع بها الاعتبار، فهي صالحةٌ لأن يُهتَدَى بها؛ لكونها ممّا يَحْكُم العقلُ بأنّها خارقةٌ، لا يمكن أن تكون إلّا مِن خالقٍ مُقْتَدِرٍ على البعث والإيجاد.

دلالةُ وصفِ عيسى ﷺ بالرّحمة:

لهدايته إلى الحَقّ ودلالته عليه

وصف القرآنُ عيسى ﷺ بالرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾؛ لأنّ اللّه تعالى جعلَه رحمةً للعباد يهتدون بإرشاده، ولكونه هاديًا إلى الحَقّ ودليلًا عليه؛ فمنِ اهتدى به وتَبِعَه كان ذلك نجاةً له.

دلالة التّنكير في: ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

تعظيم شأنها، وعُلوّ قَدْرِها

دلّ تنكيرُ لفظ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ على تعظيم الرّحمة؛ لأنّها لّما كانت شاملةً للنّاس، فلا بدّ أن تكون جليلةَ القَدْر، عظيمةَ الأثرِ، ولأنّ المُنْتَفِعَ بهذه الرّحمة كثيرٌ مِنَ النّاس، فهو ﷺ "طريقُ هدًى لعالَمٍ كثيرٍ، فينالون الرّحمة بذلك"[2].

دلالةُ التّعبير بـ: ﴿مِّنَّاۚ﴾:

تعظُّمُ المعاني على قَدْر جهةِ صدورها

قيّد النّظمُ الجليل الرّحمةَ بشِبه الجملة ﴿مِّنَّاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾؛ للدّلالة على أنّها رحمةٌ عظيمةٌ

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 90.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 9.

كائنةٌ مِنَ اللّه تعالى[1]، وفي ذلك مِنَ التّفخيم لها ما لا يَخْفَى، فهي رحمةٌ صادرةٌ مِنَ الرّحمن، فتكون على الغاية القصوى مِنَ الخير والبَركة، فهي ليست رحمةً مطلقةً، بل مُقيّدةً بجهة صدورها؛ تفخيمًا لها، وتعظيمًا لشأنها.

دلالة الواوِ في: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾:

قطعُ المحاورة بإيراد الأمر الحتميّ

صدّر النّظمُ الجليل الجملةَ بالواوِ الدّالّة على الاستئناف في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾، فالجملةُ مستأنَفَة[2]، والغرضُ منه: قطعُ المحاورةِ بشأنه بعد أن بيّن الغرضَ مِن خَلْقه وإيجاده، فأَمرُه قد "قُدّرَ وسُطّر في اللّوح، لا بدّ مِن جريانه عليك"[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالأمر في: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا﴾:

شمولُه لكلّ أحداث القِصّة

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾؛ للدّلالة على خَلْق عيسى عليه السلام وإيجادِه، و(الأمر) هنا واحد الأمور، وليس بمصدر أَمَرَ يَأْمُر[4]، فالتّعبير عنِ الهبة وخَلْق عيسى عليه السلام بأنّه (أَمرٌ) يدُلّ على أنّ الحالة بعمومها قد قضى اللّهُ تعالى بها، لا بعيسى وحسب، وهذا يتناول شأنَ مريم وحالتَها وما يتبع ذلك، وعيسى وما يتبعه.

دلالةُ التّنكير في: ﴿أَمۡرٗا﴾:

إفادة العموم والشّمول لأحوال عيسى عليه السلام

دَلّ التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿أَمۡرٗا﴾ على إفادة العموم والشّمول لأحوال عيسى عليه السلام، مِن أوّل أمر الهبة مُرورًا بالحَمل والنّطق وما أجراه اللّهُ على يديه مِن معجزات.

بلاغة التّذييل في: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾:

ذيّل النّظمُ الجليل الآيةَ الكريمة بالعبارة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 285.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 10.

يَحكُم اللهُ تعالى، ولا رادَّ لحُكْمه

﴿أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾، وهو مِن "تتمّة كلامِ جبريلَ لمريمَ، يُخْبِرها أنّ هذا أمرٌ مُقَدّر في عِلْمِ اللّه تعالى وقَدَرِه ومَشيئتِه"[1]، فهو إحالةُ الأمر إلى كونه قَدَرًا قد قُضيَ وحُكِمَ به، فلا سبيلَ لردّه ولا للمنازعة بشأنه، حثًّا لها على الامتثال والشّروع في الاستقبال؛ لأنّ مريم عليها السلام بَدأ أمرُها بالاستغراب والاستعجاب؛ فسألت عن كيفيّة حدوثِ ذلك، فكان التّذييل مناسبًا للتّعبير عن كمال قدرته سبحانه المطلقة، وأنّ ذلك الخَلْق أمرٌ مُقَدَّرٌ أزلًا، ولا رادَّ لما أرادَه اللّه.

۞ الفروق المعجميّة:

الآية والمُعجِزة:

الآيةُ العلامَةُ الظّاهرةُ، والمعجزة خارقةٌ لا تُعارَضُ

الآية العلامة، يقول: ائتني بآية كذا، أي: بعلامة، ومنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ﴾ [آل عمران: 41]، وهي العلامَةُ الظّاهرة[2]، أمّا المعجزةُ فأصلُها يَدُلّ على الضَّعْف[3]، والعَجْزُ: ضِدّ القُدرة، قال تعالى: ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ﴾ [المائدة: 31][4]، والمُعجِزَة: واحدة مُعجِزات الأنبياء[5]، فهي تُعْجِز مَن يعارضُهم[6]، فآثَرَ في الآية الكريمة التّعبيرَ بلفظ الآيةِ لأنّه أراد معنى العلامَةِ الدّالّة على قُدرة اللّه تعالى، لا العلامةِ الدّالّة على الإعجاز.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 90.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أيي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز).
(4) الرّاغب، المفردات: (عجز).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (عجز).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عجز).

﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢﴾ [مريم: 22]

عند ظهور سموِّ المقصدِ تُذعنُ النّفوسُ المؤمنة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

لمّا ذَكَرتِ الآيةُ السّابقة ما قاله جبريل، وسمعت مريمُ ما قاله عليه السلام لها، بيّنت هذه الآية أنّها قدِ اطمأنّت إلى ما قال فأذعنت واستسلمت لقضاء اللّه تعالى وأَمرِه، فنفخ جبريلُ في جيب دِرْعها، فبلغت تلك النّفخةُ جوفَها، فحملت الغلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَبَذَتۡ﴾: (نبذ) أَصْلٌ يَدُلُّ على طَرْحٍ وإِلْقاءٍ، ونَبَذْتُ الشَّيْءَ أَنْبِذُهُ نَبْذًا: أَلْقَيْتُهُ مِنْ يَدي[2]، النَّبْذُ: إلقاءُ الشّيء وطَرْحُه لِقلّة الاعتداد به، وانْتَبَذَ فلان: اعتزلَ اعتزالَ مَن لا يقلّ مبالاتُه بنفسه فيما بين النّاس، قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾، وقعد نَبْذَةً ونُبْذَةً، أي: ناحيَةً معتزِلةً[3]، وانْتَبَذَ عَنْ قَوْمِه: تَنَحَّى، وانْتَبَذَ فُلانٌ إِلى ناحيةٍ، أَي: تَنَحَّى ناحيَةً[4]، أي: منفردًا بعيدًا، والمراد به في الآية: أنّها تنحّت منفردةً مَكانًا بعيدًا حياءً وفِرارًا على وجهها[5].

2) ﴿قَصِيّٗا﴾: (قصو) أَصْلٌ يَدُلُّ على بُعْدٍ وإِبْعادٍ، مِنْ ذَلِكَ القَصا: البُعْدُ، وهوَ بالمَكانِ الأَقْصَى والنّاحيَةِ القُصْوَى[6]، وقولهم: قَصَوْتُ البعير: قطعتُ أُذُنَه، والقَصيَّةُ مِنَ الإبلِ: البعيدةُ عن

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 330 - 331، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 44.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (نبذ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نبذ).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 10.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصوى).

الاستعمال[1]، والقَصيّ: الطَرَفُ البَعيد مِن شيءٍ ممتدٍّ، ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾[2]، يقال: قَصَوْتُ عنه، وأَقْصَيْتُ: أبعدتُ، والمكان الأَقْصَى، والنّاحيَةُ القُصْوَى، ومنه قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ [القصص: 20]، وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: 1] يعني: بيت المَقْدِس، فسمّاه الأَقْصَى اعتبارًا بمكان المخاطَبين به مِنَ النّبيّ ﷺ وأصحابه، وقال: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: 42]، والمراد به في الآية مكانًا بعيدًا عن مكان أهلها[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ظهور الحَملِ واعتزالُ النّاسِ

يخبر النّظمُ الجليل في هذه الآية أنّ مريم عليها السلام لم تلبث بعد ذلك إلّا يسيرًا فظهر حملُها، فحملت بالغلام بعد أن نفخ جبريلُ في جَيْب قميصها، فوصلت النّفخةُ إلى رَحِمِها، فوقع الحملُ بسبب ذلك، فتباعدت بالغلام وهو في بطنها عن النّاس إلى مكانٍ بعيد[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾:

سرعةُ تحقيقِ مُراد الله تعالى

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾، وهي الفاء الفصيحة الدّالّةُ على وجود محذوف، وتقدير الكلام: فاطمأنَّتْ إلى قوله، فنفخ في جيب دِرْعِها فحملتْهُ[5]، كما أنّها تدلّ على التّفريع والتّرتيب؛ أي: فترتّب على تلك المراجعة أنّها حملت به مِن فورها[6]، والعطفُ بالفاء دالٌّ "على سرعة تسبيب الحملِ عن هذا القول، وإن كان التّقدير بما

(1) الرّاغب، المفردات: (قصى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قصو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 84.
(4) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 306.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 27.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 84.

أرشد إليه في غير هذه السّورة: فنفخ في دِرعها فوصل النّفخ إلى جوفها، فحملته"[1].

سِرُّ التّعبير بالإضمار دون الإظهار:

لسبق ذِكْره، ولمُراعاة أمرِ الحَمل

جاء التّعبير القرآنيّ بالإضمار في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾ دون الإظهار بأن يقول: (فحملتِ الغلامَ)، وذلك لسبق ذِكْره قبلَ ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، ولمراعاة أمر الحَمل، فهو مبنيٌّ على الخفاء؛ لأنه لم يَظْهَرْ بعدُ كغلام، فناسب التّعبير بالإضمار.

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ﴾:

المبادرة بالانعزال دفعًا لسوء المقال

آثَرَ النّظمُ الكريم العطفَ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾؛ للدّلالة على أنّها بعد الحمل قدِ اعتزلت إلى المكان القَصيّ بلا مهلةٍ ولا تأخير، فالانتباذ كان عَقِبَ الحَمل[2]، كما أنّه يَدُلّ على التّرتيب، أي: فترتّبَ على حملها بالغلام أنّها انتبذت وفارقت أهلَها، وانفردت إلى مكانٍ قصيّ، وهذا يدُلُّ على أنّ الحمل وقع قبلَ طلبِها الانفرادَ، وأنّ الحمل بعيسى قد حدث مِن فور نفخ المَلَك فيها.

سِرُّ التّعبير بالانتباذ في: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ﴾:

الانتباذ دالٌّ على الابتعاد مع الانفراد

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الانتباذ دونَ الابتعاد في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾؛ لأنّ الانتباذ يدُلُّ على الانفراد لا مطلقِ البُعْد، أي: أنّها لم تبتعد وحسب، بل كانت منفردةً بابتعادها، ويظهر أنّ المقصود ليس الابتعاد، بل أن تكون منفردةً لما أحسّت به مِن أمر الحمل، ممّا يُعَرّضها للقيل والقال؛ لذلك آثَرت أن تنتحيَ ناحيةً بعيدةً عن أهلها، بحيث لا يراها أحدٌ منهم، فضلًا عن غيرهم مِنَ النّاس، وهذا لا يتحقّق إلّا بالابتعاد عنِ الاختلاط

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 187.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 187.

بالنّاس، وفي ذلك تصويرٌ لشِدّة معاناتها؛ إذ تنعزل عنِ الأهل وهي في حملٍ يُحْوِجُها إلى الاستعانة برفيق، وكلّ ذلك يُصَرّح بمكانة مريم عليها السلام وفضلِها.

دلالة التّعبير بالجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

وجود الحمل سببٌ للاعتزال

عبّر النّظم الجليل بشبه الجملة في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ للدّلالة على أنها اعتزلت وانفردت في ذلك المكان البعيد وهو في بطنها حال حملها به[1]، "فالجارُّ والمجرور في حيز النصبِ على الحاليَّة أي فانتبذت ملتبسةً به"[2]، وأجاز بعض أئمّة التّفسير أن تكون الباء للسّببيّة أي "لمّا صارت حاملًا به، اعتزلت بسببه مكانًا بعيدًا من قومها، فرارًا من القالة"[3].

دلالةُ التّعبير بـ: ﴿مَكَانٗا﴾:

فارقت أهلَها وانفردت وحيدةً؛ تلبيةً لأمر ربّها

صرّح النّظمُ الكريم بلفظ المكان وصِفتِه في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ مع أنّ ذلك ظاهرٌ من قوله: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾؛ تأكيدًا لانفصالها عن أهلها، وفراقها لهم منفردةً في مكانٍ قَصيّ؛ إظهارًا لشِدّة حالِها، وتسجيلًا لعاملٍ من عوامل معاناتها، فهي لتلبية أمرِ ربّها تعالى اضطرّت لمفارقة الأهل والانفراد وحيدةً في مكانٍ قَصيّ، محتجبةً به عنِ النّاس.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿قَصِيّٗا﴾:

البحثُ عنِ الملاذ الآمن

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿مَكَانٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ على تنحّيها عن مكان أهلها وانقطاعها عنه، وكلُّ شَيْءٍ تَنَحَّى عَنْ شَيْءٍ فقَدْ قَصا[4]، والقَصيَّةُ مِنَ الإبلِ: البعيدةُ عنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 187.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 90.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قصا).

الاستعمال[1]، والقَصيُّ: الطَرَفُ البعيد مِن شيءٍ ممتدٍّ[2]، فهو دالٌّ على الانقطاع عنِ المكان الذي صار قاصيًا بالنّسبة إليه، وهذا يدلّ على أنّها قدِ انقطعت في مكانٍ على ناحيةٍ أُخرى مِن مكان أهلها، ولعلّ السّببَ في بُعدِها عنِ النّاس؛ لتَسْلَمَ مِن كثرة أسئلتهم، وفضولِ أقوالِهم عن حملها وكيفيَّته، كما أنّ فيه محافظةً على الفاصلة والنّسق الصّوتي، فتبقى خاتمةُ الآيات الصّوتيّة على وتيرةٍ واحدةٍ، وهو أدعى لاستجلاب السّمعِ، وتنبيهه على معالم القِصّة، فالفاصِلة لها أثرٌ بلاغيٌّ رفيع، يَحْسُن الاهتمامُ به، والمحافظة عليه.

دلالة توالي الفاءات:

السّرعة والتّرتيب

دلّ توالي الفاءات: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ﴾...﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾، في هذا المشهد من حمل مريم عليها السلام على السّرعة والتّرتيب، ممّا جعل بعضَ العلماءِ يرى أنّها حملت فوضعَتْ في الحال دونَ تأخير، على أنّه أمرٌ خارقٌ للعادة، إلّا أنّه لا يوجدُ عليه دليلٌ مِنَ القرآن أوِ السّنّةِ الصّحيحة؛ لذلك الأَوْلَى في القبول أن يكون الحَملُ على المعتاد مِن تسعة أشهر حتّى يأخذَ الجنين أطوارَه، ويكون في ذلك تهيئةٌ لمريم عليها السلام مِن النّاحية النّفسيّة والجسديّة، ويكون التّعبير بالفاء من باب الدّلالة على المراحل في الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ [المؤمنون: 14] الآية، ومع هذه الفاءات فالحَملُ مَرّ بأطواره الطّبيعيّة.

سِرّ اختلافِ التّعبير:

النّاظر في قصّة مريم عليها السلام في هذه السّورة يجد حديث القرآن عنِ انتباذها واتِّخاذها مكانًا تنتبذ فيه، وُصِفَ مَرّةً بأنّه شَرقيّ، في

(1) الرّاغب، المفردات: (قصى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قصو).

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، ومَرّةً بأنّه قَصيٌّ، في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾؟

والسّببُ في ذلك اختلافُ المواقفِ؛ ففي المَرّة الأولى كان انتباذُها في بيتها أو المسجد، والغَرَض مِن ذلك خَلْوَتُها للعبادة؛ أمّا في المشهد الثّاني فكان بعد الحَمل، وهو أمرٌ عظيم لا تستطيع أن تواجِهَ النّاسَ به؛ فضلًا عن أهلها، لذلك كان الوصفُ للمكان بالقَصيّ مبالغةً في البُعْد عنِ الاتّهامات؛ فناسبَ الوصف للمكان مراعاةً للسّياق الذي قيلت فيه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الانتباذُ والابتعاد:

الانتباذُ أَخَصّ مِـنَ الابتعاد، فهو ابتعادٌ مع انفراد

الانتباذُ بُعْدٌ معَ انفراد، يقال: انْتَبَذَ عَنْ قَوْمِهِ: تَنَحَّى، وانْتَبَذَ فُلانٌ إِلى ناحيَةٍ، أَي: تَنَحَّى ناحيَةً[1]، أي: منفردًا بعيدًا، والمُراد به في الآية: أنّها تنحّت مَكانًا بعيدًا حياءً وفِرارًا على وجهها[2]، فالانتباذ: ابتعادٌ معَ انفراد، فهو ليس مطلقَ الابتعاد، وهو الأنسبُ في التّعبير في سياق الآية، فهي لم تبتعد وحسبُ، بلِ انفردَت.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نبذ).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 10.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

مَجيء المخاضِ دليلٌ على بلوغ الحمل نهايتَه

بعد أن بيّن النّظمُ الجليل في الآية السّابقة أنّ مريم عليها السلام قد حملت بالغلام وابتعدت به وهو محمولٌ في بطنها، ذكر في هذه الآية أنّها بعد أن حملت وحان وقتُ ولادتِها ألجأها ألمُ المخاضِ والولادة إلى جذع النّخلة لتتّكئَ عليه عند الولادة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَجَآءَهَا﴾: من جاءَه بكذا وأجاءَه، وإنّما هو مُعدّى عن جاء، وعلى هذا قولهم: شرّ ما أجاءَك، وأَجاءَه إِلَى الشَّيْءِ: جاءَ به وأَلجأَه واضْطَرَّه إِلَيْهِ؛ وأَصله مِنْ جِئْتُ، وقَدْ جَعلَتْهُ العَرب إِلْجاءً[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾، قيل: ألجأها، وجاء بكذا: استحضره، نحو: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النّمل: 22][3]، والمراد به في الآية: "ألجأها ألمُ الولادة إلى الاستناد بالجِذع؛ لتعتمدَ عليه، وتستترَ به"[4].

2) ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾: (مخض) أَصْلٌ يَدُلُّ على اضْطِراب شَيْءٍ في وعائِه مائِع، ثُمَّ يُسْتَعارُ، والماخِضُ: الحامِلُ إذا ضَرَبَها الطَّلْقُ، وهَذا أَيْضًا على مَعْنَى التَّشْبيه، كَأَنَّ الَّذي في جَوْفِها شَيْءٌ مائِعٌ يَتَمَخَّضُ[5]، ومَخِضَتِ المرأَةُ تَمخَضُ مَخاضًا ومِخاضًا، ومَخَّضَت: أَخذها الطَّلْقُ،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 28.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جيأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 91.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مخض).

والمَخاضُ: وجعُ الوِلادةِ، وكلُّ حامِلٍ ضرَبها الطلْقُ، فهيَ ماخِضٌ، وإنها لتَمَخَّضُ بوَلَدِها، وهوَ أَن يَضْرِبَ الولدُ في بَطْنِها حَتَّى تُنْتَجَ فتَمتَخِضَ[1]، والمراد به في الآية: الطّلْق وشِدّةُ الولادةِ وأوجاعها[2].

3) ﴿جِذۡعِ﴾: (جذع) أصلٌ يدُلّ على مقاربة النّامي اكتمالَ النّموِّ انتصابًا، كالجَذَع من أولاد الإبل، ومنه جِذْع النّخلة: ساقُها، وهو الجزء الذي يتمثّل فيه النُّموُّ، فكأنَّ صيغة اسمه بمعنى اسم الفاعل، أي: النّامي[3]، والجَذَعُ مِنَ الإبل: ما أتت لها خمسُ سنين، ومِنَ الشّاة: ما تمّت له سَنَةٌ، والجِذْعُ جمعه جُذوع، قال: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: 71][4]، وهو ساق النّخل[5].

4) ﴿نَسۡيٗا﴾: (نسي) أصلٌ يَدُلُّ على إِغْفالِ الشَّيْءِ، ونَسيتُ الشَّيْءَ، إِذا لَم تَذْكُرْهُ[6]، والنِّسْيُ: الشَّيْءُ المَنْسيُّ الَّذي لا يُذْكَر، أَي: شَيْئًا حقيرًا مُطَّرَحًا لا يُلْتَفَت إِليه، وجَمعُهُ: أَنْساء، تَقولُ العَرَبُ إِذا ارْتَحَلوا مِنَ المَنْزِلِ: انْظُروا أَنْساءَكم، أَي: الأَشياءَ الحَقيرة الَّتي لَيسَتْ عِنْدَهُم ببالٍ، مِثْلَ العَصا والقَدَح والشِّظاظ، أَي: اعْتَبِروها لئَلّا تَنْسَوْها في المَنْزِلِ، والنِّسْيُ: الشَّيْءُ المَطْروح لا يُؤْبَهُ لَهُ[7]، والمعنى في الآية: شيئًا متروكًا مُحْتَقرًا، شأنه أَنْ يُنسَى فلا يُتألَّمَ لفقده، كالوتَدِ والحَبلِ[8].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

شِـــدّة ألـم المخاض ألجأها إلى جِذْع النّخلة

يخبر النّظمُ الجليل في هذه الآية أنّ مريم عليها السلام قد ألجأها ما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (مخض).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 10.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جذع).
(4) الرّاغب، المفردات: (جذع).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 220.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (نسا).
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 10.

بها مِن وجعِ الولادة وألمِ الطّلق أن تستند إلى جِذْع النّخلةِ؛ للتّشبّث به والاتّكاءِ عليه، ليسهلَ عليها وضعُ الغلام، ولم يكن ما تعانيه هو الآلامَ والأوجاعَ وحسب، بل إنّها تَمنّت أن لو كانت قد ماتت قبلَ هذا الوقتِ الذي لقيَتْ فيه ما لقيَتْ، حياءً مِنَ النّاس، وخوفًا مِن سوء مقالتِهم، فتكونَ شيئًا لا يُعتَدّ به، ولا يخطر ببال أحدٍ مِنَ النّاس[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾:

تَرتُّبُ المخاضِ على الحَمل

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ العطف (الفاء) الدّالِّ على التّرتيب والتّعقيب في قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ للدّلالة على أنّ مجيءِ المخاضِ علامةٌ على قُرْب الولادة[2]، وهو تعقيبٌ وقربٌ عُرفيٌّ، "أي: جاءها المخاضُ بعدَ تمام مُدّة الحمل، قيل: بعد ثمانية أشهرٍ مِن حملها"[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ شيئًا لم يقع لها ممّا يُنغّص عليها عُزلتَها، فكأنّ الزّمان طويَ لها مِن بداية الحمل، فلم تُدرك إلّا وقد آن أوانُ المخاضِ.

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾:

مجيئُها إلى جِذع النّخلة اضطرارًا وإلجاءً

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل (أجاء) دون الفعل (جاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ لأنّه دالٌّ على أنّه اضطرّها وألجأها[4]، أي: فجاء بها المخاضُ إلى جِذع النّخلة، ثمّ أُسقِطَت باءُ الجَرّ منه، فقيل: (أجاءها)، كما يقال: أتيتك بزيد، فإذا حُذفت الباء قيل: آتيتُكَ زيدًا، كقوله جلّ شأنه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ [الكهف: 96]، أي: بزُبَر الحديد، ولكن مُدّت وحُذفت الباء، ونحوه: خرجت به وأخرجته، وذهبت به وأذهبته، فهو أفعل مِنَ المَجيء؛ وإنّما فسّروه

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 44.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 187.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 85.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 187.

بمعنى: ألجأها، لأنّ المخاض لمّا جاءَها إلى جِذع النّخلة، كان قد ألجأها إليه[1]، فعُبّر بـ (أجاء) للدّلالة على الإلجاء والاضطرار، وهذا دليلٌ على أنّها في حَملها كانت على عُرْف النّساء.

دلالةُ تقديم المفعول على الفاعل:

العـنـايـة والاهتمام بشأن مريم عليها السلام

قدّم النّظمُ الجليل المفعولَ به، وهو الضّمير في: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾، على الفاعل ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ اهتمامًا بها؛ لأنّ سياق الحديث عنها، فيُقدّم ذكرُها إبرازًا لشأنها، فإنّ الإلجاء وقع عليها، وهو أهمّ مِن بيان ما الذي ألجأها، كما أنّ بُنيةَ الجملة العربيّة تُرجّح تقديمَ المفعول به إذا تأتّى أن يكون ضميرًا متّصلًا بالفعل، فيُقدّم على الاسم الظّاهر الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ [يونس: 24]، وكقوله جلّ شأنه: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ [الأعراف: 4]، وهذا أكثر إيجازًا، وأسرعُ تعبيرًا وإيفاءً بالمعنى.

دلالةُ الإضافة في: ﴿جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾:

الـبـيـانُ والتّخصيص

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ الجِذع إلى النّخلة في قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ للدّلالة على أنّها لجأت إلى جِذع نخلةٍ وليس مطلقَ جذعٍ، فلولا الإضافةُ لانصرفَ إلى أي جِذعٍ، مِن نخلٍ أو مِن غيره، والجِذعُ تعبيرٌ على وجه الحقيقة بما كانت عليه البقيّة مِن تلك النّخلة[2].

سِرّ التّعبير بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

للدّلالة على أنّها أُلجِئَت ولم تلجأ بإرادتها

عبّر القرآنُ الكريم بـ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ﴾ دون اللّام، فلم يقل: لجِذع النّخلة؛ لأنّ لجوءَها إلى الجِذع لم يكن لذاته، بل إنّ المخاض هو الذي ألجأها إلى ذلك، وفي هذا تصويرٌ لحركتها

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 167 - 168.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 220 - 221.

عندما فاجأها المخاض واشتدّ عليها الألمُ؛ فاتّكأت على الجِذع لتساعِدَ نفسَها في أمر الولادة.

دلالة التّعريف في ﴿ٱلنَّخۡلَةِ﴾:

انفردتِ النّخلةُ هناك حتّى صارت مشهورةً لوحدتها

عرّف النّظمُ البليغ ﴿ٱلنَّخۡلَةِ﴾ بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾، وهي صالحةٌ في هذا الموضع أن تكون للجنس، أي: ألجأها إلى جِذع نخلةٍ واحدةٍ مِن جنس النّخل، وصالحةٌ أن تكون للعهد، أي: جِذع نخلةٍ معروفةٍ مشهورة، وذلك إذا لم يكن ثَمّةَ نخلةٌ أُخرى غيرُها[1]، فعرّفها "لأنّه لم يكن في تلك البلاد الباردة غيرُها، فكانت كالعلم لما فيها مِنَ العَجَب؛ لأنّ النّخل مِن أقلّ الأشجار صبرًا على البَرد"[2].

سِرّ تخصيص جذع النّخلة:

خصّص القرآنُ الكريم ﴿جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ دون غيرها مِنَ الأشجار لتَسۡتَتِرَ به لكِبَر حَجۡمِه، وتعتمدَ عليه عند الولادة، وليُرِيَها اللهُ تعالى آياتِ قدرتِه فيها، بما يُسَكّن روعَها، ويُطَمئنُ قلبَها، بأن يُخۡرِجَ لها رُطبًا جَنيًّا أسبابُه معدومةٌ؛ فكما أخرج الرّطبَ بلا سببٍ كما هو معتادٌ عندَ البَشَر، أوجدَ عيسى بلا سببٍ، وفي ذلك تطمينٌ لها، وتثبيتٌ لقلبها.

سِرُّ الفَصْلِ في: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي﴾:

بيانُ حالِها وهي تعاني آلامَ المخاض

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فإنّ وضۡعَها كان في غاية الشّدّة، فهي تعاني آلامَ المخاض منفردةً منعزلةً عن النّاس، فكأنّه قيل: كيف كان حالُها في ذلك الحين؟ فقيل: تمنّت

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 187.

لما حصل عليها مِن خوف العارِ الموتَ[1]، فإنّ "السّامعَ يتشوّف إلى معرفة حالها عند إبّان وضعِ حملها، بعد ما كان أمرُها مستترًا غيرَ مكشوفٍ بينَ النّاس، وقد آنَ أن ينكشفَ، فيُجابُ السّامِعُ بأنّها تمنّتِ الموتَ قبلَ ذلك"[2].

دلالةُ التّعبير بالتّمنّي في: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي﴾:

النّفسُ المؤمنة الطّاهرة، الموتُ أهونُ عليها مِنَ الطّعن في شَرفها

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب التّمنّي في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ تعبيرًا عن صعوبة ما كانت فيه، فهو لشِدّته عليها تمنّتِ الموتَ على أن تواجِه النّاسَ بأمرها، وهي المشهورةُ بالعبادة والعفاف والانقطاع للّه تعالى، فحصل عندها مِن خوف العار ما اضطرّها لذلك[3]، فهي في حُزنٍ وغَمٍّ شديدَين، بحيثُ إنّها ترى أنّ الموت أهونُ عليها ممّا هي فيه، وهذا دليلٌ يكشف عن عظيم مكانتها بما كان لها مِن صبرٍ وصدقٍ في تلقّي البلوى التي ابتلاها اللّهُ تعالى بها[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي دون المضارع:

طلبُ الموتِ بعد ظهور الحملِ ودُنوّ الوضع لا يرفع عنها التّهمَة

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل الماضي ﴿مِتُّ﴾ دون المضارع في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾؛ لأنّ الموت بعد ظهور الحَملِ وبعدَ دُنوِّ الوضع لا ينفعها بشيء؛ لأنّ آثار الولادة ستُكشف للنّاس مِن غير أن تكون موجودةً، لتُبيّنَ لهم ما جرى، فيبقى العارُ والطّعنُ في أهلها، فيكون تمنّيها الموتَ ليس في الوقت الحاضر، بل في الزّمان الماضي، قبل أن تجريَ هذه الأحداث، فيسلم عِرْضُها مِنَ الطّعن وسوءِ القالةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 85.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 188.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 85.

دلالةُ تعدّدِ القراءات في: ﴿مِتُّ﴾:

لغتان في فعل (مات)

تعدّدتِ القراءاتُ في قوله تعالى: ﴿مِتُّ﴾ بينَ الضّمّ والكسر؛ فمنهم مَن قرأ بكسر الميم ﴿مِتُّ﴾، ومنهم مَن قرأ بضمّ الميم ﴿مُتُّ﴾، وهما لغتان في فعل (مات) إذا اتّصل به ضميرُ رفعٍ متّصل(1).

دلالةُ التّعبيرِ بـ: ﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾:

لا يتمنّى المرءُ الموتَ ما لم يكن ما يضطرّه إليه

قيّد النّظمُ الجليلُ تمنّيَ الموتِ بالظّرف ﴿قَبۡلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾، بحيث يكون قبلَ هذا الزّمان، لم تتمنَّ الموتَ تمنّيًا مطلقًا، بل مُقيّدًا بكونه قبلَ هذا الحال، فهي "أرادت أن لا تُتَّهَمَ في عرضها، ولا تَجُرَّ على أهلها مَعَرّةً، ولم تتمنَّ أن تكون ماتت بعدَ بُدوّ الحمل؛ لأنّ الموت حينَئِذٍ لا يدفعُ الطّعنَ في عِرْضها بعد موتها، ولا المَعَرّةَ على أهلها؛ إذ يشاهد أهلُها بطنَها بحملها وهي ميتةٌ فتطرقُها القالَةُ"(2)؛ لذلك كان التّعبير بقوله: ﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾ هو الدّالّ على هذا المراد.

سِرُّ التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

عبّر النّظمُ الجليل باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾، إشارةً إلى أنّها تَمَنّتِ الموتَ قبلَ الحَملِ وحدوثِ هذا الأمر العظيم(3)، فالمشارُ إليه هو الحمل وما جرى لها تبعًا له، والإشارةُ إليه للتّعظيم والتّهويل، فكأنّ الحال لشدّته عليها قد تمثّل وتشخّص حتّى برزَ، فأُشيرَ إليه إشارةَ المنظور إليه بالعين.

سِرّ تمنّي مريم عليها السلام الموتَ بعد بشارة جبريل عليه السلام لها:

استحياءً مِنَ النّاس، وخوفًا مِن لائمتِهم، والوقوع في عرضها

تمنّت مريمُ عليها السلام الموتَ مع أنّها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريلَ عليه السلام مِنَ الوعد الكريم بهبة الغلام الزّكيّ، حيث قال: ﴿لِأَهَبَ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 242 - 243.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 85 - 86.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 188.

لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾؛ وذلك استحياءً مِنَ النّاس، وخوفًا مِن لائمتِهم، أو حِذارًا مِن وقوعِ النّاس في المعصية بما يتكلّمون عنها، أو جريًا على سَنن الصّالحين عندَ اشتداد الأمر عليهم، كما رويَ عن عمرَ رضي الله عنه أنّه أخذ نبتةً مِنَ الأرض فقال: "ياليتني هذه النّبتةَ، ولم أكن شيئًا"[1].

دلالةُ الواو في: ﴿وَكُنتُ﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ معطوفةٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾[2]؛ تشريكًا لكلا الجملتين بالتّمنّي، أي: يا ليتني متّ قبل هذا، ويا ليتني كنتُ نسيًا، فإنّها لمّا تمنّتِ الموتَ أتبعَتْهُ بأنّها تتمنّى لو لم تكن إلّا شيئًا لا يُعتدُّ به ولا يُؤبَهُ له، وهذا العطفُ يُؤكّد شِدّة حالِها وما كانت فيه مِن كَرْبٍ وغَمّ.

دلالةُ الوصفِ بـ: ﴿مَّنسِيّٗا﴾:

تمنّي زوالِ الذّكرِ تعبيرٌ عن هَولِ الحال

وصف النّظمُ الجليل لفظَ النّسيّ بكونه ﴿مَّنسِيّٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾؛ مبالغةً في تهوين هذا النّسيِّ، فهو نعتٌ للمبالغة، "لأنّ النّسيَّ الشّيءُ الذي مِن شأنه أن يُنسَى في ذاته، ويُنسى بالفعل؛ فهي تقول: يا ليتني كنتُ ذلك الشّيءَ الذي لا يُذْكَر ولا يُطْلَب"[3]، فهي طلبت أن تكون منسيّةً على وجه المبالغة، أي: أن تكون شيئًا لا يُذْكَر ولا يُلْتَفت إليه، فتمنّت أن تُنْسَى مِن ذاكرة أهلها، وينقطعَ ذِكْرُها بينَهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 261.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 287.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 223.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾

[مريم: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الفـرجُ بعد الشّدّةِ طمأنةٌ للفؤاد وتطييبٌ للنّفس

بيّن النّظمُ الجليل في الآية السّابقة أنّ مريم عليها السلام لمّا ألجأها المخاضُ إلى أن تستند على جِذع النّخلة، وقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾؛ جاءت هذه الآيةُ لتُبيّن أنّ الغلام - وهو عيسى عليه السلام - قد ناداها وكان أسفلَ منها عندما وضعته، مُطَمئِنًا إيّاها بقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ يا أمّاه ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَرِيّٗا﴾: (سرى) السَّرْوُ: المُروءَةُ والشَّرَفُ، وسَرِوَ يَسْرو سَراوَةً وسَرْوًا، أي: صارَ سَريًّا؛ وسَرِيَ - بالكَسْرِ، يَسْرَى سَرًى وسَراءً وسَرْوًا: إذا شَرُفَ[2]، وسَراةُ كلّ شيء: أعلاه، ومنه: سَراةُ النّهار، أي: ارتفاعُه، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ أي: نَهَرًا يسري، وقيل: بل ذلك مِنَ السّرو، أي: الرّفعة، يقال، رجل سَرْوٌ، ويقال: سَرَوْتُ الثّوبَ عنّي، أي: نزعتُه، وسَرَوْتُ الجُلَّ عن الفَرَس، وقيل: ومنه رجلٌ سَريٌّ، كأنه سَرَى ثوبُه بخلاف المُتَدَثّر[3]، والمُراد به في الآية: النّهرُ الصّغير، كان ساقيةً للماء قبلَ ذلك، ثمّ انقطع الماءُ منه، فأرسل اللّهُ الماءَ فيه لمريم، فأشار لها إلى الجدول، وقد كان قربَ جِذْعِ النّخلة، وهذا قولُ الجمهور مِن أئمّة

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 30.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سرا).
(3) الرّاغب، المفردات: (سرى).

التّفسير[1]، وذكر بعضُ الأئمّة أنّه بمعنى: السّيّدِ النّبيل، والرّجلِ العظيم الخصال[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

نداؤها تطييبٌ لقلبها، وإزالةٌ للوَحْشَة عنها

يخبر النّظمُ الجليل في هذه الآية أنّ جبريل عليه السلام حينَ سمع جَزَعَها، ناداها مِن مكانٍ أسفلَ منها تحتَ الأَكَمَة، قائلًا: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾، أو كان المُنادي الغلامَ الوليدَ، فقد أنطقَه اللّهُ حين وضعتْهُ؛ تطييبًا لقلبها، وإزالةً للوَحْدة عنها، حتّى تشاهدَ بادئَ ذي بدءٍ عُلوَّ شأنِ ذلك المولود الذي بشّرها جبريل به، بأن لا تحزني يا مريم بولادة عيسى وبمكان القَحْط، أو لا تحزني يا أمّي، فإنّ ربّكِ المُحسنَ إليك قد جعل في مكانٍ أسفلَ منكِ، أو قريبٍ منكِ، أو تحتَ ذيلِكِ نهرًا صغيرًا، أو غُلامًا رفيعَ الشّأنِ، ساميَ القدرِ، ذا سخاءٍ في مُروءةٍ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾:

المبادرةُ بالتّسرية والتّثبيت على الفؤاد

الجملة في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ معطوفةٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[4]، وقد عطف بالفاء للدّلالة على ترتّب مقالته على مقالتها، وأنّه قد أجابها مِن فور ما قالت وأبدَت مِن حُزْنٍ وتَمَنٍّ للموت، فجاء النّداءُ لطَمأنتِها على الفور، رحمةً بها، وتطييبًا لقلبها.

دلالةُ التّعبيرِ بالنّداء:

رفعُ الصّوت بمقالة التّطمين أدْعَى لتثبيت الفؤاد

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ النّداء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 225 - 226، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 11، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 332.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 11، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 91.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 109 - 110.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 287.

﴿تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ دون القول؛ للدّلالة على أنّه رفعَ صوتَه بتلك المقالةِ مناديًا لها في تلك السّاعة، وهذا النّداء فيه ما فيه مِن إدخال الطُّمأنينةِ والسّكينة على قلبها، أي: فناداها ابنُها عيسى الذي كان أسفلَ منها عندما وضعته، مطمئِنًا إيّاها بعد أن قالت: يا ليتَني مِتُّ قبلَ هذا الذي حَدَثَ لي، ناداها بقوله: أَلّا تَحْزَني يا أمّاه، ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[1]، وإنّما رفعَ الصّوتَ بتلك المقالةِ دون أن يكون ذلك بالإلهام أو الإلقاء في الرَّوع؛ لأنّ إظهار الصّوت في تلك الحالة له مِنَ الوقع عليها ما يناسب شِدّة موقفِها، ولأنّ النّداء آيةٌ لها وأمارةٌ على أنّه مِنَ الأُمور الخارقةِ للعادة، التي للّه فيها حِكمة، ولا سيما إن كان المرادُ بالمُنادي عيسى عليه السلام وليدَها وقُرّةَ عينِها، فبِه يتبيّنُ عُذْرُ مريمَ عليها السلام، ولا ينبغي أن يطعن في شرفها بعد ذلك[2].

دلالةُ تعدّدِ القراءات في: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾:

قرأ المدنيان وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ وروحٌ بكسر الميم وخفض التاء ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾، وقرأ الباقون بفتح الميم وفتح التّاء ﴿مَن تَحۡتَهَا﴾[3].

فمَن قرأ بكسر ميم ﴿مِن﴾ وجرّ ﴿تَحۡتِهَآ﴾ يرى أنّ قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ فيه ضميرُ الغلام، وهو عيسى عليه السلام؛ أي: ناداها الغلامُ الزّكيّ مِن تحتِها، فـ ﴿مِن﴾ جارّة، و﴿تَحۡتِهَآ﴾ مجرورة بها، وهو اسمٌ غير ظرف، وقيل: المنادي جبريلُ عليه السلام، ويكون معنى: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ من دونها.

وعلى القراءة الأُخرى ﴿مَن تَحۡتَهَا﴾ يكون المعنى: الذي تحتَها، وهو عيسى عليه السلام، والتّقدير: (مَن حصل تحتها)، وانتصابُ ﴿تَحۡتَهَا﴾ لأنّه ظَرف، والعامل فيه معنى الفعل مِنَ الحصول أوِ الاستقرار[4].

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿تَحۡتِهَآ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالظّرف ﴿تَحۡتِهَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 30.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 9/ 450.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357.
(4) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات: 2/ 815.

﴿جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ فقيّد كونَه ﴿تَحۡتِهَآ﴾، وأنّ النّداء صادرٌ مِن تلك الجهة "لإفادة أنّه ناداها عند وضعِه قبلَ أن تَرْفَعَه؛ مبادرةً للتّسليَة والبِشارة، وتصويرًا لتلك الحالة التي هي حالةُ تمامِ اتّصالِ الصّبيّ بأُمّه"[1]، فصار تحتَها لأنّه انفصل عنها بالولادة.

حصل النداء بمجرد وضع مولودها عليها السلام

دلالةُ التّعبير بالحُزن دونَ الخَوف:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالحُزْن دونَ الخوفِ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ دون أن يقول: (لا تخافي)؛ لأنّ الحُزْنَ أنسبُ لحال مريم عليها السلام؛ لأنّ الحُزن يَدُلّ على خشونةٍ في الأرض وخشونةٍ في النّفس، لما يحصل فيها مِنَ الغَمّ، ويضادُّه الفَرحُ[2]، وهي كانت في هَمّ وغَمّ، وهذا أنسبُ أن يُعبّر عنه بالحُزن لا بالخوف؛ لأنّها كانت تحزن أن تُشْتَمَ وتُقْذَفَ به، أو أنّها حَزِنت خوفًا على نفسها وعلى ولدها الهلاكَ؛ فبُشِّرَت بقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[3].

الهَمُّ والغَمُّ الذي اعترى قلبَها حُزنٌ لا خَوف

سِرُّ التّعبير بـ ﴿قَدۡ﴾ مع الفعل الماضي ﴿جَعَلَ﴾:

أدخل النّظمُ الجليل حرفَ التّحقيق ﴿قَدۡ﴾ على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ تأكيدًا لمضمون الجملة التي سيقت لتسلية مريم عليها السلام، والتّأكيد ليس لرَدّ الإنكار، بل لتقويَة الإخبار؛ لأنّها لم تكن منكرةً لما أخبرها به، وفيه تأكيدٌ لِعلّة النّهي عنِ الحُزن[4].

التّأكيد على الإكرام أشَدّ تثبيتًا للفؤاد

سِرُّ التّعبير بالرّبوبيّة والإضافة إلى الضّمير:

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ تذكيرًا له بسابق الإنعام، أي: إنّ ربّكِ المحسنَ إليك هو

غاية التّشريفِ أن يُضاف المَرء إلى مولاه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 87.
(2) الرّاغب، المفردات: (حزن).
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 230.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.

الذي جعل تحتَكِ ذلك النّهرَ تفضّلًا منه، وموافقةً لسياق السورة في مقام الإنعام، لأنّها مبنيّةٌ على تَعَدّد آثارِ الرّحمة، أخذًا مِن تَكْرار لفظِ الرّحمن في هذه السّورة، وفي إضافته إلى ضميرها تشريفٌ لها، وتأكيدٌ للتّعليل، وتكميلٌ للتّسلية، التي سيقت الجملةُ لأجلها[1].

دلالةُ تقديمِ الظّرف (تحت) على المفعول:

تخصيص مريم عليها السلام بموطن الإنعام

قدّم النّظم الجليل الظّرف (تحت) على المفعول به في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ لأنّ الأهم كون هذا السّريّ قريبًا منها منخفضًا عنها، فكان تقديم ذكر ذلك في السّياق أبلغَ وأكثرَ مناسبةً، كما أنّ فيه محافظةً على الفاصلة التي لها اعتبارٌ مكينٌ في بنية السّورة، ولا يناسب الكلام البليغ أن يكسر النّسق الصّوتي لغير غايةٍ وغرضٍ بيّن.

سِرُّ التّعبير بـ (تحت):

من بلاغة القرآن اختيارُ اللّفظ المُلائم للمعنى

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (تحت) دون (أسفل) في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ لأنّ (تحت) أنسبُ للسّياق، فهما وإن كانا يشتركان في الإشارة إلى ناحية الانخفاض في الاستعمال القرآنيّ، غيرَ أنّ (تحت) تُستعمَل في التّعبير عنِ المنفصل، أو ما يمكن انفصالُه، وأمّا (أسفل) فتُستعمَل في التّعبير عنِ المُتّصل بعضِه ببعض[2]، فكان إيثارُ (تحت) لأنّ الانفصالَ واقعٌ بين مريم عليها السلام وبينَ السّريّ، والغلام أو جبريل عليه السلام، ولأنّ التّعبير بلفظ (أسفل) يحمل معنى التّنقُّصِ، وهذا المعنى غيرُ مُرادٍ هنا.

دلالةُ الإضافة في: ﴿تَحْتَكِ﴾:

إبراز كمالِ النّعمةِ وخصوصيّتِها

أضاف النّظمُ الجليل الظّرفَ (تحت) إلى ضمير مريمَ عليها السلام في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.

(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 158.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾؛ للدّلالة على قُرْبه منها، فهو في ناحية التّحتيّة المُلاصقة لها، فهو ليس تحتًا مطلقًا، بل تحتَها هي، إشارةً إلى قُربه منها، وهذا القُربُ مناسبٌ لحالتها، فليس وجودُ النّهرِ نعمةً كافيةً لها، بل قُرْبُه منها، ودُنوّه منها - بحيثُ إنّها متمكّنةٌ منه تمكّنَ الأعلى مِنَ الأدنى - هو النّعمةُ التّامّةُ.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿سَرِيّٗا﴾:

خصوصيّة جريانِ الماء لمريم عليها السلام

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ (السّريّ) دون (النّهر) في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾؛ للدّلالة على صِغَره وكونِ الماء يسري فيه؛ فالنّهر "يُسَمّى سَريًّا؛ لأنّ الماء يسري فيه"[1]، وقد آثَرَ التّعبيرَ بهذا اللّفظِ إشارةً إلى صفة السّير؛ لأنّه قد كان ساقيةً للماء قبلَ ذلك، ثمّ انقطع الماءُ منه، فأرسل اللّهُ الماءَ فيه لمريم[2]، وهذا يناسب جريَ الماءِ فيه، فسمّاه سَريًّا باعتبار أنّ الماء قد جرى فيه بعد أن لم يكن فيه ماء؛ إكرامًا لمريم عليها السلام، وتثبيتًا لفؤادها، وربطًا على قلبها.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّداء والدّعاء:

النّداء مختصّ برفع الصّوت، والدّعاء برفع الصّوت وخفضه وبالسّر

"النّداء هوَ رفع الصَّوْت بما لَهُ معنًى، والعربيّ يَقول لصاحبه: نادِ معي ليَكونَ ذَلِك أندى لصوتنا، أَي: أبعدَ لَهُ، والدُّعاءُ يكون برَفْع الصَّوْت وخفضِه، يُقال: دَعوتُه مِن بعيد، ودعوتُ اللّهَ في نَفسي، ولا يُقال: ناديتُه في نَفسي، وأصلُ الدُّعاء طلبُ الفِعْل"[3]، فآثَرَ في الآية الكريمة التّعبيرَ بالنّداء تعبيرًا عن أنّه رفعَ صوتَه في خطابها بذلك، فهو لم يَدْعُها، بل رفعَ صوتَه، ليُسْمِعَها وتنتبهَ لما يقول.

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 94.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 225 - 226، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 11.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38.

النّهر والسّري:

ما صَغُر مِنَ الأنهار فهو سَرِيٌّ

السّريُّ: هو الصّغير مِنَ الأنهار، وقد كان ساقيةً للماء قبل ذلك، ثمّ انقطع الماءُ منه، فأرسل اللّهُ الماءَ فيه لمريمَ، فأشار لها إلى الجَدول، وقد كان قُرْبَ جِذع النّخلةِ، وهذا قول جمهور المُفسّرين[1]، وهذا يناسبُ جريَ الماءِ فيه، فسمّاه سَريًّا باعتبار أنّ الماء قد جرى فيه، "والنّهر يُسَمّى سَريًّا لأنّ الماء يَسْري فيه"[2].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 225 - 226.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 94.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾

[مريم: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد ذِكر الإنعام بالشّراب، إتمامُ النّعمةِ بنافع الطّعام

بعد أن ذَكَر النّظمُ الجليلُ في الآية السّابقة ما قال الغلامُ الوليدُ لأمّه مطمئنًا إيّاها بذِكر الجدول الصّغير، أتبعه في هذه الآية بما تأكل منه، وهو النّخلةُ ذاتُ الرُّطَب الجَنيّ، فكما أنّ اللّه تعالى قد أجرى تحتَكِ نهرًا صغيرًا تشربين منه، قد أثمر فوقَكَ نخلةً تأكلين مِن جناها بلا تعب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهُزِّيٓ﴾: (هزّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على اضْطِرابٍ في شَيْءٍ وحَرَكَةٍ[1]، الهَزُّ: التّحريكُ الشّديد، يقال: هَزَزْتُ الرّمحَ فاهْتَزَّ، وهَزَزْتُ فلانًا للعطاء، واهْتَزَّ النّبات: إذا تحرّك لنضارته[2]، والهَزُّ: تَحْريكُ الشَّيْءِ كما تَهُزُّ القَناةَ فتَضْطَرِبُ وتَهْتَزُّ، وهَزَّه يَهُزُّه هَزًّا، وهَزَّ به وهَزَّزَهُ، إِذا حَرَّكَهُ، وهَزَزْتُ الشيءَ هَزًّا فاهْتَزَّ، أَي: حَرَّكْتُهُ فتَحَرَّكَ؛ قالَ: كَريمٌ هُزَّ فاهْتَزّ[3]، والمُراد به في الآية: تحريك الجِذْع بطريق الجَذْبِ والدّفع، لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡكِ﴾[4].

2) ﴿تُسَٰقِطۡ﴾: (سقط) أَصْلٌ يَدُلُّ على الوُقوعِ[5]، السُّقوطُ: طرح الشّيء، إمّا مِن مكان عالٍ إلى مكان منخفض، كسُقوط الإنسان مِنَ السّطح، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التّوبة: 49]، وسقوط

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (هزز).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هزز).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).

منتصبِ القامة، وهو إذا شاخ وكبِر[1]، والسَّقْطَةُ: الوَقْعةُ الشّديدةُ، وسقَطَ يَسْقُطُ سُقوطًا، فهوَ ساقِطٌ: وقَعَ[2]، والمراد به في الآية الكريمة: تسقط، وتفاعل مطاوعُ فاعل، كما أنّ تَفَعَّل مطاوعُ فعَّل[3].

3) ﴿رُطَبًا﴾: (رطب) أَصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ اليُبْسِ، مِنْ ذَلِكَ الرَّطْبُ والرَّطيبُ، ويُقالُ: أَرْطَبَ النَّخْلُ إِرْطابًا، ورَطَّبْتُ القَوْمَ تَرْطيبًا، إذا أَطْعَمتَهُم رُطَبًا، والرِّطابُ مِنَ النَّبْتِ[4]، والرَّطْبُ: خِلاف اليابسِ، تقول: رَطُبَ الشّيءُ رطوبةً فهو رَطْبٌ ورَطيبٌ، ورَطَّبْتُه أنا ترطيبًا، وغُصنٌ رطيبٌ، وريشٌ رطيبٌ، أي: ناعِم[5]، والرُّطْبُ والرُّطُبُ: الرِّعْيُ الأَخْضَرُ مِنْ بُقولِ الرَّبيع[6]، وخُصّ الرُّطَبُ بالرَّطْبِ مِنَ التّمر، قال تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾، وأَرْطَبَ النّخلُ، نحو: أتمر وأجنى، ورَطَبْتُ الفرسَ ورَطَّبْتُهُ: أطعمته الرّطبَ[7]، والمُراد به في الآية: التّمر الذي لم يتمّ جفافُه[8].

4) ﴿جَنِيّٗا﴾: (جني) أَصلٌ وهو أَخْذُ الثَّمَرَةِ مِنْ شَجَرِها، جَنَيْتُ الثَّمَرَةَ أَجْنيها، واجْتَنَيْتُها، وثَمَرٌ جَنيٌّ، أي: أُخِذَ لِوَقْتِهِ[9]، وأكثر ما يُستعمَل الجَنيّ فيما كان غضًّا، وأَجْنَى الشّجر: أدركَ ثَمَرُه، والأرض: كَثُرَ جناها[10]، والمُراد به في الآية الكريمة: ما قُطع قبل يَبْسِه، أي: رُطبًا مَجنيًّا قد طابت وصلَحَت للاجتناء[11].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخبر النّظمُ الجليل في هذه الآية أنّ ممّا قالَه عيسى لأُمّه عليه السلام: حَرِّكي جِذعَ النّخلةِ، يسقط عليكِ منها رُطَبًا ليّنًا غَضًّا، قد جُنيَ من ساعته[12]، "وقد أخذ العلماءُ من هذه الآية

(1) الرّاغب، المفردات: (سقط).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سقط).
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 229.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رطب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (رطب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (رطب).
(7) الرّاغب، المفردات: (رطب).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 88.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جني).
(10) الرّاغب، المفردات: (جنى).
(11) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 12، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.
(12) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 306.

الكريمة، أنّ مباشرةَ الأسباب في طلب الرّزق أمرٌ واجبٌ، وأنّ ذلك لا ينافي التّوكّل على الله، لأنّ المؤمن يتعاطى الأسبابَ امتثالًا لأمر ربِّه، مع عِلْمِه ويقينه أنّه لا يقع في مُلْكِه سبحانَه إلّا ما يشاؤه ويريده، وهنا قد أمر اللّهُ تعالى مريمَ - على لسان مولودها - بأن تَهُزَّ النّخلةَ ليتساقط لها الرُّطَب، مع قدرته سبحانه على إنزال الرُّطَبِ إليها مِن غير هَزٍّ أو تحريك"[1].

الأمر بالأخذ بالأسباب مع توفّر القُدرة

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُزِّيٓ﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ معطوفة على قوله جلّ شأنه: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾، وهو من جملة ما قاله عيسى عليه السلام لأُمّه[2]، فكما أرشدها إلى الإكرام بوَفْرة المشروب، نبّهها على عظيم الكرامة بطلب هَزّ النّخلةِ للمطعوم، وهو الرُّطَب الجَنيُّ.

الدّلالة على وجود المشروب والمطعوم

سِرُّ التّعبيرِ بالهَزّ في قوله: ﴿وَهُزِّيٓ﴾:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الهَزّ دون التّحريك في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾؛ لأنّ التّحريكَ يدُلّ على مطلق الحَركة، أمّا الهَزّ فيُراد تحريكُه إلى الجهات المتقابلة، مع العُنف والتّدارك والتّتابع في التّحريك[3]، وهذا النّوع مِنَ التّحريك هو المطلوب بتكرار الحركة شَدًّا وجَذبًا.

الأخذُ بالأسباب مِن سُنن الله تعالى

دلالةُ تَعدّي الفعلِ ﴿وَهُزِّيٓ﴾ بـ (إلى):

آثَرَ النّظمُ الكريم تعديَةَ الفعل (هزّ) بحرف الجرّ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّحريك

الدّلالة على قُرْب المكانِ الذي تَهُزّ منه

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 31.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 30.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.

المطلوب منها أن توقعَه على طريقة الجَذْب والشّدّ والدّفع، لأنّ "هَزّ الشّيء تحريكُه إلى الجهات المتقابلة تحريكًا عنيفًا متداركًا، والمُرادُ هاهنا ما كان منه بطريق الجَذْبِ والدّفع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡكِ﴾، أي: إلى جهتك"[1]، وذهب بعضُ أئمّة التّفسير: إلى أنّه عُدّيَ بـ (إلى) على طريقة التّضمين، فضُمّن الفعلُ (هزّ) معنى اجذبي أو قرّبي أو أدني، أي: حرّكي جِذعَ النّخلةِ، بأن تُقَرّبيه منه وتَجْذِبيه إليك، فيَدْنو إليكِ ويلينُ بعدَ اليُبْسِ، ويُسْقطُ عليكِ رُطبًا جنيًّا[2]، وفيه إشارةٌ إلى تخصيصها بذلك دون غيرها.

دلالة الباء في: ﴿بِجِذۡعِ﴾:

دفعُ إنكارِ هَزِّ مريمَ لجذع النّخلةِ لضَعْفِها

أدخل النّظمُ الجليل الباءَ في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ لتوكيد لصوقِ الفعل بمفعوله، وفيه دلالةٌ على أنّ ما تَهُزّه هو الجِذْعُ ذاتُه؛ لأنّ فعل الهَزّ يتعدّى بنفسه بلا حرف جرّ[3]، وفائدة دخول الحرف هنا أنّ العادة قد جرت بأنّ النّخل لا يُهَزّ في جَني ثَمَره، فجاءت متعدية بالباء لتأكيد أنّ المطلوب هو هَزُّ الجِذع ذاتِه لا غيره، إيقاعًا للكرامة بأدنى سبب.

وممّا يُذْكَر في سِرّ دخول الباء في قوله: ﴿بِجِذۡعِ﴾، الدّلالة على تسهيل وصولِ الرّطَب إليها، ذلك أنّها تَهُزّ في مكانٍ هو الجِذع، وتتساقطُ عليها الرّطَب مِن عَلٍ؛ وذلك بلا ريب تسهيلًا للوصول، فلا تَهُزّ مِن أعلى، بل تَهُزّ بمكانٍ قريب منها؛ مراعاةً لحالتها التي هي فيها مِن النّفاس، ومعلومٌ أنّ الحركة الكثيرة تتعبها[4].

سِرُّ التّنصيص على جِذْع النّخلة:

نَصّ النّظمُ الجليل على أنّ المطلوب تحريكُ الجِذع لا النّخلةِ في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 227، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 88.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 12، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 31.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4629.

إيجادُ الثّمر من جِذعٍ أظهرُ في الكرامة وأبلغُ في التّسلية

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ لأنّ المقصود إظهارُ النّافع من بليغ الكرامات على يدها تسكينًا لروعها، فأَمَرها بهَزّ الجِذع المَيّت الذي لا حياةَ فيه؛ ليريَها آيةً أُخرى[1]، فكان المقصودُ التّهويلَ لصَرف فكرِها عمّا دهمَها مِنَ الهَمّ، ولم يكن في الجِذع ما يُتوقَّع نفعُه بهَزّه ليُبْسِه، وكون الوقت ليس وقتَ إثمارِها[2]، ولكي ترى آيةً أُخرى في إحياء مَواتِ الجِذع؛ ليكون ذلك تسليةً لها وإذهابًا لهمّها وغمّها.

دلالة (أل) في: ﴿ٱلنَّخۡلَةِ﴾:

إظهارُ الكرامة بأدنى جهدٍ وأيسرِ سبب

عرّف النّظمُ الجليل لفظَ النّخلة بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ إشارةً إلى النّخلة التي هي تحتَها وبجانبها، فهي للعهد؛ لأنّها نفسُ النّخلةِ التي ألجأها إليها المخاضُ المَذكور في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾، فأمَرَها بهَزّ النّخلة التي هي أقربُ شيءٍ إليها؛ لتَظهرَ الكرامةُ التي تُسَكّنُ فؤادَها بأدنى جَهْدٍ وأيسرِ سبب.

دلالةُ فصْل قولِه: ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ عمّا قبلَها:

ظاهرُ الأمرِ الغريبِ يَحوجُ إلى الاستئناف للتّعليل

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ المبدوءة بالفعل ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾؛ لأنّها سيقت مساقَ الاستئناف التّعليليّ؛ فلمّا أمرها بهَزّ النّخلة التي هي مُجَرّدُ جِذْعٍ عديم الحياة، فكأنّ ذلك أثار سؤالًا لدى مريمَ، فأجاب من غير ذِكْر السّؤال؛ لأنّ السّياق يقتضي أنّ هناك تساؤلًا عن عِلّة الهَزّ، فكأنّه قيل: "ولِمَ ذاكَ؟ فقال: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ﴾ مِن أعلاها ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾"[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 11.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 189.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 189.

دلالةُ تعدّدِ القراءات في قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ﴾:

تعدّدتِ القراءاتُ في قوله تعالى: ﴿تُسَٰقِطۡ﴾، فقرأ حمزةُ بفتح التّاء وتخفيف السّين وفتح القاف ﴿تَسَٰقَطۡ﴾، وأصلُه (تَتَساقَط)؛ فحُذِفت إحدى التّاءين، وعلى هذه القراءة يكون قولُه: ﴿رُطَبٗا﴾ تمييزًا مُحَوّلًا عنِ الفاعل، وقرأ حفصٌ ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ بضمّ التّاء وكسرِ القاف وتخفيف السّين، وعلى هذه القراءة يكون قولُه: ﴿رُطَبٗا﴾ مفعولًا به للفعل الذي هو ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ هي؛ أي: النخلة رطباً، وقرأ يعقوب وشعبة بخُلْف عنه بياء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف: ﴿يَسَّٰقَطۡ﴾، وأصله (يتساقط)، فأُدْغِمَت إحدى التّاءين في السّين، ويكون قولُه: ﴿رُطَبٗا﴾ تمييزًا مُحَوّلًا عنِ الفاعل، وقرأ باقي القرّاء بفتح التّاء والقاف وتشديدِ السّين: ﴿تَسَّٰقَطۡ﴾، وأصله (تتساقط)[1].

دلالةُ تقدّم الجارّ والمَجرور:

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة مِنَ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكِ﴾ على المفعول به ﴿رُطَبٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾، فلم يقل: (تساقط رطبًا عليك)؛ للدّلالة على أنّها تساقط ذلك الجَنى عليها على وجه الاختصاص، فهي أثمرت لمُجَرّد إكرامِها، وبسببها، فهي كرامةٌ خاصّةٌ بمريم عليها السلام.

تعظيمُ الكرامة بجعلها خاصّةً بمَن سيقت له

سِرُّ التّعبير بـ ﴿رُطَبٗا﴾:

آثَرَ النّظم الكريم التّعبيرَ بالرّطب دون التّمر في قوله تعالى: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾؛ لأنّ السّياق سياقُ إكرام وامتنانٍ وتسليةٍ، فكان إكرامُها أن يكون على وجه التّمام، ومِن تمامه أن يكون ثَمَرُ النّخلةِ على أتمّ أشكالِه وأحسنِه، فأعطيَت "رُطبًا دونَ التّمرِ؛

مِن تمام الإكرام أن يأتي الرّزقُ حسنًا ليّنًا، تشتهيه النّفسُ وتَسُرّ العينَ رؤيتُه

---

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 409، وابن الجزري، النشر: 2/ 318، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 253.

لأنّ الرُّطَب أشهى للنّفس؛ إذ هو كالفاكهة، وأمّا التّمرُ فغذاء"[1]، كما أنّه أكثرُ لينًا، وأسرعُ تغذيةً، وهذا أنسبُ لِمَن تعاني آلامَ المخاض.

دلالةُ التّعبير بـ: ﴿جَنِيًّا﴾:

دلّ التّعبيرُ بقوله: ﴿جَنِيًّا﴾ على أنّ الرُّطَب قد طاب وصَلُحَ للاجتناء، وهذا دليلٌ على كمال الانتفاع به لاكتمال نُضْجِه.

كمال الانتفاع به لاكتمال نُضْجِه

دلالةُ التّنكير في: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنِ الرُّطَب الجَنيّ بصيغة التّنكير، في قوله تعالى: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾؛ لما في التّنكير مِن دلالةٍ على التّكثير والتّفخيم، فهو رزقٌ وفيرٌ يكفيها ما تحتاجه مُدّةَ لُبْثِها ثَمَّ، ريثما تشتدّ فتقوى على الرّجوع إلى أهلها.

مِن عظيم الإكرام أن يكون الرّطَبُ وفيرًا غزيرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 87.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

معيّة الله للصّالحين لا تنقطع

الآية موصولة مع ما قَبْلها؛ لأنَّها جزءٌ مِن تلقين السَّيّدة مريمَ حُجَّتَها، ولأنّ الأكل والشّرب مُسبَّبٌ على نتيجةِ هَزِّ جذع النّخلة؛ مِن قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25]، فبينهما تواصلٌ عامٌّ، وآخرُ خاصٌّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَرِّي﴾: أصلُ القَرِّ: يدلُّ على الثُّبوتُ والتَّمَكُّنُ، يُقال: قَرَّ الشَّيْءُ يَقِرُّ قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِه ولم يَتَحَوَّلْ(1)، وقيل: أصلُه مِنَ القُرِّ، وهو البَرد، وهو يقتضي السُّكونَ، والحَرُّ يقتضي الحركةَ، يُقالُ: قَرَّتْ عينُه، أيْ: بَرَدَتْ فصَحَّت، وقيل: بل لأنَّ للسُّرور دَمعَةً باردة قارَّةً، وللحُزْنِ دَمعَةً حارَّةً؛ ولذلك يُقالُ فيمن يُدّعى عليه: أسخَنَ اللّه عينَه(2)، وضَعَّفَ ناسٌ هذا، وقالوا: الدَّمع كلُّه حارٌّ، فمعنى (أقَرَّ اللّه عينَه) أي: سكَّن اللّهُ عينَه بالنَّظر إلى من يُحبّه حتَّى تقرَّ وتسكُن(3)، ومنه: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّت، وقيل لمن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عين، قال تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ [القصص: 9]، وعليه: فالمُرادُ بـ ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ في الآيةِ: كِنايَةٌ عَنِ السُّرور، وتَشْمَلُ هَناءَ العَيْش، والأُنْسَ بالطِّفْلِ المَوْلودِ، وكذلك كِنايَةٌ عَنْ ضَمانِ سَلامَتِه ونَباهَةِ شَأْنِه(4).

2) ﴿نَذَرۡتُ﴾: أَصْلُ (نذر) يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرّ).
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 89.

الإِنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ، ومنه النَّذْرُ: ما يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أَيْ: أوجِبُ[1]، والنَّذْرُ أيضًا: ما يَنذُر الإنسانُ فيجعلُه على نفسه نَحْبًا واجبًا[2]، أي: أن توجِبَ على نفسك ما ليس بواجب لحدوثِ أمر، يُقالُ: نَذَرْتُ للّه أمرًا[3]، والنَّذِيرَةُ: اسْمُ الشَّيْءِ الَّذي تُعْطي، والجَميعُ النَّذائِرُ[4]، والمفاد بالنَّذْرِ في الآية: ما يوجبُه المَرْءُ على نفسه ويَعْقِدُ نيَّتَه عليه.

3) ﴿صَوۡمٗا﴾: أصل الكلمةِ (صوم) يَدُلُّ على إمساكٍ ورُكودٍ في مَكانٍ، يُقالُ: صامَتِ الرّيحُ: إذا رَكَدَتْ، والصَّوْمُ: مَصْدَرُ صامَ، ومَعناهُ: الإمساكُ والتَّرْكُ مُطْلَقًا، ومِنهُ الإمساكُ عن الطَّعامِ والشَّرابِ والكلامِ وغيرِ ذلك، يُقال: صامَتِ الخَيْلُ: إذا أَمسَكَتْ عَنِ السَّيْرِ[5]، والمقصود به في الآية: الالتزام بالصَّمت والانقطاع عنِ الكلام.

4) ﴿إِنسِيّٗا﴾: (أنس) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو ظُهورُ الشَّيءِ، وكُلُّ شَيْءٍ خالَفَ طَريقَةَ التَّوَحُّش، قالوا: الإِنْسُ خِلافُ الجِنِّ، وسُمّوا لظُهورِهم، يُقالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إذا رَأَيْتَهُ، والأَنْسُ: أَنْسُ الإِنْسانِ بالشَّيْءِ إذا لَم يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ[6]، والأَنَسُ: جَماعَةُ النّاسِ، وهُمُ الإنسُ[7]، والإِنْسيُّ: الإِنْسانُ، والياءُ فيه للنَّسَبِ إلى الإِنْسِ، وهو اسْمُ جمعِ إِنْسانٍ، فياءُ النَّسَبِ لإفادَةِ فرْدٍ مِنَ الجِنْسِ، مِثْلَ: ياءُ حَرَسِيٍّ لواحِدٍ مِنَ الحَرَسِ، وهذا نَكِرَةٌ في سياقِ النَّفْيِ يُفيدُ العُمومَ، أَي: لَنْ أُكَلِّمَ أَحَدًا[8].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يقول اللّهُ تعالى لمريمَ عليها السلام: فكُلي مِنَ الرُّطَبِ الجَنيِّ، واشربي مِنَ الجَدْوَلِ السَّريِّ، وقَرّي عينًا برؤية الولدِ النَّبيّ، فإنّ الله قدير على صون سمعتِك، والإرشاد إلى حقيقة أمرِك، وافرَحي ولا تحزَني، فإنْ رأيتِ أحدًا مِنَ النّاسِ يُريدُ أن يُكلِّمَكِ فقولي: إنّي أَوجبتُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(2) الخليل، العين: (نذر).
(3) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).
(7) ابن عباد، المحيط في اللّغة: (أنس).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 94.

أُمِرتْ مريمُ عليها السلام بالسُّكوت ليكفيَها عيسى الاحتجاجَ

على نفسي للّه صمتًا ألّا أُكلّم اليوم أحدًا، فإنّ كلامي يَقبَلُ الرَّدَّ والجَدَل، ولكن يتكلَّم عنّي ذلك المولودُ الَّذي لا يقبَل كلامُه الدَّفعَ والرَّدّ، وإنّي أُنَزِّه نفسي عن مجادلة السُّفهاء، ولا أُكلِّمُ إلّا الملائكة، أو أُناجي الخالِق[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها في قوله: ﴿فَكُلِي﴾:

الــفــاء بــيــنَ الــسَّــبــبــيَّــة والفصيحة

الفاء في قوله: ﴿فَكُلِي﴾ للسَّببيَّة؛ لأنَّ مريمَ لَمّا هَزَّتْ جِذْعَ النَّخلةِ فتَساقَطَ الرُّطَبُ، سَبَّبَ عَنْه أمرَها بالأكل، أيْ: فتَسَبَّبَ عَنِ الإنْعامِ عليْها بالماء والرُّطَب أنْ يُقالَ لَها تَمكينًا من كُلٍّ مِنهُما: كُلي مِنَ الرُّطَبِ[2]، ومجموعُ الأوامرِ الثّلاثةِ بعد الفاء مُسبَّبةٌ على مجموع الآية قبلَها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: 25] الآية، ولو قيل: إنّها مُسبّبة على قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25] لكانت مُسبَّبةً في المعنى على قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: 25] أيضًا، ويُمكن أن يُقالَ: إنَّها الفاء الفصيحةُ؛ لأنَّها أنبأت عن شرط محذوف، تقديره: إذا تَمَّ لكِ هذا كُلّه فكُلي.

معنى الأمرِ ودلالتُه:

إرشــادُ مـريـمَ، وتبشيرُها

الأوامر الثلاثة في قوله: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي﴾؛ لتوجيه مريم وإرشادِها إلى ما يُقَوّي جسدَها، ويُطَمئن قلبَها؛ حيثُ أمرَها اللّهُ تعالى أن تأكل بَعْد مخاضِها تَمرًا غَضًّا طَريًّا أَثْمر لتَوِّه، وأن تشرب مِنَ السَّريِّ، ولِتَقرَّ عينُها بتأييد اللّه لها[3]، والأمرُ قيلَ: يَحْتَمِلُ الْوُجوبَ والنَّدْب، وذلِك باعْتِبارِ حالِها، وقيلَ هو للْإباحَة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 516، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 225.
(2) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرَر: 12/ 190.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 579.

مِنَ الإحسانِ شمولُ العطاءِ

قد يكون الشيءُ مألوفًا ومُعجِزًا

تَدَرُّجٌ في تسليَة مريمَ وارتقاء

دلالة العطف بالواو في ﴿وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي﴾:

الواو حَرْف عَطْف يُفيد المشاركةَ بينَ المعطوف والمعطوف عليه في الحُكْم والإعراب، ودلَّ العطف بالواو في ﴿وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي﴾ على الجَمع بينَ ما يُقَوّي مريمَ بَدَنًا وروحًا، وظاهرًا وباطِنًا، والمعنى: جَمَعنا لكِ بينَ الأكل، والشُّرْب، وقَرارة العين.

نُكْتَةُ تسليَةِ مريمَ بالطّعام والشّراب:

وإنْ قيل: ما كان حزنُها لفقْدِ الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى تُسلَّى بالسَّريِّ والرُّطبِ؟

فالجوابُ: لم تقَعِ التَّسليةُ بهما من حيثُ إنَّهما طعامٌ وشرابٌ، ولكنْ مِن حيثُ إنَّهما مُعجزتانِ تُريانِ النّاسَ أنَّها مِن أهلِ العِصْمة، والبُعدِ مِنَ الرّيبةِ، وأنَّ مِثْلَها ممّا قَرَفوها به بمَعْزِلٍ، وأنَّ لها أُمورًا إلَهِيَّةً خارجةً عنِ العاداتِ، خارقةً لما ألِفوا واعتادوا، حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّ وِلادَها مِن غيرِ فحْلٍ ليس ببِدْعٍ مِن شأنِها[1].

سِرُّ تقديمِ دَفْعِ ضَرر الجوع والعطش على دفع ضَررِ الخوف:

معلومٌ أنَّ أَلَمَ الخَوْفِ أشَدُّ مِن أَلَمِ الجوعِ والعَطَشِ وأفظعُ؛ بدليل أنَّ الخَوْفَ أَلَمُ النَّفسِ أو الرّوحِ، والجوعَ أَلَمُ البَدَنِ، وأَلَمُ الرّوحِ أقْسى مِن أَلَمِ البَدَنِ، وعليه يتبادر سؤالٌ: لمَ قَدَّمَ اللّهُ تعالى في الحكاية دَفْعَ ضَرَرِ الجوعِ والعَطَشِ على دَفْعِ ضَرر الخوف؟!

وقد أجاب الفخر الرّازيّ عن هذا بقوله: "إنَّ هَذا الخَوْفَ كانَ قَليلًا؛ لأنَّ بشارَةَ جِبْريلَ عليه السلام كانَتْ قَدْ تَقَدَّمَتْ؛ فما كانَتْ تَحْتاجُ إلى التَّذْكيرِ مَرَّةً أُخْرى"[2].

وقد يفيد هذا التَّرتيب تَرقّيًا مِنَ الأدنى إلى الأعلى؛ ومِنَ المُهمّ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 253.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 510.

إلى الأَهمّ؛ فإنَّها طُمئِنت مِن جهة المأكل والمشرب، ثُمَّ السَّلامةِ مِن ألم الولادة، ثُمَّ البشارة بقُرَّة عينِها، وراحةِ بالها، ثُمَّ ارتقت تلك البشاراتُ، ووصلت تسليتُها إلى قِمَّتِها، وبلغ تثبيتها إلى غايته، بإرشاد اللّه تعالى لها بما تفعله عند مواجهة قومِها، وهي تحمل رضيعَها، ولا يُخالِف أَحَدٌ في أنَّ أَشَدَّ ما كان يُؤَرِّق مريمَ، ويَقِضّ مضجِعَها حتّى تمنَّت الموتَ، هو مواجهتُها قومَها؛ لئَلّا تُرْمَى بما هي بريئة منه، وإنّما كان رفعُ ألمِ الجوعِ والعطش تمهيدًا لرفعِ ألمِ الرّوح والنّفْس والفؤاد، وتمكينًا له؛ لأنّ النّفْسَ تهدأ وتستقرُّ شيئًا ما؛ إذا ما مارَسَتْ شيئًا تألَفُه؛ كالطّعام والشّرابِ؛ ولهذا قَرَنَ التّنزيلُ الحكيمُ في آية مستقلة بينَ الأوامرِ الثّلاثة: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ﴾، وبين قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

الغرض مِن أسلوب الكناية:

الخبيرُ بالنّفس هو مرشدُها إلى ما يُصلحها

قوله: ﴿وَقَرِّي عَيْنًاۖ﴾ كنايةٌ عنِ السُّرور، وهي كنايةٌ ناشئةٌ عن ضِدِّها، وهو سُخْنةُ العينِ الّتي هي أَثَرُ البُكاءِ اللّازم للأسفِ والحُزنِ، فلمّا كُنّي عنِ الحُزنِ بسُخْنةِ العينِ(1).

و﴿عَيْنًاۖ﴾ تمييز منصوب مُحَوَّل عن فاعل، والأَصْل: لتَقَرَّ عينُكِ، وقرار العين يعني: سكونها، فالإنسان القَلِقُ الخائف المُضْطرب لا تكاد تستقِرُّ عَيْنُه، أو تتوقَّفُ عنِ الدَّوران، فكُنّي هنا بقرار العين عن هُدوء النَّفْس واستقرارِها، وأمنِها وهدوئِها، فقرارُ العين أمارةٌ على قرار النَّفْس.

وفي وصْفِ العين بذلك تأويلان: **أحدُهما**: أنَّه مأخوذٌ مِنَ القُرِّ، وهو البَرْدُ، وذلك أنَّ العينَ إذا فرِح صاحبُها كان دَمعُها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 89.

قارًّا، أي: باردًا، وإذا حَزِن كان حارًّا؛ ولذلك قالوا في الدّعاء عليه: أَسْخَنَ اللّهُ عينَه، وفي الدّعاء له: أقرَّ اللّهُ عينَه[1]، ومِن شواهده قولُ أبي تمّام[2]:

فأمّا عيونُ العاشِقينَ فأُسْخِنَتْ***وأمّا عيونُ الشامتينَ فقَرَّتِ

والثّاني: أنّه مأخوذٌ مِنَ الاستقرار، والمعنى: أعطاه اللّهُ ما يُسَكِّنُ عينَه، فلا تطمحُ إلى غيره، والقيمة البلاغيّة للكناية: أنَّها تأتي بالمعنى مصحوبًا بالدَّليل المحسوس، فهنا أَمرٌ لَها براحة القلب والبال.

الغرض من التَّعبير بأسلوب الشَّرط:

عـنـدَ المـصائب يـكـونُ الحسم والفصل

أمّا الغرض مِنَ التَّعبير بأسلوب الشَّرط: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ﴾ فهو إرشاد السَّيدة مريمَ بسرعة تنفيذ قَوْل ما أُمِرت به: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، بمجرَّد رؤية أَحَدٍ مِنَ البَشَر؛ لئَلّا تترك وقتًا لأحد لمجادلتها، وهذا ما أكَّدته الفاءُ العاطفة في جملة الشَّرْط: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ بدلالتها على التَّعقيب.

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿فَإِمَّا﴾:

إنّـمـا يُـمَـكَّـنُ المـعـنـى بـقـدْر احتياج النّفس له

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ الأصل: (إنْ ما)، دخلت (إنْ) الشَّرطيَّةُ على (ما) التي وقعت صِلَة لتَوكيد فعل الشَّرْط، بدليل التَّوكيد بالنّون الثّقيلة كتوكيد القَسَم، وأُدغِمَتْ فيها، وكُتِبَتْ مُتَّصلة[3]، وزيدت (ما) بين (إن) وفعلِ الشّرطِ؛ لإشعارها بضرورة مجانبة أحدٍ مِنَ البشر، عن طريق عدم الخوض في شأنها وشأنِ ولدِها معَه؛ فلا يكون بينَهما نوعُ اتّصالٍ، فزيادتُها تمهيدٌ لمجموعِ الشّرطِ وجوابِه، وتمكينٌ لمجموع معناهما.

---

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 590، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 13/ 49.

(2) ديوان أبي تمّام، ص: 159.

(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 13/ 50.

دلالةُ التّعبير بفعل الشّرط مضارعًا مؤكّدًا بالنّون:

غيرُ المألوف يُثير ويُلْفِت

عُبِّر بفعل الشَّرْط مضارعًا ﴿تَرَيِنَّ﴾؛ للإشارة إلى استمرار تردّد البَشَر عليها لرؤيتها بعد مجيئها بولد مِن غير أب؛ وقد تأسَّسَ على هذا تمكينُ معنى مجانبة أحدٍ مِنَ البَشر.

واستدعى المقامُ توكيدَ الفعلِ بالنّون في ﴿تَرَيِنَّ﴾؛ لأنَّ السَّيِّدة مريم سترى مِنَ البَشَر الكثير، ولا تَرى مِن فضولهم ما يَسُرُّها[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها في ﴿مِنَ ٱلۡبَشَرِ﴾:

(مِـــن) بـيـنَ الـتَّـبـعـيـض والبيان

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡبَشَرِ﴾ تبعيضيّةٌ، والمعنى: إذا رأيتِ آدميًّا، ويَحْتَمِل أن تكون بيانيّةً، والمعنى: إذا رأيتِ أحدًا مِن جِنس البَشَر فقولي: كيتَ وكيتَ، والأعلى هو الثّاني؛ إبلاغًا في بيان كثرةِ مَن سيتعرَّضُ لها؛ بإشعار ﴿مِنَ﴾ البيانيّة بذلك؛ لغرابة شأنها وعَجَبِه.

الغرض مِنَ التَّعبير بالمَجرور معرفا باللّام:

تـوجـيـهُ مـريـمَ بالامتناع المُطْلَق عـنِ الـكـلام مع بَشَر

الغرض مِنَ التَّعبير بالمَجرور مُعَرَّفًا باللّام: ﴿ٱلۡبَشَرِ﴾؛ هو الإشارة إلى امتناعها عنِ الكلام عند رؤية جِنس البَشَر، أي: اجتناب التَّحدّث مع أيّ إنسان، مهما كانت درجته في القُرْب منها أو البُعْد، أو حالُه في الصَّلاح أو الفُجور.

دلالة تنكير ﴿أَحَدٗا﴾:

دلَّ التّنكير في: ﴿أَحَدٗا﴾ على العموم، أي: إذا رأيتِ آدميًّا وسألكِ، فقولي: كيت وكيت.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بجواب الشَّرْط فِعلَ أمر:

وجـوبُ توصيلِ الرِّسالة بنَصِّها

الغرض مِنَ التَّعبير بجواب الشَّرْط فعلَ أمر: ﴿فَقُولِيٓ﴾؛ هو الدّلالة على توجيه مريمَ لتوصيل رسالةِ رَبِّها، بتلقينها حُجَّتها - كما بلَّغها بها جبريلُ عليه السلام - بنَصِّها دون زيادة ولا نقصان، وقوله:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4630.

﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ قيل: إنَّه مُرتَّبٌ على شَرْط مُقدَّرٍ بينَه وبينَ الشَّرطِ، تقديرُه: فإمّا ترينَّ مِنَ البشرِ أحدًا، فيسأَلْكِ الكلامَ، فقولي: إنّي نذرْتُ، إلخ، وبهذا سقَط ما قيلَ مِن أنَّ قولَها: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ كلامٌ بعدَ النَّذرِ؛ إذ هو بهذا التَّقديرِ مِن تَمامِ النَّذرِ لا بَعْدَه[1].

وفي حذف هذا الشرط مسارعةٌ إلى تلقينها حُجَّتَها؛ لتَثبت ولِتَطمئنّ، وكأنَّ في إثبات هذا المحذوف إطالةً للكلام، يتأخَّرُ به الإرشادُ إلى الحُجَّة، وهذا يَشُقُّ على مريمَ، فكان في الحذف مسارعةٌ إلى إرشادها وتلقينها، حيثُ كانت نفسُها تتلهَّف لسماع ما يُثَبِّتها عند مواجهة النّاس، ولعلَّ هذا مِن رحمة اللّه بها، وقد يكون هذا مُسوِّغًا للتَّعبير بوصف: (الرحمن).

وقيل: المعنى: فإمّا ترينّ مِنَ البشر أحدًا فانْذِري صومًا، وإنْ لقيتِ مِنَ البَشَرِ أحدًا، فقولي: إنّي نذرْتُ صومًا، فحُذِفَتِ الجُملةُ للقرينةِ[2].

الغرضُ مِنَ التَّعبير بمَقول القولِ جملةً اسميّةً مؤكَّدةً:

تأكيدٌ للمُنكرين، وتنبيهٌ على البراءة

وعُبِّر بمَقول القولِ جملةً اسميّةً مُؤَكَّدَة: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾؛ لأنَّ مريم ستواجه بَشَرًا يُنكرون عليها ما تحمله مِن غلام وُلِد من غير والد؛ لذا كان التَّوكيد بـ (إنَّ) والجملة الاسميّة تأكيدًا لهؤلاء المُنكِرين، وتنبيهًا على براءتها، وتمكينًا لمعنى الكلام في نفسها؛ حتّى تكون قادرةً على المواجهة به.

دلالة التَّعبير بالماضي:

ودلَّ التَّعبير بالماضي: ﴿نَذَرۡتُ﴾ على تأكيد صومها عن الكلام وتحقّقِه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 256، والأنصاري، فَتْح الرَّحمن، ص: 354.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 16/ 93.

الغرض من تقديم ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ على المفعول به:

تقديم سبب النَّذْر على النَّذْر

وقُدِّم ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ على المفعول به؛ لأنَّه الأهمُّ في سياقه، حيثُ بادرتِ السَّيدةُ مريمُ ببيان المَنْذور له الصّوم، أي: الانقطاع عنِ الكلام، وقَدَّمته على بيان النَّذْر، وكأنَّها قدَّمت سَبَبَ نَذْرها، والمعنى: إنّي نذرتُ للرَّحمن الَّذي أدخلني في رَحْمَته على ضَعْفي، وخَصَّني بما رَأَيْتُ مِنَ الكرامات والخَوارِقِ؛ فهي مُقْبِلَةٌ بكليَّتِها عليه، إثرَ إقبالِه تعالى عليها برحمته وإحسانِه؛ ففي التقديم عظيمُ إحساسٍ بالقُربِ والإقبال.

الغرض من تنكير المفعول به ﴿صَوۡمٗا﴾:

تفخيم الصَّوْم

الغرض مِن تنكير المفعول به ﴿صَوۡمٗا﴾ تفخيمُ هذا الصَّوْم؛ لأنَّه للرّحمن ربِّها، المُتفضّلِ عليها بنِعمِه وإحسانِه وكراماته، وتأييدِه لها.

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَلَنۡ﴾:

عدمُ كلامِها مُسَبَّب عنِ النَّذْر

والفاء في ﴿فَلَنۡ﴾ للسّببيَّة، أي: فتَسَبَّبَ عَنِ النَّذْرِ أنّي لَنْ ﴿أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾، فإنَّ كَلامي يَقْبَلُ الرَّدَّ والمُجادَلَة، ولَكِنْ يَتَكَلَّمُ عَنّي المَوْلودُ الَّذي كَلامُهُ لا يَقْبَلُ الدَّفْعَ[1].

دلالةُ التَّعبير بأداة النّفي والمضارع:

التَّأكيد على نَفْي الكلام طيلة مُدَّةِ النَّذْر

وفي التَّعبير بأداة النفي (لن) في ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ﴾ تأكيدٌ مِن مريمَ لنفي كلامها حالًا ومآلًا طيلةَ مُدَّة صومِها وفاءً بنَذْرها، فقد أُمِرت بالحَسْم والفصل في هذا الأمر، وقد دَلَّ التَّعبيرُ بالمضارع في ﴿أُكَلِّمَ﴾ على استمرار امتناعها عنِ الكلام، حتّى تنقضيَ أيّامُ نَذْرِها.

سِرُّ التَّقييد بالزَّمن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، وتقديمِه على المفعول به:

أمّا سِرُّ التَّقييد بالزَّمن: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، وتقديمه على المفعول به ﴿إِنسِيّٗا﴾؛ لأنَّه هو الأهمّ؛ حيثُ إنّه بدايةُ المواجهةِ مع قومها.

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 191.

الغرض مِن اصطفاء المفعول به ﴿إِنسِيًّا﴾ وتنكيره:

إفادة النَّكرة العمومَ لوقوعها في سياق النَّفْي

الإنسيُّ: الإنسان، والياء فيه للنَّسَب إلى الإنس، وهو اسم جَمع إنسان(1)، ولكمال إحساسِ مريمَ بغُربتها النّفسية وبانكسارِها، وهي في عالَم الإنْس، وبينَ قومِها أقربِ النّاسِ إليها، وأشدِّهم ألفةً لها، لطَفَ بها خالقُها العليمُ بحالها؛ فأمرها بأن تقولَ: ﴿إِنسِيًّا﴾؛ فكلُّ ما تتوهَّمُ فيه مريمُ صفةَ الإنس، وكلُّ ما يُنْسَب إلى الإنس بجهة: لن تكلمَه مريمُ.

ومجيءُ: ﴿إِنسِيًّا﴾ في الآية نكرةً أفاد العمومَ؛ لوقوعه في سياق النَّفْي، والمعنى: فلن أُكَلِّم أحدًا، والتَّقدير: (فلن أُكَلِّم إنسانًا قَطُّ مهما كان حالُه مِنَ الصَّلاح أو الفجور).

سِرُّ العدولِ عن (أحَدًا) إلى ﴿إِنسِيًّا﴾:

العدول للاحتراز والاحتراس

كان الظّاهرُ أن يقال: (فلن أكلِّم اليوم أَحَدًا)، لكن عُدِل إلى ﴿إِنسِيًّا﴾؛ للاحترازِ عنِ الملائكة؛ إذ لم تُنْهَ عن ذلك، وتقدير الكلام: (وإنَّما أُكَلِّمُ المَلَكَ وأُناجي رَبّي)(2)، وذلك إذا كان ظاهرًا لها أنّه مَلَكٌ.

النهي عن الكلام بقول تقوله مريم عليها السلام:

قد يكون الصّمتُ عنِ الإفادة أزيدَ للإفادة

ظاهِرُ الآيَةِ أَنَّ السَّيِّدة مريمَ أُبيحَ لَها أَنْ تَقول هَذِه الأَلْفاظَ الَّتي في الآيَة: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾، وهذا قَوْلُ الجُمهور(3)، ولم يأتِ في الآيات أنّها نطقت بشيء من هذا في حوارها مع قومها، وقيل: أنّ هذا الخطاب إنّما هو منعٌ لها من القول مطلقًا، حتى بهذه الكلمات، والاكتفاء بطريق الإشارة إليهم والرمز لهم؛ لأنَّها كانت مأمورةً بهذا النَّذْر عند رؤيتهم، فلو تكلَّمت

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 94.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 87.
(3) القُرْطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 439.

معهم لأخلفت نذرَها؛ لذا أمسكت عنِ الكلام، وأومأت برأسها، أو أشارت بيدها، وقيل: إنَّها ما نذرتِ الصَّوم عنِ الكلام في الحال، بل صبرت حتَّى أتت قومَها، فذكرت لهم نذرَها[1].

فائدة امتناع مريم عن الكلام:

في الامتناع عن الكلام بأمر اللّه تعالى سدٌّ للحوار والمجادلة مَعَ السّفهاء الذين اتّهموها بارتكاب الفاحشة - حاشاها - ، وفي هذا دليلٌ على نَدْب السُّكوت عنِ السَّفيه والإعراض عنه.

مِنْ أذَلِّ الناسِ سفيهٌ لم يجد مُسافِهًا

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّاس والبَشَر:

النّاس كلمة مشتقّةٌ مِنَ الأُنْس، وهو الاستئناس، أي: يأنَسُ الإنسانُ بوجود غيرِه معه، وأصله: أُناس[2]، والنّاسُ جَمعٌ لا مفردَ له مِن لفظه، "والنّاسُ قد يُذْكَر ويُراد به الفضلاءُ دونَ مَن يتناوله اسمُ النّاسِ تجوّزًا، وذلك إذا اعتُبِر معنى الإنسانيّة، وهو وجودُ العقل، والذّكرِ، وسائرِ الأخلاق الحميدة، والمعاني المختصّة به، فإنّ كلّ شيء عدمُ فعلِه المُختصّ به لا يكاد يَستحقّ اسمَه"[3]، والنّاسُ: اسمٌ عامٌّ لبني آدم.

النّاسُ اسمٌ عامٌّ لبني آدم، وهم متساوون في البشريّة، مختلفون في الإنسانيّة

والبَشَرُ: كلمة مشتقّة مِنَ البِشارة، وهذا يقتضي حُسْنَ الهَيئة؛ حيثُ خلق اللّهُ الإنسان في أحسن تقويم، يقال: رجلٌ بشير وامرأة بشيرة، إذا كان حسن الهيئة؛ وسُمّي النّاسُ بشرًا لأنّهم أحسنُ الحيوان هيئة، ويدلُّ أصل الكلمة أيضًا على الظُّهور، وسُمّوا بَشَرًا لظهور شأنهم؛ ومنه قيل لظاهر الجِلْد بَشَرة[4]، والبَشَر: الخَلْقُ، سُمّوا بَشَرًا اعتبارًا بظهور جِلْدهم مِنَ الشَّعْر والصّوف والوَبَر،

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 543.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نوس).
(3) الرّاغب، المفردات: (نوس).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 28، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

بخلاف الحيوانات فإنّها مُستَترِةٌ بما ذُكر، وذلك أنّ البَشَرَة ظاهرُ الجِلْد[1]، والبَشَر: مفردٌ لَفظًا، جَمعٌ معنًى، ولم يُجمَع على لفظه، لكنَّه يُثَنَّى، كما في قوله تعالى: ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، وتَرِد كلمةُ (البَشَر) في الاستعمال القرآني عندما تُراد المُساواةُ، فالنّاس مِنَ حيثُ البشريَّةُ متساوون كلّهم، سواء من هذه النّاحية؛ أو مِن حيثُ ظهورُ البشرةِ فكلّهم متساوون؛ ولذلك يأتي قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، وقولُه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: 24]؛ لأنّهم متساوون في البشريّة، لكن مختلفون في الإنسانيّة، مِن حيثُ يَأنَسُ بعضُهم إلى بعض، ويعين بعضُهم بعضًا، فهُم في هذا متفاوتون ومختلفون في درجات الإنسانيَّة[2].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمْدة الحُفّاظ: (بشر).
(2) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانية، ص: 286.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ٢٧﴾

[مريم: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

لَمّا سَمِعَتْ مريمُ هَذا الكَلامَ في الآية السّابقة اشْتَدَّ جأشها، وزالَ حُزْنُها، وأتَتْ قومَها برضيعها، وإنّما يُمَهَّدُ للشّيءِ العظيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحۡمِلُهُۥ﴾: (حمل) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إِقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيءَ أَحْمِلُهُ حَملًا[1]، قال الرّاغب: الحَمل معنًى واحدٌ اعتُبِر في أشياء كثيرة، فسوّي بين لفظه في فعل، وفُرّق بين كثير منها في مصادرها، فقيل في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيء المحمول على الظّهر: حِمل، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمل، كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثّمرة في الشَّجرة تشبيهًا بحَمل المرأة[2]، وكَذَلِكَ قالَ بَعْضُ اللُّغَوِيّينَ: ما كانَ لازِمًا للشَّيْءِ فهوَ حَمل، وما كانَ بائِنًا فهوَ حِمل، فكلُّ مُتَّصِلٍ حَمل، وكلُّ مُنْفَصِلٍ حِمل[3]، والمُراد في الآية: وضْعُ شَيْءٍ على آخَرَ لنَقْلِه، أي: أَنَّها أَتَتْ به محمولًا بين ذراعيها، مُعْلِنَةً به غَيْرَ ساتِرَةٍ، كسائر الأطفال يحتاج إلى مَن يَحْمِله رغمَ كونِه قادرًا على أن يكلِّم النّاس[4].

2) ﴿فَرِيّٗا﴾: أَصْلُ الكلمةِ مِنَ الفَرْيِ، وهو: القَطْعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أَفْرَى الذِّئْبُ بَطْنَ الشَّاةِ يُفْري فرْيًا، أي: شَقَّهُ، ومِنْهُ الفِراءُ وهوَ الجِلْدُ؛ لأَنَّهُ يُقْطَعُ، ويَأْتي الفَرْيُ بمَعْنَى الصُّنْعِ والاِخْتِلاقِ، وسُمّيَ الكَذِبُ فِرْيَةً وافْتِراءً؛ لأَنَّ المُفتَرِيَ يَقْتَطِعُ الكَلامَ اقْتِطاعًا مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ[5]، والافتراء: الكَذِبُ العَظيمُ، وقيلَ: الكَذِبُ المُتَعَلِّقُ بالأَعْراضِ، ويَأْتي الافْتِراءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حمل).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (حمل).

(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثريّ: سورة مريم، آية، ص: 27.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).

بمَعْنَى البُهْتانِ والظُّلْم(1)، والفَريُّ: فعيلٌ مِنْ فرَى، مِنْ ذَواتِ الياءِ، ولِهَذا اللَّفْظِ عِدَّةُ إِطْلاقاتٍ كما ذكَرنا، وأَظْهَرُ مَحامِلِه في الآيَة على أَنَّهُ الشَّنيعُ في السّوءِ، قالَهُ مُجاهِدٌ والسُّدّيُّ، وهو جاءَ مِنْ مادَّة (افْتَرَى) إِذا كَذَبَ؛ لأَنَّ المَرْأَةَ تَنْسِبُ ولَدَها الَّذي حَمَلَتْ به مِنْ زِنًى إلى زَوْجِها كَذِبًا، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: 12](2).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يتأثّر النّاس عادةً بظواهر الأمور، ويتعجّلون بالحُكم عليها

يُخبر اللّهُ تعالى بما حدَث عندما جاءَتْ مريمُ بوليدِها إلى قومِها، فيقولُ سبحانه: فلمّا تعلّت مريمُ من نفاسها، أتت بعيسى قومَها تحمِلُه، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غيرَ مُباليَةٍ ولا مُكترثة بما سيقولُه النّاسُ عنها؛ فقد هيّأها ربُّها الرّحمنُ لذلك؛ فلمّا رآها قومُها وهي تَحمِلُ مولودًا، قالوا: يا مريمُ، لقد فعلتِ مُنكَرًا عَظيمًا(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأَتَتۡ﴾:

بقدرِ الاستعداد للمواجهة تكونُ قوتُها

الفاء في ﴿فَأَتَتۡ﴾ عاطفةٌ للتَّعقيب، وقد دَلَّتِ الفاءُ على أنَّ مَرْيَمَ جاءَتْ أَهْلَها عَقِبَ انْتِهاءِ طُهْرِها مِن نفاسِها؛ لتواجهَهُم وهي شامخةٌ ثابتة، وتدلُّ الفاءُ على كمال تهيُّئِها لهذه المواجهة بما هيَّأها به ربُّها الرّحمنُ؛ فأَصلُ الإتيانِ يَدُلُّ على حصولِ أصلِ التّهيئَة، وكون الإتيانِ عقِبَ انتهاءِ طُهرِها من نفاسها يدلُّ على كمال تلك التّهيئة.

وقد اختزلتِ الفاءُ الزَّمنَ في قوله: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾،

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449، وابن منظور، لسان العرب: (فري).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 95.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 521، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 99، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 226، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 492.

وطَوَتِ المُدَّةَ؛ لتومِئَ إلى ثِقة مريمَ بأنَّها ستُكْفَى أَمرَها، وأظهرت الفاءُ مريمَ أنَّها بادرت مباشرةً بالرُّجوع إلى قومها برضيعها، وهي تحملُه غيرَ مُبالية بأحَد ولا مُستخفية، بعد أن رأت مِنَ الآيات، وعَلِمت أنَّ اللّه تعالى سيظهر براءَتها بخارقة، كما حَملت بخارقة.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بالفعل (أتى):

مَجيءُ ثِقةٍ واطمئنان بمَعيَّة الله

أوثِرَ التَّعبير بالفعل (أتى) دون الفعل (جاء) في: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾؛ لأنَّ مجيئَها كان بَعْد أن بُشِّرَت بأنَّ رضيعَها سيكفيها مَؤونَةَ الرَّدّ على قومها ومجادلتِهم، مِن أجْل ذلك فهو مَجيء فيه ثِقَةٌ ويقين؛ لذا أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل الذي تَدلُّ مادَّتُه على اليُسْر والسُّهولة واللّين والرِّفق، ولكمال تهيئة نفسِها للمواجهة، كان إتيانُها قومَها إتيانًا فيه سهولةٌ ولينٌ.

الغرض مِن تقديم شبه الجملة على المفعول به:

إصرارُ مريمَ على الإعلان عن مولودها

في قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾، الضّمير المَجرور في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى عيسى عليه السلام، والغَرض مِن تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول به ﴿قَوْمَهَا﴾ إظهارُ إصرارِ مريمَ على الإعلان عن مولودها، ومواجهةِ قومها به - كأنّها تُبرزُه أمامَها - بَعْد ثقتها في إنجاز وَعْد اللّه تعالى لها، وهذا ما دَلَّت عليه الباء التي للمصاحبة في قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾، وكان مِنَ المكن أن يقال: (فأتت قومَها تحمله)[1]؛ ولِلّفْتِ بقوّة إلى أنَّ ما كان سببَ معاناتِها وغربتِها سيكون سببَ راحتِها وأُنسها؛ ولأنّ مرجع الضّمير هو عيسى عليه السلام، مَوْطنُ المعجزة؛ لولادته مِن غير أبٍ.

سِرُّ إضافة المفعول به للضَّمير ﴿قَوْمَهَا﴾:

في إضافة المفعول به للضَّمير ﴿قَوْمَهَا﴾ إشارةٌ إلى شجاعة السَّيدة

(1) عادل الرّوينيّ، تأمّلات في سورة مريم، ص: 149.

حالتان متناقضتان للسَّيِّدة مريم عليها السلام

مريمَ، ويقينِها في موعود اللّٰه لَها؛ إذْ لم تذهب إلى أُناس غُرَباء عنها، بل أتت قومَها أنفسَهم غيرَ مباليَةٍ بما سيقولونَهُ، ففي الإضافة إنباءٌ بكمال استعدادِها للمواجهة؛ فأخيرًا تأتي المواجهةُ الكبرى بينَ مريم وقومها، ولْنَتأمّل ونوازن بين حالتَين نفسيّتَين متناقضتَين لمريمَ: حالة الحُزن والألم والضّيق بَعْدَ بشارتها بالولد، وبَعْدَ ولادتها، تلك الحالةُ الّتي تمنّت فيها الموتَ خشيةَ الفتنةِ والمواجهةِ مع قومها، فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]، وحالةِ الرِّضا والقبول والانقياد لأمر اللّٰه تعالى، والخضوع لقضائه وقَدَرِه عند مواجهة قومها بعد تثبيت اللّٰه تعالى لها، وتلقينها حُجَّتَها، وتأييدِها ببُرهان براءَتها، والآن ها هي تلك مريمُ عائدةٌ إلى قومها بمَحْض إرادتها؛ لتواجهَهُم وهي شامخةٌ، مرفوعةُ الهامَة(1).

النُّكْتَةُ البلاغيّة وراءَ حَذْفِ حرف الجَرِّ:

حَذْفُ حرفِ الانتهاء قَطَعَ المسافة، وطوى الزَّمن

في حذف حرف الجَرِّ مِن قوله: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا﴾ لطيفةٌ؛ هي الإشارة إلى سُرعة وصولِ مريمَ مع رضيعها إلى قومها، إذ كان الظّاهر أن يقال: (فأتت به إلى قومِها)، فحُذِف حرفُ الانتهاء الذي قَطَع المسافةَ، وطوى الزَّمن؛ ليرينا مريمَ أمامَ قومِها مباشرةً، ومولودُها بين يديها تحمله؛ لتواجِهَ قومَها بثبات وإصرار عجيبَين، بعد أن كانت تتمنَّى الموتَ خشيةَ تلك المواجهة.

سِرُّ تقييد الفعل ﴿فَأَتَتۡ﴾ بالجملة الحاليّة ﴿تَحۡمِلُهُۥ﴾:

احتراسٌ، وتفسيرٌ بَعْد إجمال

جملة: ﴿تَحۡمِلُهُۥ﴾ في محلِّ نَصْب حالٌ مِن ضمير مريم في ﴿فَأَتَتۡ﴾، أو مِن ضمير ولدها في ﴿تَحۡمِلُهُۥ﴾، "وهَذِه الحالُ للدّلالَة على أنّها أتَتْ مُعْلِنَةً به غَيْرَ ساتِرَةٍ، لأنّها قَدْ عَلِمَتْ أنَّ اللّٰه سَيُبَرِّئُها مِمّا يُتَّهَمُ به مِثْلُ مَن جاءَ في حالَتِها"(2).

(1) عادل الرّوينيّ، تأمّلات في سورة مريم، ص: 149.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 94.

وكان مِنَ الممكن الاستغناءُ عن تلك الجملة الحاليَّة، فيُقال: فأتت به قومها، لكنَّها ذُكِرَت احتراسًا مِن أن تكون جاءت غيرَ مُعْلِنَةٍ به، وفيها أيضًا: تفسيرٌ بَعْد إجمال.

احتراسٌ، وتفسيرٌ بَعْد إجمال

فائدة التعبير بالفعل المضارع ﴿تَحۡمِلُهُۥۖ﴾:

أهل اللُّغة يُقَدِّرون أنَّ الفعل يقتضي التَّكَلُّف واحتمال الميثاق، بخلاف الاسم، ولا شكَّ أنَّ على مريم عليها السلام في دخولها بمولودها قريتَها هَمًّا كبيرًا، ومشقَّةً؛ لاستحيائها منهم[1].

واستحضار الصورة المستفاد من الفعل المضارع ناظرٌ إلى قومها أهلِ محلَّتِها؛ مِن جهةِ أنْ حَصَلَ لهم مِنَ المفاجأةِ والدَّهْشَةِ ما جعلَهُم يُجدِّدون النّظرَ إليها وإلى وليدِها سيِّدِنا عيسى عليه السلام، فالقرآن صَوَّرَ حالَهُم هذا بنَظْم الحَملِ في صورَةِ فِعْلٍ مضارِعٍ، فكان التّعبيرُ بالمضارعِ تمهيدًا لقولِ قومِها يريدون توبيخَها وذمَّها وتأنيبَها: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾، فمَن يقولُ هذا فإنّما حالُه ما ذكرتُ، ومَن حالُه ما فهمتُ مِنَ المضارعِ يقولُ هذا[2].

موقع جملة: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ﴾ مِمّا قبلَها ودلالتُه:

في الفصل إقبالِ قومِها عليها

فُصِلت جملة: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ﴾ للاستئناف البيانيّ، أي: شِبْه كمالِ الاتِّصال، حيثُ وقعتِ الجملةُ الثّانية جوابًا عن سؤال أثارته الجملة الأولى، مفادُه: ماذا قال قومها عندما أتت به؟ فأجيب: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾، وقال قَوْمُها هَذِه المَقالَةَ تَوْبيخًا لها.

الغرض مِنَ التَّعبير بالفاعل ضمير واو الجماعة:

هَولُ المفاجأة على قوم مريم، وشِدَّةُ صدمتِهم فيها

وفي التَّعبير بالفاعل ضمير واو الجماعة إشارةٌ إلى أن تلك المقولة: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ قد نطق بها جُلُّ قومِها،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 116.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 531، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 95.

ووافقَ مَن لم ينطق بها مَن قالها وارتضاها، فنُسِبَت لهم جميعًا، وهذا يدلُّ على هول المفاجأة عليهم، وشِدَّة صدمتهم في مريم.

الغرض مِنَ التّعبير بجملة النّداء مقول القول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾:

إعلانٌ بالتَّوبيخ، وتشهيرٌ بالفعل

التَّعبير بجملة النِّداء مقولِ القول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾؛ للإعلان عن توبيخها، والتَّشهير بفِعْلتها، وأن هذه الفِعْلة مِن شأنها أن تُباعِد بينَها وبينَهم؛ لذا بَسَطَ قومُها فيها لسانَ المَلامَة لمّا رأوها قد ولَدَت وهي عذراء - وظاهر الحال كان معهم - فقالوا لها على سبيل المَلامة: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ بالتَّعبير بالمُنادى اسمًا ظاهرًا، بالنَّص على ذِكْر اسمِها لمزيدٍ مِنَ التَّعنيف والتَّشهير.

سِرُّ التَّأكيد:

حالُ مريمَ في إتيانها يقتضي إنكارَ كلامِهم

أشار التَّعبيرُ بالجملة مبتدأةً باللّام المَوطِّئة للقَسَم ﴿لَقَدۡ﴾ في جملة: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾، وبالماضي مسبوقًا بـ(قد) إلى شِدَّة إنكار قوم مريم لما جاءت به؛ لذا كان التَّوكيدُ بالقَسَم وبما دخل عليه؛ لتحقيق هذا الإنكار منهم وثبوته؛ "لِأَنَّ حالَها في إتْيانِها يَقْتَضي إنْكارَ كَلامِهِم"[1].

سِرُّ التَّعبير بالمَجيء دون الإتيان:

مناسبةُ التَّعبير بالمَجيء لحال قوم مريم

والتّعبير بالفعل (جاء) في جملة: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾، مناسبٌ لحال قوم مريم، واعتقادِهم أنَّ ما وقع مِن مريم مِن قُبْح الفعل، وجَهارتِه وإعلانه، بدليله وشاهده، وهو مولودُها عيسى، وهي عذراءُ مِن غير زواج دون خفاء، أمرٌ صَعْبٌ عليهم قبولُه، مُسْتغربٌ عندَهم فعلُه.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بالمفعول به مُنَكَّرًا ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

تحقيق التَّعجّب والإنكار والاستغراب

التّعبير بـ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ لتحقيق التَّعجُّب والإنكار والاستغراب؛ لدلالة التَّنكير على التَّفظيع، والتَّقدير: (لقد ارتكبتِ شيئًا شديدَ الاستقباح والاستنكار والفظاعة والنُّكران، لا ينبغي أن تأتيَ به مثلُكِ).

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 192.

سِرُّ تقييد المفعول به بالصّفة ﴿فَرِيًّا﴾:

الفَرْي يحتمل معنيين، أحدهما أرجحُ

الفري القُبْح العظيمُ المُسْتَنْكَر، وهو مُشْتقٌّ مِن (افترى) إذا كَذَبَ؛ لأنَّ المرأة تَنْسِبُ ولدَها الذي حَملت به مِن زِنىً إلى زوجها كَذِبًا وزورًا، والمعنى: (أَتَيْتِ مُنْكَرًا عظيمًا، هو أنَّك أتيتِ بولد لا أبِ له معروفٌ وأنتِ عذراء)[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيان والمَجيء:

بين الإتيان والمجيء عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَق

الإتيان: تدور مادَّة الإتيان حولَ اليُسرَ والسُّهولة واللّين، فالمَجيء مِن بُعْدٍ وبسهولة، يقال: أتى يأتي إتْيانًا، فهو آتٍ[2]، وكلُّ آتٍ قريبٌ، ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ، وبه شُبّه الغريبُ فقيل: أتاويّ، ومرجع السُّهولة فيه إلى كون الحركةِ صادرةً عن طواعيَة ورغبة، أو لوقوع الفعل حالَ انقيادٍ وطاعة، أو في معرض بيان التَّفضُّل به دون وجوبٍ أو إلزام، أو في مقام بيان سهولتِه لقُدرة الفاعل عليه، أو لأنَّ الإتيان قد فارقه ما يجعله صعبًا[3]، والإتيان: يقال للمَجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّرّ، وفي الأعيان والأعراض.

والمَجيء: يدلُ أصل المادَّة على الغلبة والإلجاء، يقال: أجاءه إلى الشَّيء، أي: جاء به، وألجأه إليه، واضطره إليه، وفي المَجيء معنى الحَبْس، وعدم النَّفاذ على الغاية؛ لذا اشتُقَّ مِنَ المادَّة الاسم (الجِئَة)، وهو مجتَمَع الماء حولَ الحِصْن وغيره؛ لأنَّها تحبِس الماءَ عنه فلا ينفذ إليه[4]، والمَجيءُ يكون مِن أيِّ جِهَة، ويستعمل في لغة العرب لازمًا، ومُتعدّيًا[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 95.
(2) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 17.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(5) العسكريّ، الفروق في اللُّغويّة، ص: 302.

وبين الإتيان والمجيء عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَق: فالإتيانُ أَخَصُّ مِن جهة كونه بسهولة، والمَجيء أخَصُّ من جهة كونه دون سهولة، وبينهما عموم مِن حيثُ دلالتُهما على مطلق الحركة والانتقال، دونَ التَّقيُّد بسهولة، أو غيرها.

والإتيان قد يقال باعتبار القَصْد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال: (جاء): في الأعيان والمعاني، ولِما مجيئُه بذاته، أو بأمره، ولِمَن قصد مكانًا، أو عملًا، أو زمانًا[1]، ومن شواهده قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [هود: 77]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ [الزمر: 59].

قوم وأَهْل:

القوم جماعة مِنَ النّاس وتأتي بمعنى الرّجال، والأهل تُفيد النّسَبَ والاختصاص

قَوْم: يدلُّ الجَذْرُ اللّغويّ للكلمة على أصلين؛ أحدهما: جماعة ناس، وربما استُعير في غيرهم، قالوا: (القوم) وهو جمع امرئ من غير لفظه، ولا يكون ذلك إلّا للرِّجال، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: 54]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: 147]، وقولُه تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: 51].

أَهْل: يكون مِن جِهَة النَّسب والاختصاص، فمِن جهة النَّسَب كقولنا: أَهْلُ الرَّجُل، لقرابته الأدنَين، ومِن جهة الاختصاص، كقولنا: أَهْلُ

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

اللّه، وأهلُ العِلْم، وأهلُ مَكَّة، قال الرّاغب: "أَهْل الرَّجُل: مَنْ يجمعُه وإيّاهم نسَبٌ أو دينٌ، أو ما يجري مجراهما مِن صناعة وبيت وبلد، وأهل الرّجل في الأصل: مَن يجمعه وإيّاهم مسكنٌ واحد، ثمّ تُجوِّز به، فقيل: أهل الرَّجُل لمَن يجمعه وإيّاهم نسبٌ، وتُعورِف في أُسرة النّبيّ ﷺ مطلقًا إذا قيل: أهلُ البيت؛ لقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: 33]، وعُبِّر بأهل الرّجل عنِ امرأته، وأهلُ الإسلام: مَن يجمعهم، ولمّا كانت الشّريعة حكمت برفع حُكم النَّسَب في كثير مِنَ الأحكام بينَ المسلم والكافر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: 46]، وقال تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: 40]"[1]، ومِن شواهده قولُه تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾ [البقرة: 105]، وقولُه تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النّساء: 58]، وقولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ [الأعراف: 83]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧﴾ [الأعراف: 97].

الحمل والحضن:

الحَمل أعمّ مِنَ الحضن، ويدُلُّ على مَشقَّة ومعاناة، والحَضْن يدلُّ على شفقة ومحبَّة

يدلُّ أَصل الحَملِ عَلى إِقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَملًا، والحَملُ: ما كانَ في بَطْنٍ أَوْ على رَأْسِ شَجَرٍ، يُقالُ: امرَأَةٌ حامِلٌ وحامِلَةٌ[2]، ومِن شواهده قولُه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النَّحل: 25]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾ [فصلت: 47]، وقولُه تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ [القمر: 13].

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أَهْل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حمل).

وأَصْلُ المادَّة: حضَنَ: حِفْظُ الشَّيْءِ وصيانَتُه[1]، والحِضْنُ: ما دونَ الإِبْطِ إلى الكَشْحِ، أو الصَّدْرُ والعَضُدانِ وما بَيْنَهما، وجانِبُ الشّيءِ وناحيَتُه[2]، ومِنْهُ الاحْتِضان، وهوَ احتمالُ الشّيءِ وجَعْلُه في الحِضْنِ، كَما تَحْتَضِنُ المرأَةُ ولَدَها، فتَحْتَمِلُهُ في أَحد شِقَّيْها[3]، والجمع: أَحْضانٌ، ولم يرد هذا اللّفظ في القرآن الكريم.

والفرق بينَ الكلمتين: هو أنَّ الحَمل يدُلُّ على المَشَقَّة والمعاناة، وهو أَعَمَّ مِنَ الحَضْن، وقد يكون برغبة وحُبٍّ، وقد لا يكون، والحَضْن يدلُّ على الشَّفقة والمحبَّة والقُرْب، وأنَّه يكون غالبًا برغبة مِنَ الحاضِن، وطواعيَةٍ منه، وموفورِ رغبة وحُبٍّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حضن).
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (حضن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حضن).

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾

[مريم: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

عَمَى البصيرةِ دافِعُ كلِّ إساءةٍ

ما زال سياقُ الآيات يتحدّث عنِ المواجهة الكبرى بين مريم وقومها؛ فبعد أن قرّروا ما فعلَتْهُ أوّلًا في الآيةِ السّابقة؛ ترَقَّوا في الإنكارِ واللّوم والتّعنيفِ، مُذكّرين بصلاح أخيها وأبيها وأُمّها.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمُّكِ﴾: أصلُ مُفردة الأُمِّ تدلُّ على الأَصْل، يُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيءٍ أو تربيته أو إصلاحه أو مُبدِئه: أُمٌّ، قال الخَليلُ: "كلُّ شيءٍ ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسمَّى أُمًّا"[1]، والأُمُّ: الواحِدُ، والجَمعُ أُمَّهاتٌ، ورُبَّما قالوا: أُمٌّ وأُمّاتٌ[2]، قال الأزهريُّ: يُجْمَع مِنَ الآدَميّاتِ أُمَّهات، ومِنَ البَهائم أُمّات[3]، والأُمُّ بإزاء الأبِ، وهي الوالدة القريبة الَّتي ولدَتْه، والبعيدة الَّتي ولدَت مَن ولدته؛ ولهذا قيل لحوّاء: هي أُمُّنا، وإنْ كان بينَنا وبينها وسائطُ[4]، والمُرادُ بالأُمِّ في الآيةِ: الوالدةُ القريبة الَّتي ولَدَتْ.

2) ﴿بَغِيّٗا﴾: أصلُ (بغي) جِنْسٌ مِنَ الفَسادِ، قَولُهُم بَغَى الجُرْحُ: إذا تَرامَى إلى فسادٍ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِن هذا ما بَعْدَهُ، فالبَغِيُّ: الفاجِرَةُ، تَقولُ: بَغَتْ تَبْغي بغاءً، وهي بَغِيٌّ[5]؛ ولِذَلِكَ لَم تَتَّصِلْ به هاءُ التَّأْنيث، ووَزْنُهُ فعيلٌ أَوْ فعُوْلٌ بمَعْنَى فاعِلٍ، فيَكونُ أَصْلُهُ بَغوي، ومنهُ بَغْيُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أم، أمم).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(4) الرّاغب، المفردات: (أم).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي).

المَطَرِ، وهوَ شِدَّتُهُ ومُعظَمُهُ، وإذا كانَ ذا بَغْيٍ فلا بُدَّ أَنْ يَقَعَ منهُ فسادٌ، والبَغْيُ: الظُّلْمُ والاِعْتِداءُ، يُقال: بَغَى، يَبْغي، بَغْيًا، فهو باغٍ، أيْ: ظالمٌ مُعْتَدي[1]، والمقصود بالبَغيِّ في الآية: اسْمٌ للْمَرْأَةِ الزّانيَةِ[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

التَّنبيه على أنَّ الفواحِشَ مِن أولادِ الصّالحينَ أفحَشُ

لقد زاد القومُ تأكيدًا في توبيخ مريم وتعييرها، فقالوا: يا أُختَ الرجُلِ الصّالحِ هارونَ، لم يكُنْ أبوكِ رجلًا يقارِفُ الفاحِشةَ، ولم تكُنْ أمُّكِ - يا مَريمُ - زانيةً فتتأسَّيَ بها، فكيف قارفتِ ذلك وأنتِ مِن أولئك القَومِ الصّالحينَ؟![3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة الفَصْل في قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾:

الاستئنافُ تأكيدٌ لتوبيخ قومِ مريمَ لها، ولِتَجْديدِ تعييرِها

قولُه: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ قطعٌ واستئنافٌ؛ فقد حَميَتْ معاني التّأنيبِ والتّأديبِ والتَّعْييرِ واللّومِ والتَّعنيفِ في نفوسِ قومها، فاستأنفوا كلامًا جديدًا يُجدِّدون به تلك المعاني؛ فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهذا ما عناه أبو السّعود في قوله: "﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾: استئنافٌ؛ لتجديد التّعيير، وتأكيد التّوبيخ"[4]، ويجوزُ أنْ يكونوا قد قصدوا تحقيقَ قولهم الأوّل: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾؛ فبينهما كمالُ اتّصالٍ معنويٍّ خفيٍّ؛ جهتُه التّوكيدُ؛ فلهذا غابت الواوُ بينهما، ولا يُعتَدُّ بالعلاقة الظّاهرة؛ مِن كون السّابق خبرًا، والثّاني إنشاءً؛ لأنَّا محكومونَ بالنّظر في المعاني وعلاقاتها وأنسابها، وقد ألمح أبو السّعود إلى ذلك بقوله: "﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾: تقريرٌ لكون ما جاءت به فريًّا منكرًا"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 82.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 525، والواحديّ، التفسير البسيط: 14/ 239، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 492.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 557.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 557.

سِرُّ إيثار أداة النِّداء (يا) في قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ﴾:

للمَدِّ المنفصل دورٌ في إبراز المعنى

جملة النِّداء: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ لا محلّ لها، استئنافٌ في حيّز القول. والغرض مِنَ التَّعبير بأسلوب النِّداء: ﴿يَٰٓأُخۡتَ﴾ هو المزيد مِن تعنيفها وتوبيخها، وفي استخدام أداة النِّداء للبعيد - ومريم أمامَهم مواجهَةً لَهم - زيادةُ زَجْرٍ ولَوم وتقريع لها، بمَدِّ الصَّوت واستطالته مِن خلال حرف المدَّ، واستطالة النَّطق بهذا المَدّ المنفصل، وكأنَّهم يريدون أن يستمرّوا في الصّياح عليها، ورفعِ أصواتهم في وجهها أطولَ وقتٍ ممكن.

سِرُّ التَّعبير بالمُنادى مضافًا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾:

تشديد التَّوبيخ والإنكار والتَّهكُّم والسُّخريَة بمريم

هكذا انطلقت ألسنةُ القومِ تُصوّب سهامَها نحوَ مريمَ بالتَّوبيخ والتَّقريع والتّعنيف والتّأنيب والسَّخط والتَّبرّم، ثمّ تَلَوَّن كلامُهم، وصُبِغ بصِبغة التَّهَكُّم والسُّخريَة والاستهزاء، يُلْمَح هذا في قولهم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾، فكأنّهم قالوا: فيا للتّناقُضِ العجيب بين نسبكِ الطّاهرِ الشَّريف، وتلكَ الفِعْلةِ الوضيعة الخسيسة التي اقترفتيها وتلبَّستِ بها!! فأخوكِ رجلٌ صالح، يشهد له بنو إسرائيلَ بالصَّلاح، وما كان أبوكِ في يوم مِنَ الأيام رَجُلَ سَوْءٍ، وما كانت أُمُّكِ في يوم مِن الأيام بَغيًّا حتّى تأتيَ بهذه الفِعْلَة الدّنيئَةِ، التي لا يأتي بها إلّا بناتُ المَنشأ السّوء؛ بناتُ آباءِ السّوء وأمَّهات السّوء البغايا!!.

دلالةُ التَّعبير بالكَوْن المَنفيّ:

تأكيد القومِ على طهارة أصول مريم عليها السلام

وقد أكّد القومُ لمريم رسوخَ أبويها في الطّهارة والشَّرف والنَّقاء بفعل الكون ﴿كَانَ﴾، فأبوها لم يكن قطّ في حياته رجلَ سَوءٍ، وأمّها ما كانت قطّ في لحظة امرأةً غيرَ شريفة، والمراد هنا استغراقُ الكون المَنفيّ للزّمان الماضي كلّه، وجملة: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ لا محلّ

لها، جوابُ النّداء، وهي استئنافٌ نحويٌّ، فبينها وبين ما قبلَها كمالُ انقطاعٍ بلا إيهام؛ إذ لا مناسبةَ خاصّة تجمع بينَهما، وجملة: ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ لا محلّ لها، معطوفة على جملة جواب النّداء.

سِرُّ التَّعبير بخبر كان مضافًا ﴿ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾:

نَـفْـيُ الـقُـبْـح والـفـسـادِ عن أحـوال عِـمـران والدِ مريمَ

يدلُّ أصل مادَّة: ﴿سَوۡءٖ﴾ على القُبح، وسُمّيَتِ النّارُ سوأَى، لقُبْحِ مَنْظَرِها[1]، والسَّوْءُ: مَصْدَرُ ساءَهُ، إذا أضَرَّ به وأفْسَدَ بَعْضَ حالِه، فإضافَةُ اسْمِ إلَيْه تُفيدُ أنَّهُ مِن شُؤونِه وأفْعالِه، وأنَّهُ هو مَصْدَرٌ لَهُ، فمَعْنى: ﴿ٱمۡـرَأَ سَوۡءٖ﴾ رَجُلَ عَمَلٍ مُفْسِدٍ[2]، والغرضُ: نَفْيُ القُبْحِ والفسادِ عن أحوال عِمرانَ والدِ مريمَ عليها السلام وأخلاقِه وتعاملاته؛ حيثُ لم يكن مُتَخَلِّقًا بأيِّ صِفةٍ تُشَوِّه سيرتَه، ولا مُتلبِّسًا بأيِّ عملٍ يُسيء إليه.

سبب إيثار نفي السوء على إثبات الصلاح في الآية:

اختلافُ الحالِ سياقٌ لاختلافِ المقالِ

في جملة مقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾، جاء التعبير على صيغة النفي، إفحامًا، وإبلاغًا في اللّوم والتعنيف، وجاءت العبارة عنهم: ﴿بَغِيّٗا﴾ دون: (بغية)، بحذف التّاء؛ لتصوير ضيق أنفس قوم مريمَ وضجرهم منها، ويُؤيّد هذا نداؤها بـ: (يا)؛ مِن جهةِ أنه يشيرُ مِن طَرْف خفيٍّ إلى تبرّئهم منها، ورفضِهم لها ولولادتها بهذه الطّريقة الغريبة العجيبة، وهو يناسب مجيئَها بشيء بعيد عن أذهان القوم، وعن عاداتهم وقدرتهم[3].

دلالة العطفِ بالواو:

تـعـديـدٌ وتـفـصـيـلٌ؛ لتوكيد التَّقريع والتَّعيير

والعطف بالواو في: ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾؛ لأنَّ القصد تعديدُ طهارةِ مَنْبِتِ مريمَ وتفصيلُها؛ لتأكيد توبيخِ قومِها لها؛ لانحدارها مِن أُصول صالحة طاهرة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوأ).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 96.

(3) طه السيد محمود، البلاغة القرآنية في تفسير البقاعيّ: 2/ 390 - 400.

السِّرُّ وراءَ تقديمِ الأبِ على الأمّ في هذا الموضع:

الأبُ هو الأصل في صلاح أُسرته أو فسادِها

والسِّر في تقديم الأبِ على الأمِّ في هذا الموضع الإشارةُ إلى أنَّ الأب هو الأصل في صلاح أُسرته أو فسادها؛ إذ إنَّها تصلح بصلاحه، أو تفسد بفساده غالبًا، كما أنَّه القُدوَة لهم، وبه يتأَسَّون، وعلى نَهْجه يسيرون.

النُّكْتَةُ البلاغيّة في تكرار فعل الكون:

سِلْسِلةٌ طاهرة نقيَّة مِنَ النَّسب الشَّريف لم تُلَوَّث قطُّ

والنُّكْتَةُ البلاغيّةُ في تكرار فعل الكون: ﴿مَا كَانَ﴾، ﴿وَمَا كَانَتْ﴾ في الآية الكريمة هو ما سبق الإشارةُ إليه مِنَ التَّأكيد على طهارة وصفاءِ ونقاءِ وشرفِ نَسَبِ مريمَ وأصولِها، وأنَّه لم يُلَوَّث قَطُّ في أيّ وقتٍ مِنَ الأوقات؛ فطَرفا حلقةِ أصلها طاهران على جهة الكمال؛ فما بالُها - يقولُ قومُها - فعلت فعلتَها تلك؟!.

سِرُّ التَّعبير بخبر ﴿كَانَتْ﴾ نكرةً منفيًّا ﴿بَغِيًّا﴾:

التَّنكير للتَّهويل والتَّفظيع

عُبِّر بخبر ﴿كَانَتْ﴾ نكرةً منفيًّا في: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾؛ للإشارة إلى تَوَغُّل تلك الصِّفة في القُبْح والفظاعة والخِسَّة، فالتَّنكير للتَّفظيع والتَّقبيح والتَّهويل.

فائدة استعمال الصفة ﴿بَغِيًّا﴾:

يتناسبُ لفظ: ﴿بَغِيًّا﴾ وهو - صفة مشبّهة - مع استكمال الذي في مقصد النّفي المستهجن الذي جاء به قوم مريم عليها السلام عندما قالوا: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، وذلك لأن لفظ ﴿بَغِيًّا﴾ بما فيه مِن تذكير لفظيّ دالٍّ على قوّة المعنى وشِدّته، وما فيه مِن صيغة المبالغة فعولٍ أو فعيلٍ؛ فـ: ﴿بَغِيًّا﴾ - على إرادة النَّسَبِ - أبلغُ وأقوى مِن: (باغية) مِن الجهتين المَذكورتَيْن، ومِن: (بغيّة) مِن جهة التّذكير اللّفظيّ؛ فكان: ﴿بَغِيًّا﴾ على إرادة النَّسَبِ أبلغَ وأنسبَ بهذا المقصد.

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأب والوالد:

تشترك الكلمتان في الدّلالة على السّبب والقرابة، الأبوّة رعاية وتربية، والوالديّةُ رابطة وصِلَة

الأَبُ يُطلق على الوالد، ويُسَمّى كلُّ مَن كان سَبَبًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحِه أو ظهوره أبًا، ويُسَمّى العَمُّ مع الأبِّ أَبَوَيْن، وكذلك الأُمُّ مع الأبّ، وكذلك الجدّ مع الأبّ[1]، وسُمّي الأب أبًا؛ لقيامه على إصلاح أولاده، ورعايتهم، وتعهُّدهم بالتَّربيَّة والغِذاء[2]، كما في قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ [النّساء: 11].

والوالد هو الأبُ المُباشَر، الذي هو سببُ وجودِ الابن[3]، ومن شواهده في الاستعمال القرآنيّ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: 33].

وتشترك الكلمتان (الأب، والوالد) في الدّلالة على السَّبَب والقرابة، وفي الاستعمال القرآنيّ تُستعمَل كلمةُ الأبِ للدّلالة على الأجداد، وعلى الرِّعاية والتَّربية، أمّا كلمة الوالد فتدلُّ في الاستعمال القرآنيّ على قوّة الرّابطة والصّلَة العاطفيّة بدلالتها على الأب المباشر أو الأدنى[4].

الرّجل والمرءُ:

الرّجل يُفيد القوّة على الأعمال، والمَرء مِنَ المُروءة، وهي كمال الرّجوليّة والإنسانيّة

الرَّجُلُ مُختصّ بالذِّكر مِنَ النّاس، وقولنا رجلٌ يُفيد القوّة على الأعمال، ولهذا يقال في مدح الإنسان إنّه رَجُل، ومن شواهده قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9]، وقولُه تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [يونس: 2].

(1) الرّاغب، المفردات: (أبا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أبو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(4) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 26 - 27.

والمَرْء يُفيد أنّه أَدَّب النَّفسَ، ولهذا يقال: المُروءة أدبٌ مخصوص، وهي كمال الرّجوليّة والإنسانيّة[1]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ﴾ [النِّساء: 176]، وقولُه تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾ [البقرة: 102]، وقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾ [عبس: 34].

الأُمُّ والوالدة:

الأمّ أعمّ مِنَ الوالدة، فكلّ شيء يُضمّ إليه ما سواه ممّا يليه أُمٌّ، والوالدة التي ولَدت

الأَمُّ في اللّغة: كُلُّ شيء يُضَمّ إليه ما سواه ممّا يليه[2]، ويقال لكُلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أُمٌّ، فالأمُّ: قد تكون الوالدة التي ولَدت، أو التي ولَدَت مَن ولدت (أي: الجدَّة)؛ ولهذا قيل لحوّاء: هي أُمُّنا، وأُمُّ الكِتاب: اللّوح المحفوظ؛ وذلك لأنَّ العلوم كُلَّها منسوبةٌ إليه ومتولِّدة منه، وأُمُّ القرى: مَكَّة؛ وكُلُّ مدينة هي أُمُّ ما حولها مِنَ القُرى، وأُمُّ الكِتاب: الفاتحة؛ لكونها مبدأ القرآن[3]، وغير ذلك مِمّا أضيف إلى أُمّ، فالمعنى لا يخرج عمّا سبق، ومِن شواهده قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: 4]، وقولُه تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النَّجم: 32]، وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: 2].

والوالدة في اللّغة: التي ولَدت[4]، ومِن شواهدها قولُه تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (مرأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (أمم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (أمم).
(4) ابن منظور، اللّسان: (ولد).

لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ [البقرة: 233]، وقولُه تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾، وقولُه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة: 110].

والخلاصة: أنَّ لفظي (أم، ووالدة) بينهما تقاربٌ دلاليّ؛ حيثُ يشتركان في الدّلالة على الأصل، وبينهما ملامح دلاليّة فارقة، فتتميز كلمةُ (أُمّ) بعموم معناها؛ حيثُ تدلّ على معان شتى؛ مِنَ الوالدة، والمُرضعة، والحامِل، والأصل، وأزواجِ النّبي ﷺ، أمّا كلمة (والدة) فاستُعملت بدلالة أخصَّ، واقتصر استعمالُها في وصف الوالدة، وذلك في سياقاتٍ تُرَتِّبُ أحكامًا شرعيّة خاصّةً بهذه الصّفَة.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾

[مريم: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

تَوالت الأحداثُ في تحقيق المعجزة الخالدة

لَمّا استراب قومُ مريم في أَمرها، واستنكروا قضيّتَها، وقالوا لها ما قالوا، مُعَرِّضين بقَذْفها ورميها بالفِرْيَة، وقد كانت يومَ ذلك صائمةً صامتة، فأحالتِ الكلامَ على رضيعها، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا مُتَهَكِّمين بها، ظانّين أنَّها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَشَارَتۡ﴾: الإشارة تعبيرٌ عن معنًى في النَّفْسِ، وتكون بالكفِّ والأُصبع والعين[2]، والمُشَيْرَةُ: السَّبّابَةُ[3]، وأَشار الرَّجُلُ يُشيرُ إشارَةً: إذا أَوْمَأَ بيديْه، ويُقالُ: شَوَّرْتُ إليه بيَدي وأَشرت إليه، أَي: لَوَّحْت إليه، وأَلَحْتُ أَيضًا، وأَشار يُشير: إذا ما وجَّه الرَّأْيَ[4]، والمرادُ بالإشارةِ في الآية: الإيماء.

2) ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾: أصلُ (مهد) يَدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[5]، والمَهْدُ: التَّوثير، يُقال: مَهَّدتُ لنفسي، ومَهَّدتُ: أَي جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا، ويُقال: مَهَدْتُ لنَفْسي خيرًا: أَي: هيَّأته ووطّأته[6]، والمَهْدُ أيضًا: للصَّبيِّ، وكذلك المَوْضِعُ إذا مُهِّدَ ووُطِّئَ[7]، والمِهادُ اسْمٌ أَجمَعُ مِن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 241.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شور).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شور).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شور).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (مهد).

المَهْد، كالأرض جَعلها اللّهُ مهادًا للعباد، وجمعُ المِهاد: مُهُد وأَمهِدة ومهود[1]، والمُرادُ بالمَهْدِ في الآيةِ: فِراشُ الصَّبيِّ وما يمهد لوضعه[2].

3) ﴿صَبِيّٗا﴾: أصلُ (صبو) يدلُّ على انحدارٍ أو ميل متدرِّج إلى أسفل، ومِن ذلك الصَّبي: الولدُ من لَدُن يولَدُ إلى أن يُفْطَم؛ لصِغر بدنه بالنِّسبة للبالغين، فهو منخفض كالمُنْحَدر[3]، والصِّبْوة والصِّبْيَة: جمعُ صَبيٍّ، والواوُ هوَ القياسُ وإن كانَتِ الياءُ أكثرَ استِعْمالًا، والمَصْدَرُ الصِّبا[4]، ويجمع أيضًا: صبيان، وصبْوان بضَمّ الصّاد وكسرها، ويقال للغلمان: صِبيان، يُقالُ: رأيتُه في صِباهُ، أَي: في صِغره، وقالَ غَيْرُهُ: رأَيتُه في صَبائِه، أَي: في صِغَره[5]، والصَّبيُّ: لفظ يستوي في المُذكَّر والمُؤنَّث، والمُرادُ به في الآية: المولودُ مِن لَدُن يولَدُ إلى أن يُفْطَم[6].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مريم عليها السلام تبدأ بالدِّفاع عن نفسها عن طريق وليدها

حينما جاءت مريمُ إلى قومها لم تُكَلِّمهم، وإنّما أشارت إلى ابنِها عيسى أنْ كَلِّموه؛ ليُجيبهَم بدلًا منها؛ لأنَّها نذرت للرَّحمن صومًا عن الكلام، فقال قَومُ مَريمَ مُنكِرينَ عليها، ومُتهكِّمين بها، ظانّين أنَّها تزدري بهم وتهزأ: كيف نكَلِّمُ رَضيعًا لا يزالُ في فِراشِه، وليس في استطاعتِه الكَلامُ؟![7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾:

سُرْعة الإشارة لسُرْعة الجواب

دلَّ العطفُ بالفاء على سُرعة صدورِ تلك الإشارة عن مريمَ فوْرَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (مهد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 97.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صبو).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صبو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صبو).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 526، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 373، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 492.

تعيير قومِها لها، فبِمُجرَّد صدورِ قولهم كانت إشارتُها إلى وليدها؛ ليَنطقَ ببراءتها، فمَعَ كمالِ استعدادها لمواجهتهم، وتهيُّئِها مِن قِبَلِ ربّها الرّحمن لذلك، لم تُطِقْ ما سمعته منهم؛ شأنُها شأنُ كلِّ حُرَّةٍ أبيَّةٍ؛ فأَعْقَبَتْ قولَهم بما بعد الفاء مِن غير مُهلة.

الغرض مِن إضمار الفاعل:

أُضمِرَ الفاعلُ في قوله: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾؛ لأنَّه لا يتعلَّق غرضٌ بذِكره، وللعِلْم به، فظاهر الحال والمقال يُشيران إلى الفاعل، وهو مريم.

عِلَّة فصْل جملة: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ﴾ عمّا قبلها:

تَشَوُّف النُّفوس إلى معرفة موقف قومِها بعد إشارتها إلى رضيعها

فُصِلت جملة: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ عمّا قبلَها؛ للاستئناف البيانيّ؛ حيثُ إنَّ النُّفوس تتشوف لمعرفة رَدّ فِعْل قومها مِن إحالتهم إلى طفلٍ حديثِ الولادة؛ ليوَجِّهوا إليه الكلامَ ويصرفوه عنه، وهُم إنّما وجَّهوا إليها السُّؤال ولم يسألوا الرَّضيع؛ لذلك فُصِلت الجملة عن سابقتها كما يُفصل الجواب عنِ السّؤال الصَّريح[1]، وهذا ما يُسمّيه البلاغيّون: شبه كمالِ الاتِّصال.

الغرض مِنَ التَّعبير بمقول القول جملة استفهاميّة ﴿كَيۡفَ﴾:

﴿كَيۡفَ﴾ للسُّؤال عنِ الحال بقصد نفي ذلك الحال، وقد كَنَّى قومُ مريمَ عليها السلام بنفي السُّؤال عن نَفْي المُسْتَفهَم عنه، وهو تكليم الأطفال الذين هُم في المَهْد[2].

غَرَضُ الاستفهام في قوله: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ﴾:

يمتنع الكلام عقلًا وعادة مع مَن هُم في المَهد

والغرض مِنَ الاستفهام في قوله: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ التَّعجُّبُ والدَّهشةُ؛ حيثُ أحالت مريمُ رَدَّها إلى رضيعها الذي تحمله بين يديها؛ لذا تعجَّب قومُها مِن تلك الإحالة؛ لامتناع الكلامِ مع مَن هو في المَهد رضيعًا عقلًا وعادة.

(1) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 272.
(2) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 272.

الإشارة إلى موضع الاستنكار

دلالة كلمة ﴿نُكَلِّمُ﴾:

قوله: ﴿نُكَلِّمُ﴾ حكاية حالٍ ماضية، و﴿مَن﴾ موصوفة، والتَّقدير: (كيف نُكَلِّم الموصوفين بأنَّهم في المَهْد؟!) وهذا التّكليم المطلوب منهم بإشارة مريم إلى عيسى، هو موضعُ الاستنكار والتّعجّب، وهو مؤسّس على قوله: ﴿فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، فمَوطِن الاستنكار مجموع ذلك، أي: أنَّ استنكار القوم كان لأمرين: كونُه في المهد، وكونه صَبيًّا، والمراد بالمَهْد: الحِجْر، سواء أكان سريرًا أم وسادةً أم غيرهما.

ألق الحاضر مشروط بالماضي

دلالة ﴿مَن﴾ وموقعها الإعرابي:

﴿مَن﴾ في جملة: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ موصوفة، أو اسم موصول في محل نصب مفعول ﴿نُكَلِّمُ﴾، يفيد العموم بخلاف (الذي).

وقد يجوز فيها أن تكون شرطية ويكون التقدير: (من كان في المهد فكيف نكلمه)[1]، والتعبير بالشرطية في الماضي ﴿مَن كَانَ﴾ بمعنى المستقبل في باب الجزاء، فتندفع المقابلة بين الفعل المضارع ﴿نُكَلِّمُ﴾ وبين الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾، ويزول الإشكال فيه[2].

حالُ المعنى سياقٌ للفظه ونظمه

دلالة السياق في التعبير بـ ﴿كَانَ﴾:

مجيء الجملة الاسمية المنسوخة بـ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ يُفيد اعتبار الاستمرار والدوام، ويكون بمعنى ثبوت الخبر في الماضي المبهم قريبِهِ وبَعيدِه من غير انقطاع له، وهي هنا للزَّمن القريب خاصّةً بقرينة السّياقِ والتّعجُّب، والغرضُ استمراره على حاله، وهو أوكد مِمَّن هو في المهد؛ لأنَّ ما سبق من مشاهدات في المهد تدلّ على عدم إمكانية الكلام[3].

عِلَّةُ إنكارِ قومِ مريم ودهشتِهم مِن إحالتها

دلالة التَّعبير بالكَوْن وحرفِ الظَّرفيّة:

التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ، وحرف الظَّرفية في قوله: ﴿مَن كَانَ فِي

(1) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 328.

(2) الشِّهاب الخفاجيّ، عِناية القاضي: 6/ 154.

(3) الشِّهاب الخفاجيّ، عِناية القاضي، والقونوي، حاشيته على تفسير البَيْضاوي: 6/ 155.

﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾؛ للدّلالَةِ على تَمَكُّنِ المَظْروفيَّةِ ﴿فِى ٱلۡمَهۡدِ﴾ مِن هَذا الَّذي أُحيلوا على مُكالَمَتِه، وذَلِكَ مُبالَغَةٌ مِنهم في الإنْكارِ، وتَعَجُّبٌ مِن اسْتِخْفافِها بهِم[1]؛ حيثُ ذكروا سَببَ إنكارهم وتعجُّبهم.

سِرُّ تقديم شِبه الجملة ﴿فِى ٱلۡمَهۡدِ﴾ على الحال:

التَّعبيرُ كنايةٌ عنِ استحالة تَكَلُّم مَن كان في المَهْد

المَهْدُ: فِراشُ الصَّبيّ، وما يُمَهَّدُ لوَضْعِهِ، وقَوْلُه: ﴿فِى ٱلۡمَهۡدِ﴾ خَبَرُ ﴿مَن﴾ المَوْصولَةِ، و﴿صَبِيًّا﴾ حالٌ مِن اسْمِ المَوْصولِ، وقُدِّم الجارُّ والمَجرورُ على الحال؛ لأنَّه الأهمّ في مناط التَّعجيب والدَّهشة، وقد أخرج قوم مريم الأمرَ مَخْرَجَ العموم، أي: أنَّ كُلَّ مَن كان في المَهد مِن حديثي الولادة يمنع العقلُ والعادَّة كلامَ العقلاء معهم؛ لأنَّهم لا يُدركون شيئًا، ويدخل فيهم رضيعُ مريمَ دخولًا أوَّليًّا، والتَّعبير كُلُّه كنايةٌ عنِ استحالة التَّكلُّم، حيثُ نَصبوا دليلًا على دعواهم[2].

غرض التَّنكير في ﴿صَبِيًّا﴾:

التَّنكير بين إرادة النَّوع والتَّهويل

التَّنكير في ﴿صَبِيًّا﴾ لإرادة النَّوع، بمعنى: أنَّ عيسى صبيٌّ مِنَ الصِّبيان الذين ما زالوا في المَهد، فكيف نُكَلِّمه؟! ويمكن أن يكون الغرض مِنَ التَّنكير: التَّهويل، وهذا يتوافق مع تعجُّب قوم مريم، واندهاشِهم، وإنكارِهم عليها أن يُكلِّموا صبيًّا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطِّفل والصّبيّ والرّضيع:

الطِّفل الصّغير مِنَ الإنسان إلى التّمييز، والصّبيّ مِنَ الولادة إلى الفطام، والرّضيع المُرْضَع

الطِّفل: اسم يقع على الولد الصّغير مِنَ الإنسان، ويكون الطّفل بلفظ واحد للمُذكّر والمُؤنّث والجمع، قال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: 31]، ويجوز المطابقة في التّثنية والجمع والتّأنيث، فيقال: طِفلة وأطفال وطِفلات، ويبقى هذا الاسم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 97.

(2) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 273.

للولد حتى يُميّز، ثمّ لا يقال له بعد ذلك طفل بل صبيّ، والطَّفْلُ: الصَّغيرُ من كُلِّ شَيءٍ، والنّاعمُ، يقال: جاريةٌ طَفْلَةٌ، أي: ناعمة(1).

والصَّبيُّ: الغلام من الولادة إلى الفطام، ويجمع على: صبية وصبيان وأَصْبيَةٌ وصِبْوَةٌ، ويقال للجارية: صبيّة وصبيٌّ، وتجمع على صبايا(2)، وقد ورد هذا اللّفظ في القرآن الكريم مرَّتين، جاءا في سورة مريم، وهما قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]، وقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾.

والرَّضيع: الرَّضيعُ المُرْضَع، أَصْلُ المادَّة يدلُّ على شُرْب اللَّبَنِ مِنَ الضَّرْعِ أَوِ الثَّدْي(3)، ولم يَرِد هذا اللّفظ صراحةً في الاستعمال القرآنيّ، ومِن شواهد مادَّته في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (طفل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صبا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رضع).

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠﴾ [مريم: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

في الآيات السّابقة محاورةٌ بينَ مريم وقومها، وقد أحالتهم إلى رضيعها ليُجيبَ عنها، وفي هذه الآية وما بَعْدها جوابُ عيسى عليه السلام عن أُمِّه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَمعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُه كَتْبًا، والكِتابُ: الشَّريعَةُ الَّتي مِنْ شَأْنِها أَنْ تُكْتَبَ؛ لِئَلّا يَقَعَ فيها تَغْييرٌ[1]، والكِتابُ: القُرْآنُ وغيرُه مِنَ الكتب السَّماويّة[2]، والمُرادُ به في الآيةِ: الإِنْجيلُ، وهو ما كُتِبَ مِنَ الوَحْيِ الَّذي خاطَبَ اللّه به عيسَى عليه السلام، ويَجوزُ أَنْ يُرادَ بِه: التَّوْراةُ، فيَكونَ الإيتاءُ إيتاءَ عِلْمِ ما في التَّوْراةِ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مَرْيَم: 12][3].

2) ﴿وَجَعَلَنِي﴾: أصلُ (جعل) كلمات غير مُنقاسة، لا يُشبه بَعضها بعضًا، فالجَعْلُ: النَّخل يَفوتُ اليَدَ، والواحِدَةُ جَعْلَةٌ[4]، والجُعْلُ والجَعالَةُ والجَعيلَةُ: ما يُجعل للإنسان على الأمر يفعله، وجَعلتُ الشَّيء صنعتُه[5]، ولفظ (جَعل): عامٌّ في الأفعال كُلّها، وهو أعمُّ مِن فعل، وصَنَعَ، وسائِرِ أخواتها، ويأتي لمعانٍ منها: جَعل الشَّيْءَ جَعلًا: وضَعَهُ وقَدَّره، وجَعل بَعْضَه فوقَ بعضٍ: أَلْقاهُ، وجَعل القَبيحَ حَسَنًا: صَيَّرَهُ، وجَعل البَصْرَةَ بَغْدادَ: ظَنَّها إيّاها، وجَعل لَهُ كَذا علَى كَذا: شارَطَهُ به علَيه[6]، والمقصود بالجعل في الآية: التَّهْيِئَةُ، والتَّمكينُ، والوَضْعُ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 98.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (كتب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 98.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جعل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 385.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

النَّصُّ على إثباتِ العُبوديَّةِ أَولى مِن إزالةِ التُّهمةِ عنِ الأمِّ

لقد أنطَقَ الحَقُّ تعالى عيسَى وهو صبيٌّ في المَهدِ، فقال: إنّي عبدُ اللّهِ؛ فهو الذي يستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه، لا شَريكَ له، مع أنَّ الذي اشتَدَّت الحاجةُ إليه في ذلك الوَقتِ إنَّما هو نفيُ تُهمةِ الزِّنى عن مَريمَ عليها السلام، إلّا أنَّ عيسى عليه السلام لم يَنُصَّ على ذلك، وإنَّما نَصَّ على إثباتِ عُبوديَّةِ نَفسِه، كأنَّه جَعَلَ إزالةَ التُّهمةِ عنِ اللّه تعالى أَولى مِن إزالةِ التُّهمةِ عنِ الأمِّ؛ فلهذا أوَّلَ ما تكلَّمَ إنَّما تكلَّمَ بها، لقد قضى اللّهُ وقَدَّرَ مِن قبلُ أنَّه سيُؤتِيني الإنجيلَ، وسيَجعَلُني نَبيًّا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف:

الفَصْل لشِبْه كمال الاتِّصال

قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ اسْتِئْنافٌ مَبْنِيٌّ عَلى سُؤالٍ نَشَأ مِن سياقِ النَّظْمِ الكَريمِ، كَأنَّهُ قيلَ: فماذا كانَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فقيلَ: قالَ عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾[2]؛ لذا فُصِلَ كما يُفْصَلُ الجوابُ عنِ السُّؤالِ، وهذا الفصل هو شِبْه كمالِ الاتِّصال.

غرض التَّعبير بمقول القول جملةً اسميّةً مُؤكّدة:

التَّأكيد مراعاةً لحال المخاطَب

التّأكيد بالجملة الاسميَّة ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ مراعاةً لحال المخاطَبين المُنْكِرين، فالقوم أنكروا على مريمَ ما جاءتهم به، وتعجَّبوا مِن إحالتهم إلى رضيعها، كما أنَّ اللّه تعالى أعلم عيسى عليه السلام بأنَّ أقوامًا مِن مِلَّته سَيَنْسِبونه إلى الأُلوهيَّة، أو البُنوَّة إلى اللّه تعالى، فأنطقَه اللّهُ بما يُؤكِّد بشريّتَه، وتَبَرُّؤَهُ مِن ادِّعاءات الفِرَق الضّالّة فيه.

سِرُّ عدم نَصّ عيسى عليه السلام على نَفْي التُّهْمة عن أُمّه أوّلًا:

صوت الحقّ يبدّد ظلام الإنكار

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ اللّه أنطق عيسى عليه السلام وهو رضيع في المهد؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 529، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 535، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 103، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 258.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 581.

لِيُبَرِّئَ أُمَّه مِن تُهَمَةَ الزِّنى التي رماها بها اليهودُ - شاهت وجوهُهم -؛ لذا فقد كان مِنَ المتبادر أن يكون أولَّ ما ينطق به نَفْي التُّهَمةِ عن أُمِّه، وإنّما النفي متحقّقٌ بالتأسيس على سريان المعجزة بإبطال الدهشة بدهشة أعظم منها، بأنَّه تعالى لا يَخُصُّ أمًّا بولد موصوفٍ بالنُّبوّة وبأَجَلِّ الصِّفات الحميدة إلّا إذا كانت مصطفاةً مبرَّأةً من كُلِّ عَيْب.

سِرُّ حذفِ النّون في ﴿إِنِّي﴾:

مِـــن شـــأن المُصطفَين كمالُ غـيْرتـهـم على التّوحيد

أصلُ قوله: ﴿إِنِّي﴾ (إنّني)؛ وإنّما حُذفت إحدى النّونَيْن؛ للدّلالة على إقبال عيسى على قومه - يكلمهم بما ذُكِر في الآية - إقبالًا سريعًا؛ فكلامُه حين أشارت إليه أُمُّه مريم معجزة، وسُرعةُ استجابتِه منها بسبيلٍ، فهي تمكين لها، ويجوزُ أن تكون النّونُ المحذوفةُ نونَ: (إنَّ)؛ للدّلالة على أنّ مضمون الجملة لا يحتاج إلى توكيد في الأصل؛ فأماراتُ الأُلوهيّة منتفيَةٌ عنه تمامًا، وإنّما الظّاهرُ فيه وعليه علاماتُ المخلوقيّة، وعلاماتُ الاصطفاءِ؛ فهو مخلوقٌ للّه، مُختار مِن قِبَله؛ ليكون نبيًّا ورسولًا، وقامت النّون المُثبتة بتأكيدِ معنى الكلام في نفوس القوم؛ لأنّ بهم إنكارًا يفتقر إلى أن يواجَه بهذا التّوكيد.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾:

قَـــدَّر الـلـه في عِلْمه الأَزَليّ إيتاءَ عيسى الإنجيلَ

قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: حَكَمَ لي بإيتاء الكِتابِ والنُّبوّة فيما قضى وسبق، وفي التَّعبير بالماضي إخبارٌ عمّا سَبَق له، مَمّا هو كائن فيما بَعْد، أي: أنَّ اللّه تعالى قَدَّر في عِلْمه الأَزَليّ إيتاءَ عيسى ﵇ الإنجيل[1].

سِرُّ التَّعبير بالمفعول به ضميرَ تكلُّم ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾:

في التَّعبير بالمفعول به ضميرَ تَكَلُّم ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ تأكيدٌ على تخصيصه بهذا الإيتاء، والنَّص عليه هو دون غيره.

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 14/ 242.

دلالة العطف والتَّنكير في ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾:

عيسى عليه السلام يُعَدِّد فضائل الله تعالى عليه

دلَّ العطف في ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ على تعديد فضائل الله تعالى وإنعامه عليه، وهذا ما يقال أيضًا في العطف في قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، والمعنى: وجعلني مِن جملة الأنبياء، والتَّنكير في ﴿نَبِيًّا﴾ للتَّعظيم، فمِمّا هو معلوم أنَّ النُّبوَّة مَرْتَبةٌ عظيمة لا ينالها إلّا مَنِ اصطفاه اللّهُ تعالى مِن خَلقه، وقولُه: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ معطوف على قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمعطوفُ على الحال حالٌ؛ فهو مِن وجوه اصطفائه وتمييزه، وتقديمُ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أبلغُ في بيان الاصطفاء؛ ببيان أَهْليَّته العَليَّةِ لتلقِّي الكتاب، وجملةُ: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تتضمنها جملة: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: 31]

التكميل والبيان لما امتنّ الله به على عيسى عليه السلام

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

في الآية السّابقة نَطق عيسى ﷺ أوّلًا بإقراره بعبوديَّته للّه تعالى؛ لأنَّه أوَّلُ المقامات، وللرَّدّ على مَن يزعم ربوبيّته، وذَكَرَ في هذه الآية الكريمة تكميله، ونفعَه لغيره، وتعليمَ النّاسِ أمورَ دينِهم، وأَمرَهم بالمعروف، ونَهْيَهم عنِ المُنكر، ودعوتَهم لمكارم الأخلاق؛ فما في الآية السّابقة مِنَ الأصول، وما في هذه مِن مُكمِّلاتها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَارَكًا﴾: أصل البَرْك صدرُ البَعير، وإن استُعمِلَ في غيره يُقال له: بَركَة، وبَرَكَ البعير: ألقى بَركَه، واعتُبِر منه معنى اللُّزوم والثَّبات، فقيل: ابْتَرَكوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا مَوضِع الحَرب، وسُمّي محبسُ الماءِ بِرْكَةً، والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلَهيِّ في الشَّيءِ، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]؛ وسُمّي بذلك لثبوتِ الخَير فيه ثبوتَ الماءِ في البِرْكَة، فهي الخير واليُمن[1]، والمُبارَك: ما فيه ذلكَ الخير؛ ولمّا كان الخَير الإلهيّ يَصدرُ مِنْ حيثُ لا يُحسّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصر، قيل لكلِّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بَرَكَة[2]، وهو اسْمُ مَفْعولٍ مِنْ بارَكَهُ، إذا جَعلهُ ذا بَرَكَةٍ، أَوْ مِنْ بارَكَ فيه، إذا جَعل البَرَكَةَ مَعَهُ، والمراد به في الآية: الَّذي تُقارِنُ البَرَكَةُ أَحْوالَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 99.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برك).

في أَعمالِه ومُحاوَرَتِه[1]، فهو النّافعُ الهادي المُرشِدُ، الآمرُ بالمعروف والنّاهي عنِ المُنكر، والدّاعي إلى الحَقِّ والتَّنزيه[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بَرَكاتُ الرُّسلِ والأنبياء باعتبارِ نَفعِهم للخَلقِ بدُعائِهم إلى طاعةِ اللهِ وتوحيده

حكى اللهُ سبحانه أنَّ عيسى عليه السلام قال عن نفسه: وجعلني ذا برَكات، كثيرَ الخَيراتِ، ومِن ذلك أن أكونَ نفّاعًا للخَلق، مُعَلِّمًا للخيرِ في أيِّ مكانٍ وزَمانٍ أكونُ فيه، وقد جعل هذه الصِّفاتِ كأنَّها حدثت له فعلًا، وهي لم تحصل بعد، مِن قِبَلِ أنَّها لمّا كانت واقعة حتمًا نُزِّلَت منزلةَ ما قد حصل، وأمرني بالصَّلاة، إذ في إقامتها وإدامتها - على الوجه الَّذي سَنَّه الدِّين - تطهيرُ النُّفوس مِنَ الأرجاس، ومنعٌ لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بَطَنَ، وكذلك أمرني بالزَّكاةِ في مُدَّةِ حياتي[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في ﴿وَجَعَلَنِي﴾ و﴿وَأَوۡصَٰنِي﴾:

أنعم اللهُ على عيسى عليه السلام بما فيه كمالُ نَفْسِه، ونَفْعُه لغيره

في العطف بالواو في ﴿وَجَعَلَنِي﴾، ﴿وَأَوۡصَٰنِي﴾ تعديدٌ لما أنطق اللهُ تعالى به عيسى عليه السلام، ودَلَّ العَطف بالواو على جَمع عيسى عليه السلام بين ما فيه كمالُ نَفْسِه، ونَفْعُه لغيره.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَجَعَلَنِي﴾:

تنزيلُ مُتَحَقّقِ الوقوعِ منزلةَ الواقع

عَبَّرَ بالماضي ﴿وَجَعَلَنِي﴾ عَمّا سَيَقَع في المُسْتَقْبَل؛ تَنْزيلًا لتَحَقُّق الوُقوع مَنزِلَةَ الوقوع، وفي المضي حسمٌ وقطعٌ ليس في المضارع؛ وهو أَبَرُّ بحال القوم.

دلالة التَّعبير بالمفعول به الأوّلِ ضميرَ تكلُّمٍ ﴿وَجَعَلَنِي﴾:

في التَّعبير بالمفعول به الأوّلِ ضميرَ تَكَلُّمٍ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ تأكيدٌ على نِسْبَةِ البَرَكَة إليه، والنَّصّ عليه هو دون غيره.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 99.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4634.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 531، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 680، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 48.

الغرض مِن تنكير ﴿مُبَارَكًا﴾:

البَرَكَةُ: الخَيْرُ واليُمنُ والنَّفع، وتنكيرُ المفعول به الثّاني ﴿مُبَارَكًا﴾؛ للتَّفخيم؛ بقرينة كون الجَعْلِ مِنَ اللهِ العظيم، بإسناده إلى ضمير اسم الجلالة؛ حيثُ جعل اللّهُ تعالى عيسى عليه السلام ذا بَرَكاتٍ، ومَنافِعَ في الدّينِ، والدُّعاءِ إليه، نَفّاعًا للنّاس، ومُعَلِّمًا للْخَيْر، وناصِرًا للمظلوم، ومُرْشِدًا للضّال، ومغيثًا للمَلهوف، وقد اكْتَنَزَ هذا الوصفُ ﴿مُبَارَكًا﴾ كُلَّ تلك المعاني(1).

الغرض مِنَ التَّعبير بالشَّرْط ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾:

عُمومُ بَرَكَةِ عيسى عليه السلام

الغرض مِنَ التَّعبير بالشَّرْط: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ الدّلالةُ على عموم بَرَكَة عيسى عليه السلام لأيِّ مكان يَحِلُّ فيه، وأنَّ كُلَّ مَن جالسه أو التقى به نالته بَرَكَتُه، وسَعِد بمصاحبته حيثُ كان، كالغيث أَيْنما سَقَطَ نَفَعَ؛ فبحذف الجوابِ للإيجاز: صارت جملة الشّرط قيدًا لجملة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾؛ وهذا القيد يُؤَكِّدُ العموم الذي في: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾؛ لأنّ جَعْلَه مباركًا مؤسَّسٌ على كونه قد آتاه اللّهُ الكتابَ وجعله نبيًّا.

دلالة العطف بالواو، والتَّعبير بالماضي في ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾:

الإشارةُ إلى أهميّة الموصَى به

في ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾ الوِصايَة: الأمر المُؤَكَّد بعَمَلٍ مُسْتَقْبَلٍ، والمراد: قَدَّرَ وصيَّتي بالصَّلاةِ والزَّكاة، أيْ: أنْ يَأْمُرَني بهما أمرًا مُؤَكَّدًا مُسْتَمِرًّا، فاسْتِعْمالُ صيغَةِ المُضيِّ في ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾، مِثْلُ اسْتِعْمالِها في قَوْلِه: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾(2)، وفي العطف بالواو ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾ تعديد لإنعام اللّه على عيسى عليه السلام، والتَّعبير بالماضي فيه تأكيد على تلك الوصاية وتحقُّقها وثُبوتها، وهو يدلُّ على أهميَّة الموصَى به.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 99.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 99.

سِرُّ تكرارِ التَّعبير بالفعل (جَعل):

المسيح عليه السلام يُؤكِّد على بَشَريَّته، وعبوديته لله تعالى خالقه

مِنَ الملحوظ تكرُّرُ التَّعبيرِ بالفعل (جَعل) ثلاثَ مرّات في قوله في الآية السابقة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ وهنا: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وفي الآية التالية: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، وهو فعل مِن أفعال التَّحويل والصّيرورة، وهذا له دلالتُه في التَّأكيد على مُطْلَق خضوع عيسى عليه السلام، وانقياده، واستسلامه لأمر ربِّه؛ لأنَّه عَبْد، والعبد مِلْكٌ لسَيِّده[1]، وكُلُّ هذا حُجَّةٌ على مَن بالغ في إطراء عيسى عليه السلام؛ لأنَّه لا شُبْهَة في أنَّ مَن يُؤْمر بالصَّلاة للإله ليس بإله، وأنَّ مَن يكون خاضعًا وعَبْدًا للإله ليس بإله، وفي التَّعبير بهذه الأفعال دلالةٌ على أنَّ العبد مخلوقٌ للّه تعالى.

سِرُّ تقييد الفعل بشِبْه الجملة، وما عُطِف عليها:

فَضْلُ الصَّلاة والزَّكاة في كُلِّ الأديان السَّماويَّة

تقييد الفعل بشِبْه الجملة، وما عُطِف عليها في قوله: ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ يدلُّ - كما سبق الإشارة إليه - على أهمّيّة هاتَين العبادتين في كُلِّ الأديان السَّماويَّة، وفضلِهما بتخصيصهما بالوصاية دون سائر العبادات، وقد "أوصاه اللّه تعالى ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، ويُكَنَّى بها عن إصلاح نفسه، وتطهيرها والتَّقريب مِنَ اللّه تعالى، وأن يكون ربانيًّا في ذات نفسه، ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ إعطاء الفقير حَقَّه، وتطهير المجتمع مِن آثام الفقر، فكان الإيصاءُ بالصَّلاة والزّكاة إصلاحًا للنَّفس والمجتمع، فبالصَّلاة صلاحُ النَّفْس وتطهيرُها لتألفَ وتُؤْلَف، وبالزَّكاة يكون التَّعاون الاجتماعيّ بينَ الغَنّي والفقير"[2].

نُكْتَةُ تقديمِ الإيصاء بالصّلاة على الإيصاء بالزَّكاة:

مكانة الصَّلاة راسخة في كُلِّ الأديان السَّماويَّة

والنُّكْتَةُ في تقديم الإيصاء بالصَّلاة على الإيصاء بالزَّكاة في قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾، أنَّ الصَّلاة عمود أيِّ دين، وهي

(1) عادل الرّوينيّ، تأمّلات في سورة مريم، ص: 160 - 161.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4635.

صِلَة روحيَّة بينَ العبد وربِّه، وهي مِن أعظم حقوق اللّه؛ لذا قُدِّمت على الزَّكاة التي هي مِن حقوق العِباد، والتَّي تسقط عن غير القادر، بخلاف الصَّلاة فإنَّها لا تكاد تسقط حتَّى في ساحات الجِهاد، ثمّ إنّ الصّلاة مِن شأنها أن تُعين العبدَ على أداء باقي الفروض والنّوافل والآداب؛ فهي - بعد الشّهادتين - كالأُمِّ لغيرها مِنَ الأعمال والأقوال والنّوايا.

معنى ﴿مَا﴾ في ﴿مَا دُمْتُ﴾ ودلالتُها:

الصَّلاة معراجُ المؤمن

قولُه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قيد للوصاية بالصّلاة والزّكاة؛ كما قُيِّد جعلُه مباركا بـ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا دُمْتُ﴾ مصدريَّةٌ ظرفيَّة، والتَّقدير: (أمرني بها مدَّةَ حياتي إذا أدركني التَّكليف)، وهذا التَّعبير ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يدلُّ عَلى اسْتِغْراقِ تكليفه بالصَّلاة والزَّكاة مُدَّةَ حَيّاتِهِ، أي: أنْ يُصَلّيَ ويَتَصَدَّقَ في أَوْقاتِ التَّمَكُّنِ من ذلك في حياته.

فإن قيل: كيف يُؤمَرُ بالصَّلاة والزَّكاة، مع أنَّه ما زال في المهد، والقَلَمُ مرفوعٌ عنِ الصَّغير؟ والجواب: أنَّ قوله: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ لا يدلُّ على أنَّه تعالى أوصاهُ بأدائهما في الحالِ، بل بعد البُلوغِ، فيكونُ المعنى على أنَّه تعالى أوصاني بأدائهما في وقْت وجوبهما عليَّ، وهو وقتُ البُلوغ[1].

الغرض مِنَ التَّعبير بالقيد ﴿حَيًّا﴾:

العبادة مفروضة على المرْء ما دام حيًّا

"الاِسْتِغْراقُ المُسْتَفاد من قَوْلِهِ: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ اسْتِغْراقٌ عُرْفيٌّ مُرادٌ به الكَثْرَةُ"[2]، وهذا القيدُ يُشعرُ بعظيم أَثَر الصّلاةِ والزّكاة في حياة الكُمّلِ؛ حياةِ نفوسِهم وعقولِهم وقلوبِهم، وبهذه الوصاية وقيدها يرجع الكلامُ إلى أوّله؛ حيثُ الإخبارُ عن عبوديَّته للّه تعالى:

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 13/ 59.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 100.

﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ فاللّهُ آتاه الكتابَ؛ لتأهُّلِه بالعبوديّة لذلك الإيتاء، ورقَّاه في العبوديّة؛ فجعله نبيًّا، ثُمّ اتّسعت دائرةُ العبوديّة باتّساع دائرة بعض مظاهرها بقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمرُ والوصيّةُ:

الأمر طَلبُ فِعْلِ شيءٍ على جِهَةِ الاستعلاء، والوَصيَّة نصيحة الغير بما يعمل به مقترنًا بوَعظٍ

أَمَرَ: الأَمرُ ضِدُّ النَّهْيِ، وهو طَلبُ فِعْلِ شيءٍ على جِهَة الاستعلاء، وله صيغٌ أصلها (افعل) وما في معناها، **وأَوْصَى**: يدُلُّ الأصلُ اللُّغويّ للكلمة على وصْلِ شَيْءٍ بشَيْءٍ[1]، والإيصاء: الأمر المُؤَكَّد الواجب الاتّباع، والوَصيَّة: التَّقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوَعظٍ، من قولهم: أرضٌ واصيَة، وهي المُتّصلةُ النّبات، والوَصيَّة مِنَ اللّه فرْضٌ، والوَصيُّ يُطْلَق على الموصي إلى الغير، وعلى الموصَى إليه؛ فهو فعيل بمعنى فاعلٍ تارةً، وبمعنى مفعولٍ أُخْرى[2].

والفرق بينَ الأمر والوَصيَّة: هو أنَّ الأمر قد يكون على جهة الاستعلاء وقد لا يكون، بخِلاف الوَصيَّة، كما أنَّ الوَصيَّة غالبًا ما تُستعمَل في مواطن النَّصيحة، أو الضَّعف، أو الشِّدَّة بخِلاف الأمر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وصى).
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (وصي).

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢﴾ [مريم: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

التأكيد على طهارة الزكية الطاهرة

هذه الآيةُ مِن جملة ما أنطقَ اللّهُ تعالى به عيسى عليه السلام، وهو يَرُدُّ عن أُمِّه، ويدفع عنها التُّهمَة، ولَمَّا كانتِ الزّكاة مِنَ الصِّلاتِ بينَ النّاسِ، ومِن وجوه برِّ العبدِ المسلم بغيرِه؛ انتقل التّنزيلُ الحكيمُ منها إلى صلةٍ مِن أخَصِّ الصّلاتِ، وإلى وجه برٍّ من أعظمِ وجوه البِرِّ؛ وهو ما يكون بينَ العبد وأُمّه التي حملته وهنًا على وهْن، وأرضعَتْه، وسهرت عليه؛ تُصلِحُه وتُسْعِدُه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبَرًّا﴾: أَصْلُ الكلمةِ الصِّدْقُ، يُقال: بَرَّ اللّه قَسَمَهُ وأَبَرَّهُ، أيْ: صَدَّقَهُ، والبَرُّ: الصّادِقُ، وخِلافُهُ: الفاجِرُ الكاذِبُ، والبَرُّ أيضًا: الخَيْرُ، ومِنْهُ سُمّيَت الأَرْضُ بَرَّةً؛ لِكَثْرَةِ مَنافِعِها[1]، والبِرُّ: الطَّاعَةُ، يُقال: فُلانٌ يَبَرُّ خالِقَهُ، أيْ: يُطيعُهُ، ويأتي بمعنى الإِحْسانِ، فيُقال: بَرَّ، يَبَرُّ، فهو بارٌّ، أيْ: مُحْسِنٌ، وضِدُّه: العُقوقُ والإِساءَةُ[2]، والمراد بالبَرِّ في الآية: اسْمٌ بمَعْنَى البارِّ، وهو المَوْصوفُ بالمَبَرَّةِ والبِرِّ، وهو حُسْنُ العَمَلِ، ضِدّ الفُجور، وقَدْ خَصَّ اللّه تَعالَى عيسى عليه السلام بذَلك بَيْنَ قَوْمِه؛ لأَنَّ برَّ الوالِدَيْن كانَ ضَعيفًا في بَني إِسْرائيلَ يَوْمَئِذٍ[3].

2) ﴿جَبَّارًا﴾: أصلُ (جبر) يدلُّ على جِنْسٍ مِنَ العَظَمَةِ والعُلُوِّ والاِسْتِقامَة، فالجَبّارُ: الَّذي طالَ وفاتَ اليَدَ، يُقالُ فرَسٌ جَبّارٌ، ونَخْلَةٌ جَبّارَةٌ[4]، ورجلٌ جبّار إذا كانَ طَويلًا عَظيمًا قويًّا، تَشْبيهًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (برّ).
(2) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (برّ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 207، 16/ 100.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبر).

بالجبّار مِنَ النَّخيل، وذو كِبْرٍ لا يَقْبَلُ مَوْعِظَة[1]، والجَبّارُ أيضًا: العاتي على رَبِّه، القتّالُ لرَعيَّته[2]، والجَبّارُ كذلك: اللّهُ ﷻ، القاهرُ خلْقَه على ما أَرادَ[3]، والمُرادُ به في الآية: المُتَكَبِّرُ الغَليظُ على النّاسِ في مُعامَلَتِهِم[4].

3) ﴿شَقِيًّا﴾: (شقو) أَصْلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ، والشِّقْوَةُ: خِلافُ السَّعادَةِ[5]، يُقالُ: أَشْقاهُ اللّه، فهوَ شَقيٌّ بَيِّنُ الشَّقْوَةِ والشِّقْوَةِ والشَّقاوَةِ[6]، فالشَّقاء: الشِّدَّةُ والعُسْرِ[7]، وقد يوضع الشَّقاءُ موضعَ التَّعب، نحو: شقيت في كذا، وكلّ شَقاوَةٍ تعبٌ، وليس كلّ تعبٍ شقاوةً، فالتَّعب أعمُّ مِنَ الشَّقاوة[8]، والشَّقيُّ: فعيلٌ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنْ شَقيَ، إذا تَلَبَّسَ بالشَّقاءِ والشَّقاوَةِ، أَيْ: سوءِ الحالَةِ وشَرِّها وما يُنافِرُ طَبْعَ المُتَّصِفِ بها، والمُرادُ بالشَّقيِّ في الآيةِ: الخاسِرُ الَّذي تَكونُ أَحْوالُه كَدِرَةً لَهُ ومُؤْلِمَةً[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الكِبرُ والتّجبُّرُ يَمنَعُ مِنَ البِرِّ للوالدَيْنِ فضلًا عن غيرِهم

يقول عيسى عليه السلام: وجعلني اللّهُ بارًّا بوالِدتي مريمَ، مُطيعًا لها، مُحسِنًا إليها غايةَ الإحسانِ، ولم يجعَلْني مُستَكبرًا عن عبادتِه وبِرِّ أُمّي، ولا غليظًا في مُعاملةِ النّاسِ مُترَفِّعًا عليهم، بل جعلني خاضِعًا خاشِعًا مُتذَلِّلًا له، متواضِعًا لعبادِه، سَعيدًا في الدُّنيا والآخرة، فالكِبرُ والتجبُّرُ يَمنَعُ مِنَ البِرِّ للوالدَيْنِ فضلًا عن غيرِهم، وكلَّما زاد الكِبْرُ، نقَصَ معه البِرُّ، فالمُتكبِّرُ يترفَّعُ عمّا يَظُنُّ أنَّه يَضَعُهُ؛ كخِدْمةِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(2) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جبر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 100.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (شقو).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية: (شقو، شقى).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شقا).
(8) الرّاغب، المفردات: (شقا).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 164، 16/ 100.

غيرِه والابتذالِ له كوالدِه، وإنْ أراد الإحسانَ، وضَعَ بينَهُ وبينَ والدَيْه خادمًا، وهو قادرٌ، فلا يُباشِرُ مِنَ البِرِّ بنفسه شيئًا(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في ﴿وَبَرًّا﴾، وتنكير المعطوف:

العَطْف على أقرب مذكور

جاء قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ معطوفًا على قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾، أي: وجعلني مبُاركًا وبَرًّا، أو مَنصوبًا بإضمارِ فعلٍ، أي: وجعلني برًّا، واختير هذا على الأوَّلِ؛ لأنَّ فيه فصلًا كثيرًا بجُملةِ ﴿وَأَوْصَانِي﴾(2)، وهنا إشارةٌ إلى تنزيه مريم عليها السلام عنِ الزِّنى؛ إذ لو كانت - حاشاها اللّه - كذلك لَما كان الرَّسولُ المعصوم مأمورًا بتعظيمها(3)، والتّنكير في الجملة للتَّعظيم والتَّفخيم.

سِرُّ التَّقييد بشِبْه الجملة والإضافة في ﴿بِوَالِدَتِي﴾:

الدّلالة على أنَّ عيسى عليه السلام لا والدَ له

دلَّ التَّقييد بشبه الجملة: ﴿بِوَالِدَتِي﴾ على بيان مَحَلِّ البِرِّ، وهو والدة عيسى عليه السلام، فتأكَّد بهذا أنَّه لا والدَ له؛ لأنَّه لو كان له والد لأوصاه اللّه تعالى ببِرِّه كما أوصاه ببِرِّ والدته، وهذا القيدُ في نور الإضافة وخصوص مادّة المضاف إشارةٌ إلى براءة أُمِّه، كما أنَّه كالتَّصريح في أنَّ عيسى عليه السلام لا والد له، والإضافة في ﴿بِوَالِدَتِي﴾ لتأكيد نِسْبَته إليها نَصًّا، وهذا ردٌّ آخر على مَن زعموا أنَّه إله، أو أنَّه ابن اللّه، ويُستنبط مِن كلام عيسى عليه السّابق الذي أُنْطِق به: أنَّ الأمر بالصّلاة والزَّكاة وبِرّ الوالدَين كان في كُلِّ الشَّرائع السّابقة، وأنَّه بَقيَ ولم يُنْسَخْ.

دلالة العطف:

المقصود مِن عَطْف جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ هذه الجملة

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 532، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 229، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 492، والطّريفيّ، التّفسير والبيان لأحكام القرآن: 2/ 841.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 177، والعُكْبري، التِّبيان في إعراب القرآن: 2/ 873.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 95، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 177، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 90.

على ما قَبْلها تقريرُ مضمونِ ما قبلَها وتأكيدُه؛ لذا فالمعنى: وجعلني اللّهُ بارًّا متواضعًا، خاضعًا لأُمّي، ولم يجعلني قاسيًا عاتيًا مُتَكَبِّرًا مُضَيِّعًا لحَقِّ والدتي، التَّي تأكّد حقَّها لقيامها مَقامَ الوالدَين، إلّا أنَّه عَبَّر عن هذا المعنى بما يستلزمه، وهو نَفْي كونه جَبّارًا شَقيًّا في عِلْم اللّه تعالى؛ لكون الكِناية أَبْلَغ مِنَ التَّصريح(1).

التَّعبير عنِ المعنى بما يستلزمُه أبلغُ مِنَ التَّصريح به

الغرض مِن تنكير المفعول الثّاني ﴿جَبَّارًا﴾:

الجَبّارُ: المُتَكَبِّرُ المُتسَلِّط الظّالم، غَليظُ القلب في معاملة النّاسِ، المُسْتَعْلي عليهم، والغرض مِن تنكير المفعول الثّاني: ﴿جَبَّارًا﴾ التَّقبيحُ والتَّشْويه، فما أَبْعَدَ المُتَّصِفَ بهذا الوصف عن حُبِّ النّاس! وما أشَدّ تربُّصَهم لهلاكه وزواله! "وقد كان مِن نعمة اللّه تعالى التي أنعم اللّه تعالى على عيسى ﷺ أنّه لم يجعله جبّارا، وقد وُصِفَ الجبّار بأنَّه شقيٌّ مطرودٌ مِن رحمة اللّه، وقد كُتِبَت عليه الشّقوةُ في الدُّنيا والآخِرة، أمّا في الدّنيا فهو أنه مُبْغَضٌ إلى النّاس، يتمَنَّون به النّازلات، ويتحيَّنون له الفرصَ ليُردوه، وهو يتوجَّسُ بنفسه مِنَ النّاس ومِمَّن يُحيطون به، فهو في شقاء دائم؛ لنفرة النّاس منه، فلا سعادةَ في نَفْسِه وإنْ حَسِبَه النّاسُ سعيدًا، فهو شَقيٌّ"(2).

الجَبّارُ شَقيٌّ مطرود مِن رحمة الله

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 546.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4635.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

تحقق النبوءة مقطوع به في علم الله تعالى

هذه الآية الكريمة مِن خِتام كلام عيسى ﷺ وهو في المَهْد؛ حيث أخْبَرَ بما لَهُ مِنَ اللّه مِنَ الكَرامَةِ الدّائِمَةِ، مُشيرًا إلى أنَّه لا يَضُرُّهُ عَدوٌّ، وإلى أنَّهُ عَبْدٌ لا يَصْلُح أنْ يَكونَ إلَهًا، وإلى البَعْثِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾: أَصْلُ السَّلامِ السَّلامَةُ، وهو أَنْ يَسْلَمَ الإنْسانُ مِنَ العاهَةِ والأَذَى، قالَ أَهْلُ العِلْمِ: اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ هوَ السَّلامُ؛ لسَلامَتِه مِمّا يَلْحَقُ المَخْلوقينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ[2]، واسْتُعْمِلَ عِنْدَ اللِّقاءِ إيذانًا بتَأْمينِ المَرْءِ مُلاقيَهُ، وأنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ فصارَ قَوْلًا عِنْدَ اللِّقاءِ للْإكْرامِ، والسَّلامُ يَأْتي في الاسْتِعْمالِ مُنَكَّرًا مَرْفوعًا ومَنْصوبًا، ومُعَرَّفًا باللّامِ مَرْفوعًا لا غَيْرَ، فأَمّا تَنْكيرُهُ مَعَ الرَّفْعِ، فهوَ على اعْتِبارِه اسْمًا بمَعْنَى الأَمانِ والسَّلامة، وأَمّا تَعْريفُهُ مَعَ الرَّفْعِ فلِدُخولِ لامِ تَعْريفِ الجِنْسِ عليهِ، وكَلِمَةُ (على) في الحالَتَيْنِ للدَّلالَةِ على تَمَكُّنِ التَّلَبُّسِ بالأَمانِ والسَّلامة، وأَمّا إنْ نَصَبوا مَعَ التَّنْكيرِ فعلى اعْتِبارِه كَمَصْدَرِ سَلَّمَ، فهوَ مَفْعولٌ مُطْلَقٌ أَتَى بَدَلًا مِنْ فِعْلِه، تَقْديرُهُ: سَلَّمتُ سَلامًا، وعلى ما سبق فالمُرادُ بالسَّلامِ في الآية: السَّلامَةُ والإكْرامُ، وتَنْويهٌ بكَرامَةِ عيسى عِنْدَ اللّه، أَجْراهُ على لسانِه ليَعْلَموا أَنَّهُ بمَحَلِّ العِنايَةِ مِنْ رَبِّه سبحانه[3].

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 12/ 194.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 258، 12/ 89، 16/ 100.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

حظيَ عيسى بالسَّلامة مِنَ الله تعالى يومَ ولادتِه، ويومَ موتِه، ويومَ البعثِ

يقول ﷻ على لسان عيسى عليه السلام: والتَّحيَّةُ مِنَ اللّه عليَّ، والسَّلامةُ والأمانُ لي يومَ وُلِدتُ، ومِن ذلك السَّلامةُ مِن طَعنِ الشَّيطانِ عندَ الولادةِ، وتحيَّةٌ مِنَ اللّه يومَ أموتُ، وسَلامةٌ وأمانٌ لي مِن كُلِّ سوءٍ؛ ككُرَبِ الموتِ، وسوءِ الخاتمةِ، وعذابِ القَبرِ وفتنَتِه، وتحيّةٌ منه تعالى وسَلامةٌ وأمانٌ لي يومَ القيامةِ، حينَ يَبعَثُني حيًّا فيُؤَمِّنُني مِنَ الفزَعِ والأهوالِ، وعذابِ النّارِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو واللّام في ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾:

السّلام بين التَّعريف والجِنْس

الواو في: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ عاطفة، وجملة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، معطوفة على جملة: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، و(أل) في: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ قيل: إنَّها للعَهْدِ؛ لتَعرُّفه بالذِّكر قَبْله، حيثُ جاء السَّلام نَكِرَةً في قصّة يحيى عليه السلام، والأظهرُ أنّه للجنس؛ كأنّه قال: جِنْس السَّلام كُلّه عليَّ؛ مُبالَغَةً في تَعَلُّق السَّلام به[2]، والسَّلامُ هُنا بمَعْنى السَّلامَة، أي: مِن فضل ربّي وكرمه، حصلت ليَ السَّلامةُ يومَ ولادتي، ويومَ موتي، ويومَ بَعْثي، مِنَ الشَّرّ والشَّيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامَته مِنَ الأهوال، ودارِ الفُجّار، وأنّه مِن أهل دار السّلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنّه رسولُ اللّه، وعبدُ اللّه حقًّا[3].

معنى حَرْف الجرِّ ﴿عَلَيَّ﴾ ودلالته:

في التَّعبير بحرف الاستعلاء (على) إشارةٌ إلى تَمَكُّن السَّلام - أي: الأمان مِن عيسى - واستعلائه عليه، وحمايتِه مِن كُلِّ مكروه وشَرٍّ وهَوْل في الدُّنيا والآخرة.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 533، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 291، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 230، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 492.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 581.

(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 493.

سِرُّ التَّقييد بالظَّرْف في ﴿عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾:

أعظَمُ أحوالِ الإنسانِ احتياجًا إلى السَّلامةِ هي تلك الأحوالُ الثَّلاثةُ

قُيِّد السَّلام بـ ﴿يَوۡمَ﴾؛ لأنَّه يومٌ مشهود، و"أعظَمُ أحوالِ الإنسانِ احتياجًا إلى السَّلامةِ هي تلك الأحوالُ الثَّلاثةُ، وهي يومُ الوِلادةِ، ويومُ الموتِ، ويَومُ البَعثِ؛ فجَميعُ الأحوالِ التي يُحتاجُ فيها إلى السَّلامةِ واجتِماعِ السَّعادةِ مِن قِبَلِه تعالى طَلَبَها؛ ليَكونَ مَصونًا عن الآفاتِ والمخافاتِ في كلِّ الأحوالِ"(1).

دلالة الإطناب بتكرار لفظ (يوم) في سياق الآية:

أيام الإنسان أعماله وهي دليلٌ، وعنوان على مآله

وتكرار كلمة (يوم) الحاضر في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ جاء طلبًا لتمكين فاعلية الحقّ عند مُنْعَطفاتِ الأحْداثِ، في حياته وبعد رفعه، ويوم موته، وعند بعثه، فلكلّ حَدَثٍ يومُه، وهو من الإظهار في مقام الحذف، فأظهر للتأكيد على اختصاص كلٍّ بشأن، وتمكين نفوسِ قومِه وعقولِهم وقلوبهم في دفع ما سوف يقع عليهم من شُبَهٍ مهلكة، وسبُلٍ مضلّة؛ أملًا في أن يتخفَّفوا ممَّا سيكونُ منهم تجاهه، فذلك الإبلاغُ يُطهِّرُ نفوسَهُم التي كانت أرضًا خصبة للكفر والشّرك فيما بَعْدُ.

دلالة التّعبير بالمضارع مبنيًّا للمفعول ﴿أُبۡعَثُ﴾:

دليلٌ وإقرارٌ على بشريّة عيسى عليه السلام

في التَّعبير بالمضارع مبنيًّا للمفعول ﴿أُبۡعَثُ﴾ دليلٌ آخَر على بشريّة عيسى عليه السلام، وإقرارٌ منه بذلك، فهو لا يملك لنفسه ردًّا ولا دَفعًا، ولا قبولًا ولا رفضًا لهذه البعث، فهو كغيره من خَلق اللّه، سيُبعثون ويُحشرون إلى اللّه يوم القيامة حَشْرًا.

سِرُّ التَّقييد بالحال ﴿حَيّٗا﴾:

لكلِّ كلامٍ سَمتُه

لو قال عيسى عليه السلام: ﴿وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ﴾ لكان متضمّنًا معنى: ﴿حَيّٗا﴾؛ لأنّ البعث يكون من موت، ولو قال: (ويومَ أحيا) لكان متضمّنا معنى البعث؛ بقرينة قوله من قبله: ﴿وَيَوۡمَ أَمُوتُ﴾.

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 536.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

تزاحم حسنُ المطلع وحسن الختام في إبراز قصة الولادة النورانية

وقعت الآية الكريمة معترضة بَيْنَ الجُمَلِ المَقولَةِ على لسان عيسى عليه السلام، أي: بين قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، وقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، والمعنى: ذَلك المَذْكورُ هو عيسى ابْنُ مَرْيَم، لا كَما تَزْعُم النَّصارى واليَهود[1]، والجملة تقرير لبشريَّة عيسى عليه السلام، بعد إقراره صراحةَ بذلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾: (قول): أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وهوَ القَوْلُ مِنَ النُّطْقِ، والمِقْوَلُ: اللِّسانُ، ورَجُلٌ قَوَلَةٌ وقَوّالٌ: كَثيرُ القَوْلِ[2]، والقَوْلُ: مَصْدَر قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرْتيبِ، أو كُلُّ لَفْظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أو لم يَكُن، يُقال: قالَ، يَقولُ، قَوْلًا، أيْ: تَكَلَّمَ كلامًا، والقَوْلُ يَقَعُ على الكَلامِ التّامِّ، وعلى الكَلِمَةِ الواحِدَةِ على سَبيلِ الحَقيقَةِ، ويُسْتَعْمَلُ بمعنى جَميعِ الأَفْعالِ، كَقَوْلِهِم: قالَ بيَدِه هكذا، أيْ: أَخَذَ، وقالَ برِجْلِه، أيْ: مَشَى[3]، والمُرادُ بـ ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ في الآية: أَنَّ تِلْكَ الصِّفاتِ الَّتي سَمِعْتُم هيَ قَوْلُ الحَقِّ، أيِ: مَقولٌ هوَ الحَقُّ، وما خالَفَها باطِلٌ، أو أَنَّ عيسَى عليه السلام هو قَوْلُ الحَقِّ، أَي: مَقولُ الحَقِّ[4].

2) ﴿يَمۡتَرُونَ﴾: الامتِراءُ: الشَّكُّ والتَّرَدُّدُ في الأَمرِ، وهو بوَزْنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول)، والنّووي، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/ 106، والمناوي، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 102.

الافْتِعالِ، مُشْتَقٌّ مِنَ المِرْيَةِ - بكَسْرِ الميم - اسْمٌ للشَّكِّ، ولم يَرِدْ فِعْلُهُ إلّا بزيادَةِ التّاءِ، ولم يُسْمَعْ لَهُ فِعْلٌ مُجَرَّدٌ[1]، والمِراءُ: الجدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرِّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَة: مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ يَسْتَخْرِجُ ما عِنْدَ صاحِبِه ويَمتَريه، كما يَمتَري الحالِبُ مِنَ الضَّرْعِ[2]، والمقصود بالامتِراءِ في الآيَةِ: الشَّكُّ، أي: الَّذي فيه يَشُكّونَ، أي: يَعْتَقِدونَ اعْتِقادًا مَبْناهُ الشَّكُّ والخَطَأُ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى في بيان عيسى عليه السلام: ذلك العَظيمُ القَدْرِ، العالي المَنزِلةِ الذي أخبَرتُكم بشأنِه هو عيسى ابنُ مَريمَ، فهذه صِفتُه، وتلك حقيقةُ نَشأتِه، قَولَ الحَقِّ، الذي فيه يختلفُ النّاسُ ويشُكّون، فكذلك فاعتَقِدوا، لا كما يظنُّ اليهودُ أنَّه ابنُ زِنى، ولا كما يظُنُّ النَّصارى أنَّه اللّهُ، أو ابنُ اللّهِ، أو ثالثُ ثلاثةٍ[4].

ما أخبر به القرآنُ عن خَلْقِ عيسى هو الحَقُّ القاطِعُ، وكلُّ ما عداه باطلٌ ساقطٌ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغرض من جملة الاعتراض:

وَجْهُ بلاغة الطّريق البُرهانيّ والكِنائيّ في تكذيب اليهود النَّصارى

وقع قولُه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ اعتراضًا مُقرِّرًا لمضمونِ ما قبْلَه، والتَّقدير: ذلك المَذكور الذي تقدَّمَ وَصْفُه هو عيسَى ابنُ مريمَ، لا كَما يعتقده النَّصارى أنَّه الإلَه أوِ ابْنُ الإلَه، ولا اليهودُ، وهو تكذيبٌ لهم فيما يصِفونَه على الوجْه الأبلغِ والطَّريقِ البُرهانيِّ؛ حيثُ جعله موصوفًا بأضدادِ ما يصِفونَه، ثُمَّ عكَسَ الحُكمَ، فهو اعتراضٌ بينَ الجُملِ المقولة في قولِه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، مع قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، أي: ذلك المَذكور هو عيسى ابنُ مريمَ لا كما تزعُمُ النَّصارى واليهودُ[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (مرى).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (مري).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 102.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 534 - 536، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 105 - 106، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 230.

(5) أبو السُّعود: إرشاد العقل السّليم: 3/ 581، والبَيْضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 264، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 547.

دلالة الاستئناف في ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى﴾:

التّعَريض بالرَّدِّ علـى اليـهـودِ والنَّصارى

جملة: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى﴾ استئنافيّةٌ لا محلّ لها مِنَ الإعراب، وافتُتِحت باسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لتمييزِ المَذكورِ أكمَلَ تَمييزٍ؛ تعريضًا بالرَّدِّ على اليهودِ والنَّصارى جميعًا في شأن عيسى عليه السلام؛ لأنَّهم لمّا وصَفوه بغيرِ ما هو صِفَتُه، جُعِلوا بمنزلةِ مَن لا يعرِفونَه، فاجْتُلِبَ اسمُ الإشارةِ؛ ليتميَّزَ الموصوفُ أكمَلَ تَمييزٍ عندَ الَّذين يُريدونَ أنْ يعرِفوه حقَّ معرفتِه. "والمقصودُ بالتَّمييزِ تمييزُ صِفاتِه الحقيقيَّةِ عنِ الصِّفاتِ الباطلةِ الَّتي ألْصَقوها به، لا تمييزُ ذاتِه عنِ الذَّواتِ؛ إذ ليستْ ذاتُه بحاضرةٍ وقْتَ نُزولِ الآيةِ، أي: تلك حقيقةُ عيسى عليه السلام وصِفَتُه"[1].

الغرض مِن تعريف المسند إليه باسم الإشارة:

كـرامـة عيسى عليه السلام عند رَبِّه

وفي تعريف المسند إليه باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيماءٌ إلى بُعْد منزلة عيسى عليه السلام، وعُلوِّ مَرتبتِه في الفضل والكرامة عند اللّه تعالى، وامتيازِه بتلك المناقبِ الحميدةِ عن غيرِه، ونُزولِه منزلةَ المُشاهَدِ المحسوسِ[2]، ولَمَّا كان فيما سبَق مِن أقواله الدّالّة على أحواله أعظمُ البيان عن بُعدِه عمَّا ادَّعى فيه النّصارى مِنَ الإلَهيّة، واليهودُ مِن أنّه لغير رَشْدَة؛ نبَّه التّنزيل الحكيم على ذلك البُعْد باسم الإشارة للبعيد: ﴿ذَٰلِكَ﴾[3].

فائدة التقييد بجملة: ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾:

ذكر صورة المولودية لعيسى عليه السلام في الآية هو لتأكيد بشريّتِه، ونِسْبَتِه لأُمِّه، وأنّه لا والدَ له.

تنوُّع القراءات بالرَّفْع والنَّصْب في ﴿قَوۡلَ﴾، وأثرُه في المعنى:

تنوَّعت القراءات بالرَّفْع والنَّصْب في ﴿قَوۡلَ﴾؛ فقرَأ ابْنُ عامرٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 102.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 581.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 4/ 532.

وعاصِمٌ ويَعْقوب: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ بالنَّصْب، وقَرَأ الباقون بالرَّفْع: ﴿قَوۡلُ﴾[1]، ووَجْه القِراءَةِ الأولى: أنَّهُ مُنْتَصِبٌ عَلى المَدْح، أوْ عَلى أنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لـ ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، ووَجْهُ القِراءَةِ الثّانيَةِ: أنَّهُ نَعْتٌ لعيسى، أيْ: ذَلِكَ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ الحَقِّ[2]، وتتوجَّه قراءةُ النصب على الإغراء أيضًا، أي: الزموا ذلك، وهو نسبة عيسى إلى مريم عليها السلام وحدَها، وتتوجَّه قراءة الرّفع على تقدير: هو قولُ الحَقّ، أي: نسبتُه إليها فقط قولُ الحق[3].

سِرُّ الإضافة في ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾:

التَّأكيد على صِدْق خَبَر السَّماء عن عيسى عليه السلام

أُضيفَ القَوْل إلى الحَقِّ في ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾، كَما في قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف: 16] أيِ: الوعد الصّدق، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصّفة، مثل: حَقُّ اليقين، وقيل: الإضافة للبيان[4]، والأولُ هو الأعلى؛ لقيام الأدلّة في سياق السّباق على إحاطة الحَقّ بهذا القول من كلّ جانب؛ فهذه الصّفة متمكّنة فيه، وهو لا ينفكُّ عنها، وسُمّي عيسى عليه السلام (قولًا) كما سُمّي (كلمة)؛ لأنَّه نَشَأَ عنها.

الغرض مِنَ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾:

تعجيبٌ مِن ضلال اليهود والنَّصارى في عيسى عليه السلام

عُبِّر بالموصول؛ ليُتَوَصَّلَ مِن خلال جملة الصّلة إلى بيان التّعجيب مِن شهرة مضمون الصّلة: ﴿فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾؛ مع ما يفيده قولُه: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ خصوصًا على قراءة الرّفع، والمعنى: كيف يمترون فيه؛ وهو الحَقّ، ونسبتُه إلى مريمَ وحدَها حَقّ؟!.

الغرض مِن تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾ على الفعل:

قُدِّم شِبْه الجملة ﴿فِيهِ﴾ على الفعل: ﴿يَمۡتَرُونَ﴾؛ لأنَّه الأهم

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 318.
(2) الشَّوكاني، فَتْح القدير، ص: 889.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 4/ 532.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 8/ 321.

عيسى ابن مريم عليه السلام هو مَوْطِن جِدالِ واختلافِ اليهود والنَّصارى

في سياقه؛ إذ إنَّ عيسى ابن مريم عليه السلام هو مَوْطِن جدالهم وشَكِّهم واختلافهم، وفي تقديمه إنكارٌ خفيٌّ عليهم؛ إنكارٌ لكونهم يمترون فيه؛ إذ إنّ جميعَ أحوالِه لا تستوجب هذا الامتراء، بل تقضي بحقّ الإيمان به عبدًا مخلوقًا للّه، نبيًّا ورسولًا؛ فقد تجاهلوا أحوالَه وما تقتضيه، وقالوا: إنّه اللّه، وغيرَ ذلك مِن أعاجيب أقوالهم وفاسِد معتقداتهم.

معنى حَرْف (في) ودلالته في ﴿فِيهِ﴾:

اختلافهم في عيسى عليه السلام عميقٌ مُتَجَذِّر

دلَّ التَّعبير بحَرْف الوعاء (في) على شِدَّة اختلاف اليهود والنَّصارى وعمقه، ومِرائِهم في ذات عيسى عليه السلام وأمرِه وشأنِه كُلِّه، أمّا امتراؤهم في عيسى عليه السلام، فطائفةٌ منهم تقول: هو ابنُ اللّه، وطائفة تقول: هو اللّه، وثالثة تقول بالتَّثليث، وأُخرى تقول: هو ساحِرٌ كاذبٌ، وبالتّعبيرِ بـ: ﴿فِيهِ﴾ في نور قراءة الرّفع خصوصًا في: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ يشتدُّ الإنكارُ عليهم؛ مِن طريق تقديم: ﴿فِيهِ﴾ على: ﴿يَمْتَرُونَ﴾.

سِرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿يَمْتَرُونَ﴾ على (يختلفون):

الامتراء يقتضي بُطلانَ أقوالِ الأحزاب في عيسى عليه السلام

أوثِرَ التَّعبير بـ﴿يَمْتَرُونَ﴾ على (يختلفون)؛ لأنَّ الاختلاف يستلزم أن يكون قَوْل بعض قوم عيسى فيه حَقًّا، وبعضٍ آخَر منهم باطلًا، أمّا الامتراء فيقتضي بُطلانَ أقوالِ جميع فِرَق النَّصارى القائلين بأنَّ عيسى إله، أو ابن إله، واليهود القائلين في أُمِّه قَوْلَ السّوء، وبأنَّه ساحر[1].

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيّ لاسم الموصول وصلتِه، وأثرُه في المعنى:

في قوله تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾ نعتٌ للقول، إن أُريدَ به عيسى عليه السلام، أو اسم موصول في محلِّ جرٍّ صفةٌ للحَقّ[2]، والمعنى: ذلك الذي ذكرناه لكَ مِن خبر عيسى هو القولُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 117.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 13/ 63.

الحَقّ، الذي شَكَّ في صدقه الكافرون، وتنازع فيه الضّالّون، فلا تلتفت إلى شَكّهم وكفرهم، بل ذَرْهُم في طغيانهم يعمهون[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الامتراء والشّكّ:

الامتراء استخراجُ الشُّبَه المُشْكِلة، والشّكّ تَرَدُّد الذِّهْن بين أمرين على حَدٍّ سواء

الامتراء: أَصْله المَرْي: وهو استخراج اللَّبَن مِنَ الضّرْع، والامتراء: استخراجُ الشُّبَه المُشْكِلة مِن غير حَلٍّ لَها[2]، والمِرْية: مرتبة متوسطة بين الشَّكّ والرَّيْب، ومن شواهده قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [الحجّ: 55].

الشَّكّ: يدلُّ أَصْل المادَّة على التَّداخُل[3]، وهو تَرَدُّد الذِّهْن بين أمرين على حَدٍّ سواء، أي: اعتدال النَّقيضين وتساويهما مِن غير تقوية أحدهما على الآخر[4]، والشَّكُّ ربّما يكون في وجود الشَّيء أو عَدَم وجوده، وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرض الذي لأجله أوجد، والشَّكّ: مِن الجَهْل، وهو أخصّ منه؛ لأنّ الجهل قد يكون عدم العِلْم بالنّقيضين رأسًا[5].

(1) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 36.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكك).
(4) العَسْكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 178.
(5) الرّاغب، المفردات: (شكك).

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم: 35]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

هذه الآية الكريمة معترضةٌ بين كلام عيسى عليه السلام، فلمّا ذكَر تعالَى أنَّه خَلَقه عبدًا نَبيًّا، نَزَّه نفسَه المُقدَّسة، فقالَ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾: أصل السَّبْحِ: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأَرْضِ، أي: أَبْعَدْتُ فيها[2]، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا، وسُبْحانًا، أيْ: نَزَّهْتُهُ وبَرَّأْتُهُ من كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[3]، وسُبْحانَ: اسْمُ التَّسْبيحِ، وهو اسمُ مَصْدَرِ (سَبَّحَ) المُضاعَفِ وليس مَصْدرًا؛ لأَنَّهُ لم يَجِئ على أَبْنِيَةِ مصادرِ الرُّباعيِّ، وقيلَ: هو مَصْدَرُ (سَبَحَ) مُخَفَّفًا، بمَعْنَى: نَزَّهَ، فيَكونُ كالغُفْرانِ والشُّكْرانِ والكُفْرانِ، مِنْ: غَفَرَ، وشَكَرَ، وكَفَرَ، وقدْ كَثُرَ اسْتِعْمالُهُ مَنْصوبًا على المَفْعوليَّةِ المُطْلَقَةِ بإضمار فعله كـ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف: 23][4]، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعِبادَةِ، والمقصود بـ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ في الآية: التَّنزيه والتَّبرئة له جل جلاله عن النَّقائص.

2) ﴿قَضَىٰٓ﴾: أَصْلُ (قضى) يدُلُّ على إِحْكام أَمرٍ وإتقانه وإِنفاذِه لجِهَتِهِ، والقَضاءُ: الحُكْمُ والفَصْلُ، يُقالُ: قَضَى في الأمرِ، أيْ: حَكَمَ وفَصَلَ فيه[5]، ويأتي بمعنى: الأَداء، تقول: قَضَى دَيْنَهُ، أيْ: أدّاهُ، والقضاءُ أيضًا: الإنْهاءُ والإتْمامُ، يُقالُ: قَضَيْتُ عَمَلي، أيْ: أَنْهَيْتُهُ وأَتْمَمتُهُ، وسُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لأنّه يَحْكُمُ في الأشْياءِ ويُنْهي الخِلافَ فيها،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 244.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 413.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).

والقَضاء كذلك: الأَمر، قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]، أَي: أَمر رَبّك[1]، والانقضاءُ: ذَهابُ الشَّيْء وفَناؤه، وكَذَلِكَ التَّقَضّي[2]، والمقصود بالقضاء في الآية: الفَراغُ والإتْمامُ.

3) ﴿أَمْرًا﴾: الأَمرُ مِنَ الأُمورِ، يُقالُ: أَمرُ فلانٍ مستقيمٌ وأُمورُهُ مستقيمةٌ[3]، والأَمرُ: الحادِثَةُ، والجَمعُ أُمورٌ، لا يُكَسَّرُ على غَيْرِ ذَلكَ[4]، ويُذْكَر الأَمرُ ويُراد به الدّين، نَحْو: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، يَعْني: دين اللّه[5]، والأمر: المُجازاةُ والعِقابُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النّحل: 1][6]، والمقصود بالأَمرِ في الآية: الشَّأْنُ والفِعْلُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّن الحَقُّ سبحانه ما يدُلُّ على غناه عنِ الولد والوالد والصّاحب والشَّريك، فقال: ما ينبغي للّه أن يَجعلَ له ولَدًا، تنزَّه اللّهُ عنِ الوَلَدِ والنَّقصِ، وعن كلِّ ما لا يليقُ بكَماله، وإذا أراد اللّهُ إحداثَ شَيءٍ فإنَّما يقولُ له: ﴿كُن﴾، فيَصيرُ مَوجودًا كما يشاءُ بلا كُلفةٍ ولا مَشقَّةٍ، كما خلقَ عيسى ابنَ مَريمَ بكَلِمةِ ﴿كُن﴾، فصار مخلوقًا بدونِ أبٍ[7].

ليس بينَ أمرِ اللّه بالتَّكوين وتكوُّنِه تراخٍ، بل يكونُ على الفوريَّةِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ بما قَبْلَه، ودلالتُه:

جملة: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ إمّا أن تكون تقريرًا لمعنى

الاكتفاء بإبطالِ قولِ النَّصارى في عيسى عليه السلام؛ لأنَّه أهمُّ بالإبطالِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قضي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قضي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمر).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمر).
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 177.
(6) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمر).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 107، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 493، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 419.

العُبوديَّةِ، أو تفصيلًا لمضمونِ جُملةِ: ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾؛ فتكون بمنزلةِ بَدلِ البعضِ أو الاشتمالِ منها؛ اكتفاءً بإبطالِ قولِ النَّصارى بأنَّ عيسى ابنُ اللّه - ﷻ عن ذلك - ؛ لأنَّه أهمُّ بالإبطالِ؛ إذ هو تقريرٌ لعُبوديَّةِ عيسى، وتنزيهٌ للّه تعالى عمّا لا يليقُ بجَلالِ الأُلوهيَّةِ مِنِ اتِّخاذِ الولدِ، ومِن شائبةِ الشِّركِ، ولأنَّه القولُ النّاشئُ عنِ الغُلوِّ في التَّقديسِ، فكان فيما ذُكِرَ مِن صفاتِ المدحِ لعيسى ما قد يُقوّي شُبهتَهم فيه، بخِلافِ قولِ اليهودِ؛ فقد ظهَرَ بُطلانُه بما عُدِّدَ لعيسى مِن صفاتِ الخيرِ[1]، ويجوز أن يكون موقعُه ممّا قبلَه موقعَ النّتيجة مِنَ الأسباب والمقدّمات؛ فإن ما قبلَه يُنتِجُه بقوّةٍ لا محالة، ويُنتِج غيرَه، وخُصَّ هو بالذّكر؛ تنبيهًا على أنّه خير ما يفهمونه من كلام عيسى، فهو الأبرّ بحالهم، وعليه فبين الآية ومجموع ما قبلَها مِن كلام عيسى تواصلٌ معنويٌّ خفيٌّ؛ فبينهما كمالُ اتّصال؛ ممّا اقتضَى غيابَ الواو.

دلالة التَّعبير بالكون المنفي بـ ﴿مَا﴾:

لام الجُحودِ تُفيدُ مُبالغةَ النَّفيِ

صيغَةُ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ﴾ تُفيدُ انتفاءَ الولدِ عنه تعالى بطريق الكناية؛ لأنَّ لامَ الجُحودِ تُفيدُ مُبالغةَ النَّفيِ، وأنَّه ممّا لا يُلاقي وُجودَ المنفيِّ عنه، ولأنَّ في قولِه: ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ إشارةً إلى أنّه لو كان له ولدٌ، لكان هو خلقَه واتَّخذَه، فلم يَعْدُ أنْ يكونَ من جُملةِ مخلوقاتِه[2]، فالجملة تَكْذيب للنَّصارى واليهود، وتَنْزيه للّه تَعالى عَمّا بَهَتوه.

إيثار التَّعبير بالمصدر المؤَوَّل ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾:

التَّعبير بالمصدر المُؤَوَّل ينفي عوارضَ الاحتمال

أوثِرَ التّعبيرُ بالمصدر المُؤوّل ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾؛ للدّلالة على نَفْي اتّخاذه سبحانه في أيِّ زمن مِنَ الأزمان؛ فالتَّعبير بالمصدر المؤوَّل ينفي عوارضَ احتمالِ أن يتّخذ سبحانه ولدًا في أيّ وقت مِنَ الأوقات؛ وفي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 103.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 103، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 348.

المضارع نُكْتَة لطيفة؛ وهي أنّه تعالى لا يعتريه ما يعتري المخلوقَ، مِمَّا يُفْقِرُه إلى الولد؛ فالتّجدّدُ فيه يلحظُ كذلك.

معنى حَرْف الجرّ ﴿مِن﴾ ودلالته في ﴿مِن وَلَدٍ﴾:

(مِن) مؤكِّدَةٌ تدلُّ على نفي الواحد والجماعة

قال الزّجّاج: "(مِن) مؤكِّدَة تدلُّ على نَفْي الواحد والجماعة"[1]، ومعنى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي: ما صَحَّ ولا استقام، وما كان مِن صفته اتِّخاذُ الولدِ، أي: ثبوت الولد له محال[2]، ولَمّا كان المقامُ يقتضي النَّفيَ العامَّ، أكَّدَه بـ ﴿مِن﴾، فقال: ﴿مِن وَلَدٍ﴾[3].

توجيه المتشابه اللَّفْظيّ:

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم: 92]، هاتان الآيتان الكريمتان مِن سورة مريم تنفيان نفيًا قاطعًا اتِّخاذ اللّه تعالى ولَدًا كما زعم اليهود في قولهم: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، وكما اعتقدتِ النَّصارى أنَّ المسيح ابنُ اللّه، وذلك لأنَّ اتِّخاذ الوَلَد يقتضي مُجانسةً، وكُلُّ مَن اتَّخذ ولدًا اتَّخذه مِن جِنْسِه، واللّهُ تعالى مُنَزَّه من أنْ يُجانِس شيئًا، أو يُجانسَه شيءٌ، فمُحال في وصْفه اتِّخاذ الوَلَد[4].

وقد ورد في الآية الأولى لفظ الجلالة: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾، وهذا مناسب لوروده في سياق معجزات باهرات مِن حَمل مريم دون أنْ يَمسَّها ذَكَرٌ، إلى كلام عيسى عليه السلام في المهد، وفي الآية الثّانية ورد لفظ (الرَّحمن) لنقَل مقالة الكُفّار معنًى؛ إذ كانوا يكفرون بالرَّحمن سبحانه، وقد سُبِقت الآية الثّانية بحكاية قولهم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ

(1) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 354.
(2) الشَّوكاني، فَتْح القدير، ص: 889.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 196.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 14/ 246.

﴿وَلَدًا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾ [مريم: 88 - 92]، وعُدِل عن الإضمار إلى الإظهار في الآية الثّانية، بوَضْع (الرَّحمن) مَوْضِعَ الضَّمير؛ "لِلْإِشْعارِ بعِلَّةِ الحُكْم، بالتَّنْبيه عَلى أنَّ كُلَّ ما سِواه تعالى، إمّا نِعْمَةٌ، أوْ مُنْعَمٌ عليْه، فكَيْفَ يَتَسَنّى أنْ يُجانِسَ مَن هو مَبْدَأُ النِّعَمِ، ومَوْلى أُصولِها وفُروعِها، حَتّى يُتَوَهَّمَ أنْ يَتَّخِذَهُ ولَدًا؟"[1]، وقد استُخدم في الآية الأولى الكَوْن المَنْفي ﴿مَا كَانَ﴾؛ للدّلالة على عموم النَّفي في كُلّ الأزمنة، وفي الثّانية استُخدِم المضارع المنفي ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ [مريم: 92]؛ للإشارة إلى استحالة اتِّخاذه سبحانه ولَدًا حالًا ومآلًا، فتضافرت الصّيغتان على تأكيد استحالةِ ذلك، والمعنى: ما يتأتّى، ولا يستقيم، ولا يصلُح، ولا يليق به سبحانَه ذلك؛ لأنَّه رَبُّ كُلِّ شيءٍ ومَليكُه.

بلاغة الإطناب بالاعتراض بجملة: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾:

تنزيه الله تعالى عَنْ كُلِّ نَقْصٍ مِنَ احْتياجٍ إلى ولَدٍ أوْ غَيْرِه

مِمّا لا شَكَّ فيه أنَّ اتِّخاذ الإله ولَدًا مِنَ النَّقائِص التّي لا تليق بمقام الأُلوهيَّة؛ لذا جاء الإطناب بجملة الاعتراض ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ للتَّنْزيه العامِّ، أي: تَنَزَّهَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ مِنِ احْتياجٍ إلى ولَدٍ أوْ غَيْرِه، ثمّ عَلَّلَ ذَلِكَ بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾[2]، وتنكير المفعول به ﴿أَمۡرٗا﴾ للعموم، والتَّقدير: (أيَّ أمرٍ كانَ).

دلالة التَّعبير بأداة الشَّرْط ﴿إِذَا﴾ وبالماضي:

إذا أراد اللهُ قضاءَ شيءٍ يكون لا محالة

ودلَّ التَّعبيرُ بأداة الشَّرْط ﴿إِذَا﴾، وبالماضي في قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ على تحقُّق إرداته سبحانه ونفاذها، أي: إذا أراد قضاء شيء فكما أراده يكون لا محالة، ولا يتوقَّف كَوْنُه على أسباب وأدوات[3]. ووقعت جملة: ﴿قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ في محلّ جَرّ مضافًا إليه، وأصلُ القضاء:

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 582.

(2) البِقاعي، نَظْم الدُّرر: 12/ 196.

(3) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 548.

الإحكامُ، أُطلِق على الإرادةِ الإلهيّةِ القطعيّةِ المُتعلِّقةِ بوُجودِ الشّيءِ؛ لإيجابِها إيّاهُ البتّة[1].

الغرض مِنَ التَّعبير بجواب الشَّرْط أسلوبَ قَصْر:

أداة القصر (إنَّما) تُستخدم في مقام التَّعريض

أوثِرَ التَّعبيرُ بجواب الشَّرْط أسلوبَ قَصْر: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ لأنَّ القَصْر مِن أقوى أساليبِ التَّوكيد، كَما أنَّ القَصْر بهذا الأسلوب يأتي دفعةً واحدة، وكأنَّه ضربةُ لازبٍ، والسّياق هنا موَجَّهٌ للمُمترين المُجادِلين، الذين وصفوا اللّه سبحانه القادر بصفات المخلوقين باحتياجه للولد، فأوثِرَت أداةُ القَصْر (إنَّما)؛ لأنَّها تُستَخدم في مقام التَّعريض، وهي هنا للتّعريض، وهذا تبكيت آخَر وتوبيخٌ لليهود والنَّصارى، فإنَّ مَن إذا أرادَ شَيْئًا أَوْجَدَهُ بـ ﴿كُن﴾، كانَ مُنَزَّهًا عَن شَبَه الخَلْق إلى الحاجَةِ في اتِّخاذ الوَلَد[2].

سِرُّ تقييد الفعل بشِبه الجُملة ﴿لَهُۥ﴾:

سبحانَ المحيطِ بالأشياء علمًا وقُدْرَةً

في تقييد الفعل بشِبه الجملة: ﴿لَهُۥ﴾ دلالةٌ على كمال إحاطته تعالى به، لكَمالِ اقتدارِه عليه؛ فكأنّ هذا الشّيء يقول له: أتيتُ طائعًا، وسمعًا وطاعةً، وحالُ قوم عيسى فقيرٌ إلى العِلْم بذلك.

دلالة التَّعبير بمقول القول جملةً إنشائيّةً:

لَيسَ المُرادُ بالجملةِ الإنشائيّةِ حقيقةَ الأمرِ والامتِثال

جاء قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ تمثيلًا لسُهولَةِ تَأتّي المَقْدوراتِ بحَسَبِ تَعَلُّقِ مَشيئَتِه تَعالى، وتَصْويرًا لسُرْعَةِ حُدوثِها مِن طاعةِ المَأمورِ المُطيعِ للآمِرِ المُطاعِ كَقَوْلِه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: 50]، فالمُمَثَّل: الشَّيْءُ المُكَوَّنُ بسُرْعَةٍ مِن غَيْرِ عَمَلٍ وآلَةٍ، والمُمَثَّلُ بِهِ: أمر الآمِرِ المُطاعِ لمَأْمورٍ به مُطيعٍ على الفَوْرِ، وهَذا اللَّفْظ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 582.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 123.

مُسْتَعارٌ لذَلِكَ مِنهُ[1]، وفي هذه الاستعارة التّمثيليّة تَقْرِيرٌ لِمَعْنى الإِبْداعِ؛ وتَلْوِيحٌ لحُجَّةٍ أُخْرى لإِبْطالِ ما زَعَموه بأنَّ اتِّخاذَ الوَلَدِ شَأْنُ مَن يَفْتَقِر في تَحْصيلِ مُرادِه إلى مَبادٍ يَسْتَدْعي تَرْتِيبُها مُرورَ زَمانٍ، وتَبَدُّلَ أطْوارٍ؛ وفِعْلُه تَعالى مُتَعالٍ عَنْ ذَلِكَ[2].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَيَكُونُ﴾:

طلاقةُ القُدْرة الإلَهيّة وكمالُها

الفاء في ﴿فَيَكُونُ﴾ للتّعقيب المُرَتَّب على القَضاء؛ للإشارة إلى فوريّة حدوثِ قَدَر اللّه تعالى حسبَ مشيئته سبحانه، مِن غَيْرِ عَمَلٍ ولا مُزاوَلَةٍ، ولا تأخيرٍ، ولا حاجةٍ إلى سبب، فدلَّ حرف الفاء على طلاقة قُدْرة اللّه تعالى وكمالِها.

دلالة القراءة المتواترة في ﴿فَيَكُونُ﴾:

وَرَدَت في قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ قراءتان؛ الرَّفع بضَمِّ النّون وهي قراءة الجمهور، والنَّصْب بفتحها وهي قراءة ابنِ عامر: ﴿فَيَكُونَ﴾[3]، والرَّفع مِن وجهين؛ أحدهما: العطف على ﴿يَقُولُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ﴾ [إبراهيم: 44]، والثّاني: أن يكون الرَّفع على الاستئناف، والمعنى: فهو يكونُ؛ لأنَّ الكلامَ تمَّ عند قوله: ﴿كُن﴾، والمعنى: فسيكون ما أراد اللّهُ، وتوجيه قراءة النَّصْب: أنَّ جَوابَ الأَمرِ بالفاءِ يَكونُ مَنْصوبًا[4].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿فَيَكُونُ﴾:

استحضار صورة التّكوين وحالته في الذّهن

ما يقول اللّهُ له: ﴿كُن﴾ فإنّما قد كان؛ لتحَقّق حصولِ ما يريده تعالى في الحال، وإنّما عُبِّر بالمضارع: ﴿فَيَكُونُ﴾؛ لاستحضار صورة التّكوين وحالتِه في الذّهن؛ للتّفكير فيها؛ تمكينًا لمعنى الألوهيّة في النّفس والقلب والعقل.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 92.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 179، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 582.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 220.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 600.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأمر والقضاء:

(أَمَر) أقوى في الإلزام مِن (قضى)

أَمَرَ: المعنى المحوريّ نفاذٌ مع عُلوٍّ وراءَه جمعٌ بشِدّة[1]، **وقَضى**: أصل المادَّة يَدُلُّ على إِحْكام أَمرٍ وإِتْقانه وإِنْفاذِه لجِهَتِه[2]، ومِن معاني الكلمة: الفَصْل بينَ الشَّيئَين تنبيهًا أنّه صار بحيثُ لا يمكن تلافيه، وكُلُّ أمرٍ مقطوعٍ به، كقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: 44]، والقضاء: إحكامُ الشّيءِ والفراغُ منه، وبه سُمّي القاضي، والقضاء مِنَ الله حُكْمٌ على عباده يُطيعونه به ويُعصونه به، ومِن ذلك: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] أي: حَكَمَ بذلك تَعَبُّدًا[3]، والقَضاءُ: فصل الأمر قولًا كان ذلك أو فعلًا[4]، والفرق بين الفعلين: أنَّ (أَمَر) أقوى في الإلزام من (قضى).

(1) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ: (أمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضى).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قضي).
(4) الرّاغب، المفردات: (قضى).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ [مريم: 36]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

هذا آخر ما نَطق به عيسى عليه السلام، وما قَبْله اعتراض بين كلامه، وقد جيء بهذه الآية بعد هذا الاعتراض؛ لتقرير أنّ عيسى ليس ولدًا للّه حتّى يتّخذه، وإنّما هو مخلوق للّه كقومه، واللّهُ خالقه وخالقهم، وهو ربّهم جميعًا، ويُؤيّد هذا الفهم ويُؤنِس به قَصْدُ عيسى عليه السلام إلى إثبات التّسوية بينَه وبين قومه في المَخلوقيّة والمَربوبيّة للّه الرّبّ سبحانه وتعالى؛ بأن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، ولم يقل: (وإن اللّه ربُّنا)؛ مع أنّه أوجز وأخصر.

النّاس كلّهم عبيد اللّه مهما اختلفت مقاماتهم وعلت رتبهم

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطٞ﴾: أصلُ (صرط): الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقيمُ، وسُمّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بسُرعَةٍ لكونِه واسِعًا مُستقيمًا، والجَمعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ: إذا ابْتَلَعْتَهُ؛ لأنَّهُ - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لكَثْرَةِ سُلوكِهِم[1]، والمقصود بالصّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ القَويم.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

قال عيسى لقَومِه وهو في مَهدِه: وإنَّ اللّهَ رَبّي ورَبُّكم فاعبُدوه وحدَه لا شريكَ له، هذا الذي جئتُكم به مِن عندِ اللّه هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوجاجَ فيه، فمَن سلَكه اهتَدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى[2].

مُدبِّرُ النّاسِ ومُصلِحُ أمورِهم هو اللّه تعالى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَإِنَّ﴾:

الواو في ﴿وَإِنَّ﴾ عاطفة، فقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ معطوف

هذا بَقيّةٌ لكَلامٍ جَرى على لسانِ عيسى تأييدًا لبَراءَةِ أمِّه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سرط، صرط).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 541، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 108، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 493.

على قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، فيكونُ محكيًّا، وبَقيَّةً لكَلام جَرى عَلى لسان عيسى عليه السلام؛ تَأْييدًا لبَراءَة أُمِّه، وعليه يكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ اعتراضًا، أخبَرَ اللّهُ تعالى بها رسولَه عليه السلام[1].

تَنَوُّع قِراءات (إنَّ) و(أنَّ) وأثرُه على المعنى:

تعدّد القراءاتِ كنايةٌ عن أهميّة مقطعها القرآنيّ في سياقه

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾، قَرَأ ابْنُ عامِرٍ وأهْلُ الكوفَةِ ورَوْح بكَسْرِ الهمزة بتقدير: (قُلْ)، أو على الاستئناف، وقيل: على الأوّل أنّها عَطْف على الصَّلاة، أي: أوصاني بالصَّلاة، وبـ(إنَّ اللّه ربي وربكم فاعبدوه)، وقَرَأ نافِعٌ وابْنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو وأبو جَعْفَرٍ ورَوَيْسٌ عَنْ يَعْقوبَ بفتح الهمزة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾[2]، بتقدير: اذكر، أو لأنَّ، والمعنى: ولأنَّ اللّه رَبّي ورَبُّكم فاعبدوه[3]، "فَهو تَعْليلٌ لِقَوْلِه: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ عَلى أنَّهُ مُقَدَّمٌ مِن تَأْخيرٍ؛ لِلاهْتِمام بالعِلَّة لِكَوْنِها مُقَرِّرَةً لِلْمَعْلولِ، ومُثْبِتَةً لَهُ عَلى أُسْلوبِ قَوْلِه تَعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: 18]، ويَكونُ قَوْلُه: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ مُتَفَرِّعًا عَلى قَوْلِه ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، بَعْدَ أنْ أرْدَفَ ما تَعَلَّقَهُ مِن أحْوالِ نَفْسِهِ"[4].

دلالة التّوكيد بمُؤكّدين (إنَّ واسميّة الجملة):

تَعْميمُ رُبوبيّةِ الله تَعالى لِكُلِّ الخَلْقِ

أُكِّدت الجملة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ بمُؤكّدَين: (إنَّ، والاسميّة)؛ لأنَّ الحوار مع مُجادِلين مُمترين، ولعلَّ اللّه تعالى أَعْلَمَه باختلاف أهل مِلَّته فيه ومغالاتهم، فأكَّدَ لَهُم تأكيدًا بعد تأكيد على عبوديَّته للّه تعالى، والمَعْنى: تَعْميم رُبوبيَّة اللّه تعالى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 179.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 318.
(3) القنوجيّ، فَتْح البيان: 8/ 265.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 104.

لكُلِّ الخَلْقِ، ويؤيّدُ هذا قَصْدُه التّسوية بينَه وبينَهم في المَربوبيّة، بأن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، دون أن يقول: (وإنّ اللّهَ ربُّنا).

بلاغة تنوّعِ التّعبير عنِ الذّات العَليّة، باسم الجلالة أوّلًا، والرّبّ ثانيًا:

الإقـرارُ بتَوحيدِ الـرُّبـوبـيَّـةِ، وتوحيدِ الإلَهيَّةِ

المقصودُ إثباتُ الألوهيّة للّه سبحانه عقِبَ الاعتراض السّابق، الذي قرَّر أنّ اللّه ليس مِن شأنه أن يتّخذ ولدًا، فسلك في سبيل تحقيق ذلك مسلكَ التّسوية بينَه وبين قومه في المَربوبيّة؛ لأنّ الرّبّ هو الموجِد مِن عدم، وهو المُربّي، وهو المُراقب، وهو المُنعِم، وهو المُحسِن، وأحوالُه وأحوالُهم الظّاهرةُ تدلُّ على ذلك، فاتَّخَذَها دليلًا على الألوهيّة الدّالِّ عليها اسمُ الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾؛ فآثارُه ظاهرةٌ في أحوالهم جميعًا، والتي يدلُّ عليها قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.

دلالةُ العطفِ، وإضافةِ الرَّبّ لضمير المخاطَبين:

مُـدبِّـرُ الـنّـاسِ، ومُصلِحُ أمورِهم هو اللّه تعالى

دَلَّ العطف بالواو في: ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ على شمول إحسان اللّه تعالى ولُطْفِه، ورعايتِه، وتَرْبيته لعباده سبحانه، حيثُ لم يقتصر على عيسى فحَسْب، وقد أراد حَثَّ قومِه وترغيبَهم في توحيد اللّه تعالى، وأَمَرَهم بهذا صراحةً، والمعنى: أَحْسَنَ إلى كُلٍّ مِنّا بالخَلْقِ والرِّزْقِ، لا فرْقَ بَيْنَنا في أصْلِ ذَلِكَ[1].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾:

الألوهيَّةُ تُلازِم الرُّبوبيَّة

الفاء في ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ فاءُ الفصيحة، وفعل الأمر (اعبُدوهُ) في محلّ جزم جوابُ شرطٍ مُقدّر، أي: إن كنتم مُقرّين بربوبيّته فاعبدوه، فبَعْد أن قَرَّرَ الرُّبوبيّة أَمَرَ بالعُبوديَّة له ﷻ وحدَه؛ لأنَّ الأُلوهيَّة تُلازم الرُّبوبيَّة[2].

معنى الأمرِ ودلالتُه:

الأمر في قَوْله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ للوجوب والإلزام، فهو على معناه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 197.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4639.

الحقيقيّ؛ إذ إنَّ تَرْتيبَ الحُكْمِ عَلى الوَصْفِ المُناسِب مُشْعِر بالعِلّيَّة، والأمرُ بالعِبادَة وقَعَ مُرَتَّبًا عَلى ذِكْر وصْفِ الرُّبوبيَّة، فدَلَّ على أنَّه إنَّما تَلْزَمُنا عِبادَتُه سُبْحانه لكَوْنه رَبًّا لَنا، وذَلك يَدُلُّ عَلى أنَّه تَعالى إنَّما تَجِبُ عِبادَتُه لكَوْنه مُنْعِمًا عَلى الخَلائق بأُصول النِّعَم وفُروعِها.

تَرْتيبُ الحُكْمِ عَلى الوَصْفِ المُناسِبِ مُشْعِرٌ بالعِلّيَّة

الغرض مِنَ التَّعبير بالمُسنَد إليه اسمَ إشارةٍ للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

يُسْرُ طريقِ الله، ووضوحُه، وسهولتُه

المقصود باسم الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ القَوْلُ بالتَّوْحيد، ونَفْيُ الوَلَدِ والصّاحِبَة، وهو الطَّريقُ المُسْتَقيمُ الَّذي يُفْضي بقائِلِه ومُعْتَقِدِه إلى النَّجاة، والتَّقدير: (هذا الذي جئْتُكم به مِن عندِ اللّهِ، وذَكَرْتُه مِنَ التَّوْحيد هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوجاجَ فيه، فمَن سلَكَه اهتَدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى)[1]، وعُبِّر باسم الإشارة للقريب؛ للدّلالة على قُرْب طريق اللّه، ويُسْره، ووضوحه، والوصول بصاحبه إلى طريق النَّجاة دون تَشَعُّب ولا حيرة، ولا اضْطراب، وأنَّ في الإمكان تحصيلَه وفهمَه واعتقادَه.

الغرض مِن تنكير المُسنَد ﴿صِرَٰطٞ﴾:

لا صِراطَ أنْجى مِن صراط الله

الغرض مِن تنكير المُسْنَد: ﴿صِرَٰطٞ﴾ التَّفخيمُ؛ إذ لا صِراطَ أفخمُ، ولا أفضلُ، ولا أَنْجى، مِن صِراطٍ يُؤَدّي بصاحبه إلى الفوز بالدّارين.

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾:

الصِّراطُ المُستقيم يوَصِّل صاحبَه إلى بَرِّ النَّجاة

في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، شُبِّهَ الاعتقادُ الحَقُّ بالصِّراط المستقيم؛ لأنَّ كُلًّا منهما يوَصِّل إلى المقصود في سلام واطمئنان، والتَّشبيهُ هنا بليغ؛ لحذف أداةِ التَّشبيه ووجه الشَّبَه، وأوثِرَ التَّعبيرُ بالتَّشبيه البليغ؛ لأنَّه أعلى درجات التَّشبيه؛ إذ فيه ما يُشْعِر باتّحاد جِنْسِ المُشَبَّه والمُشَبَّه به، وادِّعاءِ أنَّ المشبَّهَ عينُ المُشبَّه به، لذا يتَّصف بقوَّة المبالغة، ووُصِفَ الصِّراطُ بـ﴿مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ لأنَّه يوصِل صاحبَه إلى بَرِّ النَّجاة.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 245.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّراط والسّبيل:

الصِّراط يتميّز بالاستقامة والبُعْد عن الزَّيْغ والضَّلال، والسَّبيل يتميّز بالوضوح والسّهولة

صراط: أصلُ (صَرَطَ): الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقيمُ، ويَدُلُّ على غَيْبَة في مَرٍّ وذَهابٍ[1]، والصِّراط في اللّغة: السَّبيل الواضح، والصِّراط لغةٌ في السِّراط، وسُمّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَه بسُرعَةٍ؛ لكونِه واسِعًا مُستقيمًا؛ وكأنَّه يَسْتَرِط (يبتلع) المارّةَ لكثرة سلوكهم لاحِبَه[2]، وممّا يُلْحظ مجيء الصِّراط في أكثر مواضعه في القرآن الكريم موصوفًا بالمستقيم، ومن شواهد ذِكْر الصِّراط في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 6 - 7].

سبيل: وردت كلمة (سبيل) في القرآن الكريم، وفي أكثر المواضع جاءت مضافة إلى لفظ الجلالة، ولعلّ ما رَشَّحها لهذا هو ملمَح السّهولة للتَّعبير عن وضوح المَسلك إلى اللّه تعالى وسهولتِه على السّالكين، وإن حَفَّت به المكارِه والمصاعبُ، كما استُعير السَّبيلُ للتَّعبير عنِ المَذْهب والطَّريقة، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: 108].

وتشترك الكلمتان (الصّراط، السّبيل) في الدّلالة على المَسْلك، لكن يتميّز كلٌّ منهما بملامح فارقة؛ فالسَّبيل يتميّز بالوضوح والسّهولة، كما يتميّز بإضافته إلى كلمة (ابن)، والصِّراط يتميّز بالاستقامة والبُعْد عنِ الزَّيْغ والضَّلال[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سرط).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (سرط).

(3) محمد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة، ص: 281.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

المنهج القويم طريقة واحدة

الآية السّابقة آخر ما أَنْطَقَ اللّهُ تعالى به عيسى عليه السلام وهوفي المَهد، في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، حيثُ أمرهم بعبادة اللّه تعالى وتوحيده، وبَيَّن لَهم أنَّ عبادة اللّه تعالى وحْدَه هي الصّراط المستقيم، والمِنْهاج القويم، ومَن انتَكَب عنه فقد ضَلَّ عنِ الهداية، وزاغَ عنِ الحَقِّ، وفي هذه الآية الكريمة بيانٌ لأحوال أهل الكِتاب في تَلَقّيهم تلك الدَّعوة، حيثُ ضَلّوا ضلالًا بعيدًا، واختلفوا اختلافًا شديدًا في شأن المسيح وحقيقته، وإِخْبارٌ مِنَ اللّه للرَّسولِ بتَفَرُّق بَني إسْرائيلَ فِرَقًا. "ولَمّا كانَ المَنهَجُ القَويمُ بحَيْثُ يَكونُ سَبَبًا للاجْتِماعِ عِنْدَ كُلِّ صَحيحِ المِزاجِ، عَجِبَ مِنهم في اسْتِثْمارِ غَيْرِ ذَلِكَ مِنهُ فقالَ: ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾ أيْ فتَسَبَّبَ عَنْ هَذا السَّبَبِ لِلاجْتِماعِ أنَّهُ اخْتَلَفَ ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الكَثيرونَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾: أَصلُ (خلف) مِنَ الإِخْلافِ، وهو: مجيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[2]، فالخَلَفُ: المُتأخِّرُ، سواء كان تَأَخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[3]، والخُلْفُ من قَوْلِهم: وعَدَني فأخلفني إخلافًا، والخُلْفُ الاسْم، والإخلاف المصدر[4]، وأَمّا قَوْلُهُمْ: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ، أَي: مُخْتَلِفونَ، فمِنَ هذا البابِ؛ لأَنَّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 198.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(4) الخليل، العين: (خلف).

كُلَّ واحِدٍ مِنْهُم يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِه، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحّاهُ[1]، والاِخْتِلافُ افْتِعالٌ أُريدَ به شِدَّةُ التَّخالُفِ، ولا يُعْرَفُ لمادَّةِ هَذا المَعْنَى فِعْلٌ مُجَرَّدٌ، وزيادَةُ التّاءِ للْمُبالَغَةِ، مِثْلُ: (اكْتَسَبَ) مُبالَغَةً في (كَسَبَ)[2]، وحقيقة الاختلاف هنا: تقابل رأيين فيما ينبغي انفرادُ الرَّأي فيه، وهو اختلافهم فيما بَيْنَهُم في الطَّرائِقِ الَّتي سَلَكوها[3].

2) ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: (حزب) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ، فمِنْ ذلكَ الحِزْبُ والجماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائفَةُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، يُقالُ: قَرَأَ حِزْبَهُ مِنَ القُرآنِ[4]، والأَحْزابُ: كلُّ طائفةٍ هَواهُم واحِدٌ[5]، والمقصودُ بالأحزاب في الآية: جَمعُ حِزْبٍ، وهو اسْمٌ للجَماعَةِ الَّذينَ هُم سَواءٌ في شَأْنٍ: مِنِ اعْتِقادٍ أَو عَمَلٍ أَو عادَةٍ، والمراد بهم هنا مَنِ اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام من طوائف أهل الكتاب[6].

3) ﴿فَوَيْلٌ﴾: أصلُ اللَّفظ يدلُّ على إعلانٍ باصطلاءِ عاقبة مهلكة لعمل أو تصرُّف[7]، فالوَيْلُ: الحُزْن والهَلاك والمَشَقَّة مِنَ العَذاب[8]، وتُقالُ لِمَنْ وقَعَ في هَلَكة يَسْتَحِقُّها، تَقولُ: ويْلٌ لزَيْدٍ، ومِنْهُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: 1]، فإِن وقع في هَلَكة لَم يستَحِقَّها يُقال: ويْحٌ لزَيْدٍ، يَكونُ فيه مَعْنَى التَّرَحُّم[9]، والوَيْلَةُ: الفَضيحَةُ والبَلِيَّةُ، وتجمع على ويْلات[10]، ومَن قال: ويْلٌ وادٍ في جهنَّم، فإنَّه لم يُرِد أنَّ ويْلًا في اللُّغة هو موضوع لهذا، وإنَّما أراد مَن قال اللّه تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مَقرًّا مِنَ النّار، وثبتَ ذلك له[11]، والمقصود بالوَيْلِ في الآيةِ: سوءُ الحالِ، والمرادُ بِه: الوعيد، والتَّهديد للمختلفين في شأن المسيح عليه السلام[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 282.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 105، وطنطاويّ، التّفسير البسيط: 1/ 252.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حزب).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 157، و16/ 106، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 966.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(11) الرّاغب، المفردات: (ويل).
(12) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 735.

4) ﴿مَّشۡهَدِ﴾: أَصْلُ (شهد) يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلامٍ[1]، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُروعِه عَنِ الَّذي ذَكَرْناهُ، مِنْ ذلكَ المَشْهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيْءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ[2]، وهو هنا صالِحٌ لِمَعانٍ، وهو أَنْ يَكونَ مُشْتَقًّا مِنَ المُشاهَدَةِ أو مِنَ الشُّهودِ، ثُمَّ إمّا أَنْ يَكونَ مَصْدَرًا ميميًّا في المَعْنَيَيْنِ، أَوِ اسْمَ مَكانٍ لَهُما، أَوِ اسْمَ زَمانٍ لَهُما، أي: يَوْمٍ فيه ذَلِكَ وغَيْرُهُ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

العذاب والهلاك لأولئك الكفّار المُختلفين في شأن عيسى عليه السلام

أخبر اللّهُ تعالى عن موقف أهل الكتاب مِن نبيّ اللّه عيسى عليه السلام فقال: اختلف اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى عليه السلام، فزعم اليَهودُ أنَّه ابنُ زنى، وزعم بعضُ النَّصارى أنَّه ابنُ اللّهِ، وزعم بعضُهم أنَّه ثالِثُ ثلاثة، وزعَمَ بَعضُهم أنَّه اللّهُ - تعالى اللّهُ عمّا يَقولونَ عُلوًّا كبيرًا - وقال آخَرونَ في شأنِه القَولَ الحَقَّ: إنَّه عبدُ اللّهِ ورَسولُه، فوَيلٌ للكافرينَ الَّذين اعتَقَدوا في عيسى مُعتَقَدًا باطِلًا، ولِغَيرِهم مِنَ الكُفّارِ، مِن حُضورِهم وشُهودِهم يومَ القيامةِ المُمتَلئَ بالشَّدائدِ والأهوالِ، المُشتَمِلَ على الجَزاءِ بالأعمالِ، وما سيُلاقونَه فيه مِنَ العَذابِ والنَّكالِ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾:

مسارعةٌ إلى الاختلاف والكُفر

الفاء في قَوْلِه تَعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ لِتَرْتيبِ ما بَعْدَها عَلى ما قَبْلَها، تَنْبيهًا عَلى سوءِ صَنيعِهِم بِجَعْلِهِم ما يوجِبُ الاتِّفاقَ مَنْشَأً لِلاخْتِلافِ، فإنَّ ما حُكِيَ مِن مَقالاتِ عيسى عليه السلام مَعَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 106 - 107.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 542، والواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 248، 249، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 232، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 493.

كَوْنِها نُصوصًا قاطِعَةً في كَوْنِه عَبْدَ اللّه تَعالى ورَسولَه، قَدِ اخْتَلَفَ اليَهودُ والنَّصارى بالتَّفْريط والإفْراط، فالمُراد بالأحْزاب اليَهود والنَّصارى[1]، أي: اختلَف أهلُ الكتاب في عيسى عليه السلام بَعْدَ بيان أمره، ووضوح حاله، وأنَّه عَبْد اللّه ورسوله، فرَمت اليهود أُمَّه بالزِّنى، واتهمته بالسِّحْر، وانقسمتِ النَّصارى في شأنه انقسامًا كبيرًا، وهذا كُلُّه ضلالٌ وشِرْك وكُفْرٌ.

والفاءُ عند ابن عاشور لتَفْريعِ الإخْبارِ بحُصولِ الاخْتِلافِ عَلى الإخْبارِ بأنَّ هَذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ، أي: حادَ عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقيم الأحْزابُ، فاخْتَلَفوا بَيْنَهم في الطَّرائِقِ الَّتي سَلَكوها، أي: هَذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ لا يَخْتَلِفُ سالِكوهُ اخْتِلافًا أصْليًّا، فسَلَكَ الأحْزابُ طُرُقًا أُخْرى، هي حائِدَةٌ عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ فلَم يَتَّفِقوا عَلى شَيْءٍ[2].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾:

دلَّ التَّعبير بالماضي ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾ على تَحَقُّق اختلاف اليهود والنَّصارى في أمر عيسى عليه السلام وتأكّده، وهذا تمكين للتّعجيب مِن شأنهم.

معنى حرف الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُه في ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾:

اختلافُهم مِن بَيْنهم، فلَم يَخْرُجِ الخلافُ عَنْ اليهود والنَّصارى

دَلَّ حرف الجَرِّ في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ على أنَّ الاخْتِلاف لَم يَخْرُجْ عَنْ اليهود والنَّصارى، بَلْ كانوا هُمُ المُخْتَلِفينَ، فهُم بأنفسهم سَبَبُ الاختلاف وأَصْلُه، فإنَّ التَّناحر بينَ الأهواء والأوهام الضّالة هو الذي صَدَر عنه الاختلافُ مِن بَيْنِهم ومِن مضطربهم، وقد حكم اللّه تعالى بمآلهم في هذا الاختلاف، فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، وهذا المعنى هو ما دَلَّ عليه حرف الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾[3]، فهم مصدر الاختلاف، ومآلُه إليهم، وأضاف البقاعيُّ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 179.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 104.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4641.

فقال: "ولَمّا كانَ الاخْتِلافُ لَم يَعُمَّ جَميعَ المَسائِلِ الَّتي في شَرْعِهِم، قال: ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ أي: بَني إسْرائيلَ المُخاطَبينَ بذَلِكَ[1].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَوَيۡلٞ﴾:

السَّببيَّة والتَّرتيب

الفاء في ﴿فَوَيۡلٞ﴾ لترتيب ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، أي: فتَسَبَّبَ عَنِ اخْتِلافِهِم أنّا نَقولُ: ويْلٌ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنهم ومِن غَيْرِهِم[2]، وترتيبُه بالفاء؛ لترتيبهمُ الاختلافَ فيما هو كالصّراط المستقيم بالفاء؛ فالجزاءُ من جنس العمل.

الغرض مِنَ التَّنكير في ﴿فَوَيۡلٞ﴾:

﴿فَوَيۡلٞ﴾ مبتدأ، وساغ الابتداء بالنَّكرة؛ لتَضمُّنِها معنى إيقاع الويل عليهم بالقضاء، فهو قضاءٌ على الذين كفروا بالهلاك والثُّبور، والتَّنكير للتَّهويل.

الغرض مِنَ التَّعبير بجملة الصلة:

تعليلُ الحُكْم بجملة الصِّلة

المُراد بالذين كفروا: المُخْتَلِفون، وعُبِّر عنهم بالموصول في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إيذانًا بكفرهم جميعًا، ولتعليل الحُكْم بالوَيْل والهلاك والثُّبور عن طريق جملة الصِّلة، فهم استحقّوا هذا العذابَ والهلاك، لكفرهم العجيب المُترتِّبِ على معرفة الصّراط المستقيم!، ودلَّ التَّعبير بجملة الصِّلَةِ وفعليّة فعلها الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ على رسوخهم في الكُفْر، وإصرارهم عليه، وتقرير ثبوتِه لهُم.

دلالةُ التَّقييد بشِبْه الجملة في: ﴿مِن مَّشۡهَدِ﴾:

تصوير الحَدَث بأَوْجَز عبارة

﴿مَّشۡهَدِ﴾ إمّا أن يكون مصدرًا ميميًّا، أي: (من شُهودهم)، بمعنى حُضورهم، وإمّا أن يكون اسمَ زمانٍ أو مكان، و﴿مِن﴾ في ﴿مِن مَّشۡهَدِ﴾ بيانيَّة، وفي التَّعبير بشِبه الجملة: ﴿مِن مَّشۡهَدِ﴾ دلالةٌ تصويريَّة دقيقة، ونفسيَّةٌ عميقة؛ إذ إنَّها تُصَوِّر الحَدَث في

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 12/ 198.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 12/ 198.

ذلكم المشهد تصويرًا كاشِفًا مع وجازته؛ حيثُ جَمَعت بينَ الألَمَيْن: الجَسَديّ، والنَّفسيّ؛ فالعذاب على رؤوس الأشهاد، وفي هذا ذِلَّةٌ ومَهانةٌ وعذاب نفسي قد يوازي العذابَ الجسديَّ، فهؤلاء المَوْعودون بالعذاب كانوا في الدُّنيا كُفّارًا جبابرةً ظالمين، وهاهُم أولاءِ اليومَ يُهانون ويُعذَّبون أمامَ خَلْق الله جميعًا، ولا شَكَّ أنَّ هذا أقسى عليهم، وأوجَع لَهم، وأنْكى.

سِرُّ إضافة المشهد إلى يوم:

مجاز عقليّ بعلاقة الزَّمانيَّة

الإضافة في قوله: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ﴾ بمعنى (في)، والتَّقدير: (مِن مَشْهدٍ في يوم عظيم)، وإضافة المَشْهَد إلى اليوم مجازٌ عقليٌّ بعلاقة الزَّمانيَّة؛ لتهويل هذا اليوم وتفخيمه، أي: ما سيكون فيه من أحداث.

سِرُّ تقييد الظَّرْف بالوصف ﴿عَظِيمٍ﴾:

عذاب الآخرة هوَ المَشْهد العظيم

قُيِّد الظَّرْف بالوصف: ﴿عَظِيمٍ﴾ دون سواه مِن (أليم) وغيره؛ لأنَّه يومٌ مشهود يَشْهَدُه الجميعُ، فالعذاب الدُّنيويُّ لا يشهده إلّا الحاضرون المُعاصرون، ولا يشهده السّابقون ولا اللّاحقون، أمّا عذابُ الآخرة فهو المَشْهد العظيم الذي يراه كُلُّ الخَلْق[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقولُه تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾ [الزُّخرف: 65]، فقد وُصِفُ الأحزابُ بالكفر في سورة مريم، ووُصِفوا بالظُّلم في سورة الزُّخرف، ولعلَّ السِّرَّ في هذا أنَّه قد فُصِّلت قِصَّة عيسى عليه السلام في سورة مريم، وورد فيها ذِكْر نِسْبَةِ الأحزابِ عيسى عليه السلام إلى اللّه تعالى، وذلك في قوله

---

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويّ: 15/ 9068.

تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ لذا كان مِنَ المُلائم وصفُهم بالكفر.

أمّا في سورة الزّخرف، فوردت قِصّة المسيح عليه السلام مجملةً [الزُّخرف: 57 - 64]؛ لذا كان مِنَ الملائم وصفُهم بلفظ أَخَفّ وهو الظّلم؛ لأنّ الكفر أشدُّ مِنَ الظّلم وأفظع[1].

كَما أنَّ آية مريم تقدَّمها وصفُ الكُفّار باتِّخاذ الوَلَد، وهو كُفْر صريح، فناسبَ وصفَهم بالكفر، ولم يَرِد مثلُ ذلك في الزّخرف، بل قال تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ فوصفهم بالظّلم لاختلافهم[2].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن الكريم، ص: 136 - 137.

(2) ابن جماعة، كَشْف المعاني، ص: 148.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٣٨﴾ [مريم: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبلَها:

امتدادٌ لسياق الآية الكريمة قبلَها في الإخبار عن حال الكافرين بالله تعالى، الجاعلين له أندادًا، والزّاعمين أنَّ له ولدًا يَوْمَ وُرودهم عليه سبحانه في الآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡمِعۡ﴾: (سمع) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمعًا[1]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدرك بها المسموعات، وفِعله يُقالُ له السَّمْعُ أيضًا[2]، والجَمع: أسماع، والسَّماعُ: ما سَمِعْتَ به فشاع وتُكُلِّمَ بهِ، والسَّميعُ مِن صِفات الله وأسمائه[3]، والاِسْتِماعُ: الإصغاء[4]، والمراد من قوله: ﴿أَسۡمِعۡ﴾ في الآية: تعجُّبٌ مِن رفاهة سمعهم، يوم القيامة[5].

2) ﴿وَأَبۡصِرۡ﴾: أَصْلُ (بصر) وُضوحُ الشَّيْءِ، يُقال: بَصُرَ الطَّريقُ، أي: اسْتَبانَ ووَضُحَ[6]، ويُطْلَقُ البَصَرُ على حاسَّةِ العَيْنِ، تَقولُ: جاءَ كَلَمحِ البَصَرِ، أَي: كَلَمح العَيْنِ، والجَمعُ: أَبْصارٌ[7]، والبَصيرُ والمُبْصِرُ: النَّاظِرُ لغَيْرِه، وضِدُّهُ الأَعْمَى، ويَأْتي البَصَرُ أَيْضًا بمَعْنَى: العِلْمِ والإِدْراكِ، وهيَ الرُّؤْيَةُ بالقَلْبِ، كَقَوْلِكَ: بَصُرْتُ بالشَّيْءِ إذا عَلِمتَهُ وأَدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإِدْراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمْعُ: بَصائِرُ[8]، والمراد بقوله: ﴿وَأَبۡصِرۡ﴾ في الآية: تعجُّبٌ من حِدَّة بصرهم، يوم القيامة[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سمع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سمع).
(4) الرّاغب، المفردات: (سمع).
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 735.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/ 59.
(9) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 735.

3) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: أصلُ (ضلّ) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِه في غَيْرِ حَقِّه[1]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[2]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضِلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضَلِلْتُ الشَّيْءَ أَضِلُّهُ: إذا جعلتَه في مَكان ولم تَدْرِ أَين هوَ، وأضْلَلْتُه: أضَعْتَه[3]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: الضَّياعُ والخُسران.

4) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بين) أصل يدل على بُعْدِ الشَّيءِ وانْكِشافِهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيونُ: البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[4]، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ[5]، والمُبِينُ: اسْمُ فاعِلٍ مِنْ أَبانَ الَّذي هوَ بِمَعْنَى بانَ، أَيْ ظَهَرَ[6]، والمراد به في الآية: المُبالَغَةُ في الظُّهورِ والوضوحِ.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

العذابُ الشَّديد والهلاك لأولئك الكفّار المختلفين في شـأن عيسى عليه السلام

يقول اللّه تعالى: ما أسمَعَ الكافرينَ، وما أبصَرَهم للحَقِّ الذي كانوا يُنكِرونَه، يومَ قُدومِهم علينا يومَ القيامةِ، لكِنِ الكافِرونَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكَذِبِ والافتراءِ على اللّه هم اليومَ في الدُّنيا في ضَلالٍ واضحٍ عنِ الحَقِّ، لا يَسمَعونَه ولا يُبصِرونَه ولا يَعقِلونَه[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلَّ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلَّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلَّ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 86.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 544، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 394، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 421.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فصل قوله: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ عمّا قبله:

انقلب اعتبارهم في الدنيا إلى الاعتبار بهم في الآخرة

هذه الآية استئنافٌ بيانيٌّ؛ وقد فتحَ البابَ لمجيئها قولُه في الآية السّابقة: ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ فهو مشهد عظيم، يقول البقاعيُّ مفصِّلًا: "ولمَّا كان ذلك المشهد عظيمَ الجمع، شديدَ الزّحام، مستويَ الأرض، بعيدَ الأرجاء: كان حالُه مقتضيًا لئلّا يطّلعوا على غير ما يليهم مِن أهواله، فقال في جواب من يقول: (وما عسى أن يسمعوا أو يبصروا فيه)، مُعلِمًا بأنّ حالهم في شِدّة السّمع والبصر جديرةٌ بأن يُعجَب منها: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾"[1].

الغرض مِن التَّعبير بأسلوب التَّعَجُّب ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾:

أسماع الكافرين وأبصارهم يَوْمَئِذٍ جديرٌ بأنْ يُتَعَجَّبَ مِنهُما

التَّعَجُّبُ هو اسْتِعْظامُ الشَّيْءِ مَعَ الجَهْلِ بِسَبَبِ عِظَمِهِ، ثُمَّ يَجوزُ اسْتِعْمالُ لَفْظِ التَّعَجُّبِ عِنْدَ مُجَرَّدِ الاسْتِعْظامِ مِن غَيْرِ خَفاءِ السَّبَبِ، أوْ مِن غَيْرِ أن يَكونَ لِلْعِظَمِ سَبَبُ حُصولٍ، وفي استعماله هنا وجوه؛ منها: وهو المَشْهورُ الأَقْوى أنَّ مَعْناهُ ما أَسْمَعَهم وما أَبْصَرَهم، والتَّعَجُّبُ عَلى اللّه تَعالى مُحالٌ كَما تَقَدَّمَ، وإنَّما المُرادُ أنَّ أَسْماعَهم وأَبْصارَهم يَوْمَئِذٍ جَديرٌ بأنْ يُتَعَجَّبَ مِنهُما، بَعْدَما كانوا صُمًّا وعُميًا في الدُّنْيا.

وقيلَ: مَعْناهُ التَّهْديدُ مِمّا سَيَسْمَعونَ وسَيُبْصِرونَ، مِمّا يَسوءُ بَصَرَهم ويُصَدِّعُ قُلوبَهم[2].

نُكْتة حَذْف مفعولَي السَّمع والبَصَر:

لقصد التّعميم، وكنايةٌ عن التهديد

حَذْفُ مفعولي السَّمع والبَصَر في قوله: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾؛ لقَصْدِ التَّعْميم ليَشْمَلَ كُلَّ ما يتأتَّى له أنْ يُسْمَعَ وأنْ يُبْصَرَ، وهَذا كِنايَةٌ عَنِ التَّهْديدِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 199.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 107.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

ليس كمثله شيء

قال تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ [الكهف: 26]، وقال سبحانه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، ففي سورة مريم في سياق الحديث عن أحوال أهل الكفر وهم في مشهد يوم عظيم؛ الجمعُ فيه عظيم، والزّحام فيه عظيم، والأحداثُ فيه عظيمة، لا ريبَ أنّ سمعَهم هو الأسبق مِن بصرهم في التّأثّر بما يحدث في هذا المشهد، فلهذا قُدِّم: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ﴾ على: ﴿وَأَبْصِرْ﴾؛ تصويرًا دقيقًا لمتابعتهم حركةَ المشهد العظيم، وفي هذا التعبير القرآنيِّ تعريضٌ بهم وهم في الدّنيا؛ فإنّهم لم يهتدوا؛ مع أنّ ذلك قد كان بإمكانهم بقوّة؛ فكانوا يملكون وسائل العِلْم بالحَقِّ والباطل؛ فقد أتى النّظم بما لا خلاف فيه، أو ما فيه خلافٌ لا يُعتدّ به، وهو السّمع، ثمّ أتى بما فيه تفاوت، وهو البصر، ولَمَّا كان موضعُ الكهف متعلّقًا بالله ﷻ؛ إذ قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: 26] تفصيلًا لقوله تعالى السّابق عليه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: 26]، قُدِّم: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ [الكهف: 26] على: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: 26]؛ لأنّ حاله تعالى في العلم بالأشياء ليس كمثل حال المخلوقين الذين يسبق سمعُهم في العِلْم بالأشياء بصرَهم، فدلَّ على المخالفة والألوهية بالتّرتيب المَذكور.

سِرُّ التَّقييد بالظَّرف ﴿يَوْمَ﴾:

سِرُّ التَّقييد بالظَّرف ﴿يَوْمَ﴾، هو تَرَقُّب سوءِ المُخْبَر عنهم يَوْمَ القيامَة، الَّذي يَقْتَضي الظَّنَّ بأنَّهُم الآنَ في سَعَةٍ مِنَ الحالِ.

موقع قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ممّا قبلَه ودلالتُه:

بيانُ التَّفاوت بين حِدَّة سَمعهم وبَصَرهم

الاِسْتِدْراكُ الَّذي أفادَهُ قَوْلُهُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ راجِعٌ إلى ما يُفيدُهُ التَّقْييدُ بالظَّرْفِ في قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ مِنْ ترقّب سوء حالهم يوم القيامة الذي يقتضي الظنّ بأنهم الآن في سعة من الحال، فأفاد أنّهم متلبّسون بالضلال المبين وهو من

سوء الحال لهم لما يتبعه من اضطراب الرأي والتباس الحال على صاحبه[1]، كما دَلَّ الاستدراكُ في قوله تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَـٰلٖ مُّبِينٖ﴾ على بيان التَّفاوت بين حِدَّة سمعهم وبصرهم التي توجبُ العجبَ، وحالهم في هذا اليوم في الدُّنيا التي كانوا فيها عَمين عنِ الحَقّ، ووقوعهم في الضَّلال المُبين البَيِّن الواضح[2].

الغرض مِنَ التَّعبير بالإظهار ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ والسّياق للإضمار:

لا ظُلْمَ أشَدُّ مِن ظُلْمِهِم حَيْثُ أغْفَلوا الِاسْتِماعَ والنَّظَرَ

أبان صاحبُ الكَشّاف عنِ الغرض مِنَ العدول عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ بقوله: "أَوْقَعَ الظّاهِرَ - أَعْني الظّالِمينَ - مَوْقِعَ الضَّمير؛ إشْعارًا بأَنْ لا ظُلْمَ أَشَدُّ مِن ظُلْمِهم، حَيْثُ أَغْفَلوا الاِسْتِماعَ والنَّظَرَ حينَ يُجْدي عليهم ويُسْعِدُهم"[3]، والمُرادُ بالضَّلالِ المُبينِ: إغْفالُ النَّظَرِ والاِسْتِماعِ، ووَضَعَ الظّالِمينَ مَوْضِعَ الضَّميرِ للإيذانِ بأنَّهم في ذَلِكَ ظالِمونَ لأَنْفُسِهِم[4].

معنى حرف الجَرّ ﴿فِي﴾ ودلالتُه:

التَّلبّس بالضَّلالِ والانغماس فيه

أفاد التَّقييد بالظَّرف في قَوْلِه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَـٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّهم مُتَلَبِّسونَ بالضَّلالِ المُبين، ومُنْغَمسون فيه، وغارقون، وهذا مِن سوءِ الحالِ لَهم لما يَتْبَعُه مِن اضْطِراب الرَّأْي، والتِباسِ الحالِ على صاحِبِه.

سِرُّ تقييد الضَّلال بالوصف ﴿مُّبِينٖ﴾:

العدول عنِ الحَقّ البيِّنِ كمالُ ضلال

قيّد القرآنُ الضّلالَ بقوله: ﴿مُّبِينٖ﴾؛ نظرًا إلى أنّهم ضَلّوا عنِ الحَقّ الذي بلغ الغايةَ في الوضوح والاستقامة؛ ممّا لا ينبغي العدولُ عنه بحال، إلّا إذا كانوا في ضلال لا تُدْرَك غايتُه، فهم في ضلال كامل تامٍّ؛ بحيث ينادي على نفسه بأنّه كذلك؛ فهذا الوصفُ ناظرٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 108.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4642.
(3) الكَشّاف، الزَّمخشريّ: 3/ 111.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 583، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 93.

إلى التّشبيه في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾، وبهذا الوصف في نور دلالته تلك يتِمُّ التّقابل الخفيُّ بين حالهم في الدّنيا في قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وحالهم في الآخرة: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾ [مريم: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنذار الكفّار بالعذاب وفوات التدارك

لـمَّا ذكر اللّه ﷻ أحوال الظَّالمين يوم القيامة، أتبع تحذيرهم من عذاب الآخرة والنّداء على سوء ضلالهم في الدّنيا بالأمر بإنذارهم استقصاء في الإعذار لهم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾: (حسر) أَصْلٌ يدل على كَشْف الشّيء، يُقال حَسَرْتُ عن الذِّراع، أي كشفته، وحَسَرَ البَصَرُ إذا كَلَّ، وهوَ حَسيرٌ، ومن الباب الحَسْرَةُ: التَّلَهُّفُ على الشَّيءِ الفائِت، يُقال حَسِرْتُ عليه حَسَرًا وحَسْرَةً، وذلك انكشاف أمره في جَزَعِه وقِلّة صَبْرِه[2]، وقيل الحَسْرَةُ: أَشَدُّ النَّدَم، حَتَّى يَبْقَى النَّادِمُ كالحَسيرِ مِنَ الدَّوابِّ الَّذي لا مَنْفَعَةَ فيه[3]، ومنه ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ المذكورة في الآية: النّدامة الشديدة للمجرمين على ما فرَّطوا من أسباب النّجاة[4].

2) ﴿قُضِيَ﴾: (قضي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى إِحْكامِ أَمرٍ وإِتْقانِه وإِنْفاذِه لِجِهَتِه، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12] أَيْ أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ، والقَضاءُ: الحُكْمُ، ولِذَلِكَ سُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لِأَنَّهُ يُحْكِمُ الأَحْكامَ ويُنْفِذُها[5]، وانقضَى الشيء وتَقَضّى أي فَنِيَ وذهب[6]، والقَضاء والقَدَرُ أمران مُتَلازمان لا يَنْفكُّ أحدهما عَن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 108.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 108.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(6) الخليل، العين: (قضي).

الآخر؛ لأنَّ أحدهما بِمَنْزِلَةِ الأَساس وهوَ القدر، والآخَرُ بِمَنْزِلَةِ البناءِ وهوَ القَضاء، فمَنْ رامَ الفَصل بَيْنَهُما فقدْ رامَ هَدْمَ البناءِ ونَقْضه[1]، ومَعْنى ﴿قُضِيَ﴾ الأمرُ في الآية: تُمِّمَ أمرُ اللّه بزَجِّهم في العَذاب فلا مُعَقِّبَ لَهُ[2].

3) ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: (أمر) أُصولٌ خَمسَةٌ: الأَمرُ مِنَ الأُمورِ، والأَمرُ ضِدُّ النَّهْيِ، والأَمَرُ - بفتح الميم - النَّماءُ والبَرَكَةُ، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ[3]، والمذكور في الآية هو الواحِدُ مِنَ الأُمورِ فقَوْلُهُم هَذا أَمرٌ رَضيتُهُ، وأَمرٌ لا أَرْضاهُ، وفي التَّنْزِيلِ العَزيز: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: 53]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1]، قالَ الزَّجَّاجُ: أَمرُ اللّه ما وعَدهم به مِنَ المُجازاةِ على كُفرِهم مِنْ أَصناف العَذابِ[4]، ومعنى ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ في الآية: زجُّ الظَّالمِينَ، وهُمُ المُشْرِكونَ مِن أَهْلِ مَكَّةَ وغَيْرِهم من عَبَدَةِ الأَصْنامِ في العَذابِ فلا مُعَقِّبَ لَهُ[5].

4) ﴿غَفْلَةٍ﴾: (غفل) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، ورُبَّما كانَ عَنْ عَمدٍ، مِنْ ذَلِكَ: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ غَفْلَةً وغُفولًا، وذَلِكَ إِذا تَرَكْتَهُ ساهيًا، وأَغْفَلْتُهُ، إِذا تَرَكْتَهُ على ذِكْرٍ مِنْكَ لَهُ، وناقَةٌ غُفْلٌ: لا سِمَةَ عليها، ورَجُلٌ غُفْلٌ: لَم يُجَرِّبِ الأُمورَ[6]، والغَفْلَةُ: سهو يَعْتَري الإنسان من قلّة التَّحَفُّظِ والتّيقُّظ، قال تعالى ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: 1][7]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، أي: وهم في ذهول عن يوم القيامة وأحكامه[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أمر اللّه ﷻ رسوله الكريم ﷺ بأن ينذر النَّاس يومَ النّدامة - وهو يَوْمُ القيامَة - حين يَتَحَسَّر فيه المُسيءُ على تَرْكِ الإحْسان في الدُّنيا، فيفرغُ مِنَ الحِساب، ويُجاءُ بالموت كأنَّه كَبْش أملح، فيُذْبَح، ويُفصل بين الخلق، فيصير أهل الإيمان إلى الجنّة، وأهل الكفر

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 109.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أمر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 109.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(7) الراغب، المفردات: (غفل).
(8) الواحدي، البسيط: 14/ 252.

إنذار النَّاس بنهاية القرار إلى جنّة أو إلى نار

إلى النار، وهم اليوم في هذه الدّنيا في غفلة عمَّا أُنذروا به، فهم لا يصدّقون، ولا يعملون العمل الصالح(1).

وترشدُ الآيةُ إلى بيان سبب الحسرة يوم القيامة وهو الكفر بالله والشرك به، حين تشتدُّ فيه الحسرة، وتعظم الندامة؛ وذلك عندما يتوارث الموحّدون مع المشركين، فالموحِّدون يرثون منازلَ المشركين في الجنة، والمشركون يرثون منازلَ الموحِّدين في النار، وترشدُ إلى سريان أشدِّ الندم على كلِّ ما فات ولا يمكن تداركه يوم القيامة من الأقوال والأعمال؛ إذ سمّي بيوم الحسرة؛ لشدة ندم الكفار فيه على التفريط، وقد يندم فيه المؤمنون على ما كان منهم من التقصير(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في مطلع الآية:

العطف والاعتراضُ في الإنذار من فظاعة المشهد العظيم

بدأ النظم الحكيمُ الآيةَ بحرف الواو: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، وقد اختُلف في دلالتها، فقال بعض العلماء إنَّ الواو عاطفة؛ إذ هذه الآيةَ معطوفة على قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 37 - 38]، فإنّه لَمَّا كان هذا الذي تقدم إنذارا بذلك المشهد، كان التّقدير: (أنذر قومك ذلك المشهد وما يسمعونه فيه ويبصرونه، وأنذرهم يوم الحسرة نفسه في ذلك المشهد العظيم، يوم تزلُّ القدم، ولا ينفع النّدم للمُسيءِ على إساءته، وللمحسن على عدم ازدياده من الإحسان)(3).

وقال بعضهم إنَّ الواو هنا اعتراضية بين جملتين، وهما قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 38]، وقوله: ﴿وَهُمۡ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 411، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 422، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 309.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 200.

﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾، فتكون جملة ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ معترضة، ووجه الاعتراض أنّ الإنذار مؤكّد لما هم فيه من الغفلة والضّلال[1].

دلالة التّعبير بالإنذار في الآية:

التّخويف بحسرة يوم القيامة وحلول النّدامة

آثر السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ استعمالَ لفظ ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾؛ لأنّ الإنذار مناسب لسياق التّخويف من يوم القيامة، فالإنذار إعلام بما يُحَذَرُ، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز[2]، فأمر اللّه نبيّه ﷺ أن يُخوِّفَ المشركين عاقبة شركهم بأن يتداركوا أمرهم بالتّوبة والإيمان ما دام لهم وقت للتّوبة قبل حلول الحسرة وفوات النجاة.

نكتة التّعبير بضمير الغائبين:

خصوص الإنذار للظّالمين أو عمومه للنّاس أجمعين

ورد التّعبير بضمير الغائبين ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، وقد اختلف العلماء في مَرْجعه، فقالَ الأكثرون: إنَّه يَرْجِعُ إلى الظَّالمين المذكورين في الآية السابقة: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 38]، وهم المشركون من أهل مكّة وغيرهم من عَبَدَةِ الأصنام؛ لقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾[3]، وقال بعضهم: بل مرجعه جميع النَّاسِ مُحسِنِهم ومُسيئِهم،؛ فالظَّالمون يتحسّرون على ما فرّطوا في جنب اللّه تعالى، ويتحسَّر المحسنون على قلّة إحسانهم[4] لقول رسول اللّه صلوات اللّه عليه وسلامه: "ما من أحد يموت إلا ندم، قالوا: فما ندمُه يا رسول اللّه؟ قال ﷺ: إن كان محسنا، ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم ألا يكون نزع"[5]، فعبر بالضمير ليشمل

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 412.
(2) المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 108.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 411.
(5) رواه التِّرْمِذِيُّ في الجامع الحديث رقم: (2403).

كلّ ذلك، ورجح بعض العلماء أنّ الأوّل أصحّ؛ لأنّ الحسرة هَمٌّ، ولا تليق بأهل الجنّة[1].

بلاغة الحذف في الآية:

التّخويف من يوم الحسرة وعذابه

جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ لفظ ﴿يَوۡمَ﴾ منصوبًا، وقيل في توجيه نصبه: إنَّه مفعول خلف عن المفعول الثَّاني المحذوف للفعل ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾، والتّقدير: (أنذرهم عذابَ يوم الحسرة)[2]، وقيل بعدم الإضمار، بكون يوم الحسرة ظرفًا متعلِّقًا بـ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾، وأحسن من هذين أن يكون مفعولًا به، أي: خوّفهم نفسَ اليوم[3]، لتذهب النفس كل مذهب حذرا من هول ذلك اليوم، وتكون على أهبة منه.

سرّ إضافة اليوم إلى ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾:

ظهور حسرة المجرمين في يوم الدّين

أُضيف اليوم إلى ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، ومعنى الحسرة: النّدامة الشّديدة الدّاعية إلى التلهّف، والمراد بيوم الحسرة: يوم الحساب، فأُضيفَ اليومُ إلى الحَسرَة؛ لكثرة ما يَحْدُث فيه من تحسُّرِ المجرمين على ما فرّطوا فيه من أسباب النّجاة، فكان ذلك اليوم كأنه مما اختصت به الحسرة، فهو يوم حسرة بالنسبة إليهم، وإن كان يوم فرح بالنسبة للصَّالحين[4].

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾:

دلالة الآية بين عموم اللفظ وخصوص السّبب

جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ لفظ ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ معرّفًا باللَّام، ويحتمل أنّها للجنس؛ لأنَّ الحسرات كثيرة في مواطن عدَّة، ومنها يوم الموت، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشّمال وغير ذلك[5]، ويحتمل احتمالًا راجحًا أنَّها للعهد الذّهني، وهو قول

(1) ابن عادل، اللّباب: 13/ 70.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 108.
(3) درويش، إعراب القرآن: 6/ 104.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 108.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 17.

الجمهور، فقد جاء في الصّحيح أنَّ يوم الحسرة يوم ذبح الموت، من حديث أبي سعيد الخُدْريّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النَّار النَّار؛ يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنّة والنَّار، فيقال: يا أهل الجنّة هل تعرفون هذا؟ فيَشْرَئِبُّونَ، وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، قال: ثم يقال: يا أهل النَّار هل تعرفون هذا؟ فيَشْرَئِبُّونَ، وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيُؤمر به، فيُذبَح، ثم يقال: يا أهل الجنَّة خلودٌ، فلا موت، ويا أهلَ النَّار خلودٌ، فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾"[1]، وبعضهم عمَّم يوم الحسرة بأنَّه يوم القيامة؛ لظهور حسرة الظَّالمين فيه، كما يجوز أن تكون اللَّام عوضًا عن المضاف إليه، أي: يوم حسرة الظَّالمين[2].

متعلّق ﴿إِذۡ﴾ في الآية:

أثـر التّـخـريـج الإعرابي في تنوع المعاني

يمكن تخريج ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ على وجهين: فيجوز أن يكون ظرفًا منصوبًا بالحسرة، ويجوز أن يكون بدلًا من ﴿يَوۡمَ﴾، فيكون معمولًا لـ ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾، وهذا الوجه لا يجوز إن كان الظّرف باقيًا على حقيقته؛ إذ يستحيل أن يعمل المستقبل في الماضي، فإن جعلت ﴿يَوۡمَ﴾ مفعولا به، أي: خوّفهم نَفْسَ اليَوْمِ، صحّ ذلك لخروج الظرف إلى حيّز المفاعيل الصريحة[3].

إيثار التعبير بالفعل المبني للمفعول:

حذف ما يعلم جائز وبليغ، لـتـسـتـعـدّ النفوس لما يُلقى إليها

ذكر البيانُ القرآنيّ الفعل ﴿قُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ مبنيًّا للمفعول، بمعنى تمّ وانتهى، والنّكتة

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2849).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 108.
(3) ابن عادل، اللّباب: 13/ 70.

في عدم التصريح بالفاعل التّركيز على الفعل في حدّ ذاته وهو ﴿قُضِيَ﴾، أي تُمّم أمر الله بزجّهم في العذاب فلا مُعَقِّبَ له[1]، دون التعرّض للفاعل لوضوحه من السّياق وهو الله ﷻ، ولمّا كان واضحًا جاز حذفه، وإذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جُعِلَ سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَحٌ[2].

نكتة التعبير عن أحداث يوم القيامة بـ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

إبـــهــام أمــر يــوم الـقـيـامـة لـتـعـظـيـمـه لـيـسـتـعـد الوافدون إليه

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ المقصود به التعبير عن أحداث يوم القيامة، وقد ورد في تحديد المقصود منه وجوه: **أحدها**: إذ قُضيَ الأمر ببيان الدّلائل وشرح أمر الثّواب والعقاب، **وثانيها**: إذ قُضيَ الأمر يوم الحسرة بفناء الدّنيا وزوال التّكليف.

والأوّل أقرب لقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فكأنه تعالى بيّن أنّه ظهرت الحُجج والبينات، وهم في غفلة وهم لا يؤمنون.

وثالثها: روى عددٌ من المفسرين أنَّ النبيَّ ﷺ سُئل عن قوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: فقال: "حين يُجاء بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح، والفريقان ينظران، فيزداد أهل الجنّة فرحًا على فرح، وأهل النَّار غمًّا على غمّ"[3].

إعراب جملة ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ ودلالتها:

الـظـالـمـون في ضلال وفي غفلة عن يوم القيامة

اختُلف في إعراب جملة ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾، فقيل إنّها في موضع الحال من الضمير المستتر في الجارّ والمجرور المتعلّق بقوله تعالى: شأنه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 38]، أي: مستقرُّون في ذلك وهم في غفلة، فتكون الواو على هذا واوَ الحال، وقيل: الواو للعطف على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 109.
(2) الزمخشريّ، الكشَّاف: 4/ 8.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 541، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 228.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 38]، أي: هم في ضلال وهم في غفلة، وعلى الوجهين تكون جملة ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ معترضة والواو اعتراضية، ووجه الاعتراض أن الإنذار مُؤكِّد ما هم فيه من الغفلة.

كما يجوز أن تكون جملة ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ متعلقة بـ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ على أنّه حال من المفعول، أي: أنذرهم غافلين غير مؤمنين(1)، وقد تكون حالًا من الأمر وهي حال سببية، إذ التقدير: (وأنذرهم إذ قُضيَ أمرهم على حين أنّهم في غفلة)(2)، وفي جميع ذلك تنبيهٌ على أن لَّا يغترّ الإنسانُ، ولا تأخذَه ملهياتُ الحياةِ فيصبحَ في سبات الغفلة لاهيًا، ولا يستفيقَ إلا ويومُ الحسرة مباغتٌ له ومفاجىءٌ.

بلاغة التعبير عن الخبر بالجار والمجرور:

الكناية عن سرعة المباغتة بالعذاب

جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ التّعبير بشبه الجملة ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾، والغفلة الذُّهول عن شيء شأنه أن يُعْلَمَ، ويحتملُ معنى قضاء الأمر وهم في غفلة: الكناية عن سرعة صدور الأمر بتعذيبهم، أي قُضيَ أمرهم على حين أنهم في غفلة، أي بَهْت، كما يحتمل السّياق تحذيرهم من حلول يوم القيامة بهم قبل أن يؤمنوا كقوله: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾ [الأعراف: 187]، وهذا أليق بقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(3).

دلالة موقع جملة ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

الضلالُ وعدم الإيمان سِمَةُ الكفار

وردت في الآية جملة ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وهي متعلّقة بقوله تعالى شأنه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 38]، ووجه ذلك أنَّ هذه الجملة في موضع الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور، أي: مستقرُّون

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 412.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 109.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 109.

في ذلك وهم لا يؤمنون، كما يحتمل أن تكون معطوفة على قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 38]، أي: هم في ضلال وهم لا يؤمنون، كما يجوز أن تكون متعلقة بـ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ على أنّها حال من المفعول، أي: أنذرهم غير مؤمنين[1].

غرضُ التعبير عن الخبر بالفعل المضارع المنفي:

استمرار الكفّار في عدم الإيمان

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تعبير عن الخبر بالفعل المضارع؛ للدّلالة على استمرار عدم إيمانهم إلى حلولِ قضاء الأمر يومَ الحسرة، فاختيار صيغة المضارع فيه دون صيغة اسم الفاعل لما يدلُّ عليه المضارع من استمرار الفعل وقتًا فوقتًا؛ استحضارًا لذلك الاستمرار العجيب في طوله وتمكُّنه[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحسرة والندامة:

الحسرة تدلُّ على شدّة الندم

يتجلّى الفرق بين (الحسرة) و(الندامة) في كون الحسرة أشدَّ الندم حتّى ينقطع الإنسان من أن يفعل شيئًا، ويصاحبها التَّلَهُّفُ عَلى الشَّيْءِ الفائِتِ[3]، مع جَزَعِه وقِلَّةِ صَبْرِه حَتَّى يَبْقى النَّادِمُ كالحَسيرِ مِنَ الدَّوابِّ الَّذي لا مَنْفَعَةَ فيه[4]، أمَّا الندم فهو أقلُّ درجة من الحسرة، فهو يدلُّ على تذكُّر شيء قد فات[5]، ولو كان حقيرًا.

الغفلة والنّسيان:

الغفلةُ من اختيار الإنسان، والنِّسيان بغير طوعه

يتجلّى الفرق بين لفظي (الغفلة) و(النّسيان) في كون الغفلة تركًا باختيار الغافل، أمَّا النسيان؛ فهو ترك بغير اختيار الإنسان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205] ولم يقل:

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 412.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 109.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (حسر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ندم).

(ولا تكن من النَّاسين)، فإنّ النّسيان لا يدخل تحت التّكليف فلا يُنهى عنه[1]، ويقوّي هذا الفرق أنَّ النسيان غير مؤاخذ به؛ لقول النبي ﷺ: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استُكرهوا عليه"[2].

(1) ابن القيّم، مدارج السَّالكين: 6/ 406.
(2) أخرجه ابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (2045).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾ [مريم: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تهديد المشركين بوشك الهلاك والفناء

لـمَّا أمر اللّه رسوله بإنذار المشركين يوم القيامة، جاء تذييلُ الآيةِ بتهديدهم بأنّهم لا مفرَّ لهم من قضائه المحتوم بموت الخلائق أجمعين، واستيفائه سبحانه للأرض ومن عليها؛ استيفاءَ الوارث لإرثه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَرِثُ﴾: (ورث) أَصْلٌ واحد وهو الوِرْثُ والميراثُ، وهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْم، ثُمَّ يَصيرَ إِلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[2]، والميراث أصله مِوْراثٌ، انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، والتُّراثُ أصل التَّاء فيه واو، تقول: وَرِثْتُ أبي، ووَرِثْت الشَّيءَ من أبي، أَرِثُهُ بالكسر فيهما، وِرْثًا ووِراثة وإِرْثًا، والألف منقلبة من الواو[3]، ومعنى وراثة اللّه للأرض ومن عليها في الآية، أَي: يَبْقى بَعْدَ فناءِ الكُلِّ، ويَفْنَى مَن سِواهُ، فيَرْجِعُ ما كانَ مِلْكَ العِباد إليه وحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وهذا معنى صفة الوارث مِنْ صِفاتِ اللّه ﷻ، أي: الباقي الدَّائِمُ الَّذي يَرِثُ الخلائقَ، ويَبْقى بَعْدَ فنائِهِم[4].

2) ﴿يُرۡجَعُونَ﴾: (رجع) أَصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرارٍ، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا، إِذا عادَ، وراجَعَ الرَّجُلُ امرَأَتَهُ، وهيَ الرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ، والرَّاجِعَةُ: النَّاقَةُ تُباعُ ويُشْتَرى بِثَمَنِها مِثْلُها، والثَّانِيَةُ هيَ الرَّاجِعَةُ[5]، والرُّجوعُ: العَوْدُ، والرَّجْعُ: الإعادة، والعَوْدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ورث).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ورث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).

إلى الدّنيا بعد الممات[1]، فيكون الرّجوع المقصود في الآية هو العودة إلى اللّه تعالى بعد الممات للحساب والجزاء.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

قضاء الله بفناء المخلوقات ورجوعها إليه للحساب

يخبر اللّه تعالى عن نفسه بأنّه الوارث للأرض ومَن عليها؛ فقد حكم بفناء هذه المخلوقات، وتصرُّفه تعالى فيهم بما يشاء، وأنَّه سيأتي يومٌ سيفنى فيه كلُّ من عليها، والجميع سيُرجَعون إليه، ويقفون بين يديه، ويحاسبهم بما كسبت أيديهم ويجزيهم به[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل مطلع الآية:

عادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال من قِصّة إلى أخرى

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾؛ لأنَّها وقعت تذييلًا على عادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها، وأفاد هذا التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنّهم لا مفرَّ لهم من الكون في قبضة الربِّ الواحد الذي أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض، وأن آلهتهم ليست بمرجوة لنفعهم؛ إذ ما هي إلَّا مما يرثه اللّه[3].

دلالة تصدير الجملة بحرف التأكيد:

تأكيد الخبر للمنكر دفعًا للشكّ

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ بحرف التأكيد (إنّ) لتوكيد أمر فناء الدنيا بمخلوقاتها، وأنّها راجعة إلى خالقها، فجاء الخبر مؤكّدًا؛ لأنَّ المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أنَّ اللّه يرث الأرض ومن عليها[4].

علةُ التعبير بضمير العظمة ﴿إِنَّا﴾:

عظمة الباقي سبحانه في إفناء مخلوقاته

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ بالضمير

(1) الراغب، المفردات: (رجع).
(2) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 309.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.

(نا) في ﴿إِنَّا﴾ الذي يدلُّ على تعظيم المتكلّم سبحانه وفيه إدخالُ المهابة في قلوب العباد[1]، فالعظيمُ هو الباقي وحده، وكلُّ صفات العظيم عظيمة؛ إذِ المقامُ هنا مقامُ تدليل على قدرة اللّٰه وأنّ وراثة الأرض ومن عليها إليه.

بلاغةُ الضَّمير المنفصل ﴿نَحۡنُ﴾:

مجيء ضمير الفصل بغرض التّأكيد

جاء التعبير بالضمير المنفصل ﴿نَحۡنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾، والنّكتة في استعماله التأكيدُ، ولا يفيد تخصيصًا؛ إذ لا يفيد ردّ اعتقاد مخالف لذلك، ومجيء ضمير الفصل بمجرّد التأكيد كثير إذا وقع ضمير الفصل بعد ضمير آخر، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: 14][2].

دلالة إسناد الفعل ﴿نَرِثُ﴾ إلى ضمير العظمة:

الكناية عن عموم الفناء وتفرّد الواحد بالبقاء

جاء معنى الإرث في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ على المجاز؛ لأنَّ حقيقةَ الإرث مصير مالِ الميّت إلى من يبقى بعده، فاستُعمِل هنا كناية عن تمحُّض التّصرف في الشّيء دون مشارك، فإنّ الأرض كانت في تصرّف سكّانها من الإنسان والحيوان كلٌّ بما يناسبه، فإذا هلك النّاس والحيوان فقد صاروا في باطن الأرض وصارت الأرض في غير تصرّفهم، فلم يبقَ تصرّف فيها إلا لخالقها، وهو تصرّف كان في ظاهر الأمر مشتركًا بمقدار ما خوّلهم اللّٰه التصرّف فيها إلى أجل معلوم، فصار الجميع في محض تصرّف اللّٰه، ومن جملة ذلك تصرّفه بالجزاء[3].

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ ودلالتها:

الأرضُ معهودة في ذهن كلّ إنسان

عُرِّفت لفظة ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ

(1) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.

﴿عَلَيۡهَا﴾ بأداة التعريف (أل) الدَّالة على العهد الذهني، وهي تعرِّف حقيقة ذهنيّة يراد بها فرد مُبْهَمٌ من أفراد الحقيقة باعتبار عهديّته في الذّهن لاشتمال الحقيقة عليه[1]، فالمقصود بالأرض: الأرض المعهودة التي تعيش المخلوقات عليها.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾:

بقاء الخالق وفناء الأرض والمخلوقات التي تعيش عليها

عطف ﴿وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾، بمعنى أنّه سبحانه يرث الأرض ويرث من عليها، فموضع ﴿وَمَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ النصب بالفعل ﴿نَرِثُ﴾، ومعنى وراثتها أنّه هو وحده الباقي بعد الأرض ومن فيها، فكلها ومخلوقاتها إلى نهاية، وقد شبّه وجوده العزيز الجبار بأنّه يكون بعدها؛ كي يكون الوارث بعد المَوَرِّث، فالمورِّث يموت والوارث يموت بعده، ولكنَّ اللّه حيّ لا يموت، وليس المعنى أنَّ اللّه يرث الأرض ويرث ما ترك الناس من المال والنسب، فاللّه غنيٌّ عن المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15][2].

نكتة التَّعبير باسم الموصول ﴿وَمَنۡ﴾:

تغليب العاقل على غيره لقصده بالموعظة

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ التّعبير بالاسم الموصول ﴿وَمَنۡ﴾ دون (ما)، وهو اسم موصول مشترك دالٌّ في الأصل على العاقل، مع أنّ مخلوقات الأرض فيها من لا يعقل كالحيوانات، والنّكتة في ذلك تغليب العاقل على غيره، فالمنتفع بالتخويف هو العاقل فخصّه تعالى بالذِّكر[3]، وكذلك لأنّ السّياق في ذكر يوم الحساب وحسرة الكفّار فيه، فناسب ذلك تغليب العاقل الذي سيحاسب على أفعاله دون غير العاقل.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4643.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 355.

سرُّ إيثار حرف الاستعلاء (على) دون (في):

تخويف النَّاس دون باقي المخلوقات

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ التَّعبير بحرف الجرّ (على) الدَّال على الاستعلاء دون حرف (في) الدالّ على الظرفية؛ لأنّ المقصود بالخطاب هم الثَّقلان، وهم يعيشون ويمشون على ظهر الأرض وليس في باطنها، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن: 26]، فهو وإن كانت كلّ الجهات ستفنى، لكن الموعظة موجهة للإنس والجنّ، فناسب السياق تخصيصهم بحرف الجرّ (على) دون باقي المخلوقات التي تعيش في الأرض.

دلالة الواو في ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾:

تهديد المشركين بالبعث بعد الموت

وُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بحرف الواو الدالّ على العطف والاقتران، وذلك لعطف البعث على الإفناء، وفي ذلك تهديد المشركين بأنهم لا مفرّ لهم بعد الفناء من الكون في قبضة الرّبّ الواحد الذي أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض، وأنَّ آلهتهم ليست بمرجوة لنفعهم؛ إذ ما هي إلَّا ممَّا يرثه اللّه سبحانه[1].

سرّ تقديم الجار والمجرور في الآية:

اختصاص الله بالرّجوع إليه وبالحساب

تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ الجارّ والمجرور ﴿وَإِلَيْنَا﴾ على الفعل لنكتة بلاغية وهي الاختصاص، بمعنى اختصاص اللّه بالرجوع إليه للحساب، ويجعل أئمة علم المعاني التخصيص لازمًا للتقديم[2]، ونظيره مثلًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26]، فالمعنى كذلك هو اختصاص اللّه بالرجوع إليه وبالحساب[3]، وقد ذكر بعض العلماء أنَّ محمل هذا التّقديم بالنسبة إلى المسلمين الاهتمام، ومحمله بالنسبة إلى المشركين القصر، أي: لا يرجعون إلى غيرنا[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.
(2) السّكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.
(3) الزمخشريّ، الكشَّاف: 4/ 745.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.

فائدة ضمير العظمة في قوله ﴿وَإِلَيۡنَا﴾:

عظمة الباقي سبحانه في إحياء الخلق للبعث والنّشور

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ بضمير (نا) التي تدلُّ على تعظيم المتكلِّم سبحانه وعلوّ قدره؛ لتعدّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، وفيه أيضًا إدخال المهابة في قلوب العباد[1]، فالعظيم وحده هو المتفرّد بالبقاء، وهو القادر على البعث والإحياء بعد الإماتة، وكلّ ما يصدر عن العظيم عظيم.

نكتة إيثار الفعل ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ دون غيره:

عودة النّاس إلى الحياة للحساب والجزاء

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ استعمالُ الفعل ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ دون غيره؛ وذلك لأنّ الرّجوع الانصراف من مكان حلولٍ ثانٍ إلى مكان حلولٍ أوّل، فالمؤمنون يصدّقون بيوم الحساب والجزاء، والكفّار زعموا أنّه لا بعث ولا رجوع وكفروا بالمرجوع إليه سبحانه[2]، فأكّد الله سبحانه أنّهم سيرجعون إلى خالقهم للحساب والعقاب.

التوجيه البلاغي للقراءات في الآية:

القراءة مع القراءة كالآية مع الآية

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ قراءتين مشهورتين، فقرأ الجمهور ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ بالبناء لما لم يسمّ فاعله، وقرأ يعقوبُ - وحده - بالبناء للفاعل ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ في كلّ ما كان فيه الرجوع إلى الآخرة، فحجُّة قراءة الجمهور ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ أنّه من (أُرْجِعَ) إذا فُعِلَ به الرجوع، فالله سبحانه هو وحده القادر على إرجاعهم، ونظير هذا المعنى قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الكهف: 36] وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 62][3]، وأمّا قراءة يعقوب بالبناء للفاعل ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ فجعل فعل الرّجوع منهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]، فهو فاعل في اللّفظ دون المعنى، نحو: (مات زيد).

(1) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 314.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 208، والفارسي، الحجّة: 5/ 422.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الميراث والتُّراث:

شمول التراث للإرث المادّي والمعنويّ

يشترك لفظ (الميراث) مع لفظ (التُّراث) في أصل الاشتقاق وهو الوِرْثُ، وهوَ أَنْ يكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إِلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[1]، ويختلف لفظ (الميراث) عن لفظ (التُّراث) في البناء الصرفيّ، فلفظ (الميراث) أصله مِوْراثٌ، فانقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها[2]، وأمَّا لفظ (التُّراث) فأصل التَّاء فيه واو، فأصله الوُراثُ من ورِثْتُ، ولكن التاء تبدل من الواوِ إذا كانَتِ الواوُ مَضْمومَةً، نحو تُجاه، وأصله وُجاه من واجَهْتُ[3].

وقد حاول بعض العلماء أنْ يتلمّس فرقًا دلاليًّا بين اللفظين، فقالوا: إنَّ (التّراث) يدلّ على كلّ ما يرثه اللّاحق من سابقه من أمور ماديّة كالأموال والممتلكات، ومعنوية كالقيم والعلوم والعادات والتّقاليد ... إلخ وإنَّ (الميراث) خاصّ بوراثة الأمور المادّية فقط، وهو تفريق غير دقيق.

الرّجوع والعودة:

العودة تدلُّ على الرجوع والابتداء

يتجلّى الفرق بين لفظ (الرّجوع) ولفظ (العودة) في كون معنى (الرّجوع): فعل الشيء ثانية، ومصيره إلى حال كان عليها، وأمَّا لفظ (العودة) فيستعمل في هذا المعنى على الحقيقة، ويستعمل في الابتداء مجازًا، فيقال قد عاد إليّ من فلان مكروه، وإن لم يكن قد سبقه مكروه قبل ذلك، وتأويله أنّه لحقني منه مكروه، ومنه قوله تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]، والمعنى: (أو لتدخُلُنَّ في ديننا)؛ فإنّه عليه السلام لم يكن على دينهم قَطُّ[4].

فلفظ (العودة) أوسع دلالة من لفظ (الرّجوع).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ورث).
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 323.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 313.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم: 41]

التّنويه بفضائل أبـي الأنـبـيـاء الخليل عليه السلام

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذمّ الله تعالى الضّالّين في أمر المسيح عليه السلام، وعلّق تهديدهم بوصفٍ دخل فيه مشركو العرب، وختم ذلك بأنّه تعالى الوارث وأنّ الرجوع إليه، ودخل في ذلك الإرث بغلبة أنبيائه وغلبة أتباعهم على أكثر أهل الأرض، ولـمَّا كان إبراهيم عليه السلام لكثرة أولاده من العرب والرُّوم وأهل الكتابَيْنِ وارثًا لأكثر الأرض، وكان مثل زكريَّا عليه السلام في هِبة الولد على كبر سِنِّه وعُقْمِ زوجه، أتبع ذلك بقصّته وفضائله[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾: (ذكر) أَصْلانِ: الذكورة، وخلاف النّسيان، والمقصود هنا الثّاني، تقول ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عليْه الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ على ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذَّالِ، أَيْ لا تَنْسَهُ[2]، كما يُطلَقُ الذِّكْرُ على حضور الشّيء القلبَ أو القولَ، ولذلك قيل: الذِّكْرُ ذكران: ذِكْرٌ بالقلب، وذِكْرٌ باللّسانِ، ومعنى الذِّكر في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [النحل: 43]، أي: الكتب المتقدّمة[3]، فيكون معنى ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ في الآية هو: التلاوة باللسان لقصص الأنبياء السَّابقين[4].

2) ﴿صِدِّيقٗا﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، مِنْ ذَلِكَ الصِّدْقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمّيَ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولِأَنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لَهُ، هوَ باطِلٌ، وأَصْلُ هَذا مِنْ قَوْلِهم شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 482، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 413.

ورُمحٌ صَدْقٌ، والصِّدّيقُ: المُلازِمُ لِلصِّدْقِ[1]، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قَطُّ، وقيل: بل لمن لا يتأتّى منه الكذب لتعوّده الصّدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده وحقّق صدقه بفعله[2]، فالمرادُ من وصف إبراهيم عليه السلام بالصدّيق في الآية: المبالغة في فرط صدقه في امتثال ما يكلفه الله تعالى[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الأمر بذكر قصّة الخليل عليه السلام والائتساء به

أوحى الله لرسوله ﷺ قصةَ إبراهيم عليه السلام، وأمره بذكرها لقومه، فإنّه كان عظيم الصّدق، والتصديق بآيات الله، ومِن أرفع أنبياء الله تعالى منزلة[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى كمال إبراهيم عليه السلام بذكره في القرآن الكريم، وإلى أنَّ أمرَ الله رسولَه ﷺ أن يذكر إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء؛ لأن في ذكرهم إظهارَ الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحثُّ على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة التّعبير بالذّكر عن التلاوة:

أمر النبيّ ﷺ بتلاوة قصص الأوّلين

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ التعبير بالفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾، وهو خطاب للرسول ﷺ، والمراد: (اتل عليهم نبأ إبراهيم)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الشعراء: 69]، وإنّما قال العلماء بأنّ المقصود من الذكر هنا هو التلاوة؛ لأنّ ذاكر ذلك في الكتاب هو الله تعالى، والكتاب كتابه عز وجل، وقيل: إنّه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

(2) الراغب، المفردات: (ذكر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 112.

(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.

ﷺ لكونه النَّاطقَ عنه تعالى ومُبَلِّغَ أوامره ونواهيه كان كأنّه الذَّاكرُ في الكتاب ما ذكره ربّه ﷻ(1).

لطيفة استهلال القصّة بالخطاب:

الإخبار بالمغيبات من دلائل نبوّته ﷺ

استُهلّت القصّة في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ بالأمر ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ خطابا للرّسول ﷺ؛ لأنّه ﷺ ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان، كان ذلك إخبارًا عن الغيب ومعجزًا قاهرًا دالًّا على نبوَّته(2).

إيثار ذكر ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون (القرآن):

حفظُ الله لكتابه في الصدور والسطور

أُطلِقَ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ اسم الكتاب على القرآن "باعتبار أنَّ اللّه أنزله ليُكتَب، وأنّ الأمّة مأمورون بكتابته، وإن كان نزوله على الرسول ﷺ لفظًا غير مكتوب، وفي هذا إشارة إلى أنّه سيُكتب في المصاحف، وقد يكون المراد بالكتاب: ما نَزَلَ من القرآن قبل هذه السورة وقد كتبه كُتَّابُ الوحي"(3).

نكتة التعريف بـ(أل) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

استغراق الكتاب لكلّ صفات الكمال

جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ معرّفًا بـ(أل) الدَّالة على العهد الذهني، والمعنى أنّه هو الكتاب الجدير بأن يسمّى كتابًا، وهو الكامل المستغرق لكلّ صفات الكمال، أي أنّه لا كتاب يوصف بالكمال المطلق سواه، ولهذا إذا أطلق الكتاب انصرف إلى القرآن؛ لأنّ المطلَقَ ينصرف إلى الفرد الأكمل، والأكمل بين الكتب هو القرآن، لأنّه كتاب اللّه تعالى بلفظه ومعناه(4).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 413.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 541.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 160.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4645.

سرّ فصل جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ عمّا قبلها:

الاهتمام بذكر إبراهيم عليه السلام في التلاوة

فُصلت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ عن الجملة قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾؛ لشبه كمال الاتصال، وهو كون الجملة الثانية قويّة الارتباط بالأولى؛ فقد وقعت جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، ففُصِلت عنها كما يُفصل الجواب عن السُّؤال[1]، كما وقعت جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ موقع التّعليل للاهتمام بذكر إبراهيم عليه السلام في التلاوة[2].

علّة كثرة المؤكّدات في الآية:

تأكيدُ فضائل إبراهيم عليه السلام

استهلّ الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ بحرف التّوكيد وبفعل الكون؛ للاهتمام بتحقيق الثّناء على إبراهيم عليه السلام[3]، إضافة إلى كون الجملة واقعة موقع التعليل للاهتمام بذكره في التلاوة.

إيثار صيغة المبالغة في ﴿صِدِّيقًا﴾:

بلوغ الخليل عليه السلام النهاية في الاتّصاف بالصدق

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ التعبير بلفظ ﴿صِدِّيقًا﴾، وقد جاء على صيغة من صيغ المبالغة وهي (فِعّيل)؛ للدّلالة على شدّة الاتّصاف بالصّدق، ووصْفُ إبراهيم عليه السلام بالصدّيق معناه: البالغ أقصى درجات الصّدق في القول والعمل والإذعان للحقّ، وهو الذي يصدِّق الحقّ إذا ألقي إليه، لا يماري فيه ولا يمتنع عن الإقرار به والإذعان له، وأي دلالة أبلغ من التصديق والإذعان عندما رأى في المنام أنّه يذبح ابنه فهَمَّ بأن يذبحه[4]؛ وذلك لفرط صدقه في امتثال ما يُكلّفه اللّه تعالى لا يَصُدُّه عن ذلك ما قد يكون عذرًا للمُكَلَّفِ، فالصدق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصفة في الموصوف بها[5].

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 112.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4645.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 112.

نكتة وصف إبراهيم عليه السلام بالصِّديقيَّة قبل النُّبوة:

كلُّ نبيّ صدّيق دون عكس

وُصِفَ إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ بالصِّديقيَّة قبل النُّبوة، وهذا الترتيب للمبالغة في الاحتراز عن تَوَهُّم تخصيص الصدّيقيّة بالنبوّة، فإنّ كلّ نبيّ صدّيق دون عكس، فلمَّا ثبت أنَّ كل نبيّ يجب أن يكون صِدّيقًا، ولا يجب في كل صِدّيق أن يكون نبيًّا؛ ظهر بهذا قُرب مرتبة الصدّيق من مرتبة النبيّ، فلهذا انتقل من ذكر كونه صدّيقًا إلى ذكر كونه نبيًّا[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذّكر والتلاوة:

خصوص التّلاوة بالقرآن، وعموم الذكر في ما ينطق اللّسان

يتّضح الفرق بين لفظي (الذّكر) و(التلاوة) في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالذِّكْرُ عامّ في أمور كثيرة منها: الحفظ للشيء وتذكّره، ومنها جري الشّيء على لسانك، والذِّكْر الشّرف، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]، والذِّكْرُ: الكتاب الذي فيه تفصيل الدّين، وكل كتاب للأنبياء: ذِكْرٌ، والذّكر: الصلاة، والدعاء، والثناء[2].

أمَّا التلاوةُ فهي في اللغة: الإتباع، يقال: تلاه يتلوه تُلوًّا، أي تبعه، ثم خصصت دلالة الكلمة في معنى قراءة القرآن؛ لما في قراءة القرآن من تتابع الآيات بشكل منتظم، فالتلاوة هي قراءة واتّباع معًا[3].

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 8/ 413.

(2) الخليل، العين: (ذكر).

(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 158.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ [مريم: 42]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دعـوة العـرب إلى تقليد أبيهم إبراهيم ﵇ في التوحيد

لـمَّا ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﵇ واختلاف الأحزاب فيهما وعبادتهما من دون الله، ذكر قصة إبراهيم ﵇ مع أبيه تذكيرًا للعرب بما كان عليه أبوهم إبراهيم ﵇ من توحيد الله؛ ليقلّدوه في ذلك، إذ كانوا يقلّدون الآباء وليس في آبائهم مثله[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: (أبو) أَصْلٌ يدلّ على التّربيةِ والغَذْوِ، وبذلك سُمّيَ الأبُ أَبًا، وفلان يأبو اليتيمَ، أي: يغذوه كما يغذو الوالد ولده[2]، ويُسَمّى كلّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا، ولذلك يسمّى النبيّ ﷺ أبًا للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6]، وزادوا في النداء فيه تاء، فقالوا: يا أبت[3]، فيقصد إبراهيم ﵇ في الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أباه آزر المذكور في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ [الأنعام: 74].

2) ﴿يُغۡنِي﴾: (غني) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ على الكِفايَةِ، والآخَرُ صَوْتٌ، فالأوّل وهو المقصود الغنى في المال، والغَناءُ بِفَتْحِ الغَيْنِ مَعَ المَدِّ: الكِفايَةُ، وغَنيَ القَوْمُ في دارِهِم: أَقاموا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِها، ومَغانيهُم: مَنازِلُهُم[4]، وصفة (غنيّ) إذا وُصِف بها

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 12/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبو).
(3) الراغب، المفردات: (أبو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

غير اللّه سبحانه جاءت بمعنى الغنى الماليّ للبشر، أمَّا ما كان صفة للّه ﷻ فهو المالك لكلّ شيء، والغَنِيُّ عن كلِّ شيء، وهي بمعنى ما يرزق به خلقه في الدنيا والآخرة[1]، فيكون معنى ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ في الآية: لا يكفيك شَيْئًا في جلب نفع أو دفع ضر[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنكار الخليل عليه السلام على أبيه عبادة الأوثان

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: يا أبت لأيِّ شيء تتقرُّب بأنواع القربات إلى ما لا يسمع دعاءك إنْ دعوّته، ولا يبصر عبادتك إن عبدته من الأصنام، ولا يدفع عنك ضرا ولا يجلب لك نفعا، فأيُّ حاجة لك إلى عبادته؟!

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بشاعة عبادة هذه الأصنام، وخطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه برهانٌ جليٌّ دالٌّ على أنَّ عبادةَ الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلًا وشرعًا، ودلَّ خطابُ إبراهيم عليه السلام بتنبيهه وإشارته على أنَّ الذي يجب ويحسن عبادته مَنْ له الكمال، الذي لا تَنالُ العبادَ نعمةٌ إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمةً إلا اللّه تعالى[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة ﴿إِذْ﴾ في الآية:

اجتماع صفتي الصدّيقيّة والنبوّة في الخليل حين المحاورة

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بحرف ﴿إِذْ﴾، وهو هنا بدل من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدل اشتمال؛ وقد فصل بين البدل والمبدَلِ منه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[4]، وجوَّز بعضُهم أن تكون ظرفية، فتتعلَّق بـ ﴿كَانَ﴾ أو بـ ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾، أي: كان جامعًا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات[5].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنس).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 12.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 414.
(5) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 682.

معنى اللام في ﴿لِأَبِيهِ﴾:

دقة البيان القرآني في اختيار حروف المعاني

تعدّى الفعل ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بحرف اللّام من قوله ﴿لِأَبِيهِ﴾، وهي تُسمَّى لام التبليغ، وهي مفيدة تقوية فعل القول عندما لا تكون حاجة لذكر المواجه بالقول، فإذا كان الغرضُ ذكر المواجه بالقول فاللّام حينئذ تسمَّى لام تعدية فعل القول[1]، وبعضهم يجعلها للسّببية، أي: لأجله[2]، والقول الأوّل أظهر.

نكتة النداء بوصف الأبوَّة:

استعطافُ الأب لقبول نصيحة الابن الشَّفيق

جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه بحرف النّداء (يا) مع أنَّ الحضرة مغنية عن النّداء؛ قصدًا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه، ثمّ توجَّه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوَّة إيماء إلى أنّه مخلص له النّصيحة[3].

بلاغة الاستفهام في الآية:

الإنكار والتشنيع على عبادة الصنم الوضيع

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ استعمال أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾؛ لنكتة بلاغيّة، إذ استفهم إبراهيم عليه السلام عن السّبب الحامل لأبيه على عبادة الصّنَم - وهو منتفٍ عنه السّمع والبصر والإغناء عنه شيئًا - تنبيهًا على شناعة الرأي وقبحه وفساده في عبادة من انتفت عنه هذه الأوصاف[4]، فهو استفهام مستعمل في حقيقته، ومَكْنِيٌّ به عن نفي العلّة المسؤول عنها بقوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾، فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه، فهو من التورية في معنيين يحتملهما الاستفهام[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 07/ 240.
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 199.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 268.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 114.

دوام أبي إبراهيم على عبادة الأصنام

سرّ إيثار التعبير بالمضارع ﴿تَعۡبُدُ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارع ﴿تَعۡبُدُ﴾ من قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ دون غيره من الأزمنة؛ قصدًا لما يفيده المضارع من افتراض تكرّر الحدث وتجدّده واستمراره[1]، وفي ذلك دلالة على استمرار أبي إبراهيم ودوامه على عبادة الأصنام عندما خاطبه ابنه إبراهيم ﷺ بهذا الخطاب.

ماءات القرآن وأثرها في تحديد المعاني

معنى ﴿مَا﴾ في الآية:

التّعبير بلفظ ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ﴾، ويحتمل في هذا السّياق أن تكون موصولة بمعنى (الّذي) أي: (لم تعبد الذي لا يسمع ولا يبصر..)، كما يحتمل أيضًا مراعاةً للسّياق أن تكون نكرة موصوفة، بمعنى (لم تعبد شيئًا لا يسمع ولا يبصر)[2].

دوام عجز الأصنام عن استجابة الدعاء

سرُّ العدول عن (الصُّمّ) إلى ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ﴾:

عَدَلَ النّظم القرآني في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ عن التعبير بلفظ (الصُّمّ) إلى عبارة ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ﴾؛ قصدًا إلى ما تفيده صيغة المضارع من الدلالة على الدّوام والاستمرار، بمعنى دوام عجز الأصنام عن سماع دعاء من يدعوها، والدعاء هو العبادة، فإذا لم يسمع الوثَن دعاء الدَّاعي، فأيّ منفعة في عبادته؟!.

زيادة النّكران على عبادة الأصنام

دلالة عطف جملة ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ على ما قبلها:

عُطفت جملة ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ على جملة ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ زيادة في الاحتجاج على بطلان عبادة الأصنام، فهي عاجزة عن سماع مَنۡ يَعۡبُدُها أو إبصارِ تَقَرُّبِهِ إليها، فإنّها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميّز مَنۡ يُطيعها عمّن يَعۡصيها، فأيّ فائدة في عبادتها؟[3].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 268.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 543.

فائدة التعبير بالمضارع في ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾:

دوام عجز الأصنام عن الإبصار

جاءت عبارة ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ بصيغة المضارعة قصدًا لما تفيده من الدّلالة على الدّوام والاستمرار، بمعنى دوام عجز الأصنام عن إبصار من يعبدها وإبصار قرباتهم إليها، وإذا لم تبصر تقرّب من يتقرّب إليها، فلا منفعة تُرجى من عبادتها.

دلالة عطف جملة ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ على ما قبلها:

الإمعان في بيان عجز الأصنام وسفاهة أحلام من يعبدها

عطفت جملة ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ على عبارة ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ في الآية؛ إمعانًا في إظهار عجز الأصنام التَّام عن جلب أدنى نفع أو دفع أدنى ضرر، فإذا كانت هذه الآلهة لا تنفع ولا تضرّ، فلن يحصل عابدها على أي نعمة، ولن يخاف أي نقمة منها، فتبطل عبادتها أصلًا تبعًا لذلك.

بلاغة النّفي بـ﴿وَلَا﴾ في الآية:

عجز الأصنام مطلَقٌ في كل الأزمنة

ورد النّفي بـ﴿لَا﴾ دون (لم) في الأفعال الثلاثة ﴿لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي﴾ لأنّ النفي بها مطلق في الأزمنة، لإفادة عجز الأصنام مطلقًا، في حين أنّ النفي بـ (لم) يفيد فقط النفي في الماضي، فهي تقلب المضارع إلى الماضي، دون التعرض للنفي في الحاضر والمستقبل.

دلالة التعبير بصيغة المضارع المنفيّ:

عدم استحقاق العبادة لدوام العجز

عُبّر في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ بصيغة المضارع المنفيّ في ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ و﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ و﴿وَلَا يُغْنِي﴾، دون غيره من الأزمنة لما يفيده المضارع من افتراض تكرّر الحدث وتجدّده واستمراره[1]، وفي ذلك دلالة على دوام عجز الأصنام عن السّمع والبصر والنفع والضرّ، ولازمه

---

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

التّنبيه تعريضًا على عدم استحقاق العبادة، فالإنسان الذي يسمع ويبصر أفضل ممن كان عاريًا عن ذلك، لا يسمع ولا يُبصر، فكيف يليق بالأفضل عبوديّة الأخسّ[1]؟.

سرّ تقديم ﴿عَنكَ﴾ على ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

اهتمام الخليل عليه السلام بنجاة أبيه

قُدِّمَ الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ عن المفعول ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ لنكتة بلاغيّة وهي الاهتمام، فالأصنام لا تغني عنه ولا عن غيره ولا عن نفسها شيئًا، فضلًا عن باقي المخلوقات، غير أنّه قدّم والده بقوله: ﴿عَنكَ﴾؛ اهتمامًا بأبيه لشدَّة قربه منه وفَرْطِ حرصه على نجاته.

دلالة إفراد لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وتنكيره:

مـن عـجـز على القليل عجز عن الكثير من باب أولى

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ منكَّرًا مفردًا، والغرض البلاغي من التنكير فيه والإفراد هو التّقليل، بمعنى أنّ الأصنام لا تنفع ولا تضرّ ولو أقلّ شيء، كما أنَّ كلمة (شيء) لتوغُّلها في إبهام جنس ما تضاف إليه أو جنس الموجود مطلقًا مفيدة للتقليل غالبًا، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ [النساء: 20][2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأب والوالد:

خصوص الوالد بالسبب المباشر، وعموم الأب في الأجداد

يتّضح الفرق بين لفظي (الأب) و(الوالد) من حيث الدّلالة اللغوية في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالأب في اللّغة: سبب وجود الشيء أو إصلاحه، أو ظهوره، وسمّي الأب أبًا؛ لأنَّه يقوم على إصلاح الأبناء ورعايتهم بالتربية والغذاء، وأمَّا الوالد في اللّغة: فهو الأب المباشر، الذي هو سبب وجود الابن، فالوالد خاص، والأب عام.

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 13/ 74.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

كما يتَّضح الفرق بين اللفظين في الاستعمال القرآني لهما، حيث يراعي ما لكل منهما من ملامح دلاليّة خاصّة، فالأب يطلق على الأب المباشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: 4]، كما يطلق على الجدّ وإن علا، نحو قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجّ: 78].

وورد مجموعًا للدّلالة على سلسلة الأجداد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: 170]، وهذا الاستعمال القرآني مرتبط باتّساع الأصل اللغوي لكلمة (أب)، وشمولها لكل ما كان سببا في وجود الشيء أو رعايته أو ظهوره.

أمَّا (الوالد) في الاستعمال القرآني فقد اقتصر على معنى الأب المباشر الذي هو سبب وجود الابن، وفي أكثر المواضع جاء في صيغة المثنى (وبالوالدين)؛ إيماءً إلى أنَّ الأنثى هي الوالدة على الحقيقة، وألحق بها الأب؛ لأنّه السبب المباشر في وجود الابن، ومن ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]، واستقراء الآيات الّتي ورد فيها لفظ (الوالد - الوالدين) يدلنا على دقة التعبير القرآني؛ إذ إنَّ الوالد هو الأب الأدنى (أي المباشر) دون غيره، وقد استُعمل في سياقات تقتضي قوّة الرَّابطة والعاطفة، نحو قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: 33]؛ فقد تضمّنت الآية نفي النفع والشفاعة بأبلغ وجه، فكأنّه قيل: لو شفع للأب الأدنى الّذي ولد منه لم تُقبل شفاعته، فضلًا عن أن يشفع لمن فوقه، ولم يَرِدُ الوالد مجموعًا في القرآن الكريم، وفي هذا قرينة على أن هذا اللفظ مقصور على الأب المباشر دون غيره[1].

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 25.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وجوب اتِّباع أهل العلم للوصول إلى الهداية

لمَّا نبَّه إبراهيم ﷺ أباه على أنَّ ما يعبده لا يستحقُّ العبادة، بل لا تجوز عبادته، وكان أقلُّ ما يصل إليه بذلك مقامَ الحيرة، نبّهه على أنّه أهل للهداية(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوِيّٗا﴾: (سوي) أَصْلٌ يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ هَذا لا يُساوي كَذا، أَيْ لا يُعادِلُهُ، ومَكانٌ سوًى، أَيْ مَعْلَمٌ قَدْ عَلِمَ القَوْمُ الدُّخولَ فيه والخُروجَ مِنْهُ(2)، والسَّويُّ يقال فيما يصان عن الإفراط، والتّفريط من حيث القدر، والكيفيّة، قال تعالى: ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ [طه: 135]، ورجل سويّ: استوت أخلاقه وخلقته عن الإفراط والتّفريط(3).

والصّراط السّويّ في الآية: المستوي الّذي لا عِوَج فيه ولا عَيْب(4).

المَعنى الإجماليُّ:

دعوة الخليل أباه إلى طريق الهداية المستقيم

قال إبراهيم ﷺ لأبيه: يا أبت، إنّ اللّه أعطاني من العلم عن طريق الوحي ما لم يعطك، فاقبل منّي، واتّبعني إلى ما أدعوك إليه، أرشدك إلى الطّريق السّويّ الّذي لا تضلُّ فيه، وهو: عبادةُ اللّه وحده لا شريك له، وطاعتُه في جميع الأحوال(5).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 205.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(3) الراغب، المفردات: (سوي).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4648.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى لطف خطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه ولينه فيه؛ فإنه لم يقل له: (يا أبت أنا عالمٌ، وأنت جاهلٌ)، أو: (ليس عندك من العلم شيءٌ)، وإنما أتى بصيغة تقتضي أنَّ عندي وعندك علمًا، وأنَّ الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي لك أن تتَّبع الحُجَّة وتنقاد لها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ تكرار النّداء ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾:

التـلـطّـف في الـخـطـاب استنزالًا لقبول الموعظة

تكرّر النداء بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مرّة بعد مرّة، وهو تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة؛ لأنّها مقام إطناب، ونظير ذلك بتكرير لقمان قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ [لقمان: 13، 16، 17] ثلاث مرات، وهو بخلاف قول نوح لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42] مرة واحدة دون تكرير؛ لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز[2].

نكتة توالي المؤكدات في الآية:

تنزيل غير المُنكِر منزلة المُنكِر إذا اقتضى السياق التأكيد

أُكّد الكلام في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ بمؤكّدَيْن هما: حرف التوكيد ﴿إِنِّي﴾، وحرف ﴿قَدۡ﴾ الّذي يفيد التَّحقيق بدخوله على الماضي؛ تنزيلًا للمخاطَب غير المُنْكِر منزلة المُنْكِر إذا اقتضى السياق التأكيد، فيؤكد له الكلام تأكيده للمنكر، وغير المنكر يشمل خالي الذهن من الحكم، والمتردد، والعالم به من غير إنكار ولكنه لا يعمل به[3]، فأكّد إبراهيم عليه السلام لأبيه أنَّ الله قد آتاه علم الوحي والنبوة ليستميله إلى قبول النُّصح، فأحقّيَّة العالم بأن يتبع مركوزة في غريزة العقول[4].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.
(3) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 47.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.

دلالة ﴿قَدۡ﴾ وصيغة الماضي في الآية:

تأكيد تفضيل الله لإبراهيم عليه السلام بالوحي والنبوّة

جاء الفعل ﴿قَدۡ جَآءَنِي﴾ بصيغة الماضي المصحوب بـ﴿قَدۡ﴾، فيؤتى بقد لأنّها تدلّ على تحقيق أمر متوقع، كما أنّ الإِخْبارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي تحقّق الخبر، ويقتضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا عَلى ذَلِكَ الإِخْبارِ[1]، فأكّد إبراهيم عليه السلام لأبيه أنّ اللّه قد آتاه علم الوحي والنبوّة، وهو حقيق بأن يتّبع، وهذا قصد قبول النصح.

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

أحقية العالم بالاتّباع مركوزة في غريزة العقول

تقدّم الجارّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ على الفاعل ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ للاهتمام بالعلم في حدّ ذاته، فإخبار إبراهيم عليه السلام بما عنده من العلم دليل على أنّ أحقّية العالم بأن يُتَّبع مركوزة في غريزة العقول، ولم يزل البشر يتقَصَّوْنَ مظانّ المعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتّقاء ما يضرّ، قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: 43][2].

معنى حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في الآية:

تواضع إبراهيم عليه السلام لأبيه رجاء استجابته

أوثِرَ في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ استعمال حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ الّتي تدلُّ في هذا السّياق على التّبعيض، أي بعض العلم، وفي ذلك تواضع من الخليل عليه السلام، فلم يَرْمِ أباه بالجهل، وقد منعه الخُلُق الودود من ذلك، بل قال له: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ والمعرفة ﴿مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، فتعفّف عن أن يرميَهُ بالجهل، وتعفَّفَ عن ادّعاء العلم الكامل حتَّى لا يكون مستطيلًا بفضل علمه على أبيه ومستعليًا عليه، وذلك أدعى أن يقبل منه أبوه النَّصيحة[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4648.

نكتة التعبير بـ﴿مَا﴾ في الآية:

دلالة (ما) على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل

عُبِّرَ في قوله: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ بلفظ ﴿مَا﴾، ويحتمل فيها أن تكون موصولة كما يحتمل أن تكون نكرة موصوفة[1]، وهي تقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات من يعقل، وهي أوسع استعمالاً مِنْ (مَنْ) وأكثر إبهامًا منها، وبناء (ما) يوافق استعمالها المتسع فإنَّ مَدَّةَ الألف المتسعة في آخرها تشاكل الاتّساع في معناها[2]، وهي ترجع في هذه الآية إلى ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ فاستعملت للدّلالة على غير العاقل.

دلالة الفاء وبلاغة الأمر في الآية:

ارتباط الهداية باتّباع العالم الربّاني

جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ فعل الأمر ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ مقرونًا بفاء تسمّى الفاء الفصيحة؛ وذلك لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: (إذا كنتُ قد أوتيتُ هذا العلم الذي لم تُؤتَه فاتبعني أهدك الطريق المستقيم)[3]، كما يتْبَعُ السَّائرُ في طريق لا يعلمه الرائدَ الخِرّيتَ العارِفَ، وغَرَضُ الأمرِ هنا النُّصحُ والإرشادُ؛ رغبة في نجاة والده من عاقبة الشِّرْكِ وعبادَةِ الأوثان.

بلاغة الاستعارة في الآية:

تجسيد الهداية في طريق محسوس

يتضمّن قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ صورة بيانية، وهي استعارة مَكْنية، إذ شُبِّهَ إبراهيم ﵇ بهادي الطّريق البصير بالثّنايا، وإثبات الصّراط السوي قرينة التشبيه، ويمكن أيضًا اعتبارها استعارة تصريحيّة، وذلك بأن شَبَّهَ الاعتقادَ الموصِلَ إلى الحَقِّ والنَّجاةِ بالطريق المستقيم المبَلِّغ إلى المَقْصود[4]، فحذف المشبّه وصرّح بالمشبّه به وهو الصّراط.

---

(1) الزمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 20.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4648.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.

صراط الهداية عظيم موصل إلى الفوز

عموم الدّلالة في السّبيل وكثرة استعمالاتها المجازية

أحسن الطرق ما كان جادة

دلالة لفظ ﴿صِرَٰطًا﴾ وتنكيره:

أوثِرَ في قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ التعبير بلفظ ﴿صِرَٰطًا﴾، وهو بمعنى الطريق، وأصل الكلمة بالسين لأنّه من الاستراط بمعنى: الابتلاع، فالسّراط يسترط السَّابلة والمارّة[1].

وقد جاء نكرة، والنّكتة البلاغية في ذلك أنَّ التّنكير يدلُّ على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنّ من أراد أن يعظّم شيئًا أبهمه بحيث لا يكتنه وصفه، وتذهب النّفس فيه كلّ مذهب، فصراط الهداية عظيم موصِلٌ إلى الفوز والسّعادةِ الأبديَّة.

دلالة وصف الصّراط بقوله: ﴿سَوِيّٗا﴾:

ورد في قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ التّعبير بلفظ ﴿سَوِيّٗا﴾ وصفًا للصّراط، ومعنى السّويِّ: المستوي الّذي لا عِوَجَ فيه ولا عَيْب[2]، وأحسن الطّرق الّذي يكون مستقيمًا، وهو الجادَّةُ لأنَّهُ باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضلّ فيه سالكه ولا يتردّد ولا يتحيّر، وهو هنا مستعار للحقّ البيّن الّذي لا تخالطه شبهة باطل، والاعتقاد الموصل إلى الحقّ والنّجاة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّراط والسبيل والطّريق:

تشترك ألفاظ الصّراط والسّبيل والطّريق في الدّلالة على المسلك، وتفترق في أصل الاشتقاق، فالصّراطُ مُشْتَقٌّ مِنْ (سرَطَ) بمعنى ابتلع؛ لِأَنَّ الذَّاهبَ فيه يَغيبُ غَيْبَةَ الطّعام المُستَرَطِ[4]، والسّبيل مأخوذ من امتدادِ الشَيء طولًا، وهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ

(1) الواحدي، البسيط: 1/ 522.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4648.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرط).

لِامتِدادِه[1]، وأمَّا الطريق فهو فعيل بمعنى مفعول، يطرقه النَّاس بأقدامهم، وقد فرّق بعض العلماء بينها بأنَّ السّبيل أعمُّ دلالة من الصّراط والطّريق، فهو اسم يقع على ما يقع عليه الطّريق وعلى ما لا يقع عليه الطّريق، تقول: سبيل الله وطريق الله، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا، ولا تقول طريقك أن تفعل، كما يمكن التفريق بينهما بأنَّ السّبيل أغلب وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسم الطريق يراد به الخير إلا مقترنا بوصف أو إضافة تخلّصه لذلك[2]، ويمكن أن يقال أيضًا: إنَّ السّبيل تَرِدُ في استعمالات مجازية أكثر من الطريق، فيطلق السبيل على الحيلة نحو قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾ [الشورى: 46]، والحَرَج نحو: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾ [الشورى: 41]، والحجّة نحو: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141]، واللّوم والعتاب نحو: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: 75]، فلفظ السّبيل أوسع الثّلاثة دلالة وأكثرها استعمالًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).
(2) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 313.

﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾

[مريم: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَهْيُ الخليلِ أباه عن عبادة الشيطان

لمَّا بيّن إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر أنّه لا نفع فيما يعبده، ونبّهه على الوصف المقتضي لوجوب الاقتداء به، بيّن له ما في عبادة معبوده من الضرّ، ونفّره عن عبادة الشّيطان(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَصِيّٗا﴾: صيغة مبالغة على وزن فعيل من الفعل عصى، إذا خرج عن الطاعة، وعَصا أيضًا؛ إذا صَلُبَ واشتدّ، واستعصى عليه الشيءُ: اشتدَّ، واختلفوا في أصله فقيل: أصله أن يتمنّع بِعَصاهُ، وقيل: أصله الصلابة وعدم الانثناء أو الانقياد، والعاصي: الفَصيلُ إذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعِها(2).

ومعنى وصف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ بـ﴿عَصِيّٗا﴾ في الآية هو الدّلالة على عتوّ الشّيطان في العصيان، وأنّه ملازم لهذه الصفة، فلا جَرَمَ أنّه لا يأمر إلَّا بما ينافي الرّحمة، ويفضي إلى النّقمة(3).

المَعنى الإجْماليُّ:

عبادة الأصنام طاعة للشّيطان ومعصية للرحمن

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: يا أبت، لا تطع الشيطان فتعبد هذه الأصنام؛ إنَّ الشيطان كان للرحمن مخالفًا مستكبرًا عن طاعة اللّه(4).

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ من اتَّبع خطوات الشَّيطان فقد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 205.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 117.
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.

اتخذه وليًّا، وكان عاصيًا لله بمنزلة الشيطان، وأنَّ في ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أنَّ المعاصيَ تمنعُ العبدَ من رحمة الله، وتُغلق عليه أبوابَها، كما أنَّ الطاعة أكبرُ الأسباب لنيلِ رحمةِ الواسع الوهَّاب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ تكرار النداء بلفظ ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ في الآية:

التلطّف في الخطاب استنزالًا لقبول الموعظة

تكرّر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ النداء بقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ مرّة بعد مرّة، وهو تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب، ونظير ذلك بتكرير لقمان قوله: ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾ [لقمان: 13، 16، 17] ثلاث مرات، وهو بخلاف قول نوح لابنه: ﴿يَـٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42] مرّة واحدة دون تكرير؛ لأنّ ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز[2].

دلالة النّهي في الآية:

صيغة النّهي تفيد التّحريم

ورد أسلوب النّهي في قوله ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾، والأصل في صيغة النّهي أنّها تفيد التّحريم الا إذا وجدت قرينة تصرفه عن التحريم إلى غيره[3]، والنّهي مفيد لوجوب الترك، فدعا إبراهيم عليه السلام أباه إلى ترك عبادة الأصنام الّتي لا تنفعه شيئًا بل تضرّه وتجلب العذاب له، كما يدلّ النّهي على بطلان عبادة ما سوى الله؛ لأنّ النّهي يقتضي البطلان والفساد.

سرّ العدول عن (الأصنام) إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾:

النفرة من الشّيطان مستقرّة في النّفوس

يظهر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ العدول عن لفظ (الأصنام) إلى لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾؛ لأنَّ المراد بعبادة الشّيطان عبادة

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.
(3) ابن قدامة، روضة الناظر، ص: 202.

الأصنام، ونسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقرّرة في نفوس البشر، ففي الكلام إيجاز معناه: لا تعبدِ الأصنام؛ لأنَّ اتخاذها من تسويل الشّيطان للّذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتها من وساوس الشّيطان للّذين سنوا سنن عبادتها، ومن وساوسه للنَّاس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالا معلوما، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾ [النساء: 117]، وفي هذا تبغيض لعبادة الأصنام؛ لأنّ بغض الشيطان في قرارة نفوس النَّاس(1).

بلاغة المجاز في الآية:

إسناد الفعل إلى سببه من البلاغة

تضمّن قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ مجازًا عقليًّا، فقد جاء في الآية النّهي عن عبادة الشّيطان، والمقصود النهي عن عبادة الأصنام التي تَسَبّب الشيطانُ في إغواء بني آدم وإيقاعهم في جرم عبادتها، فهو مجاز عقلي بإسناد الفعل إلى سَبَبه، والعلاقة السببية.

نوع (أل) في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ ودلالتها:

دلالة تعريف الجنس على العموم

جاء لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ معرَّفًا باللّام، ويمكن أن تكون (أل) هنا لتعريف الجنس، فيقتضي عموم الشياطين، والظَّاهر أن تكون (أل) فيه للعهد، أي الشّيطان المعهود وهو إبليس؛ لأنّ جميع المعاصي بتزيين هذا الشّيطان، والمزيّن يجري مجرى الفاعل له، وتدخل ذرّيّته فيه تبعًا(2).

دلالة فصل الجملة في الآية:

تعليل النّهي عن عبادة الشّيطان

وردت الجملة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ مفصولة عن الجملة قبلها وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾؛ لشبه كمال الاتّصال، وهو كون الجملة الثانية قويّة الارتباط بالأولى؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 116.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 1/ 94.

لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فتُفصل عنها كما يُفصل الجواب عن السّؤال[1]، وفي هذه الآية جاءت جملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ تعليلًا للنهي عن عبادته وعبادة آثار وسوسته وهي الأصنام، فالعلّة كونه شديدَ العصيان للربّ الواسع الرحمة[2].

نكتة تتابع المؤكدات في الآية:

تنزيل غير المنكر منزلة المنكر إذا اقتضى السّياق التأكيد

تتابع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ عدّة مؤكدات، فافتتحت الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ الّتي هي أمُّ باب التّوكيد، ثمّ توسّطها الفعل ﴿كَانَ﴾ الدَّال على الدّوام والاستمرار ورسوخ الصفة، والنّكتة في ذلك المبالغة في تأكيد شدّة عصيان الشّيطان للرّحمن ﷻ[3].

دلالة وضع المظهر موضع المضمر في الآية:

زيادة التنفير من الشيطان الرّجيم

تضمّن قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ أسلوبًا بلاغيًّا يتمثّل في وضع المظهر موضع المضمر، وذلك في تكرار ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ باللفظ دون الضمير العائد إليه، فكان الظَّاهر في غير القرآن: (لا تعبد الشيطان إنّه كان للرحمن عصيًّا)، وذلك يُفيد زيادة التّنفير من الشيطان؛ لأن في ذكر صريح اسمه تنبيهًا إلى النّفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها[4].

نكتة دخول ﴿كَانَ﴾ على خبر ﴿إِنَّ﴾ في الآية:

عصيان الرّحمن صفة راسخة مستمرّة في الشّيطان

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ استعمال الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾، الّذي يأتي في الأصل للاتّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنّه يخرج لدلالة الدّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)، فتختص كان بمرادفة لم يزل كثيرًا، أي: إنّها تأتي

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 117.
(3) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 47.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 117.

دالة على الدّوام[1]، وهي الدّلالة المقصودة في هذه الآية، فعصيان الشّيطان للرحمن ﷻ قديم مستمرّ في خلقته، وهي متقرّرة من وقت نشأة آدم عليه السلام، حيث عصى الشيطان ربّه في السجود لآدم عليه السلام.

وجهُ تقديم شبه الجملة في الآية:

جرم العصيان يعظم على قدر عظمة الآمر

تقدّم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ شبه الجملة ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ على خبر ﴿كَانَ﴾، والنكتة البلاغيّة في ذلك هي الاهتمام والتعظيم لقدر من عُصيَ وهو الرّحمن، فجُرم العصيان يعظم على قدر عظمة الآمر، فكيف بمعصية الرّحمن المستحقّ للشّكران لا العصيان.

نكتة التّعبير بصفة ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ في الآية:

شقاوة الشيطان بعصيان الرّحمن المستحق للعبادة والشكران

ورد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ التّعبير بصفة (الرحمن) دون غيرها من صفات اللّه تعالى، وذلك للتّنبيه على سعة رحمته سبحانه، وأنَّ مَن هذا وصفه هو الذي ينبغي أن يُعبد ولا يُعصى، وإعلامًا بشقاوة الشيطان إذ عصى من هذه صفتُه، وارتكب من ذلك ما طرده من هذه الرحمة، وإنْ كان مختارًا لنفسه عصيان ربّه لا يختار لذرّيّته إلا ما اختار لنفسه من العصيان[2]، وكذلك فيه التّنبيه على أنَّ عبادة الأصنام توجب غضب الرّحمن فتفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كانت هذه حاله فهو جدير بألَّا يُتّبع[3].

دلالة صيغة ﴿عَصِيّٗا﴾ في الآية:

رسوخ صفة العصيان في الشّيطان

أطلِق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ وصف ﴿عَصِيّٗا﴾ على الشّيطان، وقد جاء على وزن (فعيل)، وهو من صيغ المبالغة من اسم الفاعل؛ للدّلالة على عتوّ الشيطان في العصيان، وأنّه ملازم لهذه الصفة وأنّها راسخة فيه، فلا جرم أنه لا يأمر إلا

(1) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 229.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 117.

بما ينافي الرحمة، ويفضي إلى النقمة[1]، كما أنّه اقتصر على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته؛ لأنّه ملاكها أو لأنّه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام فتذكيره داع لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الشّيطان والجنّ:

شيوع لفظ الشّيطان في الكفرة من الجنّ

يظهر الفرق بين لفظي (الشّيطان) و(الجنّ) في أصل الاشتقاق، وفي علاقة العموم والخصوص بينهما، فالشيطان مشتقّ من (شطن) بمعنى بَعُد عن الخير، أو من (شاط) بمعنى احترق وهلك، أمَّا الجنّ فهو مشتق من الاجتنان بمعنى الاستتار والاختفاء.

وأمَّا علاقة العموم والخصوص بينهما، فإنَّ العرب تسمّي كلّ عاتٍ متمرّد من الجنّ والإنس والدوابّ شيطانًا، والعرب تسمي الحيّة شيطانا[3]، فالشياطين من الجنّ متمردوهم وأشرارهم، كما أنَّ شياطين الإنس هم متمردو الإنس وأشرارهم، وفيهم المسلمون من الأخيار الطيبين، كما في الإنس أخيار طيبون، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112]، ولقد قال النبيّ ﷺ: "الكَلْبُ الأَسْوَدُ شيطانٌ"[4]، كما يظهر الفرق بين الجنّ والشياطين في قول الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: "والجِنُّ عندَ أهلِ الكلام وأهلِ العِلم باللِّسانِ يُنَزَّلونَ على مراتِب، فإذا ذَكَروا الواحِد من الجنِّ خالِصًا، قالوا: جِنّيٌّ، فإن أرادوا أنَّهُ مِمَّن يسكُنُ مع النَّاسِ، قالوا: عامِرٌ، والجمعُ عُمَّارٌ، وإن كان مِمَّن يعرِضُ للصِّبيانِ، قالوا: أرواحٌ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 117.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 415.

(3) الجوهري، الصحاح: (شطن).

(4) رواه مسلم في صحيحه الحديث رقم: (510).

فإن خبُثَ وتَعرَّمَ فهو شيطانٌ، فإن زادَ على ذلكَ فهو مارِدٌ، فإن زادَ على ذلكَ وقوي أمرُهُ، قالوا: عِفريتٌ، والجُمعُ عَفاريتٌ"[1].

وهذا التفريق هو قول أكثر أهل العلم، وروي خبر عن الضحَّاك عن ابن عباس: أنَّ الجنَّ هم ولَدُ الجان وليسوا بشياطين، وهم يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولَدُ إبليس لا يموتون إلَّا مع إبليس[2].

(1) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 7/ 267، والشبلي، آكام المرجان في أحكام الجانّ، ص: 25.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 05.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ [مريم: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

موالاةُ الشَّيطان تؤدّي إلى عذاب الرّحمن

لـمَّا قرر الخليل ﷺ لأبيه أن عبادته الأصنام اتّباع لأمر الشيطان عَصيّ الرّحمن، انتقل إلى توقّع حرمانه من رحمة اللّه بأن يحلّ به عذاب من اللّه، ويصير من أولياء الشّيطان(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمَسَّكَ﴾: المسّ معنى يدلّ على اللمس ثم استعير للأَخذ والضَّرْبِ لأَنّهما باليَد، واسْتُعير لِلْجماعِ لأَنّه لَمسٌ، وللجُنون كأَنّ الجِنَّ مَسَّتْه؛ يُقالُ: بِه مَسٌّ مِنْ جُنونٍ(2)، والمسّ كاللّمس لكن اللّمس قد يقال لطلب الشّيء وإن لم يوجد(3)، والمسّ يُقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى كالعذاب والنفحة منه، والنَّار، والسّوء، والشَّرّ، والضُّرّ، والطائف الشّيطاني، واللُّغوب، والنَّصَب، فيكون معنى (المسّ) في الآية إصابة العذاب(4).

2) ﴿وَلِيّٗا﴾: (وَلِيَ) الشيءَ ووَلِيَ عليْه وِلايةً ووَلايةً، والوَلاية والوِلاية النُّصرة، وقالَ سيبَوَيْه: الوَلاية، بِالفَتْحِ المَصْدَرُ، والوِلاية، بِالكَسْر، الاِسْمُ، مِثْلُ الإمارة والنِّقابة(5)، والوَلْيُ: القربُ والدُّنُوُّ(6)، والوَلاءُ والتَّوالي ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النّسبة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 117.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(3) الراغب، المفردات: (مسس).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مسس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(6) الجوهري، الصحاح: (ولي).

ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنّصرة والاعتقاد[1]، وولاية الشّيطان في الآية كناية عن المقارنة في المصير[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

التّحذير من عذاب الله وبئس المصير

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: يا أبت، إن أنت بقيت على شركك وكفرك ولم تتب منهما، إني أخاف أن تموت على كفرك، فيمَسَّك عذاب من الرحمن، فتكون قريبًا من الشيطان، قرينًا له في جهنم فتهلِك وتخسر[3].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تدرج الخليل عليه السلام في دعوة أبيه، بالأسهل ثم الأسهل، من العلم، والاتّباع والطاعة، والنَّهي عن عبادة الشيطان، وما في ذلك كلِّه من المضارِّ بمنازله الذميمة، ومراتعه الوخيمة، ثم انتهى إلى تحذيره عقابَ اللّه ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليًّا للشيطان[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة تكرار النداء ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾:

التلطف في الخطاب استنزالٌ لقبول الموعظة

تكرَّر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ النّداء بقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ مرَّة بعد مرَّة، وهو تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة لأنّها مقام إطناب، ونظير ذلك بتكرير لقمان قوله: ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾ [لقمان: 13، 16، 17] ثلاث مرات، وهو بخلاف قول نوح لابنه: ﴿يَـٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42] مرّة واحدة دون تكرير لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز[5].

دلالة استهلال الخبر بحرف التّوكيد ﴿إِنِّيٓ﴾:

استهلّ الخبر في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ

(1) الراغب، المفردات: (ولي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 118.
(3) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 311، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.

تنزيل غير المُنكِر منزلة المُنكِر إذا اقتضى السّياق التّأكيد

﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بـ (إنَّ) الّتي هي أمّ باب التّوكيد، والنكتة في ذلك تأكيد إبراهيم عليه السلام لأبيه خوفه ألّا يُؤمن وأن يتمادى على الكفر، فيمسَّه العذاب، فخوّفه إبراهيم عليه السلام سوء العاقبة وتأدَّب معه إذ لم يصرّح بلحوق العذاب به بل أخرج ذلك مخرج الخائف.

وكذلك يدلّ التّأكيدُ تنزيلَ المخاطب غير المنكر منزلة المنكر إذا اقتضى السّياق التّأكيد، فيؤكّد له الكلام تأكيده للمنكر، وغير المنكر يشمل خالي الذّهن من الحكم، والمتردّد، والعالم به من غير إنكار ولكنّه لا يعمل به[1].

إيثار التّعبير بالفعل المضارع ﴿أَخَافُ﴾:

التحذير من الاستمرار على الكفر

أوثِر في جملة: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ التّعبير بالفعل ﴿أَخَافُ﴾ بصيغة المضارع؛ وذلك لأنّ المُضارِع يُفيدُ وقوع الحدث في الحاضر والاستقبال، فدلّ ذلك على ترقّب نزول العذاب به جزاء شركه في الحال والاستقبال، وفي ذلك تهديد لأبيه بألّا يَأمَن عاقبة تماديه على الكفر فيمسّه العذاب إن استمرّ على كفره.

توجيه معنى الفعل ﴿أَخَافُ﴾ في الآية:

دلالة الخوف بين الظّنّ والعلم

قد اختلف العلماء في تحديد دلالة الفعل ﴿أَخَافُ﴾ في سياق الآية، فقال الفرَّاء رحمه الله: "أخاف: يريد: إنّي أعلم، وهو مثل قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا﴾ [الكهف: 80]، أي: فعلمنا"[2].

وقال الأكثرون: إنَّه محمول على ظاهره؛ لأنَّ التعبير بالخوف الدالِّ على الظنّ دون القطع تأدُّب مع الله تعالى بألَّا يثبت أمرًا فيما هو من تصرّف الله، وإبقاء للرّجاء في نفس أبيه لينظر في التخلّص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان[3].

(1) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 47.
(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 118.

والقول الأوّل إنّما يصح لو كان إبراهيم - صلوات اللّه وسلامه عليه - عالمًا بأنَّ أباه سيموت على الكفر، وذلك لم يثبت، فوجب إجراؤه على ظاهره؛ فإنّه كان يجوز أن يؤمن، فيصير من أهل الثواب، ويجوز أن يدوم على الكفر، فيكون من أهل العقاب، ومن كان كذلك، كان خائفًا لا قاطعًا[1].

بلاغة التّعبير بالمصدر المؤوّل في الآية:

زيادة المصدر المؤوّل على الصّريح ببيان الزمن

ورد في قوله: ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ استعمال الحرف المصدريّ ﴿أَن﴾، وهو يؤوّل مع فعله بمصدر صريح، والتّقدير: (يا أَبَتِ إنّي أَخافُ مسَّ عذابِ اللّه لك)، والنّكتة البلاغيّة في إيثار المصدر المؤوّل على الصّريح أنَّ المصدر المؤول يبيّن الزمن، فدلَّ قوله تعالى: ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ على الاستقبال، وفيه تهديد لأبيه بألّا يأمن عاقبة تماديه على الكفر.

نكتةُ إيثار الفعل ﴿يَمَسَّكَ﴾ دون (يصيبك):

المسُّ أقلُّ تمكُّنًا من الإصابة

أوثِر في قوله: ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ استعمال الفعل ﴿يَمَسَّكَ﴾ دون (يصيبك)، وقد ذهب بعض العلماء إلى التّفريق بينهما، فقالوا: إنَّ المسّ أقلُّ تمكُّنًا من الإصابة، وكأنّه أقل درجاتها[2]، ولعلّه يشهد لهذا التفريق سياق الرحمة في السورة كلها، ولقوله: ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فناسب ذكر صفة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تخفيف العذاب.

فائدة تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ في الآية:

تغير المعنى باختلاف الغرض من التنكير

جاء لفظ ﴿عَذَابٌ﴾ في جملة: ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ نكرة، وقد اختلف العلماء في دلالة التّنكير فيه، فقال بعضهم: تنكيره للتّعظيم بما أفاده من الفخامة الذاتية من كونه عذابًا، والفخامة الإضافية من كونه من الرّحمن[3].

(1) ابن عادل، اللّباب: 13/ 76.
(2) ابن المنير الإسكندري، الانتصاف من الكشاف: 1/ 407.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 267.

وقال بعضهم - وهو الراجح -: إنَّ تنكيره للتّقليل، بدلالة المقام، فهو مقام إظهار مزيد الشّفقة ومراعاة الأدب وحسن المعاملة، ويدلُّ كذلك عليه دلالة لفظ المسّ وإضافة العذاب إلى الرحمن[1].

نكتة تقييد العذاب بكونه ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

الرحمانية لا تنافي العذاب

ورد في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تقييد العذاب بكونه ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، فقال بعضهم: إنّه وإن كان عذابًا إلَّا أنّه مسّ رحمة، وأنّه ليس على وجه الانتقام، بل ذلك رحمة من اللّه تعالى على عباده، وتَنبيه على سبقِ الرّحْمة الغضبَ، وأنَّ الرحمانية لا تنافي العذاب.

وقال بعضهم - بناء على جعله التّنكير للتعظيم -: إنَّ ذكر الرحمن هنا للإشعار بأنّ وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب، كما في قوله ﷻ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6]؛ ولأنَّ العقوبة من الكريم الحليم أشدّ[2]، وللإشارة إلى أنَّ حلول العذاب بمن يحلُّ به ممّن شأنه أن يَرْحم، إنّما يكون لفظاعة جرم المعذَّب إلى حدٍّ أن يَحْرِمَه مِنْ رحمته مَنْ شَأْنُه سعة الرّحمة[3].

معنى الفاء في الآية:

تفريع موالاة الشيطان عن الاستمرار في عبادة الأوثان

اقترن الفعل ﴿فَتَكُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ بحرف الفاء، وهذه الفاء تُسَمّى فاءَ التفريعِ، وهي تفيد أنَّ الكلام بعدها مترتّب على الكلام الذي قبلها، فبصّر إبراهيم عليه السلام أباه بعاقبة من أُغْلِقت عليه أبواب التّوفيق، وسار في طرق الضلال ليكون مصيره الذلّ والهوان بعبادة الشيطان.

دلالة التّعبير بفعل الكون في الآية:

عُبّر في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ بالفعل ﴿فَتَكُونَ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 415.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 415.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 118.

التحذير من الاستمرار على الكفر وسوء عاقبته

بصيغة المضارع؛ وذلك لأنّ المُضارِع يُفيدُ وقوع الحدث في الحاضر والاستقبال، وفيه تهديد من الخليل لأبيه بأنّه قد ينزل به العذاب في الحال في الدّنيا أو في الاستقبال في الآخرة، ولن يجد ناصرًا يجيره من عذاب اللّه، وستؤول عاقبته إلى الخسران والخذلان من الشيطان.

سرُّ تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

اختصاص عبدة الأوثان بولاية الشيطان

تقدَّم في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ شبه الجملة ﴿لِلشَّيۡطَٰنِ﴾ على خبر الكون، والنّكتةُ البلاغيّة في ذلك هي الاختصاص، فأئمَّة علم المعاني يجعلون التّخصيص لازما للتقديم[1]، فهدّد إبراهيم عليه السلام أباه بأنّه سيصير وليًّا للشيطان خصوصًا إنِ استمرَّ في عبادته من دون الرحمن، ولن يغني عنه الشيطان من عذاب اللّه شيئًا.

بلاغة التعبير بلفظ الولاية في الآية:

ترتب عذاب الآخرة على ولاية الشّيطان في الدنيا

تضمّن قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ تهديدَ إبراهيم عليه السلام لأبيه بمصيره وليًّا للشيطان في حال استمراره في عبادة الأوثان، فقال بعضهم: إنَّه مجاز علاقته المسببيّة؛ لأنَّ الولاية سبب المعيّة، فأطلق اسم السبب على المسبَّب مجازًا[2]، والمعنى أنّه يصير قرينًا للشيطان، وقال بعضهم: إنّ الولاية كناية عن المقارنة في المصير[3]، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: (إني أخاف أن تكون وليًّا في الدنيا للشيطان فيمسّك في الآخرة عذاب من الرحمن)، ويحتمل أن يكون مسّ العذاب في الدّنيا بأن يُبتلى على كفره بعذاب في الدّنيا، فيكون ذلك العذابُ سببًا لتماديه على الكفر وصيرورته إلى ولاية الشيطان إلى أن يوافي على الكفر والعياذ باللّه[4].

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.
(2) ابن عادل، اللّباب: 13/ 76.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 118.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 269.

بلاغة التّرقّي في حديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه:

حسن البيان في دعوة الوالد إلى عبادة الرحمن دون الأوثان

يظهر في هذه الآية وما قبلها بلاغة إبراهيم - صلوات اللّه وسلامه عليه - في نصحه لأبيه، فقد كان كلامه معه في غاية اللطف والأدب والحسن؛ كما أنّه رتّبه ترتيبًا بديعًا، فقد ذكر أولًا ما يدلُّ على المنع من عبادة الأوثان، ثم أمره باتّباعه في النّظر والاستدلال وترك التقليد، ثمّ ذكر أنَّ طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما ينبغي، ثم إنّه - صلوات اللّه عليه - أورد هذا الكلام الحسن مقرونًا باللطف والرفق؛ فإنَّ قوله في مقدِّمة كل كلامه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدّة الحب، والرغبة في صونه عن العقاب، وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ﴾؛ وذلك يدل على شدة تعلق فيه بمصالحه، وإنّما فعل ذلك قضاء لحقِّ الأبوَّة، والإرشادُ إلى الدّين من أعظم أنواع الإحسان، فإذا انضمّ إليه رعاية الأدب والرفق، كان نورًا على نور[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوف والخشية:

عموم الخوف وخصوص الخشية بالعلم

يتّضح الفرق بين الخوف والخشية أنَّ الخوف يتعلّق بالمكروه وبترك المكروه، تقول: خفت زيدًا، وكما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: 50]، وتقول: خفت المرض، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21]، أمَّا الخشية؛ فتتعلق بمُنْزِلِ المكروه، ولا يسمّى الخوف من المكروه نفسه خشيةً، ولهذا قال: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21]، إذ ذكر الخشية في جانبه سبحانه والخوف في جانب الحساب[2]، فيظهر بهذا أنَّ الخشية

(1) ابن عادل، اللّباب: 13/ 76.
(2) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 218.

أخصُّ من الخوف، وأعلى مقامًا منه؛ لأنّها خوف مقرون بمعرفة، وقد لخّص الإمام ابن القيم رحمه الله الفرق بينهما بقوله: "الخوف اضطراب القلب، وحركته من تذكر المُخَوِّف، وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، والخشية أخصّ من الخوف؛ فإنَّ الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: "إني أتقاكم لله، وأشدّكم له خشية"[1]، فالخوف حركة، والخشية انجماع، وانقباض، وسكون"[2].

المسّ والإصابة:

المسُّ أقلُّ تمكُّنًا من الإصابة

ذهب بعض العلماء إلى عدم التفريق بين (المسّ) و(الإصابة)، ففي قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ﴾ [آل عمران: 120] قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمسّ والسيّئة بالإصابة؟ قلت: المسّ مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحدًا، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 50]، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: 79]، ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: 20 - 21]"[3].

ووافقه في ذلك ابن عاشور بقوله: "والمسّ: الإصابة، ولا يختص أحدهما بالخير والآخر بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالآخر في جانب السيئة، تفنّن"[4]، ولكن ذهب علماء آخرون إلى التفريق بين المسّ والإصابة، فقالوا: إنَّ المسّ

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1108).
(2) ابن القيّم، مدارج السالكين: 2/ 180.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 407.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 68.

أقل تمكُّنًا من الإصابة، وكأنَّه أقل درجاتها[1]، وقالوا بناء على هذا التفريق في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: 120] إنَّ اللّه تعالى ذكر المسّ في الحسنة ليبيّن أنّه بأدنى طروء للحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك بالسّيئة بلفظ الإصابة، وهي عبارة عن التّمكن؛ لأنَّ الشَّيء المصيب لشيء فهو متمكّن منه أو فيه، فدلَّ هذا المنزع البليغ على شدَّة العداوة؛ إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد، بل يفرحون بنزول الشّدائد بالمؤمنين، وهكذا هي عداوة الحسد في الأغلب، ولا سيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو مِلاك الدنيا والآخرة[2]، وهذا التفريق قويّ؛ لأنّ الأصل تغاير المعاني بتغاير المباني، كما أنّ في قول الزمخشريّ المتقدِّم ما يشعر بوجود الفرق بينهما؛ لأنّه ذكر أنّ المسّ مستعار لمعنى الإصابة، فلا أقلّ من أن يقال: إنَّ الإصابة حقيقة والمسّ مجاز في قِلَّته، وهو فرق واضح بين اللفظين.

العذاب والعقاب:

عموم العذاب، واختصاص العقاب بالجزاء على ذنب

يظهر الفرق بين (العذاب) و(العقاب) أنَّ العقاب يقتضي بظاهره الجزاء على فعله المعاقب؛ لأنَّه من التعقيب والمعاقبة، وأصل العقاب التِّلْوُ وهو تأدية الأوَّل إلى الثَّاني، يقال عَقِبَ الثَّاني الأوّل إذا تلاه، وعَقِبَ الليل النهار، والليل والنّهار هما عقيبان، ويرتبط العقاب بالذنب، فإذا عَظُم الذّنب عظُمت العقوبة، وإذا صَغُر كان العقاب على قدره، ويوضح ذلك بجلاء قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126]، فيأمر اللّه المؤمنين بألَّا يزيدوا عمَّا فعلوه بهم[3]، أمَّا العذاب فليس كذلك فقد يكون نتيجة

(1) ابن المنير الإسكندري، الانتصاف من الكشاف: 1/ 407.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 498.

(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 281.

ذنب مرتكب، وقد لا يكون نتيجة عن ذنب؛ إذ يقال للظَّالم المبتدئ بالظلم: إنَّه معذِّب، وليس لذنب وإنَّما لمجرد التشهّي أو غير ذلك، فبينهما عمومٌ وخصوص[1]، وهذا الفرق يستقيم في عذاب البشر، أما في عذاب الله، فلا يكون عذابه سبحانه إلا عن استحقاق ذنب مرتكب.

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 365.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جواب القسوة والفظاظة على نصيحة اللطف والرّحمة

لمَّا وصل إبراهيم عليه السلام في مناصحة أبيه إلى هذا الحدّ من البيان، ردّ عليه أبوه مقابلًا لذلك الأدب العظيم بغاية الفظاظة والجهل منكرًا عليه جميع ما قاله في آلهته(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَاغِبٌ﴾: (رغب) أَصْلانِ: أَحَدُهُما طَلَبٌ لِشَيْءٍ والآخَرُ سَعَةٌ في شَيْءٍ، فالأَوَّلُ الرَّغْبَةُ في الشَّيْءِ: الإِرادَةُ لَهُ، يقال: رَغِبْتُ في الشَّيْءِ، فإِذا لَم تُرِدْهُ قُلْتَ: رَغِبْتُ عَنْهُ(2).

وقولهم: رَغِبَ فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنه اقتضى صرف الرّغبة عنه والزّهد فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130](3).

فمعنى ﴿أَرَاغِبٌ﴾ في الآية: أتاركها أنت وتارك عبادتها(4).

2) ﴿تَنتَهِ﴾: (نهي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على غايَةٍ وبُلوغٍ، ومِنْهُ أَنْهَيْتُ إِلَيْه الخَبَرَ: بَلَّغْتُه إيَّاهُ، ونِهايَةُ كُلِّ شَيْءٍ: غايَتُهُ، ومِنْهُ نَهَيْتُه عَنْهُ، وذَلِك لِأَمرٍ يَفْعَلُهُ، فإِذا نَهَيْتَهُ فانْتَهَى عَنْكَ فتِلْكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ(5)، والانتهاءُ: الانزجار عمَّا نُهِيَ عنه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 207.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رغب).
(3) الراغب، المفردات: (رغب).
(4) الواحدي، البسيط: 14/ 255.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).

كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38] أي: بلغ به نهايته[1]، وأصلُ الانتهاء مطاوعة النهي بالتوقّف عمَّا نُهِيَ عنه[2]، فيكون معنى ﴿تَنتَهِ﴾ في الآية: تهديد الأب لإبراهيم عليه السلام بالتوقُّف عن شتم آلهته.

3) ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾: (رجم) أَصْلٌ يَدُلُّ على الرَّمي بِالحِجارَةِ[3]، والرِّجامُ: الحجارة، والرَّجْمُ: الرّمي بالرِّجامِ، يقال: رُجِمَ فهو مَرْجومٌ، قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: 116]، أي: المقتولين أقبح قتلة.

ويستعار الرّجم للرّمي بالظّنّ، والتّوهّم، وللشّتم والطّرد، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [الكهف: 22][4]، فيكون معنى ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ في الآية: إمَّا باللّسان يعني الشّتم والذمّ أو بالحجارة حتّى تموت[5].

4) ﴿وَٱهۡجُرۡنِي﴾: (هجر) أَصْلانِ: يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلى قَطيعَةٍ وقَطْعٍ، والآخَرُ على شَدِّ شَيْءٍ ورَبْطِه، فالأَوَّلُ وهو المقصود في الآية، الهَجْرُ: ضِدُّ الوَصْلِ، وكَذَلِكَ الهِجْرانُ، وهاجَرَ القَوْمُ مِنْ دارٍ إِلى دارٍ: تَرَكوا الأولى لِلثَّانيَةِ، كَما فعل المُهاجِرونَ حينَ هاجَروا مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدينَةِ[6].

ويطلق الهَجْرُ على مفارقة الإنسان غيره، إمَّا بالبدن، أو باللّسان، أو بالقلب[7]، والاستعمالات القرآنية للهَجر تقطع بأن الهَجْر ليس مجرد ترك سلبي، وإنّما هو عن حِدَّةٍ ومُغاضَبةٍ أو نحوها، فيكون المعنى المقصود في الآية: هجر الإبعاد والسخط[8].

5) ﴿مَلِيّٗا﴾: (ملي) أَصْلٌ يَدُلُّ على الزَّمَنِ الطَّويلِ، وأَقامَ مَليًّا؛ أَيْ: دَهْرًا طَويلًا، وتَمَلَّيْتُ الشَّيْءَ، إِذا أَقامَ مَعَكَ زَمانًا طَويلًا، والمَلَوانِ: طَرَفا اللَّيْلِ والنَّهارِ، والمُلاوَةُ: الحينُ[9]،

(1) الراغب، المفردات: (نهي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نهي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(4) الراغب، المفردات: (رجم).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 12.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(7) الراغب، المفردات: (هجر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هجر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).

والإملاءُ: الإمداد، وتملّيت دهرًا: أبْقيتُ، وتملّيتُ الثَّوبَ: تمتّعتُ به طويلًا، وتملَّى بكذا: تمتّع به بملاوة من الدّهر، ويقال: عشت مليًّا[1]، وسائر ما في القرآن من هذا التركيب فهو من الإملاء بمعنى: الإمهال والتّأخير[2]، فيكون معنى ﴿مَلِيًّا﴾: أي دهرًا طويلًا[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تهديد الأبِ إبراهيمَ عليه السلام بالرَّجم والطرد

قال أبو إبراهيم لابنه: أمُعْرِضٌ أنت عن عبادة آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته عن سَبِّها لأقتلنَّك رميًا بالحجارة، واذهب عني فلا تَلْقني، ولا تكلّمني زمانًا طويلا من الدّهر[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى سبق قَدَرِ الله تعالى بشقاوة والد إبراهيم وعدمِ انتفاعه بدعوة ابنه له، وإلى أنَّ من الجهل المفرط، والكفر الوخيم تبجُّحَ والده بآلهته التي هي من الحَجَر والأصنام، وتمدُّحه بعبادة الأوثان، ودعوته إليها، ولومه إبراهيم عن رغبته عنها[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ﴾ عمّا قبلها:

طريقة القرآن في حكاية المحاورات

جاء الفصل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾ عن الجملة السَّابقة جريًا على طريقة حكاية المحاورات بجمل مفصولة، فهو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنّه قيل: فماذا قال أبوه عند ما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقيل: قال مُصِرًّا على عناده مقابلًا الاستعطاف واللطف بالفظاظة والغلظة: أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتي يا إِبْراهيمُ[6].

---

(1) الراغب، المفردات: (ملي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملو).
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 07/ 270.
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 308.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 416.

وإنّما حُذف العاطف في أمثال هذا الأسلوب؛ كراهةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول؛ فإنّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التّنزيل، فلذلك فصلت جملة ﴿قَالَ﴾[1].

مقابلة اللّين والرّقة بالفظاظة والغلاظة

تفاوت الأسلوب بين كلام إبراهيم وكلام أبيه:

جاء جواب أبي إبراهيم: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ في ردّه على دعوة ابنه الذي دعاه إلى التوحيد، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان بالوعظ البليغ، وأورد كل ذلك مقرونًا باللطف والرفق، فقابله أبوه بجواب يضادُّ ذلك مقابلًا الاستعطاف واللطف بالفظاظة والغلظة بمنتهى الجفاء والعُنْجُهيَّة بعكس ما في كلام إبراهيم من اللّين والرقَّة، فقابل وعظه بالسفاهة إذ هدَّده بالضرب والشّتم، وقابل رفقه في قوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ بالعنف إذ لم يقل له (يا بني) بل قال له: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، فدلّ ذلك على أنه كان قاسيَ القلب، بعيد الفهم، شديد التصلّب في الكفر[2].

الإنكار على إبراهيم عليه السلام ترك عبادة الأوثان

بلاغة الاستفهام في الآية:

تضمّن قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾ أسلوب استفهام بحرف الهمزة في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾؟ وقد خرج هذا الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى بلاغي وهو الإنكار، بمعنى الإنكار على إبراهيم عليه السلام تجافيه عن عبادة أصنامهم[3].

أثر التخريج النحوي في ثراء المعاني

أوجه الإعراب في ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ ودلالتها:

جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾ الوصف قبل الضّمير، وقد اختلف النحاة في إعراب هذا النوع من الجمل،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 545، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 416.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 118.

فذهب بعضهم إلى اعتبارها جملة اسمية مركبة من مبتدأ وفاعل، سدَّ مسدَّ الخبر طردًا لقواعد التّركيب اللفظي، ولكنهم لما اعتبروا الاسم الواقع ثانيًا بعد الوصف فاعلًا سادًّا مسدَّ الخبر، فقد أثبتوا لذلك الاسم حكم المسند إليه، وصار للوصف المبتدأ حكم المسند، فمن أجل ذلك كان المصير إلى مثل هذا النظم في نظر البلغاء هو مقتضى كون المقام يتطلب جملة اسمية للدلالة على ثبات المسند إليه، ويتطلب الاهتمام بالوصف دون الاسم لغرض يوجب الاهتمام به، فيلتجئ البليغ إلى الإتيان بالوصف أولًا والإتيان بالاسم ثانيًا، ولمَّا كان الوصف له عمل فعله تعين على النحاة اعتبار الوصف مبتدأ؛ لأن للمبتدأ عراقة في الأسماء، واعتباره مع ذلك متطلبًا فاعلًا، وجعلوا فاعله سادًّا مسد الخبر، فصار للتّركيب شبهان[1].

وذهب فريق آخر - ومنهم الزمخشريُّ - في إعراب ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ إلى كون ﴿أَنتَ﴾ مبتدأ مؤخرًا، و﴿أَرَاغِبٌ﴾ خبرًا مقدمًا.

نكتة تقديم الوصف على الضمير ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾:

الاهتمام بأمر الرغبة عن الآلهة والتعجب من ذلك

تقدّم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي﴾ الوصف على الضمير، إذ قدّم أبو إبراهيم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي﴾، والغرضُ البلاغي من ذلك أنّه قدّم ما كان أهمَّ عنده، أي: إنَّ أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم عليه السلام تمكّن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأنّ آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد[2].

فائدةُ جمع الآلهةِ وإضافتها إلى ضمير المتكلِّم:

تضمَّن قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي﴾ إضافةَ أبي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 119.
(2) الزمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 20.

العنادُ بالافتخار بالشِّرك والانتساب إلى الأوثان

إبراهيم الآلهة إلى ضمير نفسه، وهي إضافةُ ولاية وانتساب إلى المضاف؛ لقصد تشريف المضاف إليه[1]، بمعنى أنّه يتشرّف بهذه الآلهة ويعتزّ بها، كما أنّه في ذكر (الآلهة) مجموعة دلالة على تعدد معبوده، وافتخاره بالشرك وكثرة الآلهة الّتي يعبدها.

نكتة تأخير النّداء عن الاستفهام في الآية:

المبالغة في الإنكار والتعجب بالنّداء والتنبيه

تأخَّرَ النّداء عن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؛ لمجيء النداء في قوله: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، تكملة لجملة الإنكار والتعجب، لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله، كأنّه في غيبة عن إدراك فعله، فالمتكلّم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه[2].

دلالة اللّام في ﴿لَئِن لَّمْ﴾:

القَسَم على رجم إبراهيم عليه السلام

جاءت في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ جملة ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ مستأنفة مصدَّرة بحرف اللّام، وتسمَّى هذه اللّام باللّام الموطّئة للقَسَم، ومعنى ذلك أنّه لولا هذه اللّام لم يُعلم أنَّ في الكلام قَسَمًا مقدَّرًا، فقد مهّدت له الجواب ولذا تسمّى ممهّدة ومُؤذنة[3]، والغرضُ البلاغي من هذه اللّام هو المبالغة في تأكيد كونه راجمَه إن لم يَنْتَهِ عن كفره بآلهتهم.

نكتة التعبير بالفعل ﴿تَنتَهِ﴾ في الآية:

إطلاق الانتهاء على الكفّ والإقلاع

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ التعبير بالفعل ﴿تَنتَهِ﴾ من الانتهاء، والانتهاء: أصله مطاوع نهى، يقال: نهاه فانتهى ثم توُسِّعَ فيه فأطلق على الكفّ عن عمل، أو عن عزم؛ لأنَّ النّهي هو طلب ترك فعل سواء كان الطلب بعد تَلَبُّسِ المطلوب

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 119.
(3) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 173.

بالفعل أو قبل تَلَبُّسِه به[1]، وقد ورد الفعل ﴿تَنتَهِ﴾ مجزومًا؛ لأنّه فعل الشرط، ومعنى الشرط أن يتوقّف وقوع الثاني على وقوع الأول، فإذا وقع الأول وقع الثاني، فهدّد أبو إبراهيم ابنه بالرجم إن لم ينته.

بلاغة حذف المتعلّق في ﴿تَنتَهِ﴾:

جوازُ حذف ما يعلم وبلاغته

حذف في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ متعلّق الفعل ﴿تَنتَهِ﴾ لنكتة الإيجاز، وذلك لكونه معلومًا من سياق المحاورة بين الابن وأبيه، فيحتمل أن يكون المتعلّق: لئن لم تنته عن مخاطبتي بما خاطبتني به ودعوتني إليه، أو أن يكون: لئن لم تنته عن الرغبة عن آلهتي لأرجمنّك[2].

إيثار الفعل ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ في الآية:

شيوع الرجم في القتل بالحجارة

أوثِرَ في قوله حكاية: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ التعبير بالفعل ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾، دون غيره من الأفعال المقاربة في المعنى، نحو: (لأقتلنَّك)، ومعنى الرّجم الرمي بالحجارة، وهو كنايةٌ مشهورة في معنى القتل بذلك الرمي[3]، وقيل: إنَّ الرجم هنا معناه بالقول، أي لأشتمنّك باللسان[4]، والأوّل أظهر.

نكتةُ إسناد الرجم إلى ضمير المتكلّم:

تولّي الأب الرّجم بنفسه أو الأمر به

تضمّن قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ إسناد أبي إبراهيم الرّجم إلى نفسه، وهذا الكلام يحتمل الحقيقة إمَّا لأنّه كان من عادتهم أنَّ الوالد يتحكّم في عقوبة ابنه، وإمَّا لأنّه كان حاكمًا في قومه.

كما يحتمل المجاز العقلي الّذي علاقته السببية؛ إذ لعله كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 206.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 270.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 206.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 18.

كبيرًا في دينهم فيرجم قومه إبراهيم استنادًا لحكمه بمروقه عن دينهم[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي﴾:

زيادة الوعيد بعطف الهجران على عقوبة الرجم

ورد في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ استعمال حرف الواو الدالّ على العطف والاقتران، فجملة ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ معطوفة على جملة ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾؛ وذلك لأنّه هدّده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم وهي الرجم، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته[2].

إيثار التّعبير بفعل الهجر في الآية:

دلالة الهجر على قطع المكالمة وقطع المعاشرة

أوثِر في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ استعمال فعل الهجر في تهديد أبي إبراهيم لابنه بعد تهديده بالرجم، والهَجْرُ معناه قطع المكالمة وقطع المعاشرة، وإنّما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه، ولم يخبره بأنه هو يهجره، كأن يقول: (وأهجرنَّك)؛ ليدلَّ على أنّ هذا الهجران في معنى الطّرد والخلع إشعارًا بتحقيره[3].

دلالة تقديم التّهديد بالرّجم على الأمر بالهجران:

القتل رجمًا أبلغُ في التخويف والوعيد

تقدَّم في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ التّهديد بالرّجم على الأمر بالهجران؛ لأنّه أبلغ في التخويف والوعيد، ووجه ذلك: أنّه هدّده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته، كأنه قال: إن لم تنته لأقتلنّك بالرجم، ثم قال له: واهْجُرْني، أي مع انتهائك، كأنّه جزم له الأمر بالهجرة، وإلّا فمع الرّجم لا تترتّب الهجرة[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 120.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 18.

إعراب كلمة ﴿مَلِيًّا﴾ وتوجيهها:

المـلاوة للمدّة المديدة من الزمان

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ بلفظ ﴿مَلِيًّا﴾ ومعناه: طويلا، وهو بصيغة فعيل، فـ(مَلِيَ) مشتق من مصدرٍ مُماتٍ، وهو فعيل بمعنى فاعل؛ لأنّه يقال: أملى له، إذا أطال له المدة، فيأتون بهمزة التّعدية، ولفظ ﴿مَلِيًّا﴾ صفة لمصدر محذوف منصوب على المفعولية المطلقة، أي: هجرًا مليًّا، ومنه المُلاوة من الدّهر للمدّة المديدة من الزّمان، وهذه المادة تدلُّ على كثرة الشيء.

ويجوز أن ينتصب على الصّفة لظرف محذوف، أي: زمانًا طويلًا؛ بناء على أنّ المَلا مقصورًا غالبٌ في الزّمان، فذكره يغني عن ذكر موصوفه، كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ [القمر: 13]، أي سفينة ذات ألواح[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(الرغبة عن) و(الرّغبة في):

أثـر حروف المعاني في تضادّ الدّلالات

يتّضح الفرق بين تعدية مصدر الرغبة بـ (في) أو (عن) في الفرق بين معنيي حرفي الجرّ، فإنَّ (في) تدلُّ على الظّرفية، و(عن) تدلُّ على المجاوزة والمباعدة، ولهذا فقولهم: رَغِبَ فيه وإليه، يقتضي الحرص على الشّيء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عن الشّيء، اقتضى صرف الرّغبة عنه والزّهد فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130][2]، فهما بذلك متضادّان.

الرّجم والقتل:

عموم القتل وخصوص الرّجم في القتل بالحجارة

بين لفظي (القتل) و(الرّجم) عموم وخصوص، فالقتل عامّ في إزهاق الروح بأنواع مختلفة، وقيل هو نقض البنية الحيوانية، ولا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 120.

(2) الراغب، المفردات: (رغب).

يقال له قتل في أكثر الحال إلَّا إذا كان من فعل آدمي، وقال بعضهم القتل إماتة الحركة، ومنه يقال ناقة مُقَتَّلَةٌ، إذا كَثُرَ عليها الإتعاب حتى تموت حركتها[1]، وأمَّا الرّجم فهو قتل خاصّ رميا بالرِّجام، وهي الحجارة[2]، نحو قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: 116]، أي: المقتولين أقبح قتلة بالرمي بالحجارة حتى الموت.

الهجر والتّرْك:

التَّركُ مُفارَقةٌ دائِمةٌ، والهَجْرُ مؤقّت

بين لفظي (التّرْك) و(الهجر) عموم وخصوص، فالتّرك عامّ في مفارقة الشّيء على الدّوام، كما يطلق على رفض الشيء قصدًا واختيارًا أو قهرًا واضطرارًا فمن الأول: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ [الدخان: 24]؛ ومن الثّاني: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥﴾ [الدخان: 25][3].

أمَّا الهَجْرُ: فهو مفارقةُ الإنسانِ غيرَه، إمَّا بالبَدَنِ أو باللِّسانِ أو بالقَلْبِ[4]، مفارقةً مؤقّتة.

ومنه هجر الزوج امرأته في المضجع كما في قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34]، ومنه النهي عن هجر المسلم أخاه لأكثر من ثلاثة أيَّام، كما في حديث النبي ﷺ: "لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فوْقَ ثَلاثٍ، يَلْتَقِيانِ؛ فيَصُدُّ هذا، ويَصُدُّ هذا، وخَيْرُهُما الذي يَبْدَأُ بالسَّلامِ"[5]، فالتَّركُ مُفارَقةٌ دائِمةٌ، وأمَّا الهَجْرُ فلا يلزَمُ دوامُه، بل منه الهَجْرُ الوَقتيُّ.

مليًّا وطويلًا:

خصوص لفظ (مَليًّا) في طول الأزمان دون الأعيان

يتجلّى الفرق بين لفظي (مليٌّ) و(طويلٌ) في كون لفظ (الطّويل)

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 104.
(2) الراغب، المفردات: (رجم).
(3) الكفويّ، الكلّيات، ص: 298.
(4) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التعاريف، ص: 342.
(5) البخاري، صحيح البخاري رقم: (6237)، ومسلم، صحيح مسلم رقم: (2560).

صفة تستعمل في الدّلالة على امتداد الأعيان والمعاني عمومًا، في حين أنّ لفظ (مليًّ) اسم خاص بالزَّمن الطَّويل، فلا تطلق إلَّا بما تعلَّق بالأزمان[1]، بناء على أن المَلا مقصورًا غالب في الزّمان فذكره يغني عن ذكر موصوفه[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 130.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾

[مريم: 47]

وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمَّا هدَّد الأبُ ابنه الشفيق بالرَّجم والهجر، ردَّ عليه الابن مقابلًا ما كان من طيش الجهل بما يحقُّ لمثله من رزانة العلم، على سبيل الموادعة والمتاركة[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَٰمٌ﴾: (سلم) أَصْلٌ يدل على الصِّحَّةِ والعافيَةِ؛ فالسَّلامَةُ: أَنْ يَسْلَمَ الإِنْسانُ مِنَ العاهَةِ والأَذى، واللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هوَ السَّلامُ؛ لِسَلامَتِه ممَّا يَلْحَقُ المَخْلوقينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ[2]، وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، أي: نطلب منكم السّلامة[3]، والسّلام: التحية بمعنى السلامة، وسلّم عليه: قال له ذلك ودعا له به[4]، فيكون معنى ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ في الآية: تحيّة توديع ومتاركة[5].

2) ﴿حَفِيّٗا﴾: (حفي) ثَلاثَةُ أُصولٍ: المَنْعُ، واسْتِقْصاءُ السُّؤالِ، والحَفاء خِلافُ الانْتِعالِ، والمقصود هنا الأَصْلُ الثَّاني: فقَوْلُهُم حَفيتُ إِلَيْه في الوَصيَّةِ بالَغْتُ، وتَحَفَّيْتُ به: بالَغْتُ في إِكْرامِه، وحَفيَ فُلانٌ بِفُلانٍ يَحْفَى به حَفاوَةً إذا قامَ في حاجَتِه وأَحْسَنَ مَثْواه، وحَفا اللّه به حَفْوًا: أكرمه[6]، فمعنى الآية الكريمة: ثناءُ إبراهيم عليه السلام على ربّه بأنّه شديد البرّ والإلطاف به[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 207.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(3) الراغب، المفردات: (سلم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 121.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الهجر الجميل من إبراهيم الخليل

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: سلام عليك منّي فلا ينالك منّي ما تكره، وسوف أدعو اللّه لك بالهداية والمغفرة؛ فإنّ ربي لم يزل لطيفًا بي مكرمًا لي لا يخيِّبُني فيما أدعوه فيه[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى سلوك طريق النبي الكريم إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى اللّه، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي، وبخاصة أنَّ اللّه تعالى أمرنا باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته سلوك طريقه في البلاغ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة ﴿قَالَ﴾:

طريقة القرآن في حكاية المحاورات

فُصل قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ عن الجملة السَّابقة جريًا به على طريقة حكاية المحاورات بجمل مفصولة، فهو استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: (فماذا قال إبراهيم عليه السلام عندما هدده أبوه بالرجم والهجر؟) فقيل: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾، وإنّما حُذف العاطف في أمثال هذا الأسلوب كراهةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول؛ فإن المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التّنزيل، فلذلك فصلت جملة ﴿قَالَ﴾[3].

نكتة التنكير في لفظ ﴿سَلَٰمٌ﴾:

إعطاء إبراهيم عليه السلام لأبيه الأمان العامّ

جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ لفظ ﴿سَلَٰمٌ﴾ نكرة، والنُّكتة في تنكيره قصد العموم، أي عموم المسالمة من كلّ أذى،

(1) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 313، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 308.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

فأعطى إبراهيمُ عليه السلام لأبيه الأمان العام، فقال بأنّه لن يصيبه بمكروه، ولن يقول له بعدُ ما يؤذيه(1).

دلالة تقييد السّلام بـ﴿عَلَيۡكَۖ﴾ في الآية:

من الاستعلاء المكاني إلى الاستعلاء المجازي

تضمّن قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ تقييد السّلام بـ﴿عَلَيۡكَۖ﴾ مبالغة في اللطف بوالده، والاهتمام بشأنه، إذ استعمل (على) التي تدلّ في أصل اللغة على الاستعلاء المكاني، ولكنّها استعملت هنا للدّلالة على الاستعلاء المجازي، وهو تمكن السّلامة والأمان(2).

علّة فصل جملة ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ﴾:

فصل الجملتين لكمال الانقطاع بينهما

جاءت جملة ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ مفصولة عن الجملة التي قبلها ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾؛ لوجود كمال الانقطاع بينهما، وهو اختلاف الجملتين اختلافًا تامًّا بحيث لا تكون بين الجملتين مناسبة في المعنى ولا ارتباط، بل كلٌّ منهما مستقلّ بنفسه(3)، فبعد إعطاء أبيه الأمان استأنف، فوعده بالاستغفار له في المستقبل.

دلالة السين والمضارع في الآية:

تكرار استغفاره لأبيه في المستقبل حرصًا على هدايته

جاء استعمال الفعل المضارع ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ﴾ متّصلا بحرف السّين الدّالة على الاستقبال، فالتّعبير بالمضارع دون غيره من الأزمنة؛ لما يفيده المضارع من افتراض تكرر الحدث وتجدّده واستمراره(4)، وكذلك علامة الاستقبال (السّين) يؤذنان بأنّه عليه السلام سيكرّر الاستغفار لأبيه في المستقبل ما لم يُنْهَ عن ذلك، وهذا ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114]، واستغفاره له هو المحكي في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ [الشعراء: 86](5).

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 121.
(3) القزويني، الإيضاح: 3/ 107.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 121.

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

تخصيص الابن الشفيق أباه بالاستغفار

ورد تقديم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾؛ لنكتة بلاغية وهي الاختصاص، فأئمَّة علم المعاني يجعلون التّخصيص لازمًا للتّقديم[1]، بمعنى أنّ إبراهيم عليه السلام وعد أباه بالاستغفار له خصوصًا، وفي هذا إظهار حرصه على هداه، وطلب المغفرة له من هذا الكفر، بأن يهديه اللّه إلى التّوحيد الخالص، فيغفر له الشّرك الماضي[2].

إيثار لفظ الربّ ونكتة الإضافة فيه:

توحيدُ الخليل عليه السلام واعتزازه بربوبية الله له

ورد في قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ تعبير إبراهيم عليه السلام عن اللّه بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير المتكلم؛ للإشارة إلى انفراده عن أبيه وقومه بعبادة اللّه تعالى فهو ربّه وحده من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية اللّه إيّاه والتشريف لنفسه بذلك[3].

علّة فصل جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾:

فصل الجملتين لكمال الاتّصال بينهما

فُصلت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ عن الجملة السَّابقة وهي قوله تعالى: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾؛ لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجملتين اتحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تنزّل الثانية من الأولى منزلة نفسها[4]، وذلك لأنّها وقعت تعليلًا لما يتضمنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة؛ استجابة لدعوة إبراهيم بأن يوفّق اللّه أبا إبراهيم للتّوحيد ونبذ الإشراك[5].

---

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 121.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 121.
(4) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 121.

ثناء إبراهيم عليه السلام على ربّه الكريم

نكتة تتابع المؤكّدات في الآية:

استُهلّ الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ بحرف التّوكيد وبفعل الكون للاهتمام بتحقيقه زيادة في ثناء إبراهيم عليه السلام على ربّه عز وجل، وحسن الظنّ به، وشكر نعم اللّه عليه، فيخبر إبراهيم عليه السلام بأنّ اللّه سبحانه للطفه به وإنعامه عليه عوّده الإجابة، فإذا هو استغفر لأبيه حصل المراد، فكأنه جعله بذلك على يقين إن هو تاب أن يحصل له الغفران[1].

اهتمام اللطيف سبحانه بنبيّه إبراهيم عليه السلام

سرّ تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِي﴾ على خبر الكون ﴿حَفِيًّا﴾؛ لنكتة بلاغية وهي الاهتمام، فيثني إبراهيم عليه السلام على ربّه بأنّه عز وجل لطيف به بليغ في البِرّ والإكرام له، كما يفيد هذا التقديم رعاية الفواصل[2].

مبالغة الحفيّ في اللطف والإكرام

إيثار التّعبير بقوله ﴿حَفِيًّا﴾:

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ التّعبير بلفظ ﴿حَفِيًّا﴾، وقد جاء على وزن فعيل، وهو بمعنى فاعل مشتقًّا من حَفيَ به، مثل غَنيَ فهو غَنيٌّ، إذا أكثر السّؤال عن حاله تلطّفًا، ويقال أيضًا: أحفى فلان في المسألة بفلان؛ إذا لطف به وبالغ في الرِّفق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ [محمد: 37] أي: وإن لطفت المسألة، والمراد أنّه سبحانه للطفه به وإنعامه عليه عوّده الإجابة، فإذا هو استغفر لأبيه حصل المراد، فكأنّه جعله بذلك على يقين إن هو تاب أن يحصل له الغفران[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَفيُّ والبَرُّ:

يتّفق لفظا (الحفيّ) و(البَرّ) في الدلالة على الإحسان واللطف،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 547.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 419.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 547.

غير أنّ لفظ (الحفيّ) يزيد على لفظ (البَرّ) بالدلالة على شدّة المبالغة في البِرّ والإلطاف، فهو على وزن فعيل، وهو من أوزان المبالغة.

اختصاص (الحفيّ) بشدّة المبالغة في البِرّ والإلطاف

كما يظهر الفرق بينهما أنّ (البَرّ) من أسماء اللّه الحسنى بلا خلاف، فقد ورد اسم اللّه (البَرّ) في القرآن الكريم مرّة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: 28]، ومعنى (البَرّ) في حق اللّه ﷻ: اللّطيفُ بعباده، العَطوفُ عليهم، المحسِنُ إليهم، عمَّ ببِرِّه جميعَ خَلْقِه، فلم يبخَلْ عليهم برِزْقِه، وهو البَرُّ بأوليائِه؛ إذ خَصَّهم بولايتِه واصطفاهم لعبادتِه، وهو البَرُّ بالمحسِنِ في مُضاعفةِ الثَّوابِ له، والبَرُّ بالمُسيءِ في الصَّفحِ والتَّجاوُزِ عنه[1]، أمَّا (الحفيّ)؛ فقد خرج مخرج الإخبار عن اللّه ﷻ، وقد عدّه بعض العلماء من أسماء اللّه الحسنى، مع تردد في ذلك، لأنه إنمَّا ورد مقيَّدًا في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 591، والخطابي، شأن الدعاء: 1/ 89.

(2) ابن العثيمين، القواعد المثلى، ص: 16.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اعتزال المشركين في ذات ربّ العالمين

لـمَّا أمر الأب ابنه الخليل عليه السلام بهجره الزّمان الطّويل، أخبره بأنّه يتمثّل أمره ويعتزله وقومه ومعبوداتهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾: (عزل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَنْحيَةٍ وإِمالَةٍ، تَقولُ: عَزَلَ الإِنْسانُ الشَّيْءَ يَعْزِلُهُ، إِذا نَحَّاهُ في جانِبٍ، وهوَ بِمَعْزِلٍ وفي مَعْزِلٍ مِنْ أَصْحابِه، أَيْ في ناحيَةٍ عَنْهُم[2]، والاعْتِزالُ: تجنّب الشيء عمالة كانت أو براءة، أو غيرهما، بالبدن كان ذلك أو بالقلب، يقال: عَزَلْتُهُ، واعْتَزَلْتُهُ، وتَعَزَّلْتُه فاعْتَزَلَ، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: 16][3]، فيكون معنى ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ في الآية: أتنحّى عنكم وأفارقكم[4].

2) ﴿تَدۡعُونَ﴾: (دعو) أَصْلٌ يَدُلُّ على إِمالَةِ الشَّيْءِ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً[5]، والدّعاء هو التّضرّع إلى الله ﷻ في طلب أمر مثل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: 38] وهو كثير في القرآن، والدّعاء: العبادة؛ لأنّ العبادة تَقَرّب إلى المعبود، واعتزاء إليه، واستكفاء به، فهي من الجذب والانجذاب،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 12/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزل).
(3) الراغب، المفردات: (عزل).
(4) الواحدي، البسيط: 14/ 260.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

وكثير ما تصحبه عبارة: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، ومعنى (تدعون) في الآية: تعبدون من دون الله يعني: الأصنام[2].

3) ﴿شَقِيًّا﴾: (شقو) أَصْلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ، والشِّقْوَةُ: خِلافُ السَّعادَةِ، ورَجُلٌ شَقيٌّ بَيِّنُ الشَّقاءِ والشِّقْوَةِ والشَّقاوَةِ[3].

وكما أنّ السّعادة في الأصل ضربان: سعادة أخرويّة، وسعادة دنيويّة، كذلك الشّقاوة، فمن الشَّقاوَةُ الأخرويّة قوله ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: 123]، ومن الدّنيويّة قوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: 117][4]، ومعنى ﴿شَقِيًّا﴾ في الآية: لم أكن خائبًا ضائع السعي مثلكم في دعاء آلهتهم[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مفارقة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه والتعريض بشقوتهم

قال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه: أفارقكم وآلهتكم الّتي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربي مخلصًا، فرجائي في ربّي كبير عسى ألا يمنعني إذا دعوتُه، وألّا أشقى بعبادته، كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام[6].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ دعاءَ الخليل عليه السلام ربَّه شاملٌ لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، وإلى أنَّ وظيفة مَن أيس مِن دعاء قومه - واتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظُ، فأصروا في طغيانهم يعمهون - أن يشتغلَ بإصلاح نفسه، ويرجوَ القبولَ من ربه، ويعتزل الشر وأهله[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 208.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقو).
(4) الراغب، المفردات: (شقو).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 12.
(6) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 313، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾:

جمع إبراهيم عليه السلام بين الاستغفار والاعتزال

عُطف قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على جملة ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ بالواو الدَّالة على الجمع والاقتران، فجَمَعَ إبراهيمُ عليه السلام بين الاستغفار لأبيه والاعتزال لقومه، فخرج من بلد الكِلْدان - الذين عاشوا في العصور العتيقة من منطقة جنوب بلاد الرَّافدين - عازمًا على الالتحاق بالشام حَسَب أمر اللّٰه تعالى[1].

نكتة تلوين الخطاب في الآية:

التفات إبراهيم عليه السلام من خطاب أبيه إلى خطاب جميع قومه

تضمَّن قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تلوين الخطاب من المفرد إلى الجمع فانتقل إبراهيم عليه السلام من خطاب أبيه في قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ﴾ إلى خطابه جميع قومه بقوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾، والنُّكتة في ذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا رأى أنَّ هجرانه أباه وحده غير مغنٍ؛ لأن بقيّة القوم هم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعًا، ولذلك قال له: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾، وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى أبي إبراهيم وقومه؛ تنزيلًا لهم منزلة الحضور في ذلك المجلس، لأنّ أباه واحد منهم وأمرهم سواء، أو كان هذا المقال جرى بمحضر جماعة منهم[2].

إيثار الفعل ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ في الآية:

المفارقة في المكان والمفارقة في الدين

أوثِر في قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير بالفعل ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ خصوصًا لأنّ الاعتزال للشيء هو التّباعد عنه، فاعتزلهم إبراهيم عليه السلام في المكان بأن فارقهم من بلدة كوّثَى - وهي مدينة سومَرية قديمة تقع حاليًا في محافظة بابل في العراق، على الجانب الشَّرقي لنهر الفرات - فهاجر منها إلى الأرض

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

المقدسة، كما اعتزلهم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدّين والطّريقة أيضًا، فإنهم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك، فوجب عليه مجانبتهم[1].

كما أنّ مجيء الفعل ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ بصيغة المضارع بعد أن كان الفعل - في الآية السابقة - ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ﴾ بصيغة الاستقبال، الذي معناه أنَّ الاستغفار سيقع في المستقبل، غير أنّ اعتزاله لأبيه وقومه سيكون الآن؛ وذلك لأنّ المضارع غالب في الحال[2].

دلالة العطف في ﴿وَمَا تَدۡعُونَ﴾:

عطف الأصنام على حكم المفارقة والاعتزال

عُطف في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاسم الموصول ﴿وَمَا﴾ العائد على الأصنام المدعوّة من دون اللّه على ضمير القوم؛ للجمع بينهما في حكم الاعتزال والمفارقة، فاعتزلهم ومعبوداتهم من دون اللّه، كما أنَّ في ذلك أيضًا الإشارة إلى عداوته عَلَيْهِ السَّلَامُ لتلك الأصنام إعلانًا بتغيير المنكر[3].

معنى الاسم الموصول ونكتة التّعبير به:

الإيماء إلى وجه اعتزال القوم وأصنامهم

جاء في قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله: ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّة اعتزاله إيَّاهم وأصنامهم: وهو أنّ تلك الأصنام تُعبَد من دون اللّه، وأنَّ القوم يعبدونها، فذلك وجه اعتزاله إيَّاهم وأصنامهم[4].

سرّ التعبير بفعل الدُّعاء:

الدعاء هو العبادة والعبادة هي الدعاء

أوثِرَ في قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير بالفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾، ومعناه تعبدون، والدّعاء العبادة؛ لأنّها تستلزم

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 547.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

دعاء المعبود، فالدّعاء يطلق على سؤال العبد من اللّه حاجته وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة اللّه عن طريق الكناية؛ لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرّع إليه.

والدُّعاءُ عِبادةٌ من أعظَمِ العباداتِ، وأجَلِّ الطَّاعات، ويجِبُ صَرْفُه للّه تعالى وحْدَه لا شَريكَ له، وهذا إطلاق أقلُّ شيوعًا من الأوّل، وقد جاء من كلام النبيّ ﷺ ما فيه معنى الدعاء لما يلائم المعنيين، في حديث النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "**الدعاء هو العبادة**"[1] ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: 60]؛ فإنَّ قوله: "**الدعاء هو العبادة**" يقتضي اتحاد الحقيقتين، فإذا كان الدعاء هو العبادة: كانت العبادة هي الدعاء لا محالة[2].

فائدة التقييد بالجارّ والمجرور في الآية:

الإنـكـار على القـوم عبادة آلهةٍ باطلة من دون الإله الحقّ سبحانه

تضمَّن قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التقييد بالجارّ والمجرور بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للإشعار بالإنكار عليهم عبادة آلهة باطلة من دون الإله الحقّ سبحانه، و﴿مِن﴾ هنا ابتدائية بمعنى أنهم مبتدئون من جانب غير جانب اللّه، فهم يعبدون آلهة مبتدئين إياهم من ناحية غير اللّه؛ لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغِلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادة اللّه المستحقّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلهيّته في أحوال كثيرة وأوقات وفيرة[3].

معنى الواو في فعل الدعاء:

عطف عبادة اللّه بعد التبرؤ من عبادة الأصنام

عُطِف قوله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ على الجملة الّتي قبله وهي قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بحرف الواو الدَّال على

(1) أخرجه الترمذي برقم: (2969)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.

الجمع والاقتران، فبعد إعلان إبراهيم عليه السلام اعتزال أصنامهم عطف عليه الإعلان بأنّه يدعو الله؛ احتراسًا من أن يحسبوا أنّه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم، فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بيّن لهم أنه بعكس ذلك يدعو الله الّذي لا يعبدونه(1).

دلالة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في الآية:

إظهار التّواضع والطمع في كرم الله جل جلاله

ورد في قوله: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ التّعبير بلفظ ﴿عَسَىٰٓ﴾، وهي للرّجاء على لسان إبراهيم عليه السلام، وجملة ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿وَأَدۡعُواْ﴾ والمعنى: (أدعو راجيًا ألّا أكون بدعاء ربّي شقيًّا)، وفي تصدير الكلام بـ﴿عَسَىٰٓ﴾ من إظهار التّواضع ومراعاة حسن الأدب والتّنبيه على أنّ الإثابة والإجابة بطريق التفضّل منه جل جلاله لا بطريق الوجوب وأنَّ العبرة بالخاتمة، وذلك من الغيوب المختصّة بالعليم الخبير(2).

بلاغة إيقاع الرجاء على الكون المنفي:

رجاء دوام عدم الاتّصاف بصفة الشقاء

جاء في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ إيقاع الرّجاء على الكون المنفيّ ﴿أَلَّآ أَكُونَ﴾ بمعنى أنّه يرجو دوام عدم اتّصافه بصفة الشقاء؛ وذلك لأنّ (كان) يأتي في الأصل للاتّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنّه يخرج لدلالة الدّوام والاستمرار بمعنى: لم يزل، فتختص كان بمرادفة لم يزل كثيرًا، فتكون دالّة على الدوام(3).

سرّ العدول عن التّصريح برجاء السّعادة إلى نفي الشّقاء:

التّعريض بشقاوة عبدة الأصنام وخيبتهم

عدل النّظم القرآنيّ في قوله: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ عن التّصريح برجاء السّعادة إلى نفي الشّقاء،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 419.
(3) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

وفي إعلانه ﷺ هذا الرّجاء بين ظهرانَيْهم نكتةٌ بلاغيّة، وهي التّعريض بأنّهم أشقياء بدعاء آلهتهم[1].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

الكناية عن حصول السّعادة بنفي الشّقاوة

يظهر في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِدُعَآءِ رَبِّي﴾ على الخبر ﴿شَقِيًّا﴾؛ وذلك لنكتة بلاغية، وهي الاهتمام بدعاء اللّه وحده.

إيثار التعبير بصفة الشقاوة في الآية:

أوثِرَ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ التّعبير بلفظ ﴿شَقِيًّا﴾، والشَّقيّ في اللّغة الذي أصابته الشِّقوةُ، وهي ضِدُّ السَّعادَةِ، وهي الحرمان من المأمول وضلال السّعي، فأطلق نفي الشّقاوة والمراد حصول ضدّها وهو السّعادة على طريق الكناية؛ إذ لا واسطة بينهما عُرفًا، ومثل هذا التّركيب جرى في كلامهم مجرى المثل في حصول السّعادة من شيء، فرجاء إبراهيم ﷺ في هذه الآية هو أن يكون سعيدًا، أي: مستجاب الدّعوة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشقاء والنّكَد:

عموم الشقاء في الدّنيا والآخرة، وخصوص النّكد بالدنيا

يشترك لفظا (الشقاء) و(النّكَد) في الدّلالة على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ[3]، ويختلفان في كون لفظ (الشّقاء) أعمَّ من (النّكد)، فالشّقاء يطلق على ما كان منه في الدّنيا كما في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم: 32]، وعلى ما كان منه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾ [الليل: 15] في حين أنّ لفظ (النّكد) لا يطلق إلّا في ضيق الدّنيا وصعوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 65.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقو).

العيش، يقال في اللغة نَكِدَ عيشُهم بالكسر يَنْكَدُ نَكَدًا: اشتدَّ، ونَكِدَتِ الرَكيَّةُ: قلَّ ماؤها، ورجلُ نَكِدٌ، أي عَسِرٌ[1].

كما يختلفان باختلاف أضدادهما، فضدُّ الشقاء السّعادة، وضدّ النكد السهولة والسّعة.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نكد).

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ٤٩﴾ [مريم: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعويض الخليل عليه السلام عن فراق قومه بالذريّة الطيّبة

لـمَّا عزم الخليل عليه السلام على نشر شُقَّةِ النّوى مختارًا للغربة في البلاد على غربة الأضداد، حقّق ما عزم عليه؛ وحقّق سبحانه وتعالى رجاءه ودعاءه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱعۡتَزَلَهُمۡ﴾: (عزل) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على تَنْحِيَةٍ وإِمالَةٍ، تَقولُ: عَزَلَ الإِنْسانُ الشَّيْءَ يَعْزِلُه، إِذا نَحَّاهُ في جانِبٍ، وهوَ بِمَعْزِلٍ وفي مَعْزِلٍ مِنْ أَصْحابِه، أَيْ في ناحيَةٍ عَنْهُم[2]، والاعْتِزالُ: تجنّب الشيء عمالة كانت أو براءة، أو غيرهما، بالبدن كان ذلك أو بالقلب، يقال: عَزَلْتُهُ، واعْتَزَلْتُهُ، وتَعَزَّلْتُهُ فاعْتَزَلَ، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: 16][3]، فيكون معنى ﴿ٱعۡتَزَلَهُمۡ﴾ في الآية: تنحّى عنهم وفارقهم[4].

المَعنى الإجماليُّ:

من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه

لَمَّا اعتزل إبراهيم عليه السلام قومه وآلهتهم الّتي يعبدونها من دون اللّه، وكان من ترك شيئًا للّه عوّضه اللّه خيرًا منه، وهبه اللّه من الولد: إسحاق، ويعقوب بن إسحاق، وجعلهما نبيَّين من المرسلين إلى النّاس، الذين خصهم اللّه بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 209.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزل).
(3) الراغب، المفردات: (عزل).
(4) الواحدي، البسيط: 14/ 260.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 494، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى مشروعيةِ الهجرة وبيانِ فضلها، وهجرةُ إبراهيم ﷺ هذه أول هجرة كانت في الأرض، وترشد إلى أنَّ مفارقةَ الإنسان لوطنه ومألفِه وأهلِه وقومِه، من أشق شيء على النَّفس؛ لأمور كثيرة منها: انفراده عمَّن يتعزَّز بهم ويتكثَّر[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في الآية:

الـجـزاء من جنس العمل

جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استعمال حرف الفاء الدَّال على التعقيب، ومعنى ذلك أنّه لـمَّا اعتزل أباه وقومه واستوحش بذلك الفراق وهبه اللّه ذرّيّة يأنس بهم؛ إذ وهبه إسحاق ابنه، ويعقوب ابن ابنه، وجعلهما نبيّين، وحسبه بهذه مكرمة له عند ربّه، ولعلّ ترتيب هِبَتِهما على اعتزاله ها هنا لبيان كمال عِظَم النِّعم الّتي أعطاها اللّه تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء؛ فإنّهما شجرتا الأنبياء ولهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير، فما خسر على اللّه أحد، ومن ترك شيئًا للّه عوّضه اللّه خيرا منه[2].

بلاغة أسلوب الشرط في الآية:

ترتّبت الهبة عند وجود الشرط

ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ استعمال حرف الشرط (لـمَّا)، وهو حرف وجود لوجود، أي يقتضي وجود جوابه لأجل وجود شرطه فتقتضي جملتين، والأكثر أن يكون وجود جوابها عند وجود شرطها، وقد تكون بينهما فترة فتدلّ على مجرّد الجزائية، أي: التعليل دون توقيت، وذلك كما في هذه الآية فقد ترتّبت الهبة (الجزاء) عند وجود الشرط (وهو اعتزال قومه)[3].

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 494، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 314.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 420.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 125.

دلالة العطف في قوله ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾:

عطف الأصنام على حكم المفارقة والاعتزال

عطف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاسم الموصول ﴿وَمَا﴾ العائد على الأصنام المعبودة من دون اللّه على ضمير القوم للجمع بينهما في حكم الاعتزال والمفارقة، فإنّهم بعبادة الأصنام سلكوا طريقة الهلاك، فكان واجبًا عليه مجانبتهم[1]، وفي ذلك أيضًا الإشارة إلى عداوته ﷺ لتلك الأصنام إعلانًا بتغيير المنكر[2].

إيثار استعمال الاسم الموصول:

الإيماء إلى وجه اعتزال القوم وأصنامهم

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير عن الأصنام بطريق الموصولية - ﴿وَمَا﴾ - من قوله: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّة اعتزاله إيَّاهم وأصنامهم: وهو أنّ تلك الأصنام تُعْبَد من دون اللّه، وأنَّ القوم يعبدونها، فذلك وجه اعتزاله إيَّاهم وأصنامهم[3].

فائدة استعمال صيغة المضارع في الآية:

دوام المشركين على عبادة الأوثان

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التعبير بالفعل ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ بصيغة المضارع دون غيره من صيغ الأفعال؛ إشارة إلى استمرارهم في عبادة الأوثان والدّوام على ذلك، وذلك لأن استعمال الفعل بصيغة المضارع يفيد افتراض تكرر الحدث ودوامه واستمراره[4].

دلالة التقييد بـ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الإنكار على القوم عبادة آلهةٍ باطلة من دون الإله الحقّ سبحانه

ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التقييد بالجارّ والمجرور من قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشعار بالإنكار

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 547.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 122.

(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

عليهم عبادة آلهة باطلة من دون الإله الحقّ سبحانه، و﴿مِن﴾ هنا ابتدائية بمعنى أنهم مبتدئون من جانب غير جانب اللّه، فهم يعبدون آلهة مبتدئين إيَّاهم من ناحية غير اللّه؛ لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغِلوا بعبادتهم، ففرطوا في عبادة اللّه المستحقّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلهيّته في أحوال كثيرة وأوقات وفيرة[1].

موقع جملة ﴿وَهَبۡنَا﴾ ودلالتها:

المواهب العظيمة لإبراهيم عليه السلام جزاء هجرته

تضمّن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ التعبير بجملة ﴿وَهَبۡنَا﴾ وهي جملة جواب الشّرط لفعل الشرط ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ﴾؛ وذلك لأنّ أسلوب الشرط يقتضي وجود جوابه لأجل وجود شرطه[2]، فإنّ إبراهيم عليه السلام لمَّا اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم واختار الهجرة إلى ربّه إلى حيث أمره لم يضرّه ذلك دينًا ودنيا، بل نفعه فعوَّضه الوهَّاب أولادًا أنبياء، ولا حالة في الدّين والدّنيا للبشر أرفع من أن يجعل اللّه له رسولًا إلى خلقه، ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة، فصار جعله تعالى إيَّاهم أنبياء من أعظم النِّعم على آل إبراهيم في الدنيا والآخرة[3]، وكلّ من ترك شيئًا للّه عوّضه اللّه خيرًا منه.

إيجاز القِصَر في الآية:

حذف المعلوم من الكلام بدلالة السياق

تضمّن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ فنًّا من فنون البلاغة يسمّى إيجاز القِصَر، إذ طوى النظم القرآنيّ ذكر اعتزاله إيَّاهم بعد أن ذكر عزمه عليه إيجازًا في الكلام؛ للعلم بأنّ مثله لا يعزم أمرًا إلا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 125.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 547.

نفّذ عزمه، واكتفاء بذكر ما ترتّب عليه من جعل عزمه حدثًا واقعًا قد حصل جزاؤه عليه من ربّه[1].

نكتة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة:

عظمة الواهب سبحانه في هباته الكريمة

أُسْنِدَ في قوله تعالى: ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ فعل الهبة ﴿وَهَبۡنَا﴾ إلى ضمير (نا)؛ للدّلالة على عظمة الواهب سبحانه؛ لتعدّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنّ مثل هذا التّعبير يعبّر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم ونهيهم، فالعظيم عظيم في جميع أفعاله من الهبات وغيرها.

دلالة تقديم الجار والمجرور على المفعول الأول:

اختصاص الوهّاب نبيّه الكريم بالهبة العظيمة

تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥٓ﴾ على المفعول؛ لنكتة بلاغية وهي الاختصاص، بمعنى أنّ اللّه الوهّاب اختصّ إبراهيم عليه السلام بهبة عظيمة إذ وهبه إسحاق ابنه، ويعقوب ابن ابنه، وجعلهما نبيّين، وحسبه بهذه مكرمة له عند ربّه[2]، فإنّهما شجرتا الأنبياء، ولهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير.

نكتة عدم ذكر إسماعيل عليه السلام:

شمول الهبة لإبراهيم عليه السلام وزوجه سارة

اقتُصِرَ في قوله تعالى: ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل عليه السلام، فلم يقل: (وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب)؛ لأنَّ إبراهيم لمَّا اعتزل قومه في العراق خرج بزوجه سارة قريبته، فهي قد اعتزلت قومها معه أيضًا إرضاء لربّها ولزوجها، فذكر اللّه الموهبة الشّاملة للزوجين الكريمين: إبراهيم وسارة، وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب، ولأنّ هذه الموهبة لما كانت مكافأة لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 123.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 123.

موهبة أيضًا لمن يعاشر إبراهيم، ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب، أمَّا إسماعيل فقد أراد اللّه أن يكون بعيدًا عن إبراهيم في مكَّة ليكون جارَ بيت اللّه، وإنَّه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما[1].

معنى الواو في قوله ﴿وَكُلًّا جَعَلۡنَا﴾:

جمع إبراهيم عليه السلام بين الذرّية واصطفائهم للنبوّة

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾ على جملة ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ بالواو الدَّالة على الجمع والاقتران؛ فقد جمع اللّه الوهَّاب لإبراهيم عليه السلام فضلًا عظيمًا بأن وهبه ذرّية وأحفادًا على كِبَرٍ، فقد وُلد يعقوب قبل موت إبراهيم بخمس عشرة سنة، ومِن يعقوب نشأت أمّة عظيمة، ثمّ عَطَفَ على هذه النّعمة نعمة أخرى بأن جعلهم أنبياء، ولا حالة في الدّين والدّنيا للبشر أرفع من أن يجعله اللّه رسولًا إلى خلقه، ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة، فصار جعله تعالى من أنفسهم أنبياء من أعظم النعم في الدّنيا والآخرة[2].

وجه إعراب ﴿وَكُلًّا﴾ ودلالة تقديمها على العامل:

شمول اصطفاء النبوّة لإبراهيم وذرّيّته

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾ استعمال لفظ ﴿وَكُلًّا﴾، ومعناه كلُّ واحد من إسحاق ويعقوب، أو منهما ومن إبراهيم عليه السلام، وهو مفعول أول لقوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾، قُدِّمَ عليه للتّخصيص، لكن لا بالنسبة إلى من عداهم، بل بالنسبة إلى بعضهم، أي: كلُّ واحد منهم جَعَلْنا نَبيًّا لا بعضهم دون بعض، ولا يظهر في هذا الترتيب على الوجه الثاني في ﴿وَكُلًّا﴾ كون إبراهيم عليه السلام نبيًّا قبل الاعتزال[3].

بلاغةُ الإيجاز بالحذف في ﴿وَكُلًّا﴾:

يظهر في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾ الإيجاز بالحذف في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 124.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 547.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 420.

﴿وَكُلًّا﴾، إذ المقصود: كلٌّ واحد من إسحاق ويعقوب، أو منهما ومن إبراهيم عليهم السلام[1]، ويسمَّى هذا التنوين بتنوين العِوَض، وهو عِوَض عن جملة؛ وفق التقدير المتقدِّم.

دلالة الفعل ﴿جَعَلْنَا﴾ في الآية:

اصطفاء بعض البشر لتبليغ وحي السّماء

ورد في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ التعبير بالفعل ﴿جَعَلْنَا﴾، وهو لفظ عامّ في الأفعال كلّها، وهو أعمّ من فعَل وصَنَع وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجه حسب السّياق الّذي يرد فيه، وهو في هذه الآية بمعنى الحكم بالشّيء على الشَّيء بالحقّ[2]، ولعلّ الظاهر أنّ الجعل هنا بمعنى التّصيير، وهو تصيير خلق على صفة مخصوصة، أو تصيير مخلوق إلى صفة بعد أن كان في صفة أخرى[3]، فقد صيّر اللّه بشرًا اختارهم أنبياء إلى عباده بالوحي.

اختلاف القراءات في كلمة ﴿نَبِيًّا﴾ وتوجيهها:

تنوع القراءة وأثره في بلاغة الآية

تنوّعت القراءات في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فقد قرأ نافع هذا اللفظ ﴿نَبِيًّا﴾، وما جاء منه (النبيّون، والنبيّين، والأنبياء، والنبوّة) حيث وقع في القرآن بالهمز: ﴿نَبِيٓـًٔا﴾، وقرأ الباقون بغير همز[4]، فالحجّة لمن همز أنّه أخذه من قوله: (أَنْبَأَ بِالحَقِّ) إذا أخبَرَ به، ومنه: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: 31]، والحجّة لمن ترك الهمز من ثلاثة أوجه؛ أولها: أن الهمز مستثقل في كلامهم، والثاني: أنّه مأخوذ من النَّبْوَةِ وهي: ما ارتفع من الأرض وعلا؛ لأنّه أخبر عن العالم العلوي، وأتى به عن اللّه تعالى، والثَّالث: أنَّ العرب تدع الهمزة من (النّبي) وهو من: أنبأت، ومن (الخابية) وهي من خبّأت، ومن

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 8/ 420.

(2) الراغب، المفردات: (جعل).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 47.

(4) ابن الجزري، النشر: 01/ 406.

(البريّة) وهي من برأ الله الخلق، ومن (الذّريّة) وهي من ذرأهم، ومن (الرّويّة): وهي من: روّأت في الأمر[1].

وعلى كلا الاشتقاقين من النُّبوِّ بمعنى الارتفاع والسمو، أو من النَّبَأِ، وهو الخبر الصادق ذو الشأن العظيم، يمكن الأخذ بهما جميعًا في آن واحد، وإن كان الاشتقاق الثاني جديرًا بالعناية لسَعة دلالته، وبالنظر في النصوص القرآنية، سنلاحظ أنَّ جميع دلالات هذين الاشتقاقين قد اعتمدت فيها بصورة واضحة.

فاشتقاق كلمة (نبيّ) من النُّبوِّ، يدل على اكتساب مقام النبوة الرفيع، الأمر الذي جعل صاحب هذا المقام يستحق عند بارئه لقب نبي.

وأما اشتقاق كلمة (نبيّ) من النَّبَأِ، فيعني الخبر الصادق ذا الشأن العظيم، فكلمة (نبيّ) من هذا المصدر تشير إلى العلوم اللدنية، والأنباء الهامة ذات الشأن العظيم التي يتلقاها الشخص الذي يبلغ مقام النبوة العلي.

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 80.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ۝٥٠﴾

[مريم: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتميم النّعم على الخليل ﷺ وذرّيته

لـمَّا ذكر اللّه ﷻ جزاء إبراهيم ﷺ على هجرته، وأنَّه وهبه إسحاق ويعقوب ﷺ، صرَّح هنا بما وهب لأولاده تتميمًا للمنّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِسَانَ﴾: (لسن) أَصْلٌ يَدُلُّ على طولٍ لَطيفٍ غَيْرِ بائِنٍ، في عُضْوٍ أَوْ غَيْرِه[2]، مِنْ ذَلِكَ اللِّسانُ، وهي الجارحة وقوّتها، وقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧﴾ [طه: 27] يعني به من قوّة لسانه، ويقال: لكلّ قوم لِسانٌ ولِسنٌ بكسر اللام، أي: لغة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان: 58][3]، وقَدْ يُكْنَى بِها عَنِ الكَلِمَةِ فيُؤَنَّثُ حينَئِذٍ يُقالُ: إن لسانَ النَّاسِ عليْكَ لَحَسنة وحَسَنٌ، أَي ثناؤُهم[4]، فيكون معنى اللسان في الآية: هو الثناء الحسن في النَّاس[5].

2) ﴿صِدۡقٍ﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، مِنْ ذَلِكَ الصِّدْقُ: خِلافُ الكَذِبِ؛ سُمّيَ لِقوَّته في نَفْسه، ولِأَنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لَهُ، وهوَ باطِلٌ، وأَصْلُ هذا مِنْ قَوْلِهم شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ[6]، وقد يستعمل الصّدق والكذب في كلّ ما يحقّ ويحصل في الاعتقاد، نحو: صدق ظنّي وكذب، ويستعملان في أفعال الجوارح، فيقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 210.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(3) الراغب، المفردات: (لسن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (لسن).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 261.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

صَدَقَ في القتال: إذا وفّى حقّه، وفعل ما يجب وكما يجب، وكذب في القتال: إذا كان بخلاف ذلك[1]، والصدق أيضًا بلوغ كمال النوع، فلسان الصدق في الآية: ثناء الخير والتبجيل[2].

3) ﴿عَلِيًّا﴾: (علو) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على السُّموِّ والِارْتِفاعِ، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ، ومِنْ ذَلِكَ العَلاءُ والعُلُوُّ، ويَقولونَ: تَعالى النَّهارُ، أَيِ ارْتَفَعَ، ويُقالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَعْلو: عَلا يَعْلو، فإِنْ كانَ في الرِّفْعَةِ والشَّرَفِ قيلَ عَلِيَ يَعْلى[3].

والعَلِيُّ: هو الرّفيع القدر من: عَلِيَ[4]، فيكون معنى ﴿عَلِيًّا﴾ في الآية: شرف الثناء على إبراهيم عليه السلام وذريّته[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مزيد الفضل والإكرام لإبراهيم عليه السلام وذريّته

يخبر الله سبحانه وتعالى بمزيد فضله على إبراهيم عليه السلام وذريّته بأنّه وهب لهم جميعًا من رحمته فضلًا لا يُحصى، وجعل لهم ذكرًا حسنًا، وثناءً جميلًا باقيًا في الناس[6].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ الرحمة الموهوبة لهم عليهم السلام تشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة: من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون؛ لأن الله وعدَ كلَّ محسن، أن ينشر له ثناء صادقًا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله لهم الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذِكْرُهم ملأ الخافقين، والثناءُ عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت

(1) الراغب، المفردات: (صدق).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 125.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(4) الراغب، المفردات: (علو).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 125.
(6) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 308.

بها الألسنة، فصاروا قدوةً للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تصدير الآية بالواو:

زيادة الفضائل والرحمات على إبراهيم عليه السلام وذرّيّته

استُهلّ قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ بحرف الواو الدَّال على العطف والاقتران، فبعد أن ذكر الله في الآية السَّابقة إيتاء ذرّية إبراهيم عليه السلام النبوّة عطف عليه الرحمة في هذه الآية للإيذان بأنّ النبوّة من باب الرّحمة الّتي يختصّ الوهَّاب جل جلاله بها من يشاء[2].

سرّ تكرار الفعل ﴿وَوَهَبْنَا﴾:

تأكيد كثرة الهبات الوافرة لإبراهيم عليه السلام وذريّته

تكرّر الفعل ﴿وَوَهَبْنَا﴾ في هذه الآية والتي قبلها تأكيدًا لإكرام إبراهيم عليه السلام بأن وهب له ذرّية أنبياء، ثمّ مع هذه الهبة العظيمة زاد لهم الكريم سبحانه رحمات أخرى من العِلْم، والمنزِلَة، والشَّرَف في الدّنيا وغيرها من الهبات الشاملة لكلّ خير ديني ودنيويَ أوتوه مما لم يُؤتَه أحدٌ من العالمين[3].

معنى اللام وضمير الجمع ﴿لَهُم﴾:

اختصاص إبراهيم عليه السلام وذرّيّته بالهبات والرحمات

تعدّى الفعل ﴿وَوَهَبْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ باللّام الدّالة على الاختصاص، فقد اختصّ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام وذرّيته بكثير من النِّعم والرحمات الجليلة، والتي من أبرزها اختصاصهم بالنبوّة والذكر الجميل عند جميع الأمم إلى قيام السَّاعة.

كما أنّ الضمير من ﴿لَهُم﴾ يعود على إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام جميعا، فقد امتنّ الله عليهم جميعًا بالنبوّة وسائر الكرامات.

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 494.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 420.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 113.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في الآية:

ورد في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ حرف الجرّ ﴿مِّن﴾، والظّاهر أنّه هنا حرف تبعيض صفة لمحذوف دلَّ عليه وهبنا، أي موهوبا من رحمتنا، ولم يذكر الموهوب إعلاء لشأنه ولفخامته، وحسبه أنّه هبة اللّه وأنّه من رحمته سبحانه، فالعقل يذهب في تقديره أعلى المذاهب التي تليق بهبة اللّه ورحمته، فهي تشمل النبوة، وتشمل الأموال، وتشمل الجاه والسلطان، وتشمل العزة والكرامة، والعلوّ في الأرض ووراثتها، والإمامة فيها وكل ذلك كان في ذرّيّة إبراهيم، وفي إسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السلام[1].

أثــر حــروف المعاني في توجيه الدلالات

وذهب بعض العلماء إلى أنّ ﴿مِّن﴾ هنا اسم بمعنى (بعض) بتأويل، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: 8]، ويشكل على هذا القول أنّ النحاة لم يثبتوا لكلمة (من) استعمالها اسمًا كما أثبتوا ذلك لكلمات (الكاف) و(عن) و(على)، لكن بعض موارد الاستعمال تقتضيه، وعلى هذا تكون ﴿مِّن﴾ في موضع نصب على المفعول به لفعل ﴿وَوَهَبۡنَا﴾، أي: وهبنا لهم بعض رحمتنا، وهي النبوءة؛ لأنها رحمة لهم ولمن أرسلوا إليهم[2].

سرّ إضافة الرحمة إلى ضمير العظمة:

أضاف اللّه ﷻ في قوله ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ الرّحمة إلى ضمير العظمة الخاصّ به سبحانه وهو (نا)؛ وذلك للدلالة على عظمة الهبة، وعظمة الواهب سبحانه[3]، وفيه أيضًا إدخال المهابة في قلوب العباد، فالعظيم إذا وهب أجزل الهبة، فهو يرزق من يشاء بغير حساب.

العظيم الوهّاب يـرزق مـن يشاء بغير حساب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4654.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 125.

(3) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 208.

معنى الواو في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

تتميم المنّة بحسن الذكر والسّيرة على الألسنة

جاء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ موصولًا بالكلام السَّابق بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ وذلك لأنَّ الوهَّاب سبحانه جمع لإبراهيم ﷺ وذرّيته نعمًا كثيرة، فبعد أن ذكر نعمة النبوّة وما يتّصل بها من الخير الدنيوي والأخروي، عطف عليه نعمة الذكر الطيّب وحسن السيرة لدى جميع الأمم.

إيثار تكرار الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

خلق محبّة إبراهيم وذرّيته عليهم السلام في قلوب جميع الأمم

كرّر النظم القرآني الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ اهتمامًا بهذا الجعل الشريف، فقد جعل اللّه ﷻ لهم ذكرًا طيّبًا وشرفًا عن النَّاس بعد أن جعلهم أنبياء، فأعيد الفعل ليكون له مزيد استقرار، ولأنَّ في إعادة الفعل وسيلة إلى إعادة ذكر المفعول الأول، وهم إبراهيم وذريّته عليهم السلام.

والفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ لفظ عام في الأفعال كلّها، وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجه حسب السّياق الذي يرد فيه، وهو في هذه الآية بمعنى أوجد[1]، فاللّه سبحانه وتعالى أوجد لإبراهيم وذرّيته عليهم السلام محبّةً وتعظيمًا وذكرًا طيبًا في قلوب جميع الأمم.

دلالة اللام في ﴿لَهُمۡ﴾:

اختصاص الوهّاب آل إبراهيم بالذكر الحسن والثناء الجميل

تعدّى الفعل ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ باللّام الدَّالة على الاختصاص، فقد اختصّ اللّه سبحانه وتعالى إبراهيم وذرّيته عليهم السلام بالذكر الحسن، والثناء عليهم بمحامد لا تخفى على تباعد الأعصارِ وتبدُّل الدول وتحوُّل المِلل والنِّحَل[2].

بلاغة المجاز في ذكر اللِّسان:

سعة لسان العرب في إسناد الفعل إلى ملابساته

يتضمّن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ صورة بيانية بديعة، فالمراد باللسان ما يوجد به من الكلام فهو مجاز بعلاقة

(1) الراغب، المفردات: (جعل).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 13.

السببية؛ إذ الآلة سبب لحصول ما هو آلة له، كاليد في العطيّة، ولسان العرب: لغتهم، فهي الألفاظ الموضوعة المعبر بها عمَّا في ضميرهم، لا آلة الجارحة، ومنه قول بعضهم: ندمت على لسانٍ كان مني: أي كلام[1].

علةُ الإضافة إلى المصدر:

المبالغة في الثناء على آل إبراهيم عليهم السلام

أضيف اللسان في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ إلى المصدر ﴿صِدْقٍ﴾ لقصد المبالغة في الثّناء عليهم، فهو من باب إضافة الموصوف إلى مبدأ الصفة للمبالغة، كأنّه عين الصّدق لكونه صادقًا على وجه المبالغة[2]، والغرض منها الدّلالة على أنّهم أحقَّاء بما يثنون عليهم، وأنَّ محامدهم لا تخفى، كأنَّها نار على علم، على تباعد الأعصار وتبدّل الدّول وتغيّر الملل والنِّحل، وخصّ بعضهم لسان الصدق بما يتلى في التشهد: (كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)، والعموم أولى[3].

نكتة وصف اللسان بكونه ﴿عَلِيًّا﴾:

استعارة صفة العلوّ للظهور والشّرف والرفعة

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وصف اللسان بكونه ﴿عَلِيًّا﴾، وذلك مجاز في شرف ذلك الثناء، فالعلوُّ مستعار لعدم الخفاء؛ لأن ما علا وارتفع ظهر ظهورًا بيّنًا، فشبه اللسان الصادق بالأمر العالي في عدم الخفاء، أو مجاز مرسل لأنّ العليّ يلزمه الظهور[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصدق والحقّ:

عموم الحقّ في الأقوال وغيرها

يتجلّى الفرق بين لفظي (الحقّ) و(الصدق) في علاقة العموم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 548، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 12/ 246.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 12/ 246.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 420.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 12/ 246.

والخصوص بينهما، فالحقّ أعمّ لأنّه وقوع الشّيء في موقعه الّذي هو أولى به، والصدق الإخبار أو التدليل عن الشّيء على ما هو به، والحقّ يكون إخبارًا وغيرَ إخبار.

كما يتجلّى الفرق بينهما في الإطلاق واختلاف الضدّ، فالحقّ يطلق على الحكم المطابق للواقع، ويشمل ذلك الأقوال والعقائد، والأديان، والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، وضدّه الباطل، وأما الصدق، فيطلق على الأقوال والأحوال، وضدّه الكذب[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 193.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾

[مريم: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستطراد في بيان فضائل ذرّية إبراهيم عليه السلام

لـمَّا ذكر اللّه ﷻ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، أفضت المناسبة إلى أن يذكر موسى عليه السلام في هذا الموضع؛ لأنّه أشرف نبيّ من ذرّية إسحاق ويعقوب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخۡلَصٗا﴾: (خلص) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ، يَدلُّ على تَنْقِيَةِ الشَّيْءِ وتَهْذِيبِهُ، يقولونَ: خَلَّصْتُهُ مِنْ كَذا وخَلَصَ هوَ[2]، والخالص كالصَّافي إلّا أنّ الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصَّافي قد يقال لما لا شَوبَ فيه، وحقيقة الإخلاص: التّبرّي عن كلّ ما دون اللّه تعالى[3]، وبكسر اللام تكون بمعنى جَعلِ الشيء خالصًا صافيًا، وبفتح اللّام فهم الّذين أخلصهم اللّه لرسالته وهذا معنى كلّ المخلَصين في القرآن[4]، وكلا المعنيين مقصود في الآية لورود القراءتين فيها.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر قصص عباد اللّه الصَّالحين من الأنبياء والمرسلين

يأمر اللّه ﷻ نبيّه محمّدًا ﷺ بأن يذكر في القرآن قصّة موسى عليه السلام فإنّه كان مصطفى مختارًا، وكان رسولًا نبيًّا مِن أولي العزم من الرّسل[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 126.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(3) الراغب، المفردات: (خلص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلص).
(5) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 308.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّهَ جمعَ لموسى ﵇ بين الرسالة والنبوة، فالرسالةُ تقتضي تبليغَ كلام المرسل، وتبليغَ جميع ما جاء به من الشرع، دقّه وجُلّه، والنبوة تقتضي إيحاء اللّه إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصَّه اللّه من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمُه تعالى وتقريبُه مناجيًا للّه تعالى، وبهذا اختصَّ من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

التنويه بالأنبياء من ذرّيّة إبراهيم ﵇

استُهلّ قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ بحرف الواو الدالّ على العطف والاقتران؛ وذلك لأنّ قوله ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ عطف على قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ وعلى قوله تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ [مريم: 2]، فكأنّه لما انتهت قصة عيسى وزكريا وإبراهيم ﵈، قال قد ذكرت حال زكريّا وإبراهيم ﵉ فاذكر حال موسى ﵇[2]؛ وذلك لأنّ أهمّ ما اشتملت عليه هذه السورة التّنْويهُ بالأنبياء والرّسل السّالفين.

سرّ تكرار الفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

أمر النبيّ ﷺ بتلاوة قصص الأنبياء السّابقين

تكرّر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ الفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ وهو خطاب للرسول ﷺ، والمراد: (اتل عليهم نبأ موسى)، وإنّما قال العلماء بأنّ المقصود من الذكر هنا هو التلاوة؛ لأنّ ذاكر ذلك في الكتاب هو اللّه تعالى، والكتاب كتابه ﷻ، وقيل: إنّه ﵇ لكونه الناطق عنه تعالى ومبلغ أوامره ونواهيه كان كأنّه الذّاكر في الكتاب ما ذكره ربه ﷻ[3]، كما أنّ من فوائد مخاطبة الرسول ﷺ بهذا الأمر، أنّه ﵇

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 494.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 355.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 413.

ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب، فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخبارًا عن الغيب ومعجزًا قاهرًا دالًّا على نبوَّته[1].

فائدة التقييد بعبارة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

حفظ الله لكتابه في الصّدور والسّطور

أُطلِق في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ اسم الكتاب على القرآن باعتبار أنّ الله أنزله ليكتب، وأنّ الأمّة مأمورون بكتابته وإن كان نزوله على الرسول ﷺ لفظًا غير مكتوب، وفي هذا إشارة إلى أنه سيكتب في المصاحف، وقد يكون المراد بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ما نزل من القرآن قبل هذه السورة وقد كتبه كُتَّاب الوحي[2].

نكتة ذكر موسى عليه السلام في الآية:

الاستطراد مع فرع إسحاق وذرّيته عليهم السلام

جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ ذكر موسى عليه السلام بعد ذكر قصّة إبراهيم عليه السلام لمناسبة كون السياق مع ذرّيّة إبراهيم عليه السلام مستطردًا مع فرع إسحاق، فذكر موسى وهارون عليهما السلام، كما تظهر المناسبة بينهما في أنّ موسى عليه السلام كان موافقًا لأبيه إبراهيم عليه السلام في أن كلًّا منهما أراد مَلِكُ زمانِه الذي ادّعى الربوبية قتله خوفًا على مُلكه منه، فأنجاه الله منه، وأمر موسى عليه السلام أعجب لأنه سبحانه أنجاه من الذِبح بالذَّبَّاح نفسه[3].

علّة فصل جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾:

التنويه بفضائل موسى عليه السلام

وردت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ مفصولة عن الجملة قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾؛ لشبه كمال الاتصال، وهو كون الجملة الثانية قويّة الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فتُفصل عنها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 541.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 160.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 211.

كما يُفصل الجواب عن السؤال[1]، وقد وقعت جملة إنّه كان مُخْلَصًا موقع التّعليل للاهتمام بذكر موسى عليه السلام في التلاوة[2].

إيثار التعبير بلفظ ﴿مُخْلَصًا﴾:

القـراءة مع القـراءة كالآية مع الآية

اختلفت القراءات في كلمة ﴿مُخْلَصًا﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ فقرأ الكوفيّون بفتح اللَّام، وقرأ الباقون بكسر اللَّام: ﴿مُخْلِصًا﴾[3]، فمن قرأ بفتح اللَّام فهو من الاصطفاء والاجتباء، كأنّ اللّه تعالى اصطفاه واستخلصه، واصطفاه على العالمين، ومن قرأ بالكسر فهو مِنْ (أخلص القاصر) إذا كان الإخلاص صفته، على معنى أنه كان مخلصًا للّه تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والإخلاص في أمر ما: الإتيان به غير مشوب بتقصير ولا تفريط ولا هوادة، مشتقّ من الخُلوصِ، وهو التَمحُّض وعدم الخَلط، والمراد هنا: الإخلاص فيما هو شأنه، وهو الرّسالة بقرينة المقام[4].

والمعنيان متلازمان، فإنَّ اللّه أخلصه لإخلاصه، وإخلاصُه موجب لاستخلاصه، وأجلُّ حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه[5].

سرُّ تقديم صفة الإخلاص هنا على غيرها:

اخـتـصـاص مـوسى عليه السلام بوصف الإخلاص

قدّم النظم القرآني في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ صفة الإخلاص لاختصاص موسى عليه السلام بهذا الوصف، فإنّه أخلص في الدعوة إلى اللّه فاستخفَّ بأعظم جبَّار في زمانه وهو فرعون، وجادله مجادلة الأكْفاء دون خوف، فكان الإخلاص في أداء

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 112.
(3) ابن الجزري، النشر: 02/ 295.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 97.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 548، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 494.

أمانة اللّه تعالى ميزته، إضافة إلى أنّ اللّه أَخْلَصَهُ بأن اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، فكان مخلَصا بذلك، أي مصطفى، فتلك مزية أيضًا له، قال تعالى ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: 41][1].

نكتة العطف في قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾:

زيادة الاصطفاء إلى فضائل موسى عليه السلام

عطف قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ بحرف الواو الدالّ على الجمع، فأضاف النظم القرآني إلى فضائل موسى عليه السلام السّابقة من الاصطفاء والإخلاص في العبادة كونه جامعًا للرّسالة والنبوّة زيادة في التنويه بقدره، وتأكيدًا لتفضيل إبراهيم عليه السلام وذريّته على العالمين.

فائدة تكرار فعل الكون في الآية:

تأكيد رسوخ صفة الرسالة والنبوّة في موسى عليه السلام

تكرّر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ ذكر ﴿وَكَانَ﴾ الزائدة التي تأتي في اللغة للدلالة على تمكّن الوصف على سبيل المبالغة، وهي تكون بصيغة الماضي غالبًا[2]؛ وذلك لنكتة تأكيد رسوخ صفة الرسالة والنبوّة في موسى عليه السلام، ولا جرم فهو من أولي العزم من الرسل.

علة وصف موسى بكونه ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾:

الأثر العظيم لرسالة موسى عليه السلام في العالمين

ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ الجمع بين وصفي الرّسالة والنبوّة لموسى عليه السلام، فهو رسول ونبيّ، وقد عطف ﴿نَّبِيّٗا﴾ على ﴿رَسُولٗا﴾ مع أن الرّسول بالمعنى الشرعي أخصُّ من النبيّ، إذ الرّسول هو المرسل بشرع جديد من اللّه ليبلغ إلى النّاس، فلا يكون الرّسول إلّا نبيًّا، وأمّا النبيّ فهو المنبأ بوحي من اللّه متابعًا لشرع رسول قبله، فيكون نبيًّا وليس رسولًا، فوقع الجمع بينهما هنا لموسى عليه السلام لتأكيد الوصف، إشارةً إلى أن رسالته بلغت مبلغًا قويًّا[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّسول والنّبيّ:

الرَّسول من أوحي إليه بشرع جديد والنّبيّ تابع لشرع قبله

تكلّم كثير من العلماء في التفريق بين الرّسول والنّبيّ، ويكاد لا يسلم أيّ تفريق من الاستدراك، فقال الحافظ ابن حجر: "إنَّ النّبي والرّسول اشتركا في أمر عام وهو النّبأ، وافترقا في الرّسالة، فإذا قلت: فلان رسول تضمّن أنه نبيّ رسول، وإذا قلت: فلان نبيّ لم يستلزم أنّه رسول، ويختلف لفظ النّبيّ عن لفظ الرّسول في أصل الوضع اللغوي، فإنّ النّبيّ من النّبأ، وهو الخبر، فالنّبيّ في العرف هو المنبأ من جهة اللّه بأمر يقتضي تكليفًا، وإن أمر بتبليغه إلى غيره فهو رسول، وإلَّا فهو نبيّ غير رسول، وعلى هذا فكلّ رسول نبيّ بلا عكس"[1].

واستدرك عليه الشيخ الشنقيطي في الأضواء بأنّ ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أن النّبيّ هو من أوحي إليه وحي ولم يؤمر بتبليغه، وأنّ الرّسول هو النّبيّ الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحي إليه غير صحيح؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: 52] يدلُّ على أنّ كلًّا منهما مرسل، وأنّهما مع ذلك بينهما تغاير، ولهذا استظهر قول بعضهم: أنّ النّبيّ الّذي هو رسول، أنزل إليه كتاب وشرع مستقلّ، مع المعجزة التي ثبتت بها نبوّته، وأنّ النّبيّ المرسل الّذي هو غير الرّسول: هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنّما أوحي إليه أن يدعو النَّاس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الّذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بيّنه تعالى بقوله ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ [المائدة: 44] الآية[2].

---

(1) العسقلاني، فتح الباري: 11/ 112.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 802.

وممَّا يقوّي هذا التّفريق أنّه لا يمكن أن ينزِّل الله وحيًا لإنسان واحد فقط، ولا يبلغه أحدًا، والنَّبيّ ﷺ يقول: "عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيتُ النّبيّ ومعه الرهط، والنّبيّ ومعه الرجل والرجلان، والنّبيّ وليس معه أحد"[1].

فنخلص إلى أنَّ أقوى فرق بين النّبيّ والرّسول: أنّ الرّسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنّبيّ هو المبعوث لتقرير شرعِ مَن قبله، وأكثر أنبياء بني إسرائيل كذلك، وهو الأقرب للصّواب[2]، والله أعلم.

(1) متفق عليه، رواه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (5705)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (220).
(2) الأشقر، الرسل والرسالات، ص: 14.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم: 52 - 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الإمداد على قَدْر الاستعداد

في هذه الآية تكميلٌ لمناقب موسى عليه السلام، بأشْهرِ ما اختصّه اللّهُ به مِن عطايا الإمداد والاستعداد، فجعلَه موصولًا به بمَدَدِ التّكليم كفاحًا، وقوّى استعدادَه على مواجهة الطَّاغيَة فرعون بموهبةِ هارون أخيه عليه السلام عَضُدًا له.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾: أَصْلُ النِّداءِ مِنَ النَّدَى، أي: الرُّطوبة، يُقالُ: صَوْتٌ نَديٌّ رَفيعٌ، واستعارةُ النِّداء للصَّوْت من حيثُ إنّ مَنْ تكْثُرُ رطوبةُ فمه حَسُنَ كلامُه؛ ولهذا يوصَفُ الفَصيحُ بكَثرةِ الرّيق[1]، والنِّداءُ: جَهْرُ الصَّوْتِ لِإِسْماعِ البَعيدِ[2]، وقد يُقالُ ذَلِكَ للصَّوْتِ المُجرَّدِ، وإيَّاهُ قَصَدَ بقوله: ﴿إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾ [البقرة: 171]، ويُقالُ للمُركَّبِ الَّذي يُفْهَمُ مِنْهُ المَعنى ذَلكَ، قالَ تَعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشّعراء: 10][3]، والمَقْصودُ بالنِّداءِ في الآية: الكَلامُ الدَّالُّ على طَلَبِ الإِقْبالِ، وهو كَلامٌ موجَّهٌ مِنْ جانِبِ اللّه تَعالَى إلى موسى عليه السلام[4].

2) ﴿جَانِبِ﴾: أصلُ الجَنْبِ: الجارِحَةُ، ثمَّ استُعيرَ للنَّاحيةِ الَّتي تليها[5]، والجانِبُ: شِقُّ الإنْسانِ وغَيْرِه، تَقولُ: قَعَدْتُ إِلَى جَنْبِ فُلانٍ وإِلَى جانِبِه، بِمَعْنًى، والجَمعُ جُنوبٌ وجَوانِبُ وجَنائِبُ، الأَخيرة

(1) الرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (ندا، ندي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127.
(3) الرَّاغب، المفردات: (ندا)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 32.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127 - 128.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنب).

نادِرَةٌ، والجَنْبُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: ناحيته[1]، ويأتي الجَنْبُ بمعنى القُرْبِ، ومنه قولهم: وفي جَنْبِ اللّه، أي: في قُرْبِه وجِوارِه[2]، والمقصودُ بالجانب في الآية: النَّاحيةُ السُّفْلى[3].

3) ﴿ٱلطُّورِ﴾: (طور) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهو الامتِدادُ في شَيْءٍ مِنْ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ، مِنْ ذلكَ طَوارُ الدَّارِ، وهو الَّذي يَمتَدُّ مَعَها مِنْ فِنائِها؛ ولِذَلِكَ يُقالُ: عَدا طَوْرَهُ، أَيْ: جازَ الحَدَّ الَّذي هو لَهُ مِنْ دارِه، ثُمَّ اسْتُعِيرَ ذَلِكَ في كُلِّ شَيْءٍ يُتَعَدَّى[4]، والطّورُ في كَلامِ العَرَبِ الجَبلُ[5]، فيَجوزُ أَنْ يَكونَ اسْمًا علمًا مَوْضوعًا، ويَجوزُ أَنْ يكونَ سُمّي بِذَلِكَ لِما فيه مِن امتِدادٍ طولًا وعَرْضًا[6]، والمُراد بالطّورِ في الآية: الجَبَلُ الواقِعُ بَيْنَ بِلادِ الشَّامِ ومِصْرَ، ويُقالُ لَهُ: طورُ سَيْناءَ[7].

4) ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾: أصلُ اليَمينِ: الجارِحَةُ، وضدّه اليَسار[8]، واليَمنةُ: خِلافُ اليَسْرة، ويُقالُ: قَعَدَ فُلانٌ يَمنَةً، والأَيْمَنُ والمَيْمَنَة: خِلافُ الأَيْسَر والمَيْسَرة[9]، ونَظَرَ أَيْمَنَ مِنْهُ، أي: عَن يَمينِه[10]، فالمقصودُ بالأَيْمَنِ في الآية: جِهَةُ اليَمينِ، والمُرادُ بوصف جانب الطّور به؛ لِأَنَّه الَّذي على يَمينِ مُسْتَقْبِلِ مَشْرِقِ الشَّمسِ، وهي الجِهَةُ الَّتي يَضبطُ بِها البَشَرُ النَّواحيَ[11]، وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ هنا: ما عن يمين موسى عليه السلام من الطّور؛ لأنّ النّداء جاءه من قِبَل يمينه.

5) ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾: (قرب) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ[12]، يُقالُ: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ، وقَرَّبْتُه أُقَرِّبُه قُرْبًا وقُرْبانًا، القُرْبُ في المَكان، والقُرْبَةُ في الرُّتْبَةِ، والقُرْبَى والقَرابَةُ في الرَّحِمِ[13]،

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (جنب).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (جنب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طور).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(8) الرّاغب، المفردات: (يمن).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (يمن).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (يمن).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).
(13) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (قرب).

وقرَّب الشَّيْء قُربًا وقُربانًا: أتاهُ فقَرُب منْهُ[1]، وأقرَبوا إبلَهُم: أَدْنَوها مِنَ الماءِ[2]، والتَّقَرُّبُ: التَّحدّي بما يقتضي حُظْوة[3]، وحقيقةُ التَّقْريبِ في الآية: الجَعْلُ بِمَكانِ القُرْبِ، وهو الدُّنوُّ، والمراد هُنا: القُرْبُ المَجازيُّ، وهو الوحْيُ[4].

6) ﴿نَجِيًّا﴾: (نجو) أَصْلٌ يَدُلُّ على سَتْرٍ وإخْفاءٍ، مِن ذلك: النَّجْوُ والنَّجْوى: السِّرُّ بَيْنَ اثْنَيْنِ[5]، والنَّجيُّ: المُتناجونَ، يُقالُ: نَجَوْتُهُ نَجْوًا، إذا سارَرْتَهُ، وكذلك ناجَيْتُهُ، وانْتَجى القومُ وتَناجَوْا، أي: تسارّوا، وانْتَجَيْتُهُ أيضًا، إذا خصصتَه بمناجاتك[6]، والجَمعُ أَنْجِيَةٌ[7]، والمُرادُ بنَجيٍّ في الآية: المُحادَثَةُ السِّرِّيَّةُ، فعيلٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ مِنَ المُناجاةِ[8].

7) ﴿وَوَهَبْنَا﴾: أَصْلُ الهِبَةِ مِنَ الوهْبِ، وهو إيصالُ الشَّيْءِ إلى غَيْرِه بما يَنْفَعهُ سَواء كانَ مالاً أَوْ غَيْرَ مالٍ[9]، والهبة: الإعْطاءُ بِلاَ عِوضٍ، يُقالُ: وهَبَ لَهُ الشَّيْءَ يَهَبُهُ وهْبًا وهِبَةً، أَيْ: أَعْطاهُ إيَّاه بِلا مُقابِلٍ، وتُطْلَقُ الهِبَةُ على العَطيَّةِ نَفْسِها، كالقَوْلِ: هِبَةٌ حَسَنَةٌ، أَيْ: عَطيَّةٌ حَسَنَةٌ[10]، والاسْتيهابُ: سُؤالُ الهِبَةِ، والاتِّهابُ قَبولُها، والوهَّابُ: كَثيرُ الهِباتِ[11]، والمقصودُ بالهِبَةِ في الآية: إِعْطاءُ شَيْءٍ بِلا عِوضٍ، والمراد بهِبَةِ أَخيه لَهُ: أَنَّ اللّه عَزَّزَهُ وأَعانَهُ بِه[12].

8) ﴿رَّحْمَتِنَآ﴾: (رحم) أَصْلٌ يَدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ مِنْ ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه[13]، والرَّحْمَةُ: اسْمُ مَصْدَرٍ لِصِفَةِ الرَّاحِمِ، وهيَ مِنْ صِفاتِ الإِنْسانِ، فهيَ رِقَّةٌ في النَّفْسِ تَبْعَثُ على سَوْقِ الخَيْرِ لِمَنْ تَتَعَدَّى إليه[14]، وإذا وُصِفَ بها

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم: (قرب).
(2) السّمين، عمدة الحفَّاظ: (قرب).
(3) الرَّاغب، المفردات: (قرب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (نجا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نجا، نجي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وهب).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(14) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 24.

الباري فليس يُراد بها إلَّا الإحسانُ المُجَرَّد دونَ الرّقَّة، وعلى هذا رويَ أنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[1]، والرَّحْمَةُ أيضًا: القرآن[2]، والمَغْفِرَةُ[3]، والنُّبوّة[4]، والمُرادُ بالرَّحمة في الآية: الفَضْلُ والنِّعمَةُ؛ وإنَّما جُعِلَتْ تِلْكَ الهِبَةُ مِنْ رَحْمَةِ اللّه؛ لأَنَّ اللّه رَحِمَ موسَى إذْ يَسَّرَ لَهُ أَخًا فصيحَ اللِّسان، وأكمله بالإنباء حَتَّى يَعْلَمَ مُرادَ موسَى مِمَّا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللّه تعالَى[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تكليمُ الله تعالى لموسى تفضيلٌ له على غيرِه مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ

يقولُ الحَقُّ سُبحانه: وكلَّمنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه، مِن ناحيةِ جَبَلِ طورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، حينَ أَقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ، وأدنَيْناه، فسَمِعَ كلامَ اللّه تعالى، وخاطَبه عن قُربٍ، بلا واسِطةٍ، وآتَيناه مِن رَحمتِنا له إجابةَ سُؤالِه، فجعَلْنا أخاه هارونَ نبيًّا مِثلَه؛ ليُعينَه[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾:

كليمُ الله هو المُخلَص بالاصطفاء، والمنادَى بالوحي

جملة: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: 51][7]؛ تعديدًا لمناقب موسى ﷺ، كأنّه قيل: أخلصناه وناديناه، فهو المُخلَصُ بالاصطفاء، والمُنادَى بالوحي، وهو مِن باب الجمع بينَ الشّيء وأثَرِه؛ لأنّ اختصاصه بنداء الوحي هو أثَرُ استخلاصِ اللّه له؛ وقد هيَّأ لذِكرِ تلك المناقبِ قولُه تعالى في الآيةِ السَّابقة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

(1) الرَّاغب، المفردات: (رحم).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 358، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 6/ 75.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 5/ 90، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 173.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 126.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 558، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 114، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 495.
(7) صافي، الجدول: 16/ 313.

﴿مُخۡلَصٗا﴾ [مريم: 51] على القراءتَين المتواترتَين في كلمة: ﴿مُخۡلَصٗا﴾ [مريم: 51]؛ إذ هو بفتح اللّام وكسرها، فقد ثبَت له خبرُ الكونِ على جهة العَراقة والرُّسوخ؛ فكانَ شديدَ القُرْبِ مِنَ المُنادي سبحانه، فقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، ويُلاحَظُ أنَّ القرآنَ دلَّ على قوّةِ استدعاءِ الأوصافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ [مريم: 51]؛ للنّداء من جانب الطّور الأيمن ولتقريبه نجيًّا، بنظمها في آية مستقلّةٍ مقترنةً بقولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ [مريم: 51]، معَ التوافقِ في الإخبارِ عنه بصيغةِ الماضي: ﴿كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ [مريم: 51 - 52]؛ وكأنَّ هذه الأوصافَ كافيةٌ في التعريفِ بعبوديةِ موسى عليه السلام، وفي التَّسَبُّبِ في تعرُّضِه لرحمةِ الرّبّ تعالى.

دلالة استعمال (النّداء) دون الكلام:

في النّداء إلْفاتٌ واستنباهٌ

جملة: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾: النّداء: الكلام الدّالُّ على طَلَب الإقبال، وأصله: جَهْرُ الصّوت لإسماع البعيد، فأُطلِق على طلبِ إقبالِ أحدٍ مجازًا مُرسَلًا[1]، والمقصود به في الآية: تكليمُ اللّه لموسى عليه السلام[2]، ولم يقل: (كلّمناه)؛ للدّلالة على أنّه أوّل تكليم، فاقتضى معنى الإلْفات والاستنباه الذي يحصل بالنّداء، وللدّلالة على معنى البُعد، فإنّه قبل الوحي والتّكليم كان بعيدًا عن ساحةِ المُناجاة والاستخلاص، فنوديَ لها، ويؤيّده قولُه بعده: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، فالنّداءُ أوّلُ التّكليم ومُفتَتَحُه.

معنى ﴿مِن﴾ في الآية:

تَعْظُم الجهات بما اقترن بها مِنَ الحوادث الكبار

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: وصَلَه النّداءُ من هذه الجهة، أي: ظهورُ كلامه سبحانه، وسماعُ موسى عليه السلام له، كان من تلك الجهة، حيثُ كان مُقبِلًا من هنالك[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 20.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 421.

فائدة ذكر اسم ﴿ٱلطُّورِ﴾، ومعنى (أل) فيه:

المواقِع تأخذُ حكمَ الواقِعِ فيها

ذُكِرَ اسمُ ﴿ٱلطُّورِ﴾ في قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾؛ تعريفًا للجانبِ وتعيينًا له، وتنصيصًا على المكان الذي وقع فيه الحَدَث تشريفًا له وتقديسًا؛ فإنّ المواقِعَ تأخذُ حُكْمَ الواقِعِ فيها، فلمَّا كان جبلُ الطّورِ موقِعَ النّداءِ الإلهيّ والتكليم الرِّساليّ، كان حَريًّا بأنْ يُذْكَر ويُنَصَّ على اسمِه، فإنّ الشّيءَ أجدرُ أنْ يُسمَّى ويُذْكَر إذا اقترن بأندرِ الأحداث فيه، ولا ريبَ أنّ التّكليم بالوحي هو الحَدَثُ النَّادِر الفريدُ في هذا المكان، فيُخَصُّ بالذّكْر كلّما اقترن به، و(أل) في ﴿ٱلطُّورِ﴾ للعهد الذّهنيّ، أو الحُضوريّ.

بلاغة الوصف في قوله: ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾، ومعنى (أل) فيه:

خيرُ الجهات اليمين

وصْفُ ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ في قوله: ﴿جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾، وصْفٌ للنَّاحيةِ اليُمنى مِنَ اليمين لِمُستقبِلِ مَشرقِ الشّمس؛ لأنّ جهة الشّمس هي الجهة التي يَضْبِط بها البَشَرُ النّواحي[1]، فالمُراد به يمينُ موسى ﵇، أي: النَّاحية التي تلي يمينَه، إذِ الجبلُ نفسُه لا ميمنةَ له ولا مَيْسَرة[2]، ولم يقل: (جانبِ اليمين)؛ مُبالغةً في تعيين الجهة، وأنّها متمكّنةٌ في اليَمينيّة، لنفي توهّم أن تكون جهةُ اليسارِ مائلةً لليمين، أو جهةُ اليمينِ مائلةً لليسار، ويجوز أنْ يكون ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ مِنَ اليُمن، أي: الجانب الميمون المُبارك، وتكون صيغةُ (أفعل) دليلًا على كمال الصّفة، وعليه صَحّ أن تكون ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ صفةً لـ﴿ٱلطُّورِ﴾ بجملتِه، ولـ﴿جَانِبِ﴾ كذلك[3].

سِرُّ التّقييد بـ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾:

جهة اليمين ذاتُ يُمنٍ وبركة

كان التّقييد بـ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ لأنّ الشّجرةَ التي آنسَ عندها نارًا، فأتاها فنوديَ عندها، كانت في ذلك الجانب[4]، وهي المذكورة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 421.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 20، والسّمين، الدّرّ المصون: 7/ 607.

(4) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 399.

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [القصص: 30]، فوصْفُ الجانبِ بالأيمنِ كشْفٌ للواقِعِ، وليس قيدًا مُخْرِجًا.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾:

التّكليم الإلهيّ يستلزم التّقريب للمُناجاة

جاءت جملة: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾[1]؛ لتتميم نعوتِه عليه السلام في الاجتباء والاصطفاء، وللإيذان بأنّ كونه مُنادًى بالكلام الإلهيّ يستلزمُ تقريبَه بمناجاته للّه، ومناجاةِ اللّه له بسِرِّ الوحيّ مِن غير واسطة[2]، هذا بيانُ الاتّصالِ العامِّ بينَ الجملتَيْن.

ولو قيل: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ مِن غير واوٍ: لكان توكيدًا خفيًّا لـ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، ومُتَّصِلًا به اتصالًا خفيًّا أيضًا؛ لأنّ النّداءَ المَذكورَ يَلْزَمُ منه التّقريبُ، ولأنّ التّقريبَ الشّديدَ في: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ يَلْزَمُ منه النّداءُ المذكورُ وغيرُه، فالأصلُ والظّاهرُ غيابُ العاطف، وإنّما حضَر العاطفُ؛ للإشعارِ بكمالِ عظَمةِ التّقريبِ الشّديدِ؛ بجعله مُستقلًّا؛ إذِ الأصلُ في الواوِ أنْ تُفيدَ المُغايَرةَ؛ وذلك كلُّه كانَ؛ لأنّ ما تُثْبِتُه السّورةُ مِن معانٍ وأوصافٍ للأنبياءِ والرّسلِ وغيرِهم مِنَ الصّالحينَ مِن أهلِ الإيمانِ، إنّما هو مِن آثارِ رحمةِ الرَّبِّ المُسلَّطةِ على العبوديّةِ التي قام فيها النّبيُّ عليه السلام، واتّصَفَ بها، وكأنّ تلك العبوديّةَ سببٌ في التّعرُّضِ لتلك الرّحمةِ وآثارِها، وكأنّ تلك الأوصافَ والمعاني المقرَّرَةَ لهم مِن آثارِ تلكَ الرّحمة؛ وعلى هذا تأسَّسَتِ السّورةُ؛ إذ بُنِيَتْ على قوله سبحانه وتعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2].

سِرّ ارتباط التّقريب بالمُناجاة:

المُناجاة بريد القُرْب

اقترن التّقريب بالمناجاة في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ على خلافِ الظّاهر؛ لأنّ المناجاة لا تحصُل إلّا عنِ اقترابٍ شديد، لأنّها مُسارَرَةٌ

(1) صافي، الجدول: 16/ 313.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 212.

بالإخلاص - الذي هو سِرّ النّبوّة وجوهرُ العبوديّة - من موسى لربّه، ومُسارَرَةٌ بالوحي - بلا واسطة - مِنَ اللّه لموسَى، والمُسارَرَةُ لا تكون إلّا بِقُربٍ زائد، وللدّلالة على شِدّة القُربِ وزيادته وبُعْدِه في الرُّتبةِ والدّرجة ضَعّفَ الفِعلَ فقال: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، وللدّلالة على التّعديَة، كأنّه قيل: (أقْرَبَه إليه)، ولكنّ ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ أبلغ، وهذا يُؤنَس بما ذُكِرَ في التّعليلِ لذِكرِ التّنجيةِ على خِلافِ الظاهر، وصيغة ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ تدلّ على نزول الرّتْبة وضَعْفِ الحال قبلَ النّبوّة، فأَصْعَدَه اللّهُ في مراقي التّكليم ومعارج الوحي إلى رحابه ومعيّته، فكأنّ موسى عليه السلام قبلَ ذلك كان بعيدًا جِدًّا في طريق اللّه، فاقتضى ذلك عملًا كثيرًا في فِعل القُرب؛ ليقترِبَ بالنّبوّة والاجتباء، فعُبّر عن ذلك بصيغة التّضعيف، ومبنى ذلك على تصوّر البَوْن الشّاسع بينَ النّبوّة وحالِ الإنسان العاديّ، فبينَ الحالَين بُعدٌ عظيم، فيقتضي تقريبًا كثيرًا وعظيمًا، وهذا لا يعني اتصافَ موسى عليه السلام بشيء مِنَ النّقائصِ، عياذًا باللّه من ذلك، وإنّما السّياقُ الكليُّ للسّورةِ؛ لبيان عظيمِ رحمةِ الرّبِّ ذي الإحسان والإنعام، في المعاني والأوصافِ التي أثبتتها السّورةُ للأنبياء عليهم السلام.

سرُّ اختيار صيغة ﴿نَجِيّٗا﴾:

النّجيّ مِنَ الإنجاء أو المناجاة

﴿نَجِيّٗا﴾ على بناء (فعيل) الصّالح لأن يكون مصدرًا، وهو في المصادر يدلّ على صوتٍ وسَيْر، وهو شديد المناسبة مِن جهةِ معناه مع ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ و﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، ومِن جهةِ صيغتِه الدَّالّةِ على الإبلاغ في إثباتِ معناه لموسى، معَ: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ معنًى وصيغةً، وأيضًا: المُناجاة مِن موسى كانت بصوتِه كسائر العباد حالَ المُناجاة، وبِسَيْره لمَّا قال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 84]، ويصحّ أن يكون مِن أوزان المبالغة في الفاعل، أو أوزان المبالغة في المفعول، وهو يدلّ على كثرة مزاولة الفِعل، حتّى صار كالطّبيعة والخِلْقة الثّابتة الصّاحبة، وهو إمَّا حالٌ مِن ضمير الفاعل في ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، أي: ناجاه

اللّه بنِداء الوحي، فـ﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى: المفعول أي: مُناجَى مِنَ اللّه، أو مُنَجًّى مِنَ اللّه، مِنَ الإنجاء لا التّناجي، ويوافقه قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ [طه: 40]، أو حالٌ مِن ضمير المفعول، وهو ضمير موسى، أي: مُناجيًا لرَبّه، فـ﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى الفاعل، أي: مُناجٍ هو لرَبّه(1)، ويَصِحّ أن يكون مِن أوزان الصّفة المُشبّهة، ويكون في السّجايا والطّبائع الملازمة للنّفوس، أو ما نُزِّل منزلتَها، على معنى أنّ التّناجي مع اللّه سبحانَه هو دأبُ الأنبياء، لا ينفكّون عنه، فهو وصفٌ ثابتٌ لهم لا يَبْرحونه(2).

بلاغةُ الاستعارة في ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾:

القُرب مِنَ الله رتبةُ المُناجين له

في قوله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾ استعارةٌ تمثيليّة تصريحيَّة، حيثُ شُبِّهَتْ حالُ موسى عليه السلام مع اللّه في القُربِ المعنويّ الرُّتَبيّ، بحال من قَرّبه الملِكُ لمناجاتِه قُرْبَ مكانٍ واصطحاب(3).

بلاغة الإتيان بالمفعول به ضميرًا غائبًا:

القُرب مِنَ الله يزيد الرّوح صفوًا والبدن خِفّة

جاء بالمفعول به ضميرًا غائبًا، وهو ضمير موسى عليه السلام؛ اعتمادًا على الظّاهر السّابق في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ [مريم: 51]، وتناغمًا مع حركة الضّمائر في الآية: ﴿إِنَّهُۥ﴾ [مريم: 51] ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، ولِطَيّه وإدماجِه في حضرة القُرب والتّناجي صار كأنّ ذاتَه تُنوسيَتْ وخَفيَتْ في مَحاضِنِ السّرّ الإلهيّ والرّعاية الخاصّة، فكان إضمارُه أنسبَ للمعنى وأوفقَ للمقام؛ فالتعبيرُ عنه بالضّميرِ - مع أنه الأصلُ والظّاهرُ - تمكينٌ لإنباءِ جملةِ النّداءِ، وإفصاحِ جملةِ التّقريبِ.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾:

جملة: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ معطوفة على ما قبلها(4) مِن أفعال الاصطفاء:

(1) السّمين، الدّر المصون: 7/ 607.

(2) صافي، الجدول: 13/ 46.

(3) إسماعيل حقيّ، روح البيان: 5/ 339.

(4) صافي، الجدول: 16/ 313.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، وهو تعديدٌ بديعٌ لِلمغايرةِ بينَ ألوانِ المناقب التي اجتمعتْ لموسى ، وحظيَ بتشريفها وخصوصيّتها.

مناقب الأنبياء لا تُنافَس

ومِن وجوه الاتّصالِ بينهما أيضًا: معنى الرّحمةِ؛ فهو منطوقٌ في الثَّانية، مفهومٌ في الأولى؛ فكانتِ الثَّانية المعطوفة مُمسِكةً بالمعطوفِ عليها، ومِن تمامِها.

إيثارُ لفظِ الهبة، دون غيره:

نِعمَ الأخُ حين يكون هبةً لأخيه

استعمال لفظِ الهبة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾ يدلُّ على أنّ إشراك موسى لهارون معه، كان محضَ فضلٍ مِنَ الله، وأنّه عطاءٌ خالصٌ مِنَ الأعواض والأعراض، فليس له مُقابِلٌ، لا عن استحقاقٍ منهم، ولا عن عِوضٍ وقيمة[1]، ولا يخفى أنّ استعمال لفظ: (الهبة) فيه تعظيمٌ لشأنِ ضمّ هارون إليه بالنّبوّة.

سرُّ إسناد الأفعال الثّلاثة إلى نون العَظَمة:

نون العَظَمة تدلّ على عظمة الفعل والفاعل

أُسنِدَت الأفعال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ إلى صيغةِ العظمة؛ لتمحُّضِها هنا لذي الجلال والإكرام؛ لأنّ كلًّا مِنَ النّداء المذكور والتّقريب والهبة مِن شأنه تعالى، مِمَّا لا يقومُ به غيرُه؛ لتعلّقها بالحوادث النَّادرة العظيمة، التي لا تحصل إلَّا لأفذاذ النَّاس وصفوتهم، فالاختصاص بها أمرٌ عظيم لا يتأتّى إلَّا لعظيمٍ قادر، ففي الإسناد تعظيمٌ للفاعل، وتعظيمٌ للفِعل.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُۥ﴾:

يتولّى الله أصفياءَه بالنّعم

اللّام في قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ﴾ لامُ الاختصاص والأجْل، أي: وهبنا لأجْلِه - لإنْفاعِه وانتخابه، ولذا لم يقل: (وهبناه) للتّنبيه على خصوصِ الهبة بالنسبةِ له، إذْ كانت عن طلبٍ منه وسؤالٍ فأوتيَها، وأمّا ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ و﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ فكان مِنَ الله ابتداءً لا عن طلب،

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وهب).

فضلًا عن أنّ النّداء والتّقريب - هنا - لا يصحّ تعدّيهما باللّام، والتفرقةُ بينَ المقامينِ تُظهرُ حصولَ التّقريبِ في الثّاني؛ إذ لو لم يُرِدْ تعالى تقريبَه لَما آتاهُ سُؤْلَه.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾:

المواهب أثرٌ مِن آثار رحمة الله

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾ بيانيّةٌ مُفسِّرةٌ لفعلِ الهبة، أي: ما مصدره؟ أو ابتدائيّة، أي: واصِلَةٌ مِن رحمتِنا، أو سببيّة، على معنى: أنّ المَواهبَ تحصُل بسبب المَراحِم، أو تبعيضيّة[1]، على معنى: أنّ الموهبةَ المذكورة جزءٌ مِن أجزاء رحمة اللّه عمومًا، وبعضٌ مِن رحمة اللّه بموسى خصوصًا، وفيه إشارةٌ إلى أنّ رحمةَ اللّه بموسى عليه السلام كانت عظيمةً كثيرة.

بلاغة تقديم شِبْهَي الجملة:

تأنّس النّفس بتخصيصها بالمواهب

لم يقل في السياق الكريم: (ووهبنا من رحمتنا له)، أو (ووهبنا أخاه هارون له من رحمتنا)؛ ليدلَّ على أنّه مقصودٌ أصالةً مِنَ الموهبة الإلَهيّة، بغضِّ النّظر عن مُتعلَّقها، فهو موهوبٌ ابتداءً وانتهاءً، فالمقصود تناولُ ذاتِه بأصل الموهبة قبلَ فرعها، وتقديم شِبْهَي الجملة للاختصاص والحصر، أي: وهبنا له خصوصًا - لا لغيره - من رحمتنا - خاصّة - أخاه هارون، وفي التّقديم تشويقٌ إلى الهبة بالأُخوة ثُمّ بالنّبوّةِ؛ رمزًا إلى عظيم الامتنان والرّحمة بهما؛ لأنّ العَظَمةَ فيهما ظاهرة؛ بقرينة إسناد الهبة إلى صيغة العظمة في قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾.

سِرّ التّعبير بالاسم الظّاهر ﴿هَٰرُونَ﴾ بعد ﴿أَخَاهُ﴾:

الأخ الصّالح ظهيرٌ لأخيه

صَرّحَ بالاسم الظّاهر ﴿هَٰرُونَ﴾ في قوله: ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾، ولم يكتف بـ﴿أَخَاهُ﴾، بأن يقال: (ووهبنا له من رحمتنا أخاه نبيًّا)؛ للامتنان على هارونَ عليه السلام بذِكْر اسمه تشريفًا له بالنّبوّة، وللإبلاغ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 422.

في تعيينِ شخصِه؛ لئِلَّا يُتوهَّم غيرُه، وهذا مِن تبرُّجِ الدّلالة القرآنيّة على أعلى مستوياتها؛ ولأنّ موسى ﷺ لَمَّا سأل معيّةَ هارون، كان ذلك بغرض إيناسِه واعتضادِه به، والمُعاضِدُ ظاهرٌ معنًى، فكذلك لفظًا، فلا يُذكَر موسى إلَّا وهارونُ مذكورٌ ظاهرٌ معه لفظًا، وظَهيرٌ له معنًى.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّداء والخطاب:

النّداء خطاب مخصوص

النّداء أخصّ مِنَ الخطِاب، وفَردٌ مِن أفراده؛ لأنّ الخطابَ هو مُراجعة الكلام وتداوُله بينَ طرفين، وأصلُه مِنَ الخَطْب، وهو الأمرُ والشّأن أيًّا كان مضمونُه، فالخِطابُ هو إنشاء الحديث في شأنٍ أو أمرٍ ما، بأيّ صيغةٍ أو بأيّ أسلوب، وأمَّا النّداء فيُطلَقُ على الأسلوب الخاصّ باستدعاء طَلَبِ الإقبال واستنباه الآخَر بصيغة النّداء، فهو خطابٌ خاصٌّ في أسلوبه وقصدِه[1].

الجانب والنَّاحية والجهة:

يُلمَح في الجانب الجارحةُ، وفي النَّاحية القصدُ، وفي الجهة الانكشافُ

الجانب والنَّاحية والجهة ألفاظٌ متقاربة، تدلُّ على جانب الشّيء، وهو الجُزء المتّصل به، والقِطعة منه، لكن بينها تبايُنٌ باعتبار المدلول الأصليّ لكلّ لفظ.

فالجانب: هو النَّاحية التي تلي جنبَ الإنسان، فأصلُ الجانب مأخوذٌ مِنَ الجارحة، ثُمّ استُعير منها للنَّاحية التي تليها، كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك، نحو: اليمين والشّمال[2]، وهذا اللّفظ هو المصوِّرُ حقيقةَ المكانِ الذي كان فيه النّداءُ، وتمثَّلَ لموسى الكلامُ منه.

والنَّاحية: مِنَ التّنحّي، وهو الميل مِن قصدٍ إلى قصد، فتُقال

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خطب، ندي).
(2) الرَّاغب، المفردات: (جنب).

النَّاحيةُ لكلّ جانبٍ مال عنِ المَركزِ والمَقرّ، وأصله: الجانبُ المائلُ عن قَصْد الطّريق، أي: وسَطِه ومَركزِه[1].

والجِهَةُ: هي الجانب الواضح الظَّاهر مِنَ الشّيء، مِن قولهم: أَجْهى الطّريق، إذا وضَحَ وظَهر، ولذا استعملها القرآنُ في المقصود الظَّاهر، فقال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148][2].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، اللّسان: (نحا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهو)، وابن منظور، اللّسان: (جها).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: 54 - 55]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

أغراض الأنبياء واحدةٌ، تتكامَل ولا تتخالف

لَمَّا ذكر في الآيات السَّابقة إبراهيم عليه السلام وهبةَ اللّه له بإسحاق ويعقوب، ذكر - هنا - إسماعيلَ عليه السلام، وفصَلَ ذِكْره عن ذِكر أبيه وأخيه بقصّة موسى، لإبراز كمالِ الاعتناءِ بأمره بإيراده مستقِلًّا[1]؛ لكونه الابنَ البِكْرَ لإبراهيم عليه السلام، وشريكَه في بناء الكعبة[2]، وناسب أن يأتيَ به بعد موسى عليه السلام لكونه موافقًا له في ظهور آيةِ الماء الذي به حياةُ كلّ شيء، وإن كانت آيةُ موسى عليه السلام انقضت بانقضائه، وآيتُه هو باقية إلى أن يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومَن عليها[3]، ولكونه جَدَّ خاتمِ الأنبياء ﷺ، الذي ينسخ اللّهُ به شريعة بني إسرائيلَ التي هي مِن موسى إليهم، وتُبشِّر بالنَّبيِّ العربيّ من ولد إسماعيل - عليهم جميعًا السّلام -.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَمعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ[4]، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، والكِتابُ: الفَرْضُ، قالَ تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ويُقالُ لِلْحُكْمِ: الكِتابُ، قالَ تَعالَى: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البيّنة: 3]، أَيْ: أَحْكامٌ مُسْتَقيمَةٌ، ويُقالُ لِلْقَدَرِ: الكِتابُ[5]، والكِتابُ: القُرْآنُ الكريم[6].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 129.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 213.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (كتب).
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 496.

2) ﴿صَادِقٗ﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمِّيَ به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له[1]، وصَدَّقه: قَبِل قولَه، وصَدَقه الحَديثَ: أنبأَه بالصِّدْق، ويُقالُ: صَدَقْتُ القومَ، أَيْ: قُلْتُ لَهُم صِدْقًا، ورَجُلٌ صِدْقٌ، وامرأةٌ صِدْقٌ، وُصِفا بالمَصْدَرِ، وصِدْقٌ: صادِقٌ، كَقَوْلِهم: شِعْرٌ شاعِرٌ، يُريدونَ المُبالَغَةَ والإشارةَ، والصِّدّيقُ: المُلازِمُ لِلصِّدْقِ[2]، والمقصودُ بالـ﴿صَادِقٗ﴾ في الآية: المُبالِغُ بالصِّدْقِ والمَشْهورُ به، وبه اشْتَهَرَ إسماعيلُ، وتَرَكَهُ خُلُقًا في ذُرّيّته[3].

3) ﴿ٱلۡوَعۡدِ﴾: (وعد) أصلٌ يدُلُّ على تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُه أَعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ[4]، والوعْد: مَعْروف، وعدْتُ الرَّجُلَ أعِدُهُ وعْدًا حسنًا مِنْ مالٍ وغَيره، وفُلانٌ وفيُّ الوعْدِ والموعودِ[5]، والوعْدُ فيه حَقيقَةٌ لا مَحالَةَ[6]، والمقصودُ بالوعد في الآية: إِخْبارُ مُخْبِرٍ بِأَنَّهُ سَيَعْمَلُ عَمَلًا لِلْمُخْبَرِ، وأَعْظَمُ وعْدٍ صَدَقَهُ إسماعيلُ، وعْدُهُ إبْراهيمَ بِأَنْ يَجِدَهُ صابِرًا علىِ الذَّبْحِ، فقالَ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]، وهو المُراد هنا.

4) ﴿مَرۡضِيّٗا﴾: (رضي) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ السُّخْطِ، تَقولُ: رَضيَ يَرْضَى رِضًى، وهو راضٍ، ومَفْعولُهُ مَرْضيٌّ عَنْهُ[7]، ورضيتُ الشَّيء وارْتَضَيْتُهُ فهو مَرْضيٌّ، ومَرْضوٌّ[8]، ورِضا العبدِ عن اللّه تعالى: أَلَّا يَكْرَه ما يجري به قضاؤه، ورِضا اللّه عنِ العَبْد: هو أن يراه مُؤْتمِرًا لأمره، ومُنْتهيًا عن نَهيه، والرِّضْوانُ: الرِّضا الكثير[9]، والمراد هنا من رِضا اللّه عَنْ إسماعيل: إِنْعامُهُ عليه نِعَمًا كَثيرَةً؛ إِذْ بارَكَهُ وأَنْمَى نَسْلَهُ وجَعل أَشْرَفَ الأَنْبياءِ مِنْ ذُرّيّته، وجَعل الشَّريعَةَ العُظْمَى على لِسانِ رَسولٍ مِنْ ذُرّيّته[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صدق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وعد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 60.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رضي).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رضي).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 130.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

المَرضيُّ عند الله هو الفائزُ بأعلى الدَّرجات

واتْلُ - يا مُحمَّدُ - في القرآنِ على قَومِك خبرَ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام، أنَّ إسماعيلَ كان صادقًا في وعودِه، مُبالغًا في إنجازها، فما وعد وعدًا معَ اللّه أو مع النَّاس إلَّا وفَّى به، فكان لا يُخالف شيئًا ممَّا يُؤمَر به مِن طاعة ربِّه، وإذا وعدَ النَّاسَ بشيءٍ أنجز وعدَه، وناهيكَ مِنْ صدق وعدِه أنَّه وعدَ أباهُ أن يَصبِر على الذَّبح، فوفَّى بذلك، قائلًا: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصَّافات: 102]، وكان رَسولًا ونبيًّا، رفيعَ القَدر، يوحي اللّهُ إليه، وكان يأمر أهلَه وأقربَ النَّاس إليه بالحِرْص على أداء الصّلاة والزّكاة؛ حتى يكون هو وأهلُه قُدوةً لغيرهم في العمل الصَّالح، وكان محمودًا عندَ اللّه في أعمالِه، ارتضاه اللّهُ تعالى، وجعله مِنَ الخواصِّ المقَرَّبينَ؛ لاجتهادِه فيما يُرضيه، فرضيَ ربُّه عنه، ورضيَ هو عن رَبِّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

ذِكْرُ عزائمِ الكبارِ ينفع ويهدي

جملة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ وما بعدها مِمَّا هو مِن تمامها؛ معطوفة على جملة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ [مريم: 51] وما بعدها مِمَّا هو مِن تمامها؛ مِن عطفِ جملةٍ مِن الجمل على جملةٍ مِن الجمل، جمعًا بينَ المذكورات المأمور بها مِن أحوال كِبارِ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهو من باب عطف القِصّة على القصّة، أو الواو للاستئناف النّحويّ[2]، للشّروعِ في كلامٍ أُنُفٍ جديد بعد تمامٍ آنِفٍ سابق، والاستئناف يُبرز استقلاليّة الجملة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 562، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 116، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 496.

(2) صافي، الجدول: 16/ 314.

في العناية بمضمونها؛ إبرازًا لشأن إسماعيل عليه السلام، وأنّه حقيقٌ بأنْ يُذكَر استقلالًا، ومعنى الاستئنافِ والعطفِ متقاربٌ، حيثُ إنَّ عطفَ القصَّةِ على القصَّة فيه معنى الاستئنافِ؛ لأنَّه يُشْرَعُ في معنًى جديدٍ كليٍّ معطوفٍ على معنًى كليٍّ سابق.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعولِ:

في التّقديم تشويقٌ للمُؤخَّرِ، وإعلامٌ بأنَّ له مزيدَ اختصاصٍ

في مطلع الآية تقدَّم الجارُّ والمَجرور: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ على المفعول: ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾، وكان الأصلُ عكسَ التّرتيب؛ لكمال العناية والاهتمام بذِكْرِ إسماعيلَ عليه السلام، من جهة أنَّ ذكرَه في الكتاب الذي هو القرآنُ أو هذه السورةُ له شأنٌ أيُّ شأنٍ، ففي التّقديم تشويقٌ للمُؤخَّرِ، وإعلامٌ بأنَّ له مزيدَ اختصاصٍ بهذا الكتابِ، وفَضْلَ شأنٍ فيه؛ ومِثْلُ هذا يقال في مِثْلِ هذا التّقديمِ والتّأخيرِ في السورة؛ كما في قولِه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: 16]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [مريم: 41]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ [مريم: 51]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾، ووِزانُ هذا التّرتيبِ: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ ونظائرِه، وِزانُ التّرتيبِ في مطلع السّورة: ﴿كٓهيعٓصٓ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ②﴾ [مريم: 1 - 2]، فهو ذِكْرٌ فخمٌ؛ لأنّه مُهِّدَ له بمضمون المُقَدَّم وبصفةِ تقديمِه: ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ [مريم: 1]؛ كما يُقَدَّمُ للتّلاوة النَّادرة، وللمُحاضرة الرَّائعة، وللخبرِ النَّادر، والحَدَثِ العظيم، وهكذا، ولله المثلُ الأعلى، وكلامُه صفته، فله المثلُ الأعلى، وإن كان قولُه: ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ [مريم: 1] ليس له معنًى متّفقٌ عليه تؤدّي إليه ضوابطُ فهم المعنى وتحصيلِ مرادِه ومقصوده، غيرَ أنّ الإبهام الذي يكتسبه من كونه مِنَ المتشابه الذي لا يعلمه إلّا اللّه، يُحقِّقُ التّهيئةَ الفخمةَ والتّمهيدَ المُشَوِّقَ والمُثيرَ لقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ②﴾ [مريم: 2]، بل إنَّ تحقيقَ ذلك مع الحروف المُقطّعة أبلغُ وأقوى منه مع غيره، ممَّا لا يكون مِنَ الحروف المقطّعة، وإنّما يكون مِنَ المُحْكَم.

علَّة فصل جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾:

يرفع الله ذِكر العبد بالصّدق

فُصِلتْ جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾؛ لوقوعها تعليليّة لجملة الأمر بالذِّكر[1]: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾، أو لوقوعها استئنافًا بيانيًّا[2]، جوابًا لسؤالٍ مُقدّر عن عِلّةِ الأمر بذِكْره؛ فافتتاحها بحرف التأكيد أغنى عن العاطِف في الربْط والوصل، والأجوبةُ البيانيّة تُساقُ مفصولةً غير مقرونةٍ بالعاطف، وفيها معنى التّعليل لما قبلها، فكلُّ استئناف بيانيّ فيه معنى التّعليل لما قبلَه، وليس كلُّ تعليلٍ استئنافًا بيانيًّا.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة المؤكَّدَة:

الأنبياء مطبوعون على المناقب الشّريفة

إيرادُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ جملةً اسميّةً مؤكّدة؛ لتحقيق مضمونِها، وتأكيد النِّسبة بينَ الاسم والخبر، فيفيد ثبوتَ نِسبة صدقِ الوعدِ لإسماعيل ﷺ على الدّوام، وهذه الجملة اكتنفها تأكيداتٌ: افتتاحها بـ (إنّ) وهي تأكيديّة أفادت الرّبط التّعليليّ مع ما قبلها على اعتبار الاستئناف البيانيّ، و﴿كَانَ﴾ التّحقيقيّة في ثبوت خبرها لاسمها، وكان يمكن أن يقال: (إنّه صادق الوعد)، فأُقحِم الكونُ الماضي لزيادة التّأكيد، إشارةً إلى قِدَمِه وعراقته في صدق الوعد، بما يَدُلُّ على نشأتِه النّبويّة مُذْ ميلاده، وكأنّ الكون الماضي يُفيد أنّ صِدق الوعد ليس حادثًا في حياته، أو خصلةً جديدةً عليه، بل شيءٌ تَشَرّبَهُ مُنذ كان.

بلاغة إضافة ﴿صَادِقَ﴾ إلى ﴿ٱلۡوَعۡدِ﴾:

مَن صَدَق مع الله لا يَكذِبُ النَّاسَ

إضافةُ ﴿صَادِقَ﴾ إلى ﴿ٱلۡوَعۡدِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾؛ لتعيين مجالِ صِدقِه، فالإضافة للبيان، فإذا سأل سائلٌ: صَدَقَ في أيّ شيء؟ أُجيبَ بأنّه كان صادق الوعد، أي: صادقًا في وعْده، ولا

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 120.

(2) صافي، الجدول: 16/ 314.

يتأتَّى أن يكون مِن إضافةِ الصّفة إلى الموصوفِ؛ لأنّ الأسلوبَ لو فُكَ، فقيل: (إنه كان وعدا صادقا): لَما صَحَّ معنًى.

سِرُّ إيثار صفة (صدق الوعد):

مَنِ اشتهر بشيء نُعِت به

نُكْتَةُ تخصيصِ إسماعيل عليه السلام بـ (صدق الوعد) دون غيره، لكمال اشتهاره به(1)، فمُدِح بما غلَب عليه، فغيرُه اشتُهر بأصلِ الصّفةِ، ولو كان المقصودُ إثباتَ أصلِها دون كمالها لَما كان مناطَ امتنانٍ ومدحٍ مِنَ الرّحمن؛ فقد صدقَ أباه وعدَه لمَّا قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصّافات: 102]، على أنّ (صِدق الوعد) يُفيد عمومَ المدح، لعموم الوصف في نفسِه، لا في متعلّقِه مِن النّاس؛ فإنّ صِدق الوعد وصفٌ جامِعٌ في الوفاء بكلّ ما ينبغي حِفظُه ومُراعاتُه، وصِدقُه مع أبيه عليه السلام مثالٌ على ذلك، وفي وصفِه بصدق الوعد نُكتَةٌ أخرى بديعة: وهي الإشارة إلى وِراثَتِه صِفةَ أبيه الخليل عليه السلام، فهذا مِن ذاك، وقد وصف القرآنُ الخليلَ إبراهيمَ عليه السلام فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النّجم: 37]، فكذلك إسماعيل: ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، وإنّما اصطفَى القرآنُ هذه الصّفةَ بالذّكر مِن صفاتٍ كثيرةٍ له؛ لأنّها أدَلُّ على كمال العبوديّة الألصقِ بالرّحمة الرّبانيّة، التي تسلَّطَتْ عليها في مطلع السّورة، والتي مِن آثارِها ما آلَ إليه حالُه.

نُكْتَةُ المَجيء بالمسند اسمَ فاعل:

مَـن لَـزِم شيئًا انطبع فيه

مَجيءُ المُسنَد على بناء اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿صَادِقَ﴾، للدّلالةِ على رسوخه في الصّدق، وأنّه صار يَصدُقُ إلى الدّرجةِ التي انطبع فيها الصِّدقُ بذاته، فسُمّيَ به حتّى قيل له: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، وبناءُ اسم الفاعل يدلُّ على الحدث والحُدوث والذَّات، وعلى مُزاولة الوصف ولُزومِه لصاحبه في الماضي والحال والاستقبال، مع إفادة استمراره على صفة صدق الوعد مِن غير إخلال؛ فكيف إذا أُضيف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 129.

إلى الوعد؛ فدلّت الإضافةُ على لزوم الصّدقِ لجنس وعْده، وعدمِ انفكاكِه عنه؟

سرُّ التّعبير بالمصدر: ﴿ٱلْوَعْدِ﴾، ومعنى (أل) فيه:

الوعود مختبرات الرّجال

التّعبير بالمصدر في قوله: ﴿ٱلْوَعْدِ﴾؛ لأنّه أراد الحَدَثَ ذاته مُجرّدًا عنِ الزّمن، ولذلك أضاف إليه الصّدق، فحتّى تصِحّ الإضافة لا بُدّ أنْ يُؤْتَى بالاسم، فإنّ الإضافة لا تكون في الأفعال، ولأنّ المصدر هو المعنى الثَّابت الذي يقع عليه فِعل الفاعل بِصدقِه وإنجازه، فحينما يقول: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، فالوعد هو المعنى الخالص الذي يُحْدِثه ويُخْرِجه الفاعلُ مِنَ العَدَمِ إلى الوجود، والأفعال والأوصاف المشتقّة كلّها متعدّية إليه[1]، والتّعريف في ﴿ٱلْوَعْدِ﴾ لاستغراق الجنس حقيقةً وأفرادًا، والاستغراق في الحقيقة حقيقي، وفي الأفراد عرفيّ، لأنّه صادِقٌ فيما يَعِدُ به فقط، وهذا يستغرق أفرادَ الوعودِ بحسبه هو، لا بحسبِ عمومها في المُطلَق.

بلاغة الوصل في قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾:

النّبوّة والرّسالةُ رأسُ المناقبِ

جملة: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ معطوفة على جملة: ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[2] من باب عطف الخاصّ على العامّ، فإنّ ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ مدحٌ عامٌّ، و﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ مدحٌ بالوصفِ الخاصّ، ونُكتَةُ الوصل: المغايرةُ بين ما هو له، وما هو للّه سبحانه في الأوصاف الواردة، فكونه ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ هو بِكسْبِه واختياره، وأمَّا كونُه ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ فمَحْضُ اجتباءٍ وإفضالٍ مِنَ اللّه عليه، لا دخلَ له فيه.

وجملة: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ تثبيتٌ وتأكيد لجملة ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾؛ لأنّ اتّصافَه بالنّبوّة والرّسالة يَزيدُ في اتّصافه بصِدقِ الوعد، فيَدُلّ على كمال الوصف فيه، ويُمكِّنُ هذا المعنى ويُؤنِسُ به اقترانُهما

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 149.

(2) صافي، الجدول: 16/ 314.

في آية مستقلّةٍ؛ فذلك الاقتران مصباحٌ قرآنيّ يهدي إلى فهم أثر الثَّاني في الأوّل، ولا يخفى ما بين الجملتين من الترّقّي في الأوصاف مِنَ الفاضل إلى الأفضل.

دلالة الواو في قوله ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ﴾:

خيرُ النَّاس مَن تعدّى خيرُه للنَّاس

جملة: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ معطوفة على جملة: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾؛ جمعًا بين وصف النّبوّة والرّسالة، وقيامُه بتكاليفها مِنَ البلاغ وموعظة النَّاس مِن قومه الذين هم أهلُه، والمعطوفُ عليه وما قبلَه كان في تقرير تكميلِ نفسِه عليه السلام.

إيثار لفظ الأمر، دون غيره:

للرّجلِ إمرةٌ على أهل بيته في الدّين والدُّنيا

التّعبير بلفظ (الأمر) في قوله: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ إشارةٌ إلى أنّه يُبلِّغ ما كُلِّف به كما هو، فلمَّا كان التّكليف بالصّلاة على جهة الإلزام، وكان مأمورًا بإبلاغ هذا الإلزام، عُبِّر عنه بصيغة الإلزام بعبارة الأمر؛ ففي التعبيرِ به: إشارةٌ إلى وفائه لرَبِّه، فهو راجِعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى عظيم حرصِه على أن يُصَلّي أهلُه؛ بتنزيلِه منزلةَ مَن يُلۡزِمُهم بالصّلاة.

نُكْتَةُ المَجيء بالمسنَد جملةً فعليّةً:

تكرار التّذكير ينفع ويهدي

المَجيء بالمُسْنَد جملةً فعليّةً في قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُ﴾ للدّلالة على مُزاولته للفعل كلّما جَدّ سببُه، وهو حضور الصّلاة، أو وجود مَن يترك الصّلاةَ فيأمرُه، ولذا عبّر بصيغة المضارع للدّلالة على التّكرار والاستمرار.

نُكْتَةُ اختصاصِ المفعول ﴿أَهۡلَهُۥ﴾:

الإحسانُ الدّينيّ أولى

خَصّ ﴿أَهۡلَهُۥ﴾ بالأمر بالصّلاة دونَ غيرِهم اشتغالًا بالأَهمّ، وهو أن يُقبِل الرّجلُ بالتّكميل على نفسه، وعلى مَنْ هو أقرب النَّاس إليه، على غِرار قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشّعراء: 214]، وقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: 132]، وقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ

﴿نَارًا﴾ [التّحريم: 6]، وقصدًا إلى تكميل الكُلِّ بتكميلهم، لأنّهم قدوةٌ يُؤْتَسى بهم؛ هذا على أنّ أهلَه خاصَّتُه فقط، وقيل: أهله أمّتُه، فإنّ الأنبياء عليهم السلام آباءُ الأمَم[1]، وأمّةُ العرب نشأتْ مِن ذُرّيته، فهم أهلُه بالمفهوم الواسع للقَرابةِ العامّة[2]، ويكون إطلاق الأهل على عموم القوم فيه إشارةٌ إلى كمال العناية بهم، بتحريضهم على الإيمان؛ ليكونوا أهلَه في الانتساب إلى دينِه، كما كانوا أهلَه لاشتراكهم معه في الانتساب إلى القوميّة والجنس.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾:

التّكاليف خطابٌ بالأفعال

الباء في قوله: ﴿يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ للتّعديَة، والكلام على حذف المضاف إيجازًا؛ لوضوحه، لأنّ التّكاليف لا تتوجّه إلى الذّوات بل للأفعال، فالتّقدير: (يأمر بإقامة الصّلاة)، أو (فِعل الصّلاة)، وتعدّي الأمر بالباء إلى ذات الصّلاة في الظّاهر: تنبيهٌ على عظيم حرصه على إقامتِها وفعلِها.

دلالة العطف بينَ الصّلاة والزّكاة، ومعنى (أل) فيهما:

خيرُ العبادة ما نفعْتَ بها نفسَك وغيرك

الاقتران بين الصّلاة والزّكاة مع إسناد فِعْل ﴿يَأۡمُرُ﴾ إليهما يوافقه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: 132]، فإنّ النبيّ ﷺ من ذُريّة إسماعيل وعلى مِلّته، وهو متَّبِعٌ له في الشّعائر، وأغلبُ الشّعائر لها اقترانٌ بإسماعيل عليه السلام، كما في الحَجّ والأُضحيَة وغيرِهما، وبرهانُ ذلك قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحجّ: 78]، وهذه التّسميَة إسماعيلُ شريكٌ فيها بدعائه في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، فلا غرابةَ أنْ تكون الصّلاة المأمور بها في قوله: ﴿يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ هي العبادة البدنيّة، كما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 130.

في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: 132]، وعليه: فالتّعريف في الصّلاة في: ﴿يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ للعهد، أي: الصّلاة المعهودة في شريعته، وتكون الزّكاةُ مذكورةً بعدَ الصلاةِ على أنّها تُعينُ على الكمالِ والإحسانِ في تحقيقِها وأدائها؛ لأنّ الانشغالَ بتحصيلِ الرّزق قد يُباعد بينَ العبد وبين ذلك، فهو يأمرهم بما يُكمِّلُهم غايةَ الكمالِ[1].

سِرُّ تكرارِ فعلِ الكون أربع مَرّات:

الأنبياءُ ملازِمون للخير، منفكّون عنِ السّوء أبدًا

ذُكِرَ فِعلُ الكون الماضي أربعَ مرَّاتٍ في تعديد الثّناءاتِ على إسماعيلَ عليه السلام، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾؛ لتحقيق أنّ هذه الأوصاف كانت لازمةً له لزومَ الجِبلّة والطّبع[2]، على حَدِّ الإبلاغ؛ لأنَّ كونَ الأوصاف كذلك يحصلُ بذِكر الكون أوّلَ مرّةٍ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾؛ لأنّ ما بعدَه معطوف عليه؛ فهو في حيِّز الكون الأوّل، فكان ذِكْرُ الكون في الجُمَل الثّلاث على خِلافِ الظّاهر، فهو تكرار اصطلاحيّ؛ لأنّه في سياقٍ ومقامٍ واحدٍ؛ وهذا مِن تعظيم ذِكْرِ إسماعيلَ.

دلالة الواو:

منتهى سعي العبد أن يرضى اللهُ عنه

جملة: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ معطوفة على الثّناءاتِ قبلَها، وجُعلت هذه الجملةُ في نهاية مناقبه عليه السلام، لأنّ المَرضيّ عند الله هو الفائز في كلّ طاعاته بأعلى الدّرجات[3].

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجُملة على الخبر:

مَن وجد اللهَ فقد وصَل

تقديمُ شِبه الجملة على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾؛ لإفادة الاختصاص الدّالّ على التّشريف العظيم، ومضامينُ الكرامةِ والتّشريف مُقدَّمةٌ لا تتأخّر، وقد كَنَّى عن هذا

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 550.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 214.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 550.

التّكريم التّعبيرُ بالعِنديَّة، فإنّها في معنى الجائزةِ القريبة في صدارتِها والابتدارِ تعجيلًا بها، ولذا قُدِّمتْ، فضلًا عن أنّ العِنديّة لَمَّا أُسندتْ إلى ذي الجلال والعَظَمة لم تكن إلَّا لِتَتَقدَّم في النّظم زيادةً في العناية، لأنَّها رُتبةٌ لا تُسبَق، فلها التّقدّمُ المُطلَق لفظًا ومعنًى، كأنّه قيل: واستحقّ بهذه المناقب أن يُحرِزَ مقامًا خاصًّا عند اللّه، وإذا كان المَضمونُ الظاهرُ لهذه الجملةِ ثمرةَ الجمل الثّلاث قبلَها، فإنّ دلالاتِ هذا التّقديمِ مِن ثمراتِهنَّ أيضًا؛ مِن غاية التّشريف والتّكريم والتّقريب، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى، وفي التّقديم أيضًا تشويقٌ للمُؤخَّرِ؛ للتّنبيه على عظيمِ فضلِه؛ حتّى لا يُغْفَل عنه بهذه الصّفة إذا قُدِّمَ.

نكتة التعبير بالرُّبوبيَّة:

مَـن اسـتـودع نفْسَه عند الله لم يَخِبْ

أُضيفت العِنديّة إلى الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذه العِنديّة مقامُ إحسانٍ وإفضالٍ واسع، فهي درجةٌ مثوبةٌ بالخير والبرّ، وهي مِن ثمراتِ تحقيقِ مقامات الإيمان في الجُمَل الثّلاثِ الواردة قبل جملتها.

سِرُّ إيثار صيغة ﴿مَرۡضِيّٗا﴾:

مَـن أرضى اللـهَ أرضاه اللهُ

جاء التّعبيرُ القرآني بصيغة اسم المفعول في قوله: ﴿مَرۡضِيّٗا﴾، أي: مَرضوٌّ عنه من ربّه سبحانه[1]، حتّى صار مطبوعًا بالرِّضا في داخلِه وخارِجِه، وصيغةُ اسمِ المفعول تدلّ على الثّبوت والحُدوث والذَّات، أي: ثبوت الوصفِ لذاتِ المفعول، وتجدّد حدوثه الزمنيّ له، فهو عريقٌ في رِضا اللّه عنه، وكلّما أحدث خصالًا مِن خصال العُبوديّة تجدّد له حدوثُ الرّضا، فيزداد منه بقدر ما زادَ هو في الخير، ولذا فالصّيغةُ تدلّ في الزّمن على تحقّق الصّفة واستمرارِها في المُضيّ والحال والاستقبال.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 7/ 608.

نُكْتَةُ تنكيرِ الخبر في قوله: ﴿مَرۡضِيّٗا﴾:

نُكِّرَ الخبرُ في قوله: ﴿مَرۡضِيّٗا﴾؛ للدّلالة على فخامة معناه؛ وتعظيمًا للموصوف به، وذلك مع اتصاله بالعِنديّة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصِّدق والوفاء:

الصّدقُ شرطُ صحّةِ كلِّ شأن

أصل (صَدَقَ) يدُلُّ على قوّةٍ في الشّيء قولًا وغيرَه، فالصّدقُ خِلاف الكَذِب، وقد سُمّي بذلك لقوّته في نفسه، ولأنّ الكذبَ لا قوّة له[1]، فالصِّدق يتعلّق بإيقاع الفعلِ على وفْقِ حقيقةِ الشّيء في نفسِه، فإذا أُضيف للوعد كما في الآية، فمعناه إيقاع الموعود به على حذافيره وتفاصيلة، بما يتطابق مع حقيقته.

وأمَّا الوفاء: فأصله (وفَى)، ويدلُّ على إكمال الشّيء وإتمامه، ومنه: إتمامُ العهد بإكمال شرطه[2]، فكلٌّ مِنَ الصّدق والوفاء يشتركان في المآل بتحقيق الشّيء وإتمامه، إلَّا أنّ الصّدق يُلْمَحُ فيه التّأكيد على صِحّة القَصْد وحقيقةِ الباطن وقوّةِ العَزم، فيتعلّق بالمَبدأ ووضعِ الصّحّة، والوفاءُ يُلمَحُ في التّأكيد على تتميم الخطوات وتكميل أجزاء الشّيء، فيتعلّق بالمنتهى ووضعِ الكمال.

وقد قال تعالى: ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، ولم يقل: (وافيَ الوعد)؛ ليدُلَّ على أنّه مُخلِصٌ في قَصْده، صحيحٌ في عزيمته إذا قطع وعْدًا، وهذا هو الأنسب لأنَّه أضافه للوعد، والوعد ترجيَةٌ بالإنجاز لا إنجاز[3]، فأضافَ الصّدقَ إليه لأنّ الصّدق مبدأ تَحَقُّقِ الأشياء، فهو قوّتُها المولِّدةُ لها في الواقع بالتّنجيز، بعد أنْ كانت وعدًا بالفِكْرةِ والكلمة، كما أنّ التّرجيَة بالإنجاز هي مبدأُ الإنجاز، فأخبر بما يناسِبُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).

الوعدَ عند تعاطيه والتّرجيَة به، وهو القَدْر المضمون الذي سيُسأل عنه كلُّ إنسانٍ وهو يقطع وعدًا، وأمَّا الوفاء فيتعلّق بالإنجاز المستقبليّ، وهو غير مضمونٍ حالَ الوعد، وغيرُ مسؤولٍ عنه في الحاضر.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: 56 - 57]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

مبدأ النّبوّة وخِتامُها موصولٌ بالعِلْم

لَمَّا كان إسماعيل عليه السلام قد رفَعه اللّهُ بتشريفه برفْع قواعد البيت، وشرّفه بجوار البيت، وكان هذا رفْعًا له في الرّتبة والمكان، ذكَر - هنا - إدريس عليه السلام الذي رفعه اللّهُ مكانًا عليًّا، بكونه أوّلَ نبيٍّ للنَّاس مِن ذُرّيّة آدمَ، فكان أوّلَ مَن خَطّ بالقلم، وأوّلَ مَنِ اتّخذ السِّلاح، وأوّلَ مَن نظر في عِلم النّجوم والحساب، فكما افتتح اللّهُ به بابَ العِلم والظّهور في الأرض، سيختِمُ اللّهُ بمحمّدٍ ﷺ - الذي هو من نسل إسماعيل - هذا الأمرَ، فيُظهرُه على الدّين كلّه، ويستديمُ كتابَه مقروءًا ومخطوطًا في العالَمين، ولذا أعقبَ ذِكْرَه بعد إسماعيل، وختم به قصصَ الأنبياء في السّورة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِدِّيقًا﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمّيَ به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له، وضِدُّه: الكذبُ[2]، ومنه: الصِّدّيقُ: صِفَةُ مُبالَغَةٍ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصِّدْقِ، غَلَبَ اسْتِعْمالُ اللَّقَبِ الجامِعِ لِمَعاني الكَمالِ واسْتِقامَةِ السُّلوكِ في طاعَةِ اللّه تَعالى؛ لِأَنَّ تِلْكَ المَعانيَ لا تَجْتَمِعُ إلَّا لِمَنْ قَوِيَ صِدْقُهُ في الوفاءِ بِعَهْدِ الدّينِ[3]، وأَحْسَنُ ما رَأَيْتُ في هَذا المَعْنَى كَلِمَةُ الرَّاغِبِ: "الصِّدّيقونَ هُم دوَيْنَ الأَنْبياءِ"[4]، وهَذا ما يَشْهَدُ به

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 21، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 284.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).

استِعْمالُ القُرْآنِ[1]، وعليه فالمُرادُ بالصِّدّيقِ في الآية: صيغةُ مُبالَغَةٍ في الاتِّصافِ، وهو المُلازِمُ لِلصِّدْقِ[2].

2) ﴿وَرَفَعْنَٰهُ﴾: (رفع) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الوضْعِ، تَقولُ: رَفَعْتُ الشَّيْءَ رَفْعًا؛ وهو خِلافُ الخَفْضِ[3]، ويُقال: رَفعه اللّه، أي نمَّاه وكثَّره، والرّفع أَيْضًا: تقريبُكَ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ، قالَ تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرۡفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ [الواقعة: 34][4]، ومِنْه قَوْلُهم: رفعتُه إِلَى السُّلْطان، أَي: قرَّبته مِنْهُ[5]، والرَّفْعُ: إذاعَةُ الشَّيْءِ وإِظْهارُهُ، وذَلِك قَولُهُم: رَفَعَ فُلانٌ علَى العامِلِ، وذَلِكَ إِذا أَذاعَ خَبَرَهُ، والجمعُ: المَرافِع[6]، والمُرادُ بالرَّفعِ في الآية: نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ أَعْلَى مِنْهُ، والمقصود به: رَفْعُ المَنْزِلَةِ[7]، وقيل غير ذلك[8].

3) ﴿مَكَانًا﴾: أصلُ المَكانِ: المَوضِع الحاوي للشَّيءِ[9]، واشتقاقه مِن كانَ يكونُ، فلمَّا كَثُرت صارت الميم كأنَّها أصليَّةٌ، فجُمِع على أمكنة[10]، والمَكانُ: مَكانُ الإِنْسان وغيره، ولفُلانٍ مَكانةٌ عِنْد السُّلْطان، أَي: منزِلة، والجَمعُ مُكناء[11]، والمُرادُ بالمَكانِ في الآيةِ: المَنْزِلَةُ.

4) ﴿عَلِيًّا﴾: (علو) أَصْلٌ يَدُلُّ على السُّموِّ والارْتِفاعِ، ومِنْ ذلكَ العَلاءُ والعُلُوُّ[12]، قالَ الخَليلُ: أَصْلُ هذا البِناءِ العُلُوُّ، فأَمَّا العَلاءُ: فالرِّفْعَةُ، وأَمَّا العُلُوُّ: فالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ[13]، والعالي والسَّافِلُ: بِمَنْزِلَةِ الأَعْلى والأَسْفل، والعالي: الشَّديدُ[14]، وحقيقةُ العَلاءِ في الآيةِ:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 212.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رفع).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (رفع).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 131.
(8) قالَ جَماعةٌ: "هو رَفعٌ حَقيقيٌّ إلِى السَّماءِ، وعلى هذا فرَفعُهُ مِثْلُ رَفعِ عيسى عليه السلام، والأَظْهَرُ أَنَّ ذلكَ بَعْدَ نَزْعِ روحِهِ ورَوْحَنَةِ جُثَّتِهِ"، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 131.
(9) الرَّاغب، المفردات: (مكن).
(10) الخليل، العين: (مكن).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكن)، وابن سيده، المخصّص: 3/ 397.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(13) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (علا، علو).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (علا).

الرِّفْعَةُ، والمرادُ بها: شَرَفُ النُّبوَّةِ والزُّلْفى عند اللّه تعالى، أو إسكانُه في الجنَّة، إذ لا شَرَفَ أعلى مِن ذلك[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

وصف الله تعالى إدريسَ بجملةٍ مِنَ المَفاخر والمناقب

يقول اللّهُ تعالى: واتلُ يا محمَّدُ ﷺ في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ إدريسَ عليه السلام، أنَّه كان كثيرَ الصِّدقِ في أفعالِه وأقوالِه، صادِقًا فيما يُخبِرُ به عنِ اللّه تعالى، ومُصَدِّقًا تصديقًا تامًّا بما آتاهُ مِنَ الحَقِّ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يوحي اللّهُ إليه، فرَفَع اللّهُ ذِكرَه في العالَمين، ومنزلَتَه بينَ المُقرَّبين، فكان عاليَ الذِّكر، عاليَ المَنزلةِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

خيرُ الذِّكرِ ما استَحَثّ الذِّكْرَ

جملة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ وما بعدها ممَّا هو مِن توابعها وتمامها، معطوفة على جملة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ وما بعدها ممَّا هو مِن توابعها وتمامها؛ جمعًا بين المُذَّكَرات المأمورِ بها مِن أحوال كِبارِ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهو مِن باب عطف القِصّة على القِصّة، أو الواوُ للاستئناف النّحويّ[3]، للشّروعِ في كلامٍ أُنُفٍ جديد، بعد تمام آنِفٍ سابق، والاستئنافُ يُبرز استقلاليَّة الجملةِ في العناية بمضمونها، إبرازًا لشأن إدريسَ عليه السلام، وأنّه حقيقٌ بأنْ يُذْكَر استقلالًا، ومعنى الاستئنافِ والعطفِ متقاربٌ، حيثُ إنَّ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ فيه معنى الاستئنافِ؛ لأنَّه يَشْرَعُ في معنًى جديدٍ كليٍّ على معنًى كليٍّ سابق.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 48، وقد صحَّ في حديث المعراج أنَّه ﷺ رآه في السّماءِ الرَّابعة وأنّه رحَّب به ودعا له بخير، وعلى هذا يصحُّ أن يكون المراد مِن المكان العلي السماءُ الرابعة، مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 980.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 562، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 496.

(3) صافي، الجدول: 16/ 315.

نُكْتَةُ تكرارِ الفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

الإمامةُ في الدّين أقومُ صفاتِ المُرْسَلين

إنّما كَرّر تعالى فِعلَ الإذِّكار في مستهلّ الكلام عن كلّ نبيّ؛ لغرضِ استحثاثِ الأذهان في الانتباه والاستمساك بأحوال هولاء الكِبار عليهم السلام، لئلّا يتوزّعوا أو يحتاروا بين أشتاتِ المتبوعين، والأئمّة الزَّائفين، أو القُدوات القاصرة، ولِعِصْمَة هذه الأذهانِ أن تنسى أو تَغفُلَ عن مصادر قُدوتِها الحقيقيّة، أو تستبدلَها بأدنى لا يستأهلُ الاقتداء، وتعظيمًا لهولاء المذكورين؛ إشارةً إلى أنّهم لشريف مقامهم صاروا محلّ الذِّكرِ والفِكر، والأمر إذا تكرّر تأكّدَ وتقرّر، وبولِغَ في نفي ضِدّه - وهو النّسيان - احترازًا منه، لِخَطرِ عاقبته.

عِلَّة فصل جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾:

حَريٌّ بالعَريق في الصّدق أن يُذْكَر

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ لوقوعها تعليليّةً[1] لجملة الأمر بالذِّكر: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾، أو لوقوعها استئنافًا بيانيًّا[2]، جوابًا لسؤالٍ مُقدّر عن عِلّةِ الأمر بذِكره، وافتتاحها بحرف التّأكيد أغنى عنِ العاطِف في الرّبْط والوصل، والأجوبةُ البيانيّة تُساقُ مفصولةً غيرَ مقرونةٍ بالعاطف، وفيها معنى التّعليل لما قبلَها، فكلُّ استئناف بيانيٍّ فيه معنى التّعليل لما قبلَه، وليس كلُّ تعليلٍ استئنافًا بيانيًّا.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ﴾:

استتمام مناقب إدريس عليه السلام، وضمّ الجزاء إلى سببه

جملة: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ معطوفة على جملة: ﴿كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ عطف جملة على جملة، كأنّه قيل: كان من قِصَّته أنّه كذا وكذا، وهو في معنى عطفِ الجزاء على العمل، لأنّ مَنْقَبَتَه في الصِّدّيقيَّة والنّبوَّة اقتضَتْ أنْ يُرفَعَ مكانًا عليًّا[3]، فكان الظَّاهرُ أن يكونا مَعًا في آيةٍ مستقلّةٍ، لكنَّ القرآنَ من شأنِه الإحسانُ إلى معانيه، وقد

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 121.
(2) صافي، الجدول: 16/ 315.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 216.

كانتِ العربُ تخدم المعانيَ بالألفاظ، ومِن خدمة المعنى والإحسانِ إليه تمكينُه وإبرازُه في أحسن صورةٍ ممكنة، والقرآنُ بلَغ في هذا الحَدَّ الذي خرج عن مقدور البَشر؛ فاحتفَل القرآنُ بمعنى الرّفعة، فجعلَه في آيةٍ مستقلّةٍ؛ تناسُبًا مع ذات المعنى، وتمكينًا له، فالرّفعةُ مِن شأنها التَّميُّزُ، والاستقلاليّةُ تُحقِّقُ ذلك.

إيثارُ لفظِ ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ﴾ دون غيره:

قد يكون الشّيءُ رفيعًا ولا يكون عاليًا

استعمال لفظ ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ﴾ دلّ على زيادةٍ في المقام، وتشريفٍ في المنزلة، وإعلاءٍ تامٍّ في المزايا والعطايا، وهو أبلغ مِن (أعليناه) إفرادًا وتركيبًا، فمِن جهة المفردة: الرّفعُ أبلغ مِن الإعلاء؛ لأنّ الرّفع عُلوٌّ لا مَذمَّةَ فيه، فهو عُلوّ استحقاقٍ لا عُلوّ ادّعاء كعُلوّ الجبَّارين والمُستكبرين، ولذا كان الرّفعُ مُشعِرًا بالتّشريف والجزاء، بخلاف الإعلاء، فقد لا يكون عن ذلك[1]، ومِن حيثُ التّركيب فهو أبعدُ عن تكرار الألفاظ ودَوْر الحروف، فلو قال: (وأعليناه مكانًا عليًّا) لكان تكرارًا مُقلِقًا، وإنّما وصف المكان بالعُلوّ دون الرّفعة توقّيًا مِن التّكرار الثّقيل أيضًا، ولأنّ وصفَ الرّفعةِ في المكان لا تقتضي عُلوَّه، فقد يكون رفيعًا من غير أن يكون عاليًا، كقوله تعالى: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤﴾ [الواقعة: 34]، ولم يقل: (عالية)، لأنّ الفُرُشَ موطوءةٌ مَعْلُوٌّ عليها، فلا توصَف بالعُلوّ، وإنّما هي مرفوعة على الأسِرّة لصيقةٌ بها، أو مرتفعةٌ بكثرة حشْوِها وكثيفِ مادّتها[2]، فكان وصفُ المكانِ بالعُلوّ دونَ الرّفعة دالًّا على أنّه وصل للمكان العالي والرّتبة التي انفصلتْ بعُلوّها عن سواها.

دلالة إسناد ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ﴾ لنون العَظَمة:

الشّأن أن يرفعه الله لا النّاس

أَسنَد ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ﴾ إلى نون العَظَمة؛ لأنّه لا يَقدِر على رَفْعِه إلَّا

---

(1) الرّاغب، المفردات: (علا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (علو).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 208.

عظيم، لأنّ الأفعال العظيمة تستوجب عظمةَ الفاعِل لها، إنّ رفعة ذِكْرِ قصّتِه هنا مؤسَّسَةٌ على رفعتِه مكانًا عليًّا؛ وذلك مُؤسَّسٌ على عبوديَّتِه، وهذه العبودية تتجلَّى في حضورِ عظمةِ اللّه تعالى في بصَرِه وبصيرتِه، والإسنادُ المذكورُ يصوّرُ هذا.

سرُّ التعبير بـ﴿مَكَانًا﴾ دون (منزلة):

الأنبياءُ والرُّسُل أَجَلُّ مِنَ الملُوكِ جلالةً

إنّ معنى الرّفعة المُسندَ إلى نون العَظَمة يعني أنّها رفعة خاصَّةٌ، والأنسبُ بها التّعبيرُ بـ﴿مَكَانًا﴾ دون: (منزلة)؛ لأنّ فيها معنى جلالِ المُلوكِ والسّلاطين؛ ففيه مِنَ الفخامة والعَظَمة والجَزالة ما ليس في: (منزلةً)، يقال: لفُلانٍ مَكانةٌ عِنْد السُّلْطان، أَي منزِلة، فهو أفخمُ؛ لأنّه أعمُّ مِنَ المَنزلة.

نُكْتَةُ تنكير ﴿مَكَانًا﴾:

لا يُجازي اللهُ إلَّا بالعالي النّفيس

نُكِّرَ لفظُ ﴿مَكَانًا﴾ في قوله: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا﴾ للتّعظيم والإبهام، أي: مكانًا عظيمًا لا يُحاطُ بِقَدْره، ولا تبلغ الأذهانُ بديعَ حقيقتِه، لأنّ المنازِل التي يُجازي اللّهُ بها أولياءَه وأنبياءَه لا تكون إلّا كذلك.

دلالةُ وصْفِ المكان بالعَليّ:

جـزاءُ اللـهِ مـوصولٌ بغاية السّعي

وُصِف المكانُ بالعَليّ في قوله: ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾؛ لتعريف الموصوفِ وتمييزِه عن سائر الأماكن، وليس معنى التّعريف مُنافيًا لمعنى الإبهام السَّابق المُستفاد من تنكير ﴿مَكَانًا﴾، فإنّ المراد بتعريف الصّفة له إزالةُ شيوعِه في الجِنس، لا إبهامُ المِقدار، وأيضًا إبهامُ المقدار ليس على بابه، لأنّه إبهامٌ في مِقدار التّعظيم، لا في عموم المقدار، وعُبِّر بـ﴿عَلِيًّا﴾ أيضًا؛ إمعانًا في بيان جَلالِ حاله وفخامتِه ثوابًا؛ وكأنَّ الرِّفعَة في: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ﴾ عامّة، ثمّ كانت خاصّة بـ﴿مَكَانًا﴾، ثمّ كانت أخصَّ بـ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأنّ قصّة إدريسَ عليه السلام هي ذِروة معاني القَصص في السّورة، وهي التي تفتحُ البابَ لَمجيء آية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية.

مقاماتُ الأولياء في عُلوٍّ ثابت

سرُّ إيثار صيغة ﴿عَلِيًّا﴾:

لفظ ﴿عَلِيًّا﴾ في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ صفةٌ مشبَّهةٌ على زِنةِ (فعيل)، وهي إمَّا مِنَ الفاعل بمعنى (عالٍ)، أو مِنَ المفعول بمعنى: (مُعلَّىً)، وفي كُلٍّ فهي تدلّ على ثُبوت صفة العُلوّ للمَنزلة التي رُفِعَ إليها إدريسُ ﷺ، أي: مكانًا دائمَ العُلوّ مُلازِمًا له.

اللهُ يرفع المؤمنين رفْعَ مكانةٍ ومكان

بلاغة الاستعارة في: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا﴾:

على اعتبار أنّ الرّفع في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو رفْعٌ مجازيٌّ، والمُراد: رفعُ المَنزلة[1]، لا الرّفعُ الحقيقيُّ إلى السّماء أو الجنّة مع اعتباره أيضًا، فيكون في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ استعارةٌ تصريحيّة تبعيةٌ، في تشبيه المكانةِ المعنويّة بالمكان المادّيّ، لأنّ المكان في الأصل هو مَحَلّ تمكُّنِ الجالس، فشُبِّهتْ به المَنزلةُ الرّفيعةُ في تمكّن المَنوطِ بها مِن استحقاقه لها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَكانُ والمَكانَةُ والمَنزلَةُ:

المكان في المَحلّ، والمكانة في الحالّ

المَكان عند أهل اللّغة: المَوضع الحاوي للشّيء، وعند بعض المُتكلّمين: أنّه عرض، وهو اجتماعُ جسمين؛ حاوٍ ومَحْويٍّ، وذلك أن يكون سطحُ الجسمِ الحاوي محيطًا بالمَحْويّ، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هَذَين الجسمين[2].

والمكانة: مؤنّثُ المكان، وتُستَعار لحال الإنسان ورُتبتِه المعنويّة، تشبيهًا لها بالمكان الذي يحوي الأجسامَ بجامع التّمكّن في كُلٍّ، ولأنّ أحوال المَرءِ تظهر في مكانِه ومَقَرِّه[3].

وأمَّا المَنزلَةُ: فهي موضعُ النّزول، وأصلُه: الهبوط مِن عُلوّ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 131.
(2) الرَّاغب، المفردات: (مكن).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 91.

سُفْلٍ، وقد يُراد به مُجَرّدُ الحلولِ في المَكان[1]، والمنزلة تُستعار للمكانة الرّفيعة العالية، فهي أخصّ مِنَ المكانة التي هي عامّةٌ في الرُّتَب والأحوال، وقيلتِ (المنزلةُ) في المقام الشّريف، لأنّها تُمنحُ للإنسانِ ممّن هو فوقَه، فتَنزِلُ عليه منه، أو لأنّها مُهَيّأَةٌ بحيثُ تصير له كالموضع الذي يَحِلُّ فيه بسهولةٍ وتيسير.

وعليه: فالمكان يُراد به المحلّ، والمكانة: الحالّ الذي ارتبطتْ به، والمَنزلة: هي مكانةٌ مخصوصةٌ بالتّكريم، وإنْ أطلِقَتْ على منازل الإهانة والإذلال فمَجاز؛ لأنّ المَنزِل قد تُعورِفَ في مواضع الإيواء والاحتماء، فهو سببُ الكرامة.

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (نزل).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ٥٨﴾ [مريم: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شريفُ النّسَب أولى بشرَف العمل

لَمَّا ذَكَر في الآياتِ السَّابقة أعيانَ الأنبياء ومناقبَهم في الأعمال والأحوال، أعقبَ ذلك بتفصيلِ أنسابهم وتعيين أصولهم، ليمدحَهم في أنسابهم كما مدحهم بأعمالهم(1)، وهذه الآيةُ صُدِّرَت بالإنعام عليهم، وهو مَحْضُ توفيق مِنَ اللّه، ومِن توفيقه أن هيَّأ لهم أسبابَ التَّعرُّضِ له؛ فلاحَظَ القرآنُ قومَ رسولِ اللّه محمّدٍ ﷺ، وكلَّ مُنكر لنُبوّتِه ورسالتِه؛ فذكَر في هذه الآيةِ أمتَنَ سببِهم؛ هَزًّا لِمَن وافقَهُم في النَّسَبِ إلى الموافقةِ في السّببِ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنْعَمَ﴾: (نعم) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، ومِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللّه تعالَى به على عَبْدِه مِنْ مالٍ وعَيْشٍ، يُقالُ: للّه تَعالى عليه نِعْمَةٌ، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ وطيبُ العَيْشِ(3)، والإِنْعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيْرِ، ولا يُقالُ إلَّا إذا كان الموصَلُ إليه مِن جِنْسِ النَّاطقينَ، فإنَّه لا يُقالُ: أَنْعَمَ فلانٌ على فرَسِه، والنَّعْماءُ بإزاءِ الضَّرَّاءِ، والنُّعْمَى: نقيضُ البُؤْسَى، والنَّعيمُ: النِّعْمَةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 543.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 543.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).

الكثيرةُ[1]، فالمقصودُ بـ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾: أنّه أحسن إليهم، وتفضّل عليهم بفنون النّعم الدّينيّةِ والدّنيويّةِ[2].

2) ﴿ذُرِّيَّةِ﴾: (ذرّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتِشارٍ[3]، ومَصْدَرُه: ذَرَرْتُ، وهو أَخذُك الشَّيءَ بأَطراف أَصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْحِ المَسْحوقِ على الطَّعام[4]، والذُّرِّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ مِنَ الذَّرْءِ، فتقول: ذَرَأَ اللّهُ الخَلقَ، أيْ: خَلقَهُم، وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[5]، وقيل: هو مأخوذٌ مِنَ الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أيْ: نَشَرَهُ، أو مِنْ صِغارِ النَّملِ؛ لأنَّ اللّهَ أَخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كالذَّرِّ[6]، والجَمعُ: الذَّراريّ والذُّرّيّاتُ، والمقصود بالذُّريَّة في الآية: نَسْلُ الإنسانِ وما تَوالَدَ منه ومِنْ أَبْنائِه وبَناته.

3) ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾: (جبي) أَصْلٌ يَدُلُّ على جَمعِ الشَّيْءِ والتَّجَمُّعِ، يُقالُ: جَبَيْتُ المالَ أَجْبيه جِبايَةً، وجَبَيْتُ الماءَ في الحَوْضِ[7]، والاجتباء: الجَمعُ على طريق الاصطفاء، قال ﷻ: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50][8]، واجْتَبَى الشَّيءَ اخْتارَهُ[9]، واجتباءُ اللّهُ العَبدَ: تخصيصه إيَّاه بفيضٍ إلهيٍّ يتّحصَّلُ له منه أنواعٌ مِنَ النِّعَم بلا سعي مِنَ العَبْدِ، وذلك للأنبياء وبعضِ مَن يقاربهم مِنَ الصّديقين والشُّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾ [القلم: 50][10]، والمراد بالاجتباء في الآية: الاصطفاءُ والاختيار، وكأنَّ هذا الاجتباء لهم اصطفاء[11].

4) ﴿خَرُّواْ﴾: (خرّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ[12]، فالخَريرُ: صَوتُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 567.
(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (نعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ، ذرر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبي).
(8) الرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (جبي).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (جبي).
(10) الرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (جبي).
(11) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 22.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرَّ).

الماءِ والرِّيح والعِقاب، وغيرِ ذلك ممَّا يَسقُط من عُلوٍّ[1]، وخَرَّ للّه ساجدًا يَخِرُّ خُرورًا، أَي: سَقَطَ سقوطًا يُسمَعُ منه خريرٌ[2]، والمُرادُ بالخُرورِ في الآية: الهويُّ مِنْ عُلوٍّ إلَى سُفلٍ.

5) ﴿وَبُكِيًّا﴾: أَصْلُ البُكاءِ: خُروجُ السَّائِلِ مِنَ الجَوْفِ قليلًا قَليلًا، يُقالُ: بَكَتْ عَيْنُهُ تَبْكي بُكاءً، أَيْ: خَرَجَ دَمعُها، وبَكَتِ السَماءُ أَيْ: أَمطَرَتْ[3]، والتَّباكي: تَكَلُّفُ البُكاءِ[4]، والإِبْكاءُ: فِعْلُ ما يُبْكي الغَيْرَ[5]، وجمع الباكي: باكون وبُكيٌّ، وأصل بُكيّ فُعول، كقولهم: ساجد وسجود، وراكع وركوع، لكن قُلِبَ الواو ياءً فأُدْغِمَ، نحو: جاثٍ وجُثيّ[6]، والمقصود بالبُكاءِ في الآيةِ: كَيْفيَّةٌ في الوجْه والعَيْنَيْنِ تَنْقَبِضُ بها الوجْنَتانِ والأَساريرُ والأَنْفُ، ويَسيلُ الدَّمعُ مِنَ العَيْنَيْنِ، والمُرادُ به: البُكاءُ النَّاشِئُ عَنِ انْفعالِ النَّفْسِ انْفعالًا مُخْتَلِطًا مِنَ التَّعْظيمِ والخَوْفِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المَذكورون في السّورة هم أعيانُ الأنبياء ووجهاؤهم

أولئك الأنبياءُ المَذكورونَ في هذه السّورةِ هم الَّذين أنعَمَ اللّهُ عليهم بالهدايةِ والنُّبوَّةِ، والعِلْمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ مِنَ النبيّينَ مِن ذُرّيةِ آدَمَ، وهو إدريسُ عليه السلام، مِن ذُرّيَّةِ مَن حَمَلْنا مَعَ نوحٍ في السَّفينةِ، وهو إبراهيمُ عليه السلام، ومِن ذُرّيةِ إبراهيمَ، وهم: إسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ عليهم السلام، ومِن ذُرّيةِ إسرائيلَ - أي: يعقوبَ عليه السلام -، وهم موسَى، وهارونُ، وزكريَّا، ويحيى، وعيسَى ابنُ مريمَ عليهم السلام، وممَّن هدينا للإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ، وممَّن اختَرْناهم للنُّبوَّةِ، إذا تُتلى على

(1) ابن سيده، المحكم، والرَّاغب، المفردات: (خرَّ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (بكى).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (بكى).
(6) الرَّاغب، المفردات: (بكى).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 133.

أولئكَ القوم - الَّذين هَدَينا مِنَ النّبيّينَ - آياتُ الرَّحمنِ الَّتي أنزلَها عليهم في كُتُبِه؛ بادروا إلى السُّجودِ للّه، باكينَ مِن خَشيتِه تعالى[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة فصل الآية عن سابقتها:

الإنـعـام أسـاسُ التّوفيق

جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ[2]، بعد تمام التّفصيل في أحوال المذكورين السَّابقين مِنَ الأنبياء عليهمُ الصّلاة والسّلام؛ لتقرير اندراجهم جميعًا تحت وصفٍ عامٍّ تامٍّ، وهو سِرّ مَزيَّتِهم وأساسُ فضيلتِهم، وهو أنّهم مِنَ المُنْعَم عليهم؛ إشارةً إلى أنّ ما هم فيه مِن عُلوّ المكانة ورفيعِ المنزلة واستئهالِ الإمامة والقدوةِ هو بسبب نعمة اللّه، ولولا الإنعام ما وُفِّقوا ولا عُرِفوا، ولَمَّا كان بينَ هذه الآية ومجموعِ آياتِ القَصص قبلَها كمالُ اتصالٍ، لَزِم غيابُ العاطفِ؛ لما بينهما مِن التّوكيدِ المعنويّ الخفيِّ، وقد مهَّد الطريقَ لَمجيء هذه الآيةِ التّصريحُ بالرّفعة في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾؛ فهو يستدعي في الذّهن بقوّة معنى الإنعام، وأنّه كائن مِنَ اللّه العظيم.

نُكْتَةُ التَّعبير باسم الإشارة:

أهـلُ الـلـه أوْلَى بالإشارة وأحَقّ بالمنزلة

التَّعبير باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ دون الضّمير، فلم يقل: (هم الذين أنعم)؛ للتّنبيه على أنّ المُشار إليهم جديرون بما يُذكَر بعد اسم الإشارةِ، لأجْل ما ذُكِر معَ المُشار إليهم مِنَ الأوصاف، أي: كانوا أحرياءَ بنعمة اللّه عليهم، بانتظامهم في عِداد المَهديّين المُجتَبَيْن الخَليْقين بمحبّتهم للّه تعالى وتعظيمهم إيَّاه[3]، وفي التّعبيرِ باسم الإشارةِ رمزٌ لطيفٌ إلى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 565، 566، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 21، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 120، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 132.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 132.

عبوديتهم للّه سبحانه؛ وإذا كان الإنعام رفعة عظيمة، وكانت آيته مسوقة مساقَ النّتيجة لمسابقة جليلة؛ ففيها معاني الفوز والنّصر والظّفر بالجائزة، وكان اسمُ الإشارة يُحْضِرُهم في السّياق أكثرَ مِن إحضارِهم بالضّمير، كان مِنَ البلاغة والتّناسُبِ التّعبيرُ به.

نُكْتَةُ مجيءِ المُسنَد اسمًا موصولًا:

في التّعريف بالصّلة تعظيمٌ وتكريم

لم يقل في السّياق الكريم: (أولئك أنعمَ اللّهُ عليهم)، بل عبّر بالموصول: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ بتعريف المُشار إليهم بالموصوليّة لتمييزهم أكملَ تمييز؛ تنبيهًا على أنّهم معلومون بذواتهم، مشتهرون بنعوتهم، لا يُرتابُ في رُتْبَتِهم وشريفِ مقامِهم، وفي تعريفهم بالموصول إلماحٌ إلى أنّهم بالمَحلّ الظّاهر الجليّ في الاقتداء والاهتداء، فالاقتداءُ بهم سهلٌ يسير لظهور حالهم ووضوح منهجهم.

إيثارُ لفظ الإنعام، دون غيره:

الإنعام ينفي البُؤسَ

التّعبير بلفظ (الإنعام) في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ دون الإكرام وغيره؛ ليدُلَّ على أصل العطاء والامتنان، فإنّ الإنعام هو العطاءُ الجامع لكلِّ ما يُرغَبُ ويُبْتَغَى، فيدخل فيه أصولُ النِّعَم وزوائدُها، ولذا آثَرَ استعمالَ اللّفظ الجامع، وأيضًا للدّلالة على انتفاء ضدّه مِنَ البُؤْس، فأثبتَ لهم كلّ حالٍ حسنة بالإنعام، ونفى عنهم كلّ حالٍ بائسةٍ تُخِلّ بتمام النّعمة[1].

دلالة التّعبير بالماضي:

تحقيق الإنعام، وعلى ما جرى به القلَمُ في الأزَل

مجيء قوله: ﴿أَنۡعَمَ﴾ بصيغة الماضي، للدّلالة على تحقيق الإنعام، وعلى ما جرى به القلَمُ في الأزَل، فكون الأنبياء والمصطفين من أهل النّعيم، هو قضاءُ قضاه اللّهُ أزَلًا.

نُكْتَةُ الإسناد إلى الاسم الجليل دون ضمير العَظَمة:

مجيء الفاعل بالاسم الظّاهر الجليل في قوله: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (نعم).

وما بكم من نعمة فمن الله

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دون الضمير، فلم يقل: (أنعمنا)؛ استحضارًا لظهور المُنعِم حالَ شهود النِّعَم، فإظهارُ اسم المُنْعِم اقتضاه خصوصُ الإنعام؛ تنويهًا بأنّه إنعامٌ عظيم لا يُحدِثُه إلَّا عظيمٌ جامِعٌ لصفات الاقتدار والإبداع المُطْلَق.

سِرُّ إيثار لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، دونَ (المُنعِم) أو (الرّبّ):

أعلى رُتَبِ الإنعام الهدايةُ لاتِّباع المَهديّين

أوثِرَ التّعبيرُ بالاسم الجليل الجامع لصفات الكمال والأُلوهيّة في قوله: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾ دون غيره مِنَ الأسماء؛ لأنّه لمَّا كان الإنعام المذكور أجمعَ الإنعام وأكملَه، عبّر بما يناسِبه بأجمع الأسماء وأكملها، وفي التّعبير به تنبيهٌ لطيف على كمال الأوصافِ التي أثبتتها لهم السّورةُ في سياق السّباق؛ فهم أكملُ الخلْقِ في معرفة جلالِ اللّه وجمالِه؛ ولذا كان إنعامُه عليهم إدخالًا لهم في حضَراتِ الجلالِ والجمالِ.

معنى (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ للاستعلاء المجازيّ، تصويرًا لتمكّن الإنعام منهم تمكُّن الغطاءِ ممَّا تحتَه، فهم مغشيّون بهذا الإنعام، مستظِلّون بظِلّه.

دلالة (ال) والجمع في ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

جمعُ السَّالم في الصّفات قد يدلّ على القِلّة

إيثارُ صيغة جمع المذكَّر السَّالم: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون جمع التَّكسير: (الأنبياء)؛ للدّلالة على معنى الفعليّة (الحدوث)، فإنّ جمع السَّالم يجري مجرى علامة الجمع مِنَ الفعل، فالنّبيّون أشبهُ بقولك: (ينبِّؤون)، ولذا فسّر البقاعيّ هذا الجمع بالفعليّة فقال: "أنبأهم اللّهُ بدقائق الحِكَم، وأنبؤوا النَّاسَ بجلائل الكَلِم"(1)، وللدّلالة على القِلّة، فإنّ الأنبياء المذكورون معدودون محدودون، وجمع السَّالم مِن أوزان القِلّة عند بعضٍ، وملحَقٌ بها عند بعضٍ آخر، وهذا على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 220.

الإطلاقِ، وليس مخصوصًا بالصّفات أو بغيرها، فإذا كانت (أل) في: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للعهد الذّكْريّ، وكان المرادُ تخصيصَهم بالذّكر في سياق إثبات إنعام اللّه عليهم، كان الجمع مطابقًا لما ذُكِر قبلُ مِنَ النّبيين، وهم: زكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وهؤلاء عشرة، وجمعُ القِلّة يطابقه؛ لأنّ جمع الكثرة يُطلق على ما هو فوقَ ذلك، وإذا كانت (أل) في: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للعهد الذّهنيّ أو للجِنس، فكان أفرادها كلَّ نبيٍّ، فكان الظّاهرُ والأصلُ التّعبيرَ بجمع الكثرة: (الأنبياء)؛ وإنما وُضِعَ جمعُ القِلّةِ موضِعَه؛ لأنَّ إنعام اللّه أوسعُ منهم، وهم أضيقُ منه، فهو محيطٌ بهم، مُسْتَغْلٍ، وهم مظروفون فيه، وهو ظرفٌ لهم؛ فجمع القِلّة تمكينٌ لقوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ لفظًا ومعنًى ونظمًا، ثمّ إنَّ المُنْعَم عليهم مُمَيَّزونَ، فعُبِّر بجمع القِلّة لتصوير ذلك؛ فهم مميّزون كما يُمَيَّزُ الشّيءُ القليلُ.

معنى حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

ليس الأنبياءُ وحدَهم مخصوصين بالإنعام

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ للتّبعيض؛ لأنّ المنعَمَ عليهم أعمُّ مِنَ الأنبياء وأخصُّ مِنَ الذّرّيّة[1]، فليس الأنبياءُ وحدَهم مخصوصين بالإنعام، وليس الإنعامُ حاصلًا في كلّ الذّرّيّة.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا﴾:

قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾؛ لتعديد ذَراري الأنبياءِ، وأصولِ أنساب البشريّة.

سِرُّ تكرار (مِن) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا﴾:

عطاء اللّه لعبده على قَدْر وعاءِ قلبه

ظاهرُ عطفِ: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ على ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ عدمُ ذِكْر (مِن) في المعطوف، فيقال: (ومَن حملنا مع نوح)، فتكون:

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 14.

(مَن) معطوفة على: ﴿ذُرِّيَّةِ﴾، مِن عطف الاسم على الاسم، ولكنَّ حرفَ المعنى: (مِن) كُرِّرَ على خلافِ الأصلِ والظَّاهرِ في سياق ومقام واحدٍ؛ ليُبرِز استقلاليّة إنعامِ اللّه على المعطوف، واستقلاليّةَ إنعامِه على المعطوف عليه تبعًا لذلك؛ وذلك هو الأبَرُّ بسياقِ الامتنانِ بإنعام اللّه على جميعِ المذكورينَ.

سِرّ إيثار (مَن) دون (الذين):

لا فرق بينَ الذّكر والأُنثى في أصل الإنعام

أوثِرت (مَن) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ولم يقل: (ومِنَ الذين)، فعَبّر بالموصول المُشتَرك دون الخاصّ؛ لأنّه أراد عمومَ الجنسين مِنَ الذّكور والإناث، فقد كانوا مع نوحٍ عليه السلام في فُلْكِه، وأمَّا (الذين) فلِجَمع الذّكور فقط.

دلالة التّعبير بالظّرف ﴿مَعَ﴾:

الامتنان على الذّرّيّة بالنّجاة مع نوح عليه السلام

عُبّر بظرف المعيّة في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ لإفادة المصاحبَة، أي: (حملناهم بصحبة نوح عليه السلام). وفيه الامتنان على الذّرّيّة بالنّجاة مع نوح عليه السلام.

سِرُّ عدم ذِكر الذُّرّيّة مع نوح عليه السلام:

الوضوح يستلزم الإيجاز

لم يَذْكُر الذّرّيّة مع نوح عليه السلام؛ لإيقاع التّركيب على طريقة حذفِ المضاف إيجازًا، والتّقدير: (ومن ذرّيّة مَنْ حملنا مع نوح).

نُكْتَةُ إيثار أسماء أنبياء مخصوصين:

الاستطراد مِنَ الأشخاص إلى الجنس

نُكْتَةُ تخصيصِ هؤلاء بالذِّكر دونَ غيرهم في قوله: ﴿ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنّ هؤلاءِ الأنبياءَ المَذكورين عليهم السلام هم أصولُ أنسابِ سائر الأنبياء، بل سائرِ البشريّة، فبَعْدَ أنْ ذكر أشخاص الأنبياء في هذه السّورة مِن لَدُن زكريا إلى إدريس، ردّهم جميعًا - مَنْ ذُكِرَ في السّورة ومَن لم يُذكَر - إلى أصولهم وجنْسِهم[1]، فجمَعَهم في كونهم مِن ذُرّيّة آدمَ، ثمّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 241.

خَصّ بعضَهم بأنّه مِن ذُرّيّة مَن حَمَلَ مع نوح في الفُلك، ومِن ذُرّيّة إبراهيمَ خليلِ الرّحمن، ومِن ذُرّيّة إسرائيل (يعقوب)، فالذي عَنَى به مِن ذُرّيّة آدمَ: إدريسُ، والذي عنَى به مِن ذُرّيّة مَن ﴿حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾: إبراهيمُ، والذي عنى به مِن ذُرّيّة إبراهيم: إسحاقُ ويعقوبُ وإسماعيلُ، والذي عنَى به مِن ذُرّيّة إسرائيلَ: موسى وهارونُ وزكريا وعيسى، ولذلك فصّلَ أنسابَهم، وإن كان يجمع جميعَهم آدمُ؛ لأنّ فيهم من ليس مِن ولَدِ مَن كان مع نوحٍ في السّفينة، وهو إدريس، فإنّه جَدّ نوح[1]، فرتّبَ اللّهُ أحوالَ الأنبياء عليهم السلام على الأنساب بعد الأعمال؛ تنبيهًا على أنّهم كما فُضّلوا بأعمالهم، فلهم مزيدٌ في الفضلِ بولادتهم من هؤلاء الأنبياء[2]؛ تنبيهًا أنّ النّسب الشّريف مِن كمال مناقِب المؤمن.

معنى (مِن)، وسِرّ تكرارها على خلاف الظّاهر:

الأنبياء ورّثوا الهدى والحكمةَ

في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا﴾ يحتمل أَنْ يكونَ عطفًا على ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فتكون (مِنْ) للبيان كما في المعطوف عليه، وأن يكونَ عطفًا على ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾، فتكون (مِنْ) للتّبعيض[3].

والمعنى على الأوّل: بيان أنّ النّبيّين المُنْعَم عليهم مَهديّون كذلك.

والمعنى على الثّاني: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ مِنَ البعضِ المَهديّ منهم.

وتكرارُ: (مِن) على خلافِ الظّاهر؛ للتّنبيه على عظيم أهميّة الاهتداء والاجتباء؛ إبرازًا لعظيم الامتنان بهما؛ لما في التّكرار مِن إشعار بالاستقلاليّة.

بلاغة تقديم جملة ﴿هَدَيۡنَا﴾ على ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾:

الاهتداء بريد الاجتباء

قَدّم ﴿هَدَيۡنَا﴾ على ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾؛ إشارةً إلى أنّ اصطفاءَهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 565.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 550.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 7/ 608.

كان على أساس الهداية للحَقّ، فالاجتباء مُنطَلَقُه الهدايةُ، وهو مقصودها، وجمع بينهما تنبيهًا على تلازم الوصفين، فمنِ اهتدى استأهَلَ أن يلتحِق بصفوف الصّفوةِ المُختارة؛ وهذا كتسليطِ الرّحمة على العبوديّة في قوله تعالى في مطلع السّورة: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ [مريم: 2]؛ كأنّ العُبوديّة سببٌ في الرّحمة؛ فمَن كان عبدًا حقًّا رُحِمَ حقًّا.

سِرُّ التّعبير بفِعل الاجتباء:

الاجتباء جمعٌ بقصد الانتخاب

عُبِّر بالاجتباء في قوله: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾؛ لأنّ اللّه جَمَعَ هؤلاء المَذكورين وانتخبهم مِن خَلْقِه، ثمّ جَمَع لهم صَفيَّ النِّعم بما لم يُخصِّص به أحدًا سواهم مِنَ البَشَر، فناسَبَ ذلك استعمالُ لفظ الاجتباء لتأكيدِ فرادَتِهم في جَمعِهم للنِّعَم وجمعِ النِّعم لهم؛ لأنّ لفظ الاجتباء يدُلّ على الجمع على طريق الانتخاب والاصطفاء، ويكون بتخصيص هذه النُّخْبة بفيض إلهيّ يتحَصّل لهم منه أنواعٌ مِنَ النِّعَم بلا سَعيٍ مِنَ العبد، وذلك للأنبياء وبعضِ مَن يُقاربهم مِنَ الصّدّيقين والشّهداء وأتباعهم بإحسان[1].

سِرُّ التّنوُّعِ في إسناد الأفعال بين لفظ الجلالة ونون العَظَمة:

اسمُ الأُلوهيّة الأعظم مَجْمَع إمداداتِ الله

أَسْنَد إلى الاسم الجليل أوّلًا في قوله: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾؛ ليَدُلَّ على أنّه إنعامٌ تامّ، بقوّة كمالِ الاسم الجليل ومعناه الجامع، ولأنّ الإظهار يُناسِب مبدأَ الكلام وأوّلَ الذِّكر، ثمّ أَسنَد إلى ضمير العَظَمةِ الجمعيّ في قوله: ﴿حَمَلۡنَا﴾ ﴿هَدَيۡنَا﴾ ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾؛ فإنّ ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾ أفاد الكمالَ وتربيةَ المهابةِ وشهودَ الذّات الجليلة، و﴿هَدَيۡنَا﴾ و﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ أفاد تعظيمَ الإله القدير بما له مِنَ العَظَمةِ في الذّات والفِعل.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾:

جملة ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ مستأنفةٌ دالّةٌ على شُكرهم

(1) الرّاغب، المفردات: (جبى)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جبي).

كمال خضوع الأنبياء لله تعالى

نِعَمَ اللّه عليهم، وتقريبِه إيَّاهم بالخضوع له بالسّجود عند تلاوة آياته، وبالبُكاء مِن خشيته تعظيمًا له وخوفًا منه[1]، وفُصِلتْ للشّروع في معنىً جديد في مناقبهم ومناقبِ كلّ مَن تبعَهم بإحسان، أو لكون الجملة الشّرطيّة خبرًا لاسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾، على اعتبار أنّ الموصول صِفةٌ للإشارة[2]، وعلى هذا فهذه الجملة استئنافٌ ابتدائيّ.

معنى الشَّرط ﴿إِذَا﴾ ودلالتُه:

دوامُ انفعالِ الصَّالحين لكلام الله بالخشية

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل مِنَ الزّمان، مُتضمّن معنى الشّرط، وتصدير الكلام به فيه تحقيقٌ لمضمون الشّرطِ وجوابه، وتثبيتٌ لكثرةِ وقوعِه، فكثيرًا ما تتلى الآيات، وكثيرًا ما يَخِرّون سُجَّدًا، فهي الألصقُ بحال هؤلاء المُنعَم عليهم، وهي تعني: أنّهم كثيرو التَّعَرُّضِ لآيات الرّحمن.

نُكْتَةُ بناءِ الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

مِن أمارات الصّلاح حُبّ سماعِ القرآن

مجيء الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ على بناء ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لإبهام الفاعل، ولعدم تعلّق الغرض بتعيينه، وللإشارة إلى أنّهم كانوا يُحبّون سماعَ الآيات والقرآن مِن غيرهم، كما كان ذلك أيضًا شأنَ نبيّنا ﷺ، وسماع القرآن بالنّسبة لمَن يدخل مِن أُمّته في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾، وفي صيغة هذا البناء تنبيهٌ لطيفٌ على إقبالهم بكليّاتِهم على ما يُتْلَى عليهم، فلا يكون منهم أدنى انشغالٍ البتّة بالتّالي، وهذا مِن منهج كبار المُهتدين مِن أهل مقام الإحسان.

معنى ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في الآية:

لو طَهُرتِ الآذانُ ما مَلّتْ مِن سماعِ القرآن

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ للاستعلاء المجازيّ، حيثُ جعل آياتِ القرآن وهي تُتْلَى على الأسماع بمنزلةِ السُّتْرَة التي تعلو على الشّيء فتصونُه وتحفظُه، وهكذا القرآن حين يُتْلَى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 133.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 277.

فإنّه يُزكّي الآذان ويصون الأسماع، فصار بحيثُ كأنّه تَملَّكَها واستحوذ عليها.

فائدة تقديمِ شبه الجملة على نائب الفاعل:

المقصود في الكلام أولى بالتّقديم

قُدّم الجارّ والمجرور على نائب الفاعل (المفعول) في قوله: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لاشتماله على ضمير ذواتهم، فإنّهم المقصودون بالتّلاوة، فقدّم ما حصل الفِعلُ لأجله، وفي هذا التقديم: إشارةٌ إلى أنّهم أبصروا ما أُريد منهم فيها، فأقبلوا عليها بكُلّياتهم مِن قبل أنْ تُتْلَى عليهم، وبعد أنْ تُليَت عليهم؛ ولهذا خرّوا سجدًا وبُكيًا.

سِرّ التّعبير بجمع القِلّة:

إنّ في ذلك لعبرة لِمَن يخشى

إنَّ آياتِ الله - سواءٌ كانت قرآنًا أو غيرَ قرآن - لا تُعَدّ ولا تُحصَى؛ فكان الظَّاهرُ التّعبيرَ بجمع الكثرة: (آي)، لكنَّ القرآن عبَّرَ بجمع القِلّة: ﴿ءَايَٰتُ﴾؛ رمزًا إلى أنَّ القليلَ مِن هداياتِ الرّحمن سبحانه مِن شأنه أن يُؤِّثر فيهم تأثيرًا بالغًا، حتّى يخرّوا سجدًا وبُكيًا، فهم قوم رقيقة قلوبُهم، والآياتُ فيها ما يجعلهم كذلك، فجَمعُ القِلّة يُصوّر شيئًا في المَتلوّ والمَتلوّ عليهم.

بلاغة الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

تلاوة الآيات مِن آكَد أسباب الرّحمة

أُضيفت الآياتُ لاسم الرّحمن الجليل في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لتعريف الآيات، فالإضافة للبيان، ولم تضف الآيات للرّحمن إلَّا في هذا الموضع في القرآن، وفي الإضافة إشعارٌ بأن مَحلَّ نظرِهم في الآياتِ - يستوي في هذا آياتُ التّرغيب وآياتُ التّرهيب - هو رحمة الرّحمن ﷻ، فهم يبصرون في مِثْل آيات العذاب رحمةَ الرّحمن، كما يبصرونها في آيات الثّواب والجنّة والنّعيم، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى.

سِرُّ إيثار اسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دونَ غيره:

الوحي لم ينزل إلَّا لرحمة الخلق

إيثارُ لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اطّرادًا مع تكرار هذا الاسم الجليل في تلك السّورة، فقد ورد ستَّ عشرةَ مرّةً، وفي هذا السّياق أُضيفت الآياتُ إليه خاصّة، إشارةً إلى أنّ الإنعام المذكور في ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ على هؤلاء المهديّين المُجتَبَين هو مِن آثار الرّحمة العامّة التي دلّ عليها اسم اللّه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، لأنّ الإنعام والاهتداء والاجتباء لهؤلاء ليس خاصًّا بهم فقط، بل يتعدّى نفعُه وخيرُه لعموم النَّاس، ولذا اصطفى اسم الرّحمة العامّة، وإيذانًا بأنّ الآيات نازِلَةٌ بالرّحمةِ وللرّحمة، ولذا اقتضتْ أنْ يخرّوا منها ساجدين باكين.

نُكْتَةُ مجيءِ جواب الشّرط ماضيًا:

هيئة السّجود لله أشرفُ مظاهرِ العبد

مجيءُ جوابِ الشّرط ماضيًا في قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ تصويرٌ لسُرعة انفعالهم بعد سماع الآيات، ويكأنّ هذا الانفعال صار مُحقَّقًا منهم، مفروغًا من وقوعه، فحُكيَ عنهم بصيغة الماضي، وفي الماضي نُكْتَةٌ أُخرى بديعة: وهو أن يتصوّرهم السَّامعُ وهم قد خرّوا بالفعل في وضع السّجود، لا وهم ينزلون ليَسْجُدوا، وهو أبلغ وأجلّ في الهيئة.

دلالة نظمِ السّجود والبكاء اسميْن:

ما كانت الرّحمة في شيء إلَّا دام وعلا

عبَّر القرآنُ بالاسم في كلٍّ مِنَ السّجود والبكاء؛ إشارةً إلى أنَّ خوفهم دائمٌ كما أنَّ خضوعهم دائم؛ لعظمة الكبير الجليل؛ لأنّ تلك الحضرةَ لا تغيبُ عنهم أصلًا، وإنْ حصَل غيرُ البكاءِ فللتَّأنيسِ لَمَن أُرْسِلوا إليه؛ ليوصِلوه إلى قريبٍ مِن رُتبتهم؛ بحُسْن عِشْرَتِهم على تفاوتِ المراتب، وتبايُنِ المطالب[1]، وقد تأسَّسَ دوامُهم في هذَيْن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 545.

المقامين الشّريفَين على إبصارهم رحمةَ الرّحمنِ في الآيات التي تُتْلَى عليهم، وما دخل الرّفق والرّحمة في شيء إلّا دام.

سِرُّ إيثار صيغة ﴿سُجَّدًا﴾:

السّجودُ هيئةٌ ظاهرة وباطنة

صيغة (فُعَّل) في جمع (فاعل) تدلّ على الحركة الظَّاهرة، وعلى تكثير القيام بالفعل، فلمَّا كان المرادُ هنا الدّلالة على تصوّرهم وهم ساجدون واضعون جباهَهم على الأرض، أراد الدّلالة على هذه الحالة الظَّاهرة فبَنَى الجمعَ على تلك الصّيغة، لأجل هذه الدّلالة[1]، فإنْ قيل: إنّ السّجود عبارة عن الهيئة الظَّاهرة والحالة الباطنة مِنَ الخشوع، فيُقال: اكتفى بالهيئة الظَّاهرة، لدلالة لفظ ﴿وَبُكِيًّا﴾ على خشوع القلب، ولذلك عطفه عليه.

سِرُّ إيثار صيغة ﴿وَبُكِيًّا۩﴾:

خيرُ البكاء ما يكون في حالة السّجود

قوله: ﴿وَبُكِيًّا﴾ جمعُ (باكٍ) وهو على زِنةِ (فُعول)، لأنّ أصله (بُكُوْي) بواوٍ وياء، فأُعِلَّ بالقلْب الإعلالَ المشهورَ في مِثْله، وهو جمعٌ على وزن المصدر، كسُجود جمع ساجد، وقعود جمع قاعد، وجاء جمعُه على وزن المصدر؛ للدّلالة على المعنى الحقيقي للفعل، حتّى يصِلَ المُخاطَب إلى تصوّر بكائهم في حقيقتِه وأصلِ دافِعِه[2].

۞ الفروقُ المُعْجَميَّة:

النّسلُ والذُّرّيَّة:

لا يقال النّسلُ إلّا بعد الانفصال الولاديّ

النّسلُ أصله: الانفصالُ عنِ الشّيءِ، ويُطلَقُ على الولد، لكونه ناسِلًا عن أبيه وأُمّه بالتّوالد، فالفروع مِنَ الأصل الواحد هي نسْلُه[3].

والذّرّيّة ممَّا اختُلِف وزنُ أصلِه، فهي مِنَ الذّرّ، وهي الأجزاء الدّقيقة المُتناثرة مِنَ الشّيء، فتَدُلّ على لُطفٍ وانتشار، أو مِن ذرأ

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 133.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 139، والسّمين، الدّرّ المصون: 7/ 906.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (نسل).

بمعنى خَلَقَ بِكثْرة، ولذا كانت الذّرّيّة في أصل إطلاقها على الصّغار مِنَ الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف[1]، لأنّها مِنَ الذّرّ الذي هو أَدقّ الأشياء وأصغرُها، أو لأنّ الأشياء إذا انتشرت بدَتْ صغيرةً، فانتشارُها مُشْعِرٌ بصِغَرِها، أو لأنّها مخلوقةٌ، والخلْقُ أوّلُه الأطوارُ الصّغيرةُ ثمّ تكتمِل شيئًا فشيئًا.

والفرق الدّقيق بينَ النّسل والذّرّيّة: أنّ الذّرّيّة يَصِحّ إطلاقُها على الفروع منذ أطوارها الأولى في التّخليق، ولذا فالولد في صلب أبيه أو في رحم أُمّه جنينًا هو ذريّة إلى أنْ ينمو ويولد ويَشِبّ ويتنقّل في أطوار الحياة فهو أيضًا كذلك، وأمّا النّسل فأخَصّ؛ لأنّه لا يقال للولد إلّا بعد الانفصال الوِلاديّ.

الحَمل والإقلال:

الإقـلالُ مقيّدٌ بحَمل القليل

﴿حَمَلۡنَا﴾ أعمّ مِن (أقْلَلْنا)، وأقلّ الشّيء، أي: حملَه حِمل القليل (مُستقِلًّا له)، وهو دالٌّ على قِلَّةِ المحمول بالنسبة لإطاقةِ الحامل، وأما الحمل فليس فيه معنى أن المحمول قليل بالنّسبة لحامله، بل هو عامّ في الدّلالة على رفْع الشّيء بتكلّفٍ أو إقلال[2]، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13]، فالحَملُ هاهنا فوق الإطاقة، وبتكلّفٍ وعسْر، وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ [الأعراف: 189] فالحمل هاهنا بإقلالٍ ويُسْر، ومنه قوله تعالى: ﴿حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ فإنّ حمل الذّرّيّة فوق الفُلْك ليس فيه كُلفةٌ ولا عُسْرٌ، فإنّ السُّفُنَ مُهيَّأةٌ لذلك، صالحةٌ له.

التّلاوة والقراءة:

اشتِمال التّلاوة على معنًى عمليٍّ يُؤْذِنُ بأنْ يعملَ القارئ بما يتْلو

الفرق بينَ التّلاوة والقراءة يتعيّن من ثلاث حيثيّات:

أوّلًا: مِن حيثُ الموضوع: فالتّلاوة قراءةٌ متتابِعة، لا تكونُ إلّا

(1) الرّاغب، المفردات: (ذرأ، ذرو).

(2) الرّاغب، المفردات: (حمل، قل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حمل، قلل).

لكلمتينِ فصاعِدًا، فهي قراءةٌ على نحوٍ مخصوص، لأنّ أصل التّلاوة: الاتِّباع، وإتباعُ الشّيءِ الشّيءَ، بخلافِ القراءةِ فتكون في الكلمةِ الواحدة، فتقول: (قرأ فلانٌ اسْمَه)، ولا يُقال: (تَلا اسْمَه)، إذا كانَ يقولُ لفْظَ اسمِه فقط، وليس اسمَه بالكامِل (اسم أبيه وجدّه ولقبِه)؛ لأنّ أصلَ القراءة جمعُ الشّيئِ وضَمُّ بعضِه إلى بعض، وهذا حاصِلٌ في الكلمةِ الواحدةِ بجمعِ حروفها بعضِها إلى بعض، وحاصِلٌ فيما فوق ذلك، فالقراءةُ أعمّ.

ثانيًا: مِن حيثُ الأثر: فالتّلاوة قد تشْتَمِلُ على جانبٍ عمَليّ، وهو اتّباعُ الشّيءِ المَتلوّ والعملِ به، فكأنّ الذي يَتْلو القرآنَ - مَثَلًا - يَتتابَعُ في ترتيلِ ألفاظِه، ويُتْبِعُ ذلك باتّباعِ ما قرأهُ فهْمًا وعملًا، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، أي: يتّبعونه بالعِلْم والعمل، وأمّا القراءةُ فهي مُجَرّد التّلفّظ بالكلام، سواء اقترن ذلك بعِلْم وعمل، أو خلا منهما، بدليل قول النّبيّ ﷺ في الخوارج: "يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقيَهُم"[1]، ولم يقلْ: (يَتْلونَ القرآن)، وعليه: فالقرءةُ أعمّ.

ثالثًا: مِنْ حيثُ المَحَلّ: فالتّلاوة تُستعمَلُ للقراءةِ مِن مكتوبٍ، وتكون بصوتٍ، ويُتَسامَحُ فيها فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكنْ بصوتٍ، كتِلاوةِ المحفوظِ في الذِّهن، والقراءةُ تُستعمَلُ للقراءةِ مِن مكتوبٍ ومِن غيرِ مكتوبٍ، بصوتٍ وبغيرِ صوتٍ (كمَنْ يقرأ القرآنَ في نفْسِه)، فإذا عُدّيا (تَلا، وقَرَأَ) بـ(على) فهما بصوتٍ ولا بُدّ[2].

الخُرور والسُّقوط:

الخُرورُ أخصّ والسُّقوط أعمّ

الخُرورُ: هو سقوطٌ مِن عُلوٍّ يصحبه صوتٌ، كصوتِ الماء حين يَخِرّ مِنَ الشّلال، وصوتِ السّقف حين يتتابعُ سقوطُ أجزائه.

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3341)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1358).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو، قري)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلو، قرأ)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 308، 703.

وأمَّا السّقوط: فهو الوقوع أو الطّرح، فوقوعُ الشّيء مِن عُلوٍّ إلى دُنوٍّ، كسقوط الإنسان مِن السّطح، أو طرح الشّيء بإلقائه أو إخراجه مِن حيّزه الذي يُمسِكُه، لرداءتِه وقلّة الاعتداد به، كسقوط الحَمل، لأنّه مطروحٌ لا يُعْتَدّ به لعدم تمامِه، ولأنّه وقع مِن حيّزه الذي كان فيه، وهو بطن أُمّه، ويظهر الفرقُ بينهما مِن وجهين؛ الأوّل: السّقوط يكون في الأعيان والمعاني، والخُرور في الأعيان، والثّاني: السّقوط قد يصحبه صوتٌ وقد لا يصحبه، وأمَّا الخرور فمعَهُ صوتٌ[1].

البُكاء والنّواح:

النّـــواح هو بكاءٌ على هيئة مخصوصة

النّواح: هو الصّياح بعويل، أي: بالبُكا والنَّحيب، وأصله: التّناوُح وهو التّقابُل، أي: أنْ يكون الشّيء في مواجهة الشّيء، وأُطلِق على البُكاء بصوتٍ، أو الصّياح بالأحزان والأوجاع؛ لأنّ الإنسان في العادة لا يَحْزنُ جهرةً أو يبكي جهرةً إلَّا خِطابًا مع أحدٍ يتقابل معه، وأمَّا البُكاء: فهو سيلانُ دمعِ العيْن لِرقّةٍ في القلب، مِن حُزنٍ أو فرحٍ أو إشفاق، وقد يكون بصوتٍ أو مِن غير صوت، وعليه: فالنّواح أخصّ مِنَ البكاء، لتقيّده بالتّقابل والصّوت[2].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (خر، سقط)، والسّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خرر، سقط).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكوء، نوح)، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (بكي، نوح)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بكى).

﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم: 59 - 60]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

التوبة تجبّ ما قبلها

لَمَّا استوفى الكلام على سيرةِ الأوَّلين مِنَ النّبيّين والأسلافِ الصَّالحين، أخبر - هنا - بأنّه جاء بعدهم مِن ذُرّيّتهم مَن نقضوا العهد وخالفوا نهجَ الآباء في الإيمان والإصلاح، فاستحقّوا الجزاءَ مِن جنس ما عَمِلوا، فكان الحديث عنِ الخَلَف مِن تمام الحديث عنِ السّلف.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَلَفَ﴾، ﴿خَلۡفٌ﴾: (خلف) أَصْلٌ، وهو مِنَ الإِخْلافِ، وهو مَجيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[1]، فالخَلَفُ: المُتَأخِّرُ، سواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ، يُقال: فُلانٌ خَلَفٌ لِأَبيه، أيْ: جاءَ بَعْدَهُ، ويقولون: هو خَلَفُ صِدْقٍ مِن أبيه، وخَلَفُ سَوْءٍ مِن أبيه، فإذا لم يذكُروا صِدْقًا ولا سَوْءًا قالوا لِلْجَيِّد خَلَفٌ، ولِلرَّديِّ خَلْفٌ - بإسكان اللّام[2]، وضِدُّ الخَلَفِ: السَّلَفُ، وهو كُلُّ مَن سَبَقَك، والخَلَفُ أيضًا: ما اسْتَخْلَفْتَهُ مِن شَيْءٍ، وجمعُه: أَخْلافٌ[3]، وأَمَّا قَوْلُهُمْ: اخْتَلَفَ النَّاسُ في كَذا، والنَّاسُ خِلْفَةٌ، أَيْ: مُخْتَلِفونَ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِه، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحَّاهُ، والمراد بالخَلْفِ هنا - بِسكونِ اللَّامِ - عَقِبُ السّوءِ، وبِفَتْحِ اللَّامِ - عَقِبُ الخَيْرِ[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 134.

2) ﴿أَضَاعُواْ﴾: (ضيع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على فوْتِ الشَّيْءِ وذَهابِه وهَلاكِه، يُقالُ: ضاعَ الشَّيْءُ يَضيعُ ضَياعًا وضَيْعَةً، وأَضَعْتُهُ أَنا إِضاعَةً[1]، والإِضاعَةُ: إِتْلافُ الشَّيءِ وإِبْطالُ آثارِه[2]، والضَّيْعَةُ: المَرَّةُ مِنَ الضَّياعِ[3]، الضُّيَّعُ: المُهمَلونَ مِنَ الرِّعايَةِ والتَّفَقُّدِ[4]، والمرادُ بالإِضاعة في الآية: جَعْلُ الشَّيْءِ ضائِعًا، وهو مَجازٌ في التَّفْريطِ، بِتَشْبيهه بِإِهْمالِ العَرَضِ النَّفيسِ[5].

3) ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾: أَصْلُ (تبع): التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا، إذا تَلوتَهُ واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ: إِذا لَحِقْتَهُ[6]، كأَنَّما لَحِقَ أو التصَقَ به وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له[7]، وأَمَّا التَّتَبُّعُ فأَنْ يتتبَّعَ في مُهْلَة شَيئًا بعد شَيْءٍ[8]، والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ أَثَرِ الماشي، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في العَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الغَيْرِ[9]، والمُرادُ بالاتباع في الآية: اقتفاءُ أثَرِ الشَّيء بحيثُ لا يفوتُه.

4) ﴿ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾: أصلُ الشَّهْوةِ: الرَّغْبَةُ الشَّديدَةُ، يُقالُ: شَهِيَ الشَّيءَ وشَهاهُ، يَشْهاهُ، شَهْوةً، واشْتَهاهُ، وتَشَهَّاهُ: إذا أَحَبَّه ورَغِبَ فيه[10]، والشَّهْوةُ أيضًا: اشْتياقُ النَّفْسِ، وتُطْلَقُ بِمعنى طَلَبِ الشَّيْءِ مَرَّةً بعد أُخْرى[11]، والشَّهْوانُ والشَّهْوانيُّ: الشَّديدُ الرَّغْبَةِ في الشَّيْءِ[12]، والمُرادُ بالشَّهْوةِ في الآية: تَشَوُّقُ النَّفْسِ إلَى ما يَلَذُّ لَها.

5) ﴿يَلْقَوْنَ﴾: (لقي) أَصْلٌ يدلُّ على تَوافي شَيْئَيْنِ، ومنه اللِّقاءُ: الحُضورُ نحو الغَيرِ بِقَصْدٍ أو بِغَيرِ قَصْدٍ، وفي خَيْرٍ أو شَرٍّ[13]، وكلُّ شيءٍ استقبلَ شَيْئًا أَو صادفَه فقد لقيَه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضيع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 24.
(3) ابن الأثير، النّهاية: (ضيع).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضيع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 135.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 423.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (شهو).
(11) الخليل، العين: (شهو).
(12) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شهو).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

والتَلَقّي هو الاستِقبال[1]، واللُّقيَةُ فُعْلَةٌ مِنَ اللِّقاءِ، والجَمعُ لُقًى[2]، والمُلاقاةُ مُفاعلةٌ مِنْ لَقيَ، والمرادُ باللِّقاء في الآية: مُصادَفَةُ الشَّيْءِ شَيْئًا في مَكانٍ واحِدٍ[3].

6) ﴿غَيًّا﴾: (غوي) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلام الأَمرِ[4]، والغَوايَة - بفتح الغين -: الضَّلال واتِّباعُ الهوى والانهماكُ في الباطل، ورجلٌ غاوٍ وغوٍ وغَويٌّ وغَيَّان: ضالٌّ، وأَغْواه هو، وغوى غيًّا: انهمك في الجَهل، وخِلافُهُ: الرُّشْد[5]، ومِن معانيه أيضًا: الخَيبة، فيقال: غوى الرَّجُل: إذا خاب[6]، والمراد بـ ﴿غَيًّا﴾ في الآية: شَرًّا، وخُسرانًا، وهَلاكًا، أو: هو وادٍ في جهنَّمَ[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مِن أهمِّ أسبابِ التَّهاونِ في الصَّلاةِ اتِّباعُ الشَّهَواتِ

يُبيِّنُ اللّٰه سبحانَه ما حدَث مِن الَّذين جاؤوا بعدَ هؤلاءِ المُنعَم عليهم، فيقولُ: فأتى من بعدِ هؤلاء المُنعَم عليهم عَقِبُ سَوءٍ أضاعوا الصَّلاةَ؛ بتركِها، أو التَّفريطِ في شروطِها أو أركانِها أو واجباتِها، واتَّبَعوا شَهواتِهم، مُؤْثِرينَ لها على طاعةِ اللّٰه، فسوف يَلقَونَ عذابًا شَديدًا في جهنَّمَ، إلَّا الذين تابوا عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وآمنوا باللّٰه وما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ المشروعةَ بإخلاصٍ للّٰه، فأدَّوا فرائِضَه، واجتَنَبوا محارِمَه؛ فأولئك يدخُلونَ الجنَّةَ، ويَنجونَ مِنَ النَّارِ[8].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لقي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 273.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 571، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 224.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 574، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 126، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 246، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 497.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله: ﴿فَخَلَفَ﴾، ودلالتُها:

ما أتى زمنٌ إلَّا والذي بعدَه شرٌّ منه

الفاء في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾؛ لتفريع التّنديد بطائفةٍ مِن ذرّيَّاتهم لم يقتدوا بصالح أسلافهم وهم المعنيّون بـ(الخَلْف)، بعد الثّناءِ على الأسلاف والأئمّة[1]، فالذّمُّ مُفَرَّعٌ عنِ المَدح، مُرتَّبٌ عنه، ولذا عطفَه بالفاء، وللدّلالة على التّعقيب، فإنّ الخَلْفَ عقِبٌ للسّلَف، وللتّعجيبِ مِن شأنِ الخَلْفِ؛ فقد خالف حالُهم حالَ سَلَفِهم فكان كترتيب شيءٍ على شيءٍ لا يترتّب عليه، وإذا كان مجيءُ الحديث عن الخَلْف مِن بعد الحديث عنِ السّلَف دالًّا على أنّ الحديث الثَّاني مِن تمام الأوّل، فإنّ هذه الفاءَ أحكمتِ العلاقةَ بينهما، وأكدتها، وقوّتْها، ونبَّهَت المُتَدبّرين إلى أنّ بينَ الحديثَين تقابلًا، إن ظاهرًا أو خفيًّا.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾:

الإنسان سريع الانـــزلاق إلى المهاوي

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: ناشئًا بعدَهم، ولم يقل: (فخلف بعدهم) بإسقاط ﴿مِنۡ﴾؛ لكون الأخلاف بعدَهم أخلاطًا، كان منهم المُخالِفُ ومنهم المُتَّبِعُ، ولو قال: (فخلف بعدهم) لاستغرقَ زمانَ البَعديّةِ، فيكون كلّ الذّرّيّة في كلِّ الزّمان بعدَهم مذمومين، فلمَّا قال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ دلّ على أمرين؛ **الأوّل**: السُّرعة، فهذا الخَلْفُ الرّديء نشأ سريعًا، وابتدأ ظهورُه بعد هؤلاء الأخيار الأصفياء، وفيه دلالةٌ على سُرعة ظهورِ الانحراف ونسيانِ العَهْد بعد انقراض جيل الآباء المُختارين، **الثّاني**: أنّ هذا الانحرافَ كان في بعض الزّمان بعد هؤلاء السّلفِ لا كُلِّه، فيَدُلّ على وجود صالحين بعدَهم[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 134.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 224.

نُكْتَةُ التّقييد بالبَعْديّة:

مِنَ الحَسْرة أن يخرج مِن صُلْبِ الموحِّد خصيمٌ لله

جاء التّقييد بالبَعديّة في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ مع أنّ الخَلْفَ لا يكون إلَّا بَعْدًا، فليس عدمُ التّقييدِ موهمًا بخلافِه، فالبَعديّة - هنا - ليست للاحتراز، بل سِيْقَتْ لاستحضار ذَهاب الصَّالحين[1]، وهذا أبلغُ في التّحَسّر على ما وصلوا إليه، وأَدَلّ على أنّهم ليسوا بمعذورين أو جاهلين، وفي ذِكْرِ هذا القيدِ أصلُ إنكارٍ خَفيٍّ على الخَلْف؛ أن يكون منهم ذلك؛ ولهم سَلَفٌ حالُهم ما سبق ذكرُه.

نكتة تقديم شبه الجملة:

صلاح الآباء داعٍ للذرّيّة ألا يُسيئوا

تَقَدُّمُ شبه الجملة: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ على الفاعل: ﴿خَلۡفٌ﴾؛ إسراعًا في التَّعريض بهؤلاء الخَلْف، فإنّهم جاؤوا بعد أنبياء أولياء، فكان أولى بهم ألَّا يُسيئوا، ففي تقديمه إنكارٌ شديدٌ خفيٌّ على الخَلْف، ولمزيد الاهتمام والعناية بهذا الزّمن، زمنِ البعديّة، كأنّه لمَّا أُضيف إلى ضميرِ هؤلاء الأكابر السَّابقين كان حقيقًا بالتّقدّم والسّبْق في مواقع الكلام؛ كأنّه قيل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: 164].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿خَلۡفٌ﴾، ونُكْتَة تنكيرها:

الخَلْفُ نسلٌ رديء

(الخَلْفُ) بسكون اللَّام هو المُعاقِب الرّديء الذي لا خيرَ فيه، ولذا عُبّر به[2]، وتنكيرُ اللّفظ للتّهوين من شأنهم والتّحقير مِن وصفِهم، إبهامًا لهم ولأقدارهم الرّديئة.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاق:

خيرُ الألفاظ ما أنتجته السّهولةُ وخلا مِنَ التّكلّف

بين لفظي: ﴿فَخَلَفَ﴾ و﴿خَلۡفٌ﴾ جناسُ اشتقاقٍ، حيثُ اجتمع اللّفظان في أصل الجَذْر الاشتقاقيّ، فكلاهما مِنَ الجَذر الثّلاثيّ: (خَلَفَ)، وهو جناسٌ غيرُ تامّ، وهو مُحسِّن لفظيّ بديعيّ مِن تمام بلاغة التّركيب، يورَد من غير تكلّف، وفي هذا الجناسِ لطيفةٌ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 135.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).

وهي أنَّ نفوسَ هؤلاء الخَلْفِ كانت أرضًا خصْبةً للرّداءة والمخالفة والمعصية؛ فقَبِلتها بسهولة وسرعة.

نُكْتَةُ مجيءِ الوصفِ جملةً فعليَّةً، ودلالةُ الماضي:

خَتْمُ الأعمالِ بنقائص الأحوالِ حرمانٌ

وُصِفَ ﴿خَلْفٌ﴾ بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ﴾؛ لأنّه في شأن التّكاليف، والتّكليف مُزاولةٌ وعملٌ، ولذا وصفَهم بالفِعل، ليَدُلّ على أنّهم لم يعملوا ما كُلِّفوا به، وجاء به بصيغة الماضي، ليَدُلّ على عمديّتهم وتحقّقهم بهذا التّقصير العظيم.

وتُشير صيغةُ الماضي إلى أنّ آخر عهدهم بالصّلاة التّضييعُ، فلم يستدركوا ما فاتهم، ولم يتوبوا مِنَ التّهاون فيه.

نُكْتَةُ التّعديَة بالهمزة دونَ التّضعيف:

إضاعةُ الصّلاة تبدأ مِن تأخيرها والتّهاون فيها

لم يقل في السّياق الكريم: (ضيّعوا الصّلاة)، بل قال: ﴿أَضَاعُواْ﴾، فعَدّى الفعلَ بالهمزة دون التّضعيف؛ لأنّ (ضيّعوا) أشَدُّ مِن ﴿أَضَاعُواْ﴾، فالتّضعيفُ يَدُلّ على تكثير الفِعل، والهَمزةُ تدُلّ على أدنى قدرٍ منه، ولذا كان التّعبيرُ بـ ﴿أَضَاعُواْ﴾ أبلغَ؛ ليدخلَ فيه مَن أَخَّرَها عن وقتها، ومَن ترك بعضَ الصّلوات، انتهاءً بمَن تركَها كُليّةً، وأمّا (ضيّعوا) فلا تدلّ على التّهاون والإخلال، ولو لم يكن تركًا كليًّا، فإثباتُ الأدنى هنا يَلْزَم منه إثباتُ الأعلى.

بلاغة الاستعارة في: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

مَن ضيّع الصّلاة فقد سَفِهَ نفسَه

في قوله: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استعارةٌ تمثيليّة تصريحيّةٌ تبعيّة، حيثُ شَبّه التّفريط في الأمر والتّقصير فيه بتفويت العَرَض النّفيس أو إذهابِ الشّيءِ القيّم، وهذه الاستعارة أضْفَتْ على الصّلاة معنى النَّفاسة، وهذا فوق خطرها الثّابت لها بقرينة خارجيّة هي بعض الأحاديث في السّنّة؛ فكان حالُهم في تهاونهم بالصّلاة وتفريطهم في أدائها كحال مَن فوّتَ شيئًا نفيسًا، فذَهَبَ عنه فلم يظفر به وأُسقِطَ في يدِه، وهذه الاستعارة تتناسب مع القراءة بإفراد الصلاة

وجمعها على ما سيأتي، ومِن جهة أُخرى ففي التّعبير بـ ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كنايةٌ عن عدم مراعاتها وتركِ تعهّدها، لأنّه يَلْزم مِن ضياع الشّيء وبُعدِه تركُه وعدمُ رعايتِه[1]، والتّركيبُ الذي فيه مجاز بالاستعارة يصِحّ أن يكون كنايةً بلا تعاند، فالكناية مؤسّسَةٌ على الاستعارة.

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لإرادة الجنس، أي: جنس الصّلاة الذي يندرج تحتَه أنواع الصلوات جميعًا.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾:

تـركُ المأمـورات يَـجُـرّ المآثـم والمُحرّمات

جملة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم جمعوا إلى التّفريطِ في الصّلاة الإفراطَ في المعاصي، ومجيءُ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ مِن بعد ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ينبِّه على أنّ إضاعة الصّلاة هي التي فتحت لهم بابَ اتِّباعِ الشّهوات، ووراء هذا مِن المعنى أنّ الصّلاة مِن شأنها أن تعصمَهم عن سُبُل الشّهوات والاقتراب منها، ويُؤيّد هذا قولُه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]، فهي خير للبدن والدّين معًا، وهي أمّ الأعمال الصّالحة.

دلالة التّعبير بالماضي في ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾:

دلالة الماضي على القَصْد والإصرار

التّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ للدّلالة على تورّطهم الكامل في تعاطي الشّهوات وتحرّيها، بما يَدُلّ على القَصْد والإصرار، والأصل والظّاهر: التّعبير بالمضارع؛ لأنّ اتّباع الشّهوات يكون بالممارسة، لا بالاعتقاد، وإنما عُبِّر بالماضي؛ تعظيمًا للصّلاة التي ضيّعوها؛ فعلى معنى أنّ إضاعتها يُحقِّقُ اتباعَ الشّهوات لا محالةَ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضيع)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 135.

سِرُّ التّعبير بالاتباع في ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾:

الشّهواتُ هي الامتحان الذي يُقاس به الإنسانُ

التّعبير بالاتّباع في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ دلّ على أنّ اقترافهم للشّهوات كان خطواتٍ متتابعة يُسلِمُ بعضُها بعضًا، فالتتابُع يُسَهِّل الاتّباع، وهذا سَهّل اقترافَها شيئًا فشيئًا، حتّى اقتحموها جملةً، وفي التّعبير بلفظ الاتّباع إشارةٌ إلى الاختيار وعدم الإعذار، ولا يخفى ما بين لفظي ﴿أَضَاعُواْ﴾ و﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ مِنَ المقابلة المعنويَّة البَديعة التي تُؤَكّد على معنى التّنافر بينَ التزام الصّلاة وانفلات الشّهوة، وتُؤكّد على معنى استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير.

معنى (أل في ﴿ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾، ودلالةُ الجمع فيها:

الشّهوات لا ساحلَ لها

(أل) في ﴿ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ لاستغراق خصائصِ الجِنْس، فهو تعريفٌ للحقيقة والماهيّة، وجُمِعَ لفظُ الشّهوات باعتبار أنّهم جمعٌ وجيّل متوفِّرٌ عليها، فهذا يقترف شهوةً، والثّاني يقترف كذلك، والثّالث إلخ، فهي شهواتٌ باعتبار تعدّد المُقترفين لها، أو باعتبار تعدّد أنواعها ومجالاتها، أو باعتبار أنّ الشّهوةَ الواحدة تَجُرّ أعدادَ الشّهواتِ معها، فالشّهوةُ في فِعلِها لا تكون أحاديّة بل مضمومةً إلى مثيلاتٍ لها، وفي الجمع مِن حيثُ هو جمعٌ: إشارةٌ إلى شِدّة قبولِ أنفسِهم لجنس الشّهوات؛ فكلُّ فردٍ منهم يقترف مجموعة منها؛ لأنّ نفسَه أرضٌ خصبة لها؛ لخلوها مِنَ التّحصين الذي كان تضعه فيها الصّلاةُ.

بلاغة الاستعارة في: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾:

الشّهوةُ لها زينةٌ وزُخرُف يستحِثّ المغرورَ به

في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شَبّه الشّهوات في تأثيرها وسطوتها بِداعٍ عاقِلٍ له إرادةٌ وتأثير، فيَتّبِع المُريدُ داعيَه ويمتثِلُ له، فكأنّ الكلام على تقدير: واتّبعوا داعيَ الشّهوات، ولذا يصِحّ أن يكون الكلام مِن باب المجاز العقليّ في إسناد الاتّباع إلى مفعول الشّهوات، لأنّ الذي يُتَّبَع في الحقيقة هو الدَّاعي إليها المُرَوِّج

لها، ومآلُ الوجهين واحد مِن حيثُ أصلُه، وأمَّا مِن حيث درجتُه فالحَملُ على الاستعارة أعلى وأقوى وأبلغ.

معنى الفاء في ﴿فَسَوۡفَ﴾، ودلالة التّعبير بالتَّسويف:

سوف للوقوع البعيد، والسّين للوقوع القريب

عبّر بـ(سوف) في قوله: ﴿فَسَوۡفَ﴾ دون السّين؛ لأنّ السّين تدلّ على الوقوع القريب؛ بخلاف (سوف) فإنّها تدُلُّ على الوقوع البعيد، وفي هذا دلالة على إرخاء الإمهال، بخلاف السّين فتدُلُّ على الإمهال فقط، أمَّا (سوف) تدلّ على الإبطاء والتّأخير الزّمنيّ، وفائدة التّعبير بـ (سوف) هنا: الإيذانُ بأنّ اتّباعَهمُ الشّهواتِ حاصلٌ على أتمّ وجوهه، وأطولِ مُدَدِه، وهذا أبلغ في نفي العُذْر وإقامة الحُجّة.

دلالة المضارع في ﴿يَلۡقَوۡنَ﴾:

التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ يدُلّ على أنّ لقاءهم الغيَّ مُتكرِّرٌ في أزمنة المستقبلِ، مبالغةً في وعيدهم وتحذيرًا لهم مِنَ الإصرار على ذلك[1].

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿يَلۡقَوۡنَ﴾:

موافاةُ الغَيّ نتيجةُ اتّباع الشّهوات

التّعبير بـ﴿يَلۡقَوۡنَ﴾ يدُلّ على المُجازاةِ المُستحقّة التي توافي وتكافِئ أعمالَهم، لأنّ في المُلاقاةِ سلاسةٌ وعدمُ تكلّف، كأنّ موافاة الغَيّ هو النّتيجة البَدهيّة لاتّباع الشّهوات، وفي التّعبير باللّقاء وإسناده إليهم تعريضٌ بهم، كأنّهم بسوء عَمَلِهم أرادوا لقاءَ الغَيّ وموافاته، وفيه أيضًا تكنيَةٌ عن غفلتِهم بالتذاذهم بالشّهوات، فغيّبهم هذا عن مُلاحظة العواقب، فلاقَوا الغَيّ مِن حيثُ لم يحتسبوا؛ لاستغراقهم في حجاب الشّهوات الذي حال عن ملاحظة سوء المصير، فصادفوه فجأةً على غير موعدٍ وترتيب، وإذا كان في: ﴿يَلۡقَوۡنَ﴾ معنى الموافاة والمُكافأة، ففيها تلميح إلى العدل في العقاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.

سرُّ إيثارِ التّعبير بالغَيِّ، ودلالة تنكيره:

مَنِ الْتَذَّ بالحرام تألّم به

أوثِرَ لفظ ﴿غَيًّا﴾ لِموقعه المَكينِ في الفاصلة، ولأنّ في لفظِ ﴿غَيًّا﴾ وحشَةً تبعثُ على الانقباض والنّفور، تُقابِلُ لذّةَ الشّهواتِ وانبساطَ النّفسِ معها، ولأنّ ﴿غَيًّا﴾ كنايةٌ عن سوء مصيرهم الدّالِّ على أنّهم جمعوا بينَ الضّلال والخَيْبَة، فإنّ الغَيّ هو مجموع هَذَين المَعْنَيين[1]، وهذا أنسب جَزاءٍ لأهل الشّهوات وإضاعة الصّلوات، فإنّ الشّهوة إذا غلَبَتْ أضَلَّتْ، وإذا انقضتْ أعقبتْ فتورًا وخَيْبَة، وإنّ إضاعة الصّلوات سببٌ في كلّ ضلال، والانصرافَ عنها أعظمُ ضلالٍ، وهو سبب عظيم فيما يورِثُ كلَّ خيبة ونَدم، وهذا هو عيْنُ الغيّ، ولذا عبّر به، ومادّة ﴿غَيًّا﴾ مثيلةٌ لمادّة (غيا) التي تدلُّ على مدى الشّيء وغايته ومنتهاه في الحقيقة والمآل، ويكأنّ مُلاقاةَ الغيّ هو الغاية الحتميّة، والمدى الأكيدُ لركوب الشّهواتِ وعبوديّتها[2]، فكانت عبارة: ﴿يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ مع ضميمة اتّباع الشّهوات: تشكل صورةً كليّة تُبرِزُ قباحةَ المُحَدّث عنهم.

معنى الاستثناءِ ودلالتُه:

الأحكام منوطةٌ بتوجيه الإعراب

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ إمّا منقطع ممَّا قبلَه، على اعتبار أنّ تركَ الصّلاة ليس كفرًا، لأنّه قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ أي: رجع عنِ الكفر، فيكون الاستثناء منقطعًا لفتْح باب التّوبة لأهل الكفر جميعًا، أي: إلّا مَن تاب عن كُفره وآمن بمحمّد ﷺ.

أو متّصِلٌ بما قبلَه، على معنى أنّ المقصود بـ ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ تضييعُ الكَفَرةِ لها، لَمَن لا يُؤمن بها ولا بفرضيّتها،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (غوى).
(2) ابن منظور، اللّسان: (غيا).

ولذا قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[1]، وتكون الآيةُ على غِرار قوله تعالى على لسان الكفرة: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر: 43]، ويكون في جملة الاستثناء إشارةٌ إلى أنّ الكفار مخاطبون بفروع الشّريعة؛ لتَعَلّق الإيمانِ والاعتقادِ بها.

إيثار لفظ التّوبة، دون غيره:

التّـوبـة رجـوعٌ لأجْـل الـسَّـبْـق والكمال

آثَرَ التّعبيرَ بلفظ التّوبة دون غيره، في قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾؛ للدّلالة على مفارقة الذّنب على أتمّ الوجوه، فهو أجملُ الرّجوع عنِ الذّنبِ وأكْمَلُه، وأمّا الأَوبة فلا تدلّ إلى على رجوعٍ خاصٍّ بذي إرادةٍ وعقل، ولا تدلّ على الكمال[2]، والقرآنُ يريد لأتباعه الكمالَ في كلِّ شيءٍ.

نُكْتَةُ التّعبير بالموصول العامِّ: ﴿مَن تَابَ﴾:

عبّر بالموصول المُشترَك في قوله: ﴿مَن تَابَ﴾ للتّسوية بين الذّكر والأُنثَى في الحُكم، فلفظ ﴿مَن﴾ يدُلّ على الذّوات العاقلة المُكلّفة.

دلالةُ العطف:

أمــارةُ صحّـة التّوبة استتباعُها للإيمان والعمل الصَّالح

العطف في قوله: ﴿تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يُفيد المُغايرة، فالتّوبة نفيٌ للكُفر وأعمالِه، والإيمانُ إثباتٌ للاعتقاد الصّحيح، والعملُ الصَّالحُ برهانُ الإيمانِ مِنَ الأفعال والسّلوك، والعطفُ بينَها تنبيهًا على أنّها لوازمُ مجتمِعةٌ في الإتيان والتّحقيق، فهي واردة على سبيل التّرقّي؛ فالتّوبة تخليَةٌ، والإيمان أصلُ التّحليَة، والعملُ الصَّالحُ تنميةٌ لأصلِ التّحليَة.

نُكْتَةُ مَجيء الأفعال الثّلاثة بصيغة الماضي:

الـخـاتِـمـةُ مِـرآةُ الجَزاء

مَجيءُ الأفعال الثّلاثة: ﴿تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على التّحَقّق بهذه الأفعال، وأنّها كانت آخرَ عهدِه في الدّنيا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 23، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 401.
(2) الرّاغب، المفردات: (توب، أوب).

قبلَ ملاقاة الجزاء؛ بقرينة قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

بلاغة حذف متعلَّقات الفعلَيْن ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ﴾:

العمل الصَّالح هو ما صَلُح للعَرْض على الله

لم يقل في السّياق الكريم: آمن بكذا، أو عمِل صالحًا في كذا؛ لإرادة العموم، واكتفاءً بوصف الصّلاح في دلالته على ذلك، أي: آمن إيمانًا صالِحًا وعمِل عملًا صالِحًا، والإيمان الصَّالح هو ما خلا عمَّا يُفسِده بتحقيقه في أصله وكماله، فلا يتحقّق في أصله إلَّا إذا تعلّق بأصول الإيمان، ولا يتحقّق في كماله إلَّا إذا تزيّن بوجوه الإحسان، وكذا العمل الصَّالح هو الخالي مِنَ النّواقض التي تُفْسِده، وهو الصَّالِحُ للعَرْضِ على الله بتحقّق شرطِه في القبول.

سِرُّ إيثار صيغة ﴿صَٰلِحٗا﴾:

صفةُ الصّلاح تنفي عن الشيء العيب والنقص

صيغَ بناءُ مفعول العمل على وِزانِ اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ للدّلالة على ثُبوت الوصف للموصوف، أي: (عمِل عمَلًا صلاحُه مستمِرٌّ دائم)، فاسمُ الفاعل يُفيد استمرارَ الوصف في الزّمن ودوامَه في مُلازمةِ حقيقتِه للموصوف به.

سرُّ حذفِ موصوفِ قوله: ﴿صَٰلِحٗا﴾:

صلاح العمل دليل على تبدّل الحال

قوله: ﴿صَٰلِحٗا﴾ صفة موصوف محذوف، أي: (عملًا صالحًا)؛ بقرينة ذكره في بعض المواضع الأخرى في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الفرقان: 70]، وسِرُّ الحَذف هنا: أنّ المُخاطَبينَ المُحدَّث عنهم ناسٌ تمكَّنت منهم الشّهوات؛ لأنّهم ركبوها بعد أن أضاعوا الصّلاة، فدخل في نفوسهم وقلوبهم حُبُّها؛ فاللّائقُ بحالهم أنْ يُطْلَب منهم أيَّ عملٍ، الأهمُّ أن يكونَ صالحًا، فالمقصودُ بالطّلب والنّظر هو الصّلاحُ الذي يكون أمارةً على تبدُّلِ أحوالهم، وليكن موصوفُه مِنَ الأعمال ما يكونُ.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

يُجازَى التّائبُ بالجَزاء الأعلى

جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ﴾ تفريعٌ على جملة الاستثناء، وهو تفريعُ الجزاءِ على سبَبِه، ولذا وُصِلتْ بالفاء، والتّفريع بالفاء يدلّ على تسريع الجزاء، ولا يخفى ما في ترك التّسويف مع ذِكْر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِنَ اللّطف[1]، ولذا لم يقل: (فسوف يدخلون الجنة)، كما قال في الوعيد: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾؛ لاقتضاء الإبطاء في الوعيد وإمهالهم قبل ملابستهم له، بخلاف الوعد، ففي الفاء ترغيبٌ عظيمٌ في سبب الجزاء، وتركُ سوف إبلاغٌ في ذلك؛ فإنّ أصلَ التّرغيبِ حاصلٌ بتقرير مضمون الجزاءِ.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

مَنِ انتصرَ على الشّهوات، حَريٌّ أن يُلتَفتَ إليه ويُشار

صُدّرَتْ جملةُ الجزاء باسم الإشارة للبعيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ إشادةً بمقامهم العالي الذي بلغوه بالتّوبة والإيمان والعمل الصّالح، وتحريضًا على التّوبة مِنَ الكفر والنّزوع عنِ الشّهوات والمآثِم[2].

نُكْتَةُ مجيء المسنَدِ جملةً فعليّة:

الوفود إلى الجنّة هي اللّحظةُ التي لأجلها صَبَرَ الصّابرون

جيءَ بالمُسنَد جملةً فعليّة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم يُلاقون الجزاءَ في الحال مِن غير مماطلةٍ ولا تأخير، ولذا عبّر بالفعل المضارع، وصاغ الجملةَ بالفعل لاستحضار صورتِهم وهم يُكرَّمون بدخول الجنّة، فيتصوَّر السّامِعُ جموعَهم وهم يدخلونها ويتحرّكون إليها.

بلاغة القراءات في: ﴿يَدۡخُلُونَ﴾:

الفعل المبني لغير المعلوم يُشعِر بالحفاوة من قديم

قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالبناء للفاعل: ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ فكأنّها الأصلُ والظّاهرُ في بيان حركة المعنى في تقرير النّعيم المَذكور.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 427.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.

وقرأ الباقون بِضَمِّ الياءِ وفَتْحِ الخاءِ في ﴿يُدۡخَلُونَ﴾[1] مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعله؛ لاستحضار أنّهم داخلو الجنَّةِ بتكريم مِنْ مُجيز لهم على أعمالهم، فدَلَّ بناءُ الفعل على المُجازاة، بخلاف ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ المبنيّ للفاعل، فإنّه يدلّ على إرادتهم في الفعل، وأنّهم مُطاوِعون فيه، كأنّه قيل: ادخلوا فيَدخلون.

والقراءةُ بالبناء للمفعول: ﴿يُدۡخَلُونَ﴾ تُلاحِظُ سلفَهم الصَّالحَ وتُنادي عليهم؛ على أنّهم اتّبعوا هُداهُم، واقتَدَوا بهم، فكانوا أصلًا وسلفًا حقًّا لهم، وكانوا فرعًا مُتَّبِعًا، خَلَفًا حقًّا لهم، فكان مِن مظاهر النّعيم يومَ الدّين أنْ يُدْخِلَ الأصلُ الفرعَ الجنّةَ، أي: أن يحتفِلَ الأصلُ بالفرعِ؛ حين دخولِ الجنة؛ مع مشاركة جملةٍ مِن ملائكة اللّه الكرام.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾:

مِن تمام الجزاء إخلاؤه مِن شوائب النّقص

جملة: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ معطوفة على جملة: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ استكمالًا للجزاء، بالتّنبيه على أنّه حاصِلٌ بأوفى الوجوه، خاليًا عن شائبةِ النّقص والإخلال؛ وذلك لكمال ترغيبهم في سبب الجزاء؛ ملاحظةً لاستغراقهم في المعصية بإضاعة الصّلاة واتّباع الشّهوات؛ فإنّ ذلك لن يُنقصَ مِن أجورهم شيئًا؛ إذا كان منهم توبةٌ وإيمانٌ وعملٌ صالحٌ.

دلالة النّفي بـ ﴿وَلَا﴾:

النَّاس جميعًا مردودون إلى الميزان الإلهيّ الكامل

النّفي بـ﴿وَلَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ لنفي الحال والاستقبال، أي: لا يُظلمون شيئًا في وقتِ حسابهم وجزائهم على أعمالهم، ولا بعد هذا الوقت.

نُكْتَةُ بناء ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ لما لم يسمَّ فاعلُه:

بناء ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ للدّلالة على نفي عموم

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 252.

الفاعِلين، فلا يظلمُهم أحدٌ البتّة أيًّا كان، وفيه تطمينٌ بالعدل المُطلَق، وكنايةٌ عن ألَّا يخشَوا إلَّا أنفسهم، فالظّلم من جهتها يأتي.

مَن ظُلِم في الدّنيا استوفى ما فاته في الآخرة

دلالة العموم في كلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾، وفائدتُه:

﴿شَيۡـٔٗا﴾ نَكرةٌ متوغِّلةٌ في العموم والإبهام، وتُطلَقُ على المُمكِن الموجود أيًّا كان نوعه ومقدارُه، ودلّتْ على الاستغراق بورودها في سياق النَّفي، فتفيد نفيَ كلِّ فردٍ مِن أفراد النّقص والإجحاف والإبطاء الخفيّ الدّقيق، فضلًا عنِ انتفاء النّقص القويّ الظَّاهر، دفعًا لِما عسى أن يُخالِج نفوسَهم مِنَ الانكسار بعد الإيمان، بظنِّ أنَّ سبْق الكفرِ يَحطُّ مِن حُسن مصيرهم[1].

عدلُ الله لا يغادِر صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإضاعة والتّفريط:

أصل (ضيع) يدلّ على فوْت الشّيءِ وذهابه وهلاكه[2]، يقال: ضاع الشّيء: إذا فُقِد ولم يُعلَم موضِعُه[3]، والتّفريط: أصلُه (فَرَطَ) يدلّ على التّقدُّم والسَّبْق بالقَصْد[4] في إزالة شيءٍ مِن مكانه وتنحيته عنه[5]، ومنه التّفريط والإفراط، وهو تجاوز حدود الأشياء بإزاحتها عن مواضعها، فتَسبِقُ الحدَّ الذي هو لها وتقدّم عليه، إمَّا بزيادة وهو الإفراط والغُلوّ، أو بنقصان وهو التّفريط والتّقصير[6].

الإضاعة تفريطٌ كليّ

والفرقُ الدّقيق بينَ الإضاعة والتّفريط: أنّ الإضاعة تُزيل الشّيء بالكليّة، فلا يمكن استدراكه، فهي تفريطٌ كلّيّ، والتّفريط: تضييعٌ جُزئيّ يمكن معه العودةُ إلى الحَدّ واستدراكُ التّجاوزِ، ولذا كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضيع).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ضيع).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (فرط).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).
(6) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 32.

التّفريطُ مقدّمةَ الإضاعةِ، وليس العكس، والتّفريط يدُلّ على إخلالٍ في الشّيء مع وجوده، والتّضييع يدلّ على الإخلال وعدم الوجود، وهناك فرقٌ آخر يمكن أن يُلحَظ: وهو أنّ التّفريط يقترن بالقصد والعمد غالبًا، وأمَّا الإضاعة فقد تحصل على غير ذُكْرٍ وقصد.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم: 61 - 63]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تثبيت التَّائب بتفصيل الجزاء له

لَمَّا أخبر تعالى عنِ الخَلْفِ الرّديء بالخيبة، وفتح لهم باب التّوبة، وأغراهم بدخول الجنّة، شرعَ في بيانِ وتفصيل هذا الجزاء؛ إمعانًا في نصيحتهم وحرصًا على استنهاضِ همَمِهم إلى الإيمان والثّبات على نَهْجه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَدۡنٍ﴾: (عدن) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على الإقامَةِ[1]، قالَ الخليلُ: العَدْنُ: إِقامَةُ الإِبلِ في الحَمضِ خاصَّةً، تقولُ: عَدَنَتِ الإِبلُ تَعْدِنُ عَدْنًا[2]، وعَدَنَ الرَّجلُ بالمَكانِ، إذا أَقامَ به، ومِنْه اشتقاق المَعْدِن، وهو المَكان الَّذي يثبت فيه النَّاس ولا يتحوّلون عَنهُ شتاءً ولا صيفًا، وعَدَنُ أَبْيَنَ، نُسب إلى أَبْيَنَ، وهو رجل من حِميَر؛ لِأَنَّهُ عَدَنَ بها، أَي: أَقامَ بها، وجنّة عَدْنٍ، أَي: دار مُقام[3]، والمقصودُ بـ﴿عَدۡنٍ﴾ في الآيةِ: الخُلْدُ والإِقامَةُ، أَيْ: جَنَّاتِ خُلْدٍ[4].

2) ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾: (غيب) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيون، ثُمَّ يُقاسُ، مِنْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ، مِمَّا لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللّه[5]، وكلُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدن).
(2) الخليل، العين: (عدن).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عدن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).

مكانٍ لا يُدْرَى ما فيه فهو غيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه، وجمعُهُ: غيوبٌ[1]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنَّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض[2]، والغَيْبُ ضِدُّ الحُضورِ وضِدُّ المُشاهَدَةِ، والغَيْبَةُ: مِنَ الغَيْبوبةِ، والغِيْبَةُ: مِنَ الاغْتيابِ[3]، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما خَفيَ وغابَ عن عِلْمِ النَّاسِ، واسْتأثَرَ اللّه بِعِلْمِه.

3) ﴿مَأۡتِيّٗا﴾: أصلُ الإتيان: مَجيءٌ بسهولة، ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ، وكَذلِكَ رجلٌ أتيٌّ وأتاويّ: غَريب[4]، والإتيان: قد يُقالُ للمَجيءِ بالذَّات وبالأَمر والتَّدبير، ويُقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ، وفي الأَعيان، وفي الأَعراض، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]، ﴿أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 40][5]، والمَأْتَى: الموضع الَّذي تَأتي فيه صاحبَك أَو يَأْتي مِنْهُ، وأتيتُ الحاجةَ مَن مأتاتِها، إذا جِئْتها من وجهها[6]، والمقصودُ بالمأْتيِّ في الآية: الَّذي يَأْتيه غَيْرُهُ[7].

4) ﴿لَغۡوًا﴾: (لغو) أَصلٌ يَدُلُّ على اللَّهَجِ بالشَّيْءِ، يُقال: لَغيَ بِالأَمرِ، إذا لَهِجَ به، ويُقالُ: إنَّ اشْتِقاقَ اللُّغَةِ مِنْهُ، أَيْ: يَلْهَجُ صاحِبُها بها[8]، واللَّغْو، واللَّغا: السَّقْطُ وما لا يعْتد به من كَلام وغَيره، ولا يحصل مِنْهُ على فائِدَة ولا نفع[9]، واللَّغْو أيضًا: النُّطق، يُقالُ: هَذه لُغَتُهم الَّتي يَلْغون بها، أَي: يَنْطِقون[10]، واللَّاغيَةُ: اللَّغْوُ، قال تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١﴾ [الغاشية: 11]، أي: كلمةً ذاتَ لَغْوٍ[11]، والمقصودُ باللَّغْوِ في الآية: فُضولُ الكلامِ، وما لا طائلَ تَحْتَهُ.

5) ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾: (سلم) أَصلٌ يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيَةِ[12]، ومنه السَّلامُ: وهو أَنْ يَسْلَمَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).
(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (غيب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غيب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أتي).
(5) الرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (أتي)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 43.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أتي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لغو).
(9) ابن عبَّاد، المحيط في اللّغة، وابن سيده، المحكم: (لغو).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (لغو).
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (لغو).
(12) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلم).

الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، واللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِه مِمَّا يَلْحَقُ المَخْلوقينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ، ومِنْهُ قيلَ لِلْجَنَّةِ: دارُ السَّلامِ؛ لأَنها دارُ السَّلامةِ مِنَ الآفاتِ، وقولُ النَّاسِ: السَّلامُ عليكم، أي: السَّلامةُ مِنَ اللهِ عليْكم[1]، واسْتُعْمِلَ السَّلامُ عِنْدَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأْمينِ المَرْءِ مُلاقيَهُ، وأَنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ فصارَ قَوْلًا عِنْدَ اللِّقاءِ لِلْإكْرامِ[2]، وحقيقة السَّلام في الآية: التَّحيَّة، والمُرادُ بها: تحيَّةُ المَلائكةِ لَهُم في كلِّ الأوقاتِ[3].

6) ﴿بُكۡرَةٗ﴾: (بكر) أَصْلٌ يدُلُّ على أَوَّلِ الشَّيْءِ وبَدْئه، ومنه: البُكْرَةُ وهيَ الغَداةُ، والجَمْعُ: البُكَرُ، والتَّبْكيرُ والبُكورُ والابْتِكارُ المُضيُّ في ذلكَ الوقْتِ[4]، والإبكارُ: اسْمُ البُكْرة، كالإصباح، هَذا قَول أهل اللُّغَة، وعِنْد ابن سيده: أَنّه مصدر أَبْكَرَ[5]، وهو الدُّخول في ذَلك الوقْت، ويُقال: باكَرْتُ الشَّيْءَ، إذا بكَّرْتَ لَهُ[6]، والبُكْرَة: أوّل النَّهار، واشْتُقَّ مِن لفظه لفظُ الفِعل، فقيل: بَكَرَ فلانٌ بُكورًا: إذا خرج بُكْرَةً، والبَكور: المُبالِغ في البُكرة، وتصوَّر منها معنى التَّعجيل لتقدُّمها على سائر أوقات النَّهار، فقيل لكلِّ مُتعجِّلٍ في أمرٍ: بِكْر[7]، والمُرادُ بالبُكرةِ في الآية: النِّصْفُ الأوَّلُ مِنَ النَّهارِ[8].

7) ﴿وَعَشِيّٗا﴾: (عشو) أَصْلٌ يَدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ العِشاءُ، وهو أوَّلُ ظَلامِ اللَّيْلِ، وعَشْواءُ اللَّيْلِ: ظُلْمَتُهُ[9]، والعَشيُّ، بِغَيْرِ هاءٍ، آخِرُ النَّهارِ، فإذا قُلْتَ: عَشيَّة، فهو لِيوْمٍ واحدٍ، يُقالُ: لَقيتُه عَشيَّةَ يَوْمِ كَذا وكَذا[10]، وقيلَ: العَشيُّ والعَشيَّةُ مِنْ صلاةِ المَغْربِ إلَى العَتَمَة[11]، وحقيقةُ العَشيِّ في الآية: النِّصْفُ الأَخيرُ، أي: مِن آخِرِ النَّهارِ إلى ابْتِداءِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ[12].

(1) الخليل، العين: (سلم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 89.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 23.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (بكر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكر).
(7) الرّاغب، المفردات: (بكر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عشو).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عشو).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (عشو).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

8) ﴿نُورِثُ﴾: أصلُ (ورث): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الوِرْثُ، والميراثُ أَصْلُهُ الواوُ، وهو أَنْ يكونَ الشَّيءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[1]، يُقالُ: ورِثَ أباهُ، يَرِثُه، إرْثًا، فهو وريثٌ، أي: صارَ إلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِه، فالإيراثُ: الإبقاءُ للشَّيء يورِثُ، أي: يُبقي ميراثًا، والتُّراثُ: تاؤه واوٌ، ولا يُجْمَعُ كما يُجْمَعُ الميراث، والإرثُ: ألِفُه واوٌ، لكنَّها لَمَّا كُسِرَتْ هُمِزَتْ بلُغَة مَن يَهْمِز الوِسادَ والوِعاء[2]، والمراد بقوله: ﴿نُورِثُ﴾ في الآية: نَجْعَلُ وارِثًا، أَيْ: نُعْطي الإرْثَ[3].

9) ﴿تَقِيًّا﴾: (وقى): كلمةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بغَيْرِه، يُقالُ: وقَى نَفْسَهُ مِنَ العَدوِّ بِسِلاحِه، أي: دَفَعَهُ به، والوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيءَ، واتَّقِ اللّه: تَوقَّهُ، أَيِ: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ[4]، والاتِّقاءُ: تَكَلُّفُ الوِقايَةِ، وهيَ الصَّوْنُ والدَّفْعُ[5]، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، والتَّوقّي: الحَذَرُ، والتَّقيُّ: المُتَّقي، وهو المُفْرِطُ في الصّيانة[6]، والمُرادُ بالتَّقي في الآية: فعيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، مِنِ اتَّقَى إذا اتَّصَفَ بِالتَّقْوى، وهيَ تَجَنُّبُ ما يُخالِفُ الدّينَ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجنَّةُ حقٌّ خالصٌ يَرِثُه ويتملَّكُه العِبادُ الأتقياء

معنى قولِ الحَقِّ سبحانه: يدخُلُ أولئك التَّائبونَ بساتينَ إقامةٍ دائمةٍ قد وعَد الرَّحمنُ عِبادَه المؤمنينَ أن يَدخُلوها في الآخِرة، فآمنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا، وسيأتي المُؤمِنونَ المُطيعونَ، ويَصيرونَ إلى اللّه، وينالونَ ما وُعِدوا به، فيُدخِلُهم جنَّتَه؛ تحقيقًا لوعدِه، لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها باطِلًا وفُحشًا وكَلامًا لا ينفَعُهم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(2) الخليل، العين، وابن عبَّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورث).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (وقى).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 76.

ولكِنْ يَسمَعونَ فيها ما يَسُرُّهم مِنَ الأقوالِ والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، مِثْلَ تحيَّةِ اللّه وملائكته لهم، وتسليم بعضِهم على بعضٍ، ولهم رِزقُهم فيها مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ وما يَشتَهونَ في كُلِّ يَوم، في قَدرِ وقتِ البُكرةِ ووقتِ العَشيِّ مِن أيَّامِ الدُّنيا، هذه الجنَّةُ العاليةُ القَدرِ التي وصَفْنا بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ، نُنْزِلُها ونُعْطيها مَن كان مِن عبادِنا مُتَّقيًا لعذابِ اللّه، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصل جملة: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ عن سابقتها:

فصلتْ جملة: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾؛ لوقوعها بدلًا مِنَ الجنّة في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كأنّه قيل: (يدخلون جنَّات عدن) على نيّة تكرار العامل، والبدليّة من موجبات الفَصْل.

التوجيه النحويُّ والبيانيُّ في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ و﴿جَنَّٰتِ﴾:

ما من جَـنّـة إلَّا وهي جنّةُ عدن

﴿جَنَّٰتِ﴾ في قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بدلٌ مِنَ الجنةِ في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وجيء بصيغة الجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾ مع أنّ المُبْدَل منه مفرد؛ لأنّه يشتمل على جنَّاتٍ كثيرة، وهو بدل مطابقٌ وليس بدلَ اشتمالٍ؛ لأنّ الجنّة بالإفراد اسمُ جنسٍ له أفرادٌ كثيرة عُبِّر عنها بالجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾(2)، والأصلُ والظَّاهرُ التّعبيرُ بالجمع في الموضع الأوّل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، ولكنَّ القرآن عبَّر بالمُفرد؛ للدّلالة على خصوص نعيم هؤلاء، فالشّيء الخاصّ يكون قليلًا ومميزًا؛ وللدّلالة على حصولِ الأمانِ النّفسيّ الدَّاخليّ لَمن تاب وآمن وعمل صالحًا؛ وهو في الجنات؛ لخلو نفسِه مِن ذلك وهو في الدّنيا؛ لما لاقاه مِن غربةٍ نفسيّةٍ أليمة؛ بسبب مخالفة نغمة المعصية الجماعيّة.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 576، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 126، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 497، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 466.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.

إيثارُ لفظ ﴿جَنَّٰتِ﴾ دون غيره:

الجنَّات لها حَظٌّ مِنِ اسمها؛ لإخفاء نعيمِها

آثَرَ التّعبير بلفظ ﴿جَنَّٰتِ﴾ دونَ غيرها (كالحدائق والبساتين)؛ لأنّه أراد نوعًا مخصوصًا منها، وهو كلّ بستان ذي شجرٍ يَستُرُ بأشجاره الأرضَ[1]، ولأنّها مِن صفحاتِ الغيب المستورة، فناسبَ معناها رتْبَتَها في الخفاء الغيبيّ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السّجدة: 17].

بلاغة ذِكْرِ القيد: ﴿عَدْنٍ﴾، والإضافة:

وصْفُ الجنّةِ بالعَدْن يدلّ على عدمِ تحوّلها وعدمِ تحوّل أهلها

الإضافة في قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يصِحّ فيها وجهان؛ **الأوّل:** أنّها مِن إضافة الموصوف إلى صفته، وأصلُه: (جنَّاتٌ عدْنٌ)، أي: إقامةٌ وخُلدٌ، وغرضُ الإضافة من جهة اللّفظ: التّخفّف مِنَ التّنوين، ومِن جهة المعنى: المبالغةُ بجَعْلِ الخُلْدِ مُلابِسًا للجنَّاتِ، مُختَصًّا بها، فهما كالشّيء الواحد؛ لأنّ الموصوفَ وصِفتَه متلابسان لا ينفكّان، والتّنبيه على زيادة الفضل ومدحِ الجنَّات؛ لأنّ الشّيء إذا أُضيفَ للخُلود فهو ممدوح، **والثّاني**: أن يكون مِن حَذْف الموصوفِ وإقامةِ صفته مقامَه، وأصلُه: (جنَّات جنّةِ عدنٍ)، والأوّل تخريجُ الكوفيين، والثّاني: تخريج البصريين[2].

بلاغة الإدماج في جملة الصّلة:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ إدماجٌ لتبشير المؤمنين السَّابقين في أثناء وعْدِ المَدْعوّين إلى الإيمان بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[3]، فإنّ التّوبة تُسوّي التّائبَ ذي السّوابق بالطّائع ابتداءً.

دلالة التّعريف بالصّلة:

الجملة الموصولة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ صفةٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (جن).
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 10/ 279.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.

أغلى الوعود ما كان في دائمٍ لا يتغيّر

لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾، وأتى بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ ليتوسّل به إلى وصف المعرفة بالجملة، فإنّ لفظ ﴿جَنَّٰتِ﴾ في حُكم المعرفة لإضافته، وأيضًا: جملة الموصول: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ جاءت بالموصول الخاصّ ﴿ٱلَّتِي﴾، فأفاد العَهْديّة، والإخبار بما هو معهودٌ عند السَّامع ومُتعيّنٌ لديه، وهو الجزاء الموعود[1]، فمضمونُ الصّلة أمرٌ معلوم مشهورٌ، وفيه تقريبٌ للخَلَف مِنَ السلَفِ؛ وهذا مدحٌ وشديدُ ترغيبٍ، والعِلْمُ بالصّلة وشهرتُها ليس بلازم أن يكون بالنّسبة للمخلوقين، وإنّما قد يكون بالنّسبة للّه ﷻ، والمعنى أنهم معروفون عنده تعالى، مشهورون في ساحة رضوانه وأوليائه.

نُكْتَةُ حذفِ عائد الصّلة:

الجنّة هي الوعد الحقيقيّ الذي تتصاغر بجانبه الوعود

حذفُ عائدِ الصّلة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ﴾ أي: التي وعدها؛ إيجازًا لوضوحه وعدمِ التباسه، وتفخيمًا للوعد بإطلاقه مِنَ الضّمير وإضافته للرّحمن، وهو تعظيمٌ للجنَّات أن يُقال عنها: وعد الرّحمن، فصارتِ الجنَّاتُ كأنّها الوعدُ كلُّه لا أنّها مندرجةٌ فيه فحسب، وهذا تفخيمٌ للجنَّات أيُّ تفخيم، وهو تقريبٌ شديدٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا لساحة الرّضا والأمن والأمان؛ تعويضًا لهم عمَّا لاقوه مِن غربة وهوان.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

سَبَقَ القَدَر بالجنّة وأهلها والنَّار وأهلها

مجيءُ الفعل بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، للدّلالة على أنّه عهدٌ كتبَه اللّهُ على نفسه في الأزل أن يجزيَ بالجنَّاتِ أهلَها، وفي هذا مزيدُ طمأنة لهم.

سِرّ إسناد الفعل ﴿وَعَدَ﴾ للاسم الجليل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

إسناد الفعل ﴿وَعَدَ﴾ للاسم الجليل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ إشارةً إلى أنّ

(1) فاضل السَّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 123.

الطّمعُ في رحمة اللهِ مُؤذِنٌ بدخول الجنّة

هذا الوعد مِن آثار الرحمة التي كتبها على نفسه، كما أخبر بذلك فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، فهذا الوعد من جنس تلك الرّحمة.

دلالة العبوديّة، وبلاغة الإضافة في قوله: ﴿عِبَادَهُۥ﴾:

تُنالُ الجنّةُ بالرّحمة والعبوديّة

أُضيفَ العباد لضمير الجلالة؛ لتعريف العِباد وتشريفِهم بنسبتِهم في مقام المكافأة والجزاء إلى الله الذي هداهم وأكرمهم، وهو إلماحٌ إلى أنّهم استأهلوا هذا الجزاءَ بعبوديّتهم له سبحانَه، ولتقرير هذا المفهوم جاء المفعولُ به ﴿عِبَادَهُۥ﴾ اسمًا ظاهرًا؛ ليصفَهم بالعبوديّة، ويضيفَهم إلى نفسه، ولذا لم يقل: (التي وعدهم الرحمن بالغيب) على إضمار المفعول.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾:

عبوديّةُ السِّرّ تبلّغ نعيمَ الغيبِ

الباء في قوله: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ للظّرفيّة، أي: وعدَهم إيَّاها في الأزمنة الغائبة عنهم مِنَ الأزَلِ إلى الأجَل، أو للسّببيّة، أي: وعدهم إيَّاها بسبب إيمانهم بالغيب، فالكلام على حذف مضاف، أي: بإيمانِ الغيب، أو الباء للمُلابسة، أي: وعدًا مُلْتَبِسًا بالغيب، أو مصاحبًا أو لصيقًا به[1]، أو الملابسة تعود على العباد لا على الوعد، أي: عبادًا بالغيب، يعبدون اللّهَ في السِّرّ، لهم حالٌ غائبةٌ عن سواهم في عبادة اللّه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الملك: 12][2]، وإذا كانتِ الجنَّاتُ غيبًا فإنَّ هؤلاءِ السّلفَ لهؤلاءِ الخَلَف غيبٌ، وسوف تجمعهم الجنَّاتُ، وهذا تقريبٌ شديدٌ للخَلَف مِنَ السَّلَف؛ إبلاغًا في طلب التّوبة والإيمان والعمل الصَّالح.

فائدة التقييد بشبه الجملة في: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾:

قيَّد القرآنُ الكلامَ بشبه الجملة في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 272.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 279.

للدّلالة على أنّ الجنَّاتِ جاهزةٌ مُهيَّأةٌ لهم، وإنْ كانت محجوبةً عنهم، ففي تغييبها مع جاهزيّتها تشويقٌ وتحبيبٌ وتحفيزٌ إلى إدراكها، وامتحانٌ بتصديق كلمة اللّه بالوعد مِن غير مشاهدةٍ وإدراك، ومدحٌ للمؤمنين السَّاعين إلى وعد اللّه، وهم غيبٌ عنه وهو غيبٌ عنهم؛ لأنّ الإيمان بالغيب أمدحُ ممَّا سواه.

الإيمان بالغيب هـو الامـتـحـان الفاصل

عِلَّة فصلِ جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾:

جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تعليلٌ لجملة: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[1]، أي: هذا الجزاء حاصلٌ بقوّةِ أنّ وعدَ اللّه ثابتٌ حتميّ، فبينَ الآيتينِ كمالُ اتّصالٍ، فلذلك غاب العاطفُ، فلم يُقل: (وإنه كان وعده مأتيًا).

إذا وعــدَكَ الكريمُ فأنتَ في ضمان

نُكْتَةُ التّوكيد بـ﴿إِنَّهُۥ﴾:

افتُتِحت جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ بـ﴿إِنَّهُۥ﴾ لتأكيد مضمون الجملة، وربطِها التّعليليّ بمضمون الجملة قبلَها، وإغنائها عنِ الرّبط بالعطف.

حـرفُ التّوكيد رابــطٌ مـتـعـدّد المقاصد

توجيهُ عودِ الضّمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

الضّمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ يعود على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ويصِحّ أن يكون الضّمير للشّأن؛ لأنّه مَقامُ تعظيمٍ وتفخيم[2]، وضميرُ الشّأنِ هو الأعلى والأبلغ سياقًا.

يـتـودّد اللهُ إلى عـبـاده بتوثيق وعْده جبْرًا لهم

دلالةُ مَجيء المُسنَد جملةً اسميّةً مُصَدَّرةً بفعل الكون:

التّعبير بفعل الكون في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾؛ للإيذان بتحَقّق الوقوع، أي: كان ذلك ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي: يأتيه ما وعدَهُ إيّاه لا محالة[3]، وتحقيق وقوع البشارة[4] بـ﴿كَانَ﴾ دفعًا لتوهّم أنّ هذا

يُـحَـقِّـق الـلـهُ وعــودَهُ للنَّاس لئَلّا يُفْتَنوا عنها عصمةً لهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 7/ 612.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 429.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.

الوعد كسائر الوعود التي يمكن أن تلحقها عوارضُ تُبَدِّلُها، أو حوائلُ تمنعها.

جناسُ الاشتقاق:

خيرُ الكلامِ ما صدر عن غير تكلّفٍ

بين لفظي: ﴿وَعَدَ﴾ و﴿وَعْدُهُۥ﴾ جناسُ اشتقاق، حيثُ اجتمع اللّفظان في أصل الجَذْر الاشتقاقيّ، فكلاهما مِنَ الجذر الثّلاثيّ: (وعَدَ)، وهو جناسٌ غيرُ تامّ بين فعلٍ واسم، وهو مُحَسّن لفظيّ بديعيّ مِن تمام بلاغة التّركيب، يورَد من غير تكلّف، وصورةُ العلاقةِ: أن مِثْلَ وعْدِ الرحمن فخمٌ عظيمٌ مأتيٌّ لا محالة؛ فإن ذلك مِن مظاهر رحمته؛ ولهذا لم تأتِ الواو قبل هذه الجملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿مَأْتِيًّا﴾:

ينبغي أن يُهرَعَ النَّاسُ ويفرّوا إلى موعود الله

استُعيرَ الإتيان في قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾؛ لحصول المطلوب المُتَرقَّب، تشبيهًا لمن يُحَصِّل الشّيءَ بعد أن سعى لتحصيله، بِمَن مَشَى إلى مكانٍ حتّى أتاه، وتشبيهًا للشّيء المُحصَّل بالمكان المقصود، ففي قوله: ﴿مَأْتِيًّا﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، اقتُصِرَ مِن أجزائها على إحدى الهيئتين، وهي تستلزم الهيئةَ الأُخرى؛ لأنّ المَأتيَّ لا بُدَّ له مِنْ آتٍ[1].

دلالة صيغة اسم المفعول ﴿مَأْتِيًّا﴾ دون غيرها:

وعدُ الله ينتظر طُلّابَه

الإخبار عنِ الوعد بكونه: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بصيغة المفعول، دلّ على أنّ وعدَ اللّه ثابتٌ مُحقّقٌ كائنٌ في مكانه، فيُؤْتَى إليه ويُسْعَى إلى تحصيله، فهو في موضع المفعول، والحقّ أنّ الوعد متمكّن والنَّاس همُ الملتحِقون به، ولذا كانت صياغتُه على اسم المفعول أدعى للتّحفيز عليه، والاستنهاض إليه، فمعنى ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: مطلوبًا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.

مقصودًا ببلوغه مِنَ المُكلَّفين، وهذا أبلغ في الدّلالة على تحقّقه وإنجازه لهم، كأنّه قيل: هو مُنجَزٌ بالفعل مثبوتٌ لأهلِه، فلم يَبْقَ إلَّا أن يعملوا بأسباب الوصول إليه مِنَ الإيمان والتّوبة والعمل الصَّالح، ولا يخفى ما في هذا مِنَ الدّلالة على قِدَم الموعود ووجوده بالفعل، وأنّ الوعد به لا يتعلّق بإيجاده وإنشائه لهم، بل بتنجيزه وملابستهم له؛ لأنّه موجودٌ بالفعل، ولكن حَجَبَ عنِ اكتشافه أنّه غيْبٌ، ولذا سيق بعبارة الوعد، ولذا فُسِّر المفعول ﴿مَأۡتِيًّا﴾ بـ (مقصودًا ومطلوبًا)[1]، (ومُنْجَزًا)[2].

و(آتيًا) بمعنى الفاعل، مبالغةً في أنّ الشّيء يَطلبُ مستحقّيه، كما هم يطلبونه؛ إشارةً إلى أنّ لثبوته صار مضمونًا كالشّيء الذي يحضُر عندكَ، فهو مجازٌ عن ذلك، لا أنّ معنى ﴿مَأۡتِيًّا﴾ يُرادُ بها اسمُ الفاعل حقيقةً، فهذا على خلاف الأصل في الصّيغة والمعنى.

عِلَّة فصلِ جملة: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ﴾ عن سابقتها:

استراحةُ الأسماعِ مِنَ اللّغو قطعةٌ مِنَ النّعيم

جملة: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ حاليّة مِن ﴿عِبَادَهُۥ﴾، وفُصِلتْ لأنّها جملة فعليّة فعلُها مضارع منفيّ، فيمتنع اقترانُها بالواو أو (قد)، ويصِحّ أن تكون استئنافًا مقطوعًا ممَّا قبلَه[3]، فبعد أن ذكر وصفَ الجنَّات بأنّها ﴿عَدۡنٍ﴾، انتقل لوصف أهلها فيها، ويصحّ أن تكون استئنافًا بيانيًّا، ولذلك فُصِلتْ.

دلالة نفي المضارع بـ﴿لَّا﴾:

انتفاء المضارع بـ﴿لَّا﴾ في قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ﴾، أفاد انتفاءَ ذلك عنهم فورَ دخولهمُ الجنةَ في الحال، واستمرارَ ذلك معهم في الاستقبال[4].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 12/ 226.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(3) صافي، الجدول: 16/ 319.
(4) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 206.

إيثارُ لفظِ السّماع، دون غيره:

الاستماع يقع بقصد، ونفي السماع نفيٌّ للوجود

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ السّماع في قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾، دون غيره مِنَ الألفاظ كالاستماع، مِن وجهين:

الأوّل: أنّ اللّغو صوتٌ مِنَ الأصوات ونوعٌ مِنَ الكلام، ولذا ناسبَه نفي السّماع.

الثّاني: أنّ نفي السّماع يدلّ على نفي الوجود، وأمّا نفي الاستماع، فيدلّ على نفي قصدهم في الإصغاء للشّيء مع وجوده وحصوله، فنفيُ الأدنى: (السّماع) هو مناط تصوير حال الجنَّات، فكأنه الأصلُ فيه.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة على المفعول به:

للاهتمام والاختصاص والإسراع بمدح المَحَلّ

تقديم شِبه الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾؛ للاهتمام والاختصاص والإسراع بمدح المَحَلّ وهو (الجنّة) بتقديمه، لأنّه المقصود، ويصحّ أنْ يكون التّقديم دالًّا على الحصر، أي: (لا يسمعون فيها دون غيرها)، لأنّ في سائر الدّور والمحالّ لم يتنزّهوا عن سماع اللّغو.

دلالة تنكير ﴿لَغۡوًا﴾:

اللّغو حقيرٌ قصير لا يدوم ولا ينفع

تنكير ﴿لَغۡوًا﴾ للتّهوين والقِلّة، أي: أدنى شيءٍ منه غيرَ مسموعٍ لهم، لأنّه منتفٍ في وجوده أصلًا، وفيه معنى العموم، أي: لا يسمعون فيها لغوًا أيَّ لغوٍ؛ نظرًا إلى تنوّع اللّغو الذي كانوا يُؤذون به في الدّنيا.

معنى الاستثناء ودلالته:

خيرُ العيْش ما كنتَ فيه سالِمًا

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ يُحتمل فيه وجهان:

الأوّل: استثناء منقطع، على معنى أنّ السّلام من غير جنس اللّغو[1]، فتسليمُ الملائكة عليهم مِن شريف الكلام ونافِعِه، وكذا

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 6/ 222.

جميع ما يدخل فيه مِنَ الأقوال السَّالمة مِنَ الإيحاش والكدر، واللّغو مِن رَديء الكلام وهَذَرِه، وهذا الوجه هو الأبرُّ بحال المُحدَّثِ عنهم؛ لأنّ جعل السّلام مِن غير جنس اللّغو يستدعي في السّياقِ ما أوذيَ به مَن تاب وآمن وعمل صالحًا في الدّنيا، والجزاءُ في الآخرة ينظر إلى الأعمال والأحوال في الدّنيا، وهذا مِن سنن بيان الذّكر الحكيم.

الثّاني: استثناء متّصل، على أنّ المستثَنى مِن جنس المُستثنَى منه، وذلك على أحد وجهين؛ فإمّا أن يُراد باللّغو مطلقُ الكلام، من قولهم: لغا لغوًا، أي: تكلّم، فيكون الاستثناء متصلًا، أي: لا يسمعون فيها كلامًا إلّا كلامًا يدُلُّ على السّلامة، أو سلامًا مِنَ اللّه أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض[1]، وإمّا أنْ يُجعل السّلام بمعنى التّسليم عليهم، أو الدّعاء بالسّلامة لهم مِن جنس اللّغو، لأنّهم في غِنًى عنه، إذْ هم سالمون فعلًا، فيكون مِنَ الفضول واللّغو، ولكنّه استثناه لأنّ ذلك من إكرامهم والحفاوة بهم وهو من تمام النّعيم[2]، ولكن يَرِدُ على هذا الوجْه أنّ الدّعاء بالسّلامة إكرامٌ، والتّسليم تحيّةٌ، والإكرام والتّحيّة غرضٌ نافع، فالتحاقه باللّغو فيه نظر.

دلالة القَصْر في تركيب النّفي والاستثناء:

لا ســلامَ على الحقيقة إلَّا في الجنّة

أفاد تركيب النّفي والاستثناء في قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ قَصۡرَ صفةٍ على موصوف، قَصر الصّفة (السّلام) على الموصوف (المحلّ أو ذي المحلّ)، والقَصْر حقيقيّ؛ لأنّه لا دارَ في الآخرة تشترك مع الجنّة في هذا الوصف، ولذا فوصْفُ السّلام ثابتٌ لها منتفٍ عمّا عداها، ولذا سمّيتْ (دار السّلام)، والقَصْر أيضًا تحقيقيّ يُطابق الواقع من غير تزيُّدٍ ولا مبالغة[3]، والغرضُ مِن

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 436.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 280.
(3) محمد أبو موسى، دلالات التّراكيب، ص: 39، 46.

أداء القَصْر بالنّفي والاستثناء تأكيدُ المعنى في نفوس العِباد الذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحًا؛ كأنّهم في حُكم مُنكرِه؛ لأنّهم يُخاطَبون بذلك؛ وهم لا يزالون في الدَّار الدّنيا.

دلالة تنكير ﴿سَلَٰمٗا﴾:

تنكير ﴿سَلَٰمٗا﴾ للتّفخيم والتّعظيم والتّعميم، أي: سلامًا عظيمًا يستغرق أفرادَ السّلام ومظاهرَه كافّة، وهو بَرْدٌ على قلوب المُحَدّث عنهم.

علَّة الوصل في قوله: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ﴾:

حصول الرّزق مِن أخصّ أسباب السّلامة

جملة: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا﴾ معطوفة على جملة الاستثناء قبلَها، وهي مِن باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لأنّ حصول الرّزق مِن أخصّ أسباب السّلامة، ولذا جُمِعَ بينَهما بالعاطف[1].

نُكْتَةُ التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ﴾:

لا وجودَ في الجنّة لمعضلة الأرزاق والاكتراث لها

جيءَ بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ﴾؛ للدّلالة على ثبات ذلك الرّزق ودوامه، فيفيد التّكرّر المُستمرّ، وهو أخصّ مِنَ التّكرّر المستفاد بالفعل المضارع وأكثر[2]، ولذا لم يقل: (يرزقون)، ونظمُ معنى الجملة في صورة الاسميّة دليلٌ قويٌّ على أنّ الرّزق الذي فيها أعمُّ مِن نفي سماع اللّغو، والاسميةُ أيضًا تنظرُ إلى وصف الخلود والدوام: ﴿عَدۡنٍ﴾ للجنَّات، وذلك الأصلُ فيها، فالاسميّة هنا هي الأصل.

نُكْتَةُ تقديم شبه الجملة على المُسنَد إليه:

الرّزق يأتي إلى أهل الجنّة، لا يسعون خلفَه كما الدّنيا

تقديم شبه الجملة على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ﴾ للاختصاص والحصر؛ عنايةً بهم ومبالغةً في تكريمهم[3]، أي: لهم خاصّةً لا لغيرهم، ولمَّا كانت ذواتهم هي المنوطة بالرّزق

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 227.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

قُدِّمتْ مقرونةً برزْقِها، وفي التقديم أيضًا: إشعار بعظيم احتياجهم إلى هذا الرّزق، وأنّهم في شوق إليه، وأن منه ما هو عِوض عمَّا لاقوه في الدّنيا مِن بلاءات وغربة وآلام، وكأنّ لهم رزقًا خاصًّا بهم، وقد مكَّن ذلك إضافتُه إليهم: ﴿رِزۡقُهُمۡ﴾، فتناغى التقديم والإضافة.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿رِزۡقُهُمۡ﴾:

إضافةُ رزق إلى ضمير (هم) لزيادة الاختصاص[1]، وللإشعار بالتّوسعة والامتلاك، وهو مِن زيادة النّعيم، فالرّزق الذي هو مِنَ اللّه وُهبوه ومُلِّكوه حتّى صار منسوبًا إليهم، متمكِّنًا مِن حيازتهم، وهو كناية عن انتفاء الكُلْفةِ فيه مِن جميع الوجوه؛ إشارةً إلى أنّه ليس كسائر أرزاق الدنيا التي لا تخلو في تحصيلها مِنَ التّكلّف والحرج والكَدَر وعدم الخُلوص.

الاختصاص والإشعار بالتّوسعة والامتلاك

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على (اللّغو)، دون (الرّزق):

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾: المقصودُ المَحلُّ، وهو الجنّة محلّ الاهتمام، للإخبار عن خُلوّها مِنَ اللّغو، فالمحلّ هو الأصلُ، وخلوّها من اللّغو وصفٌ، والوصف يتلو الموصوف، ليبيّن أنّه كاملُ التّهيّؤ، تامُّ الإعداد لنُزلائه.

تأنسُ النّفوسُ بما تَعرف

وأيضًا في التّقديم نُكْتَةُ القَصْر، وأنّ هذا الحُكم المذكور مقصورٌ على الجنّة فقط، وهو نفيُ اللّغو عنها دون غيرها؛ تعريضًا بأنّ غيرها مِنَ النُّزل مَليءٌ بالكُدورات والنّقائص.

ولمّا قال: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا﴾ أخّر شِبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ عن (الرّزق)؛ لأنَّ الغرض استحضارُ المَرزوق وإكرامُه أوّلًا؛ لأنّه المقصودُ بمنافع المَحلّ الذي هو مرزوقٌ فيه، وقَدّم ﴿رِزۡقُهُمۡ﴾ وأخَّر ﴿فِيهَا﴾ حتّى يعلموا أن رزقهم المحبوب لهم في الدّنيا سينالون شِبْهَه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

فائدة التقييد بشبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

لو جاءت الجملة ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا﴾ بدون: ﴿فِيهَا﴾ لَتُوُهِّمَ أنّ الرّزقَ هو عينُ الرّزق الذي يعهدونه في الدّنيا، وإنّما هو شِبْهُهُ لا عينُه، فلمَّا كان الرّزق مشاهدًا في الدُّنيا فقط، و﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ في الدّنيا فقط، أتى بقوله: ﴿فِيهَا﴾ احتراسًا، حتّى لا يُتَوهّمَ أنّه مِن جنس رزق الدُّنيا بل هو مقيّد بظرفيته للجنّة.

دلالة التّعبير بالظّرف: ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، وترتيبُهما:

في الجنّة في كلّ وقتٍ رزقٌ، فلا تنقطع الأرزاق أبدًا

الجمع بين البُكْرَة والعشيّ كناية عنِ استغراق الزّمن، أي: لهم رزقُهم غيرُ محصورٍ ولا مُقَدّر، بل كلّما شاؤوا[1]، فالتّعبير بهما مِن باب التّمثيل بالعادة الغالبة، لإرادة الدّيمومة، كما تقول: أنا عند فلان صباحًا ومساءً وبكرةً وعشيًّا، تريد: أنّك دائمُ الحضور عنده، ولا تقصد الوقتين المعلومين، فليس في الجنّة بكرةٌ ولا عَشيّةٌ، ولكنّهم خوطِبوا بما يعقلون في الدُّنيا، لأنّ المُتنعِّم عند العرب مَن ضَمِنَ الغَداءَ والعَشاء[2]، فكنَّى بذلك عن حصول رزقهم على أكمل الوجوه وأوفاها.

والتّنكير في قوله: ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ للتّنويع، أي: هذا النّوع مِنَ الوقت في عموم الزّمن.

بلاغة الطّباق:

أهل الجنّة لا يُدبِّرون، ومِن النّعيم ألَّا تُدَبِّر

بين لفظي: ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ طِباقٌ بالإيجاب جرى بين ضِدَّين، فالبُكرة أوّلُ النّهار، والعَشيّ آخِرُه، وقيمةُ الطّباق في الدّلالة على معنى الاستيفاء والكفاية في الأقوات، بالإخبار عن وفْرتِها في أوفَى الأوقات، التي يُبتغَى فيها تحصيلُها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 28.

عِلَّة فصل جملة: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ عن سابقتها:

جملة ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، جيء به لتعظيم شأنِ الجنّة وتعيينِ أهلِها[1]، وتهييجًا للالتفات إليها.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

أفاد اسمُ الإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ زيادةَ التّمييز؛ تنويهًا بشأن الجنّة في بُعْد منزلتِها، وعُلوِّ رتبتِها[2].

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾:

جنّة الدّنيا أن تُؤمِن بجنّة الآخرة رأيَ العين

(أل) في ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ للعهد الحضوريّ؛ لوقوع التّعريف بعد اسم الإشارة، ولعلّ في هذا نُكْتَةٌ إضافيّة في دلالة الإشارة إلى الجنّة في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾، فنزّلها منزلةَ الحاضر الذي يُشارُ إليه بالحِسّ؛ لأنّهم وصلوا إلى عين اليقين في الإيمان بها، فصاروا كأنّهم يشهدونها رأي العين.

بلاغة القصر بتعريف طرفي الإسناد:

الجنّة نعيمٌ كاملٌ لا خوفَ مِن فواته

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ فيه تعريفُ رُكني الإسناد - المبتدأ والخبر - بالإشارة و(أل)، وهو مِن طرائق القَصْر، كأنّه قيل: تلك المُشار إليها بالوعد الثّابت والخُلدِ الدّائم والوصف السّابق هي الجنّة على الحقيقة المُستغرِقة لخصائص صفات الجنس، أي: هذه هي الجنّة الكاملةُ الحقيقيّة لا غيرُها، ولم يأتِ بضمير الفصل، فيقال: (تلك هي الجنّة)؛ لأنّ الجنّة سبق ذكرُها في الآيات المتقدّمة، فلا تحتاج لمزيد تعيينٍ أو تعريف، وإنما كان كذلك؛ ليتأسَّسَ عليه الإنباءُ، بأن مقام التقوى مِن أكمل المقامات وأعلاها، وهو المقام الذي يستأهل صاحبُه تلك الجنّة الكاملةَ الحقيقيّة.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 429، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 273، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

تعريف الصّلة يُؤذِنُ بكمالِ المُعرَّف

نُكْتَةُ التّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

الموصول في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ تُوُسِّلَ به إلى وصف المعرفة بالجملة، فأُجْرِيَ وصْفُ الجنّةِ بالموصول وصِلَتِه؛ تنويهًا بالمتقين وأنّهم أهل الجنّة، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133][1]، وتمييزًا للموصوف أكملَ تمييز بزيادة تعيينه، فالجنّة هي دار الجزاء لا غيرُها، ولذا فالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ أفاد العهدَ والعِلْمَ.

تورُّثُ الجنّة بسبب الأعمال لا بسبب الأنساب

دلالة التّعبير بالفعل المضارع: ﴿نُورِثُ﴾:

وصْفُ الجنّةِ بأنّها مورَّثَة في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾؛ للدّلالة على أنّها مِنْحةٌ سهلةٌ تؤولُ إليهم كما يؤولُ الإرث، لا نَكَدَ فيه ولا كَدَر، وللدّلالة على أنّها حاصلةٌ لهم بسببٍ، كحصولِ الإرث بسببِه، فهي حاصلةٌ لهم بسبب أعمالهم، فهم يستحقّونها، وهي مِن عوائد الأعمال، كما الإرثُ مِن عوائد الأنساب، فاستبدلَ الأنسابَ بالأعمال؛ لأنّه لا أنسابَ بينَهم يومئذٍ، ولا ينفع مالٌ ولا بنون، وأبقى العوائدَ والجوائزَ المترتّبةَ عليها كالإرث، كما كان الميراثُ يترتّب على أسبابه في الدّنيا، فدَلّ لفظُ الإرث على جانب الفضل والاستحقاق معًا.

وفي التّعبير بـ﴿نُورِثُ﴾ لطيفة؛ وهي تشابُه العباد الذين قيلت في حقّهم هذه الآية؛ لأنّ لفظ: ﴿عِبَادِنَا﴾ يدخلُ فيه السّلفُ الصّالح، والخَلَف الصّالح أيضًا، وكأنّ إرثَ الخَلَفِ للجنّة إرثٌ لهم عن سَلَفهم؛ فقد كان ذلك الإرثُ مِن شأن سَلَفهم، وبالجملة فهذا التعبيرُ يوحي بالتقاء الخلَف الصّالح بالسّلف الصّالح.

وأوثر لفظ: ﴿نُورِثُ﴾ دون غيره من ألفاظ التّمليك كالبيع والهبة؛ لأنّه أتمّ أنواعِ التّمليك مِن حيثُ إنّه لا يُعقَب بفسخٍ ولا استرجاعٍ ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

إبطال، أو لأنّه انتقالٌ كالميراث، فيورّثُ المتقون مِنَ الجنّة المساكنَ التي كانت لأهل النَّار لو آمنوا، فيرثونها عنهم[1].

وجاء بالفعل مضارعًا للدّلالة على الاستقبال والاستمرار، والتّجدّد لأنّه عطاءٌ يتكرّر بعَددِ مُستحقّيه.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿نُورِثُ﴾:

إبـقـاءُ الـجنّة لمستحقّيها كما تُسْتَبْقَى التَّرِكَة لوارثيها

استُعيرَ لفظ ﴿نُورِثُ﴾ للعوائد المُدّخرة لمُستحقّيها، تشبيهًا بمالِ المَوروثِ الذي يصير إلى وارثه آخرَ الأمر، والاستعارةُ تصريحيّةٌ تبعيّة، أو التّعبيرُ بالإيراث مجازٌ مرسلٌ أُريدَ به الإبقاءُ، علاقتُه اللّازميّة، أي: نُبْقيها لعبادنا، فأَطْلَقَ الإيراثَ وأراد لازمَه، وهو البقاء[2]، وعلى كلٍّ ففي اصطفائه إضفاءُ النفاسة والعراقة والشرف على ما أُطْلِق عليه؛ تفخيمًا له وتعظيمًا.

معنى ﴿مِنۡ﴾:

النَّاسُ فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السّعير

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ للتّبعيض، أي: نورثُ بعضَ عبادنا لا جميعَهم، وهو الذي كان متّصفًا بالتّقوى منهم، وهذا تخصيص ذو إبلاغ عليٍّ؛ مِن شأنه الإبانة عن عُلوّ مقام التّقوى.

دلالةُ إضافة ﴿عِبَادِنَا﴾ لنون العَظَمة:

وصْفُ العبوديّة أشـرفُ أوصـافِ الإنسان

إضافة ﴿عِبَادِنَا﴾ لنون العَظَمة في مقام المكافأة والجزاء، زيادةٌ في التّشريف والإكرام، وإيقاعٌ للمُكافأةِ على أتمّ وجوهها؛ لأنّ إضافتَهم لضمير الجلالة المُعَظّم فيه تعظيمٌ لهم، وإضافةٌ وزيادةٌ في إكرامهم، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم مُختارون للّه، وأنّ وصْف العبوديّة هو خيرُ وصْفٍ يُنْعَتُ به الإنسان، بدليل إضافة المُتّصفين به لضمير الجلالة، وفي هذه الإضافة تمهيدٌ لمجيء قوله: ﴿تَقِيّٗا﴾؛ لأنّها تعني أنّ هؤلاء العِباد لا ينكفّون عنِ استحضار جلالِ اللّه وجماله

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 430.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 430، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

استحضارًا قويًّا؛ مِمَّا حقَّقَ لهم التّقوى، وكان سببًا في رسوخهم وعَراقتهم فيها؛ على ما يُفْهِمُه التّعبيرُ بمادة الكون: ﴿كَانَ﴾، ومَن كان تقيًّا كان قليلًا، وكان غريبًا، خصوصًا في الزّمان والمكان الذي تكون فيه نغمةُ تضييعِ الصّلاة واتّباع الشّهوات نغمةً جماعيَّةً.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة على متعلّق الفعل:

لا تكون تقيًّا حتّى تكون عبدًا خالصًا لله

تقديم شِبه الجملة: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ على متعلّق الفعل، فلم يقل: (نورث من كان تقيًّا من عبادنا)؛ مُراعاةً للفاصلة ألَّا تنخرم، وتقديمًا للعامّ على الخاصّ، فإنّ وصْف العبوديّة أعمُّ وأسبقُ مِن وصف التّقوى، وإشارةً إلى أنّ في التّقوى جانبًا مِن جوانب التّوفيق والاصطفاء تسبق جانبَ اكتسابِ العبد لها، وهي أن يختارَه اللهُ لعبوديّته، ويَنْظِمَه في سِلْكِ عباده، ولذا أخبر بالجماعة أوّلًا ثمّ بالفرد فيها، وفي تقديم الأعمّ: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ تمكينٌ لخصوصيّة الأخصِّ.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الموصول العامّ ﴿مَن﴾:

ليَدْخُلَ المُكَلَّفون رجالًا ونساءً، وفتنةُ بني إسرائيل كانت في النّساء

جاء التّعبير بالموصول المشترك العامّ في قوله: ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾؛ ليَدْخُلَ فيه المُكَلَّفون رجالًا ونساءً، وذلك نظرًا إلى شيء في صلة الموصول، وهو التّقوى، وهذه التّقوى تتعلّق بالشّهوات، وأعظمُ الفتن فتنةُ النّساء.

نُكْتَةُ تصديرِ جملةِ الصّلة بفعل الكون الماضي:

يا سعادةَ مَن وُفِّقَ للتّقوى وطال عُمُرُه فيها ومات عليها

جاء التّعبيرُ بفعل الكون الماضي في قوله: ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾؛ ليدلّ على تحقيقه للتّقوى، وأنّها كانت متمكّنةً منه كتمكّن الجِبِلّة والطّبْع[1]، ولعلّ في هذا توسعةً على العاصين، لأنّ التّقوى التي ترسَخ كالطّبْع والغريزة، هي اتّقاء الكفْر بتحقيق أصل الإيمان واليقين في الدّين، فيدخلُ في الوعد كلُّ مَنِ اتقى اللهَ بتحقيق أصل إيمانه، فضلًا عمّن حقّق كمالَ التّقوى باتّقاء الكبائر والمآثم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 227.

دلالة التّعبير بصيغة: ﴿تَقِيًّا﴾:

مَن مات مسلِمًا مات تقيًّا

قوله: ﴿تَقِيًّا﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعل، صيغة مبالغة، أي: مُتَّقٍ، كثيرُ التّقوى في الحال والقول والعمل، أو صفةٌ مشبّهةٌ، أي: دائمُ التّقوى بلزوم أصل الإيمان، وتحقيقِ اليقين، ولزومِ جانب الاستقامة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

عَدْنٌ ومُستقرّ:

العَـدْنُ دوامُ الثّبوت وعدمُ التّحوّل

أصل (عدن) يدلّ على الإقامة والثّبوت الذي لا يتحوّل ولا ينقطع، ولذا فهو يفيد التّوطين المُستَمرّ للأشياء داخلَ حيِّزٍ أو محيطٍ ما، ومنه قيل للمعادن كذلك، لأنّها منابتُ الجواهر مِن ذهبٍ وغيره، ولازَمَتْ هذه الصّفةُ الجوهَر حتّى بعد اقتلاعه من مَقَرّه ومَعْدِنه، فيُقال: مَعْدَنُ الذّهب ومَعْدَن الحديد؛ للدّلالة على أنّ هذه الجواهر ثابتةٌ على صفتها التي كانت عليها مُذْ كانت في مَعْدِنها، ولذا كان لفظ (عدن) دالًّا على عدم التّحوّل في المكان والمَكين، ولذا اقتصر الوصف به على الجنّة دون النّار، فلم يُقَل: (نار عَدْنٍ) لأنّ أهلها دائمو التّحوّل في الأطوار التي يقتضيها العذابُ، فلا ثُبوتَ فيها على حال، بخلاف أهلِ النّعيم.

وأمّا المُستَقَرّ: فأصلُه يدلّ أيضًا على الثّبوت والإقامة والتّمكّن، إلّا أنّه لا يَلْزَم عنه عدمُ الانقطاع، فقد يكون إلى حين، وقد يكون إلى دوام، بحسب القرينة وبحسب قَصْدِ المُتكلِّم، فمِنَ الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]، ومن الثّاني: قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ [الفرقان: 24]، وقوله: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا﴾ [الفرقان: 76][1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عدن - قرر).

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾ [مريم: 64]

الـلـهُ يـعـصِـم رسولَه وينصره

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبر في الآيات السَّابقة أنّ اللّه يحفظ وعدَه لأهل الجنّة ممّن آمن وتاب وعمل صالحًا وكان تقيًّا، ذكر - هنا - أنّه كيف ينسى رسولَه أو يتركُه أو يُخْلِفُ وعْدَه معه بإتمام نعمتِه عليه، بإكمال الوحي والعصمة مِنَ المشركين والمُشاكِسين الذين أرادوا إحراجَه وامتحانَه بالأسئلة، وإذا كان قد أتمّ نعمتَه على النّبيين المَذكورين بالهداية والاجتباء، فأولى بذلك خاتمُ رسله؛ فكيف يتركُه أو يُسَلِمُه للكفرة مِن خلْقِه أو يَخْذُلُه عندهم؟.

❁ شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿نَتَنَزَّلُ﴾: (نزل) أَصْلٌ يدُلُّ على هُبوطِ شَيْءٍ ووُقوعِه[1]، يُقالُ: نَزَلَ الشَّيء، ينزلُ، نُزولًا، أي: هَبَط وانحَدَرَ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وأنزلَ الشَّيء: جعله ينزُل[2]، والتَّنْزيل: ترتيبُ الشَّيْءِ ووضْعُهُ مَنْزِلَهُ، والتَّنَزُّلُ: نُزول في مُهْلَةٍ وتكلُّفٍ[3]، ومنه: (نَتَنَزَّلُ) مُرادِفُ نَنْزِلُ، فأُطْلِقَ ذَلِكَ على نُزولِ المَلائكَةِ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ نُزولٌ نادِرٌ وخُروجٌ عَنْ عالَمِهم فكَأَنَّهُ مُتَكَلَّفٌ، قالَ تَعالَى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: 4][4]، والمُرادُ بالتَّنَزُّلِ في الآية: النُّزولُ على مَهلٍ وقتًا بعدَ وقتٍ، وهو حكايةُ قولِ جبريلَ حين استبطأه رسولُ اللّه ﷺ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نزل).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140.

2) ﴿نَسِيًّا﴾: (نسي) أَصْلٌ يدلُّ على إغْفالِ الشَّيءِ، أو تركِه[1]، يُقال: نَسيَ فلانٌ شَيْئًا كانَ يَذكُرُه وإنَّهُ لَنَسيٌّ، أي: كثيرُ النّسْيان، والنِّسْيُ: الشّيءُ المَنْسيُّ الَّذي لا يُذكَر[2]، والنِّسْيانُ: تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استودِعَ، إمَّا لضَعْفِ قلبِه، وإمَّا عن غفْلةٍ، وإمَّا عن قَصْدٍ حتّى يَنْحَذِفَ عنِ القلبِ ذِكْرُهُ، يقال: نَسيتُهُ نِسْيانًا[3]، وأمَّا المُرادُ بقوله: ﴿نَسِيًّا﴾: فصيغَةُ مُبالَغَةٍ مِنْ نَسيَ، أَيْ: كَثيرُ النِّسْيانِ أَوْ شَديدُهُ، وقَدْ فسَّروهُ هُنا بِتارِكٍ، أَيْ: ما كانَ رَبُّكَ تارِكَكَ؛ وعليه فالمُبالَغَةُ مُنْصَرِفَةٌ إِلَى طولِ مُدَّةِ النِّسْيانِ، وفُسِّرَ بِمَعْنَى شَديدِ النِّسْيانِ، فيَتَعَيَّنُ صَرْفُ المُبالَغَةِ إلى جانِبِ نِسْبَةِ نفي النِّسْيان عَنِ اللّٰه سبحانه[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الملائكةُ رُسُلُ اللهِ تعالى لا تنزل على أحَدٍ مِنَ الأنبياء والرُّسل إلَّا بأمره

استئناف لخطاب جِبريل عليه السلام لمُحمَّدٍ ﷺ بقوله: (وما نَنْزِلُ - نحنُ الملائكةُ - مِنَ السَّماءِ إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالنُّزولِ متى شاء؛ فنحنُ عبيدٌ مأمورونَ، ليس لنا مِنَ الأمرِ شَيءٌ، فلا تَستبْطِئْ نُزولَنا يا محمَّدُ ﷺ، فلله وحدَه جميعُ الجهاتِ والأماكنِ، وجميعُ الأزمانِ: الحاضرةِ والماضيةِ والمستقبلةِ، فلا نَقْدِرُ أن ننتقلَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، أو في زمانٍ دونَ زمانٍ، إلَّا بأمرِ ربِّك ومشيئتِه، ولم يكُنْ رَبُّك يا محمَّدُ ﷺ ذا نسيانٍ لشَيءٍ مِنَ الأشياءِ، فإنْ تأخَّرَ نزولُنا إليك، فليس عن نِسيانٍ منه، وإنَّما اقتضت حِكمتُه ذلك، ولم يكن ربُّك لينساكَ ويُهمِلَك، بل لم يَزَلْ مُعتَنيًا بك؛ فلا تَحزَنْ إن تأخَّرَ نزولُنا، واعلَم أنَّ اللّٰهَ أراد ذلك)[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبَّاد، المحيط في اللّغة: (نسي).
(3) الرَّاغب، المفردات: (نسا).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140 - 141.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 584، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 107، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 497.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع صدر الآية:

مِن كمال الإنعام على الأنبياء أنْ آنسَهمُ الله بالوحي

جملة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ مستأنفةٌ مسوقةٌ لحكاية قول جبريل عليه السلام، حيثُ استبطأه الرّسولُ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عن قصّة أهلِ الكهف وذي القرنين والرّوح ولم يَدرِ ما يجيب، كما تقدّم، فأبطأَ عليه خمسةَ عشرَ يومًا، وقيل: أربعين، حتّى قال المشركون: (ودَّعَه ربُّه وقَلاه)، فالواو استئنافيّةٌ[1]، ويصِحّ أنْ تكون عاطفةً فعلَ القولِ المَحذوف على الكلام الذي قبلَه عطفَ قِصّةٍ على قِصّة، مع اختلاف المخاطَب[2].

دلالة النّفي بـ ﴿وَمَا﴾:

استمرار النّفي في الحال والاستقبال

﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ لنفي المضارع في الحال، أي: في الزّمن الحاضر، وتدلّ - هنا - على استمرار النفيّ كذلك، أي: لا نتلبّسُ بالتّنزّل في الحال والاستقبال إلّا بأمر اللّه[3]، كما في قوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: 18]، فتفيد الحال والاستقبال كذلك.

سِرُّ إيثار صيغة التّضعيف:

صيغة (تَفعُّل) تدلّ على التّدرّج والإزالة والتّكلّف والصّيرورة

صيغة التّنزُّل (تَفعُّل) في قوله ﴿نَتَنَزَّلُ﴾: تدلّ على تكلّف النّزول، فأَطلَقَ ذلك على نزول الملائكة مِنَ السّماء إلى الأرض؛ لأنّه نزولٌ نادرٌ، وخروجٌ عن عالِمهم فكأنّه متكلَّف[4]، وهو كذلك بالنّظر إلى أنّهم مكلَّفون بذلك، فنزولهم تكليفٌ واجب، أو تدلّ الصّيغة على التّمهّل في النّزول، لأنّ نزول الوحي يحصل تدريجيًّا، فيْنَةً بعد الفَيْنَة[5]، أو لأنّه لَمَّا كان نزولًا بعد انقطاع، عبّر عنه بالتّفعّل الدَّالّ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 139.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 193.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 430.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 431.

على الصّيرورة والتّحوّل مِن حالٍ إلى حال، أو يدُلّ على إزالة شيءٍ وإظهارِ آخَر، فأزال البُعدَ والغياب بإظهار التّنزّل والمآب.

توجيه عودِ الضّمير المُستَكن في قوله: ﴿نَتَنَزَّلُ﴾:

مَنِ استأنس بالوحي استوحشَ مِنَ النَّاس

الضّمير المُستَكِن في قوله تعالى: ﴿نَتَنَزَّلُ﴾ لجبريل والملائكة، أعلم اللّهُ نبيَّه على لسان جبريل أنّ نزول الملائكة لا يقع إلَّا عن أمر اللّه تعالى، وليس لهم اختيارٌ في النّزول ولقاء الرّسل[1]، والجمعيّةُ في: ﴿نَتَنَزَّلُ﴾ تعظيمٌ للمُنَزَّلِ عليه ﷺ.

معنى الاستثناء ودلالتُه:

إذا عُـدِمِ الأمر امتنع التّنزّل

الاستثناء في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ مفرّغٌ مِن أعمّ الأحوال، أو مِن أعمّ العِلل، أي: (لا يحصل تنزُّل الملائكة لأيّ حالٍ مِنَ الأحوال، أو لأيّ عِلّةٍ مِنَ العِلل، إلَّا بأمرٍ مِنَ اللّه وإذنٍ منه)، وتفريغُ الاستثناء أعمُّ وأشملُ في إفادة القَصْر.

سِرُّ إيثار القصر نفيًا واستثناءً:

اصطفاء التّراكيب بحسب مقتضى الحال

القَصْر بالنّفي والاستثناء في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾، يقع فيما يُنكره المخاطَبُ أو ما يُنَزّل منزلتَه[2]، فلمَّا كان المقامُ مقامَ استبعادٍ وإنكارٍ مِنَ المُشركين، ناسبه أسلوب النّفي والاستثناءِ، وهو أوكدُ أنواعِ القَصْر.

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَمۡرِ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ للسّببيّة أو للمُلابسة، حيثُ ينزل الوحي بسبب الأمر أو مُلتبسًا بالأمر.

سِرُّ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة مضافًا إليه ضميرُ الخطاب:

ما يزال الوليّ لله موصولًا بحبل الله مِنَ العطاء والإمداد

إسنادُ الأمر إلى وصف الرّبوبيّة مضافًا إلى ضمير الخطاب؛ إيناسًا للنّبي ﷺ، وإزالةً لاستيحاشه بغياب الوحي، وإشارةً إلى أنّه لم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140.
(2) فاضل السَّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 250.

يُعدَم تواترَ الإحسان مِن ربّه عليه، فغيابُ الوحي كان لحِكمةٍ في عِلم اللّه، لا عن هَجْرٍ ومُفارقةٍ له، فعَبّر بالرّبوبيّة وأضافها إليه؛ للدّلالة على أنّه لم يَزل موصولًا بحبل الرّبوبيّة، وآثارها مِنَ الإنعام والإكرام.

عِلَّةُ فصل جملة: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾:

خضوع الخَلْق لأمر الله اضطراريّ

جملة: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ[1] مِنَ الجملة قبلَها، بينهما شِبهُ كمالِ اتّصال، ولذلك فُصِلتْ وغاب العاطف، والاستئناف البيانيُّ على تقدير أنّه جوابٌ عن سؤال مُقَدّر عن علّة الحُكم بعدم التّنَزّل لعدم الأمر، فيكون قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ في معنى العلّة لما قبلَه.

نُكْتَةُ التّعبير بالجملة الاسميَّة:

لا تخرج التّدابير والأمور عن حُكم الله

التّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ أفاد تحقيقَ مضمونِها وثُبوته، وهو كونُ الأمورِ كلِّها مملوكةً له ﷻ وحدَه على الدّوام والاستمرار، مِنَ الأزل إلى الأبد، فصورةُ المعنى هي الأحقّ به، والألصق به.

معنى اللام في ﴿لَهُۥ﴾:

اللّام في ﴿لَهُۥ﴾ للمِلْك، وهو مِلْك التّصرّف والحُكْم[2]، فمن فوّض إلى تدبير اللّه استراح واعتصم.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة على المُسنَد إليه:

تقديم شبه الجملة على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾، أفاد الاختصاصَ والقَصْر، أي: له وحدَه لا لغيره.

دلالة التّعبير باسم الموصول العامّ ﴿مَا﴾:

عمومُ إحاطة الله وعلمُه بالجزئيّات والكلّيّات

التّعبير بالموصول العامّ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ ﴿وَمَا خَلۡفَنَا﴾ ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾؛ لإفادة العموم في المُلْكِ والحكْم، أي: (كلُّ

(1) صافي، الجدول: 16/ 322.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140.

كائنٌ بين أيدينا له، وكلُّ كائنٌ خلفنا له، وكلُّ كائنٌ بينهما)، ويفيد الإبهام، يعني: (أيًّا كان حالُه أو مكانُه أو زمانُه أو ذاتُه، فهو مقهورٌ مقدورٌ عليه)[1].

بلاغة الطّباق:

نَواصي الأشياءِ وزِمامُ الجهاتِ في قَبْضَة القدير سبحانَه

بين قوله: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ وقوله: ﴿خَلۡفَنَا﴾ طباقٌ بالإيجاب، صرّح فيه بإظهار الضِّدّين؛ لأنّ ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ أي: قُدّامَنا في المستقبل، ﴿وَمَا خَلۡفَنَا﴾ أي: وراءَنا في الماضي، وهذا الطّباق من شأنه أن يَشْغَل النّفسَ والقَلْبَ بطرفيه وعمقِهما واتساعِهما، فتطمئِنّ لحُكم اللّه وقضائِه ومُرادِه.

بلاغة الكناية:

ضماناتُ الأحوالِ والآجالِ بيد اللّه وحدَه

قوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ كناية عن استغراق ملكيّة اللّه التامّة لمواقع الزمان والمكان وما تحيّز بهما من موجودات وما تعلّق بهذه الموجودات من معلومات وأحوال جزئيّة وكلّيّة[2]، أو مجازٌ مرسل علاقتُه الحلول، فأَطْلَق المَحلّ وأراد الحالّ[3].

بلاغة العطف في: ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾:

تدبير الماضي والحاضر والمستقبل بيد اللّه وحْدَه

قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ معطوف على ما قبله ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾[4]، فهو تثليثٌ يستوفي الجهاتِ والمواقعَ الزّمانيّةَ والمكانيّةَ، في الماضي والمستقبل وما بينهما وهو الحاضر، وأحوالُ الموجوداتِ كافّة لا تخرج عن هذه الثّلاثة، واسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَۚ﴾ يعود على مضمون الجملتين قبلَه، أي: المذكور فيهما.

موقع جملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾:

يصحّ التّأكيد مع العطف إذا لم يكن مقصودًا في بناء الجملة

جملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ معطوفة على جملة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾[5]

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 431، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 555.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140.
(4) صافي، الجدول: 16/ 321.
(5) صافي، الجدول: 16/ 322.

مِن قول جبريل عليه السلام للرّسول ﷺ؛ تذييلًا لما قبلَه، أو استئناف مِن قول اللّه سبحانه بعد قول جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾، فيكون الكلام جاريًا على قسمين؛ القولُ الخاصّ بالملائكة في التّنزّل بأمر اللّه، والقولُ الخاصّ باللّه سبحانه في تأكيد الوصال بينه وبين رسوله، وتأكيدِ تنزّل الوحي بأمره وإبطالِ ادّعاء المشركين بالجَفْوة عن رسوله، بتنزيه اللّه عن نسيانِ خليله، وتركِ نبيّه عليه السلام.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تذييلٌ بديع، جاء مُتمِّمًا كالتّأكيد والعِلّة لما قبلَه[1].

توجيه نظم الآية بحسب كلّ قائل:

لا يُسلِم اللهُ أكرمَ خلْقِه إليه إلى أهون خلقِه عليه

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ يصحّ أنْ يكون مِن قول جبريل عليه السلام حكايةً عن نفسه وعنِ الملائكة، ردًّا على ادّعاء المشركين بمجافاة اللّه لنبيّه ﷺ، ويكون قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ من تمام قولِه تذييلًا، كالتّأكيد والتّعليل لجملة النّفي والاستثناء، بتقرير أنّ ما افترَوه مدفوعٌ، بأنّ تنزّلهم لا إرادةَ لهم في إنشائه، بل هو إلى اللّه، ومدفوعٌ بأنّ اللّه إذا لم يأمرهم بالتّنزّل لا ينزلون، فعن علم وحِكمةٍ لا عن تركٍ ونسيان، وتكون الجملة مُقحمَةً في السّياق، معناها مُباينٌ لما قبلها وإنْ كان له به مناسبةٌ، في أنّ اللّه إذا كان حافظًا وعدَه لأهل الجنّة ممّن آمن وتاب وعمل صالحًا وكان تقيًّا، فكيف ينسى رسولَه أو يتركَه أو يُخلفَ وعْدَه معه بإتمام نعمته عليه بإكمال الوحي، والعصمةِ مِنَ المشركين والمشاكسين الذين أرادوا إحراجه وامتحانه بالأسئلة، وإذا كان قد أتمّ نعمتَه على النّبيّين المَذكورين بالهداية والاجتباء، فأولى بذلك خاتمُ رسلِه، فكيف يتركه أو يُسْلِمُ أكرمَ خَلْقِه إليه لأهون خَلْقِه عليه؟.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 141.

ويحتمل: "أنّ هذه الآيةَ مِن تمام حكاية كلام أهل الجنّة، بتقدير فِعلِ: (يقولون)، حالًا مِن قوله: ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، أي: وما نتنزّل في هذه الجنّة إلّا بأمر ربّك ... إلخ، وعليه: فكاف الخطاب في قوله: ﴿بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ خطابُ كلِّ قائلٍ لمخاطَبِه"[1]، ويكون قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ مِن كلام أهل الجنّة، أي: وما كان ربُّنا غافلًا عن إعطاء ما وعدنا به[2]، أو نَسيًّا بإهمالنا وخُلْفِ وعدِه معنا، والوجه الأوّل أظهرُ لتمام بُرهانِه.

دلالة النَّفي بـ ﴿وَمَا﴾:

تأتي (ما) لنفي ما يقع جوابًا أو ردًّا على شيء

﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ تأتي ردًّا على قولٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلة، وهي هنا على هذا النّحو، فإنّ جملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ داخلةٌ في حَيِّز الرّدِّ عليهم وجوابِهم، وتتميمٌ لتعليل الانقطاع عنِ التنزّل، وهي تأتي لنفي الماضي القريب مِنَ الحال، وقد تأتي لنفي الماضي البعيد كذلك، وهذه الآية مِن هذا القبيل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ أي: منذ الأزل في الماضي البعيد والقريب، مع عدم انقطاع النّفي بعد ذلك إلى الأبد، وهي تنفي الحدث الماضي بصورته التّامّة المنقضية إلى قُبَيْل اللّحظة التي وقع فيها خطابُهم[3].

نُكْتَةُ التّعبير بفعل الكون الماضي:

كمالات الله ثابتة محقّقة أزلاً وأبدًا

﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ تدُلُّ على ثبوتِ خبرِها لاسمها في حيّز النّفي، أي: ثبتَ وتحقّقَ انتفاءُ النّسيان عنِ اللّه سبحانه أزلًا وأبدًا، على الدّوام والاستمرار، ففعلُ الكونِ الماضي لا يَدلُّ على الانقطاع الطّارئ في الحاضر أو المستقبل[4]، وناسَبَ المَجيءَ به ماضيًا لتعلّقِه بقصّة انقطاعِ الوحي، وهي ماضية، أي: ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 141.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 193.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 400، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 8/ 336.

كان نسيًّا له في ذلك الذي حصل، ولتعلّقه بالتّقدير الأزليّ، أي: لم يَنْسَ لأنّه كتب على نفسه أزَلًا ألَّا يُهمِلَ رُسُلَه، وللدّلالة على أنّ ثبوتَ كمالاتِ اللّه وانتفاءَ النّقائصِ عنه متحقِّقٌ ثابتٌ أزَلًا، وتحقُّقُ الكمالِ في الأزَل ينفي الطّروءَ المسبوقَ بانقطاعٍ في الماضي، ومَن كان كذلك كان استمرارُ كمالِه وعدمُ انقطاعِه في الحاضر والمستقبل أولَى، وهذا هو نُكْتَةُ مجيءِ الكونِ ماضيًا.

سِرُّ إيثار التّعبير بالرّبوبيّة مضافًا إليها ضميرُ الخطاب:

الـرّبّ لا ينسى خلقه

كرّر خطابه ﷺ بوصف الرّبوبيّة المضاف إلى ضميره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؛ إشعارًا بعلّة انتفاءِ النّسيان له وهَجْرِه[1]، أي: إذا كان هو ربّكَ الذي وصلكَ بحبل رُبوبيّته إليه، فكيف يَهْجُرك أو ينساكَ؟! لا يجتمعان! ولا يخفى ما في تكرار الخطاب بالرّبوبيّة مِنَ المبالغة في تكريم النّبيّ ﷺ، بما يؤكّد قُربَه وخصوصيّته.

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المبالغة ﴿نَسِيًّا﴾:

﴿نَسِيًّا﴾ على وزن (فعيل)؛ صيغة مبالغة مِن نَسيَ ناسيًا[2]، أي: عظيم النّسيان، ونُكْتَةُ مَجيئِه بصيغة المبالغة، ولم يقل: (ناسيًا)؛ لانصراف المبالغَة إلى طول مُدّة النّسيان[3]؛ لأنّ كلَّ نقصٍ مفترض ولو كان ضئيلًا طالما تعلّق بالعظيم الكامل، فهو بالنّسبة إليه عظيمٌ جسيم، ولذا جاء اسمُ الفاعل على صيغة المبالغة في ﴿نَسِيًّا﴾.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّنزُّلُ والتّدلّي:

أصل (دَلَى) يدُلُّ على مقاربة الشّيء ومُداناتِه بسهولة ورِفْق[4]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 273.
(2) صافي، الجدول: 16/ 322.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 140.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دلى).

والتّدلّي: الدُّنوُّ والاسترسال[1]، ومنه: أَدْلَيْتُ الدَّلْو ودلَّيْتُها إذا أرسلتُها في البِئر[2]، والدّلْو: هو الوعاء المُرسَل للتّوصّل للغرض، كماء البئر ونحوه، فسُمّي بالصّفة التي يكون عليها، وهي التّدلّي.

وأصل (نزل) يدُلّ على انحطاطٍ مِن عُلوٍّ إلى سُفْل[3]، وقد يُرادُ به مُجَرّد الحُلول[4]، ومنه المَنزِل: موضعُ النّزول، لأنّك تَحِلُّ بِحَطِّ نفسِكَ ورحْلِكَ فيه، وفي النّزول ثلاثُ معانٍ تُمَيّزه عنِ التّدلّي: الانفصال والانقضاض والحلول، فالشّيء حتّى ينزِلَ لا بُدّ أن ينفصِلَ عنِ المكان الذي كان فيه إلى المكان الذي يَحِلُّ به، وفي النّزول معنى الوقوعِ والانحطاطِ والانقضاضِ، ولعلّ هذا مِن لوازم الانفصال، وفيه معنى الحلول، أي: يَحِلّ ويستقرّ في مكانٍ واحد، فلا يتعلّق بجهتين، والتّدلّي لا يشتمل على هذه المعاني الثّلاثة، بل يتعلّق ولا ينفصل، فالشّيء المُدَلّى متعلِّقٌ بجِهتين، ولذا يظهر مُعلَّقًا غيرَ مُنْقَضٍ ولا منفصِلٍ، وهو وإن اشتمل على معنى النّزول إلّا أنّه نزولٌ بيُسرٍ وتُؤَدَةٍ غالبًا، فلا يَنحطّ ولا يقع بشِدّة، وهذا مِن لوازم التّعليق وعدمِ الانفصال، وكذا الحلول، فالتّدلّي لا يَحِلّ في موضعٍ منفصلًا عنِ المَوضع الذي كان فيه، بل هو غالبًا ماسِكٌ بالجهةِ التي تدلّى منها، وكائنٌ في الجهة التي تدلّى إليها، ولذا أُسنِدَ النّزول للوحي دونَ التّدلّي؛ لمراعاة معنى الانقضاضِ والانفصالِ فيه مِنَ العُلوّ إلى الأرض.

النِّسيان والتّرك:

النّسيانُ: زوالُ ذِكْر الشّيء في النّفْس، ولازمُ النّسيانِ التّركُ والإهمال، لأنّ تلاشي التّذكّر مُؤذِنٌ بعدم استحضار المَذكور أصلًا،

التّركُ يكون لحاصلٍ في الذّهن، والنّسيان يكون لغائب عنه

(1) الرّاغب، المفردات: (دلو).
(2) ابن منظور، اللسان: (دلا).
(3) الرّاغب، المفردات: (نزل).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (نزل).

فتغيب صورته مِنَ الذّهن، فيقع الإعراض عنه؛ لأنّه في حُكم غير الموجود، بل يقع الإعراض عن كونه موجودًا أصلًا!

وأمَّا التّركُ: فهو مغادرةُ ما هو مذكورٌ في النّفس وحاضرٌ في الإدراك، لأنّ صورتَه الحاصلة في الواقع لم تتلاشَ أو تغيب عنِ العقل، ولكنّه تُرِكَ عمدًا رغم استحضاره، فالإعراض فيه عن ذات الشّيء، لا عن كوْنِ وجودِه.

فالتّركُ يكون لموجود قائم في ذهن التَّارك، والنّسيان يكون تركًا بسبب عدم وجود الشّيء وغيابه في ذِهن النَّاسي، فاستعمالُ النّسيان هاهنا في معنى التّرك في قوله: ﴿نَسِيًّا﴾ مجازٌ، علاقتُه الملزوميّة، لأنّه متى وُجِدَ النّسيان لَزِمَ عنه التّرك[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (ترك - نسى)، وابن منظور، اللّسان: (نسا)، والسّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ترك - نسى).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الله تعالى هو الحقيقُ بأنْ يُذكَرَ على الدَّوامِ

هذه الآيةُ امتدادٌ لِما قبلَها، فهي تعودُ عليها بالتّحقيق والتّوكيد؛ لأنَّ مَن يكون ربَّ السّماوات والأرض، فأمرُه الأمرُ، وله ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، ويستحيلُ على مِثلِه النِّسيان، وقد أنتجتِ الآيةُ السَّابقةُ وصدرُ هذه الآية: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ معنى جملة: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾، فهاتيك الجملة تعودُ على جميع ذلك بالتّوكيد، ومعنى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ يجري في سلك معنى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ [مريم: 64]، فإنَّ هذا التَّنزُّلَ طاعةٌ لله، فهو عبادة لله، والمعنى: (فاستمرَّ يا محمّدُ ﷺ على عملِ ما هو مُقتَضَى تلك الرُّبوبيّةِ)، وذلك الّذي هو مِن صفاتِ الرّبِّ ﷻ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾: الصَّبرُ: الإمساكُ في ضيقٍ، يُقال: صَبَرتُ الدَّابَّةَ: حبستُها بلا علفٍ، وصَبَرْتُ فلانًا: خَلَفتُهُ خِلفةً لا خروجَ له منها، والصَّبرُ: حَبسُ النَّفسِ على ما يقتضيه العقلُ والشّرعُ، أو عمَّا يَقتَضيانِ حَبْسَها عنه، ومنه الصَّبرُ نقيضُ الجزعِ، وحقيقتُهُ الثّباتُ للمصيبة أوالمشقَّة، والتَّماسك والاستمرار في ما هو فيه، وعدم الانقطاع أو الزّوال عنه، وكلُّ ما في القرآن من هذا التّركيب؛ فهو بمعنى الثّبات عند الشِّدَّة أو المجاهدة[1]، و﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ على وزن افتَعِل، والصّيغة تعني: تكلُّفَ صبرٍ فوقَ الصّبرِ المُعتادِ.

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صبر).

2) ﴿سَمِيًّا﴾: (سمو) أصلٌ يدُلُّ على العُلوِّ، يُقالُ: سَموتُ؛ إذا علوت، وسَما بَصَرُهُ: عَلا، وسَما لي شَخصٌ: ارتَفَعَ حتَّى استَثبَتُّهُ، ويُقالُ: إنَّ أصلَ الاسم سِموٌ، وهو مِنَ العُلوِّ؛ لأنَّهُ تنويهٌ ودلالةٌ على المَعنى[1]، "والاسمُ: ما يُعرَفُ به ذاتُ الشّيءِ، وأصلُهُ سِموٌ، بدلالة قولهم: أسماءٌ وسُمَيٌّ، وأصلُهُ مِنَ السُّموِّ، وهو الّذي به رُفِعَ ذِكرُ المُسَمَّى، فيُعرَفُ به، ومعرفةُ الأسماء لا تحصُلُ إلَّا بمعرفة المُسَمَّى، وحُصولِ صورتِه في الضَّمير، وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾؛ أي: نظيرًا له يستحقُّ اسمَهُ، وموصوفًا يستحقُّ صفَتَهُ على التَّحقيق"[2].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مالِكُ المُلْكِ أولى بأن يُعبد ويُصبر على عبادته؛ ففي ذلك صلاحُ العبد ونجاته

تُقرِّرُ هذه الآيةُ الرّبوبيَّةَ المطلقةَ بتقرير أنَّه تعالى ربُّ السّماوات والأرض، وربُّ ما بينهما، وأنَّه خالقُهما وخالقُ كلِّ شيءٍ، ومالكُهما، ومالكُ كلِّ شيءٍ، ثمّ رتَّبَتْ على ذلك طلبَ إخلاص العبادة له، وتحمُّلَ المشاقّ في سبيلِ ذلك بصبرٍ وجَلَدٍ وقوَّةِ احتمالٍ، فإنَّ المداومةَ على طاعة اللّه تحتاج إلى عزيمةٍ صادقةٍ، ومجاهدةٍ للنّفس الأمَّارة بالسّوء، ثم تُهَيِّجُ الآيةُ معنى ضرورة التَّحمُّلِ في مقام خدمته تعالى بالعبادة والصّبر عليها بنفي أن يكون له تعالى نظيرٌ أو مَثيلٌ أو شبيهٌ، وما جرى في هذا الطّريق منَ المعنى عن طريق الاستفهام الموجَّه إلى أعلى الخلائق ﷺ، فإنَّه خيرُ مَن يدركُ ذلك عن اللّه تعالى.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

النّسيان مُحالٌ على ربّ السّماوات والأرض وما بينهما

وقعَتِ الآيةُ ممَّا قبلَها مَوقِعَ كمال الاتّصال، فهي جملةٌ مُؤكِّدةٌ استحالةَ النِّسيان عليه تعالى؛ لأنَّ مَن يكونُ رَبًّا لهذه السّماوات

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمو).

(2) الرَّاغب، المفردات: (سما).

والأرض أجمَعَ "لا يجوزُ عليه النِّسيانُ؛ إذ لا بُدَّ مِن أنْ يُمسِكَها حالًا بَعدَ حالٍ، وإلَّا بَطَلَ الأمرُ فيهما، وفيمَنْ يَتَصَرَّفُ فيهما"[1]، وهنا عقَّبَ الذِّكرُ الحكيمُ الجملةَ الأولى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤﴾ [مريم: 64] بهذه الجملة، وهي مُتَّفِقةٌ معها في المعنى مؤكِّدةٌ لها.

ويتوجّهُ الاستئناف البيانيّ جَوابًا عَنْ سؤالٍ مُقدّرٍ، فإنّ سائلًا يسأل: (وما وصف هذا الرب الذي ما كان نسيًّا؟ هذا الربّ الذي له ما بين أيدينا وما خلفنا، ولا نحيد عن أمره في شيء؟ ما وصفه؟) ليَأتيَ الجواب شافيًا: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ فلذلك عقّب عليها قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ لأنه هو المستحقّ لصفات الكمال والجلال.

بلاغة حذف المسند إليه في صدر الآية:

مالك السّماوات والأرض وما بينهما لا يَحومُ حولَ ساحةِ عظمتِه الغَفلةُ والنّسيانُ

وجاءَت جملةُ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُحتمِلَةً الاستقلالَ بالخطاب وتصدُّرَه، وذلك بوقوع لفظ ﴿رَّبُّ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هو)[2]، وهو من باب حذف المسند إليه المُضمَر، ليُفيدَ صيانةَ النّسقِ التَّعبيريِّ أمام شبهة النّسيان المُعتمِلَةِ في قلوب المكذّبين، بإشارةِ ما ورد في فاصلة الآية السَّابقة من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤﴾ [مريم: 64]، فإلى الله تعالى تدبيرُ الأزمانِ وتدبيرُ الأعيانِ، فإنّ النّسيانَ في حقّه مُحالٌ[3]، وكذلك ليُفيدَ الاهتمامَ بمعنى الرّبوبيّة وإظهارها في مَقامِ المُلك والقَهرِ والسُّلطانِ.

فائدة تكرار لفظ ﴿رَّبُّ﴾ في صدر الآية:

تقرير أحقّيّة المربّي المنعم القاهرِ السلطانِ في العبادة

وردت كلمة (ربّ) ثلاث مرَّات في آيتين متتاليتين؛ فوردت هنا وفي الآية السَّابقة في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ [مريم: 64]، وفي فاصلتها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤﴾ [مريم: 64] كذلك، حتّى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 240.
(2) الباقلاني، إعراب القرآن: 1/ 190.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 113.

يكون تكرارُ التّعبير بالرّبوبيّة وإظهارُه واقعًا في مَقام إظهار النِّعم؛ فهو ربَّاهم وأولاهم بالنِّعم وهو ربّ السّماوات والأرض وما بينهما المُستحِقُّ للعبادة.

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تعظيمُ قدر النّعمة بيانٌ لجلال المُنعِم

في إضافة الرّبِّ إلى السّماوات والأرضِ إبرازٌ لشرف الرّبوبيَّة فيهما، ففي الإضافة لفتٌ إلى حضورِ معاني الرّبِّ وآثاره في المضاف إليه، ففيها تشريفٌ في اللّفظ مُطابِقٌ للتّشريف الّذي في الواقع.

معنى ﴿وَمَا﴾ ودلالتها:

كمالُ الإحاطة يقتضي كمالَ العناية

في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾: (ما) اسم موصول بمعنى الَّذي، وهي أدخلُ الموصولات في الإبهام وأعمُّها، ويَندرِج تحتها العاقلُ وغيرُه والذّكرُ والأنثى، ولفظها مفرد، ومعناها الجمع، وجيء بها هنا زيادة في تقرير الغرض المَسوقِ له الكلامُ؛ وهو بيانُ شمول ربوبيَّته ﷻ لِما في السّماوات والأرض، وما بينهما مِنَ الخلائق أو الكائنات؛ فمن تأكيد تمام الإحاطة التّقييدُ بالظّرف ﴿بَيۡنَهُمَا﴾؛ ليشمَلَ المخلوقاتِ وأفعالَها.

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾:

اللهُ تعالى يحفظ رسولَه، ويرعاه، ويلطُفُ به في الدّنيا والآخرة

الفاء "في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيب ما بعدَها مِن موجبِ الأمرين على ما قبلَها من كونِه تعالى ربَّ السّماواتِ والأرضِ وما بَينَهُما، وقيل: من كونه تعالى غيرَ تارك له ﷺ، أو غيرَ ناسٍ لأعمال العاملينَ، والمعنى: (فحين عَرَفْتَهُ تعالى بما ذُكِرَ مِنَ الرّبوبيّةِ الكاملة ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾)، فإنَّ إيجابَ مَعرفتِه تعالى كذلك لعبادتِه ممَّا لا ريبَ فيه، أو حين عرفتَ أنَّه تعالى لا يَنساك، أو ينسى أعمالَ العاملِينَ كائنًا مَنْ كان؛ فأقبِلْ على عبادته، واصطَبِرْ على مشاقِّها، ولا تَحزنْ بإبطاء الوحي وهُزُؤِ الكفرة، فإنَّه يُراقبُك، ويُراعيك، ويَلطُفُ بك في الدُّنيا والآخرة"[1]، وإذا كان قوله: ﴿رَّبُّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 274.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ توكيدًا في المعنى لجميع الآيةِ قبله كانتِ الفاءُ تفريعًا لِما بعدها على مجموع التّوكيد والمُؤكَّدِ، هذا هو الأبَرُّ بحركة المعنى في الآيتين.

تـنـوُّعُ المَـرجِـعِ تغزيزٌ للمعنى

مَرجِعُ الضّمير في: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ﴾:

الخطاب للنَّبيِّ ﷺ[1]، ومِنَ المُفسِّرين مَنْ يرى أنَّه خطابٌ عامٌّ يصلُحُ لكلِّ مَن يصلُحُ له الخطاب، "وتَفريعُ الأمرِ بعبادَته على ذلك ظاهرُ المُناسَبةِ، ويَحصُلُ منهُ التَّخَلُّصُ إلى التَّنويه بالتَّوحيدِ وتَفظيعِ الإشراكِ"[2].

قـــوَّةُ الـدّلـيـل تقتضي الثّباتَ والـمـداومـةَ على العبادة

معنى الأمر ودلالته في ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾:

إنْ كان المخاطَبُ بالأمر النَّبيَّ ﷺ فالمرادُ بالأمر الثّباتُ على ذلك، وإنْ كان المخاطَبُ المؤمنين عامّةً فالأمرُ أيضًا للمداومة والثّبات؛ لأنَّ مَن كانت تلك صفته، من كونه له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان نسيًّا، وأنَّه ربُّ السّماوات والأرض، لا يُقَدَّرُ حقَّ قدرِه؛ فمهما اجتهد العبدُ في عبادته؛ فلن يوفّيَهُ حقَّه، فليس أمام العبد إلّا أن يجتهدَ في العبادة، ويستمرَّ في ذلك المقامِ على الدّوام.

الـمـداومـةُ على العبادة تتطلَّبُ صبرًا فوق المعتاد

دلالة عطف ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ على ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾:

معنى هذا الأمر: "اصبِرْ صبرًا عظيمًا بغاية جُهدِك على ما ينبغي الاصطِبارُ عليه كذلك"[3]، "والاصطِبارُ: شِدَّةُ الصَّبرِ على الأمرِ الشّاقِّ؛ لأنَّ صيغَةَ الافتعالِ تَرِدُ لإفادَةِ قوَّةِ الفِعلِ"[4].

والمعنى: (فأخلصْ له العبادَة، ووطِّنْ نفسَك على أداء هذه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 141.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 221.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 141.

العبادة بصبرٍ وجَلَدٍ وقوَّةِ احتمالٍ)، فإنَّ المداومةَ على طاعة اللّه تحتاج إلى عزيمةٍ صادقةٍ، ومجاهدةٍ للنّفس الأمَّارة بالسّوء"[1]، فقولُه: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ جاء بعد قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾؛ للدّلالة على أنَّ المطلوبَ أن تبلُغَ في عبادته كلَّ مَبلَغٍ مُمكِنٍ، وذلك لا محالةَ يقتضي مشقَّةً عظيمةً، فليكُنْ منك صبرٌ عظيمٌ عليها.

سرُّ تقديم الأمر بالعبادة على غيرها:

منشأُ الصّبرِ من وجود العبادة والمحافظة عليها

تقديمُ الأمر بالعبادة على الأمر بالاصطِبار من باب التَّرقّي مِن تقديم الأهمِّ على المهمِّ، ومِن تقديم الأصل على الفرع، فلو لم توجدِ العبادةُ فلا وجودَ للاصطِبار حينئذٍ، والعبادةُ أمرٌ يحتاج إلى مُصابرة، ومِن هنا قُدِّم لكونه المقصودَ الأهمَّ في الحديث.

معنى اللام ودلالتها:

المَغزَى مِنَ الاصطِبار هو المحافظة على العبادة

اللَّامُ في قوله: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ للأجل، "والمعنى: (لأجل عبادته)، فإنّها لا تكون إلَّا عن مجاهدة شديدة"[2]، فهي هنا واردةٌ للتّعليل؛ إذ إنَّ المرادَ المطلوبَ من الاصطِبار هو العبادةُ وتحمُّلُ مشاقِّها، وتعديةُ فعل الاصطِبار هنا باللَّام لا بحرف الاستعلاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: 132]؛ لتضمينه معنى الثّباتِ للعبادة فيما توردُ عليه مِنَ الشّدائد والمَشاقِّ، كقولك للمُبارِزِ: اصطَبِرْ لِقَرنك؛ أي: اثبُتْ له فيما يورِدُ عليكَ من شدائده"[3].

دلالة موقع جملة ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾:

عـمـيَـتْ عـينُ عبدٍ لا ترى الله عليها رقيبًا

"جُملَةُ ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ واقِعَةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للأمرِ بعِبادَتِه والاصطِبارِ عليها"[4]، قال البقاعيّ: "أي: متَّصِفًا بوصفٍ من أوصافه اتِّصافًا حقيقيًّا، أو مُسمًّى باسمه ... لأنَّه لا مُماثِلَ له حتّى

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 56.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 221.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 274، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 517.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 142.

ولا في مُجرَّد الاسم"[1]، وهذه الجملةُ توكيدٌ وتحقيقٌ لِما قبلَها مِن آيتها وللآية السَّابقة عليها؛ لأنَّ ما قبلها ينتجُها، فهي مِن لوازمه، فبينهما كمال اتِّصال تغيبُ معه الواو، وهي أيضًا تعليلٌ في المعنى للأمرين السَّابقين عليها.

الغرض مِنَ الاستفهام بـ﴿هَلۡ﴾:

لا يوجد مَن يسامي الله تعالى أو يضاهيه في علمه وقدرته

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ "إنكاريٌّ؛ أي: لا مُساميَ للّه تعالى؛ أي: لَيسَ مَنْ يُساميه؛ أي: يُضاهيه مَوجودًا"[2]، "وإيرادُهُ بصورة الاستفهام كالدَّعوى بدليلها؛ إذ قد تبيَّنَ بذلك وبما ذُكِرَ في هاتين السّورتَين ممَّا سألوا عنه ومن غيرِه شُمولُ علمِه وتمامُ قدرتِه لا سيَّما في إيجاد البشر تارَةً من التّراب، وتارَةً من ذَكرٍ وأنثى في حُكم العَدَم، وتارَةً من أنثى بلا ذَكَرٍ، وثَبَتَ ذلك كلُّهُ، فانكشفَتِ الشُّبَهُ، وتضاءَلَت موجِباتُ المِراء، وانقمعَت مُخيِّلاتُ الفِتَنِ"[3].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡلَمُ﴾:

التّرقّي في العبادة مُؤَسَّسٌ على دوام استحضار تفرُّدِ المعبود

التّعبيرُ بالمضارع يدُلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، واستحضار الحالة الماضية لهذا العلم، وبسببها تضاءَلَت موجِباتُ المِراء، وانقمعَت مُخيِّلاتُ الفِتنِ، والتّجدُّدُ في ﴿تَعۡلَمُ﴾ طَلَبٌ لتجدُّد العبادةِ منه ﷺ والاصطبارِ لها؛ إذ كونه تعالى ليس له سميٌّ مِن مقتضياته دلالةُ الأمرين: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾.

سرُّ التَّعبير بـ﴿سَمِيّٗا﴾ دون غيرها:

عدم تسمية أيِّ مَعبودٍ بالاسم الجليل (الله) إلا هو

"لم يُسمَّ شيءٌ باللّه قطّ، وكانوا يقولون لأصنامهم: آلهة، والعزّى إلهٌ، وأمَّا الّذي عوِّض فيه الألف واللَّام مِنَ الهمزة فمخصوصٌ به المعبودُ الحقُّ غيرُ مُشارَكٍ فيه، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لا يُسمّى أحدٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 221.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 142.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 221.

الرّحمنَ غيرُهُ، ووجه آخر: هل تعلمُ مَن سمّى باسمه على الحقِّ دون الباطل؛ لأنَّ التّسميةَ على الباطل في كونها غيرَ مُعتَدٍّ بها كلا تَسميَةٍ، وقيل: مثلًا وشبيهًا؛ أي: إذا صحَّ أنْ لا معبودَ يوجَّه إليه العبادُ العبادةَ إلَّا هو وحدَهُ، لم يكن بدٌّ من عبادته والاصطِبار على مشاقِّها وتكاليفها"[1]، "وذلك أنَّ الأممَ لا يُسمّونَ بهذا الاسم وثَنًا ولا شيئًا سوى اللّه تعالى، وأمَّا الألوهيّةُ والقُدرةُ وغير ذلك فقد يوجَّه السَّميُّ فيها، وذلك باشتراكٍ لا بمعنًى واحدٍ، وقال ابنُ عبَّاس وغيره: قوله: ﴿سَمِيًّا﴾؛ أي: مثيلًا أو شبيهًا أو نحو ذلك، وهذا قولٌ حَسَنٌ، وكأنَّ السَّميَّ بمعنى المُسامي والمُضاهي؛ فهو مِنَ السُّموِّ، وهذا القولُ يَحسُنُ في هذه الآية، ولا يَحسُنُ فيما تقدَّمَ في ذِكرِ يَحيى عليه السلام"[2].

الغرض مِنَ الكناية في الآية:

نفيُ المُماثِل لله سبحانه وتعالى نفيٌ لاستحقاق غيره العِبادَةَ

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ "انتِفاءُ تَسميَةِ غيرِه مِنَ المَوجوداتِ المُعَظَّمَةِ باسمِه كِنايةً عنِ اعترافِ النَّاسِ بأنْ لا مُماثِلَ لهُ في صفةِ الخالقيَّةِ، وبذلِكَ، يَتِمُّ كَونُ الجملةِ تَعليلًا للأمرِ بإفرادِه بالعبادةِ على هذا الوَجه أيضًا، وكُنّيَ بانتِفاءِ العِلمِ بسَميِّه عَنِ انتِفاءِ وُجودِ سَميٍّ لَهُ؛ لأنَّ العِلمَ يَستَلزِمُ وجودَ المَعلوم، وإذا انتَفى مُماثِلُهُ انتَفى مَنْ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُهُ"[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 517.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 25.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 143، 142.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: 66 - 67]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبلَهُما:

غرور الكافر يصرفه عن الحقائق الثّابتة من جلال القُدرة

بعد أن رتَّبَ التَّنزيلُ الحكيمُ على الآية الرَّابعةِ والسّتّين، وعلى قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، الأمرينِ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، وهو أقصى ما يُمكِنُ أن يُرتَّبَ على ذلك؛ لأنَّ نبيَّنا ﷺ أكملُ الكُمَّلِ مِنَ الأنبياء والرّسل، فكان في ذلك دحضٌ عليٌّ لكلِّ شركٍ وكفرٍ ومتعلّقاتهما؛ بيَّنَ أنَّ مِنَ العباد مَن تجاهل ذلك كلَّه مِنَ المُترتِّبِ عليه، فأنكر البعثَ، وهو ترتيبُ شيءٍ على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه، وذلك يقتضي كلَّ عُجبٍ ودهشةٍ، واللّٰه أعلم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُخْرَجُ﴾: (خرج) يدورُ حول نفاذٍ مِنَ الحيِّز أو الأثناء بتجمُّع: كالورم مِنَ الجسم، والسّحاب من جوف الأفق[1]، وخَرَجَ: برز من مَقرِّه أو حاله، سواءٌ كان مَقرُّه دارًا أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُهُ حالةً في نفسه، أو في أسبابه الخارجة، والإخراجُ أكثرُ ما يُقالُ في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾ [المؤمنون: 35][2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أيعجزُ الخالقُ الّذي أوجد مِنَ العدم ثمّ قدَرَ على الإماتة أن يُخرِجَ مخلوقَهُ كرَّةً أخرى

قال الكلبيُّ: نزلت في أُبيِّ بن خَلَف حين أخذ عظامًا بالية يفتُّها، ويقول: "زعمَ لكم محمّدٌ ﷺ أنَّا نُبعثُ بعدما نموت"[3]، إنَّ الكفرَ والغرورَ يفعلان بصاحبهما فعلَ الطَّائشِ الهمجِ الّذي يظنُّ أنَّ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).
(2) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(3) الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 227.

الدُّنيا له، فلا مماتَ بعدَ حياةٍ، ولا حياةَ بعدَ مماتٍ، هكذا تسويلاتُ شياطينهم وتخيّلاتُهُمُ الباطلة، ولو رجع إلى نفسه برهةً مِنَ الزَّمن مع مَن غبر وولَّى لَعلمَ ذلك علمَ يقينٍ، ولكن أنّى له ذلك؟.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها في ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الكفر والغرور يفعلان بصاحبهما فعلَ الطَّائش الهمج

الواو عاطفة من باب عطف القصَّة على القصَّة، قصّة هذا المُنكِرِ للبعث واستبعاد حدوثه على الأمر بالعبادة الخالصة للّه تعالى والاصطِبار عليها؛ أي: أنّ الإنسانَ بين مُعترِفٍ بالعبوديَّة لربِّه ﷻ، وبين مُنكِرٍ لقدرته تعالى على الإيجاد بعد الموت وحصول البعث.

دلالة التَّعبير بفعل القول مضارعًا:

مِنَ الشُّذوذِ اعتقادُ ما قامت الأدلّةُ على بطلانِه

التّعبيرُ بالفعل المضارع دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار واستحضار الصّورة العجيبة الغريبة، وتلك الأقوال المُنكَرَةِ الّتي صدرت قبلُ عن هذا الكافر، أو لإفادة أنَّ هذا القولَ موجودٌ ومستمرٌّ عند كثيرٍ مِنَ الكافرين[1]، والمرادُ هنا التَّعجيبُ مِن قائل هذه المقالةِ المُنكرَةِ تعجيبًا إنكاريًّا؛ فقد اعتقدوا ضدَّ ما قامتِ الأدلّةُ على ثبوته، وموطنُ التَّعجيب إيرادُ التّنزيلِ الكريم لهذا القول عَقِبَ الاستدلالِ العليِّ على صحّة البعث الّذي يستوجبُ عند كلِّ عاقلٍ اعتقادُهُ، لا إنكارُهُ، فضلًا عن استمرار إنكاره ودوامه؛ مِمَّا تُنبِّهُ إليه صيغةُ المضارع.

نوع (اللَّام) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ودلالتها:

المانعُ الأكبرُ من قبول الحقِّ هو الغرور والكِبْر

(اللّام) هنا للعهد؛ أي: الإنسان المعهود بقوله ذلك، وهو أُبيُّ بن خَلَف، أو لجنس الكفَّار مُنكري البعثِ، وعليه يكون من قبيل إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ[2].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 57.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 242.

وقد تكون لجنس الإنسان، ومَعلومٌ في لغة العرب إسنادُ الفعل إلى المَجموع، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: 77]، والعاقرُ واحدٌ لكن لمَّا ارتضى الجمعُ فعلتهم؛ عمَّهم الفعلُ، والمرادُ جنسُ الكافر المُنكِرِ للبعث.

دلالة إسناد القول إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

مُنكِرو البعث على كثرتهم جزءٌ دلَّ على عموم الجنس البشريِّ

أفاد التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الجنسَ، فيكون المُرادُ الجِنسَ بأسرِه كلّهم، فإنْ قيلَ كلُّهم غيرُ قائِلينَ بذلِك، فكيفَ يَصِحُّ إسنادُ القول إلى أجناس الإنسان؟

فأمَّا من حيث جواز هذا التّركيب فلأنَّ هذه المَقالَة كانَت مَوجودَةً فيما هو مِن بعض جِنسِهم، فصَحَّ إسنادُها إلى جَميعِهم.

وأمَّا من حيث المعنى فقد بيَّن الإمامُ الرَّازيُّ أنَّ هذا الاستِبعادَ الواقع من بني البشر موجودٌ ابتِداءً في طَبعِ كُلِّ أحدٍ إلَّا أنَّ بَعضَهُم تَرَكَ ذلك الاستِبعادَ المَبنيَّ على مَحضِ الطَّبعِ بالدَّلالةِ القاطِعَةِ الَّتي قامَت على صحَّةِ القَولِ به[1].

وقد يُفيدُ تعميمُ القول للكلِّ الإشارةَ إلى قلَّة المؤمنين بالبعث على الوجه الّذي جاء به النَّبأ العظيم[2].

معنى الاستفهام ودلالته في ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾:

قد يكون الباطلُ أصلًا لا غرابةَ فيه ولا عُجبَ

أخرجَ هذا الإنسانُ اعتقادَه في صورة استفهام؛ ليُفهمَ غايةَ ثقته واقتناعِه بما يعتقد مِن إنكار وقوعِ البعثِ، ولذلك كان له أن يستبعدَ ذلك، ويتعجَّبَ منه بالاستفهام، بل إنَّه أتى "بالجُملةِ المُسَلَّطِ عليها الإنكارُ مُقتَرِنَةً بلامِ الابتداءِ الدَّالَّةِ على توكيدِ الجملةِ الواقعةِ هي فيها؛ أي: يَقولُ: لا يَكونُ ما حَقَّقتُموهُ مِن إحيائي في المُستَقبَلِ"[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 242.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 117.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 143.

دلالة التّعبير بـ (إذا):

قياسُ الغائب على الشَّاهد هو مَناطُ الإيمان

تَرِدُ (إذا) في الشَّرط المقطوع بوقوعه وحصوله، وهي ظرف زمان مُتضمِّن معنى الشَّرط، والعامل فيها أو متعلِّقها محذوف، دلَّ عليه قوله: ﴿أُخۡرَجُ﴾، والتَّقدير: (أَإذا ما متُّ بُعِثت؟) ولا يجوز أن يكون ﴿أُخۡرَجُ﴾ هو عاملَ النَّصب فيه لوجود اللَّام الفاصلة بين العامل والمَعمول، وإنَّما دخلت (إذا) على المُتيقَّنِ وقوعُهُ، وهو الموت، دلالة على أنّ المُشاهَدَ عندَهُم غيرُ مُنكَرٍ، لكنَّ غباءَهم في عدم قياس الغائبِ على الشَّاهدِ منعَهُم من إعمال العقل للاستدلال، فمانِعُهم الغباءُ والاستكبارُ.

سرُّ إيلاء الظّرف همزة الاستفهام في ﴿أَءِذَا﴾:

قد يُرَتِّبُ الباطلُ أفكارَه؛ ليُقنِعَ بها، وأنَّى له ذلك

تقدَّمَ الظّرفُ في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ على ما بعده واقعًا بعدَ همزة الاستفهام الّذي للإنكار؛ لِما أنَّ المُنكَرَ كونُ ما بعدَ الموت وقتَ الحياة؛ فهذا التّرتيبُ هو الّذي يصوِّرُ حركة المعنى المقصودة في الآية؛ فهُم يُنكِرون أن يكونَ بعد الموت حياةٌ، والموتُ سابقٌ على تلك الحياة الّتي يقولُ بها الدّينُ الإسلاميُّ، ثمّ إنَّه مانعٌ منها، وهو آخِرُ ما يتعلَّقُ بالإنسانِ، فلهذا كلِّه قُدِّمَ على ما بعده.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها في ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾:

الإيمانُ بالغيبِ مِن أعلى مَراتِب الإيمان

زيدت ﴿مَا﴾ فاصلةً بين ﴿أَءِذَا﴾ و﴿مِتُّ﴾، ولا يجوزُ لغةً أن تفصِل بين ﴿مِتُّ﴾ و﴿لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾ - ؛ لتصوير غاية استبعادِ وقوعِ البعثِ بهذا الفاصلِ، وما فيه مِن شديد الإبهام، ومَدِّ الألف، كأنَّ ما بعد الموت، كهذا الإبهام، لا يُبِينُ عن شيءٍ مُحدَّدٍ، فيكونُ استعمالُ ﴿مَا﴾ تمكينًا وتوكيدًا لإنكار البعث الّذي هو بعضُ دلالات الاستفهام، والله أعلم.

نكتة إيثار (سَوفَ) على نظيرتها السّين:

التَّعبيرُ بالحرف (سوف) في قوله ﴿لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾ إمعانٌ

في إنكار وقوع البعث؛ لأنَّه يدُلُّ على التّأخير والتّنفيس، وزمانُه أبعدُ من زمان السّين؛ لِما فيها من إرادة التّسويف، ومنه قيل: فلانٌ يسوِّف فلانًا، و"سوف تُستعمَلُ كثيرًا في الوعيد والتّهديد، وقد تُستعمَلُ في الوعد، والأكثر في السّين الوعد، وتأتي للوعيد"[1]، كما أنَّ "سَوفَ حرفٌ يُخصِّصُ أفعالَ المُضارَعَةِ بالاستقبال، ويُجرِّدُها عن معنى الحال، ويقتضي معنى المُماطَلَةِ والتّأخير، واشتُقَّ منه التَّسويفُ اعتبارًا بقول الواعد: سوف أفعَلُ كذا"[2] فلهذه الخصوصيَّات استُخدِمت (سوف)؛ لكونها الأنسبَ للسّياق.

إرادة المماطلة والتّأخير طبيعة عند المُنكِرين

دلالة اقتران سوف باللّام:

أتَى التّنزيلُ الكريمُ بالجملة المصدَّرة بـ(سوف) في قوله: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ مُقترِنةً بلام الابتداء؛ للدّلالة على توكيد مضمون هذه الجملة على سبيلِ الحكاية عنِ القرآن أو الرّسول أو أهلِ الإيمان، وهذا يعني غايةَ الرّفضِ لاعتقاد صحَّة البعث، بالجُملةِ المُسَلَّطِ عليها الإنكارُ مُقترِنةً بلامِ الابتداءِ الدَّالَّةِ على توكيدِ الجُملةِ الواقِعَةِ هي فيها؛ أي: يَقولُ: لا يَكونُ ما حَقَّقتُموهُ مِن إحيائي في المُستَقبلِ"[3]، وقد تكون "اللّام في قوله: ﴿لَسَوْفَ﴾ مَجلوبَةً على الحكاية لكلام تقدَّم بهذا المعنى، كأنَّ قائلًا قال للكافر: إذا متَّ يا فلانُ؛ لسوفَ تُخرَجُ حيًّا، فقرَّرَ الكافرُ على الكلام على جهة الاستبعاد، وكرَّر اللَّام حكايةً للقول الأوّل"[4].

قد يحكي الباطلُ الحقَّ لهدمه

دلالة المضارع المبنيّ للمفعول ﴿أُخْرَجُ﴾:

بُنِيَ فعلُ الإخراج هنا لِما لم يُسمَّ فاعلُه للعلم به، وتعيُّنه؛ لأنَّ المُخرِجَ والباعثَ مِنَ الموت هو اللّٰه تعالى، والفعل المضارع دالٌّ على

المُخرِجُ والباعِثُ مِـنَ الـموت هو الله تعالى

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 283، 282.
(2) الرَّاغب، المفردات: (سوف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 144، 143.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 25.

التَّجدُّد والاستمرار واستحضار الصّورة، ولاسيّما الصّورة العجيبة الغريبة مِنَ الإخراج والبعث بعد الموت، وورد كذلك للإشارة إلى أنَّ الخروجَ بفعل قوَّةٍ قادرةٍ ظاهرةٍ، وفي حذف الفاعل بملاحظة المتكلِّم المُنكِر للبعث إشعارٌ بهروبه مِنَ الحقّ الّذي قد يُسيطر عليه لو نطق باسم الجلالة، وفيه أيضًا الفرارُ مِنَ الوقوع في التّناقض؛ لأنَّه لو نطق باسم الجلالة لكان دالًّا على إمكان وقوع البعث؛ لأنَّ هذا الإنسان يُقِرُّ بخالقيَّة اللّه تعالى، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزّخرف: 87].

نكتة حذف متعلّق ﴿أُخْرَجُ﴾:

الإبلاغُ في إنكار البعث صورةٌ لسيطرة دليل صحّته على المُنكِر

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿أُخْرَجُ﴾ هنا إيجازًا واختصارًا لكونه معلومًا، والمراد: أُخرَجُ من القبر، أو أُخرَجُ حيًّا من الأرض بعد طول رُقادٍ فيها، أو أُخرَجُ مُخرَجًا فيه الحياةُ، وفي غياب متعلّقه إشعارٌ بعدم الخروج أصلًا، وهذا إمعانٌ في تقرير عدم الخروج حيًّا، فالحذفُ تمكينٌ لإنكار وقوع البعث.

سرُّ إيثار ﴿أُخْرَجُ﴾ على (أُبعَث):

الموتى يُخرجُهم الله، ويُسيِّرُهُم إلى القيامة للمحاسبة

المرادُ مِن قوله: ﴿أُخْرَجُ﴾ الخروجُ مِنَ الأرض، أو من حال الفناء، أو هو من قولهم: خرج فلانٌ عالمًا، وخرج شجاعًا؛ إذا كان نادرًا في ذلك، يريد: سأُخرَجُ حيًّا نادرًا على سبيل الهزُؤ[1]، والبعث: إثارةُ الشّيءِ وتوجيهُه، يُقال: بَعَثْتُه فانبَعَثَ، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلاف ما عُلِّقَ به، فبَعَثْتُ البعيرَ: أثرتُه وسيَّرتُه، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يخرجُهم، ويُسَيِّرُهم إلى القيامة"[2]، وإنَّما عبَّر بـ ﴿أُخْرَجُ﴾ لحكاية الإنكار المُبالَغ حتّى إنَّه لَيتحاشى ذِكرَ لفظ البعث.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 517.
(2) الرَّاغب، المفردات: (بعث).

الباطلُ لا يتحاشى مِن إعلانِ مَذهَبه

سرُّ التَّقييد بالحال في قوله: ﴿حَيًّا﴾:

قوله: ﴿حَيًّا﴾ حال مؤكِّدة لفعل الخروج؛ لأنَّ من لوازم هذا الخروج أن يكون حيًّا؛ أي: للعرض والحساب، فاللّه سبحانه يبعثهم، ويُحييهم للمثول بين يديه لرفع المَظالِم، وهذه الحالُ ذروةُ حركة معنى إنكار البعث في الآية.

مِنَ الإحسانِ تذكيرُ الإنسانِ بأصله

الغرض مِنَ الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾:

المرادُ مِنَ الاستفهام هنا الإنكارُ والتَّعجيبُ من ذهول الإنسان المُنكِرِ البعثَ عن خلْقِه الأوّل، وهذه الجملة "مَعطوفَةٌ على جُملة ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يَقولُ ذلكَ، ومِنَ النَّكيرِ عليه أنَّهُ لا يَتَذَكَّرُ أنَّا خَلَقناهُ مِن قَبلِ وُجودِه"[1]، وهي احتجاجٌ خاطَبَ اللّهُ تعالى به نبيَّه عليه السلام ردًّا على مقالة الكافر.

دعوةٌ للوقوف والتَّفكُّر في الحالة الأولى قبل الخِلقة

نكتة تقديم الهمزة على الواو في ﴿أَوَلَا﴾:

الهمزة للاستفهام الإنكاريّ دخلت على الواو العاطفة المفيدة للجمع، عطفَت ما بعدها على معطوفٍ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿وَيَقُولُ﴾، والتّقدير: (أيقولُ ذلك، ولا يذكرُ خلْقَه الأوّلَ؟)، فأفادَتِ الهمزةُ إنكارَ الجمع بين القول، وعدمَ الذِّكر الّذي هو المعطوف عليه للإشارة إلى أنَّ المُستنكَرَ بالذَّات هو عدمُ الذِّكر الَّذي هو المعطوف المذكور، وأنَّ المعطوفَ عليه، وهو القول: إنَّما نشأ منه، فإنَّه لو تذكَّر أنَّا خلقناه مِن قبلُ، ولم يكُ شيئًا لم يقُلْ ذلك.

الّذي خلَقَ من عَدَمٍ قادر على الإيجاد والبعث مرّةً أخرى

دلالة النَّفي بـ(لا) دون (لم) في ﴿أَوَلَا﴾:

(لا) تَرِدُ للنّفي، وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وتعمل عمل (إنّ)، فتنفي ما أوجَبتهُ (إنّ)، فتشبهها في الإعمال، ويكثُر حذفُ خبرها؛ إذا عُلِم، وهي لنفي الجنس والعموم، وقد تَرِدُ بمعنى (لم)،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 144.

ولذلك اختُصَّت بالدُّخول على الماضي، وتجيء مؤكِّدةً النّفي في غير مَوضِعها الَّذي تستحقُّه، أمَّا (لم) فهي لنفي المضارع وقلبِه ماضيًا، فمجيء النّفي بـ (لا) ههنا لنفي عموم التَّذكُّر ووقوعه من هذا المُنكِر، وهي هنا أبلغُ مِنَ التّعبير بـ(لم) في نفي هذا التَّذكُّر لمقام الإنكار والاستبعاد لأمر البعث، وأنَّ الَّذي خلقَه من عَدَم قادرٌ على إيجاده وبعثه مرَّةً أخرى، فـ(لا) تفتحُ البابَ للمُخاطَبِ المُنكِر للبعث أن يتذكَّرَ أصلَ نشأته في كلِّ وقتٍ، وهذا إحسانٌ إليه أيّ إحسانٍ.

خصوص نفي التَّذكُّر:

لكلِّ شيءٍ أساسٌ يقومُ عليه

يتوجَّهُ هنا سؤالٌ، وهو كيفَ أمَرَ تعالى الإنسانَ بالذِّكرِ مع أنَّ الذِّكرَ هو العلمُ بما قد عَلِمَهُ مِن قَبلُ، ثمَّ تَخَلَّلَهُما سَهوٌ؟ والجوابُ: أنَّ المرادَ: (أوَلا يتفكَّرُ فيَعلَمَ) خصوصًا إذا قُرِئَ ﴿أَوَلَا يَذَّكَّرُ﴾ بالتّشديد، أمَّا إذا قُرِئَ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بالتّخفيف فالمراد: (أوَلا يَعلَمُ ذلكَ مِن حالِ نَفسِه)؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يَعلَمُ أنّهُ لم يَكُنْ حيًّا في الدُّنيا، ثمَّ صارَ حيًّا[1].

والذِّكرُ: تارةً يُقالُ، ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفس بها يُمكِنُ للإنسان أن يَحفظَ ما يَقتَنيه مِنَ المَعرفة، وهو كالحِفظِ إلَّا أنَّ الحفظَ يُقالُ اعتبارًا بإحرازِه، والذِّكرُ يُقالُ اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يُقالُ لحضور الشّيءِ القلبَ أو القولَ، ولذلك قيلَ: الذِّكرُ ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللِّسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذِكرٌ عن نسيانٍ، وذِكرٌ لا عن نسيانٍ بل عن إدامَةِ الحِفظِ، وكلُّ قولٍ يُقالُ له: ذِكرٌ، أمَّا العِلْمُ فإدراكُ الشّيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدُهُما: إدراكُ ذات الشّيء، والثَّاني: الحُكمُ على الشَّيء بوجود شيءٍ هو مَوجودٌ له، أو نَفي شيءٍ هو مَنفيٌّ عنه"[2]، ومن هنا كان التَّعبيرُ بالذِّكر أوسعَ وأنسبَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 242.
(2) الرَّاغب، المفردات: (ذكر، علم).

بمقام الإنكار الوارد من هذا المُنكِر، وأشملَ في أداء المعنى المراد مِنَ الرَّدِّ عليه وإحجامه ومحاجَّته بالدّلائل الدَّامغة والبراهين القاطعة.

وإنّما عُبِّر بالتَّذكُّرِ؛ لأنَّه أساسُ التَّفَكُّرِ والعِلم، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى؛ فهذا الَّذي بالغَ في إنكار وقوع البعث في الآية السَّابقة لم يكنْ عنده أساسُ ما يُنقِذُه مِن هذا الإنكار، والآيةُ بهذا الاستفهام تلفته إليه، وتنبِّهه عليه، وهذا رحمةٌ ولطفٌ به.

تنوُّع القراءات في ﴿يَذۡكُرُ﴾، وأثره على المعنى:

للقرآنِ بلاغةٌ خاصَّةٌ به

قرأ بإسكان الذَّال والتّخفيف نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ إشارةً إلى أنَّ أدنى ذِكرٍ مِن هذا يُرشِدُ الإنسان إلى الحقِّ، وقراءةُ الباقين ﴿يَذَّكَّرُ﴾ بفتح الذَّال والكاف وتشديدِهما يشيرُ إلى أنَّه لاستغراقه في الغفلة يحتاج إلى تأمُّلٍ شديدٍ"(1)، فالقراءتانِ أحاطتا بحالِ المُنكِرِ وحالِ ما يُنكِرُه؛ ومِثلُ هذا المبالِغ في إنكارِه يفتقرُ إلى تذكُّرٍ عميقٍ وطويلٍ، وهذا ضربٌ مِنَ الإيجاز الخاصِّ بالقرآن، وتشديد ﴿يَذَّكَّرُ﴾ أصله: يتذكَّرُ أُدغِمَتِ التَّاءُ في الذَّال لقرب مَخرَجهما.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يَذۡكُرُ﴾:

النّظر في الماضي يفضي للاعتبار

الفعلُ المضارعُ دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار مع استحضار الحالة الماضية والصّورة الغريبة العجيبة لهذا التَّذكُّر، وعلاقته بالتَّفكُّر والنّظر في أنَّه إذا خُلِقَ مِن قَبلُ لا من شيءٍ، فجائزٌ أنْ يُعادَ ثانيًا.

سرُّ إظهار لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في مَوضِع الإضمار:

الإنسانيّةُ من دواعي التَّفكُّرِ لِما خصَّهم الله تعالى به مِنَ العقل

والإظهارُ في مَوقِعِ الإضمارِ لزيادة التّقرير، والإشعارِ بأنَّ الإنسانيّةَ من دواعي التَّفكُّرِ فيما جرى عليه من شؤون التّكوينِ المُنْحيَةِ بالقَلْعِ عنِ القول المذكور، وهو السِّرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوانِ(2)، وفي إظهارِه شديدُ تعجُّبٍ مِن شأنه

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 318، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 221.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 274.

وحاله، فهذا المخلوقُ صار له شأنٌ وحالٌ، فهو يقولُ، ويُرَدُّ عليه، إلخ، وقد كان مِن قبلُ عَدَمًا.

نوع اللّام في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ودلالتها:

دعوة إلى كلِّ مَن ينكرون البعث قديمًا وحديثًا

اللّامُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يجوز أن تكون للجنسيّة؛ إذا كان المرادُ بها جنسَ الكفرةِ الّذين قالوا بعَدَمِ البعث، ويجوز أن تكون للعهد؛ أي: الشّخص المعهود بقول ذلك، وهو أُبيٌّ بن خَلَف الجُمَحيّ، فهو معيَّن مقصود بهذا، وعبَّر بالكلِّ إدخالًا لكلِّ مَن يقول بقوله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

سرُّ الإسناد في ﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ﴾:

كلُّ ما عليهم فعله أن يتذكَّروا حالتهم الأولى

ورد الإسنادُ إلى ضمير المتكلِّم بضمير العظمة تعظيمًا وتشريفًا وبيانًا لقدرته ﷻ في إيجاد الخلق ولا مُشاركَ له في ذلك، ولا ندَّ ولا نظيرَ له يمكنه فعل ذلك، وهذا أقوى ردٍّ على هذا المُنكِر، فهذه القوّةُ بنون العظمة تواجِه إبلاغَه في إنكار وقوع البعث في الآية السّابقة.

فائدة الإطناب بقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

التّأكيد في بيان خلق الإنسان أوّل مرّةٍ، ثمّ إعادته بعد موته وبعثه

ورود قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ هنا تتميم، وهو أن يُؤتى في كلام لا يوهمُ خلافَ المقصودِ بفضلَةٍ مُبالغةٍ في تأكيد بيان خلق الإنسان أوَّل مرَّةٍ، ثمَّ إعادته بعد موته وبعثه، والمعنى: مِن قبلِ ألّا يوجد ثمّ كان، فكما أوجدناه قبلَ ذلك؛ نعيدُه عودًا آخرَ بعد مماته؛ إذِ المعنى - على الجملة دون الكشف عنِ المطلوب سياقًا - يمكن أن يتمَّ بدون قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، ولا يوهمُ تركُهُ خلافَ المَقصودِ، وهو فضلَةٌ زيدَت مُبالَغةً في الرّدِّ على هذا المُنكِرِ، ولا ريبَ في أنَّ الإبلاغَ بهذا التّتميم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ يواجِهُ حالةَ المبالغة في الإنكار في الآية السّابقة، فالرَّدُّ قوَّةً وضعفًا يكونُ بحسبِ الشُّبهةِ وأدائها قوَّةً وضعفًا.

مَوقِعُ جملة ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ ودلالته:

الإمعان في التّوكيد للإمعان في الإنكار

هذا التّركيبُ جملةٌ حاليَّةٌ وردت مبيِّنة للحالة الّتي كان عليها هذا المُنكِرُ قبل وجوده في هذه الدُّنيا، وهي مزيد تأكيدٍ لحالة العَدَمِ

الّتي كان عليها قبلُ، أفيعجزُ مَنْ أوجده من هذا العَدَمِ أن يعيدَهُ مرَّةً أخرى؟ وبهذه الجملة يقوى الرّدُّ على المُنكِر للبعث؛ وذلك مواجهة لمبالغته في الإنكار في الآية السّابقة: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾.

سرُّ حذف نون الكون:

الأمر بالطّاعة تكريم للإنسان

حُذِفَت نونُ الكون المضارع في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ﴾ لغير علّةٍ صرفيّةٍ أو نحويّةٍ، والأصل: (لم يكُنْ)، وسرُّ الحذف بملاحظة النّفي التّنبيهُ على أدنى كون منفيٍّ؛ أي: (ولم يكُ أيَّ شيء، ولا أدنى شيء)، وهذا إبلاغٌ في تقرير معنى جملة النّفي، ويتبعه معنى تحقيره، وداعي ذلك من السّياق إبلاغُ هذا الإنسان في إنكار البعث بقوله: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾؟ ونبّه البقاعيّ على معنى تمكين التّحقيرِ بالحذفِ، فقال: "ولمّا كان المَقامُ لتحقيره بكونه عَدَمًا أعدمَ مِنَ التّعبير عن ذلك ما أمكَنَ إعدامُهُ، وهو النّونُ؛ لِتُناسِبَ العبارةُ المُعتَبَرَ، فقال: ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ أصلًا، وإنّا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته، فلا يُنكَرُ ذلك"(1).

معنى ﴿شَيۡـٔٗا﴾، وسرُّ تنكيره:

التّفكُّر في أصل الخِلقة يقرّر إدراك قدرة الخالِقِ على الإعادة

الشّيءُ هو الموجود أو أصله، والمعنى: (أنّا خلقناه مِن قبلِ ذلك، ولم يكُنْ موجودًا، أو لا أصلَ له في هذا الوجود)، والتّنكيرُ هنا للتّقليل والتّحقير، ولهذا تعاضد التّنكيرُ وحَذفُ حرفِ النّون في إبراز ذلك، قال البقاعيّ: "ولمّا كان المَقامُ لتحقيره بكونه عَدَمًا أعدمَ مِنَ التّعبير عن ذلك ما أمكَنَ إعدامُهُ، وهو النّونُ؛ لِتُناسِبَ العبارةُ المُعتَبَرَ، فقال: ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ أصلًا، وإنّا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته، فلا يُنكَرُ ذلك"(2).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 222.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 222.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم: 68]

الخالِقُ المُقتدِرُ كما أوجد الدّنيا خلق الآخرة تَكرِمةً للمُتّقين وعذابًا للمجرمين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن قدَّم سياقُ السّباقِ حالةَ إنكارِ البعث، وردَّ عليها مُخاطِبًا العقلَ بما يقنع، وما ليس فيه جدالٌ أو خلافٌ؛ ليُثبِتَ صحّة وقوع البعث: ترقّى خطوةً في الرَّدِّ؛ فأثبت أنَّ البعثَ واقعٌ لا محالةَ، وأنَّه حين يقَع يكونُ حالُ مُنكِريه كيت وكيت، وهذا غضبٌ وتهديدٌ لِمَن يُصرُّ على إنكار البعث بعد الأدلّة السَّابق بيانُها، فهذه الآية وما بعدها مِن تمام ما قبلها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾: من (حَشَرَ)، "والحَشْرُ الجَمعُ مَعَ سَوق، وكلُّ جَمعٍ حَشرٌ، والعربُ تَقولُ: حَشَرَت مالَ بَني فُلانٍ السَّنَةُ كأنَّها جَمَعَتْهُ، وذَهَبَت به، وأَتَت عليه"(1)، والحَشْرُ: إخراجُ جماعةٍ عن مَقرِّهم وإزعاجُهُم عنه إلى حرب ونحوها، ويُقالُ ذلك في الإنسان وفي غيره، ولا يُقالُ الحشرُ إلَّا في الجماعة، وسُمّي يومُ القيامة يومَ الحشر، كما سُمّي يومَ البعثِ والنّشرِ(2).

2) ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾: من (حضر) وهو إيرادُ الشَّيءِ، ووُرودُهُ ومُشاهَدَتُهُ، والمعنى المحوريّ للكلمة انتقالٌ بكثافةٍ أو قوّةٍ إلى مجمع يدوم، كانتقال الماء سَرَيانًا، أو النَّاس إلى المَناهل، والتَّجمُّعُ حول المَناهل هو أصلُ الحَضَر(3)، و"الحَضَرُ: خلافُ البَدوِ، والحَضارةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (حشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي الاشتقاقيّ المؤصّل: (حضر).

والحِضارَةُ: السّكونُ بالحَضَر، كالبَداوة والبِداوة، ثمَّ جُعِلَ ذلك اسمًا لشهادة مكانٍ أو إنسانٍ أو غيره، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 180]، و﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾ [القمر: 28]، أي: يحضرُهُ أصحابُه، والحَضيرَةُ: جماعةٌ مِنَ النَّاس يُحضَرُ بهمُ الغَزوُ، وعُبِّرَ به عن حضور الماء، والمَحْضَرُ يكون مصدرَ حضرْتُ، ومَوضِعَ الحُضور"(1)، واستُعمِلَ الإحضارُ للإتيان بالخَلق إلى مَوقِف الحساب يومَ القيامة، فكأنَّه بمعنى الحشر(2).

3) ﴿جِثِيّٗا﴾: جَثا على ركبتيه يَجثو جُثوًّا وجثيًّا، فهو جاثٍ، نحو: عَتا يَعتو عُتوًّا وعُتيًّا، وجمعه: جُثيٌّ، نحو: باكٍ وبُكيٌّ، وقوله ﷻ: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: 72]، يَصحُّ أن يكون جمعًا نحو بُكيّ، وأن يكون مصدرًا موصوفًا به، والجاثية في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ﴾ [الجاثية: 28] موضوعٌ مَوضِعَ الجمعِ، كقولك: جماعةٌ قائِمةٌ وقاعِدةٌ(3).

المَعْنى الإجْماليُّ:

عـرضُ القيامة حشرٌ وإحضارٌ

قدَّمتِ الآياتُ في السّباق القريب الأدلَّةَ على صحّة وقوع البعث، وبيَّنَتِ الأصلَ الّذي ينبغي ترتُّبه على اعتقادِ ذلك مِنَ البلوغ في عبادة اللّه تعالى كلَّ مبلغٍ مُمكنٍ؛ مِمَّا يستدعي تحمُّلًا وسيعًا لمشقَّةٍ بالغةٍ ستكونُ مع تلك العبادة المذكورة، وبيَّنَت أيضًا ما ترتَّبَ على الخطابِ بالبعث لدى فئةٍ مِنَ العباد مِنَ الإنكارِ الشّديد له، ثمّ ردَّتْ عليه ردًّا يخاطِبُ العقلَ خطابًا مُقنِعًا جدًّا، وفي هذه الآيةِ بيانٌ لحالِ المُنكِرِ؛ إذا استمرَّ على إنكارِه، وفارَق الدّنيا، وهو عليه باقٍ، وله مُعتقدٌ، والمعنى: (فوربِّك - يا محمّدُ ﷺ - لنحشرَنَّ هؤلاء المُكذِّبين بالبعث مع الشّياطين الَّذين أغووهم)، قال المُفسِّرون: يُحشَرُ كلُّ

(1) الرَّاغب، المفردات: (حضر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي الاشتقاقيّ المؤصّل: (حضر).
(3) الرَّاغب، المفردات: (جثا).

كافر مع شيطانه في سلسلةٍ ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾؛ أي: نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنَّم قعودًا على الرُّكَب من شدَّة الهول والفزع، لا يطيقون القيامَ على أرجلهم لِما يدهمُهم من شدَّة الأمر وهول المَوقِف.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في ﴿فَوَرَبِّكَ﴾:

قَسَمٌ يستدعي التَّنبُّهَ والاتِّعاظَ

الفاءُ حرفُ عطفٍ يفيد التّرتيبَ والتّعقيبَ، والمعطوفُ عليه محذوفٌ، تقديره: (أنكَروا الحشرَ) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾، أو "الفاءُ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ باعتِبارِ ما تَضمَّنَتهُ مِنَ التَّهديدِ"(1).

غرضُ التّعبير بالقسم وإيثار الواو للقسم:

مِن آلاء الله في الدّنيا التّذكيرُ بعقابه الشَّديد في الآخرة

فائدةُ القسم هنا في قوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ تأكيدُ تحقيقِ وعيدِ اللّه تعالى لهؤلاء المكذِّبين المُنكِرين أمرَ البعث وكونه مُستبعدًا، وواو القسم لا تدخلُ إلَّا على مُظهَر، ولا تتعلَّقُ إلَّا بمحذوفٍ، فإن تلتْها واو أخرى فالتَّالية واو العطف، وإلَّا لاحتاج كلٌّ مِنَ الاسمين إلى جواب، وواو القسم هي أمُّ الباب، وهي أقوى في وقوعه من غيرها، وآكد في أداء المُقسَم عليه، ووراء التّعبير بالقسم "أمران: أحدهما: أنَّ العادةَ جاريةٌ بتأكيد الخبر باليمين"(2)، ويَستَتبعُ توكيدَ الوعيدِ وتحقيقَهُ: تفخيمُهُ وتعظيمُهُ؛ ليكونَ فيه ترهيبٌ شديدٌ للمُنكِرين، وإعلامُهم بهذا، وهُم في الدّنيا، رحمةٌ بهم.

مَرجِعُ ضمير الخطاب في ﴿فَوَرَبِّكَ﴾، وسرُّ الإضافة:

تفخيم شأنه ﷺ ورفع مَنزِلته

الخطابُ لرسول اللّه ﷺ، "والقسمُ بالرَّبِّ مُضافًا إلى ضميرِ المُخاطَب، وهو النَّبيُّ ﷺ إدماجٌ لِتَشريفِ قَدرِه"(3)، و"لتحقيق الأمر بالإشعار بعلَّته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 145.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 101.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 145.

وتفخيم شأنِه ﷺ ورَفع مَنزِلَته"[1]، وتوجيهُ الخطابِ إليه ﷺ في صدرِ تقرير هذا الوعيد فيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ اللّه تعالى لم يُعجِّل بعقوبة إنكار البعث أو بشيءٍ منها في الدُّنيا لهم، فيرحمهم بذلك؛ إكرامًا لرسول اللّه ﷺ، وأنَّ عقابَ هؤلاء المُنكِرين يوم القيامة فيه نوعُ شفاءٍ لصدور المؤمنين وإحسانٍ إليهم؛ أولئك الّذين تحمَّلوا مِن أذى المُنكِرين ما تحمَّلوا.

سرُّ الإقسام باسم الرّبِّ دون غيره:

ذِكرُ الرّبِّ ﷻ هنا في قوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ هو الأنسبُ للمقام، فلمَّا كان الرَّبُّ هو أصلَ الإنشاء والإيجاد والتَّربية حالًا فحالًا إلى حدِّ الكمال والتَّمام، هذا إلى جانب أنَّ من نِعَم اللّه على عباده أن يُعيدَهم ليقفوا أمامه، فيأخُذَ للضّعيف المظلوم مِنَ القويِّ المُتجبِّر، ويُثيبَ المؤمنَ، ويُعذِّبَ الكافرَ، والأنسبُ في ذكر النِّعم أن يُعبَّرَ بالرّبِّ ﷻ.

مَرجِعُ الضّمير في ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾، وسرُّ التّخصيص:

إنكارهم للبعث مُؤذِنٌ بغضب اللّه تعالى عليهم

الضّميرُ هنا عائدٌ على المُنكِرين للبعث؛ لأنَّ الحديثَ خاصٌّ بهم، ومتعلِّقٌ بإنكارهم البعثَ، ويفيدُ الضّميرُ الجنسَ المُفيدَ للاستغراقِ العُرفيِّ؛ أي: (لَنَحشُرَنَّ المُشركينَ)[2]، وفيه أنَّهم كأنَّ لهم حشرًا خاصًّا بهم، كما اختُصّوا بإنكار البعث، وهذا إبلاغ في وعيدهم وتهديدهم.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

كفى بهم نقمةً أن يُحشَروا مع الشّياطين

"عَطَف ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ على ضميرِ المُشركينَ لِقَصدِ تَحقيرِهم بأنَّهُم يُحشَرونَ مَعَ أحقَرِ جِنسٍ وأفسَدِه، وللإشارة إلى أنَّ الشَّياطينَ هُم سَبَبُ ضَلالِهمُ الموجِبُ لهُم هذه الحالةَ"[3].

ويجوز أن تكونَ الواو في الآية بمعنى (مع)؛ والمعنى: أنَّهم يُحشَرون مع قرنائهم مِنَ الشّياطين الّذين أغوَوهم مع كلِّ شيطانٍ في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 145.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 145.

سلسلةٍ[1]، وقد "رويَ أنّ الكفرةَ يُحشرون مع قُرَنائهم مِنَ الشّياطين الّتي كانت تُغْويهم، كلٌّ منهم مَعَ شيطانه في سلسلةٍ وهذا، وإنْ كان مُختَصًّا بهم، لكنْ ساغ نِسبتُه إلى الجنس باعتبار أنَّهم لَمَّا حُشِروا، وفيهمُ الكفرةُ مَقرونينَ بالشّياطين، فقد حُشِروا معهم جميعًا، كما ساغ نِسبةُ القولِ المَحكيِّ إليه مع كون القائل بعضَ أفرادِه"[2].

معنى العموم في ضمير الغَيبة ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾:

يــومُ الـحـشـر سرورٌ للمؤمنين وحَـسـرةٌ على الكافرين

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ "عامٌّ لِلخَلقِ كُلِّهم مُؤمِنِهم وكافِرِهم، ولَم يُفَرِّقْ بينَ المُؤمنينَ والكافرينَ، كما فرَّقَ في الجَزاءِ، وأُحضِروا جَميعًا، وأورِدوا النَّارَ ليُعاينَ المُؤمنونَ الأهوالَ الَّتي نَجَوْا منها، فيُسَرّوا بذلك، ويَشمَتوا بأعدائِهمُ الكُفَّارِ، وإذا كانَ الضَّميرُ عامًّا فالمعنى: يَتَجاثَونَ عند موافاة شاطئ جهنَّمَ، كما كانوا في المَوقِفِ مُتَجاثينَ؛ لأنَّهُ مِن تَوابِعِ التَّوافُقِ للحِسابِ قبلَ الوصولِ إلى الثَّوابِ والعِقابِ"[3].

دلالة الإخبار بإحضارهم بعد الإخبار بحشرهم:

حَـشْـرُهُـم مَـعَ الـشَّـيــاطـيـن إنــذارٌ لَـهُـم بأنَّ مَـصـيـرَهُـم هـوَ مَصيرُ الشَّياطين

هذا الإحضارُ - يكون قبلَ دخولِهم جهنّمَ - ويكون على أذلِّ هيئة وأحقر صورة مع ما فيه مِنَ المَهانة والصِّغار، "فَحَشرُهُم مَعَ الشَّياطين إنذارٌ لَهُم بأنَّ مَصيرَهُم هو مَصيرُ الشَّياطين، وهو مُحَقَّقٌ عندَ النَّاسِ كُلِّهم، فلِذَلك عَطَفَ عليه جُملةَ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، والضَّميرُ للجميع، وهذا إعدادٌ آخرُ للتّقريب مِنَ العَذاب، فهو إنذارٌ على إنذارٍ، وتَدَرُّجٌ في إلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم[4].

دلالة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

الحرفُ ﴿ثُمَّ﴾ قد يكونُ على ظاهره مِنَ التّرتيب والتّراخي،

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 173.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 275.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/ 208.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 145.

وقد يكون حَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ لا للمُهلَةِ؛ إذ لَيسَتِ المُهلَةُ مقصودةً، وإنَّما المَقصودُ أنَّهُم يُنقَلونَ مِن حالةِ عذابٍ إلى أشدَّ[1].

هؤلاء المُنكِرون للبعث يُنقَلونَ مِن حالَةِ عذابٍ إلى حالةٍ أشدَّ

سرُّ التّقييد بالظّرف ﴿حَوْلَ﴾:

﴿حَوْلَ﴾ في اللّغة يُرادُ بها جانب الشّيء الَّذي يُمكِنُه أن يُحَوَّل إليه[2]، والمراد أنَّهم "يُحيطون بها لضيق رأسِها، وبُعد قعرها، حالَ كونهم جاثين على رُكبهم"[3]، وجاء القيدُ ﴿حَوْلَ﴾؛ "ليَرى السُّعداءُ ما نَجّاهم اللّهُ تعالى منه، فيَزدادوا غِبطةً وسرورًا، وينالَ الأشقياءُ ما ادَّخروا لِمَعادهم عُدَّةً، ويزدادوا غيظًا من رجوع السُّعداءِ عنهم إلى دار الثّواب، وشماتتِهم بهم"[4].

معاينةٌ ومَذلَّةٌ ومَهانةٌ للكافرين، ثمّ يُصلَون سعيرًا

سرُّ إيثار اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون النَّار أو السَّعير:

جهنَّم اسمٌ لنار اللّه الموقدةِ، والنَّارُ: اسمٌ للَّهيب الَّذي يبدو للحاسَّة، والسَّعيرُ اسمٌ للالتهاب منها، وهي من إطلاق المحلِّ وإرادة الحالِّ فيها، وهو النَّار أو السَّعير على سبيل المَجازِ المُرسَلِ؛ أي: حول جهنَّمَ أو سعيرها، وفي التّعبير بجهنّمَ إشارةٌ إلى ما يكون منهم في الدّنيا مِنَ التَّجَهُّم والعبوسِ حيالَ الأدلّةِ وعارِضِها عليهم.

انتظارُ العذاب مَجلَبَةٌ للغمِّ والحزن المُقيم

سرُّ التّقييد بالحال ﴿جِثِيًّا﴾:

سرُّ التّقييد بالحال إظهارُ المهانة والمذلّة زيادةً في تقبيحهم، ويحتمل أن يكون ﴿جِثِيًّا﴾ استعارةً لهؤلاء الأشقياء في حالة قعودهم على رُكبهم أذلّاءَ مُنتظِرين حسابَهم من هول ما يَرونَ، فقد شُبِّهَت حالتُهم تلك بحالة الأسير الذَّليل الَّذي يجلس على ركبتيه مُهانًا مُنتظِرًا ما يفعلُ به آسِرُه، وهي استعارة تمثيليَّة لهيئة هؤلاء الأشقياء، وما نالَهم من هول ما هم فيه.

بيان الحال المُهين تبشيع للعذاب وتهويل له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 146.

(2) الرّاغب، المفردات: (حول).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 222.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 275.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ٦٩﴾ [مريم: 69]

بيانٌ آخرُ من دلائل قدرته سبحانه في حُكم خلقه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المَقامُ مقامَ تهديدٍ لهؤلاء المُنكِرين البعثَ المُكذِّبين وقوعَه؛ ذكرَ سبحانَه مواقفَهم في يوم القيامة، فبعد أن أحضرَهم أذلَّاءَ مُهانين لعرض الحساب، وحشرَهم إلى جهنَّم، عاد فذكر المصيرَ المُفزِعَ لهؤلاء، فيُميِّزُ بعضَهُم من بعض، فالأشدُّ تكذيبًا وإنكارًا وتمرُّدًا خصَّه اللّه تعالى بأعظم العذاب وأشدِّ الهول وأفظع المنزل، فهذا ترقٍّ في بيانِ ما يكون لهم في الآخرة، وهذه الآية من تمام ما قبلَها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾: "(نزع) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قَلعِ شيءٍ، ونَزَعتُ الشَّيءَ مِن مَكانِه نَزعًا"[1]، والمعنى المحوريّ: اقتلاعٌ بجذْبٍ قويٍّ للشَّيءِ ممَّا يلتحمُ به، أو ينغمسُ هو فيه لاصقًا به[2]، ونَزَعَ الشّيءَ: جَذَبَهُ من مَقرِّه كنَزعِ القَوسِ عن كَبِدِه، ويُستعمَلُ ذلك في الأعراض، ومنه: نَزعُ العَداوةِ والمَحبَّةِ مِنَ القلب، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، ونَزَعَ فلانٌ كذا، أي: سَلَبَ، قال تعالى: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، والنَّزعُ عنِ الشّيءِ: الكَفُّ عنه، والنُّزوعُ: الاشتياقُ الشَّديدُ، ونازَعَتني نفسي إلى كذا[3].

2) ﴿شِيعَةٍ﴾: (شيع) أصلان، يدُلُّ أحدُهُما على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَةٍ، والآخرُ على بَثٍّ وإشادةٍ، فالأوَّلُ: قَولُهُم شَيَّعَ فُلانٌ فُلانًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).
(3) الرَّاغب، المفردات: (نزع).

عندَ شُخوصِه، ويُقالُ: آتيكَ غَدًا أو شَيعَهُ، أي: اليَومَ الَّذي بَعدَهُ، كأنَّ الثَّانيَ مُشَيِّعٌ للأوَّل في المُضيِّ[1]، و"والشّيعَةُ: مَن يَتقوَّى بِهِمُ الإنسانُ، ويَنتشِرونَ عنه"[2].

3) ﴿عِتِيًّا﴾: (عتي) "أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على استِكبارٍ، قالَ الخليلُ وغَيرُهُ: عَتا يَعتو عُتوًّا: استكبَرَ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾ [الفرقان: 21]، وكَذَلِكَ يَعتو عِتيًّا، فهو عاتٍ، والمَلِكُ الجَبَّارُ عاتٍ، وجَبابِرةٌ عُتاةٌ"[3]، والعُتوُّ: النُّبوُّ عنِ الطَّاعة، يُقالُ: عَتا يَعْتو عُتوًّا وعِتيًّا، وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]، أي: حالة لا سبيلَ إلى إصلاحِها ومُداواتِها، وقيل: إلى رياضةٍ، وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾، قيلَ: العِتيُّ هَهُنا مصدرٌ، وقيلَ: هو جمعُ عاتٍ، وقيلَ: العاتي الجاسي[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـهـديـدٌ آخـرُ يـنـتـظـر هـؤلاء العتاة المُنكِرين، لا طـاقـة لـهـم بردِّه

بعد أن بيَّنَتِ الآيةُ السَّابقةُ حالًا يتعلَّق بعموم المُنكِرين؛ بيَّنت هنا حالًا يتعلَّق برؤوسهم ورؤسائهم، ليفيقوا، ويفيقَ الأتباعُ ممَّا هم فيه؛ والمعنى: (لَننزِعنَّ، ونأخذنَّ من كلِّ فرقةٍ دينيّةٍ أو طائفةٍ من طوائف الغيِّ والفساد أعصاهم وأعتاهم وأكثرهم تكبُّرًا وتجاوزًا لحدود اللّه)، وهم قادتُهُم ورؤساؤُهُم في الشّرِّ".

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

مـهـانـة أُخـرى تـنـتـظـر هـؤلاء الـكـافـريـن المُنكِرين للبعث

حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ يفيد التّرتيبَ مع التَّراخي،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيع).
(2) الرَّاغب، المفردات: (شيع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتو).
(4) الرَّاغب، المفردات: (عتا).

وقد تأتي لِتَرتيبِ الأخبارِ لا لِتَرتيبِ المُخبَرِ عنهُ، وتجيءُ كَثيرًا لِتَفاوُتِ ما بينَ رُتبَتَينِ في قَصدِ المُتَكَلِّم[1]، فـ(ثُمّ) هنا لبيان أنَّ الخبرَ الّذي دخلَت عليه أعلى رتبةً في باب الوعيد والتّهديد مِنَ الّذي قبله.

دلالة اللّام على القسم المُقدَّر:

التّفاوتُ بين أهل الكفر في مستويات العقاب عدلٌ وإنصافٌ

اللَّام في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، وتُسمَّى المُؤذِنَة؛ أي: الدَّاخلة على أداة الشّرط بعد تقدُّم القسم لفظًا أو تقديرًا؛ لتؤذنَ أنَّ الجوابَ له لا للشّرط، أو للإيذان بأنَّ ما بعدها مبنيٌّ على ما قبلها، وتسمّى الموطِّئة؛ لأنَّها وطَّأتِ الجوابَ للقسم؛ أي: مهَّدته "وهذه حالةٌ أُخرَى مِنَ الرُّعبِ أشدُّ مِنَ اللَّتَينِ قَبلَهَا، وهي حالَةُ تمييزهم للإلقاءِ في دَرَكاتِ الجحيمِ على حَسبِ مَراتِبِ غُلوِّهم في الكُفرِ"[2].

الغرضُ من إسناد النّزع إليه تعالى:

اللّه ﷻ هو المسّببُ لأمر النَّزع، والملائكة هم فاعلوه

التّعبيرُ بإسناد النّزع إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ دون إسناده إلى ملائكته من قبيل المَجاز العقليِّ لعلاقة السّببيّة، فاللّهُ تعالى هو الآمرُ، والفاعلُ للنَّزع هم الملائكة، فهو سبحانه المسّببُ المُؤثِّرُ لأمر النَّزع، والملائكة هم فاعلوه، وفي الإسناد الّذي عليه التّنزيل مِن تهويل النّوع وتفخيمه ما فيه؛ لتَعْظُمَ الرَّحمةُ بهم بإعلامهم بغاية الغضب عليهم، وهم في الدّنيا، والسّورةُ مؤسَّسةٌ على رحمة الرّبِّ المُحسِن، واللّه أعلم.

نكتة تعاقب أكثر من مؤكِّد في ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾:

كثرة المؤكّدات للرّدّ على الشُّبهات، ولإلجام الخصم الألدّ

لَمَّا كان المقامُ مقامَ دَحْضِ فكرةِ إنكارِ البعثِ كثُرَتِ المؤكِّدات، ومعلوم أنَّه كلَّما ازداد الإنكار ازدادتِ المؤكِّدات نفيًا للمَزاعِم، وردًّا على الشُّبهات، وإلجامًا للخصم الألدِّ، وتتابُعُ المؤكِّدات في تقرير

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 146.

وقوع العقاب على المُنكِرين فيه انسجامٌ مع تتابُعِ الأدلّةِ على صحّة وقوع البعث.

دلالة المضارع ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾، والاستعارة فيه:

عزل الأشدّاء من كلّ شيعةٍ وإخراجهم، واستئصالهم وعدٌ مِنَ الله تعالى

التّعبيرُ بالمضارع يفيد التَّجدُّدَ والحدوثَ، وتجديدُ الآلام تعذيبٌ شديدٌ، والنّزعُ على هذا إخراجُ الشّيء من غيره وعزلُهُ عنه، كما يُقال: نزعَ السّلطانُ عاملَه، والمرادُ: عزلُه وإخراجُه من عمله، وهو هنا مستعارٌ استعارة تبعيَّة لإخراجهم بشدَّة؛ استُعير اسمُ المشبَّه به للمشبَّه، والنّزع للإخراج بشدَّة، ثمّ اشتُقَّ مِنَ النّزع (نزع) على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيَّة، والقرينة هنا عقليَّة لاستحالة نزعهم حقيقةً، وذلك مُبالَغةٌ في عزلهم وإخراجهم واستئصالهم، وصيغةُ المضارِعة تُلاحِظُ آثارَ النّزع، لا حقيقةَ النّزع؛ لأنَّ حقيقتَهُ لا يتأتّى فيها التَّجدُّد، اللّهمّ إلَّا أن يُلحَظَ تجدُّدُ النّزعِ باعتبار تكراره؛ لتعدُّد الأفراد الصَّادق عليهم ذلك، والله أعلم.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها:

تفاوت أهل النَّار في العذاب على حسب غُلوِّهم في الكُفر

﴿مِن﴾ في ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ للتّبعيض؛ لصلاحيَّة وقوع البعض موقعَها، وأن يعمَّ ما قبلها ما بعدها في حال حذفها، والدَّليل على بعضيَّتها قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ﴾ إذن المقصود بالنّزع هم هؤلاء المخصوصون دون كلِّهم.

دلالة التّعبير بـ ﴿كُلِّ﴾:

إحاطة قدرة الله تعالى للجميع

التّعبيرُ بـ﴿كُلِّ﴾ هو اسم موضوع لضمِّ أجزاء الشّيء على سبيل الإحاطة، والمرادُ انضمامُ ذات الشّيء وأحواله الخاصَّة به مفيدة معنى التَّمام، أو انضمام الذَّوات، وهنا تفيد الاستغراقَ، وهو لفظٌ يُلازِمُ الأسماءَ والإضافةَ مَعنًى، ولا تضافُ إلَّا إذا وقع للتّأكيد أو النّعت، والإضافةُ منويَّةٌ عند التَّجرُّد منها، وهي هنا واردة للعموم تعريضًا بالمخاطَبين، والإيماء إلى أنَّهم سرُّ الأصناف مِنَ الخلائق،

وفي ﴿كُلِّ﴾ إيماءٌ لهم إلى أنَّ هذه الكلّيّةَ لن تنفعَهم في الآخرة، وإن حقَّقَتْ لهم مرادًا في الدُّنيا.

نكتة التّعبير بـ ﴿شِيعَةٍ﴾:

قـدرة الله محيطة بالكلِّ

شيعةُ الرّجل: هُمُ الجماعةُ المائِلةُ إليه مِن محبَّتهم له، وأصلُها مِنَ الشّياع، وهي الحطبُ الدّقّاق الّتي تُجعلُ مع الجزل في النّار لِتشتعلَ، كأنَّه يجعلُها تابِعةً للحطب الجزل لِتُشرقَ، "والطّائفة في الأصل للجماعة الّتي من شأنها الطّوف في البلاد للسّفر، ويجوز أن يكون أصلُها الجماعةَ الّتي تستوي بها حَلقةٌ يُطافُ عليها، ثمّ كَثُرَ ذلك حتّى سُمّيَت كلُّ جماعةٍ طائفةً، والطّائفةُ في الشّريعة قد تكون اسمًا لواحد"(1).

"أمَّا الفرقةُ فهي الجماعةُ المتفرِّدةُ مِنَ النَّاس"(2)، وعليه ورد قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التّوبة: 122]، فصار لفظُ الشّيعة شاملًا لكلٍّ من مفهومَي الفرقة والطّائفة، فورد استعمالُه هنا من قبيل إطلاق الأصل دون فرعه، وبهذا نَعرف حُسْنَ مَوقِع ﴿كُلِّ﴾ بدخولها على هذا اللّفظ.

تنوُّع إعراب ﴿أَيُّهُمۡ﴾، وأثره على المعنى:

جهنَّمُ على الرَّصد لكلِّ مُتجبِّرٍ مُتقوٍّ مُنكِرٍ لِما أخبر الله تعالى به

في إعراب ﴿أَيُّهُمۡ﴾ أقوالٌ:

الأوّل: أنَّها مفعولٌ به مبنيٌّ في محلِّ نصبٍ، وذلك على أنَّ "﴿أَيُّهُمۡ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (ما) و(من)، والغالِبُ أنْ يُحذَفَ صَدرُ صِلَتِها، فتُبنى على الضَّمِّ، وأصلُ التَّركيبِ: أيُّهُم هوَ أشدُّ عُتيًّا على الرّحمن"(3).

الثّاني: أنَّ ﴿أَيُّهُمۡ﴾ وما بعدها جملةٌ في محلّ نصب مَقولِ قولٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296.

(2) الرّاغب، المفردات: (فرق).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 146.

مَحذوفٍ، وهي استفهاميّة، و﴿أَيُّهُمۡ﴾ هنا مبتدأٌ، و﴿أَشَدُّ﴾ خبرُه، والجملةُ مَحكيّةٌ بقولٍ مُقدَّرٍ، والتّقدير: (لَنَنزِعَنَّ من كلِّ شيعةٍ المقولِ فيهم: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ﴾)، وقوّى الخليلُ تخريجَه بقول الشّاعر:

ولقد أَبَيتُ من الفتاةِ بمنزلٍ *** فأَبَيتُ لا حَرِجٌ ولا مَحرومُ

وقال: تقديره: (فأَبيتُ) يُقال فيَّ: لا حَرِجٌ ولا محرومٌ.

الثّالث: أنّها موصولةٌ، ولكنّها جملةٌ استئنافيّةٌ بيانيّةٌ، و(أيُّ) خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، فيكون النَّزعُ واقعًا على ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾، كقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ [مريم: 50]؛ أي: لَنَنۡزِعَنَّ بعضَ كلِّ شيعةٍ، فكأنَّ قائلًا قال: مَنۡ هم؟ فقيل: (أيُّهم أشدُّ عِتيًا)، فجعل ﴿أَيُّهُمۡ﴾ موصولةً أيضًا، ولكن هي في قوله خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هُمُ الّذين هُم أشدُّ"[1]، و"إذا كان الاستئنافُ بيانيًّا واقعًا في جواب: مَنِ المنتزَعون؟ احتيج إلى التّأويل، كأن يُقال: المراد الّذين يقعون في جواب أيُّهم أشدُّ؟ أو نحو ذلك، وإذا كانت (أيّ) على تقدير الاستئناف ووقوع الفعل على ما ذُكِرَ موصولةً؛ لم يحتج إلى التّأويل إلّا أنَّ في القول بالاستئناف عدولًا عنِ الظّاهر من كون الكلام جملةً واحدةً إلى خلاف الظّاهر من كونه جملتين"[2]، والضّميرُ في ﴿أَيُّهُمۡ﴾ على كلِّ الأحوال: إمّا أن يكون راجعًا إلى قوله: ﴿شِيعَةٍ﴾؛ والمعنى: (مِنَ الّذين تشايعوا أيُّهم أشدُّ)، كأنّهم يتبادرون إلى هذا، أو التّقدير: (لَننزِعنَّ من كلِّ فريقٍ يشيِّع أيُّهم)، أو يكون راجعًا إلى قوله: ﴿أَشَدُّ﴾؛ أي: (أيُّهم الّذي هو أشدُّ عِتيًّا).

الله تعالى يميِّز من كلِّ طائفةٍ منهم أعصاهم فأعصاهم، فيطرحهم في النّار

دلالة التّعبير بالتّفضيل ﴿أَشَدُّ﴾:

"في ذكر الأشدِّ تنبيهٌ على أنّه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان، وعلى تقدير تفسير الإنسانِ بالكفرة؛ فالمعنى: إنّا نُميِّزُ

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 619، وابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 72 وما بعدها.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 121.

من كلِّ طائفةٍ منهم أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فنَطرحُهم في النَّار على التّرتيب، أو نُدخِلُ كُلًّا منهم طبقتَها اللَّائقةَ به"(1)، فقد "بَيَّنَ تعالى أنَّهُ يَنزِعُ مِن كُلِّ فِرقَةٍ مَن كانَ أشدَّ عُتوًّا، وأشدَّ تمرُّدًا ليعلمَ أنّ عذابَهُ أشدُّ، ففائدةُ هذه التَّمييزِ التَّخصيصُ بشدَّةِ العَذابِ لا التَّخصيصُ بأصلِ العذابِ، فلذلكَ قالَ في جَميعِهم: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾، ولا يُقالُ: أَولَى إلَّا مَعَ اشتِراكِ القَومِ في العذابِ"(2)، فقولُه: ﴿أَشَدُّ﴾ مِن مظاهر رحمته في سياق العذاب.

المستحقّون للنَّزع استغاثَتِ الأرضُ من تجبُّرهم وعتوِّهم، فاستحقّوا العذاب

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ في الآية:

﴿عَلَى﴾ حرفٌ يفيد الاستعلاءَ حقيقةً أو مجازًا، والاستعلاءُ هنا مجازيٌّ، كأنَّهم في تجبُّرهم وعتوِّهم اعتلَوا فيه مكانًا تجاوز الحدَّ، فملأَ جنبات الأرض حتَّى وصل إلى مكان العلوِّ عند الرّحمن ﷻ، فاستُعيرت (على) الحرفيَّة من مَوضِعها الحقيقيِّ، وهو الاستعلاء لـ (في) الحرفيَّة الظَّرفيَّة الدَّالّة على التَّمكُّن والاستغراق في الجبروت والعتوِّ على سبيل الاستعارة.

واسع الرَّحمة بالخلق حَقيقٌ بالشُّكرِ لَهُ والإحسانِ لا بالكُفرِ بِه والطُّغيانِ

سرُّ إيثار الاسم الأحسن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

ذكَرَ التّنزيلُ الحكيمُ صفةَ الرّحمن هُنا؛ لِتَفظيعِ عُتوِّهم؛ لأنَّ شَديدَ الرَّحمة بالخلق حَقيقٌ بالشُّكرِ لَهُ والإحسانِ لا بالكُفرِ بِهِ والطُّغيانِ(3)، ففي التّعبير بالرّحمن تنبيهٌ على أنّه تعالى قابَل عتوَّهم وإنكارَهم البالغ للبعث وغيره في الدّنيا بالرّحمة؛ إحسانًا إليهم، وهذه الرّحمة إنَّما هي عرضُ الأدلّة عليهم على جهة التّكرار، والصّبر عليهم، مع التَّلطُّف معهم؛ ففي الرّحمن تذكيرٌ لعموم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 275.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 146.

المخاطَبين بأنَّ هذا العقابَ الأخرويَّ سبقَه في الدّنيا عرضُ أدلّةٍ وتلطُّفٌ وإحسانٌ وصبرٌ، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى.

الغرض من تقديم الجار والمجرور:

تقديمُ ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على ﴿عِتِيًّا﴾ للتّخصيص بكون طغيانهم وعتوِّهم على الرّحمن ﷻ، وهي أشدُّ مصيبةً، وأنكى فضيحةً لِمَن يرتكبها.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ٧٠﴾ [مريم: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خالقُ الإنسان أعلمُ بمصيره

لَمَّا كانَ هذا النَّزعُ والتَّمييزُ في الآية السَّابقة مُجمَلًا، فقد يَزعُمُ كُلُّ فريقٍ أنَّ غيرَهُ أشدُّ عِصيانًا، احترسَ النّظمُ الحكيمُ، فأعلَمَ اللّٰه تعالى أنَّهُ يَعلَمُ مَنْ هو أولَى مِنهُم بمِقدارِ صِليِّ النَّارِ، فإنَّها دَرَكاتٌ مُتَفاوِتَةٌ(1)، فهذه الآية احتراسٌ بلاغيٌّ، وهي مِن تمام ما قبلها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوْلَىٰ﴾: (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُربٍ، مِن ذلكَ الوَليُ: القُربُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعدَ ولي، أي: قُربٍ، وجَلَسَ ممَّا يَليني؛ أي: يُقارِبُني، وكُلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخَرَ فهو وليُّهُ، وفلانٌ أولى بِكذا؛ أي: أحرى به وأجدَرُ، والبابُ كُلُّهُ راجعٌ إلى القُربِ(2)، "والوِلايةُ: النُّصرةُ، والوَلايةُ: تَوَلّي الأمرِ"(3).

2) ﴿صِلِيًّا﴾: (صلى) أصلانِ: أحدُهُما النَّارُ وما أشبَهَها مِنَ الحُمَّى، والآخرُ جِنسٌ مِنَ العِبادَةِ، فأمَّا الأوَّلُ فقولُهُم: صَلَيتُ العودَ بالنَّارِ، والصَّلَى صَلَى النَّارِ، واصطَلَيتُ بالنَّارِ، والصِّلاءُ: ما يُصطَلَى بِه، وما يُذكَى به النَّارُ، ويوقَدُ، وأمَّا الثَّاني فالصَّلاةُ، وهي الدُّعاءُ(4)، "ويقال: صَليَ بالنَّار وبكذا، أي: بُلي بها، واصطَلى بها، وصَلَيتُ الشَّاةَ: شَوَيتُها، وهي مَصليَّةٌ، قال تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: 64]، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: 70]، قيل: جمعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(3) الرَّاغب، المفردات: (ولى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلى).

صالٍ"[1]، "وقالوا: صَلى ظهرَهُ بالنَّار أدفأه، والاصطلاء: الاستدفاء، وكلُّ ذلك طيب أثناء، أي: مِنَ الرّخاوة في المعنى الأصليّ"[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا يستحقُّ صِليَّ النَّار إلَّا أهلها

المُنتزَعون هم أولى الشّيع؛ إذ ضلّوا، وأضلّوا لأجل لذَّات الدُّنيا وشهواتها، فصاروا أولى بالصِّلّيّ بها، فيُخَصّون بعذابٍ مُضاعَفٍ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّرتيب في ﴿ثُمَّ﴾ العاطفة:

الله تعالى أعلم بـمَن هـم أولى بصِليّ النَّار

حرف ﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيبِ مَعَ التَّراخي، وقد تأتي لِتَرتيبِ الأخبار، لا لِترتيبِ المُخبَرِ عنهُ، وقد تَجيءُ ﴿ثُمَّ﴾ كثيرًا لِتَفاوُتِ ما بَينَ رُتبَتَينِ في قصدِ المُتكلِّم، فرتَّبَ علمَه تعالى بمَن هم أولى بصِليِّ النَّار مِنَ المُنكِرين البعثَ المُكذِّبين به مع طغيانهم، وما هم فيه من جبروتٍ وعلوٍّ على تخصيصهم بالعذاب المُضاعَفِ الّذي يستحقّونه، فمضمونُ هذه الآية أعلى رتبةً ممَّا قبلَه؛ لأنَّه أخصُّ من جميع ما قبله في نفس السّياق، فالأخبارُ في هذا السّياق واردةٌ على جهة التَّرَقّي.

دلالة اللّام في ﴿لَنَحْنُ﴾:

عِلمُ الله بالأحقِّ بصِليِّ النَّار مُؤكَّدٌ

اللّام هنا مؤكِّدة، وهي زائدة في أوّل الكلمة، وتسمَّى لامَ الابتداء، وهي مُؤذِنَةٌ بأنَّه المحكوم عليه، والتّعبيرُ بها لتأكيد علمه ﷻ بمَن هم الأولى بصِليِّ النّار، كما أفاد التّأكيدُ دفعَ ما قد يقع بسبب الأوهام من عدم علمِه عزَّ سلطانه بهذا الأولى، والتّوكيدُ باللّام؛ لعظمة معنى الجملة في نفسه أيضًا.

دلالة التّفضيل: ﴿أَعْلَمُ﴾ مسندًا:

التّفضيلُ على طائفةٍ لا يقتضي مشاركةَ كلِّ فردٍ، فإذا قُلتَ: هو

(1) الرّاغب، المفردات: (صلا).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلو - صلى).

أشجعُ العرب؛ فلا يَلزَمُهُ وجودُ الشّجاعة في جميع أفرادهم، وعلى هذا يكون في الآية إيماءٌ إلى التّجاوز عن كثير، حيثُ خُصَّ بالعلم الأعلم[1]، وهو (أفعل) تفضيل على غير بابه، فإنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ، وغيره لا يعلمُ، والتّعبيرُ بصيغة التّفضيل لزيادة لفت المُتلقّين إلى معنى الجملة الّتي جرت فيه؛ لعظمته في بابه.

عِلمُ الله تعالى علمٌ تامٌّ وشاملٌ لجميع الأشياء

دلالة الباء في: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾:

تسلَّطَت صيغةُ التّفضيل على الموصول بالباء؛ للاستدلالِ على علمه تعالى بالمذكور بإحاطته به إحاطةً تامَّةً كاملةً شاملةً: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]؛ والمعنى: "صَلِيُّهم أولى بالنَّار، كقولهم: هو أشدُّ على خصمه، وهو أولى بكذا"[2]، فالباء هنا للإلصاق، ومعناه: اختلاطُ الشّيء بالشّيء، والمرادُ: أعلمُ بألصق هؤلاء بالصّليّ، أو المُلاصقين لهذا العذاب.

الله تعالى أعلمُ بألصق هؤلاء بالصِّليّ

الغرض مِنَ التّعبير بـ﴿بِٱلَّذِينَ﴾:

التّعبيرُ بالموصول لزيادة تقرير الغرض المَسوق له الكلامُ، وهو تقريرُ علمِه ﷻ بمَن هم أولى النَّاس بصِليِّ النَّار وتعذيبها، والمراد: المنتزَعون باعتبار التّرتيب، وهذا التّقريرُ حاصلٌ بصلة الموصول، مِن جهة أنَّ معنى الصّلة يكون معلومًا لا خلاف فيه بالنّسبة للمتلقي إلى المُتلقّي، وهو هنا بالنّسبة للّه إلى اللّه تعالى، وإنْ أطلعَ اللّهُ مَن أراد أن يُطلِعَه على ذلك علمه، وآمنَ به، ورآه العدلَ المحضَ.

تقرير علمه ﷻ بمَن هم أولى النَّاس بصِليّ النَّار وتعذيبها

دلالة التّعبير بضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾:

﴿هُمۡ﴾ ضمير فصل مبتدأ، و﴿أَوۡلَىٰ﴾ خبره، والجملة صلة الموصول، وجاء هنا للتّأكيد على كون هؤلاء أولى بصِليّ النّار واختصاصهم بها، كما أفاد ورودُهُ أنَّ ما بعده، وهو ﴿أَوۡلَىٰ﴾ خبر له

الله تعالى لا يظلِمُ النَّاس شيئًا، وإنَّما يعاقبهم بما كسبت أيديهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 119.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 5/ 520.

لا صفة، والاحتياطُ للمعنى بضمير الفصل المُمَكِّنِ له في النّفس: مِن آثار كمال علمه وتمامه.

معنى الباء في ﴿بِهَا﴾ ودلالتها:

أشـدَّاءُ الكفَّار يختلطون بها اختلاطًا لا تفارُقَ فيه

الباء هنا للإلصاق لاختلاطهم بها؛ إذ إنَّ أصلَ الإلصاق اختلاطُ الشّيءِ بالشّيء حقيقةً أو مجازًا، والأوَّل هو الأكثر فهم يختلطون بها اختلاطًا لا تفارُقَ فيه، فتحيط بهم من جميع جوانبها، ومجيءُ هذه الباء بعد الباء في ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ يحقِّقُ ما يُسمّى في علم البديع بمراعاة النّظير.

سرُّ التّقييد بـ ﴿صِلِيًّا﴾:

الصّالِيّ بالنّار جزاء هؤلاء المُنتزَعين إلى جهنّمَ

قوله: ﴿صِلِيًّا﴾ "تمييز، وقيل: ﴿صِلِيًّا﴾ جمع صالٍ، فانتصب على الحال، وفي التّمييز فائدةٌ، وهي التّخصيصُ بشدّة العذاب، لا التّخصيصُ بأصل العذاب لاشتراكهم فيه"[1]، والتّعبير بها تحديدٌ دقيقٌ لجزاء هؤلاء المُنتزَعين إلى جهنَّمَ، المُنكِرين البعثَ، المُكذِّبين به، فـ﴿صِلِيًّا﴾ هو المقصود بالأولى، فهو مَناطُ الفرق بين جزائهم وجزاء غيرهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 132.

﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا ٧١﴾ [مريم: 71]

يومَ الجمع الأكبر ينجو مَن اتَّقى، ويسقط مَن غوى

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ ما يقوله الإنسانُ عنِ البعث، وردَّت عليه بالدَّليل المنطقيِّ الَّذي لا يُردُّ، وقررَّت بالقسم والتّوكيد الحشرَ والجزاءَ، ثمَّ رجعت مِنَ الخصوص إلى العموم، فبيَّنت هنا أنَّ الجمعَ سيشهدون العرضَ الرّهيبَ لينجو المُتّقون، ويُعذَّبَ الظَّالمون، وستظهر أمورٌ، وتتكشف حقائقُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَارِدُهَاۚ﴾: (ورد) أصلٌ يدل على الموافاة إلى الشَّيءِ، وهو خِلافُ الصَّدَرِ، ويُقالُ: ورَدَتِ الإبلُ الماءَ تَرِدُهُ وِردًا، والوِردُ: وِردُ الحُمَّى؛ إذا أخَذَتْ صاحِبَها لِوَقتٍ[1] والوُرودُ أصلُه: قَصدُ الماءِ، ثمَّ يُستعمَلُ في غيره، يُقالُ: ورَدْتُ الماءَ أرِدُ وُرودًا، فأنا وارِدٌ، والماءُ مَورودٌ، وقد أورَدْتُ الإبلَ الماءَ، والوِردُ: الماءُ المُرَشَّحُ للوُرودِ، واستُعمِل في النَّار على سبيل الفظاعة، والوارِدُ: الّذي يتقدَّمُ القومَ فيَسقي لهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾[2].

2) ﴿حَتۡمًا﴾: "الحَتمُ: القضاءُ المُقدَّرُ، والحاتمُ: الغرابُ الّذي يُحتِّمُ بالفراقِ فيما زعموا"[3] والحاتمُ: الَّذي يَقضي الشَّيءَ، فأمَّا تَسميَتُهُمُ الغُرابَ حاتمًا؛ فمِنْ هذا؛ لأنَّهُم يَزعُمونَ أنَّهُ يَحتِمُ بالفِراقِ، وهو كالحُكم منهُ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورد).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ورد).
(3) الرَّاغب، المفردات: (حتم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حتم).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

لَمَّا ذَكَرَ التّنزيلُ الكريمُ انتزاعَ الَّذينَ هُم أوْلَى بالنَّارِ مِنْ بَقيَّةِ طَوائِفِ الكُفرِ عَطَفَ عليه أنَّ جَميعَ طَوائِفِ الشِّرك يَدخُلونَ النَّارَ، دَفعًا لِتَوَهُّم أنَّ انتزاعَ مَن هوَ أشدُّ على الرّحمن عتيًّا هوَ قُصارى ما يَنالُ تلكَ الطَّوائِفَ مِنَ العَذابِ، بأنْ يَحسَبوا أنَّ كُبَراءَهُم يَكونونَ فِداءً لَهُم مِنَ النَّار أو نَحوَ ذلكَ، أي: وذَلِكَ الانتزاعُ لا يَصرِفُ بَقيَّةَ الشّيَعِ عَنِ النَّارِ، فإنَّ اللّه أوجَبَ على جَميعِهمُ النَّارَ[1].

الدّنيا للإنسان دوراتٌ محدودةٌ، والآخرةُ عوداتٌ محمودةٌ أو مذمومةٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِن﴾:

الواو للعطف، عطفت جملة ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ على ما قبلها، وقد تكون للقسم، وقولُه: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ قَسَمٌ، والواو تَقتَضيه، ويُفَسِّره قولُ النّبيِّ ﷺ: "مَنْ ماتَ له ثلاثٌ مِنَ الولد لم تَمَسَّه النَّارُ إلَّا تَحِلَّة القسم"[2].

خطاب شديدة اللّهجة يستدعي النَّظر والتَّأمُّل

بلاغة الاعتراض بجملة ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾:

هذه الجملة وما بعدها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ مُعترِضةٌ بين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ وجملة: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فبعد حشرِ المُنكِرينَ المُكذِّبين، وإحضارِهم حول جهنّمَ، وانتزاع الأشدِّ عُتوًّا من كلِّ شيعة، وإصلائهم حول جهنَّمَ الّتي هي أَوْلى بهم، ذكَر ورودَهم النَّارَ لينجوَ المتّقون، ويهلكَ الظَّالمون، وبيَّن أنَّ الكافرين إذا تُليت عليهم الآياتُ ظنّوا أنّهم أنجى الفريقين، وأنَّ مقامَهم ومَنزِلَهم خيرٌ من مَنازِل المُتّقين، وفي هذا الاعتراض زيادةُ تقرير هول ما يكون فيه المُنكِرون للبعث.

الكافرون إذا تُليَت عليهم الآياتُ ظنّوا أنّهم أنجى الفريقَين

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 145.

(2) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 622، 621.

لا تَحسَبوا أيُّها المشركون أنْ تَنفَعَكُم شَفاعَةُ شيَعِكُم أو تَمنَعَكُم عِزَّةُ شيَعِكُم شيئًا

الغرض مِنَ التّعبير بالالتفات في الآية:

الغرضُ مِنَ الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ "إظهارُ مزيد الاعتناء بمضمون الكلام"[1]، "فالخِطابُ في ﴿وَإِن مِّنكُمۡ﴾ التِفاتٌ عَنِ الغَيبَةِ في قولِه: ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ و﴿لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ﴾ عَدلٌ عَنِ الغَيبَةِ إلى الخِطابِ، ارتقاءً في المواجهةِ بالتَّهديدِ، حتَّى لا يَبقى مَجالٌ للالتِباسِ المُرادِ مِن ضَميرِ الغَيبَةِ، فإنَّ ضميرَ الخِطابِ أعرَفُ مِن ضميرِ الغَيبَةِ، ومُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: وإنْ مِنهُم إلَّا وارِدُها"[2].

ورودٌ مَحتومٌ، لا شبهةَ فيه ولا شكَّ في وقوعه

الغرض مِنَ التّعبير بأسلوب القصر:

القصرُ في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ قصرٌ موصوفٌ ﴿مِّنكُمۡ﴾ على صفة ﴿إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ قصرًا حقيقيًّا، طريقه النّفي والاستثناء، وهو قصر تعيين لتخليص المخاطَبين من شبهة الشَّكِّ في عدم ورود هذه النَّار، ولو مرورًا بها مع تعيُّن قصر الحُكم عليها، و﴿وَإِن﴾ هنا نافية بمعنى (ما) أو (ليس)، وهي داخلةٌ على الجملة الاسميّة والفعليّة، أمَّا ورودها هنا مع الجملة الاسميَّة فالتّقدير عليه: (واللّه ما أحدٌ ثابِتٌ منكم إلَّا واردٌ جهنَّم).

ورودُ النَّار مَوقِفٌ يُخيفُ البَرَّ والفاجر

مَرجِعُ كاف الخطاب في ﴿مِّنكُمۡ﴾:

الضّميرُ في قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ يجوز فيه أمران: **الأوّل:** أن يكون بمعنى ضمير الغيبة (هم)؛ والمعنى: (وإنْ منهم)؛ أي: الكافرين؛ لاتِّصال الكلام بما قبله، **والثّاني:** أنَّ الضّميرَ للخطاب، والخطاب عامٌّ، والكلام مُستأنَفٌ، وعلى ذلك فلا يبقى بَرٌّ، ولا فاجرٌ، إلَّا ويَرِدُ النَّارَ.

التّعميمُ إشعارٌ بالرّهبة

الغرض من حذف متعلّق لـ﴿مِّنكُمۡ﴾:

المتعلِّقُ محذوفٌ، وتقديره: (أحد)؛ والمعنى: (ما منكم أحدٌ ثابتٌ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 121.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 146.

إلَّا وهو يَرِدُ جهنّمَ)، والنّفسُ تذهبُ في تقدير المحذوف كلَّ مَذهَبٍ بما يُدخلُ عليها المهابَةَ والرّهبةَ، وفيه مِنَ الشّمول والعموم ما فيه.

المراد بالضّمير في ﴿وَارِدُهَاۚ﴾، وأثره على المعنى:

ولو كان التّعبيرُ عنها بضمير الغَيبة ينبغي أن تكون حاضرةً في الذِّهن لنفرَّ منها

إن عادَ الضّميرُ إلى جهنّمَ يكون المرادُ بضمير الخطاب في ﴿مِّنكُمۡ﴾ النَّاسَ جميعًا، فقد ورد عَن أبي سُمَيَّةَ، قالَ: اختَلَفنا في الوُرودِ، فقالَ بَعضُنا: لا يَدخُلُها مُؤمِنٌ، وقالَ بَعضُنا: يَدخُلونَها جَميعًا، ثُمَّ نُنَجّي الَّذينَ اتَّقَوْا، فلَقيتُ جابِرَ بنَ عَبدِ اللّه، فذكَرتُ له، فقالَ - وأهوَى بأُصبُعِه إلى أُذُنَيه -: صُمَّتا إنْ لَم أكُنْ سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ، يقولُ: "لا يَبقَى بَرٌّ ولا فاجِرٌ إلّا دَخَلَها، فتَكونُ على المُؤمنِ بَردًا وسلامًا، كما كانَت على إبراهيمَ، حتَّى إنَّ للنَّارِ ضجيجًا من بَردِها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾"[1]، وإنْ عاد الضّميرُ إلى الصّراط يكون المرادُ كلَّ النَّاس أيضًا، فينجو المؤمنُ، ويسقط الكافرُ، والرَّاجحُ الأوّلُ لسبق ذكره.

سرُّ التّعبير باسم الفاعل ﴿وَارِدُهَاۚ﴾:

ورودٌ وبعدَهُ إمّا نجاةٌ وحُسنُ مصير وإمّا بقاءٌ وسوءُ مصير

الاسمُ في أصل استعماله دالٌّ على الثّبوت والدّوام والاستمرار، أمّا الفعلُ فهو للدّلالة على التّجدُّد والحدوث، والمرادُ: أن ورودَهم ثابتٌ مُستقرٌّ لا يتجدَّدُ، فإمّا نجاةٌ وحُسنُ مصير، وإمّا بقاءٌ وسوءُ مصير.

دلالةُ المجاز في ﴿وَارِدُهَاۚ﴾:

مرور لرؤية مصير أهل النَّار ومآلهم فيها

استُعير الورودُ بمعنى الدُّخول أو المرور بورود الإبل مَوارِدَ المياه لتنهلَ منها، والقرينةُ عقليّةٌ لاستحالة الشّربِ حقيقةً؛ "إذِ الوُرودُ حَقيقَتُهُ الوُصولُ إلى الماءِ للاستِقاءِ، ويُطلَقُ على الوُصولِ مُطلَقًا مَجازًا شائِعًا، وأمَّا إطلاقُ الوُرودِ على الدُّخولِ فلا يُعرَفُ إلَّا أنْ يَكونَ مَجازًا غَيرَ مَشهورٍ، فلا بُدَّ لَهُ مِن قَرينَةٍ"[2]، وفي الاستعارة

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 433.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 145.

إشعارٌ بحَرِّ ذلك اليوم الّذي يكون فيه الورودُ، وهذا مِن هول القيامة وفخامة العقاب فيه.

سرُّ التّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

ما لا يتطرَّقُ الخُلفُ إليه يجري مَجرَى الواجب

المرادُ بقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ﴾ أنَّه بمَنزِلة الواجبِ في تحتُّم للوقوع؛ إذ لا يجبُ على اللّه تعالى شيءٌ عند أهل السُّنَّة ﴿مَّقْضِيًّا﴾ قُضيَ بوقوعِه البَتَّة، فقد كان قَسَمًا واجبًا، قيلَ: والمرادُ منه إنشاءُ القسم، وقيل: قد يُقالُ: إنَّ على ربِّك المقصودُ منهُ اليَمينُ، ويجوز أن يكون المرادُ بهذه الجملة القسمَ، كقولهم: عزمتُ عليك إلَّا فعلتَ كذا انتهى[1]، ووعد اللّه تعالى لَمّا لم يتطرَّقِ الخُلف إليه جرى مَجرَى الواجب.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾:

التّقديم للتّخصيص؛ أي: عليه لا على غيره لقدرته ﷻ على أن يورِدَهم، ثمّ يفصِلُ بين مُحسِنهم ومُسيئهم، ولا يقدر على ذلك أحدٌ غيره على الإطلاق، فخصَّ بذلك.

نكتة التّعبير باسم الرَّبِّ في غير الإنعام:

تعذيبُ المسيء نعمةٌ للمحسن وإشعارٌ له بالتَّمسُّك بالنّعمة

يُطلَقُ التّعبير باسم الرَّبِّ ﷻ في حالة النّعمة تذكيرًا بموجِدِها، والمُحسِنِ بها ﷻ، وفي النّقمة؛ لأنَّ التّخويفَ منها نعمةٌ، وهنا إلفاتٌ للعقول بأنَّ الرَّبَّ الموجِدَ له ﷺ، المُحسنَ إليه بإنجاء أمّته مِنَ العذاب، هو كذلك الّذي يُعذِّبُ ويورِدُ، ثمّ يمنُّ على مَن أراد له النَّجاةَ فينجو، ويُبقي مَن يستحقُّ البقاء.

الغرض من تنكير الخبر ﴿حَتْمًا﴾:

الحتمُ قضاءٌ مقضيٌّ لا رجعةَ فيه، ولا تبديلَ، وفي التّنكير تهويلٌ وتخويفٌ من قضاء اللّه، وهو أردعُ للكفّار والعصاة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 122.

سرُّ التّقييد بالوصف: ﴿مَّقۡضِيّٗا﴾:

الوصف بـ ﴿مَّقۡضِيّٗا﴾ هنا من باب الإيغال، فلمَّا قال ﷻ: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا﴾ فقد تمَّ المعنى المراد بأنَّ الورودَ أمرٌ واجبٌ مقطوعٌ به، فلم يكتفِ التّعبير بذلك فقال سبحانه: ﴿مَّقۡضِيّٗا﴾، فجاء التَّعبير هنا بكلام مُتَّصلٍ بالمعنى الّذي أُريد، وهو قوله ﷻ: ﴿مَّقۡضِيّٗا﴾؛ أي: لا بُدَّ من إيقاعه، فزادت قوّةُ المعنى وحسُنَ مرادُ الكلام، فإذا كان الورودُ أمرًا واجبًا مقطوعًا به، فما بالك لو كان مَقضيًّا بوقوعه؟ وفي التّقييد بالوصف أيضًا زيادةُ ترهيبٍ ومزيدُ تخويفٍ، وقد جعل الوعيدَ "كالواجب في تحتُّم وقوعه والمقصود المبالغة؛ إذ لا يجب على اللّه شيء عند أهل السُّنَّة"[1]، فـ"وَعدُ اللّه تعالى لَمَّا استَحالَ تَطَرُّقُ الخُلفِ إليه جَرى مَجرَى الواجِبِ"[2].

اللّه تعالى عالِمٌ سلفًا بما يستحقُّه الواردون

وكلُّ ذلك الإبلاغ في تقرير الوعيد والتّهديد والعقاب والجزاء إنَّما جاء لإبلاغ مُنكِر البعث أنّ ما أنكره واقعٌ عليه، مُصيبُه حتمًا، وهو مواجهةُ هذا الإبلاغ المُنكَر المدحوض بذلك الإبلاغ الحقّ المُؤيَّد؛ ليكونَ شهادةً لِمَن كان له قلبٌ، أو ألقى السّمعَ، وهو شهيد.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الورود والدّخول والوصول:

المعنى المحوريّ للورود يدور حول بلوغ الماء أو الشّيء تدلّيًا أو تقدُّمًا إليه: كورود الماء؛ أي: الوصول إليه وانتهاء السّير عنده، وكالحضور في المكان، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ الإجماع على أنَّ الورودَ ليس بدخولٍ؛ - أي: حتمًا -، وأُضيف لهذا:

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 174.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 245.

أنَّ القدْرَ المُستَيقَنَ من معنى الاستعمالات اللّغويّة للتّركيب هو مُجرَّدُ الوصول إلى المكان، "والمُستعمَلَ لمعنى دخول الماء هو الشّروعُ لا الورودُ"(1).

والمعنى المحوريّ للدّخول: "ولوجُ الشّيء أو تغلغلُه في أثناء شيء، كذلك اللّحم، والكلأ، والرّيش، والعصافير في ما وُصِفت به"(2).

والمعنى المحوريّ للوصول "اشتباكُ شيءٍ بشيءٍ؛ أي: ضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ حتّى يعلقُه، كالأرض المُمتدّة، والأوصال يمتدُّ بها الجسم"(3)، وبهذا يتبيَّن أنَّ التّعبيرَ بالورود هو ما يناسبُ الحالَ ودلالةَ المقام، ويرشِّحُ عدمَ دخول الفئة المُؤمنة إلى جهنَّمَ، كما قرر ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101].

الحتم والفرض:

المعنى المحوريُّ للحتم "تفتُّت المُتماسِك ظاهرًا على ضعف قِطعًا مُنفصِلةً محدودةَ الامتداد: كتكسُّر الزّجاج، والحتمُ: القضاء من ذلك ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ قضاءً قضاه، وحَكَمَ به، وفصَّلَ القولَ فيه"(4).

والمعنى المحوريّ للفرض "قَطعٌ غائرٌ غيرُ نافذٍ في جِرم غليظٍ يرسَخُ فيه شيءٌ، كما يستقِرُّ الوَتَرُ والنِّقسُ في الفُرضة ... ، ومن معنى القطع: الفريضةُ: الحصَّةُ المفروضةُ على إنسانٍ بقَدْرٍ معلوم ... ، ومِنَ الأصل يُؤخَذُ فرضُ الشّيء بمعنى إلزامِه"(5)، والسّياقُ يأبى هنا استخدامَ كلمةِ الفرض لِما فيها من معنى الإلزام، وليس على اللّه إلزام.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دخل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وصل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حتم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرض).

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ٧٢﴾ [مريم: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أهـلُ التّـقـوى نـاجـون، وأهـلُ الظُّلم في النَّار باقون

بعد أن ذكر ﷻ أنّ الكلَّ سيَرِدُ النَّارَ ورودَ دخولٍ أو مرورٍ عاد البيان القرآني هنا؛ ليُبيِّن لنا أنَّه سبحانه سيفصِلُ بين العباد في أمر ذلك، فمَن كان من أهل النَّجاة مرَّ أو دخلَ، ليرى ما ينتظر الأشقياءَ فيها، ثمَّ تكون بردًا وسلامًا عليهم، أمَّا الأشقياء الظَّلمة فهم باقون فيها يصطلون حرَّها ولهيبها، لا نجاةَ لهم منها البتَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُنَجِّي﴾: (نجو) أصلانِ، يدُلُّ أحدُهُما على كَشطٍ وكَشفٍ، تقول: نَجَوتُ الجلدَ أنجوهُ - والجِلدَ نَجًا - إذا كَشَطتَهُ، ونَجا الإنسانُ يَنجو نَجاةً، ونَجاءً في السُّرعة؛ وهو مَعنى الذَّهابِ والانكشافِ مِنَ المَكانِ[1]، و"أصل النَّجاء: الانفصالُ مِنَ الشّيء، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ وأَنجَيتُهُ، ونَجَّيتُهُ، وقيل: أصلُه مِنَ النَّجاة، وهو أن تُعاوِنَهُ على ما فيه خَلاصُه، أو أن تَنجوَ بسرِّك من أن يطَّلعَ عليك"[2].

2) ﴿وَّنَذَرُ﴾: قال أهلُ اللُّغةِ: أَماتَتِ العَربُ الفِعلَ مِن وذَرَ في الماضي، فلا يَقولونَ وذَرتُهُ[3]، "وَذرتُهُ أَذَرُهُ وذرًا تَرَكتُهُ"[4]، و"قولُهم: ذَرْهُ واحذَرْه، أي: دَعْهُ، وقالوا: هوَ يذَرُهُ تَركًا، ولا تقل: وذْرًا، فإنَّهم قد أماتوا مصدرَه وماضيه"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجو).
(2) الرَّاغب، المفردات: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وذر).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وذر).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وذر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بعد مرور الخلائق كلِّهم على الصّراط والنَّار، نُنجّي الّذين اتّقوا ما يوجبُ النَّار، وهو الكفر باللّه ومعاصيه، نُنجّيهم مِنَ الوقوع في النَّار، فيَمرّون على الصّراط بإيمانهم وأعمالهم، ونُبقي الكافرين والعصاة في النَّار، جاثين على رُكبهم، لا يستطيعون الخروجَ، ولا يبقى في النَّار إلَّا مَن وجب عليه الخلود، أمَّا العصاةُ مِنَ المؤمنين فيخرجون بعد العذاب على معاصيهم.

ورودُ النَّار حتمٌ، ونجاةُ المتّقين مُتحقّقةٌ، وهلاكُ الكافرين بنارها حاصلٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

ثُمَّ في الآية على غير ظاهرها، فهي "للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ تَنويهًا بإنجاءِ الَّذينَ اتَّقوْا وتَشويهًا بحالِ الَّذينَ يبقَون في جهنَّمَ جُثيًّا، فالمَعنى: وعلاوةٌ على ذلك نُنجي الَّذينَ اتَّقوْا مِن وُرودِ جهنَّمَ، وليس المعنى: ثمَّ يُنجي المُتَّقينَ مِن بَينِهم، بَلِ المَعنَى أنَّهُم نَجَوْا مِنَ الوُرودِ إلى النَّار"[1].

الله تعالى يُنجي الَّذينَ اتَّقوا مِن وُرودِ جهنَّمَ

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نُنَجِّي﴾:

التّعبير بالمضارع للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار لهذه النَّجاة مع استحضار الصّورة الماضية لنجاتهم، وصيغةُ المضارعة في ﴿نُنَجِّي﴾ تُلاحِظ آثارَ النّجاة في أهل النّجاة وعليهم، فهي الّتي تتجدَّد عليهم وفيهم.

النَّجاةُ مِنَ النَّار فوزٌ عظيمٌ

دلالة التّضعيف في ﴿نُنَجِّي﴾:

استعملَ القرآنُ صيغةَ التّضعيف: ﴿نُنَجِّي﴾ مبالغةً في التّنجية أو النّجاة، وكأنَّها نجاةٌ لا تنقطعُ عن أيِّ أحدٍ منهم تكرِمةً لهم

نجاة المتَّقين لا تنقطع عن أيِّ أحد منهم تكرِمةً لهم، وتعظيمًا لأمرهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 146.

وتعظيمًا لأمرهم من قبيل الزّيادة في المَبنى زيادة في المعنى دلالة على كثرة النَّجاة والنَّاجين، فهي نجاةٌ متكرِّرةٌ، ومن أجل ذلك أخرجَ القرآنُ التّنجيةَ والنّجاةَ في صورة المضارع؛ لاستحضار ذلك الشّيء العظيم.

الغرض من اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾:

التّقوى كانت سببًا في نجاة أهلها مِنَ النَّار

الاسم الموصول مِنَ الأسماء المُبهَمة، ولهذا يحتاج إلى صلته دائمًا؛ لأنَّها تزيل إبهامَه، وعُبِّر باسم الموصول هنا لكونه الوسيلةَ الوحيدةَ للمعرفة بأمر هؤلاء، ولقصد تعظيم أمرهم، وهو الحثُّ على ما فعلوه من أمر التَّقوى، ولزيادة تقرير الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو بيان مَنزِلتهم من هذه التّقوى، الَّتي كانت سببًا في نجاتهم مِنَ النَّار مع ما في التّعبير بالفعل الماضي ﴿ٱتَّقَواْ﴾ من تحقُّق هذه التّقوى وحصولها منهم، وقد يكون الفعلُ في مَواطِنَ كثيرةٍ أوفى في أداء المراد مِنَ الكلام مِنَ الاسم الدَّالِّ على الثّبوت والاستمرار.

نكتةُ النَّصِّ على التّقوى دون غيرها:

التّقوى بابٌ جامِعٌ شامِلٌ لكلِّ أنواع الخير

المرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ هنا الّذين اتّقوا الكفرَ، ومَنِ اتَّقى الكفرَ فهو مُسلِمٌ ومُؤمِنٌ وتقيٌّ، فلفظُ التّقوى هنا من قبيل إطلاق العامِّ، وهو شامل للإيمان، والإسلامُ جامِعٌ لهما، "قالَ ابنُ عبَّاسٍ: هو الحَقُّ الَّذي يَشهَدُ الدَّليلُ بصحَّته؛ وذلك لأنَّ مَنْ آمنَ باللّه وبرسله صحَّ أنْ يُقالَ: إنَّهُ مُتَّقٍ عنِ الشِّرك، ومَنْ صَدَقَ عليه أنَّهُ مُتَّقٍ عنِ الشِّركِ صَدَقَ عليه أنَّهُ مُتَّقٍ؛ لأنَّ المُتَّقيَ جُزءٌ مِنَ المُتَّقي عنِ الشِّركِ، ومَنْ صَدَقَ عليه المُرَكَّبُ صَدَقَ عليه المُفرَدُ"[1].

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَّنَذَرُ﴾:

لا يستوي المتّقون والظّالمون

"وجُملَةُ ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَإِن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 246.

﴿مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾"[1] أو هي معطوفة على قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾؛ لبيان الفصلِ بينَ الطّوائفِ من ناجٍ مسلَّم، إلى مخدوش مكدوس في نار جهنَّم، والواو لُمطلَق الجمع دون الدّلالة على أنّ الثّاني بعد الأوّل أو قبله أو معه؛ لذا جاز الوجهان.

نكتة التّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الثّبات على الظّلم يؤدّي إلى الثّبات في العذاب

"خولِفَ بين قوله تعالى: ﴿ٱتَّقَواْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ليؤذنَ بترجيح جانب الرّحمة، وأنَّ التّوحيدَ هو المُنَجّي، والإشراكُ هو المَرَدّي، فكأنَّه قيل: ثمّ نُنَجّي مَن وُجِدَ منه تَقوى ما، وهو الاحتِرازُ مِنَ الشّرك، ونُهلِكُ مَنِ اتَّصفَ بالظّلم؛ أي: بالشّرك وثَبَتَ عليه"[2]، وهذا فتحٌ لباب التّوبة والرّجوع إليه سبحانه، وإغلاقٌ لباب المعصية والشّرك والكفر، والسّورةُ مؤسَّسةٌ على رحمة الإحسان الرّبَّانيّ.

سرُّ التّعبير بمادّة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

إنَّ الشّركَ لَظلمٌ عظيمٌ

لفظُ الظَّالمين لفظٌ جمعٌ يدُلُّ على العموم، وهو هنا ظلمُ الكفر، وهو شامِلٌ للكفر والشِّرك والإجرام، كما فسَّره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، فشملَ التّعبيرُ بهذا الوصفِ جميعَ ما يناسبه مِنَ الكفر والشِّرك والإجرام وغيرها، فظهر بهذا صحَّة مقابلته للتّقوى الّتي هي مِنَ الكفر والشّرك؛ وإنْ كان تقابلُهما خفيًّا في الظَّاهر.

سرُّ التَّعبير بـ (في):

استقرارهم في جهنّم يحيط بهم إحاطة السّوار بالمعصَم

دلالة الظَّرفيّة في قوله: ﴿فِيهَا﴾ على التَّمكُّن والاستقرار في جهنَّمَ؛ حيث إنَّها تحيط بهم إحاطةَ الظّرفِ بالمظروف، فالنَّارُ تحيطُ بهم إحاطةَ السّوار بالمِعصَم، والعياذ باللّٰه تعالى؛ لأنَّ الكفر والشّرك أحاطا بنفوسهم وقلوبهم، فتمكَّن منها، ورسخ فيها؛ ولهذا عُبِّر عنهم بالصّيغة الدَّالّة على عراقتهم في الظّلم ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 146.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 123.

سرُّ التّعبير عن جهنّمَ بالضّمير:

قوله: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ سبقَه ذِكرُ جهنَّمَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾، ولكون ترْكِ الظَّالمين لا يكون إلَّا في جهنَّم فقد أغنى سبْقُ ذِكرها عن إعادتها؛ لكونها أمرًا معلومًا لدى السَّامع أو المخاطَب، ولأنَّ سياقَ الآيات دالٌّ عليها، ولأنَّ الهولَ الّذي يفيض مِنَ الآيات يجعل المُتلقّي على ذِكرٍ منها؛ ما دام في تلقّي عناصر هذا السّياق.

تــرْكُ الـظَّـالمين لا يـكـون إلَّا في جهنّمَ

سرُّ إعادة لفظ ﴿جِثِيّٗا﴾:

الجُثوُّ هنا في تذييل هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ خلودٌ؛ والمعنى: (نترك الظَّالمين في النَّار، مخلَّدين فيها، جاثين على رُكبهم، عاجزين عنِ الحركة من شدَّة ما يصيبهم من هولها وسعيرها)، أمَّا الجثُوُّ في آية الإحضار فهو جثوُّ خضوعٍ وإذلالٍ لانتظار الحساب، جاثين قاعِدين على رُكَبِهم لِما يصيبهم من هول المَوقِف، وكلتا الحالتين تصويرٌ لِما هم فيه مِنَ المَهانة والإذلال.

الـظَّـالمـون في النَّار مخلَّدون فيـهـا، جاثـون عـلى رُكـبـهـم، عــاجــزون من شدَّة ما يصيبهم

التّشابهُ اللّفظيّ في الآية:

أوجه الاتِّفاق والافتراق بين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ﴾ [الجاثية: 28 - 27]:

الآياتُ هنا إحضارٌ لهؤلاء المُنكِرين البعثَ، "وهذا الإحضارُ يَكونُ قبلَ إدخالِهم جهنَّمَ، ثمَّ إنَّهُ تعالى يُحضِرُهُم على أذَلِّ صورةٍ لقوله تعالى: ﴿جِثِيّٗا﴾؛ لأنَّ البارِكَ على رُكبَتَيه صورَتُهُ صورَةُ الذَّليل، أو صورَتُهُ صورَةُ العاجِز، فإنْ قيلَ: هذا المَعنَى حاصِلٌ للكُلِّ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ﴾ [الجاثية: 28]، والسَّببُ فيه جَريانُ العادَةِ أنَّ النَّاسَ في مَواقِفِ المُطالَباتِ مِنَ المُلوكِ، يَتَجاثَونَ على رُكَبِهم لِما

إحـضـارٌ لمُنكِري البعث على أذلِّ صورَةٍ

في ذلكَ مِنَ الاستِنظارِ والقَلَقِ، أو لِما يَدْهَمُهُم مِن شِدَّةِ الأمرِ، الَّذي لا يُطيقونَ مَعَهُ القيامَ على أرجُلِهم، وإذا كانَ هَذا عامًّا للكلِّ؛ فكيف يدُلُّ على مزيد ذلِّ الكفَّار؟ قُلْنا: لعلَّ المُرادَ أنَّهُم يَكونونَ مِن وقتِ الحَشرِ إلى وقتِ الحُضورِ في المَوقِفِ على هذِه الحالَةِ، وذلكَ يوجِبُ مَزيدَ الذُّلِّ في حَقِّهم"[1]، والجُثوَّان مُختلِفان، فالجُثُوُّ المذكور في سورة مريم جُثُوٌّ حول جهنّمَ، وهو جُثُوٌّ مذلَّةٍ وإهانةٍ وتحقيرٍ، والجُثُوُّ المذكور في سورة الجاثية الّذي هو للعموم، فهو جُثُوٌّ خضوعٍ لله تعالى، وهو عامٌّ لجميع أهل المَوقِف، فأمَّا المؤمنون فإلى نجاة ينجون بها، وأمَّا الظَّالمون فهم متروكون في جهنّمَ يَصلونها بحرِّها وسعيرها، جاثون حولها، لا يهتدون إلى وجهٍ يَخلُصونَ به منها.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 123.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣﴾ [مريم: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

غـرور الكافر يطغيه؛ فيظنّ بالنّاس نقصًا ليس فيه

هذه الآية تعجيبٌ مِنَ المُنكِرين جاءت بعد قيام الأدلّة على كمال قُدرةِ قائلِه سبحانَه وبراءتِه من صفات النّقص، وهي كأنَّها معطوفةٌ على قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّقَامًا﴾: (قوم) أصلٌ يدلّ على انتصاب وعزم[2]، والقيامُ على أضربٍ: قيامٌ بالشَّخص إمَّا بتسخيرٍ أو اختيارٍ، وقيامٌ للشّيء هو المُراعاةُ للشّيءِ والحفظُ له، وقيامٌ هو على العزم على الشّيء، والقيامُ والقِوامُ: اسمٌ لِما يقومُ به الشّيء؛ أي: يَثْبُتُ، كالعماد والسِّناد لِما يُعمَدُ، ويُسنَدُ به، والمَقامُ يكون مصدرًا، واسمَ مكانِ القيام، وزَمانِه، نحو: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي﴾ [يونس: 71][3]، والمعنى: (خيرُ مَوضِعِ قيام).

2) ﴿نَدِيًّا﴾: (النَّدِيُّ) يدلّ على تجمّع، ويدلّ على بَلَلٍ في الشّيء[4]؛ و"النَّدِيُّ على فعيل: مَجلِسُ القوم ومُتحدَّثُهم، وكذلك النَّدْوَةُ والنَّادي والمُنتَدى، فإنْ تفرَّقَ القومُ فليس بنَديٍّ، ومنه سمّيت دار النَّدْوَةِ بمكّة الّتي بناها قصيٌّ؛ لأنَّهم كانوا يَنْدون فيها؛ أي: يجتمعون للمشاورة"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 553.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(3) الرَّاغب، المفردات: (قوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ندي).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (ندا).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

شبهة أخرى من شبهات المشركين تُظهرُ عجزَهم وغيَّهم بحسن الحال في الدّنيا

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ مَوقِفَ أهل الكفر مِنَ الآيات إذا تُليت عليهم؛ لأغراضٍ منها: الاستدلال على صحَّة وقوع البعث؛ والمعنى: وإذا تُتلى على هؤلاء المُشرِكين المُنكِرين للبعث آياتُنا البيِّناتُ الواضحاتُ الدَّالّةُ على صحّة وقوع البعث والحساب يوم القيامة، قالَ الَّذين كَفَروا على سبيل العنادِ والتّعالي للَّذين آمَنوا باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر: انظروا ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بالواو في ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾:

مَوقِفُ الكفّار من سماع القرآن هو الغفلة والاستهزاء

الواو هنا عاطفةٌ لِما بعدَها على آية ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾؛ لأنَّهما في حكاية ما يقولُه مُنكِرُ البعث، فبينهما التَّوسُّط بين الكمالين، وهي تشركُ إحدى الجملتين مع الأخرى في الإعراب والحُكم، وهي لِمُطلَقِ الجمع على الصّحيح، ووردَت هذه الجملةُ "حكايةً لِما قالوا عند سماعِ الآياتِ النَّاعيَةِ عليهم فظاعَةَ حالِهم ووَخامَةَ مآلِهم"[2].

التّعبير بـ﴿وَإِذَا﴾ ودلالته:

تحقُّقُ سماع المشركين للآيات النَّاعيَةِ عليهم

يَرِدُ التّعبيرُ بـ (إذا) الدَّالّة على تحقُّق وقوع الشّرط، وكونه مقطوعًا بوقوعه، فتكون في الأمر المَقطوعِ به، وتجيءُ (إذا) ظرفَ زمانٍ، وحقُّ زمانها أن يكون مُستقبلًا، وقد تُستعمَلُ للماضي مِنَ الزّمان، مثل: إذ، والمرادُ: حصولُ التّلاوة من أيّ تالٍ كان، فدلَّ مجيءُ (إذا) على تحقُّق هذه التّلاوة، وكونها أمرًا مقطوعًا بها.

دلالة التّعبير بـ﴿تُتۡلَىٰ﴾:

التّعبيرُ بالمضارع للدّلالة على تجدُّد هذه التّلاوة واستمرارها مع

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 63.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 124.

استحضار الصّورة الماضية من أيّ تالٍ يتلوها، وحُذِفَ المسند إليه هنا إيجازًا واختصارًا؛ لكون التّلاوة لا تقع إلّا من تالٍ لها، وأيضًا لكونه معلومًا للسَّامع والمُخاطَب أنَّ التّلاوةَ لا يقومُ بها إلّا مَن يقع الوصفُ عليه بأنَّه تالٍ لهذه الآيات البيّنات.

تكرار تلاوة الآيات عليهم، وهم متكرِّرون في العناد والشّرك

إيثار التّعبير بالتّلاوة دون القراءة:

التّلاوة تعني: المتابعة اقتداءً ومَرتبةً، والتّلاوة تختصُّ باتِّباع كُتُبِ الله المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتِسام لِما فيها من أمرٍ ونهيٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ مِنَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يُقالُ: تلَوتُ رقعتَكَ، وإنَّما يُقالُ في القرآن في شيءٍ إذا قرأتَهُ وجَبَ عليك اتِّباعُهُ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ فهذا بالقراءة، والتِّلاوة والتَّلِيَّة: بقيَّةٌ ممَّا يُتلى؛ أي: يُتَتَبَّعُ، وأتليتَهُ؛ أي: أبقيتُ منه تلاوةً؛ أي: تركتُهُ قادرًا على أن يَتلوَهُ[1]، فالتّعبيرُ بالتّلاوة يفيد أنّ الآياتِ كانت تُتلى عليهم؛ لغرض اتِّباعهم إيَّاها، وأنَّ فيها ما يدعوهم إلى هذا الاتِّباع.

الكافرون تقلَّبوا في السَّماع بين أمرٍ ونهيٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ، ولكن لا مَجيبَ

نكتة تعدي الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بـ(على):

وردَ الفعلُ متعدّيًا بحرف الاستعلاء (على) القائم مَقامَ (في)، فاستُعيرت من معناها الحقيقيّ؛ وهو الاستعلاء، كأنَّ هذه الآيات قد علتهم لوضوحها وظهورها؛ والمعنى: وإذا تُليَت فيهم الآياتُ، والاستعارة من قبيل الاستعارة التّبعيّة في الحرف، فمعاني الآيات تحيطُ بهم، وتخاطبُ فيهم النّفسَ والعقلَ والقلبَ والرّوحَ، وتقلِّبُ لهم الأدلّةَ، وتُصرِّفُ لهم المعاني؛ فقد أظلَّتهم؛ ولهذا عُبِّر بالتّلاوة دون القراءة، فبينه وبين التّعبير بـ (على) مِنَ التّناغي ما ترى.

هناك يومٌ سيندمون فيه على عدم إجابتهم وتصديقهم

سرُّ إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ أُضيفَتِ الآياتُ إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (تلى).

كفى بكون الآيات من عند ربِّ الأرض والسّماوات؛ للتّصديق بها، والعمل بمقتضاها

ضمير العظمة الرَّبَّانيّة إلى الله تعالى تشريفًا وتعظيمًا للمضاف، مع ما أفادته الإضافة مِنَ الإيجاز الدَّالِّ على المراد، وفيها أنَّ عظمةَ ذي الجلال والإكرام جليّةٌ في هاتيك الآيات، تعرِّفُهم بالله ربّهم، وتطلبُ منهم اتِّباعَه؛ ولهذا عُبِّر بالتّلاوة دون القراءة أيضًا.

سرُّ التّقييد بالحال في ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ جمعًا:

الآيات واضحات ومرتّلات وظاهرات الإعجاز

حالٌ مُؤكِّدةٌ أو كاشفةٌ، والمراد: آياتٌ واضحاتٌ أو مرتَّلاتٌ أو ظاهراتُ الإعجاز، قال البقاعيّ: "لا مِريَةَ فيها، بأن تكون مُحكَماتٍ، أو مُتشابِهاتٍ قد تَبِعَها البيانُ بالمُحكَمات، أو ببيان النّبيّ ﷺ، فهي حالٌ مُؤكِّدةٌ أو كاشفةٌ"[1]، و"المُرادُ بالآياتِ البَيِّناتِ: آياتُ القُرآن، ومعنى كَونِها بيِّناتٍ: أنَّها واضِحاتُ الحُجَّةِ عليهم ومُفعَمَةٌ بالأدلَّةِ المُقنِعَةِ"[2]، وورد التَّعبير بالجمع ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾؛ ليُناسِبَ الجمعِ في ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ لتعظيم أمر هذه الآيات ولبيان فخامتها، وفي الجمع تنبيهٌ على حصول الوصف ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ بقوَّةٍ في كلِّ آيةٍ؛ إحسانًا إليهم وإلى المعنى القرآنيّ، فلا حجَّةَ لهم ولا عذرَ في المُخالَفة بعد ذلك، ولو عُبِّر بالمفرد؛ لربَّما أوهمَ أنَّ الوصفَ للبعض دون الجميع، أو أنَّ الوصفَ للجميع، ولكن على جهةٍ ضعيفةٍ.

الغرض مِنَ التَّعبير بالاسم الموصول ماضيًا:

الآيات البيّنات الواضحات بيّنت خطأهم، فلم يَعتَبروا بها

التّعبير بصلة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فعلًا ماضيًا لتحقُّقِ الكفر منهم وحصوله، فصار صفةً واقِعةً لهم، فكان أقوى في تأدية المراد مِنَ الجملة الاسميّة، وفي ذكر الفاعل موصولًا بهذه الصِّلة تقريرٌ لهذا الغرض، ولو قيل بدلًا منها: قال أميَّة بن خلف أو غيره، ما دلَّ على شيءٍ من ذلك إلَّا بقرائنَ أخرى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 224.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 148.

دلالة اللّام في: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

يجوزُ أن تكون اللّامُ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتَّعليلِ؛ أي: قالوا لأجلِ الَّذينَ آمَنوا؛ أي: مِن أجلِ شأنِهم، فيَكونُ هذا قولَ المُشركينَ فيما بينَهُم، ويجوزُ كونُها مُتَعَلِّقَةً بفِعلِ (قالَ) لِتَعديتِه إلى مُتعلِّقِه، فيَكونُ قَولُهم خِطابًا مِنهُم للمُؤمنينَ[1].

الكفرة في ظنِّهم أنَّهم أفضل مِنَ المؤمنين

الغرض مِنَ التّعبير بجملة ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

وَقَعَ مَقولُ القولِ جملةً استفهاميّةً حكايةً لمعنى سخرية الكافرين مِنَ المؤمنين، وفيه فضحٌ لهم، وبيانٌ لاستحقاقهم الجُثوَّ لظلمهم، تسجيلًا لفضائح الكافرين بيان لاستحقاقهم الجُثوَّ في النَّار.

الغرض مِنَ الاستفهام في قوله: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

الاستفهامُ هنا تقريريٌّ؛ والمعنى: أنَّهم يطلبون الإقرارَ بخيريّة أحد الفريقين، ويعتقدون أنَّهم خيرُ الفريقين، وأنَّ الجوابَ سيكون لصالحهم.

الكافرون يقيسون أحوال الآخرة بمظاهر الدّنيا الفانية

علَّة التّعبير بـ﴿ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

اصطفى النّظمُ الكريمُ لفظَ الفريقين لبيان ادِّعاء الكافرين التَّساوي بينهم وبين المؤمنين؛ عنادًا وغرورًا لِما هُم فيه من رغد العيش، وحسن الحال، وخشونة العيش مِنَ المؤمنين الفقراء، وتمهيدًا لطلب الإقرار بالخيريّة؛ لِما بينهما من فرقٍ يَستوجبُ ذلك.

طريق المؤمنين وطريق الكافرين مُفترِقان

دلالة التّعبير بالتّفضيل في ﴿خَيۡرٌ﴾:

قوله: ﴿خَيۡرٌ﴾ تفضيل ليس على بابه؛ لأنَّهم لا خيريَّة فيهم، والتّعبير به قصدًا إلى التَّهكُّم الَّذي هو أغيظ لأهل الإيمانِ من أن يُقالَ له: عقابُك النَّار، وفي الأسلوب معنى المبالغة مع الإيجاز، فالتّفضيل إمَّا للزّيادةِ المُطلَقة أو لزيادة الثّوابِ في بابه عنِ العقابِ في بابه.

لا خيريَّة في طريقٍ يقودُ إلى النَّار

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 148.

المَقامُ الأسمى لِمَن آثر رضا مولاه ﷻ

سرُّ التّقييد بالتّمييز في ﴿مَّقَامًا﴾:

﴿مَّقَامًا﴾ هنا منصوبةٌ على التَّمييز، وهو تمييزٌ مُحوَّلٌ عنِ المبتدأ؛ والمعنى: أيُّ الفريقين مَقامُهُ خيرٌ؟ والمعنى عليه: أيُّ الفريقين خيرٌ مكانًا ومَنزِلًا؟ وأصلُه مَوضِعُ القيام، ثمّ استُعمِلَ لمُطلَقِ المكان، واصطُفيَ المقامُ؛ لأنَّ مَقامَ الرّجلِ عنوانُه الكاشِفُ عن مكانته؛ فالمُقامُ هو المقصودُ بالخيريّة.

القياسُ الفاسِدُ المَشبوهُ سبيلٌ من سُبُلِ الشّيطان في تزيين الباطل

دلالة المجاز في قوله: ﴿مَّقَامًا﴾:

أُطلِقَ المَقامُ هنا مَجازًا على الحظِّ والرّفعة، فهو مَأخوذٌ مِنَ القيام المُستعمَلِ مَجازًا في الظّهور والقُدرة، واستُعير هنا استعارةً تبعيّةً تصريحيّةً، من باب استعارة اسم المكان للحظِّ والرّفعة، ثمّ اشتُقَّ منه المَقامُ بمعنى القيام مبالغةً في إظهار مكانتِهم ورفعة شأنِهم وكثرة حظوظِهم من نعيم الدّنيا وترفها، وهذا من منظورهم وقياسهم الفاسد المشبوه؛ ولهذا لم يقولوا: أيُّنا خير مقامًا؟ بل قالوا: أيُّ الفريقين خيرٌ مقامًا؟ لكمال الاعتداد بأنفسهم في مقابلة الجماعة المؤمنة.

ظنّوا أنَّ قلّةَ حظوظ المؤمنين مِنَ الدّنيا بسبب غضب الله عليهم

دلالة العطف بالواو: ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾:

عُطِفَت هذه الجملةُ على سابقتها إتمامًا للتّفضيل بين المَنزِلتَين، والواو هنا لتشريك الجملة الثّانية في الحُكم والإعراب مع الجملة الأولى، والجمع بينهما في أداء المعنى المراد، فبعد أن ذكروا خيريَّة المَقام رجعوا، فذكروا حُسنَ المجتمع والمَجلِس، فأرادوا إتمامَ خيريّة مَنازِلِهم وحُسن مَجالِسِهم، وقد أرادوا بذلك التَّهكُّمَ بهؤلاء المؤمنين الفقراء من وجهة نظرهم القاصرة.

دلالة التّعبير بالتّفضيل بـ ﴿وَأَحۡسَنُ﴾:

التّفضيلُ بـ ﴿وَأَحۡسَنُ﴾ هنا واردٌ في مَقام التّهكُّم بهؤلاء المؤمنين، والأصلُ في التّفضيل الأفضليَّةُ على ما أُضيفَ إليه، فكأنَّهم أرادوا

أنَّ مَجلِسَهم أحسنُ من مَجلِس المؤمنين كما ذكروا - سابقًا - أنَّ مَقامَهم خيرٌ من مَقامِ المؤمنين، وإذا ذُكِرَ بعد أفعل التّفضيل جنسُهُ أو واحدٌ من جنسِه وجبَ إضافتُهُ إليه، وإذا ذُكِرَ بعد ما هو من مُتعلِّقاته؛ وجبَ نصبُهُ على التّمييز.

نبرةُ الخطاب لدى الكافرين هي نبرةُ التَّهكُّم، والتّعالي، والغرور

سرُّ التّقييد بـ﴿نَدِيًّا﴾:

﴿نَدِيًّا﴾ هنا منصوبةٌ على التّمييز من أفعل التّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾، وهو مُحوَّلٌ عنِ المبتدأ، فهو المقصود بالحُسْنِ؛ نفيًا للتّسوية بينهما فيه مِن جهة الحُسن، والتّعبيرُ به هنا من قبيل المجاز المُرسَلِ، والمرادُ بالنّديّ جلساؤه، فهو من قبيل إطلاق المحلِّ وإرادة الحالِّ فيه، يريدون أنَّ خيريَّتهم حالًا، وأحسنيَّتهم مآلًا ممَّا لا يقبلُ الإنكارَ.

الشّيطانُ زيَّن للكافرين أنَّ خيريَّتهم حالًا، وأحسنيَّتهم مآلًا ممَّا لا يَقبَلُ الإنكار

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾ [مريم: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يظنُّ الكافرُ أنّه باقٍ في الدّنيا لا فناء له

لَمَّا قالوا للمؤمنين مُستعرِضينَ ما هُم فيه مِنَ التّرف والنَّعيم، وما فيه المؤمنون من خشونة العيش والعوز، وأنَّهم خيرُ الفريقين، ردَّ اللّهُ عليهم هنا، بأنَّ كثيرًا ممَّن سبقوهم، والّذين كانوا على نهجهم في الكفر كانوا أحسنَ حالًا منهم، وأكثرَ أموالًا، أهلكَهم اللّهُ تعالى بعذاب الاستئصال، وعليه فإنَّ نعيمَ الدُّنيا لا يُعَدُّ دليلًا على محبَّة اللّه لهم، كما أنَّ سوءَ الدّنيا لا يُعَدُّ علامةً على غضبه تعالى.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرۡنٍ﴾: أصل الاقتِران كالازدِواج في كونه اجتماعَ شَيئَين أو أشياءَ في معنًى مِنَ المعاني، يُقالُ: قَرَنْتُ البَعيرَ بالبعير: جمعتُ بينهما، ويسمّى الحَبلُ الّذي يُشَدُّ به قَرَنًا، وفلانٌ قِرْنُ فلانٍ في الولادة، وقَرينُهُ وقِرْنُهُ في القوّة، وفي غيرها مِنَ الأحوال، والقَرونُ: النَّفسُ؛ لكونها مُقترِنةً بالجسم، والقَرْنُ: القومُ المُقتَرِنونَ في زمنٍ واحدٍ، وجمعه قُرونٌ[1].

2) ﴿أَثَٰثٗا﴾: (أثّ) بابٌ يَتَفرَّعُ مِنَ الاجتماعِ واللّين، وهو أصلٌ واحدٌ، قالَ ابنُ دُرَيد: أثَّ النَّبتُ أَثًّا؛ إذا كَثُرَ، ونَبتٌ أَثيثٌ، وكُلُّ شَيءٍ موَطَّأٍ: أَثيثٌ، وقد أُثِّثَ تأثيثًا، وأثاثُ البَيتِ من هذا، يُقالُ: إنَّ واحِدَهُ أثاثَةٌ، ويُقالُ: لا واحِدَ له مِن لفظِه[2]، و"الأثاثُ: مَتاعُ البيت الكثيرُ، وأصله من: أثَّ؛ أي: كَثُرَ وتَكاثَفَ، وقيلَ لِلمالِ كلِّه إذا كَثُرَ: أثاثٌ، ولا واحدَ له، كالمَتاعِ، وجمعُهُ أثاثٌ، وتأثَّث فلانٌ: أصاب أثاثًا[3].

(1) الرَّاغب، المفردات: (قرن)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أث).
(3) الرَّاغب، المفردات: (أث).

3) ﴿وَرِءۡيٗا﴾: (رأي) "أصلٌ يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَينٍ أو بصيرةٍ، فالرَّأيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ، رَأى فُلانٌ الشَّيءَ وراءَهُ، وهو مَقلوبٌ، والرِّئْيُ: ما رَأتِ العَينُ من حالٍ حَسَنَةٍ، والعربُ تَقولُ: رَيْتُهُ في مَعنَى رَأيتُه، وتَراءَى القَومُ؛ إذا رأى بَعضُهُم بَعضًا، والرّواءُ: حُسنُ المَنظَرِ، والمِرآةُ مَعروفَةٌ"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ الله ليُملي للظّالم فإذا أخذَه لم يُفلِتْه

تردُّ الآيةُ على الّذين كفروا ما اعتقدوه في أنفسهم، وما اعتقدوه في الّذين آمنوا مِن وقوعِ مفاضلةٍ مقلوبةٍ استثاروها في ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾، فتقولُ لهم: وكم أهلكْنا قبل هؤلاء الكفرةِ من قَرنٍ سبقَهم، كانوا أحسنَ متاعًا ومَنظَرًا وهيئةً منهم، وما لهم من عظمة جاهٍ وسلطانٍ، فما أغنى عنهم من عذاب اللّه من شيءٍ، وما نفعَهُم ما كانوا فيه مِنَ الأُبَّهة وبهرجة الحياة الدّنيا وزينتها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾:

دعوة للنَّظر في مصير مَن سبق

الواو هنا استئنافيّةٌ، وتسمّى واو القطع، وهي الّتي يكون بعدها جُملةٌ غيرُ مُتعلّقةٍ بما قبلها في المعنى تعلُّقًا خاصًّا ولا مشاركة لها في الإعراب؛ إذ المُرادُ بيانُهُ: ردُّ هؤلاء المغرورين إلى القرون الطّاغية الّتي مضَت، للاطّلاع على أحوالهم، وما وصلوا إليه مِنَ الهلاك والدَّمار حتّى صاروا خبرًا بعد عين.

معنى ﴿وَكَمۡ﴾ ودلالتها:

الكفَّار جعلوا حُسنَ أحوالهم في الدّنيا دليلًا على حُسنِ أحوالهم في الآخرة

"﴿وَكَمۡ﴾ مفعولٌ مُقدَّمٌ واجبُ التَّقديم؛ لأنَّ له الصَّدارةَ في الكلام؛ لأنَّها إمَّا: استفهاميَّةٌ أو خبريّةٌ، وهي مَحمولَةٌ على الاستفهام"[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

(2) السَّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 624.

وتخرج إلى الإخبار إذا كان المُخبَرُ عنه قد بلغ الغايةَ في الكثرة والوضوح؛ والمعنى: (أهلكنا قبلهم كثيرًا مِنَ القرون كانوا أحسنَ أثاثًا ورِئيًا، لكنَّهم كانوا مُعانِدين، فلم يمنعهم غناهم من عذاب اللّه تعالى عددُهم كثيرٌ، وعذابُهم معلومٌ، وآثارُهم باقيةٌ، فسَلْ عنهم)، وهذه المعاني المُستوحاةُ مِنَ التّركيب مُتفرِّعةٌ عن تطوُّر الدِّلالة مِنَ الاستفهام إلى الإخبار، وأثر من آثارها، اقتضَته أحوالُ الكافرين الّذين ألبسوا الأمورَ، وأثاروا الشّكوكَ بقولهم: (أيُّ الفريقين خيرٌ مَقامًا؟)، وجعلوا حُسنَ أحوالهم في الدُّنيا دليلًا على حُسنِ أحوالهم في الآخرة بفهمهم العقيم.

دلالة التّعبير بـ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

الإهلاك والإعلاء والتّدمير والإذهاب بيد مَنْ يملِكُ القوّةَ والقُدرة

ورد التَّعبيرُ بفعل الإهلاك مُسندًا إلى اللّه تعالى بيانًا لقدرته ﷻ وتعظيمًا لشأنه، وبيان أنَّ الإهلاكَ والإعلاءَ والتَّدميرَ والإذهابَ بيد مَنْ يَملِكُ القوى سبحانه، والإهلاك قد يجري مِن بعضِ ملائكته، فالصّيغةُ حينئذٍ للجمع على جهة الاستتباع؛ أي: إنَّ المقصودَ الأوّلَ هو اللّهُ، ويُقصَدُ غيرُه من ملائكته تبعًا.

إيثار التّعبير بـ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

إذا أرادَ اللّه تعالى إهلاكَ قومٍ استأصلَهم بعذابه

الهلاكُ يأتي على أوجهٍ، منها: افتقادُ الشّيءِ عنك، وهو عند غيرك موجودٌ، ومنها: هلاكُ الشّيءِ باستحالةٍ وفسادٍ، ومنها: الموتُ، ومنها: بطلانُ الشّيءِ مِنَ العالَم وعدمُهُ رأسًا، وذلك المُسمَّى فناءً المشارُ إليه بقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: 88]، ويُقالُ للعذاب والخوف والفَقر: الهَلاكُ، والهُلْكُ بالضَّمِّ: الإهلاكُ، والتَّهلُكَةُ: ما يؤدّي إلى الهلاك، أمَّا التّدميرُ فهو إدخالُ الهلاكِ على الشّيء، والقتلُ هو إزالةُ الرّوح عنِ الجسد كالموت[1]، ولمَّا كان الهلاكُ بمفهومه العامِّ المذكورِ بأوجهه الأربعة صار أعمَّ وأشملَ في

(1) الرّاغب، المفردات: (هلك).

أداء المراد منه، ولذا ورد التَّعبير به ليدخلَ فيه كلُّ ما حدث لأهل القرون السَّابقة.

الغرضُ مِنَ الاعتراض في الآية:

دعوة للاعتبار والتَّذكُّر من أحوال الأمم السَّابقة

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ "مُعترِضَةٌ بينَ حِكايَةِ قَولِهم وبَينَ تلقينِ النَّبيِّ ﷺ ما يُجيبُهُم بِه عن قَولِهم، ومَوقِعُها التَّهديدُ وما بَعدَها هو الجَوابُ"[1].

سرُّ التّقييد بالظّرف ﴿قَبۡلَهُم﴾:

آثارُ السَّابقين شاهدٌ على ما كانوا فيه مِنَ النّعيم

(قبل) هنا ظرفُ زمانٍ منصوب، والتّقدير: (كم أهلكنا كثيرًا مِنَ القرون قبل هؤلاء الكافرين، فرأوا آثارَهم، وما كانوا فيه مِنَ النَّعيم)، فهم المقصودون بهذا الكلام، وسرُّ التّقييد بالظّرف زيادةُ التّهديدِ ببيان قُربهم من زمن الهالِكين، وبالإشعار بقرب حالِهم مِن أحوال الهالِكين قبلهم، مِمَّا يستدعي هلاكَهم كهلاكهم.

نكتة خلوّ الظَّرف ﴿قَبۡلَهُم﴾ من حرف الجرِّ (مِن):

المتقدِّمون كانوا أرغَدَ عيشًا وأمكنَ حالًا فعمَّهُم العذابُ بسبب كفرهم

"لمَّا كان المرادُ استغراقَ الزّمانِ لم يأتِ بالجارِّ إعلامًا بأنَّ المُتقدِّمينَ كلَّهم كانوا أرغَدَ عيشًا وأمكنَ حالًا، فقال: ﴿قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾؛ أي: شاهَدوا ديارَهُم، ورَأوا آثارَهُم"[2]، واستحضارُ جميع السَّابقين بغياب (مِن) أبلغُ في دحض ما قصدوا مِن قولهم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾:

الهلاكُ مُستغرِقٌ قرونًا كثيرةً

﴿مِّن﴾ هنا لبيان الجنس مِنَ القرون الهالكة، وعلامة ذلك أن يُذكَرَ جنسٌ تحتَه أجناس، والمرادُ أحدُها، وإذا أُريدَ هذا الواحدُ وجَبَ بيانُه؛ لأنَّ المرادَ بالهالِكين هنا قرونٌ كثيرةٌ، وليس قرنًا واحدًا، فوردت ﴿مِّن﴾ هنا تبيينًا لإبهام (كم)؛ أي: كثيرًا مِنَ القرون أهلكنا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 152.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 225.

الغرض مِنَ المجاز في ﴿قَرْنٍ﴾:

إهلاكُ العصرِ إهلاكٌ لِمَن فيه جميعًا

إهلاكُ الزّمنِ إهلاكٌ للحالّين فيه، فهو مَجازٌ مُرسَلٌ، عبّرَ بالزّمن والمرادُ مَن يعيشون فيه، مبالغةً في الإخبار بالهلاك؛ لأنَّ الزّمنَ بأهلِه، والتّعبيرُ بالمجاز جاء مُناسِبًا لسياق التّهديد اتِّعاظًا بهلاك الغابرين.

سرُّ إفراد ﴿قَرْنٍ﴾، وتنكيره:

يأتي الإفراد دالًّا على الكثرة بقرائن السّياق ودلالاته

القَرْنُ: هو الأمّةُ يجمعُها العصرُ الواحدُ، سُمّيت تلك الأمّةُ قَرنًا، وورَدَ الإفرادُ هنا دالًّا على الجمع الكثير بدلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَكَمْ﴾ الدَّالِّ على الكثرة، فأغنى التّعبير بها هنا عنِ الجمع لدلالة سياق الكلام عليه، وأمَّا تنكيرُهُ فلإفادة نوعيَّة هذا القَرن المهْلَكِ، وفي الإفراد إشعارٌ باستواء أهل القرون أو قربهم الشّديد في أحوال النّعيم، وأحوال الكفر بذلك النّعيم، وفيه أيضًا تنبيهٌ على كمال قدرة اللّه تعالى في إهلاك أهل هذه القرون، فهي كقرنٍ واحدٍ، وأهلُ كلِّ القرون كأهلِ قرنٍ واحدٍ، وإنْ كان لا يُقالُ في حقِّه تعالى: هيّنٌ وأهونُ، ولبيان حقارة أهل هذه القرون؛ لاغترارهم بالنِّعَمِ، وانصرافهم بها عنِ المُنعِم ﷻ.

دلالة المَوقِع الإعرابيّ لجملة ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾:

مع الشِّرك لا ينفعُ حُسنُ الأثاث، ولا حُسنُ المَنظَر

"قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في هذه الجملةِ وجهان، **أحدهما:** أنَّها في محلِّ نصبِ صفةٍ لـ﴿وَكَمْ﴾، قال الزّمخشريّ: "ألا ترى أنَّك لو أسقَطتَ ﴿هُمْ﴾ لم يكن لك بُدٌّ مِن نصبِ ﴿أَحْسَنُ﴾ على الوصفيّة"، وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ النَّحويّين نَصّوا: على أنَّ ﴿وَكَمْ﴾ - استفهاميّةً كانت أو خبريّةً - لا تَوْصَفُ، ولا يوْصَفُ بها، **الثّاني:** أنَّها في محلِّ جرٍّ صفة لـ ﴿قَرْنٍ﴾، ولا محذورَ في هذا[1]، والتّقييد بالوصف له أثرٌ بالغٌ في تحسيرهم على ما هم فيه بتهديدهم بهلاكهم وتركه،

(1) السَّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 624، والزّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 521.

وإهلاكه وتحسيرهم بإتلافه، والرّزقُ إذا كان حَسنًا كانت حسرةُ إتلافِه أشدَّ.

سرُّ جمع ﴿هُمْ﴾ مع إفراد ﴿قَرْنٍ﴾:

"إنَّما جُمِعَ في قوله: ﴿هُمْ﴾؛ لأنَّ قَرْنًا، وإن كان لفظُه مفردًا فمعناه جمعٌ، فـ﴿قَرْنٍ﴾ كلفظِ (جميع)، و(جميع) تجوز مراعاةُ لفظِه تارةً، فيُفرَدُ كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ٤٤﴾ [القمر: 44]، ومراعاةُ معناه تارةً أخرى، فيُجمَع كقوله تعالى: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٣٢﴾ [يس: 32][1]، وكمال قدرة اللّه تعالى إنَّما تظهرُ بتصوير حالهم الواقعيِّ العجيبِ، الّذي تؤدّيه صيغةُ الجمع ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾، بعد تصوير مآلهم الحقير الهيِّن بإفراد القَرْن، واللّه أعلم.

المُعتبَرُ في الإهلاك والإنجاء هو مدى استجابة العباد لخالقهم ﷻ

غرض تقديم ﴿أَثَٰثًا﴾ على ﴿وَرِءْيًا﴾:

الأثاثُ هو مَتاعُ البيتِ الّذي يقومُ عليه مِنَ الفرش والثّياب وغير ذلك، وأمَّا ﴿وَرِءْيًا﴾ فهو الزّينةُ والمَنظَرُ الحَسَنُ، فقدِّمَ الأعمُّ الأغلبُ، وعُطِفَ عليه، وأُلحِقَ به الأخصُّ، وهو من تقديم الأَوْلى فالأَوْلى، فلو لم يكنِ الأثاثُ موجودًا فلا قيمةَ ولا وجودَ للمَنظَرِ الحَسنِ، فهو إذن من تقديم الأغلب لعلاقة العموم والخصوص بينهما، مع ما بينهما من مراعاة النّظير، والتّرتيبُ على الأصل؛ لِلَفتِ بقوَّة إلى حال الغابرين.

لا عِبرةَ بالأمور الظّاهرة ما لم تستقمِ البواطنُ

أوجه الافتراق والاتِّفاق في الآيات الآتية:

في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ٩٨﴾ [مريم: 98].

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ٣﴾ [ص: 3].

ثراء التّعبير القرآنيّ بكثير مِنَ المعاني، كلٌّ في سياقه

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 624، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 521.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾ [ق: 36].

الآية الأولى: وردت في المكذّبين مُنكِري البعثِ مُبيِّنةً إهلاكَ أقوامٍ قبلَهم كانوا أحسنَ مَتاعًا منهم وأبهى مَنظرًا، وكانوا في نعمةٍ ورغدٍ مِنَ العيش في الدّنيا كعادٍ وثمودَ، وأضرابِهم مِنَ الأمم العاتيةِ قد أهلكَهُمُ اللّهُ تعالى، فلو دلَّ حصولُ نعمةِ الدّنيا للإنسان على كونه مُكرَّمًا عند الله تعالى وجَبَ ألَّا يُهلِكَ أحدًا مِنَ المُتنعِّمين في الدّنيا، وفيه مِنَ التّهديد والوعيد ما لا يخفى، كأنّه قيل: فلْيَنظُرْ هؤلاء أيضًا مِثلَ ذلك[1].

والآية الثّانية: وردَت في ثنايا الحديث عن أهل مكّةَ، وهي وعدٌ لرسول الله ﷺ في ضمن وعيد هؤلاء القوم بالإهلاك، وحثٌّ له ﵇ على الإنذار؛ أي: قرنًا كثيرًا أهلكنا قبلَ هؤلاء المُعانِدين، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: 98] استئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمون ما قبلَه، والاستفهامُ في معنى النّفي؛ أي: ما تشعرُ بأحدٍ منهم؛ والمعنى: (أهلكْناهم بالكُلِّيَّة، واستأصَلناهُم بحيث لا ترى منهم أحدًا، ولا تسمعُ منهم صوتًا خفيًّا فضلًا عن غيره)، وقيل: المعنى (أهلكْناهم بالكُلِّيَّة بحيثُ لا ترى منهم أحدًا، ولا تسمعُ مَن يُخبِرُ عنهم، ويُذَكِّرُهم بصوتٍ خفيٍّ)، والحاصِلُ: (أهلكْناهُم، فلا عَينَ ولا خَبَرَ)، والخطابُ إمَّا لِسَيِّدِ المُخاطَبين ﷺ أو لكلِّ مَن يَصلُحُ للخطاب[2].

والنَّاظرُ في نسق الآيتين يرى أنَّ صدرَهما واحدٌ إلَّا أنَّ العَجُزَ يختلفُ فيهما، أمَّا الآيةُ الأولى فلأنَّ المُكذِّبين المُنكِرين للبعث ظنّوا أنَّهم خيرُ الفريقين مَقامًا وأحسنُ نَديًّا، فناسبَهُمُ التّعبيرُ بتذييل الآية بقوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ لمراعاة النَّظير وليتناسبَ الرَّدُّ مع ما ذكروا مِنَ الخيريّة، أمَّا الآية الثّانية فإنَّه لَمَّا كان الحديثُ مع أهل مكّةَ وعنهم جاء تذييلُ الآية بالاستفهام التّقريريِّ بعدم الشُّعور بالهالِكين ممَّن سبقَهم، ولم يكتفِ التَّذييلُ بذلك بل جعلهم خبرًا بعد عَينٍ، لا يُسمَعُ لهم حِسٌّ، وصاروا عَدَمًا مع العَدَم، فعجزُ كلٍّ منهما هو نتاجُ حركة المعنى في السّياق.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 125.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 144.

والآية الثَّالثة: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾ [ص: 3]

زيدَ في صدر هذه الآية ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ [ص: 3]، فزيدَت ﴿مِن﴾ [ص: 3] هنا بيانًا لهذه القَبليَّة، والآيةُ وعيدٌ لأهل الكفر مِنَ العرب المُكذِّبين الّذين وصفَهم اللّهُ تعالى بكونهم ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ [ص: 2]، فالآيةُ وعيدٌ لهم على كُفرهم واستكبارِهم، ببيان ما أصاب مَن قبلَهم مِنَ المُستكبِرينَ(1)، واتَّفق صدرُ الآية مع الأولى مع زيادة ﴿مِن﴾ [ص: 3] بيانًا إلَّا أنَّ العَجُزَ يختلفُ، فكأنَّهم لَمَّا سمعوا بهلاك مَنۡ سبقهم استغاثوا طلبًا للنَّجاة، وندموا ولاتَ مَندم، وظنّوا الفوتَ، وأملوا في النَّجاة، ولكن لم يُجابوا إلى ما طلبوا؛ لأنَّ مَن سبق عليه الكتابُ بالإهلاك لا نجاةَ له ولا مَهرَبَ.

وأمَّا آيةُ سورة (ق) فعلى الحذو جاءت مع اختلاف التّذييل فيها، وأيضًا مع ما في الآية من مزيد الوعيد والإهانة، فقد جاءت بيانًا لِما وصلوا إليه مِنَ اليأس والقُنوط، وألَّا مَنجَى لهم من ذلك، فجاءت كلُّ آية على ما يُناسب.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 214.

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ [مريم: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إهمال أهل الضّلالة مع منحهم ما يريدون لا يعني إهمالَهم

لَمَّا بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ عاقبةَ أمرِ الأمم المُهلَكة، مع ما كانَ لَهُم مِنَ التَّمتُّع بفنون الحظوظِ العاجلة، أُمِر رسولُ اللّه ﷺ بأن يُجيبَ هؤلاء المُفتخِرين بما لهم مِنَ الحظوظ ببيان مآلِ أمر الفريقين؛ إمَّا على وجهٍ كُلّيٍّ مُتناولٍ لهم ولغيرهم مِنَ المُنهَمِكين في اللَّذَّة الفانية، المُبتَهجين بها، على أنَّ مَن على عُمومها، وإمَّا على وجهٍ خاصٍّ بهم على أنَّها عبارةٌ عنهُم، ووصفُهم بالتَّمكُّن لذمِّهم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلضَّلَٰلَةِ﴾: (ضلّ) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مَعنًى واحد، وهو ضَياعُ الشَّيءِ وذَهابُهُ في غيرِ حقِّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغَتانِ، وكُلُّ جائرٍ عَنِ القَصدِ ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالةُ بمعنًى[2]، والضَّلالُ: العدولُ عنِ الطَّريق المستقيم، ويضادُّه الهداية، ويُقالُ: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عنِ المَنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[3].

2) ﴿مَدًّاۚ﴾: (مدّ) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على جرِّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شيءٍ بشيءٍ في استِطالَةٍ[4]، ومنه: المُدَّةُ للوقت المُمتَدِّ، ومِدَّةُ الجرحِ، ومَدَّ النَّهرُ، ومَدَّهُ نهرٌ آخرُ، ومَدَدْتُ عَيني إلى كذا، ومَدَدْتُهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 277.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(3) الرَّاغب، المفردات: (ضل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مد).

في غَيّه، ومَدَدْتُ الإبلَ: سَقَيتُها المَديدَ، وهو بِزرٌ ودقيقٌ يُخلَطان بماءٍ، وأَمدَدتُ الجيشَ بِمَدَدٍ، والإنسانَ بطعامٍ، وأكثرُ ما جاء الإمدادُ في المحبوب، والمَدُّ في المكروه[1].

3) ﴿جُندٗا﴾: (جند) "أَصلٌ يدُلُّ على التَّجَمُّعِ والنُّصرَةِ، يُقالُ: هُم جُندُهُ، أي: أعوانُهُ ونُصَّارُهُ، وجَنَدٌ: بَلَدٌ، والجَنَدُ: الأرضُ الغَليظَةُ فيها حِجارَةٌ بيضٌ"[2]، و"يُقالُ للعسكرِ الجُنْدُ اعتبارًا بالغِلظَةِ مِنَ الجُندِ، أي: الأرض الغليظة الّتي فيها حجارةٌ، ثمّ يُقالُ لكلِّ مُجتمَعٍ جُندٌ، نحو: (الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ)، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصَّافَّات: 173]"[3].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يـظـنُّ الـضَّـالُّ أنَّ حظوظَه في الدّنيا نافعةٌ له في الآخرة، وأنّى له ذلك؟

لَمَّا كانَتِ السّورةُ مُؤسَّسةً على الرّحمة الرّبَّانيّة توجَّه إلى أهل الكفر بهذا الخطابِ عن طريق مَن هو رحمة للعالَمين، قيل له: "قُلْ - أيُّها الرّسولُ الكريمُ - لهؤلاء الكافرين المُتفاخِرين بمَساكنِهم ومَظاهِرِهم: مَن كان مُنغمِسًا في الضّلالةِ والشّقاوةِ والغفلةِ فقدِ اقتضَت حكمةُ اللّه تعالى أن يَمُدَّ له العطاءَ، كأن يُطيلَ عمرَهُ، ويوسعَ رزقَهُ، على سبيل الاستدراج والإمهال، ثمّ يأخُذَهُم أخذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفصل في قوله: ﴿قُلۡ مَن كَانَ﴾:

ما عند الكافرين مِن نِعمَةِ الدُّنيا إنَّما هو إمهالٌ مِنَ الله إيَّاهُم

في مَوقِعِ هذه الآية وجهان: **أحدُهما:** أن تكون مُتّصلةً بالآية الّتي هي رابعتها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾، والآيتانِ اعتراضٌ بينهما؛ أي: قالوا: (أيُّ الفريقين خيرٌ مَقامًا

(1) الرَّاغب، المفردات: (مد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جند).
(3) الرَّاغب، المفردات: (جند).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 64.

وأحسنُ نَديًّا حتَّى إذا رَأَوْا ما يوعَدونَ)؛ أي: (لا يبرحون يقولون هذا القول، ويتولَّعون به، لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعودَ رأيَ عينٍ؛ إمَّا العَذابَ في الدّنيا، وهو غلبةُ المسلمين عليهم، وتعذيبُهم إيَّاهم قتلًا وأسرًا، وإظهارُ اللّه دينَه على الدّين كلِّه على أيديهم، وإمَّا يومَ القيامة، وما ينالُهم مِنَ الخزْي والنّكال، فحينئذٍ يعلمون عند المعاينة أنَّ الأمرَ على عكس ما قَدَروهُ، وأنَّهم شرٌّ مكانًا، وأضعفُ جندًا، لا خيرَ مَقامًا وأحسنَ نَديًّا، وأنَّ المؤمنين على خلاف صفتهم)، **والثّاني**: أن تتَّصل بما يليها؛ والمعنى أنَّ الّذين في الضّلالة ممدودٌ لهم في ضلالتهم، والخذلان لاصقٌ بهم لِعلم اللّه بهم، وبأنَّ الألطافَ لا تنفعُ فيهم، وليسوا من أهلها"[1]، أو هي "جَوابُ قَولِهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، لَقَّنَ اللّه رسولَهُ ﷺ كَشفَ مُغالَطَتِهم أو شُبهَتِهم، فأَعلَمَهُم بأنَّ ما هم فيه من نِعمَةِ الدُّنيا إنَّما هو إمهالٌ مِنَ اللّه إيَّاهُم؛ لأنَّ مَلاذَ الكافِرِ استِدراجٌ، والمعنى أنَّ مَنْ كانَ مُنغَمِسًا في الضَّلالَةِ اغْتَرَّ بإمهالِ اللّه لهُ، فرَكِبَهُ الغُرورُ، كما رَكِبَهُم إذ قالوا: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾"[2].

المراد بضمير الخطاب في ﴿قُلْ﴾:

لا يستوي مَن كان مُنغَمِسًا في الضّلالة مع مَنْ كان على الصِّراط المستقيم

أمر ربُّنا ﷻ نبيَّه ﷺ: "أن يُجيبَ هؤلاء المُفتخِرين بما لهم مِنَ الحظوظ الدّنيويّةِ على المؤمنين ببيان مآل أمرِ الفريقين، إمَّا على وجهٍ كُلّيٍّ مُتناول لهم ولغيرهم مِنَ المُنهَمِكين في اللَّذَّة الفانية المُبتَهجينَ بها على أنَّ ﴿مَن﴾ على عمومها، وإمَّا على وجهٍ خاصٍّ بهم على أنَّها عبارةٌ عنهم، ووصفَهُم بالتَّمكُّن في الضّلالة لذمِّهم والإشعار بعلَّة الحكم، أي: مَن كان مُستقِرًّا في الضّلالة مغمورًا بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور"[3]، وورود الأمر هنا لإخباره ﷺ بجوابهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 522، 521.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 76.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 126.

الغرض مِنَ التّعبير بـ﴿مَن كَانَ﴾:

وقعَت جملةُ مَقولِ القولِ شرطيّة لبيان أنَّهم مَن أوقعوا أنفسَهم في مدِّ العذاب.

سرُّ إيثار ﴿مَن﴾ على ما سواها من نظائرها:

﴿مَن﴾ لا تكون إلَّا اسمًا، فعُبِّر بها للدّلالة على ثبوت الحُكم واستمراره، وهي هنا دالَّة على ثبوت أصحاب الضَّلالة على ضلالتهم واستمرارهم فيها.

دلالة التّعبير بـ﴿كَانَ﴾ في جملة الصِّلة:

هؤلاء الكافرون عاشوا في الضّلالة، وتلبَّسوا بها حتّى صارت سجيَّةً لهم

كان هنا بمعنى يكون؛ لأنَّ المعنى في باب الشَّرط يجري مَجرَى مضارعه، وفيه هنا نكتةٌ بلاغيّةٌ؛ لأنَّه إخبارٌ عن تأصُّل الضّلالة فيه، فهي تكوَّنت مع وجوده، فهم جُبِلوا عليها، ولهذا قيلَ: ﴿فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾، وهو أبلغُ ممَّا لو قيل: قُلْ مَن كان ضالًّا.

غرض التّعبير بالاستعارة في ﴿فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾:

تمكَّنَتِ الضّلالة من أهلها تمكُّنَ الظَّرف مِنَ المَظروف في احتوائه عليه

﴿فِى﴾ هنا للظَّرفيَّة، وإنَّما تظهر الظَّرفيّة في المحسوسات، لكنَّ الضَّلالَ أمرٌ معنويٌّ، وهو هنا ضلالٌ كثيفٌ مُتراكِمٌ يُشبهُ الشّيءَ الحسّيَّ، فالأسلوبُ استعارةٌ مكنيّةٌ توحي بزيادة الضَّلال وكثافته وتمكُّنه مِنَ الضَّالِّ تمكُّنَ الظَّرف مِنَ المَظروف في احتوائه عليه.

نوع اللَّام في ﴿ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ ودلالتها:

هؤلاء الكافرون استغرقوا أنواعَ الضَّلالة كلَّها فاستحقّوا العذاب

اللَّامُ هنا لاستغراق جنس الضَّلالة الَّتي تصرفُ الإنسانَ عن مَطالِب الحقِّ والهدى والخير والصَّلاح، وورودُ التّعبيرِ بها لكون المَوصوف بها قد امتلكَتهُ الغوايةُ والضَّلالةُ، حتَّى صار مُنغَمِسًا فيها لا ينفكُّ عنها، فلم يتركْ بابًا من أبوابها إلَّا سلكَهُ، فاستغرقَ أنواعَ الضَّلالةِ كلَّها، وقد تكون للعهد العلميّ، أي: الضَّلالة المعهودة بصرف أصحابها عن طريق الحقِّ والهداية والخير.

دلالة اللّام في ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾:

دخولُ لام الأمر على المضارع يفضي إلى جعل المطلوب حاضرًا، وهذه الصّورة مِنَ الأمر تختلفُ عن فعل الأمر المباشِرِ؛ لأنَّ الأمرَ المُباشِرَ يُطلَبُ إنشاؤه دون نصٍّ على تعجيل إنشاء الفعل، "واللَّامُ في قوله: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ لامُ الأمرِ أوِ الدُّعاءِ، استُعمِلَت مَجازًا في لازمِ معنَى الأمرِ، أي: التَّحقيق، أي: فسَيُمِدُّ له الرّحمنُ مَدًّا، أي: أنَّ ذلكَ واقِعٌ لا مَحالَةَ على سُنَّةِ اللّه في إمهالِ الضُّلَّال، إعذارًا لهم، كما قالَ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: 37]، وتنبيهًا للمُسلِمينَ ألَّا يَغتَرّوا بإنعام اللّه على الضُّلَّالِ حتَّى أنَّ المُؤمنينَ يَدعونَ اللّه به لِعَدم اكتِراثِهم بطولِ مُدَّةِ نعَيم الكُفَّارِ"[1]، وفعلُ الأمر إمَّا أن يخرجَ إلى الدُّعاء، والتّقدير: (اللّهمّ أمهلْهُ، وأطلْ في حياته، وسلِّط عليه الدُّنيا حتَّى يرى ما يوعَدُ به بحيثُ لا ينفكُّ عن ضلالته إلى أن يُشاهدَ السَّاعةَ، ويواجهَ العذابَ)، وإمَّا أن يكون خبرًا في صورة الإنشاء، وتكون صيغةُ الأمر مُستعارةً للخبر للإيحاء بمعنى التَّهديد والوعيد، فالطَّلبُ واردٌ في معنى الخبر للإيذان بأنَّ ذلك ممَّا ينبغي أن يُفعل بموجِبِ الحكمة لقطع المَعاذير.

يُمهلُ اللهُ أهلَ الضّلالة فيَمُدُّ لهم، ولا يُعاجِلُهُم بالعذاب في الدّنيا

الغرض من تقديم ﴿لَهُ﴾ على المسند إليه:

المرادُ هنا تخصيصُ هذا الكافر بإمداده في الضَّلال هو لا غيره لكونه المخصوصَ بالحديث المقصود به.

التّعميرُ في الدّنيا لأهل الضّلال استدراجٌ لهم خاصَّة

إيثار التّعبير بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مسندًا إليه:

"التَّعرُّضُ لعنوان الرّحمانيَّة لِما أنَّ المدَّ من أحكام الرَّحمة الدّنيويَّة"[2]، وفي التّعبير به إشارةٌ إلى "التَّحلّي لهم بصفة الإحسان بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: العامُّ الامتنان"[3].

المدُّ رحمةٌ مِنَ الله تعالى لِمَن اتّعظ مِنَ الضُّلَّال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 167.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 140.

سرُّ التّقييد بالمفعول المُطلَق ﴿مَدًّا﴾:

المَدُّ: حَقيقَتُهُ إرخاءُ الحَبلِ وإطالَتُهُ، ويُستَعمَلُ مَجازًا في الإمهالِ كما هنا، وفي الإطالةِ كما في قَولِهم: مَدَّ اللّه في عُمرِكَ، و﴿مَدًّا﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ مُؤَكِّدٌ لِعامِلِه، أي: فلْيُمدِدْ لَهُ المَدَّ الشَّديد"[1]، "وقيلَ: المرادُ به الدّعاءُ بالمدِّ والتّنفيس والإمهال، أي: فأمهلَهُ اللّهُ فيما هو فيه حتّى يلقى ربَّه، وينقضي أجلَهُ، إمَّا بعذابٍ يصيبُهُ، وإمَّا السَّاعةُ بَغتَةً"[2]، فالمرادُ بالتّقييد تأكيدُ المدِّ، وبيانُ أنَّه إمهالٌ حقيقيٌّ كرمًا مِنَ اللّه، مُلائِمًا للتَّعبير باسم اللّه الرّحمن، وتناسُبًا مع رحمانيَّته.

إمهالُ مَنْ لم يتّعظ إمَّا لعذابٍ يصيبُهُ، وإمَّا للسَّاعة تَبغَتُهُ

دلالة التّعبير بالحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

"حتَّى لِغايَةِ المَدِّ، وهي ابتدائيَّةٌ، أي: يَمُدُّ لَهُ الرّحمنُ إلى أَنْ يَرَوْا ما يوعَدونَ، أي: لا مَحيصَ لَهُم عَن رُؤيَةِ ما أوعِدوا مِنَ العَذابِ، ولا يَدفَعُهُ عنه طولُ مُدَّتِهم في النِّعمَةِ"[3].

طول المُدَّة الّتي قضاها أهل الضّلال في النّعيم لا تدفعُ عنهم العذابَ

إيثار التّعبير بـ ﴿إِذَا﴾:

﴿إِذَا﴾ ظرفٌ لِما يُستقبَلُ مِنَ الزَّمان، وتُستعمَلُ في الفعل المُستمرِّ في الأحوال كلِّها حاضرِها وماضيها ومُستقبلِها، ولذا قالوا: إنَّها شقيقةُ الفعلِ المُستقبِلِ الَّذي يُفعَل حيثُ يُفْعَل به من غير قصدٍ إلى تخصيص وقتٍ دونَ آخر[4]، وتُستعمَلُ في الشَّرط المقطوع بوقوعه، وهي دالَّة هنا على حصول الرّؤيَةِ ووقوعِها بلا شكٍّ ولا تردُّدٍ، لذا أوثِرَت على غيرها.

رؤيةُ ما أوعِدوا مِنَ العذابِ لا مَحيصَ لهم عنها

مَرجِعُ الضَّمير في ﴿رَأَوْاْ﴾، وسرُّ التَّعبير بالرّؤيَة:

الضّميرُ في ﴿رَأَوْاْ﴾ للمُشرِكين المُكذِّبين الّذين امتدَّ أمرُهُم في الضَّلالة، والرّؤيَةُ قد تكون حقيقيَّةً؛ ذلك لأنَّ الأرضَ تتبدَّلُ غيرَ

يوم الميعادِ تُدرِكُ كلَّ نفسٍ مَصيرَها إمَّا إلى جنَّة وإمَّا إلى نار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 167.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 111.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 167.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 197.

الأرض والسّماوات ثمّ تُحشَرُ الخلائقُ للحساب، وتكون مَشاهدَ مُختلِفةً ومَواقِفَ مُتباينةً، وقد تكون الرّؤيَةُ بمعنى العلم والتَّحقُّق، وذلك عند خروج الرّوح تنكشفُ الأمورُ، وتُدرِكُ كلُّ نفسٍ مَصيرَها؛ إمَّا إلى جنَّة، وإمَّا إلى نار.

نكتة إيثار ﴿مَا﴾ في ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾:

ما وُعِدَ به المشركون الضُّلَّالُ مِنَ العذاب لا يتحمَّلُهُ بشرٌ

﴿مَا﴾ هنا اسم موصول بمعنى الّذي، وجيء بها لتفخيم الأمر وتهويله؛ إذ ليست رؤيتُهُم تقع على شيءٍ إلَّا على أمرٍ مَهولٍ، إمَّا العذاب الّذي ينتظرُهم، فلا مفرَّ لهم منه ولا مَهربَ، وإمَّا السَّاعة الّتي تبغَتُهم، وكانوا يظنّونَ استبعادَ وقوعِها أو عَدَمَهُ مِنَ الأصل، فلمَّا كان الأمرُ جدَّ عظيمٍ، فسيرون ذلك عيانًا أمامهم، عُبِّر بـ(ما).

نكتة الجمع في ﴿رَأَوۡاْ﴾ و﴿يُوعَدُونَ﴾:

لا تقع رؤية أهل الضَّلال على شيءٍ إلَّا على أمر مَهولٍ

"وجمعُ الضّميرِ في الفعلَين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنَّ الإفرادَ في الضّميرين الأوَّلينَ باعتبار لَفظِها"[1]، وأوثرَ الإفرادُ أوَّلًا حَملًا على اللَّفظ؛ لأنَّه أبلغُ في بيان رحمة اللّه تعالى بالمَدِّ المذكور، فهو ظاهرٌ لكلِّ فردٍ، وكان الحَملُ على المعنى بالجمع ثانيًا؛ لأنَّه أبلغُ في التّهديد والوعيد؛ لأنَّ رؤيةَ الجماعة العذابَ أو السَّاعةَ أهولُ في تقرير التّرهيب والوعيد مِن رؤية الفرد، فبعضُهُم ينظرُ في وجه بعضٍ، فيرى فيه الخوفَ والاضطرابَ والقلقَ والكَربَ، فيكون ذلك كربًا آخرَ، وعذابًا آخرَ، وتقريرُ الصّواب في التَّفرِقة بين الفريقين في قوله: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ﴾ بالجمع ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ أبلغُ مِن تقريره بصورة الإفراد؛ لأنَّ هذه التّفرِقةَ نغمةٌ جماعيّةٌ، ونعرةٌ فيها عصبيّةٌ، لا يُنظَرُ فيها للأفراد فردًا فردًا، وإنَّما النّظرُ فيها للجماعة في مقابلة الجماعة الأخرى.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 127.

دلالة التّفصيل ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾:

كُلُّ واحدٍ مِمَن كان في الضَّلالة لا يَعدو أنْ يَرى أحدَ العَذابَينِ أو كليهما

قوله: ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ بدل من اسم الموصول في ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾، "﴿إِمَّا﴾: حرفُ تَفصيلٍ لـ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: ما أوعِدوا مِنَ العذاب، إمَّا عذابُ الدُّنيا، وإمَّا عذابُ الآخِرة، فإنَّ كُلَّ واحِدٍ منهُم لا يَعدو أنْ يَرى أَحَدَ العَذابَينِ أو كِليهما، والتّفصيلُ هنا يبيِّنُ المجملَ قبلَه، وهو قوله: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾، وفي البيان بعد الإجمال مزيدٌ مِنَ الإيضاح وتقرير المعنى، وتفصيلٌ للموعود على أنّه بدلٌ منه على سبيل البدل، فإنّه إمَّا العذابُ الدُّنيَويُّ بغلَبة المسلمين واستيلائِهم عليهم وتَعذيبهم إيَّاهم قتلًا وأسرًا، وإمَّا يومُ القيامة، وما نالَهُم فيه مِنَ الخزي والنَّكال على طريقة مَنع الخُلوِّ دونَ مَنعِ الجواب، فإنَّ العذابَ الأخرويَّ لا ينفَكُّ عنهم بحالٍ"[1]، فهم مَحصورون ومُحاصَرون برؤية العذاب في الدّنيا أو في الآخرة.

دلالة حرف الاستقبال في قوله: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾:

بـرؤيـة مـا يـوعَـدون يكون انـكـشـافُ الحقائق

"حرفُ الاستقبالِ لِتَوكيدِ حصولِ العِلم لَهُم حينَئِذٍ، وليسَ للدَّلالةِ على الاستقبالِ؛ لأنَّ الاستقبالَ استُفيدَ مِنَ الغايةِ"[2].

سرُّ إيثار ﴿مَنۡ﴾ في الآية:

لـوم وتـوبـيـخ على مَنْ كان له عقلٌ أن يمكثَ في ضلالته بعد معاينة الحقِّ والصَّواب

﴿مَنۡ﴾ هنا في قوله: ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ إمَّا أن تكون موصولة بمعنى الّذي، وهي مفعول به للفعل (يعلمون)، وإمَّا أن تكون استفهاميَّة في محل رفع بالابتداء، وهي أكثر ما تُستعمَلُ للعقلاء، وقد قيل: "﴿مَنۡ﴾ عبارةٌ عنِ النَّاطقين، ولا يُعبَّرُ به عن غير النَّاطقين إلَّا إذا جَمَعَ بينهم وبين غيرهم، كقولك: رأيتُ مَنْ في الدَّار مِنَ النَّاس والبهائم، أو يكونُ تفصيلًا لجملة يَدخُل فيهمُ النَّاطقون، ويُعَبَّرُ به عنِ الواحد والجمع والمُذكَّر والمُؤنَّث"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 167.

(3) الرّاغب، المفردات: (منن).

لا مكانَ شرٌّ من جهنّمَ والعياذ بالله

سرُّ التّعبير بأفعل التّفضيل ﴿شَرٌّ﴾:

سرُّ التّعبير بأفعل التّفضيل تبكيتُ الخصم جريًا على طريقتهم في الظّنِّ بأفضليّتِهم بسبب ما أنعم اللّهُ عليهم من خير الدّنيا، تَناسُبًا مع ما سبق ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾، فهو تبكيتٌ للخصم، فكأنَّها ردٌّ لِدعواهُم أنّهم ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾ بضدِّ الصّيغة نفسها.

شرُّ المكان في الآخرة دليلٌ على سوء المَقام

سرُّ إيثار كلمة ﴿مَّكَانٗا﴾ دون (مَقامًا):

"في التّعبير بالمكان هنا دون المَقام المُعبَّر به هناك مبالغةٌ في إظهار سوء حالهم"[1]، وسوءُ المكان أبلغُ في الدّلالة؛ إذِ السّوءُ لا ينفصلُ عنه، فهو ثابتٌ ثباته، وسوءُ المكان يَلزَمُ منه سوءُ المَقام من باب أولى، فبولِغَ لهم في تقرير سوء المَقام بالتّعبير بسوء المكان.

إذا رأى الضُّلَّالُ عدمَ النَّاصر لهم في الآخرة؛ عرفوا أنّهم كانوا مُخطِئين في زعمهم

دلالة العطف في قوله: ﴿وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾:

عُطِفَت هذه الجملة على سابقتها ترتيبًا لها في مَنزِلتها ومشاركةً لها في المعنى المراد منها، فلمَّا ذَكَرَ تعالى كونهم شرًّا مكانًا، وليس هناك مكانٌ شرًّا مِنَ النَّار مع مناقشتهم في عرض الحساب، عطف على ذلك كونهم أضعفَ جُندًا، حيثُ ظنّوا أنَّهم وهم في الدّنيا أنَّ اجتماعَهم هذا ينفعُهُم، فإذا رأَوا عدمَ النَّاصر لهم في الآخرة عرفوا ساعتَها أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُخطِئين في زعمهم هذا، ومن هنا عُطِفَ أحدُ الوصفين على الآخر مشاركةً له.

إذا عاين الكفَّارُ الآخرة وجدوا أنَّ مكانَهم شرُّ مكان، وجنودَهم أضعفُ الأجناد

إيثار التّعبير بأفعل التّفضيل بـ﴿وَأَضۡعَفُ﴾:

هؤلاء ظنّوا أنَّهم فيما سبق خيرٌ مَقامًا وأحسنُ أهل نادٍ، فلمَّا عاينوا الآخرةَ وعذابَها وجدوا أنَّ مكانَهم شرُّ مكانٍ، وأنَّ أعوانَهم وجنودَهم الّذين كانوا يتناصرون بهم في الدّنيا صاروا أضعفَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 126.

الأجناد، فلا مَنعةَ ولا قوَّةَ، فجاء أفعل التّفضيل هنا ناعيًا عليهم خيبتَهم، وظنَّهم الواهي، ومن هنا حُذِفَ المفضولُ للدّلالة عليه، فهنا أراد تفضيلَ خيرِ الجنود المُساندة للحقِّ لا جندهم الواهي، فلا أفضليَّة لهم إذًا، وفيها لفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ حيث رجع الأوّلُ إلى ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾ والثّاني إلى ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾.

إعراب كلمة ﴿جُندٗا﴾، وسرُّ اختيارها:

ما كلُّ مَن في النَّديّ يكون مُقاتِلًا

كلمة ﴿جُندٗا﴾ هنا تمييز مبيِّن لنوعه، وهُمُ الجنودُ أو الأنصارُ أو الأعوانُ الضُّعفاءُ، "عبَّر بالجند؛ لأنَّ قصدَهُمُ المُغالَبةُ، وما كلُّ مَن في النَّديِّ يكون مُقاتِلًا"(1)، فالجندُ هُمُ المَقصودونَ بالضّعف، وهذا نصٌّ في قهرهم وغلبتهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 241.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾ [مريم: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ ضلالةَ الكفرةِ وارتباكَهم في الافتخار بِنِعَمِ الدُّنيا، وعماهم عنِ الطّريق المستقيم، عقَّب ذلك بذكر نعمتِه على المؤمنين في أنَّهم يزيدهم هُدًى في الارتباط بالأعمال الصَّالحة، والمعرفة بالدّلائل الواضحة، وزيادة العلم دأبًا، و﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ إشارةٌ إلى ذلك الهدى الّذي يزيدهم اللّه تعالى؛ أي: وهذه النِّعمُ على هؤلاء خَيرٌ عند اللّه ثَوابًا وخيرٌ مَرجِعًا.

أهلُ البِرِّ والطَّاعةِ تُزادُ هدايتُهم ويُثمرُ زرعُهُم الخيرَ العَميمَ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾: (بقي) "أصلٌ واحدٌ، وهو الدَّوامُ، قالَ الخليلُ: يُقالُ: بَقيَ الشَّيءُ يَبقَى بَقاءً، وهو ضدُّ الفَناءِ"[1]، والبَقاء: ثباتُ الشّيءِ على حاله الأولى، وقد بَقيَ بَقاءً، وقيل: بَقَي في الماضي مَوضِع بَقيَ، وفي الحديث: "بَقينا رسولَ اللّه"؛ أي: انتظرناه، وترصَّدنا له مدّةً كثيرةً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: ما يبقى ثوابه للإنسان مِن الأعمال، وقد فُسِّرَ بأنّها الصّلواتُ الخمسُ، وقيلَ: سبحانَ اللّه والحمدُ للّه، والصّحيح أنَّها كلُّ عبادةٍ يُقصَدُ بها وجه اللّه تعالى، وعلى هذا قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: 86][2].

2) ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: الجذر (صلح) "أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على خِلافِ الفسادِ، يُقالُ: صَلَحَ الشَّيءُ يَصلُحُ صَلاحًا، ويُقالُ: صَلَح بفَتحِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقي).
(2) الرَّاغب، المفردات: (بقي).

اللَّام"[1]، و"الصَّلاحُ: ضدُّ الفساد، وقوبِلَ في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيِّئة في مَواضِعَ كثيرةٍ، والصُّلحُ يختصُّ بإزالة النِّفار بين النَّاس، يُقالُ منه: اصْطَلَحوا، وتَصالَحوا، وإِصلاحُ اللّه تعالى الإنسانَ يكون تارةً بخَلقِه إيَّاهُ صالِحًا، وتارةً بإزالة ما فيه من فسادٍ بعد وجودِه، وتارةً يكون بالحُكم له بالصَّلاح، قال تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد: 2]"[2].

3) ﴿ثَوَابًا﴾: أصلُ الثَّوب: رجوعُ الشّيءِ إلى حالتِه الأولى الّتي كان عليها، أو إلى الحالة المُقدَّرَةِ المَقصودةِ بالفكرةِ، فمِنَ الرّجوع إلى الحالة الأولى قولهم: ثابَ فُلانٌ إلى داره، وثابَتْ إليَّ نفسي، وسُمّي مكانُ المُستقي على فم البئر مَثابَةً، وكذا ثوابُ العملِ، والثَّوابُ: ما يَرجِعُ إلى الإنسان من جزاء أعمالِه، والثّوابُ يُقالُ في الخير والشّرِّ، لكن الأكثر المُتعارَف في الخير[3].

4) ﴿مَّرَدًّا﴾: "الرَّدُّ: صَرفُ الشّيءِ بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، يُقالُ: رَدَدْتُهُ، فارْتَدَّ، والارتدادُ والرِّدَّةُ: الرُّجوعُ في الطَّريق الّذي جاء منه، لكنِ الرِّدَّةُ تختصُّ بالكفر، والارتدادُ يُستعمَلُ فيه وفي غيره، ورَدَّةُ الإبل: أن تَتَرَدَّدَ إلى الماء، وقد أَرَدَّتِ النَّاقةُ، واستَرَدَّ المَتاعَ: استرجَعَه"[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

ويزيدُ اللّهُ تعالى المُهتَدين إلى طريق الحقِّ هدايةً على هدايتهم بأن يثيبَهم عليه مِنَ الأعمال الّتي تبقى كصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ وغيرها من أعمال البرِّ، ثوابُها مذخورٌ عند اللّه تعالى، ومَرجِعُهم خيرٌ وبركةٌ.

ما يقدِّمُهُ العبدُ من عملٍ صالحٍ؛ فهو باقٍ له يوضَعُ في كتابه ليوم الحساب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) الرَّاغب، المفردات: (صلح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثوب)، والرَّاغب، المفردات: (ثوب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رد)، والرَّاغب، المفردات: (رد).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَيَزِيدُ﴾:

قلَّة حظِّ المؤمن مِنَ الدُّنيا ليس لنقصه بل لأنَّه تعالى أراد به ما هو خيرٌ من ذلك

الواو إمَّا أن تكون للعطف "على جُملةِ ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾؛ لِما تَضمَّنَهُ ذلكَ مِنَ الإمهالِ المُفضي إلى الاستِمرارِ في الضَّلالِ، والاستِمرارُ: الزّيادَةُ"[1] أو عطفٌ على ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾؛ لأنَّه في معنى الخبر كأن قيلَ: مَن كان في الضّلالة يَمُدُّه اللّهُ، ويزيدُ المُهتدين هدايةً، أو عطفٌ على الشّرطيّة المَحكيّة بعد القول، كأنَّه لمَّا بيَّن أنَّ إمهالَ الكافر وتمتيعَه بالحياة ليس لفضله عقَّب ذلك ببيان أنَّ قصورَ حظِّ المؤمنِ منها ليس لنقصه، بل لأنَّه تعالى أراد به ما هو خيرٌ من ذلك"[2]، وإمَّا أنَّ قولَهُ: "﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ سيق لبيان حال المُهتَدين إثرَ بيانِ حال الضَّالّين"[3].

بلاغة الاحتباك في هذه الآية والّتي قبلها:

أهل الهدى يتقلَّبون في زيادة هدًى ونعيم لا يدركُهُ أهلُ الضَّلال

في الآيتين احتباكٌ، وهو أن تُذكَرَ جملتان، ويُحذَفَ من كلٍّ مَن أُثبتَ نظيرُه في الأخرى[4]، وسمَّاه الزّركشيّ في البرهان بالحذف المقابليّ، وهو أن يجتمع في الكلام مُتقابلان، فيُحذَفَ من كلّ واحد منهما مُقابِلُهُ لدلالة الآخر عليه"[5]، و"ذكَرَ السَّعةَ بالمدِّ للضَّالِّ أوَّلًا دليلًا على حذف الضّيق بالمَنع لِلمُهتدي ثانيًا، وزيادةَ الهداية ثانيًا دليلًا على حذف زيادة الضّلال أوّلًا، وأشار إلى أنَّه مِثلُ ما خَذَلَ أولئك بالنَّوال، وفَّق هؤلاء لِمَحاسن الأعمال بإقلال الأموال، فقال: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾"[6]، "فالمَعنى على الاحتِباكِ، أي: فلْيَمدُدْ لَهُ الرّحمنُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 168.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278، والآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 128.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278، والآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 128.
(4) السّيوطيّ، التّحبير في علم التّفسير، ص: 282.
(5) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 129.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 241.

مَدًّا فيَزْدَدْ ضَلالًا، ويَمُدُّ للّذينِ اهتَدَوا؛ فيَزدادوا هُدًى"[1]، ولمَّا كان هذا لكونه استدراجًا زيادةً في الضّلال؛ قابلَه بقوله عطفًا على ما تقدَّمَ تقديرُهُ تَسْبيبًا عن قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾، وهو: فيَزيدُهُ ضلالًا، أو على مَوضِع ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ﴾"[2]، ففي الكلام إيجازٌ بليغٌ.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَيَزِيدُ﴾:

زيادة الهدى مِنَ اللهِ صارَت حالًا وخبرًا عنِ المُهتدي، قد بدأت واستمرَّت ولا زالت، فالتّعبيرُ بالفعل المضارع دلالةٌ على تجدُّد هذه الزّيادة واستمرارها واستحضار صورتها الماضية العجيبة الّتي تُسرُّ، وللإيحاء بأنَّ زيادةَ الهدى مِنَ اللّه صارت حالًا وخبرًا عنِ المُهتدي، قد بدأت واستمرَّت وتتجدَّد.

زيادة الهدى مِن أجلِّ النِّعَم

نكتة الإسناد إلى لفظ الجلالة:

عبَّر بالاسم العلم ﴿ٱللَّهُ﴾؛ إشارةً إلى التّجلّي لهم بجميع الصّفات العُلا؛ ليَعرِفوهُ حقَّ مَعرِفتِه"[3]، وفيه تفخيم وتعظيم لتلك الزّيادة؛ لأنَّها زيادةُ جلالٍ وجمالٍ.

الغرض مِنَ الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾:

جاء التّعبيرُ بالموصول هنا للإشارة إلى زيادة تقرير الغرض المَسوق له الكلامُ، وهو هنا إثباتُ زيادة هدى الّذين اهتدوا، وفي ذكر اسم الفاعل موصولًا بهذه الصّلة تقريرٌ لهذا الغرض، ولو قيل بدلًا عنه: ويزيد اللّهُ المُهتَدين، ما دلَّ على شيءٍ من ذلك إلّا بقرائنَ أخرى.

طريقُ الهدى كلُّهُ زيادةٌ في الخير والفلاح

دلالة التّعبير بالماضي في ﴿ٱهْتَدَوْاْ﴾:

ورد التّعبير عن أهل الهُدى بلفظ الماضي ﴿ٱهْتَدَوْاْ﴾ لتحقُّق الهدى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 168.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 241.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 241.

وحصوله منهم حتّى صار أمرًا واقعًا لا مِريَةَ فيه البتّةَ، والمراد أن يكون الهدى أمرًا واقعًا مطبَّقًا في الأفعال لا كلمات تُذكر.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾:

لأهل الهدى بشارة بالنَّجاة وبشارة برفع الدّرجات

هذه الجملة "معطوفة على جُملة: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾، وهو ارتقاءٌ مِن بِشارَتِهم بالنَّجاةِ إلى بِشارَتِهم بِرَفعِ الدَّرَجاتِ، أيِ: الباقياتُ الصَّالحاتُ خَيرٌ مِنَ السَّلامَةِ مِنَ العَذابِ الَّتي اقتَضاها قولُهُ تعالى: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾، أي: فسَيَظهَرُ أنَّ ما كانَ فيه الكَفَرَةُ مِنَ النِّعمَةِ والعِزَّةِ هو أَقَلُّ ممَّا كانَ عليه المُسلِمونَ مِنَ الشَّظَفِ والضَّعفِ باعتِبارِ المآلَينِ؛ إذ كانَ مآلُ الكَفَرَةِ العذابَ، ومآلُ المُؤمِنينَ السّلامةَ مِنَ العذابِ، وبَعدُ فلِلمُؤمِنينَ الثَّوابُ"[1]، وهو "واردٌ من جهته تعالى لبيان فضل أعمالِ المُهتَدين، غيرُ داخِلٍ في حيّز الكلام المُلَقَّنِ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾"[2].

الغرض من حذف الموصوف في الآية:

الأعمال الّتي تنفعُ صاحبَها، وتكون ذخرًا له هي الأعمال الصَّالحة فقط

قولُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ صِفَتانِ لِمَحذوفٍ مَعلوم مِنَ المَقام، أي: الأَعمالُ الباقي نَعيمُها وخَيرُها، والصَّالِحاتُ لأصحابِها هي خَيرٌ عندَ اللهِ مِن نِعمةِ النَّجاةِ مِنَ العذابِ[3]، وحُذِفَ الموصوفُ؛ ليكون كمالُ الاعتناء بوصفَيه؛ لأنَّهما مناطُ المدح والتَّميُّز.

سرُّ التّعبير بالجمع في ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾:

دعوة للتَّنوُّع في الطَّاعات من أجل الرِّفعة في الدَّرَجات

لَمَّا كانت أنواعُ الطَّاعات مختلفةً متعدِّدةً ومتنوِّعةً جاء التَّعبير عنها بالجمع تعظيمًا لأمرها؛ إذِ الجمعُ دليلُ الكثرة والتَّعدُّد، وهي في ذاتها حسنةٌ عظيمةٌ، ولَمَّا كانت متميِّزةً في نفسها عن أضدادِها عُبِّرَ عنها بجمع القلّة، وهو جمع المُؤنّث السَّالم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 168.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 168.

دلالة تنكير ﴿خَيْرٌ﴾:

التّنكيرُ هنا للتّعظيم والتّكثير، كمًّا وكيفًا، فهو كثيرٌ من جهة، وذو شأنٍ عظيمٍ من جهة أخرى، يستحقُّ الإجلال والتّعظيم.

هل التّفضيل بـ ﴿خَيْرٌ﴾ على بابه؟

هل نفعَ الكفرة ما كانوا يفتخرون به مِنَ النِّعم الفانية؟

في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ جاءت كلمةُ ﴿خَيْرٌ﴾، وهي صيغةٌ من صيغ أفعل التّفضيل، ولكن ليس على بابه؛ لأنّه لا خيرَ بعد هذا الخير الّذي عُبِّر عنه بهذه الباقيات، والسِّرُّ في التّعبير باسم التّفضيل هو القصد إلى التّهكُّم بما مُتِّع به الكفرة مِنَ النِّعَم الفانية الّتي كانوا يفتخرون بها، ففي الأسلوب معنى المبالغة مع الإيجاز، أو أنَّ اسم التّفضيل ذُكِرَ على سبيل المُشاكَلة لكلامهم السَّابق، "وهذا جواب عمَّا تخيّل، كيف فُضِّلوا عليهم في خيريّة الثّواب والعاقبة، والتّفضيل يقتضي المشاركةَ وهم لا ثوابَ لهم، وعاقبتُهم لا خيرَ فيها"[1].

سرُّ التّقييد بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

ما منحَه اللهُ تعالى لأهل الهداية هو خيرٌ في ثوابه ومردِّه

﴿عِندَ﴾ ظرفُ مكان دالٌّ على ملكيَّة هذا الثّواب، والمرادُ بها الفضلُ والإحسانُ مِنَ الله تعالى لهؤلاء؛ أي: عنده لا عند غيره، وهذا التّعبير من قبيل الاحتراس الَّذي يُحافظ على المعنى من كلِّ ما يُفسدُهُ أو يُغيِّرُهُ، وعُبِّرَ به هنا ردًّا على الكفرة أنَّ ما منحَه اللّهُ تعالى لأهل الهداية هو خيرٌ في ثوابه ومردِّه، لا كما اعتقدتم فيما تمتَّعتم به من زخارف الدُّنيا الفانية، وقد يكون تتميمًا لمعنى قوله سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ مُشتمِلة على تسكين قلوب المؤمنين، ممَّا عسى أن يختلج فيها من فخر الكفرة.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 144.

سرُّ العدول عن لفظ الجلالة إلى اسم الرَّبِّ:

الخالق والمربّي والمصرِّف لأحوال العباد مانحهم ومعطيهم هو الله تعالى وحدَه

وذلك في قوله: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، فاسم الرَّبِّ يتضمَّن معنى المُلْكِ والتّدبير والّذي يتولَّى الأمورَ حتّى تمامِها، وهو المُصلِحُ لشؤون العباد، فهو خالقُهُم ومربّيهم، وهو المُقدِّرُ المُصرِّفُ لأحوالهم، مانحهم ومعطيهم؛ ولذلك لم نجدِ العرب تُسمّي أصنامَها باسم الرَّبِّ لاعترافهم بكونه سبحانَه هو الوحيد الموجِد المربّي للجميع، فعُبِّر بالرّبِّ؛ ليرشّحَ معانيَ الإحسان والإنعام والإيجاد والتّربية، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى على الباقيات الصّالحات؛ فتزداد فخامةً وعظمةً، فيزداد الّذين اهتدوا سرورًا وغِبطةً، ويزداد الّذين كفروا غمًّا وحسرةً.

سرُّ إضافة اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَب:

لطفٌ وتشريف مِنَ الله تعالى لنبيِّه

وفي التَّعريض لعنوان الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ مِنَ اللُّطف والتّشريف ما لا يخفى"[1]، كما أنَّ فيه "إشارةً إلى أنَّه يربّيها تربيةً تَبلُغُ أقصى ما يُرضيه في كلِّ تابِعيه"[2].

سرُّ التّقييد بالتّمييز ﴿ثَوَابًا﴾، ودلالة تكثيره:

ما أعدَّهُ اللهُ لأهل الهدى مِنَ النَّعيم عظيم

ورد لفظ ﴿ثَوَابًا﴾ هنا تمييزًا مبيِّنًا لنوع هذا الثّواب بكونه خيرَ الثَّواب وأحسنَه، وتنكيره هنا للتّعظيم والتّشريف، والمرادُ هو ثوابٌ عظيمٌ لا يُعرَف كُنْهُهُ ولا يُقادَرُ قَدْرُهُ لعظمته؛ لأنَّ هذا الثَّوابَ هو المقصودُ بالخيريّة، فلا بدَّ أن يكون كذلك.

سرُّ النَّصِّ على الثّواب:

تبكيت أهل الضّلال بإطلاق لفظ الثّواب على أعمالهم الفانية الخاسرة

قال الزّمخشريّ: "فإنْ قلت: كيف قيلَ: خيرٌ ثوابًا، كأنَّ لمفاخراتهم ثوابًا، حتّى يجعل ثوابَ الصّالحات خيرًا منه؟ قلت: كأنَّه قيلَ: ثوابُهم النّارُ على طريقة قوله: (تحيَّةُ بينِهم ضرْبٌ وجيعُ)، ثمّ بنى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 241.

عليه ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾، وفيه ضربٌ مِنَ التَّهكُّم الّذي هو أغيظُ لِلمُتهدِّد مِن أن يُقالَ له: عقابُك النَّارُ"[1].

وجهُ عقدِ مُفاضَلةٍ بين النّقيضين وتأكيده بالتّكرير:

خيريَّةُ الثّواب دليلٌ على خيريّة العاقبة

وذلك لمجيء كلمة ﴿وَخَيۡرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾ وهي على صيغة التّفضيل، والتّفضيلُ يقع غالبًا بين مُتقاربَين، لكنّه جاء هنا بين مُتباعِدين؛ حيثُ إنّ خيريّةَ العاقبة مُتحقِّقةٌ لِمَن عمل صالحًا، وكان الجاحدون بمَعزلٍ من أن يكون لهم خيريّةٌ في العاقبة؛ فجاء إشراكُهم في سِلكِ المُفاضلة ليُفيدَ التَّهكُّمَ بعاقبة الكفرة[2]، وليكونَ في حقِّهم تحسيرًا لهم، وإسكاتًا لهم عمَّا استثاروه من عقد مُقارنتِهم بين الفريقين، والوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾.

وفي تكرير كلمة (خير) مزيدُ اعتناءٍ ببيان الخيريّةِ وتأكيد لها[3].

إيثار التّعبير بـ ﴿مَّرَدًّا﴾:

مردُّ الثّواب على الباقيات الصّالحات وليس كأعمال الكفّار الّتي خسروا فيها

المرادُ بـ(المَرَدِّ) هنا العاقبةُ والمَرجِعُ، وهو مصدرٌ كالرَّدِّ، والمعنى مردُّ الثَّواب على الباقيات، وليس كأعمال الكفَّار الّتي خسروا فيها، وعُبِّر هنا بالمردِّ لمراعاة قوله حكايةً عنِ الكفرة: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾، فناسب الحديثَ عنِ المَرجِع والعاقبةِ، وأيضًا هو مُناسِب لقوله: ﴿شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 522.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 278.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ
ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ
وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

[مريم: 77 - 80]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد استقصاءِ أحوال النّاس يأتي ذكرُ حالِ الكافر المعاند لإنشاء التّعجُّب منه

لَمَّا ذكرَ في الآياتِ السَّابقةِ تَوَعُّدَهُ سبحانه الكافرينَ بالعذابِ الشّديدِ، وتهديدَهُم بما يقطعُ القلوبَ في ذلكَ اليوم بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم: 75]، ثم ثنَّى بذكر المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: 76]، ناسَبَ أن يذكر مثالًا يُتعجب منه في الكفر بآياتِ اللّه تعالى، ممَّنْ تنكّبَ عن الطّريقِ السّويِّ، موبّخًا إياهُ، مُنْكِرًا عليه، وقدْ عطفَ على ما مرَّ منْ سياقٍ في أنَّ طلبَ الخيرِ يكونُ بالرّؤيةِ والتّبصرةِ؛ فهيَ السّبيلُ إلى أنْ يحيطَ المرءُ بالأشياءِ علمًا وخبرةً[1] بما يقولُ هذا الكافرُ، وما يدّعيهُ فسوفَ ينالُ جزاءَهُ وفاقًا.

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: (رأى) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[2] والرُّؤْيَةُ: إدراك المَرْئيِّ، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفسِ أحدَ النَّقيضين عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 241.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).

والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[1]، والرُّؤْيَةُ بِالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، وحقيقة الرُّؤْيَةِ في الآية: مُسْتَعارَةٌ لِلْعِلْمِ بِقِصَّتِه العَجيبَةِ، نُزِّلَتِ القِصَّةُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ المُشاهَدِ بالبَصَرِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَقْوَى طُرُقِ العِلْمِ[2].

2) ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أصلُ الآيةِ: العَلامةُ الثَّابتة، مُشتقَّة مِن التَّأَيي الَّذي هو التَّثبت والإقامة على الشَّيء[3] من قولك: تأيَّيتُ بالمكان إذا أقمتَ به وثَبَتَّ فيه؛ ومن ثمَّ يُقال: لأجعلَنَّك آية، أي: عَلامة، ومِنْهُ سُمّيَت الآيَةُ مِن القُرْآنِ بذلك؛ لأنَّها عَلامَةٌ لانْقِطاعِ الكَلامِ الذي قَبْلَها والَّذي بَعْدَها، وتُطلَقُ على المَصْنوعِ المُعْجِبِ؛ لِأَنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِه أو عَظَمَةِ صاحِبِه[4]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المثبَتَةِ؛ لِأَنَّها علامةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبْرَةِ، وهي أمرٌ وقع ومضى لكن بقي ما يُتَّعَظ به منه ويُتَّخذ مثلًا[5] والمراد بالآياتِ في الآية: القُرْآنُ[6].

3) ﴿عَهْدًا﴾: (عهد) أَصْلٌ يدلُّ على الاحتِفاظِ بِالشَّيءِ وإحداثِ العَهْدِ به في أشياء مُختلفَة: فمنها الحِفاظُ ورعايةُ الحُرْمَة، ومِنْها الوصيّة؛ وإنَّما سُمّيَتْ بِذلِكَ لِأَنَّ العَهْدَ مِمَّا يَنْبَغي الاحْتِفاظُ به[7] والعَهدُ: الأمان، وكذلك: الالتِقاءُ والإلمامُ، يُقالُ: ما لي عَهْدٌ بكذا، والعَهْدُ أيضًا: المنزلُ الَّذي لا يكادُ القوم إذا انْتَأَوْا عنه رجَعوا إليه[8] والعهد كذلك: الميثاق[9] والمراد بالعَهْدِ في الآيةِ: الميثاقُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ الحقُّ سبحانه عن مقالةٍ مِن مقالاتِ الكفَّارِ الباطلة، ويردُّ على قائلها أبلغَ ردٍّ، فيقول: انظُرْ مُتعَجِّبًا يا محمَّدُ ﷺ إلى هذا الَّذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: واللهِ ليعطينّي

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 156.
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (أبي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيَّ).
(5) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (إيي - إي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (عهد).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (عهد).

اعتقادُ الكافرِ باستحقاقه النِّعَم عجيبةٌ من عجائبِ غروره وكِبرِه

اللّهُ في الآخرةِ - على تقديرِ قيامِها - مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللّه وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموتِ، هل عَلِمَ هذا الكافِرُ - المتألّي على اللّه - عِلمَ الغَيبِ، فعَلِمَ أنَّ له في الآخرة مالًا وولدًا، أم له عهدٌ عند اللّه بأنَّه سيعطيه ذلك؟! فليس الأمرُ على ما قالَ فهو مخطِئٌ فيما يقولُه ويتَمَنَّاه، فستَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ بأمرِنا ما يقولُ هذا الكافِرُ المفتري على اللّه تعالى، وسنُجازيه في الآخرةِ على كَذِبِه وكُفرِه، ونزيدُ هذا الكافِرَ في الآخرةِ عذابًا زائدًا؛ بسَبَبِ قَولِه الكَذِبَ على رَبِّه[1]، و"ذُكر أن هذه الآيات أنزلت في العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ الاستفهام وغرضُه:

الاستفهامُ تعريفٌ للجاهل وتذكيرٌ للعالم وتعجيبٌ منْ كفرِ الكافرِ

أورد النَّظمُ الكريم أسلوبَ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قصدًا إلى لفتِ الذّهنِ إلى هذه القصّةِ تعريفًا بها لمن يجهلُها، وتذكيرًا بها لمن يعلمُ، مستعملًا إياها في بيانِ العجبِ من صنيعِ هذا الكافرِ وكفره[3]، واستهزائه وتَهكُّمِه بيوم البعثِ، وهذا مُؤْذِنٌ بغرابة حاله وشناعتِها وفظاعتِها أن تُرى، ويُتعجَّبُ منها[4]، وهي مؤذنة بالاستفهام الإنكاري في إنكار الواقع تنديدًا لحال ذلك الكافر المتلفّع بالغرور، الذي جحد بآياتنا[5].

والغرضُ من الاستفهام إثارةُ النّفوسِ، وتوجيهُ الأنظارِ نحوَ ما وقعتْ عليه الرّؤيةُ، أو المستفهمِ عنهُ؛ لاستحضارِ صورته في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 617، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 411، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 500.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/ 245.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4682.

الأذهانِ، فإن تمكّنَ المعنى في النّفسِ كانَ الحكمُ عليه مُتقنًا رصينًا لمثوله فيها(1).

نوعُ الفاءِ ومعناها في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾:

الفاءُ للعطفِ التَّعقيبي أو للعطف على مقدَّر، أو للتفريع على مجموعِ السَّابق

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ إمَّا أن تكونَ عاطفةً مؤذنةً بإفادةِ التّعقيبِ، والمعنى أن أخبرَ بقصّةِ هذا الكافرِ المعاندِ عقيبَ قصّةِ أولئكَ(2) الّذين أهلكناهُم لتنكّبهم عن طريقِ الحقّ والهدى.

أو أنْ تكونَ عاطفةً على لفظٍ مقدّرٍ يقتضيه السّياقُ والمقامُ، فالاستفهامُ على تقديرِ (أنظرتَ فرأيتَ) ذلكَ الكافرَ بآياتِنا الباهرةِ الّتي يجبُ على كلِّ مشاهدٍ لها أنْ يؤمنَ بها ويصدّقها(3).

وإمَّا أن تكون تفريعيَّةً على ما تقدّمَ من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦﴾ [مريم: 66]، وما اتّصلَ به من التّفريعاتِ والاعتراضاتِ، من لدنِ قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ [مريم: 68] حتّى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: 76]، وقائلُهُ متلفعٌ بغروره كغرورِ أصحابه في إمكانِ البعثِ والنّشورِ(4).

نكتةُ اختيارِ مفردةِ الرّؤيةِ:

رؤيةُ المشاهداتِ إحاطةٌ بالمعلومِ بطريقٍ حسيٍّ

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ الرّؤيةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾؛ للإيذانِ بالإخبارِ؛ لأنّه لَمَّا كانت مشاهدةُ الأشياءِ ورؤيتُها وسيلةً إلى أن يحاطَ بها من جهةِ العلمِ، وصحّةِ الخبرِ عنها(5)، ومؤدَّاهُ الى التّعجيبِ من حالته البديعةِ، وجراءته المقيتةِ الشّنيعةِ(6)؛ أتى بهذا اللفظِ دون غيرِه من مرادفاته، ففي هذا اللفظ دليلُ الدَّعوى والدليل.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 291 - 292.
(2) السمين، الدرّ المصون: 7/ 634.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 158.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 39.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.

الرؤيةُ إما من بابِ الاستعارة أو المجاز المرسل

بلاغة التَّعبير المجازيّ في لفظ الرؤيّة:

استعمال لفظِ الرّؤيةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ استعمالٌ مجازيٌّ، وهو إمَّا منْ بابِ الاستعارةِ؛ كيْ يُعلِمَ السَّامعَ والمخاطبَ بتلكَ القصّةِ العجيبةِ ممّنْ كفرَ بآياتِنا، تنزيلًا للقصّةِ مَنْزِلَةَ الحدثِ المشاهدِ بالبصرِ؛ فهوَ منْ أقوى طرقِ العلم(1).

وإمَّا من باب المجاز المرسل، ففعلُ الرّؤيةِ علميّ قلبيّ، حيث أُطلقت الرّؤية على العلمِ الذّهنيّ، لعلاقةِ السّببيةِ من إطلاقِ السّببِ وإرادةِ المسبَّبِ(2).

أثبتُ العلمِ المتحقِّقُ وقوعُه

دلالةُ التعبير بصيغة الفعل الماضي:

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ فعلٌ ماضٍ؛ معلّقٌ "بمثلِ المتعجّبِ منهُ، فيقالُ: أرأيتَ مثل الّذي صنعَ كذا، بمعنى أنّهُ من الغرابةِ بحيثُ لا يرى لهُ مثلٌ، فقد حفظَ شيئًا وغابتْ عنهُ أشياءُ"(3) وهذا المثلُ قد انقضى وتمّ فيما مضى من الزّمنِ.

وعليه فقولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ بالفعلِ الماضي، دالٌّ على حصولِ الرّؤيةِ وثباتِها؛ بصريةً كانت أم عقليةً؛ لأنّ كفرَ هذا الكافرِ، وادّعاءَهُ وتهكمَهُ بأن يكونَ له مالٌ وولدٌ عندَ بعثه حقيقةٌ ثابتةٌ، يؤيدها سببُ النّزولِ في قصّةِ خبّابٍ، ومطالبته بدَيْنه من العاصِ بنِ وائلٍ، وإنكارُهُ ثمّ استهزاؤهُ بقوله: "فإنّي إذا متُّ بعثتُ ولي مالٌ وولدٌ"(4)، كما هو معهود في تفاصيل القصّة.

الإيذانُ بأهميةِ القولِ لا القائلِ لتكرارِ وقوعِ القولِ المشابه

نكتةُ إبهامِ المخاطبِ بالتَّاءِ:

التَّاءُ في الفعلِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للخطابِ، وهوَ خطابٌ صالحٌ لكلّ منْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(4) سفيان الثوري، تفسير الثوري، ص: 189.

يجوزُ أن يكونَ مخاطَبًا، ولا يرادُ به أحدٌ على التّعيين، ويجوزُ أنْ يكونَ خطابًا للرّسولِ ﷺ[1]، وهو من بعدِ ذلكَ خطابٌ لأمّته.

ونكتةُ عدمِ تعيينِ المخاطبِ على وجه الخصوص - وإنْ كانَ معلومًا مثلَما ورد في سببِ النّزول - ؛ لأنَّ هذه المقالةَ تحتملُ الحصولَ والتّكرارَ في زمانِنا، وفي كلِّ زمانٍ، فليسَ مهمًّا القائلُ قدرَ أهميةِ القولِ[2].

تعيينُ مفعولَي فعل الرؤيةِ:

المعنيُّ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ هو (العاصُ بن وائل) الّذي كفرَ بالقرآنِ[3]، فالموصولُ في موقعِ المفعولِ الأوّلِ، وجملةُ الاطّلاعِ على الغيبِ في محلّ المفعولِ الثَّاني[4] لفعلِ الرّؤيةِ على معنى ألم ترَ هذا الكافرَ استدلالًا بالّذي رآهُ على هذه القضيةِ[5].

سرّ إيثارِ التّعريفِ بالاسمِ الموصولِ:

منشأ العجبِ زعمهُ أن يؤتى مالًا وولدًا

آثر النَّظم الكريم استعمالَ الاسمِ الموصولِ تعريفًا بقوله: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ للإشارةِ إلى ما في حيّزِ الصّلةِ من منشأ العجبِ وسببِ الدّهشةِ من قوله المزعومِ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[6].

من معاني إيثارِ الصّلةِ والموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أنْ ينعى ويُشنّعَ على هذا المُشركِ المتعرّقِ في الشّركِ، وأن يشيرَ إلى قُبحِ فعله[7].

معنى الباءِ في الجارّ والمجرورِ:

الباءُ مؤذنةٌ بملابسة الكافرِ للكفرِ بالآياتِ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ دالّةٌ على معنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9174.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 194.
(4) السمين، الدرّ المصون: 7/ 634 - 635.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9174.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(7) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.

الملابسةِ والملاصقةِ، وهو من المعاني الشَّائعةِ لها في كلامِ العربِ[1]؛ فهم قدْ رضوا بحالِ كفرِهم بالآياتِ، ومالوا إليه، ولابسوا ذلكَ الكفرَ؛ فكانَ أنِ استهزؤوا بيومِ الحسابِ، وادّعوا بإتيانِهم المالَ والولدَ افتراءً.

سرّ تقييد الكفر بالآيات:

زيادةُ التشنيع على الكافرِ بآياتِ القرآنِ خصوصًا

معنى الآيات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرآنُ الكريمُ، والمعنى أنّهُ كفرَ بالآياتِ البيّناتِ الّتي نزلتْ على رسوله ﷺ، وكذّبَ بها، ومنْ جملتِها الآياتُ الدَّالَّةُ على البعثِ والنّشورِ والحسابِ[2]، وتخصيصُ التّكذيبِ بالآياتِ؛ لأنّها هي التي أُنزلت عليهم حججًا، وشواهدَ على الدّين الحقّ ورسالة نبوّة محمّد ﷺ، وإنكارُها هو الكفرُ بكلّ ما يترتّب عليها.

غرضُ جمعِ الآيات وإضافتها إلى نون العظمة:

تكتسي الآياتُ عظمتَها من مصدرِها

جاء التعبير عن الآيات بصيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ لأنّه يريدُها أن تعمّ الآياتِ جميعًا، ومن جملتِها آيةُ البعثِ والنّشورِ[3]، وجاءتِ الآياتُ مضافةً إلى ضميرِ العظمةِ (نا) الدَّالّ عليه سبحانهُ؛ للدّلالةِ "على عظمتِنا بالدّلالاتِ البيّناتِ"[4].

دلالةُ عطفِ فعل القولِ على الكفر:

عطفُ القولِ على الكفرِ دليلُ الهزءِ

لَمَّا كانَ أمرُ ذلكَ اليوم مهولًا مفزعًا؛ فهتكَ أستارَ مقالاتهم، وبيّنَ وهنَها وضعفَها، كانَ من سلسلة تلك الأقوال مقالةٌ عجيبةٌ: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[5]، فعطفهُ على فعل ﴿كَفَرَ﴾، أي: أنَّه كفر بآيات اللّه تعالى، ولم يكتفِ بذلك بل زاد عليه أن قال تلك القولةَ الشَّنيعة

(1) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(3) القنوجي، فتح البيان: 8/ 195.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 241.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 241.

تهكُّمًا واستهزاءً بالبعث؛ فإنّه لم يكنْ جهلُهُ في تعجيزِ القادرِ كافيًا، حتّى زادَ عليه جعلَ العاجزِ قادرًا[1]، وقد يُراد بالقول هنا رسوخ قيلِه اعتقادًا في نفسه؛ "لأنّ المرء إنما يقول ما يعتقد"[2]. ويقوّي ذلك توكيد المقول باللام والنون الثقيلة.

دلالةُ التّعبيرِ بفعل القول ماضيًا:

الإيماءُ إلى خبرٍ غيبيٍّ مذكورٍ في اللّحاق

حكى الحقّ سبحانهُ مقالةَ هذا الكافرِ بقوله: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ﴾ دون أن يقول: (ويقول لأوتين)؛ فجاءَ بفعلِ القولِ على صيغته الماضوية؛ للدّلالةِ على تحقّقها، فالماضي زمنٌ دالّ على التّحقّقِ والثّبوتِ، وأنّه حصلَ وانصرمَ، ولا مجالَ للتّنصّلِ منهُ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ القائل سيُحاسب على قيله الثّابت له، أي: أنَّه سيموت على الكفر، ففيه بضميمةِ بقيَّة الآيات في اللّحاق إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ وهو الموت على الكفر، والحساب يوم القيامةِ.

معنى اللّام ودلالتها:

إذا اشتدّ عنادُ الباطلِ قادَ إلى الوهمِ الباطل

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ داخلةٌ على جواب القسم المحذوف، والتقدير: (واللّه لأفعلنّ)[3]؛ لإفادةِ التّوكيدِ، ذلكَ أنَّ هذا الكافرَ الناكب عن طرق الحقّ سبحانه كفرَ بآياتِ اللّه، ظنًّا أنّه منهجٌ حميدٌ يستجلبُ له العزّةَ والهناءَ، والرّزقَ في الدّنيا؛ ولشدّةِ إيمانه بذلكَ جاءَ بكلامه مؤكّدًا.

بلاغةُ مفردةِ الإيتاء في التّناسب السّياقيّ:

تلاؤم المعاني وتناسبُ الدّلالات أمارةُ بليغِ الاختيار

التّعبيرُ بقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ دالّ على أنّ هذا الكافرَ قد بلغت حُمقُهُ وطمعُهُ أنّه تألّى على اللّه تعالى في قوله هذا، ومن يفعلْ ذلكَ يكذّبْهُ اللّه، فيقولُ الحقّ سبحانهُ: هبْ أنّنا وهبنا له ما تمناهُ، فما بعدهُ إلَّا أنْ نرثَهُ في عاقبتِه؛ فيأتي فردًا مجرّدًا ممَّا كانَ لهُ، أو نثبتَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 58.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 411.

قولَهُ في صحيفته[1]، ونكتةُ اختيار مفردة الإيتاء هو بيانُ أنَّه يزعم أنَّه سيُؤتى المال والولد بسهولةٍ ويُسرٍ، وهذا يُعزِّز القول بأنَّ السياقَ لبيانِ تهكُّمه واستهزائه.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة المضارعِ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾:

الغيبُ لله تعالى ومن زعَمَه لنفسِه فقد باءَ بالخسارةِ

في التّعبيرِ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ وفي دخولِ اللّام على الفعل المضارع دلالةٌ على أنَّه أرادَ الإيتاءَ في المستقبل الأخرويِّ، ويُعزِّز ذلك ما جاء في رواياتِ أسبابِ النزول، عندما تهكَّم العاصي بن وائل بخبَّاب رضي الله عنه وأنكر البعث، فقال: إن كان هناك بعث فسوف أوتى مالًا وولدًا وأعطيك دَيْنَكَ، وعلى القولين فإن المقصودَ بالفعل المضارع الاستقبال، سواءٌ في الدُّنيا أم في الآخرة، وهو مذمومٌ في الحالين، لإخبارِه عن أمرٍ غيبيٍّ هو لله تعالى.

بلاغة التوكيد بالقسم والنون:

منشأ التوكيد إقناعُ الآخرين بقوّةِ الزّعم

جملةُ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ دالّةٌ على القسم من ذلكِ الأحمقِ[2] الواهم، وقد بلغَ من شدّةِ حمقه أن أكّدَ أوهامَهُ بالقسم معَ ما يلزمُ من مؤكّداتٍ في جوابه، وادّعى تحقيقَ ما لا سبيلَ إلى العلم بحصوله، وما علمَ أنّ هذا التّوكيدَ فيه زيادةُ تشنيعٍ عليه، وتكذيبٍ لهُ[3]، والنّونُ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ هي نونُ التّوكيدِ الثَّقيلَةُ الّتي تقدّمها القسمُ[4]، واتّصالُها بالفعلِ المستقبلِ أخصّ؛ لأنّه أرادَ أن يكونَ إيتاؤه المالَ والولدَ في الآخرةِ[5] لا في الدّنيا؛ لأنّ حالهُ في الدّنيا واضحٌ أمرهُ، بخلافِ المستقبلِ الغائبِ؛ فإنّه غيرُ متّضحٍ، فهو أحوجُ إلى تأكيده بحسبِ زعمه واعتقاده.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 176.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4682.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.

بلاغةُ تنكيرِ ﴿مَالًا﴾ وإفراده:

طمعُ أهلِ الباطلِ أشدُّ من باطلِهم

نُكِّر لفظُ المالِ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا﴾ للدلالة على التّكثيرِ؛ أي مالًا كثيرًا وعظيمًا(1)؛ فإنّ هذا النَّاكب عن طريقِ الحقّ والهدى أرادَ مع تهكّمه واستهزائه أن يخبرَ بغناهُ يومَ البعثِ بأن يؤتى مالًا كثيرًا وولدًا.

وذكر المالَ بالإفرادِ، دون أن يقول: (أموالًا)، لبيان أنَّه مالٌ عظيمٌ بقطع النظر عن أنواعِه.

علَّةُ تقديمِ المال على الولد:

لمراعاةِ سببِ النُّزولِ أثرٌ في النَّظم القرآنيِّ

قُدِّم المالُ على الولدِ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ من بابِ الاهتمامِ والتَّنويه بشأنِ النُّزولِ؛ فإنّ الآيةَ نازلةٌ في المالِ؛ لأنّها نزلت في العاص بنِ وائلٍ السّهميّ، وكانَ مَدينًا لخبَّابِ بنِ الأرتِ بمالٍ، فلمَّا طالبهُ قالَ لهُ: "فأَنْظِرني إلى يوم القيامةِ حتّى أرجعَ إلى تلكَ الدَّارِ، فأقضيك هنالكَ حقّكَ"(2) من المالِ، وهذه عادة القرآن في تقديم المال على الولد.

نكتةُ ذكر الولد والمقصودُ المالُ:

استقصاءٌ لأسبابِ الفخرِ والقوة والمال

في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ذكر الولدَ وعطفه على المالِ فأعطاه حكمه، معَ أنّ المالَ هو المقصودُ في الآيةِ، إذ هو المطلوبُ من دائنه، وهو المعطى من مَدينه زعمًا منه لا الولدُ، وإنّما زادَ ذكرَ الولدِ افتخارًا وزيادةً في الإنكارِ(3)، ولإفادةِ أنَّ الولد هم من مصادر المال وأسبابه، فهو استقصاءٌ لأسبابِ الفخر والقوة والمال.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

غرضُ القائلِ المباهاةُ والتّكثيرُ وكلا القراءتينِ تحقّقهُ

اختلف القرَّاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ فقرأ الجمهورُ ﴿وَوَلَدًا﴾ بفتح الواو واللام، وقرأ حمزةُ والكسائيّ ﴿وَوُلْدًا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.

(2) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 313.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 285.

بضمّ الواوِ وسكونِ اللّامِ[1]، فعلى قراءةِ الجمهورِ (الوَلَدُ) بالفتح اسمُ جمعٍ لمفرده ومعناه الابنُ والابنة، أمَّا قراءةُ الضّمّ والسّكونِ ﴿وَوُلْدًا﴾ فهو جمعٌ مكسّرٌ جمعُ (وَلَد) مثل (أَسَدٌ) و(أُسْدٌ)[2]، ومعناه يشمل الأهل[3]؛ فالولدُ على قراءةِ الجمهورِ بمعنى اسمِ الجمعِ، وعلى قراءةِ غيرهم دالّ على الجمعِ، وقائلُهما غرضهُ المباهاةُ والتّكثيرُ، وكِلا القراءتين تحقّقُ ذلكَ الغرضَ.

سرّ فصلِ الفعل ﴿أَطَّلَعَ﴾ عمَّا قبلهُ:

مقتضى المحاورة في الـرَّدِّ الفصل بين الجمل

فصلَ جملةَ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ عمَّا قبلَها؛ لأنّها جوابٌ لكلامه، يدخلُ تحتَ بابِ الأسلوبِ الحكيم[4] بأن يحملَ كلامهُ على ظاهرِ عبارته، وعدًا بأن يقضي الدّينَ من المالِ الّذي سيجدهُ وهمًا عندَ بعثه[5]، وهي داخلةٌ في الرَّدِّ على هذا الزَّاعمِ، كأنَّه قال: عليه أن يطّلع الغيبَ أولًا قبل أن يعدَ بامتلاك المال والولد؛ فضلًا عن تمليكه.

ولَمَّا كانَ من جَراءته الشّنيعةِ أَنِ ادّعى بأن يؤتى مالًا وولدًا يومَ القيامةِ، جاءت جملةُ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردًّا لمقالته الشّنعاءَ، وإظهارًا لبطلانِها بعدَما كانَ من العجبِ منها، فهلْ بلغَ مِنْ شأنِ هذا الكافرِ أنّهُ ارتقى إلى عالمِ الغيبِ الّذي استأثرَ به العليمُ الخبيرُ فادّعى أنْ يؤتى مالًا وولدًا عندَ بعثه، ثمَّ أقسمَ عليه[6] فرطًا في الجهلِ، وزيادةً في الكفرِ، وتوكيدًا للعنادِ؟.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(3) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 92.
(4) "هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له"، ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 94.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

ادّعاءُ الغيبِ لا يصدرُ إلَّا عن جاهلٍ يستحقُّ التَّوبيخ ذي قولٍ منكرٍ

الأصلُ في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ (أأطّلعَ) بهمزتين هما همزةُ الاستفهام، وهمزة الوصلِ الّتي سقطتْ فبقيتْ همزةُ الاستفهام[1] الّتي تفيدُ معنى الاستفهامِ الإنكاريّ التّعجبيّ[2]؛ إنكارِ أن يكونَ قد انكشفت لهُ الحُجبُ، فاطّلعَ الغيبَ، وهو ممَّا يتعجّبُ منهُ.

ويحتملُ الاستفهام أن يدلَّ على التّوبيخ، فهل "بلغَ من عظمةِ شأنه أنِ ارتقى إلى عِلْمِ الغيبِ الّذي توحّدَ به الواحدُ القهَّارُ"[3]، واستأثرَ به العليمُ الخبيرُ؛ لأنّ ما ادّعاهُ لا يتوصّلُ به إلَّا بهذا الشّيءِ، وهو بعيدٌ عنهُ؛ فالتّوبيخُ والتّبكيتُ مناسبٌ لحاله.

نكتةُ التّعبيرِ بالاطّلاعِ:

الاطّلاعُ إشرافٌ من مكانٍ عالٍ

جاء التَّعبير بالاطّلاع لما فيه من معنى الإشرافِ على الشّيءِ، وأن تراهُ من مكانٍ مرتفع عالٍ؛ لأنّ فعلهُ ﴿أَطَّلَعَ﴾ وزنهُ (افْتَعَل) دالّ على المبالغةِ[4] في فعلِ الطُّلوعِ من (طلعَ) إذا ارتقى جبلًا، أو مكانًا عاليًا؛ فجاءت صيغةُ الافتعالِ للمبالغةِ[5]، وفيه مزيدُ توبيخٍ وتكذيبٍ لزعمه.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيةِ:

عدالةُ الرَّدِّ البليغ الاستهزاءُ بالمستهزئِ

في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ استعارةٌ مكنيةٌ، بأن شبّهَ الغيبَ المجهولَ المتّصفَ بالأسرارِ بجبلٍ عالٍ صعبِ المرتقى، تتحطّمُ عليه آمالُ الّذينَ يقصدون استشرافَ آفاقه، ثمَّ حذفَ الجبلَ، وذكرَ شيئًا منْ لوازمه وهوَ الاطّلاعُ والارتقاءُ؛ رومًا إلى تصويرِ سخريتِه البالغة، فإنَّ المخاطبَ بالآيةِ بلغَ منْ حقارتِه وتفاهتِه وصغارِ شأنه أن حاولَ هذا المرتقى العسيرِ المهولِ المحجوبِ بالأسرارِ الملفوفِ بالخفاءِ[6].

---

(1) السمين، الدرّ المصون: 7/ 636.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 39.
(4) وهو أحد معاني صيغة الافتعال، يُنظر: ابن الحاجب، الشافية في علم التصريف، ص: 21.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 282.
(6) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 150.

تصويرُ الغيبِ على أنَّه مشاهدٌ محسوسٌ زيادةً في التَّهكُّم

دلالةُ تعديةِ الفعلِ ﴿أَطَّلَعَ﴾ إلى المفعولِ:

الأصلُ في الفعلِ (اطَّلع) أن يكونَ لازمًا لا متعدّيًا، وآيةُ ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: 54 - 55]، واستُعملَ الفعلُ ﴿أَطَّلَعَ﴾ متعدّيًا إلى المفعولِ في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ استعمالًا مجازيًّا على المشهورِ في رؤيةِ الشّيءِ الّذي يكونُ غيرَ مرئيٍّ لا يراهُ أحدٌ[1]، وهو من بابِ التّوسع في المعنى بما لا يؤدّيه حرفُ الجرّ، فكأنّه يطّلعُ الغيبَ كلّه من غيرِ تقييدٍ، بل ويعرفُ حقيقتَهُ[2]، فلَمَّا كانَ فعلُ الاطّلاعِ محتملًا معنى الرّؤيةِ العينيةِ تعدّى بنفسه، والمعنى: (هلْ رأى الغيبَ عيانًا؟) ولا شيءَ منْ ذلكَ حدثَ؛ إذْ إنّهُ لم يشاهد الغيبَ حقيقةً؛ فهوَ مطموسُ القلبِ والفكرِ[3]، وذلكَ غايةُ التّهكّمِ والاستهزاءِ.

معرفةُ الغيبِ خاصَّةٌ برسلِ اللهِ الكرامِ

دلالةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾:

عبّرَ بـ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما قاله لا يكون إلَّا بوحيٍ من اللّه تعالى، وهو ممَّا لم يوحَ إليه، ففيه توبيخٌ له، وتكذيبٌ لدعواه، وإيماءٌ إلى أنَّه ممنوعٌ من معرفةِ الغيب الذي لا يكون إلَّا للرسلِ الكرامِ.

الــتَّــدرّجُ في التَّكذيبِ أشدُّ مــنــه دفــعــةً واحدة

معنى ﴿أَمِ﴾ ودلالتها التَّكذيبيَّة:

﴿أَمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ متّصلةٌ، ومعناها معَ همزةِ ﴿أَطَّلَعَ﴾ أنّ أيًا من الاطّلاعِ أو اتّخاذِ العهدِ منه تعالى لم يحصلْ، فالمعنى هنا أشدّ من الإنكارِ، بل هو التّكذيبُ والإفحامُ[4]، وهذا يدلُّ على أنَّ التَّدرُّج في التكذيبِ أشدُّ من تكذيب المكذِّب دفعةً واحدةً.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 282.

(2) نشوان الحميري، الحور العين، ص: 244.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.

(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 291.

سرّ التّعبيرِ بالاتّخاذِ دونَ الأخذِ:

ليس للمخاصم شرفُ نوالِ العهدِ من الله تعالى

عبّرَ بالفعلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ولم يعبّرْ بفعلِ الأخذِ مجرّدًا؛ كأن يقول: (أم أخذ عند اللّه عهدًا)؛ لما تعطيه هذه الصّيغةُ (افْتَعَل) من معنى الجهدِ والمشقّةِ والتّكلّف[1]؛ فإنّه طلبَ وأجهدَ نفسهُ، وتكلّفَ وسعى للحصولِ على عهدِ الرّحمنِ لما يبتغيه[2]، وفي ذلكَ إقناطٌ وتيئيسٌ لهُ، فليسَ لمثله أن يكونَ لهُ من الرّحمنِ عهدٌ.

بلاغةُ حصر أقسام المعرفة:

تحصيلُ العلومِ إما اطلاعٌ معرفيٌّ أو إخبارٌ به

في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ جمعٌ بينَ الاطّلاعِ واتّخاذِ العهدِ عندَ الحقِّ سبحانهُ، وفيه حصرٌ للأقسامِ الّتي منْ خلالها تتحصّلُ العلومُ لما يختصُّ للّه وحدهُ بالعلومِ، وفي نفيِ هاتينِ الوسيلتينِ بانَ كذبُ المدّعي والمدّعى عليه[3].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيةِ:

تشبيهُ الوعدِ بصحيفةٍ مكتوبةٍ عهدًا وعقدًا موضوعةٍ عندَ الله

كانَ العربُ إذا أرادوا توثيقَ معاهداتهم جعلوهُ مكتوبًا في صحيفةٍ، ووضعوهُ في مكانٍ حصينٍ مكينٍ كصحيفةِ القطيعةِ معَ الرّسولِ ﷺ وأصحابه الّتي وضعتْ في الكعبةِ، فقولهُ: ﴿عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ منْ ذلكَ القبيلِ، فـ(عندَ) ظرفُ مكانٍ، وهوَ استعارةٌ مكنيةٌ شبّهَ فيها الوعدَ بصحيفةٍ مكتوبةٍ دالّةٍ على العهدِ والعقدِ، موضوعةٍ عندَ الحقِّ سبحانهُ[4].

دلالةُ تقديمِ الظَّرف على المفعول:

كمالُ العهودِ ما صدرَ عن أعلى المقامات

في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ قدّمَ الجارّ والمجرورَ ﴿عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على المفعولِ ﴿عَهۡدٗا﴾: لإفادةِ التّخصيصِ؛ فإنّه إن كانَ صادقًا في دعواهُ فلا يكونُ كذلكَ ما لم يكنْ قد اتّخذَ عندَ اللّه لا

---

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 371.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 6/ 114.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 160 - 161.

عندَ غيرِه العهدَ؛ درءًا لما يمكنُ أن يكونَ قد اتّخذَ عهدًا عندَ غيرِ اللّه من أقرانه الكافرين، ولأمرٍ لفظي وهو مراعاة الفاصلةِ القرآنيةِ؛ فهذه الآية منتهيةٌ بالألفِ ﴿وَوَلَدًا﴾ و﴿عَهْدًا﴾ و﴿مَدًّا﴾، فقدّمَ الجارّ والمجرورَ رعايةً لها؛ لأنّها من مقتضياتِ الفصاحةِ، فضلًا عن الاهتمامِ باسمه تعالى.

نكتةُ اختيار اسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

التّعريضُ بالمشركين في إنكارِهم لصفة (الرَّحْمَنِ)

أُضيفَ الظّرفُ ﴿عِندَ﴾ إلى اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ للتَّعريضِ بما أنكره المشركون من صفة الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠﴾ [الفرقان: 60]، بالإضافةِ إلى دلالةِ هذا الاسم على الرّحمةِ العامّةِ الشَّاملةِ "بالإنعامِ على الطَّائعِ، والانتقامِ من العاصي ثوابًا للطَّائع"[1].

كما أنَّ التّعبيرَ بالرّحمنِ منْ دونِ الأسماءِ الأخرى لهُ سبحانهُ؛ لما في هذا الاسمِ الجليلِ منْ معاني البرِّ والرّحمةِ والإحسانِ، وفيه إيماءٌ إلى تلكَ المعاني لمنْ لم يكنْ لهُ عهدٌ بها، فما بالكَ بمنْ اتّخذَ عندَ الرّحمنِ عهدًا حقيقةً، وهم عبادهُ المؤمنونَ الموحّدونَ؛ فهوَ أجدرُ بالوفاءِ بالعهدِ[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَهۡدٗا﴾:

التنكير لنفي أيِّ عهدٍ يُتصور صدوره

نكتةُ تنكيرِ العهدِ أنّهُ غيرُ مرادٍ تعيينه، وإنَّما المقصود بناء الاستنكارِ عليه، أي: (أتّخذ عهدًا - بقطع النّظر عن مضمونه - عند الحقِّ سبحانهُ وعهدَ إليه بأن يُدْخلَهُ الجنّةَ؟)[3]، فالتنكير لنفي أيِّ عهدٍ يُتصوّر صدوره، فأفاد عموم مواصفات العهد، لا عموم العهود.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 293.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 257، والثعلبي، الكشف والبيان: 17/ 452.

نكتةُ حذفِ متعلّقِ ﴿عَهۡدٗا﴾:

في قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ فالعهدُ يقتضي وجودَ متعلِّقٍ له، وهو هنا محذوفٌ يدلُّ عليه السّياقُ، تقديرُه: (بأنْ يعطيَه مالًا وولدًا)(1).

فائدةُ الفصلِ بينَ ﴿كَلَّآۚ﴾ وما قبلَها:

الردعُ والتنبيه على الادّعاء الباطل

فصلَ الجملةَ المبدوءةَ بـ﴿كَلَّآۚ﴾ عمَّا قبلَها ردعًا وزجرًا وتنبيهًا على الخطأِ، فإنَّ المدّعيَ قدْ أخطأَ فيما يصوّرُهُ لنفسه، ويتمنّى حصولَهُ فليرتدعْ عنهُ(2)، ولينزجرْ أو سيلاقي مصيرَهُ في العذابِ.

معنى ﴿كَلَّآۚ﴾ ودلالتها:

نفي إطلاع الغيبِ واتّخاذِ العهدِ بالزَّجر والتَّوبيخ

لَمَّا كانَ كلٌّ من اطّلاعِ الغيبِ واتّخاذِ العهدِ، فضلًا عمَّا ادّعاهُ لنفسه، وما يلزمُ عن اتّخاذِ العهدِ من القربِ منتفيًا لا واقعًا منهُ شيءٌ حقيقةً(3)، ولا ما ادّعاهُ وتقوّلَهُ، وجاءَ بمنكرِ القولِ - نفاهُ بأداةِ الزجر ﴿كَلَّآۚ﴾(4)، فـ"(كلا) كلمة ردع، وزجر، وتكذيب لهذا الادعاء الفاسد، ونفيٌّ مؤكّد لهذا الافتراء؛ فلن يؤتى هذا الشّقي مالًا ولا ولدًا، وإنما سيُكتب عليه قوله هذا مع ما يكتب من أقواله وأفعاله المنكرة، ثم يكون حصاد هذا كلّه لا مالًا ولا ولدًا، وإنما هو المزيد من العذاب، والمضاعفة من البلاء"(5).

ويجوزُ في ﴿كَلَّآۚ﴾ أن تكونَ دالّةً على الإبطالِ بمعنى النّفي؛ فهي نقيضُ أحرفِ الجوابِ، مثل: إذن وأجلْ ونحوهما، وفيها إبطالُ الكلامِ الّذي قبلَها؛ فيؤتى بها اهتمامًا بالإبطالِ وتسريعه، ثمّ التّشويقِ إلى سماعِ الكلامِ الّذي سيأتي عقبها(6).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 160.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.
(4) العكبري، التبيان: 2/ 881.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 768.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 161.

بلاغة الاستئناف البياني:

الوعيدُ والتّهديد جزاءُ الاستهزاء والتّهكم

لَمَّا تعجّبَ منْ حالِ الكافرِ، ونفى عنهُ ما ادّعاهُ منْ اطّلاعِ الغيبِ، واتّخاذِ العهدِ، لعلَّ سائلًا يسألُ: فماذا يكونُ لهُ بعدَ ذلكَ؟[1]، فجاء الجوابُ: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ويدّعي؛ فهو استئنافٌ بيانيّ ناشئٌ عن ذلكَ السّؤالِ المفترضِ، وتكمن بلاغته في وعيدِ الكافرِ وتهديدِه، جزاءً على استهزائه وتهكُّمِه.

دلالةُ السّينِ في الفعلِ ﴿سَنَكۡتُبُ﴾:

الإيذان بتوكيدِ التّهديدِ توبيخًا في الدنيا وعذابًا بعدَ الموتِ

الأصلُ في السّينِ أن تكونَ دالةً على التّنفيسِ والاستقبالِ[2]، وفي قوله تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ السّينُ مؤذنةً بالتّوكيدِ، توكيدِ التّهديدِ؛ فإنَّ المعنى "نحفظهُ عليه حفظَ منْ يكتبهُ؛ لنوبّخهُ به، ونعذبهُ عليه بعدَ الموتِ؛ فيظهرُ لهُ بعدَ طولِ الزّمانِ أنَّ ما كانَ فيه ضلالٌ يؤدي إلى الهلاكِ لا محالةَ"[3]، لأنَّا "سنكتبه في كتابه الذي يُقرأ عليه والذي ينطق بسيئاته حجة عليه قائمة لا يكون له سبيل لإنكاره، أي: نسجِّله عليه في صكِّه المنشور يوم القيامة"[4]، أي أنّه لا يكونُ ثمّةَ خللٌ في الانتصارِ مهما تطاولَ الزّمانُ وتأخّرَ[5].

قيمُ الهدايةِ مكنونةٌ في النَّظمِ الكريم

ويجوزُ أن تكونَ السّينُ في: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ باقيةً على بابِها من الاستقبالِ والمهلةِ، وكذا الكتابةُ، وغرضُ الإعلامِ بذلكَ حثًّا على أنْ يتوبَ العاصي قبلَ أنْ يكتبَ عليه عصيانُهُ، وهذا منْ عمومِ رحمته تعالى[6]، وهو مناسبٌ لذكر لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ويصح أن يكون معنى التَّهديد هو الظَّاهر، ومعنى الإمهال لفسحِ مجال الهداية هو الضمني.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.
(2) السّين حرف يخلّص الفعل المضارع للاستقبال، يُنظر: السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/ 31.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.

بلاغةُ الإسنادِ المجازي:

تعظيم الوعيد وتفخيم التهديد الصادر عن المجيد

إسنادُ فعلِ الكتابةِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ إليه ﷻ من بابِ المجازِ العقليّ؛ لأنَّ الكَتَبَةَ هم الملائكةُ الكرامُ، فيكون المعنى على تقديرِ "سنأمرُ الحفظةَ بإثباته لنجازيه في الآخرةِ"[1]؛ فالعلاقةُ سببيَّةٌ بأن أمرهُمُ الحقُّ سبحانهُ بإثباتِ قوله ليجازيه به، وتظهر بلاغة الإسناد المجازي، في إرادةِ تعظيمِ الأمرِ وتهويله؛ فإنَّ المخاطبَ إذا ما علمَ أنَّ الحقَّ سبحانهُ بعظمته هوَ منْ سيكتبُ عليه أعمالهُ، خشيهُ وسارَ بمقتضى صراطه المستقيم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾:

ما دام القولُ مستمرًّا فالكتابةُ على منواله مستمرَّة

التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ دالّ على الحالِ والاستقبالِ؛ فإنّنا نحفظُ عليه ما اقترفتهُ يداهُ، ونوبخهُ على سوءِ صنيعه، ونعذبهُ بعدَ الموتِ، وكلّ ذلكَ دالٌّ على "أنّه كائنٌ لا محالةَ في المستقبلِ"[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ يدلُّ على استمرار الكتابة في المستقبل، بدليل التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿مَا يَقُولُ﴾، فالكتابة مستمرَّةٌ، كما أنَّ أقواله مستمرَّة.

توجيه المجازِ المرسلِ في ﴿سَنَكْتُبُ﴾:

الكتابةُ سببٌ في إيقاعِ العقوبةِ عند الإصرار عليها

التّعبيرُ عن العقابِ بالكتابةِ في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من بابِ المجازِ المرسلِ، وعلاقتهُ السّببيةُ[3]، وهو تسميةُ الشّيءِ باسمِ سبّبه؛ فإنّ كتابةَ ما ارتكبهُ المجرمُ سببٌ لما سينالهُ من عقوبة ومصيرٍ[4] في أن يعذّبَ، ويزادَ له العذابُ، ويرِدُ علينا فردًا؛ فيُساقُ مع أقرانه المجرمينَ إلى جهنّمَ وِردًا.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 317.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 447.

(3) المجاز المرسل "ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة ومناسبة غير المشابهة كاليد إذا استعملت في النعمة، لما جرت به العادة من صدورها عن الجارحة، وبواسطتها تصل إلى المقصود بها"، ينظر: الصعيدي، بغية الإيضاح: 3/ 462 - 463.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279 - 280.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾:

تشبيهُ إظهارِ الكتابةِ على رؤوسِ الأشهادِ بإحداثِها

جاء التّعبيرُ بالكتابةِ دونَ سواها؛ لأنّ فيها حفظًا؛ ولأنّ الكتابةَ لا تتأخّرُ عن القولِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: 18]، وفي الكتابةِ تنزيلُ إظهارِ الشّيءِ وإبرازه للعلنِ منزّلةَ إيجادِ الأمرِ المعدومِ بعدَ أنْ لم يكنْ؛ فإنَّ كلًّا منهما إخراجٌ من الكمونِ إلى الظّهورِ، فهيَ استعارةٌ تبعيةٌ، شبّهَ فيها إظهارَ الكتابةِ على الملأِ بإحداثِها وإيجادِها كأن لم تكنْ[1].

لطيفةُ التّعبيرِ بالمضارعِ دون المصدر:

الإيذانُ بمضيِّ المصيرِ على مرِّ العصورِ

استعملَ في جملةِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ دونَ التّعبيرِ بالمصدرِ الصّريحِ (قوله)؛ لإفادته زمنَ الحالِ والاستقبالِ فضلًا عن الحدثِ؛ فالمصدرُ الصّريحُ يكونُ خاليًا من الزّمنِ فيما لوْ عبّرَ بالقولِ، أمَّا التّعبيرُ بالمضارعِ فإنّ القولَ الصّادرَ منهُ يَشي بالاستمرارِ والتّجدّدِ.

ونكتةُ الإتيانِ بأداةِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَقُولُ﴾ الإشارةُ إلى علّةِ الحكمِ، وهو الكتابةُ ﴿سَنَكۡتُبُ﴾، والمعنى أنَّ قولَهُ: لأوتينّ مالًا وولدًا علّةٌ في أن كتبَها اللّهُ عليه فكانَ مصيرُه إلى النَّارِ.

توجيهُ إسنادِ فعل القول للمفردِ:

العبرة بالعموم الدلالي لا الخصوص السياقي

أُسندَ فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ إلى المفردِ دونَ الجمعِ؛ فلم يقل: (ما يقولون)؛ لأنّه لَمّا كانَ النّفيُ عن الواحدِ المفردِ يُفهمُ النّفي عمَّا زادَ عليه اكتفى بالتّعبيرِ إفرادًا[2]، والعبرة بالعموم الدلالي لا الخصوص السياقي.

مناسبة التّعبيرِ بالمضارعِ بينَ ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ و﴿يَقُولُ﴾:

عدالةُ اللهِ تعالى شاملةٌ للتفاصيلِ والكليات

جاءَ بفعلِ الكتابةِ، وفعلِ القولِ مضارعَيْن في قوله تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ لأنّ الكتابةَ لا تتأخرُ عن القولِ؛ فإنّ قولَ ذلك

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.

الكافرِ الجهولِ يكتبُ وقتَ قوله[1] من غيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ؛ فأوردهُما مضارعين، وتوحي المضارعة في الفعلين أيضًا بديمومة الكتابة مع تجدّد فعل القول؛ فكلاهما مستمرَّان مقترنان، أي: بمجرد إحداث القول يُكتب، وهذا دليل العدالة الإلهية، وأنَّ اللّه ﷻ يحاسب عبادَه على أقوالِهم ساعة صدورها، فلا يؤخرها.

نكتةُ حذف متعلق فعل القول:

الإيجازُ في ذكرِ الألفاظِ دليل الوضوح في المعاني

الأصلُ في فعلِ القولِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ أنْ يكونَ لهُ مفعولٌ، أوْ ما يسدُّ مسدّهُ، ولَمَّا كانَ ذكرُ مفعولِ القولِ ممَّا يطولُ؛ حُذفَ منْ بابِ الإيجازِ، والمعنى: (سنكتبُ ونرثُ ما سمَّاهُ منْ عينِ المالِ وعينِ الولدِ)[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

القائلُ مُحاسبٌ على اعتقادِه وأعمالِه

فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ليسَ لفظًا خارجًا من اللّسانِ فحسب، وإنّما هوَ كنايةٌ عن الاعتقادِ والعملِ، فالقائلُ مؤمنٌ بما يقول، معتقدٌ بصوابه، راجيًا وقوعَهُ، وآيةُ ذلكَ أنّهُ أخبرَ بكتابته وإثباته.

معنى الواوِ ودلالتها:

المدُّ بعد الكتابةِ مزيدُ عذابٍ وتخويفٍ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ للعطفِ، فجملةُ المدّ معطوفةٌ على قوله: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾[3]، وغايتُها زيادةُ عذابه وتخويفه، فبعدَ أن سجّلَ عليه جرمَهُ وما ادّعى؛ زادَهُ بأن يمدّ لهُ ما يكونُ سببًا لعذابه.

دلالةُ المضارع ﴿وَنَمُدُّ﴾:

أوردَ الفعلَ في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ مضارعًا؛ للدّلالةِ على معنى الاستمرارِ التّجدّديّ، أي: نزيدُ له في عذابه المستحقّ كلّ يومٍ، ونعذبُهُ من غيرِ انقطاعٍ[4].

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 287.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.

(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 149.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 256.

بلاغةُ إسنادِ فعلِ (المدّ) إلى نونِ العظمةِ:

من تمادى في باطله مُدَّ له العذابُ مدًّا

لَمَّا كانَ قولهُ تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بمعنى أنّه تعالى يزيدهُ من العذابِ فوقَ عذابه جزاءً وفاقًا لما كانَ يدّعيه من إمدادِ نفسه بالمالِ والولدِ[1] ناسبَهُ أن يعبّرَ عنهُ بنونِ العظمةِ؛ فيكونُ مدّ العذابِ معظّمًا مخوفًا بموجبِ النّونِ الدَّالةِ على عظمتِه سبحانَهُ.

غرضُ التّعبيرِ بمفردةِ (المدّ):

مناسبةُ طولِ العذابِ لطولِ الاستهزاءِ

عبّرَ بفعلِ المدّ في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾؛ دلالةً على تطويلِ العذابِ لهُ؛ فهو يستحقّهُ ويستأهلهُ، ونزيدهُ من العذابِ ونضاعفُ لهُ، وهو جزاءُ الكافرين المستهزئين[2].

وللتّعبيرِ بفعلِ المدِّ غرضٌ وهوَ الإطالةُ والبسطُ والجذبُ، فمنْ خصائصِ لغةِ العربِ أنَّ الميمَ والدَّالَ أصلٌ يدلُّ على التّمدّدِ[3] بما يشملُ غيرها من الفروعِ؛ فالمعنى نطيلُ لهُ العذابَ ونبسطهُ.

لطيفةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

إيحاءٌ بأنّ العذابَ كلّه مخصوصٌ بهذا الكافرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾؛ للإيحاءِ بأنّ هذا العذابَ إنّما هو مخصّصٌ لهذا الكافرِ بالآياتِ، الّذي ادّعى ما ليسَ في وسعِه افتراءً على اللّه، وفي ذلك مزيدُ تحسيرٍ له، فكأنّه مخصوصٌ بالعذابِ دونَ الآخرين.

سر تعدية الفعل ﴿وَنَمُدُّ﴾ باللام:

ظاهر الاستدراج أنّه لصاحبه وحقيقته أنّه عليه

عدّي فعلُ المدّ باللّام بقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾، والأصلُ أنَّ العذابَ واقعٌ عليه؛ وذلك لأنّ القصدَ استدراجهُ بما هوَ سببٌ من النّعمِ الكثيرةِ أموالًا وأولادًا، والتي هي محبّبةٌ لهُ في الدّنيا، وهيَ عذابٌ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 17/ 219.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 146.

لهُ في الآخرةِ، وقدْ كدحَ في جمعِها، وخاصمَ عليها بما أوجبَ لهُ التّمادي في الكفرِ الموصلِ لعذابِ الآخرةِ(1).

بلاغةُ المجازِ المرسل:

تسميةُ الغرورِ بالعذابِ من تسمية الشّيءِ بمآله

معنى قوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾، أي: نمدّ له فيما اغترّ به مدًّا، فسمّى الغرورَ عذابًا من بابِ المجازِ المرسلِ؛ فإنّه لَمَّا كانَ الغرورُ والكفرُ سببًا لعذابه سمَّاهُ به، بذكرِ المسبَّبِ وإرادةِ السّببِ(2).

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ على المفعول:

زيادةُ الوعيد دليل زيادة التّهوين

في تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ على المفعولِ ﴿مَدّٗا﴾؛ دلالةٌ على الاهتمامِ؛ فإنَّ الحقَّ سبحانهُ يمدُّ لهذا النّاكبِ عنْ طريقِ الحقِّ من العذابِ لا غيره، فكأنَّ العذابَ مختصٌّ به وحدهُ، كنايةً عنْ شدّةِ جرمه وغروره وتألّيه على اللّه، مع ما فيها من الإهانةِ بشأن الموعود بالعذابِ، فإنَّ زيادةَ الوعيدِ دليلُ زيادةِ التهوين.

دلالةُ التّقييدِ بالمفعولِ المطلق:

جاءَ بالمصدرِ أو المفعولِ المطلقِ(3) في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾، توكيدًا لهذه الجملةِ دلالةً على غضبِ الحقّ سبحانهُ، وشدّةِ وعيده الكافرينَ(4).

دلالةُ تنكيرِ ﴿مَدّٗا﴾:

جاء لفظُ ﴿مَدّٗا﴾ منكَّرًا؛ لإفادةِ التّعظيمِ والتّهويلِ والتّخويفِ؛ والمعنى نطيلُ لهَ مدةَ العذابَ مدًّا عظيمًا مهولًا جزاءً لما كانَ من شأنِ ذلكَ الكافرِ الجهولِ الذي تألَّى على اللّه تعالى.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.

(3) المصدر اصطلاح القدماء، والمفعول المطلق اصطلاح المتأخرين، وهما واحد في المضمون وهو المصدر الدَّال على فعله مع زمن مجهول، وغرضه توكيد الفعل، أو بيان النّوع، أو عدد المرات، كقولهم قرأتُ قراءتين طويلتين، فهي جملة مشتملة على الأنواع الثّلاثة، يُنظر: ابن جني، اللمع في العربية، ص: 48.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.

فائدةُ عطفِ جملةِ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ على ما قبلَها:

الرَّدُّ على الزَّعمِ الكاذبِ بأنَّه سيؤتى مالًا وولدًا

عطفَ جملةَ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ على ﴿وَنَمُدُّ﴾؛ فالمرادُ بالوراثةِ أنّه سيتركُ زعمهُ ذاكَ، وهي خطيئةٌ لازمةٌ لزومَ المالِ للإنسانِ محفوظةٌ عندهُ تعالى، كأنّه مالٌ ورثه من بعدهُ، وفيها ردٌّ على زعمه الكاذب بأنَّه سيؤتى مالًا وولدًا، فإذا كان ما له في الدُّنيا سيكون للّه تعالى، فمن باب أولى أن لا يكون شيءٌ في الآخرةِ.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الميراثِ إلى نونِ العظمةِ:

الميراث الحقيقيُّ لله تعالى لا لأحدٍ من خلقه

أسندَ فعلَ الميراثِ إلى نونِ العظمةِ الدَّالّ عليه سبحانهُ في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ "على إرادةِ أوليائه، أي: يرثهُ ذلكَ أولياؤهُ"[1] تحسيرًا لهُ في أنّه تمنّى على اللّه الأماني، ثمّ ذهبتْ لغيره، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى سيرثه الميراث الكامل في الدنيا على الحقيقة، وهوَ الّذي يورّثهُ العقابَ الأليمَ، والعذابَ المقيمَ في الآخرةِ[2].

دلالة اختيارِ مفردة الوراثة:

الإشعارُ بالحسرةِ قبل وقوعها أدعى إلى ترك أسبابِها

التّعبيرُ بفعلِ الميراثِ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ فيه دلالةٌ على الحسرةِ والحرمانِ لهذا المدّعي المُتَأَلّي على اللّه، فكأنَّ الحقّ سبحانهُ أعطاهُ مُنْيَتَهُ من المالِ والولدِ ما يعطي المؤمنينَ، ثمَّ سلبَهُ عنهُ، وأعطاهُ غيرهُ[3]؛ فيكونُ ذلكَ أدعى لشعوره بالحسرةِ والحرمانِ.

بلاغةُ المجازِ في الفعلِ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾:

الإيماءُ إلى قربِ الموتِ والتهديد بقربِ هلاكه

أوردَ فعلَ الوراثةِ في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ إيرادًا مجازيًا؛ فاستعمالهُ هنا في السّلبِ والأخذِ، أو كنايةً عن لازمه وهو الموتُ والهلاكُ، قصدًا إلى تذكيره بالموتِ، وتهديده بأنّ هلاكهُ قريبٌ محتومٌ[4]، وذكر ابن عطيّة أنّ فعلَ الوراثةِ في الآيةِ مستعارٌ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 257.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4684.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 257.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.

التّي ظنَّ أنّهُ يؤتاها يومَ البعثِ سيرثُها الحقُّ سبحانهُ ما كانَ لهُ منها في حياته الدّنيا بإهلاكه وتركه لها[1].

بلاغةُ حذفِ حرفِ الجرّ:

الكافر المأفون موروثٌ فكيف بمالِه وولده

الأصلُ في فعل: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ أن يتعدى بحرف (من) فيُقال: (نرثُ منهُ)؛ فهو على حذفِ حرفِ الجرّ، أي: نرثُ منهُ مالَهُ وولدَهُ[2]، وهو حذفٌ جارٍ على التّوسعِ في المعنى يرادُ منه المبالغةُ في بيانِ مصيرِ هذا الّذي تألّى على اللّه تعالى، فكأنّه جعلَ ذاتهُ نفسَها ممَّا يورثُ فضلًا عن ماله وولده.

موقعُ جملةِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ من الإعرابِ:

جملةُ ﴿مَا يَقُولُ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الضّميرِ في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾[3]، أي ما يقولهُ ويدّعيه من المالِ والولدِ؛ فيحالُ بينهُ وبينَ ما يدّعيه بعدَ البعثِ والنّشورِ، كما فعلّنا بالموتِ مثلَما يحالُ الوارثُ بينَ ما يرثُ، وبينَ الموروثِ عنهُ[4].

بلاغةُ الكنايةِ:

الموروثُ كنايةٌ عن المالِ والولدِ

المرادُ من جملةِ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ القولُ المذكورُ نفسهُ؛ لأنّه مبنيٌّ على أنّه مؤمنٌ به، معتقدٌ إيَّاهُ؛ فصدرَ عنهُ، وهو يرجو وقوعَهُ، وهو مستحيلٌ ممّن أنكرَ وقوعَ البعثِ، وكفرَ به[5]، فمعنى ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ ليسَ على وجه الحقيقةِ، إنّما المعنى مسمّى ما يقولُ؛ وهذا المسمّى هو المالُ والولدُ، ومنهُ قولُ المرءِ: أنا عندي كذا من المالِ، فتقولُ لهُ: ولي فوقّ ما تقولُ[6] وأكثرُ منهُ؛ فالقولُ كنايةٌ عن المالِ والولدِ؛ لأنّ القولَ نفسهُ لا يورثُ[7].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 31.
(2) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 460.
(3) السمين، الدرّ المصون: 7/ 640.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(7) السمين، الدرّ المصون: 7/ 640.

كنايةٌ عن التّمنّي والطّمعِ في المالِ والولدِ

ويحتملُ التّعبيرُ بـ﴿مَا يَقُولُ﴾ أن يكونَ كنايةً عن التّمنّي والطّمعِ أن يأتيهُ اللّهُ تعالى ما في نفسه من المالِ والولدِ، وبلغَ من طمعه أنّه تألّى على الله، وأقسمَ فكانَ مصيرهُ التّكذيبَ[1].

ومعنى (وراثةِ ما يقولُ ذلكَ الكافرُ)، أيْ: أنّنا نحفظُ عليه مقالتهُ تلكَ، ثمَّ يعاقبُ عليها، فكانَ منْ أمرِ هذا المجرم أنْ يحفظَ عليه ما يقولُ؛ فالوراثةُ بمعنى الحفظِ[2]؛ لقوله ﷺ: "وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُم وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ"[3].

مراعاةُ الإيجازِ منوطٌ بظهور معناه بأدنى تأمّلٍ

علّةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَقُولُ﴾:

الأصلُ في فعلِ القولِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ أنْ يكونَ لهُ مفعولٌ، أوْ ما يسدُّ مسدّهُ، ولَمَّا كانَ ذكرُ مفعولِ القولِ ممَّا يطولُ؛ حُذِفَ منْ بابِ الإيجازِ[4].

كلُّ حادثٍ موروثٌ مهما تطاولتِ الأيّامُ

دلالةُ المضارعةِ في الفعلِ ﴿يَقُولُ﴾:

التّعبيرُ بالمضارعِ يدلُّ عادةً على الاستمرارِ التّجدّدي، وهوَ ما يكونُ هنا بقوله: ﴿مَا يَقُولُ﴾؛ فإنّهُ لَمَّا كانَ هذا الكافرُ مستمرًّا على التّفوه به[5]، والنّطقِ بمضمونه، رجاءَ وقوعه أوردهُ مضارعًا، والمراد بما يقول: ما سيُحدثه من أعمالٍ في الدّنيا، أي: مهما صدر عنه على تطاول الأيام فإنَّه موروثٌ لا محالة.

الإتيانُ فردًا بعد وراثةِ الأعمالِ كلِّها

معنى الواوِ في جملة ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ عاطفةٌ[6]، فقد عطفتْ جملةَ إتيانه فردًا على جملةِ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، والمعنى أنّه يأتينا يومَ القيامةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 31.
(3) رواه ابن ماجه في سننه، رقم الحديث: (223).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.
(6) الدعّاس، إعراب القرآن: 2/ 251.

"مسكينًا منعزلًا عن كلّ شيءٍ لا قدرةَ لهُ على مالٍ ولا ولدٍ، فلا عزّ لهُ، ولا قوةَ بشيءٍ منهما"[1]؛ لعلّة ما ورِثَهُ اللّهُ تعالى عمَّا قالهُ وادّعاهُ.

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿وَيَأۡتِينَا﴾:

تصوير إتيان الكافر فردًا مجرَّدًا

لَمَّا كانَ الفعلُ المضارعُ دالًّا على الحالِ والاستقبالِ[2]، وكانَ تعبيرهُ دالًّا على أنّ مجيئَهُ إيَّانا سيكونُ يومَ القيامةِ والبعثِ[3]، أوردهُ بالفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على ما يستقبلُ من الزّمانِ، ولنكتةِ تصوير إتيانه في ذلك اليوم المشهود.

سرّ التّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ:

إتيان الكافرِ مجرّدًا من المالِ والولدِ يسيرٌ على الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ جاءَ بفعلِ الإتيانِ دونَ مرادفاته كالمجيءِ معَ تقاربهما في المعنى؛ فلأنَّ الإتيانَ يعبّرُ عن المجيءِ بسهولةٍ ويسرٍ[4] منْ غيرِ مشقّةٍ ولا كلفةٍ، وهوَ أخصُّ منْ مطلقِ المجيءِ؛ (فإنّكَ يا هذا ستجرّدُ منْ مالكَ وولدكَ، وتأتينا مجرّدًا؛ فذلكَ سهلٌ يسيرٌ علينا).

بلاغة الحال في لفظِ ﴿فَرۡدٗا﴾:

التّعريضُ بحالِ المعاندِ في الدُّنيا

موقعُ ﴿فَرۡدٗا﴾ في قوله: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ منصوبٌ على الحاليةِ[5]؛ فحالهُ يومَ القيامةِ أن يأتينا فقيرًا مسكينًا خاليًا من المالِ والولدِ والعددِ والعضدِ والعدّةِ والذّخيرةِ "لم نولّه سؤلَهُ، ولم نؤته متمناهُ، فيجتمعُ عليه الخطبانِ: تبعةُ قوله ووبالهُ، وفقدُ المطموعِ فيه"[6]، ففيه تعريضٌ بحاله في الدنيا.

ومعنى ﴿فَرۡدٗا﴾ في الآيةِ أنّ الحقّ سبحانهُ يبعثهُ "ليسَ معهُ ما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.
(2) الجرجاني، المفتاح في الصرف، ص: 53.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.
(4) الراغب، المفردات، ص: 212.
(5) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 19.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 41.

يصيرُ به عددًا، إشارةً إلى أنّهُ يحشرُ كافرًا وحدهُ دونَ ولده، ولا مالَ لهُ"[1]، وفي ذلكَ مزيدٌ من حسرته وعذابه؛ فإنّه لَمَّا تباهى بالمالِ والولدِ ها هو يأتي من دونهما حقيرًا ذليلًا.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

الإعطاءُ للتّملّكِ والإيتاءُ دالّ على المشاركةِ

عبّرَ بفعلِ الإيتاءِ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾، وعدلَ عن الإعطاءِ (لأُعْطَيَنَّ)؛ لأنّ الإيتاءَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويُسْرٍ[2]، وليسَ كذلكَ معَ فعلِ الإعطاءِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنه قد وقع في وهم هذا القائل الجاحد أنه سينال المال والولد في ذلك اليوم منْ غيرِ عنتٍ ولا مشقّةٍ، وفي ذلكَ استهزاءٌ منه وسخريةٌ بأنّه سيؤتى المالَ والولدَ، وما علمَ أنّ ذلك لا يُنالُ إلَّا بأمرين: إطّلاعُ الغيبِ أو أن يتّخذَ عندَ اللّه عهدًا، وكلاهما معدومٌ عندَه؛ ولذلكَ جاءَ التّعجيبُ من حالِه بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾.

والفرقُ بينَ الإيتاءِ والإعطاءِ أنّ الإعطاءَ دالٌّ على التّملّكِ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1] يعطيه من يشاءُ، ويمنعُ من يشاءُ فيما عبّرَ عنه القرآنُ الكريمُ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87] فأمّته مشاركون له في فوائدِه[3]، ولَمَّا كانَ من حديثِ هذا الكافرِ قولُه: "فأنظرني إلى يوم القيامةِ حتّى أرجعَ إلى تلكَ الدَّارِ، فأقضيك هنالك حقّك"[4] دلّ على أنّ هذا المالَ ليسَ ملكًا له، بل سيدفعُه لمن طالبَه به قضاءً.

العهدُ والوعدُ والميثاق:

العهدُ أمتنُ وأرسخُ من الوعدِ وهو أشملُ من الميثاقِ لصدوره من الطّرفين

ذكرَت لفظةُ العهدِ في قولِه تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 60.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: 86 - 87.
(4) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 313.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾، ومعناه كما وردَ عندَ المفسرين كلمةُ الشّهادةِ، أو العملُ الصَّالحُ[1]، والفرقُ بينَ العهدِ والوعدِ أنّ العهدَ يقتضي الوفاءَ، ويكونُ مقترنًا بالشّروطِ، والوعدُ يقتضي الإنجازَ؛ فالعهدُ أمتنُ وأرسخُ؛ ولذلك يقالُ: نقضَ العهدَ، وأخلفَ الوعدَ[2]، فعبّرَ بالعهدِ في الآيةِ؛ لأنّه عهدٌ منه سبحانَه، أمَّا الفرقُ بينَ العهدِ والميثاقِ، فالثّاني توكيدٌ للأوّلِ من جهةٍ، والميثاقُ يكونُ حالًا من طرفٍ واحدٍ، فيما يكونُ العهدُ من طرفين[3]، والمتأمّلُ في الآية وما نفاهُ الحقّ سبحانَه بطريقِ التّعجيبِ يلمحُ أنّه ربّما كانَ العهدُ الّذي عوّلَ عليه هذا النَّاكبُ الجاحدُ قد كانَ من طرفٍ واحدٍ؛ لأنّ الحقيقةَ أنّ المولى سبحانَه لم يعطِه العهدَ بأن يؤتيَه مالًا وولدًا، وأنّى يكونُ ذلك لمن أعرضَ عن آياتِنا وكفرَ بها.

المدّ والإمداد والبسط:

المــدّ لسيـاقِ العذابِ والإمدادُ يـأتي في سياقِ الخيرِ والبسطُ عـامٌّ في الأمـورِ كلّها

في قولِه تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ استعملَ فعلَ المدّ من المدِ، ومعناهُ الزّيادةُ، زيادةُ العذابِ، وزيادةُ مدّته، والفرقُ بينَهُ وبينَ الإمدادِ أنَّ المدَّ يكونُ في سياقِ العذابِ[4]، أمَّا الإمدادُ فيكونُ في سياقِ الخيرِ[5]، ولمَّا كانَ السّياقُ هنا في العذابِ أعرضَ عن الإمدادِ وجاءَ بالمدِّ، أمَّا معنى البسطِ: فهوَ النّشرُ والتّوسيعُ كنشرِ الثّوبِ، والبساطُ الّذي يطلقُ على كلِّ شيءٍ مبسوطٍ، ومنهُ بسطُ اليدِ[6]، ويُلحظُ أنَّ البسطَ متعلّقٌ بمثلِ هذه الأشياءِ، فهوَ عامٌّ في الأمورِ كلّها؛ فالمدُّ أليقُ منهُ في هذا الموضعِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 379.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 57.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 16/ 115.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 71.
(6) الراغب، المفردات، ص: 123.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: 81 - 82]

ملَّة الكفرِ واحدةٌ وبواعثهم على الشِّرك واحدة

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

أخبرَ الحقُّ سبحانَهُ بالبعثِ مبيّنًا ما يكونُ عليه الكافرُ منْ هيئةِ الذّلِّ والخضوعِ، أتبعهُ بما يؤولُ إليه حالُ المشركينَ معَ ما يعبدونَ إشراكًا باللّه، فعجبَ منْ صنيعهم؛ فعطفَ اتّخاذَهُم آلهةً منْ دونِ اللّه لينقذوهُم من العذابِ؛ ولَمَّا كانَ ذلكَ محالًا نفاهُ بأداةِ الرّدعِ ﴿كَلَّاۚ﴾؛ فإنهّم سيكونونَ لهم أعداءً لا أعزَّاءَ، وسيكسبونَهُمُ الذّلَّ على عادةِ الكفَّارِ معَ شركائِهم[1]، فالمناسبة بين هذه الآيات والتي قبلها، بيان حال المشركين في اتخاذ الآلهة، وهو طلب العزة منهم، فهو انتقالٌ من بيانِ حالِ قائلٍ، إلى بيان حال المجموع، لبيانِ أنَّ ما ينطبق على الفرد المتقدم في الوعيد، ينطبق على الجميع.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُونِ﴾: (دون) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبَةِ، يُقالُ هذا دونَ ذاكَ، أَي: هو أَقرَبُ مِنهُ[2] ودون بِمَعْنى قبل، كقولك: دونَ النَّهرِ قِتالٌ، ودونَ بِمَعْنى تحت، كَقَوْلِك: دون قَدَمِكَ خَدُّ عَدوِّكَ، أَي: تَحت قَدَمِك، وكذلكَ الدّون يكون صفةً ويكون نعتاً على هذا المَعْنى، ولا يُشْتَقُّ مِنْهُ فعل، ويُقالُ: هذا دون ذَلِك في التَّقْريب والتَّحقير، فالتَّحقيرُ مِنْهُ مَرْفوع، والتَّقريب مَنْصوب لِأَنَّهُ صفته، ويُقال: دونَك زَيدٌ في المَنزلَة والقُرْبِ والبُعْدِ[3] والمقصود بـ﴿دُونِ﴾ في الآية: نقيضُ فوقَ، وهو تَقْصيرٌ عَنِ الغايَة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 244 - 245.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزز).

2) ﴿عِزًّا﴾: العِزُّ في الأَصل: القوَّة والشِّدَّة والغَلَبَة والرِّفعة والامتناع، خِلاف الذُلِّ[1] يقال: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح للمُضارع -: إذا اشتَدَّ وقَويَ، وبالكسر للمُضارع: إذا قَويَ وامتَنَع، وبالضَّم: إذا غَلَب وقَهَر[2] ويقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صار عَزيزًا، أي: قَويَ بعد ذِلَّة، وأعَزَّهُ اللّه، وهو يَعْتَزُّ بفلان[3]، ورَجُلٌ عَزيزٌ: مَنيعٌ، لا يُغْلب، ولا يُقْهر، وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقْدَر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَويَ وبَرِئ من الذُّل[4] والمقصود من العزِّ في الآيةِ: القوَّةُ والنُّصرةُ، والمعنى: (لِيَكونوا مُعِزّينَ لَهُم)، أَيْ ناصِرينَ[5].

3) ﴿ضِدًّا﴾: أَصلُ المُضادَّة: المُخالَفَةُ والعَداءُ والمُبايَنَة، وكُلُّ شَيْءٍ نازَعَ شَيْئًا ليَغْلِبَهُ فهو ضِدٌّ لَهُ، يُقال: ضَدَدْتُ فُلانًا ضدًّا، أيْ: غَلَبْتُهُ وخَصَمتُهُ[6] وضِدُّ الشَّيْءِ: خِلافُهُ، يُقال: ضادَّني فُلانٌ، أيْ: خالَفَني، والضِدَّانِ أو المُتَضادَّان: الشَّيْئانِ لا يَجْتَمعانِ في وقْتٍ واحِدٍ كاللَّيْلِ والنَّهارِ، إذا جاء هذا ذَهَبَ ذلك[7]، وقَدْ يكونُ الضِّدُّ جَماعَةً، والقَوْمُ على ضِدٍّ واحِدٍ إذا اجْتَمَعوا عليْه في الخُصومَةِ[8] والجَمعُ: أَضْدادٌ، والمقصود بالضِّدِّ في الآية: وهو خِلافُ الشَّيْءِ في الماهيَّةِ أَوِ المُعامَلَة، والمراد به: العَدوُّ[9] أي: أعداءَ مُتعاونين عليهم في خُصومتهم وتكذيبهم.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اصطنع هؤلاء الكفَّار لهم آلِهةً غير اللّه ظانّين أنَّ هذه الأَصنام

ما عَـلَّـقَ العبدُ رجـاءَه وتوكُّلَه بـغـيرِ الـلـه إلَّا خـــاب، ولا استـنـصرَ بغيرِ الله إلَّا خُذِلَ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دون).
(2) النحاس، معاني القرآن: 1/ 379.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(4) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.
(6) الخليل، العين: (ضدد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضد).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضدد).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 164.

ستكونُ مصدرَ عِزَّةٍ وقوَّةٍ لهُم، وقد بيَّن اللّه تعالى ذلك وردَّ عليهم بقوله: واتَّخذَ المُشركونَ أوثانًا يَعبُدونَها مِن دونِ اللّه؛ مِن أجلِ أن ينالوا بها العِزَّ، وتمنَعَهم مِن عذابِ اللّه، وتُقرِّبَهم إليه، وتنصُرَهم، وتشفعَ لهم، فليس الأمرُ كما ظنّوا؛ فهي لا تستطيعُ أن تمنَعَهم من العذابِ، أو تنصُرَهم، أو تشفعَ لهم، أو تقرِّبَهم إلى اللّه، ولكن ستَكفُرُ تلك المعبوداتُ يومَ القيامةِ بعبادةِ المُشرِكينَ لها، وتتبرَّأُ منهم، وتكونُ بخلافِ ما ظنّوا فيهم، فتكونُ أعداءً عليهم في خصومتِهم وتكذيبِهم والتَّبرؤِ منهم، ويَؤولُ بهم ذلك إلى الذلِّ والهوانِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ استعمال الفعلِ ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ آلهةَ المشركين شيءٌ مختلقٌ لا وجودَ له

استُعمل لفظ الاتخاذ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾؛ لأنَّ الاتّخاذَ أنْ يجعلَ الشّخصُ الشّيءَ لنفسه؛ فيكونُ الاتّخاذُ على معنى الاعتقادِ والعبادةِ، وفي هذا الفعلِ إشارةٌ إلى أنَّ عقيدتهُم فيما يعبدونَ من الآلهةِ إنّما هوَ شيءٌ مختلَقٌ متكلَّفٌ لم يأمرْ به اللّهُ تعالى[2]؛ لما تعطيهُ صيغةُ الافتعالِ منْ هذا المعنى وهوَ التّكلّفُ والاختلاقُ، وهو يتضمّنُ إعدادًا وتكلّفًا وتهيئةً من المتّخذِ ممَّا لا يوجدُ في الفعلِ المجرّدِ أخذَ[3]، وفي ذلكَ دليلٌ على أنّ اتّخاذهُم الآلهةَ من دونِ اللّه ممَّا ينافي فطرةَ الإيمانِ غيرِ المحوجةِ إلى إعدادٍ وتكلّفٍ.

بلاغةُ الالتفاتِ من الواحدِ إلى الجمعِ:

سلوكُ المشركين واحدٌ وما قاله ذلك الكافر مقالًا صادرٌ عن البقيَّة مقامًا

التفت الكلامُ من الحديث عن الواحدِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ إلى الحديثِ عن الجمعِ في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾؛ لبيانِ أنَّ ما قامَ به الفرد، هو سلوك الجميع، وما ينطبق على الفرد

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 623، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 148، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 261، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 500.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 31.

ينطبق على الجميع، وفيها أنَّ العبرة بالعمل لا بمن صدر عنه العمل، وللإشارةِ إلى زيادةِ عذابهم بأنّهم يأتونَ إلى مصيرِهم وهم فرادى من غيرِ ناصرٍ ولا معينٍ، وأنّهم يجتمعون على ما يغضبُ الحقّ سبحانَه باتّخاذِهم آلهةً من دونِه، فجزاءُ اجتماعِهم على معصيتِه والكفرِ بآياته أن يأتوه فرادى؛ فيُلقون في جهنّمَ وساءت مصيرًا.

تعيينُ مرجع الضّميرِ:

رجعُ الضَّميرِ بحسب المعنى السّياقيِّ

لَمَّا عطفَ جملةَ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ على جملةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ [مَرْيَم: 66] كانَ ضميرُ الفعلِ ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ عائدًا على المشركين من جهةِ أنّ الحديثَ واقعٌ عن بعضٍ منهُم[1]؛ فهم قد اتّخذوا غيرَ اللّه آلهةً يعبدونَها، ويرجون الخيرَ عندها، ويلتمسون العونَ منها.

دلالةُ الجمعِ في الفعلِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾:

تنوُّعُ المعبوداتِ داخلٌ في مفهومِ الآلهةِ الباطلة

أُسندَ فعلُ الاتّخاذِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ إلى الضّميرِ الواوِ الدَّالِ على الجمعِ؛ لأنّ انتفاءَ العزِّ عن الواحدِ المفردِ قد لا يكونُ مقتضيًا أن ينفيهُ عن الجميعِ[2]، وفي كونِ الضّميرِ في الفعلِ ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ عائدًا على الجمعِ فائدةٌ ودلالةٌ، وهوَ أنّهم جميعًا اتّخذوا آلهةً منْ دونِ اللّه، وبمسميات عدَّة؛ فمنهم من اتّخذَ الأصنامَ، ومنهم منْ عبدَ النّجومَ، وغيرهم عبدوا الملائكةَ، وبعضُهم عبدَ الأشخاصَ، وغير ذلكَ، وكلّ يرى في معبوده نصيرًا وشفيعًا[3].

نكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ على المفعولِ:

تعظيمُ جنايةِ المشركين في اتخاذ شيئًا من دون الله فكيف بالآلهةِ؟!

قُدّمَ الجارّ والمجرور على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ تعظيمًا لجرمهم، وتهويلًا ممَّا اقترفوهُ من سوءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 244.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4684.

عملٍ؛ فإنَّ غرضَ التّقديمِ هوَ إفادةُ الحصرِ والتّخصيصِ، فكأنّهم جعلوا هذه الآلهةَ هيَ المخصّصةُ بالعبادةِ منْ دونِ اللّه لا غيرها، معَ أنَّ هذه الأصنامَ ستنكرُ عبادةَ المشركينَ إيَّاها وتجحدُها[1]، فانصبَّ الإنكار على أن تكون من دون اللّه ابتداءً، وكلُّ أمرٍ صدر عن غيرِ أمر اللّه تعالى فهو باطلٌ منكر، فكيف إذا كان آلهة تُعبد من دون اللّه؟!.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها:

كلُّ ما يبدأ من دونِ الله تعالى فباطلٌ لا حقَّ فيه

دلَّ حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على ابتداءِ الغاية[2]، ومعناه في الآيةِ؛ أنَّ اتخاذَ الآلهةَ كان ابتداءً من الباطلِ؛ لأنَّ كلَّ ما هو من دون اللّه تعالى فهو باطلٌ، وفيه "إيماءٌ إلى أنّ الحقَّ يقتضي أنْ يتّخذوا اللّه إلهًا، إذْ بذلكَ تقرَّرَ الاعتقادُ الحقُّ منْ مبدإِ الخليقةِ، وعليه دلّتِ العقولُ الرَّاجحةُ"[3].

دلالةُ المجرورِ ﴿دُونِ﴾:

كلُّ معبودٍ سوى الله فهو دون

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إيذانٌ بأنَّ كلَّ شيءٍ سوى اللّه تعالى فهو دون، وبأنَّ الحقَّ والإنصافَ يقتضيان منهم أنْ يكونَ اللّهُ هوَ الإلهُ الحقُّ الّذي لا إلهَ سواهُ، ولا معبودَ دونَهُ؛ ليتقرّرَ بذلكَ الاعتقادُ الحقّ منْ مبدأِ الخليقةِ بدلالةِ الألبابِ الرَّاجحةِ[4].

نكتة اختيار لفظ الجلالة:

الأنسبُ بسياقِ الألوهيَّة ذكرُ لفظِ الجلالةِ

في التّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ غيره من أسمائه الحسنى كـ(الرحمن)؛ لما أنَّ السياق يتكلم عن الألوهية، فإنَّ الأنسب بذلك لفظ الجلالة، كما أنّهُ قد "تبيّنَ لهم أنّه الملكُ الأعلى الّذي لا كُفءَ له"[5]، وبما له من القدرةِ التَّامّة،

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 146.
(2) وهو أشهر معانيها في كلام العرب، المبرد، المقتضب: 1/ 44.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 244.

والعظمةِ الباهرةِ، والمهابةِ العالية؛ تعظيمًا وتخويفًا، ولو عبّرَ بغيره من الأسماءِ لتوهّمَ متوهّمٌ اختصاصَ العزّةِ أن يكونَ بذلكَ الاسم دونَ غيره من صفاته أو أسمائه كالرّحمنِ أو العظيمِ أو غيره؛ فلما أتى بالاسمِ الجليل اشتمل على سائر الصِّفات.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ في الإظهارِ والإضمار:

الإظهار والإضمار بحسب المتقدمِ أو لنكتةٍ تقتضي المخالفة

أظهرَ النَّظم الكريم الاسمَ الجليلَ في هذه الآيةِ، وكنّى عنهُ بالضّميرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [الفرقان: 3] فيُسألُ عنْ ذلكَ؟ والجوابُ أنّهُ أجرى الاسمَ في آيةِ الفرقانِ بمقتضى كلامِ العربِ من الإضمارِ بعدَ الذّكرِ؛ فقدَ تقدّمهُ قولهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان: 1]، أمَّا آيةُ مريمَ فكانَ الحديثُ المتقدّمُ إخبارًا عنْ نفسه؛ فكانَ حريًّا أنْ يُظهرَ اسمهُ تعالى؛ لأنّهُ لم يتقدّم ظاهرٌ ليقعَ الإضمارُ بعدهُ[1].

سرّ التّعبير بـ﴿ءَالِهَةٗ﴾ دون (أربابًا):

المشركون وقعوا في شركِ الألوهيَّة لا الرُّبوبيّة

التّعبيرُ بالآلهةِ دونَ الأربابِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ﴾؛ لأنّ غرضَهُم وغايتَهُم العبادةُ لا الرّبوبيةُ من الخلقِ والرّزقِ ونحوه؛ لينالوا يومَ القيامةِ بها العزّةَ والنّصرةَ والشّفاعةَ والنّجاةَ من العذابِ، ثمّ إنّ القرآنَ حكى عن سببِ اتّخاذهم الآلهةَ للعبادةِ؛ أنّهم يعبدونها لتقرّبهم إلى اللّه زلفى[2]، ولم يزعم أحدٌ من المشركين أنَّ أحدًا غيرَ اللّه يخلق ويرزق.

دلالةُ جمعِ ﴿ءَالِهَةٗ﴾:

دخول جميع أنواع الآلهةِ وأصنافها

ورد لفظُ الآلهةِ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ﴾؛ لدلالته على ما عبدوا من الآلهةِ الكثيرةِ، فالآلهة تحتمل أن تكونَ الملائكةَ أو الجنّ أو القديسينَ من الإنسِ أو جبابرةَ الملوكِ، أو

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 1086 - 1087.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 69.

غيرهم، فيدخل في الجمعِ الإنكار على جميعِ أنواع الآلهة التي هي من دون اللّه تعالى.

العبادةُ الباطلة ناشئةٌ عن أوهامٍ فاسدة

نوعُ اللَّامِ ومعناها:

اللَّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّيَكُونُواْ﴾ دالَّةٌ على العلّةِ والسَّبَبيَّةِ؛ فإنّهم اتّخذوا الأوثانَ والأصنامَ آلهةً، وعبدوها من دونِ اللّه؛ "لتكونَ لهم منعة من عذاب اللّه"[1]، وليسَ ذلكَ بكائنٍ إلَّا في أوهامهم العليلةِ، وظنونهم البائسةِ.

تصوير أوهامِ المشركين في آلهتهم المزعومة

دلالةُ المضارع ﴿لِّيَكُونُواْ﴾:

التّعبيرُ بفعلِ المضارعةِ في قوله تعالى: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ فيه دلالةٌ على أنّهم مصرّون على أن تكونَ الآلهةُ الّتي يعبدونَها من دونِ اللّه هي من تجلبُ العزّ على وجه التّجدّدِ والاستمرارِ، فهو تصويرٌ لاعتقادِهم في الآلهة، أنَّها جالبةٌ للعزِّ في أيِّ وقت وفي كل حين.

لمَّا توهم المشركون الآلهة عاقلةً أجرى عليها ضميرَ العاقلِ

فائدة استعمال ضمير العاقل لغير العاقل:

الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿لِّيَكُونُواْ﴾ راجعٌ إلى الآلهةِ الّتي عبدوها منْ غيرِ اللّه، والضّميرُ وإنْ كانَ ضميرَ العاقلِ، غيرَ أنَّ المشركينَ لَمَّا توهّموا تلكَ الآلهةَ عقلاءَ مدبّرينَ أجرى الضّميرَ عليهم مجرى العاقلِ[2].

ظنَّ المأفونُ أنَّ العزَّ تجلبُه آلهةٌ موهومة

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الخبرِ:

قُدِّمَ الجارّ والمجرورُ على الخبرِ في قوله تعالى: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ لإفادةِ التّخصيصِ والحصرِ، فكأنَّ العزّ مجعولٌ في عُبَّادِ الآلهةِ المعبودةِ من دونِ اللّه؛ لشدّةِ حبّهم عبادتَها، وفرطِ قوّةِ رجائِهم في أنْ تعزّهُم، وغلّوهم وطمعهم في الامتناعِ بها[3]، فهم يعتقدون أنَّ الآلهة ستجلب لهم العزَّ دون غيرِهم.

(1) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4590.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 164.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 318.

دلالةُ تنكيرِ ﴿عِزًّا﴾:

تعميمُ العزِّ في النّصرةِ والمنفعةِ

جاءَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ نكرةً؛ لأنّ معناهُ عمومُ النّصرةِ والتّأييدِ والمنفعةِ، وغيرِ ذلكَ من وجوه الخيرِ والمعروفِ[1]؛ لما تعطيه النّكرةُ من المعاني الدَّالةِ على التّعميم.

سرّ التّعبيرِ بلفظ العزّ:

العـزُّ معنًى محبَّبٌ للنَّاس فإن وُجِد تبعَتْه بقيَّةُ المرغوبات

اختار النَّظم الكريم لفظَ العزّ دونَ سواهُ كالعونِ ونحوه في قوله تعالى: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾، أي: يكونون ناصرين لهم، وفي الإخبارِ بالمصدرِ عزًّا عن الآلهةِ تصويرٌ لاعتقادِ المشركين في أنّ آلهتَهُم تمثّلُ العزّ نفسهُ، وأنّ مجردَ الانتماءِ لها يكسبهُم العزّ[2]، والدّلالةُ اللّغويةُ للعزِّ هوَ الامتناعُ من الضّيمِ والحيفِ والظّلم؛ فالعزيزُ هوَ المنيعُ منْ أنْ ينالهُ أحدٌ بسوءٍ، فاتّخاذهمُ الأصنامَ عزًّا أنّهم عبدوها كيْ تمنعَ عنهم عذابهُ تعالى[3]، وهو ظنّ فاسدٌ، ووهمٌ بيّنٌ، والعرب من أكثر النَّاس بحثًا عن العزِّ والمجدِ؛ فلمَّا توهموا ذلك فيها، عبدوها من دون اللّه تعالى.

سرّ فصلِ ﴿كَلَّاۚ﴾ عمَّا قبلَها:

مـآلُ الـوهـمِ الـبـاطلِ الكفر به ومعاداته في الدَّارين

سرّ فصلِ ﴿كَلَّاۚ﴾ عمَّا قبلَها؛ لأنّ فيها انتقالاً من حالٍ إلى أخرى، من طلبِ العزّ من آلهتهم الّتي عبدوها من دونِ اللّه، إلى الكفرِ بها، وأن يكونوا أعداءً لها؛ فيكسبونهم الذّلّ.

ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَلَّاۚ﴾ في موضعِ الاستئنافِ البيانيّ، فثمّةَ سؤالٌ مقدّرٌ مبنيّ على ما سبقَ مفادهُ: وهلْ يعزُّ ذلكَ الكافرَ الجهولَ الأوثانُ الّتي عبدوها؟ فيأتي الجوابُ ﴿كَلَّاۚ﴾ نفيًا لظنونِهم وردعًا لآمالهم في الرّياسةِ والعزّ منْ هذه الآلهةِ المعبودةِ؛ فإنّها لنْ تنقذهُم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 318.

من العذابِ، ولنْ تنجيهم ممَّا أريدَ بهم من السّوءِ[1]، ثمّ ينقلبون عليها كفرًا وجحودًا.

دلالةُ تكرار ﴿كَلَّآ﴾ في السياق:

نفيًا وردعًا لمن تألّى على الله ولمن اتّخذَ الأوثانَ آلهةً من دونِ الله

تكررت ﴿كَلَّآ﴾ في السياق، في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ﴾ فأوردَ ﴿كَلَّآ﴾ مرتين، وهي دالةٌ على النّفي والرّدعِ والتّنبيه والرّدّ لما مضى من الكلام، وبيانِ الغفلة، وسوءِ التّقديرِ، وهي هنا كذلك[2]، فإنّ الحقّ سبحانهُ سيكتبُ تقوّلهُ وتألّيه وادّعاءه؛ فيدخلُ جهنّمَ صاغرًا، ونفيًا وردعًا لإيمانِ هؤلاءِ بآلهتهم الّتي عبدوها من دونِ الله؛ فإنّهم سيكفرونَ بها، فنكتةُ تكرارِها بيانُ شديد غضبِ الله تعالى على المشركين، في اتخاذ أوهامٍ آلهةً من دونه تعالى.

توجيه ﴿كَلَّآ﴾ بينَ الوقفِ والابتداءِ:

يصح الاستئناف بقوله (كلا) على معنى حقًّا

يجوزُ في الموضعينِ الوقفُ على ﴿كَلَّآ﴾ لتتعلّق بما مضى منْ كلامٍ، ويستأنفُ ما بعدَها "والمعنى: (لا لم يَطَّلعِ الغيبَ، ولم يتّخذْ عندَ الرّحمنِ عهدًا)، ومثلهُ ﴿عِزّٗا ۝٨١ كَلَّاۚ﴾، أيْ: كَلَّا لا يكونُ ذلكَ، ويجوزُ الابتداءُ بـ(كَلَّا) في الموضعينِ، بتقديرِ: (ألا ...)، والمعنى: قولهُ (حقًّا)"[3].

ويجوزُ في ﴿كَلَّآ﴾ أن تكونَ واردةً لمعانٍ عدّةٍ: الأوّلُ أنْ تكونَ للتّحقيقِ، أيْ: بمعنى حقًّا، والثّاني للنّفي، والثّالثُ للتّنبيه، والرَّابعُ صلةً للقسم، ولا يوقفُ منها إلّا على النّوعِ الأوّلِ[4].

دلالةُ السّينِ في الفعلِ ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾:

الإشارةُ إلى ظهور الإسلام وذهاب الشرك

السّينُ في قوله تعالى: ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ دالٌّ على الاستقبالِ[5]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 249.
(2) النّحّاس، معاني القرآن: 4/ 359.
(3) الداني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 128.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 149.
(5) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 251.

وضميرُ الفعلِ عائدٌ على المشركينَ؛ فإنّهم سيكفرونَ بعبادةِ الآلهةِ فيما بعدُ؛ ويدخلون في دين الإسلام ضَدًّا على الأصنام لعنًا وتهديمًا، وفي ذلك بشارة له ﷺ بظهور دينه على الكفر(1).

دلالةُ المضارع ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ دالٌّ على تصويرِ ما سيكون منهم؛ فإنّهم سيكفرونَ بالآلهةِ وعدًا منهم متحقّقًا، وإن طالَ الزّمنُ(2).

بلاغة التَّعبير بلفظ الكفرِ:

جحدُ الآلهةِ وإنكارُها هو كفرٌ بعبادتِها

معنى الكفرِ في قوله تعالى: ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ دالٌّ على معنى الإنكارِ والتّنصّلِ؛ فجاءَ تعبيرُهُ عن الجحودِ والإنكارِ بالكفرِ؛ فإنّ المشركينَ سيكفرون بعبادةِ الآلهة، وستكونُ ذلًّا لا عزًّا لهم، والتّعبيرُ بهذا الفعلِ دالٌّ على كفرهم بالآلهةِ من بابِ الإنكارِ الاعتقاديّ؛ فهم منكرونَ لتلكَ الأوثانِ أن تكونَ آلهةً، لا على جحودِها على وجه الإطلاقِ(3).

مرجعُ الضّميرِ في ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ وفي ﴿بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ وفي ﴿وَيَكُونُونَ﴾:

يحتمل عودُ الضمير إلى المعبودِ أو إلى العابدِ

الضّميرُ في قوله: ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ متردِّدٌ في أنّهُ عائدٌ إلى العابدِ أو المعبودِ، فمنْ قالَ إنّهُ المعبودُ أرادَ به الملائكةَ، أو أنّهُ أرادَ الأصنامَ الّتي يحييها الحقُّ سبحانهُ يوم القيامةِ، ثمَّ تتبرّأُ منْ عبادتهم؛ فتعظمُ لذلكَ حسرتهُم، ومَنْ قالَ: إنَّ الضّميرَ يعودُ إلى العابدِ فإنَّ هؤلاءِ المشركينَ سينكرونَ أنهم عبدوا تلكَ الأصنامَ بأنّهم أقسموا بأنّهم لم يكونوا مشركينَ(4)؛ فتنوعُّ مرجع الضّميرِ ممَّا يقتضيه السّياقُ، وهو دالّ على تنوّعِ المعنى وكمالِه، لا تَشَتُّتِه وانفصالِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 164.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 245.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 164.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 563 - 564.

نوعُ الباءِ ودلالتها:

البـاءُ مؤذنةٌ بتمامِ الملابسةِ في إنكارِ عبادةِ الأصنامِ

المشهورِ في معنى الباءِ في كلامِ العربِ دلالتُها على المصاحبةِ والملاصقةِ[1]، وهي كذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾؛ فهي مؤذنةٌ بكمالِ الملابسةِ، وتمامِ المصاحبةِ؛ فإنّ هؤلاءِ قد كفروا بتلك العبادةِ، وانحازوا عنها، ولابسوا إنكارَها وجحدَها، بعد ما كان من أمرهم خلافَ ذلكَ.

سرّ تعريفِ العبادةِ بالإضافةِ:

في الإضافةِ تكاملٌ في المعنى في تردّدِ الكفرِ بينَ العابدِ والمعبودِ

في قوله تعالى: ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ وردتِ العبادةُ معرفةً بالإضافةِ إلى الضميرِ (هُم)، وهوَ منْ إضافةِ المصدرِ لفاعله على حذفِ المفعولِ، والمعنى أنَّ المشركينَ سيكفرونَ بعبادةِ الأصنامِ، ويجوزُ أنْ تكونَ منْ إضافةِ المصدرِ لمفعوله على حذفِ الفاعلِ، والمعنى أنَّ الأصنامَ ستكفرُ بعبادةِ المشركينَ إيَّاها[2]، وفي الاحتمالينِ تكاملٌ في المعنى والدّلالةِ في أنَّ الكفرَ متوجهٌ من العابدِ إلى المعبودِ، ومن المعبودِ إلى العابدِ، فكلا الفريقين يكفرُ بنظيره، ويكون ضدّه[3].

بلاغةُ العطفِ ودلالته:

من شديد النَّدم الانقلاب الضِّدي دون الاكتفاءِ بالكفر

جملةُ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ معطوفةٌ[4] على جملةِ ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾، وفي هذا العطفِ مزيدُ إنكارٍ؛ فبعدَ أن جحدتِ الآلهةُ عبادةَ المشركينَ زادت عليها صيرورتها عليهم أعوانًا بتكذيبِهم ولعنهم والتّبرؤ منهم[5]؛ فالجملةُ المعطوفةُ مؤكّدةٌ لمضمونِ الجملةِ المعطوفةِ عليها.

دلالة فعل الكونِ المضارع:

يجوزُ في معنى فعلِ الكونِ في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ﴾ أن يردَ بمعنى التّحوّلِ والانتقالِ والتّصييرِ؛ فإنّهم اتّخذوا الآلهةَ من دونه

(1) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 639.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4686.
(4) الدعَّاس، إعراب القرآن: 2/ 251.
(5) الحداد، تفسير الحداد: 4/ 224.

تعالى؛ طلبًا للعزّ، ثمّ انتقلوا وتحوّلوا إلى كفرهم بها، فبعدَ ما كانتِ الأصنامُ معبودةً من لدنِ الكفَّارِ تكونَ أعوانًا على عبَّادها يومَ القيامةِ، فطلبُ العزّ انقلبَ وتحوّلَ إلى الضّدّ وهو الذّلّ[1].

تحولُ الأصنامِ ضدَّ عبَّادها فيه تمام الخزي المناوئ للعزِّ

نكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

في قصرِ الضّدّيةِ عليهم مزيدُ تحسيرٍ وندامة

قدّمَ الجارّ والمجرورِ على الخبرِ في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾؛ لإرادةِ القصرِ والتّخصيصِ ممّن كانوا يظنّون نصرهُم وعزّتهم، فإذا هم عليهم ضدًّا لا على غيرهم، فكأنّه قصرَ الضّدّيةِ عليهم، وفي ذلكَ مزيدُ التّحسيرِ والنّدامةِ.

دلالة استعمال حرف الاستعلاء:

الإشعارُ بالعلوّ والتّمكّنِ في ضدّيتهم وعداوتهم

في التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ (على) في القيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للإشعارِ بالعلوّ والتّمكّنِ في كونهم ضدًّا لا عونًا وبلاءً لا عزًّا، فهم عونٌ عليهم في كونهم أنَّهُم وقودُ النَّارِ وحصبُ جهنّمَ ولأنّهُم عُذّبوا بسببِ عبادتِها"[2].

بلاغة اختيارِ لفظ الضدّ:

بيانُ أنَّ الأصنام ستكونُ عونًا على أصحابها

قولُه تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ معنى الضّدّ هو " كلّ شيءٍ ضادَّ شيئًا ليغلبَهُ، والسّوادُ ضدّ البياضِ، والموتُ ضدّ الحياةِ، واللّيلُ ضدُّ النّهارِ"[3]، والمرادُ بالضّدّ ما كانَ عونًا، فعونُ الرّجلِ ما كانَ يضادّ عدوّه وينافيه بأن يعينَه عليه[4]؛ فإنّ الأصنامَ الّتي كانت تُعبدُ من دونِ اللّه ستكونُ أعوانًا على من كانَ يعبدُها من الكفَّارِ[5]؛ فاختارَ لفظَ الضّدّ، ولم يستعملْ لفظَ العدوّ لإرادةِ هذا المعنى، وهو العونُ ولا يتحقّقُ معنى العونِ في لفظِ العدوّ.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 101.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 564.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ضد).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 574.
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 464.

بلاغةُ الكنايةِ عن الصفة:

الضِّديَّةُ في هذا السياق كنايةٌ عن الذُّلِّ

معنى الضّدّ في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أنّهم يجيءُ منهُم نقيضُ ما كانوا يأملونهُ ويرجونهُ؛ فيصيرُ ذلكَ بهم إلى الذّلةِ والصّغارِ، خلافَ ما أملوهُ من العزّ[1]، وضدّ ما كانوا يرجونهُ من الرّفعةِ والمجدِ، فهو كناية عن صفةِ الذلِّ.

بلاغةُ تنكيرِ ﴿ضِدًّا﴾:

لتحقيق عموم المعاني الكثيرة والدلالات المتنوعة

أوردَ لفظَ ﴿ضِدًّا﴾ على صيغةِ التّنكيرِ؛ لأنّه يحتملُ دلالاتٍ متعدِّدةً ذكرها المفسرون كالقرناءِ والأعوانِ والأعداءِ والبلاءِ، "وقيلَ غيرُ هذا ممَّا لفظُ القرآنِ أعمّ منهُ، وأجمعُ للمعنى المقصودِ"[2].

توجيه إفرادِ ﴿ضِدًّا﴾ وهو جمعٌ:

الضّدُّ وصفٌ للجماعةِ على معنى الأعوانِ أو القرناءِ

سياقُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ جارٍ في الجمعِ في فعلِ الكونِ المشتملِ على الواوِ أكانَ عائدًا على الآلهةِ أو الكفرةِ، ثمّ جاءَ الخبرُ ﴿ضِدًّا﴾ مفردًا، فهلَّا تطابقَ الاسمُ معَ الخبرِ؟ والجوابُ عن ذلكَ أنّه لَمّا كانَ الضّدّ صفةً للجماعةِ وحْدهُ، مثل الرّصدِ والإرصادِ[3]، وقد يكونُ التّوحيدُ على معنى الجمع كالأعوانِ أو القرناء أو الأعداء[4].

والضّدُّ بمعنى خلافُ الشّيءِ في المعاملةِ كتسميةِ العدوِّ ضدًّا، وهوَ اسمُ مصدرٍ؛ ولكونه وردَ على هذا المعنى كانَ لازمًا أنْ يكونَ في الوصفِ على حالةٍ واحدةٍ، فلا يطابقُ موصوفهُ[5]، فقالَ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾؛ فجاءَ وصفًا مفردًا وموصوفهُ جمعًا.

وفي توحيدِ الضّدّ معَ أنّه جمعٌ لدلالته على الآلهةِ أو الكفرةِ إيماءٌ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 31.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 32.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 251.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 389.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 164.

إلى أنّ اتّفاقَ كلمتهم واحدةٌ، وأنّهم متضامنونَ متعاونونَ، وأنّهم لفرطِ ائتلافهم واتّحادهم في الإضلالِ يبدون كشيءٍ واحدٍ[1]، وهو جارٍ على طريقةِ قوله ﷺ: "وَهُم يَدٌ على مَنْ سِواهُم"[2].

دلالةُ فاصلةِ الآيتين ﴿عِزًّا﴾ و﴿ضِدًّا﴾:

تعيين المقابلةِ في الفواصل فالضّدّ مقابلٌ للعزّ

ختمَ الآيةَ الأولى بقوله: ﴿عِزًّا﴾ فيما ختمَ الآيةَ الثَّانية بقوله ﴿ضِدًّا﴾؛ لأنّهُ أرادَ مقابلةَ هذينِ الاسمينِ، فالضّدُّ مقابلٌ للعزِّ، مماثلٌ له في الوزنِ[3]، والمعنى "يكونونَ عليهم ضدًّا لما قصدوهُ وأرادوهُ، كأنّهُ قيلَ: ويكونونَ عليهم ذلًّا، لا لهم عزًّا، أوْ يكونونَ عليهم عونًا ... ، وكأنَّ العونَ سمّي ضدًّا؛ لأنّهُ يضادُّ عدوّكَ، وينافيه بإعانته لكَ عليه"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِزّ والسيادة:

السّيادةُ للملكِ أمّا العزّ فهو الغلبةُ والقهرُ لتكونَ الآلهةُ مانعةً من عذابِهم

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ عبّرَ بالعزّ علةًّ لاتّخاذِ المعبودين من دونِ اللّه، ومعنى العزّ متضمنٌ معنى الغلبةِ والقهرِ[5]، أمَّا السّيادةُ فهي من "السّيّدِ المالِكِ لتدبيرِ السوادِ، وهو الجمعُ، وسمّي سوادًا؛ لأنّ مجتمعَه سوادٌ إذا رُئيَ من بعيدٍ، ومنه يقالُ السّوادُ الأعظمُ"[6]، وليسَ الموضعُ هنا موضعَ سيادةٍ وملكٍ، وإنّما موضعُ غلبةٍ وقهرٍ؛ ليمتنعوا بهذه الآلهةِ من العذابِ[7] بحسبِ زعمِهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 41.
(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: (959).
(3) يحيى العلوي، الطراز: 3/ 22.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 41.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 355.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 61.

العبادة والطاعة:

العبادةُ الحقة لله والطَّاعةُ أعمُّ فهي لله ولغيره

في قولِه تعالى: ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ ذكرَ العبادةَ هنا، ومعناها "غايةُ الخضوعِ، ولا تستحقُّ إلَّا بغايةِ الأنعامِ؛ ولهذا لا يجوزُ أنْ يعبدَ غيرُ اللّه تعالى، ولا تكونُ العبادةُ إلَّا معَ المعرفةِ بالمعبودِ"[1]، أمَّا الطَّاعةُ فأمرُها واسعٌ فهيَ وإن كانت للّه وجوبًا وابتداءً لكنّها قدْ تكونُ لغيرِه، كأن يطيعُ الإنسانُ الشّيطانَ قاصدًا أوْ غيرَ قاصدٍ، ولكن بأنْ يتّبعَ دعاءهُ ووسوستَهُ وإرادتَهُ[2]، ولم يذكرِ الطَّاعةَ في الآيةِ معَ أنَّ الظَّاهرَ التّعبيرُ بالطَّاعةِ في عبادةِ غيرِ اللّه، لكنّهُ رامَ أنْ يبينَ خسرانَ منهجِهم وخطأَ طريقِهم في أنّهم عبدوا تلكَ الآلهةَ حتّى جعلوها في العبادةِ قرينَ الحقِّ سبحانهُ، ثمَّ ماذا بعدَ ذلكَ؟ سيكفرونَ بتلكَ العبادةِ الّتي حقّها أنْ تكونَ طاعةً لا عبادةً، غيرَ أنّها كانتْ كذلكَ لضلالِهم، وتنكّبِهم عنْ طريقِ الحقِّ والهدى.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣
فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ
إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦ لَّا
يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 83 - 87]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيان الكافرين مع معبوداتهم إلى بيانِ الأسباب المحركة للباطل

لَمَّا بيَّن في الآياتِ السَّابقة حال الكافرين مع معبوداتهم من دون اللَّه تعالى، شرع هنا في بيانِ أثرِ الشياطين في الكافرين، حيث كانَ أمرُ رجوعهم عنْ متابعةِ الشّياطينِ فضلًا عنْ كفرهم بهم، دلَّ على أنَّ ذلكَ واقعٌ بمشاهداتِ الأفعالِ الصَّادرةِ منهم، والمنافيةِ لرزانةِ الحلم، ووقارِ العلم، فترى الشّياطينَ تحرّكهُم تحرّكًا عنيفًا، وتزعجهُم في المعاصي، وكلّهُ معدودٌ عليهم، فلمَّا بيّنَ حالَ الكافرينَ أتبعهُ بحالِ أهلِ الإيمانِ من المتّقينَ، ثمَّ أتبعهُ بما يدلُّ على إهانةِ أعدائه في مستقرهم في جهنّمَ، فلا تشفعُ لهم شفاعةُ الشَّافعينَ إلَّا قليلًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَؤُزُّهُمۡ﴾: (أزّ) أَصلٌ يَدُلُّ على التَّحَرُّكِ والتَّحريك والإزْعاج[2] قالَ الخَليلُ: الأَزُّ: حَملُ الإنْسانِ الإنْسانَ على الأَمرِ برِفْقٍ واحْتيالٍ، الشَّيْطانُ يَؤُزُّ الإنْسانَ على المَعْصيَةِ أَزًّا، قالَ أَبو عُبَيْدٍ: الأَزُّ: ضَمُّ الشَّيْءِ إلى الشَّيءِ، قالَ الخَليلُ: الأَزُّ: غَلَيانُ القِدْرِ، وهوَ الأَزيزُ أَيْضًا[3]، والأَزُّ: صَوْتُ الرَّعْدِ، يقالُ: أَزَّ يَئِزُّ أَزًّا وأَزيزًا، والأَزيزُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 245 - 247.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أزّ).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (أزز).

القُرُّ الشَّديدُ، يُقالُ: لَيْلَةٌ ذاتُ أَزيزٍ ولا يُقالُ: يَوْمٌ ذو أَزيزٍ[1] والأَزيزُ أيضًا: شِدَّةُ السَّيْرِ، يُقالُ: أَزَّتْنا الرّيحُ، أَيْ: ساقَتْنا، وبَيْتٌ أَزَزٌ: إِذا امتَلأَ ناسًا[2]، والمرادُ بالأَزِّ في الآية: الهَزُّ والاِسْتِفْزازُ الباطِنيُّ[3].

2) ﴿نَعُدُّ﴾: (عدّ) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ لا يَخْلو مِنَ العَدِّ الَّذي هوَ الإِحْصاءُ، ومِنَ الإِعْدادِ الَّذي هوَ تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ، وإِلى هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ تَرْجِعُ فُرُوْعُ البابِ كُلُّها، فالعَدُّ: إِحْصاءُ الشَّيءِ[4] تقولُ: عَدَدْتُ الشَّيءَ أَعُدُّهُ عَدًّا فأَنا عادٌّ، والشَّيْءُ مَعْدودٌ، والعَديدُ: الكَثْرَةُ، وفُلانٌ في عِدادِ الصَّالِحينَ، أَيْ: يُعَدُّ مَعَهُم، والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ ومبلغه[5] والجمع: أعداد، ومِنَ الوَجْهِ الآخَرِ: العُدَّةُ، ما أُعِدَّ لِأَمرٍ يَحْدُثُ[6]، والمرادُ بالعَدِّ في الآيَة: الحِسابُ.

3) ﴿وَفْدًا﴾: (وفد) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إِشْرافٍ وطُلوعٍ[7] يُقالُ: وفَدَ القومُ يَفِدونَ وِفادَةً، وهم وفْدٌ ووُفودٌ، وهم الَّذين يَقْدَمون على الملوك مستنجزين الحوائج، ومِنْهُ: الوافِدُ من الإبل، وهو السَّابق لغيره[8] والوَفْدُ الرُّكبان المُكَرَّمون، وفَّدَه الأَميرُ إِلى الأَميرِ الَّذي فوقَه، وأَوْفَدَ فُلانٌ إيفاداً إذا أَشْرَف، وأَوفدتُه أَنا إِلى الأَميرِ: أَرْسَلْتُه، والإيفادُ: الإِسْراعُ، وجَمعُ الوَفْدِ أَوْفادٌ ووُفودٌ[9]، والمقصودُ بالوَفْدِ في الآية: الجَمعُ مِنَ الرِّجالِ الَّذين يَفِدونَ على غيرهم لأَمرٍ مِنَ الأُمورِ المهمّة، والمُرادُ: يقدمون مُكرَّمين مُبَجَّلين رُكبانًا إِلى الرَّحمن.

4) ﴿وِرْدًا﴾: (ورد) أَصْلٌ يَدُلُّ على الموافاةِ إِلَى الشَّيءِ[10] فالوِرْدُ: السَّيْرُ إِلَى الماءِ، وتُسَمَّى الأَنْعامُ الوارِدَةُ وِرْدًا تَسْمِيَةً على حَذْفِ المُضافِ، أَيْ: ذاتَ وِرْدٍ، كَما يُسَمَّى الماءُ الَّذي يَرِدُهُ القَوْمُ وِرْدًا[11] وخِلافُهُ: الصَّدَرُ، وهو التَّراجُعُ عن الماءِ بعد الشُّرْبِ[12]، والوِرْدُ أيضاً: الجُزْءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أزَّ).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أزز - أزَّ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165.
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عدد).
(5) ابن سيده، المحكم: (عدد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدَّ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفد).
(8) الراغب، المفردات: (وفد).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وفد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورد).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 168.
(12) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ورد).

أو النَّصيبُ من قِراءة القرآن؛ لأنّه يُجَزِّئُهُ على نفسه أجزاءً، فيقرؤه وِرْداً وِرْداً[1]، والجَمعُ: أَوْرادٌ، والمقصودُ بالوِرد في الآيةِ: الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه بعد العطش الشديد، والمراد: مُشاة مهانين باستخفافٍ واحتقار، كأنَّهم نَعَمٌ تُساق إلى الماء[2].

5) ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَة مِن الشَّفْع، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه[3] ومنه الشَّفاعَةُ: وهي السَّعْيُ والوَساطَةُ في حُصولِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ سَواءٌ كانتِ الوساطَةُ بِطَلَبٍ مِنَ المُنْتَفِعِ بها أَم كانتْ بِمُجَرَّدِ سَعْيِ المُتَوَسِّطِ، ويُقالُ لِطالِبِ الشَّفاعَةِ مُسْتَشْفِعٌ، وهيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشَّفْعِ - كما ذَكرنا - ؛ لِأَنَّ الطَّالِبَ أَوِ التَّائِبَ يأتي وحْدَهُ، فإذا لم يَجِدْ قَبولًا ذَهَبَ فأتَى بِمَنْ يَتَوَسَّلُ به فصارَ ذلكَ الثَّاني شافِعًا للأَوَّلِ، أي مَصيرُهُ شَفْعًا، فالشَّفيع: الوَسيطُ في قَضاءِ الحَوائِجِ مِنْ دَفْعِ ضُرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ[4] وتأْتي الشَّفاعة بمعنى الزّيادَة، يُقال: شَفَعَ شَفاعةً حَسَنَةً، أي: زادَ إلى عَمله عَمَلاً[5] ومِن مَعانيها أيضاً: المُشارَكَةُ، والدُّعاءُ[6]، والمقْصود بـ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ في الآية: التَّوسُّطُ لِلآخرين لِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ له، أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ عنه.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُبيِّن الله تعالى عاقِبَةَ المُتَّقين، وعاقِبَةَ المُجرمينَ يوم القيامة فيقول: ألم تَرَ يا محمَّدُ ﷺ أنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكافرينَ باللهِ، فتهيِّجُهم بالإغواءِ والتَّزيينِ إلى الكُفرِ والمعاصي، وتُزعِجُهم إليها إزعاجًا، فلا تَستعجِلْ بطَلَبِ وقوعِ الهلاكِ والعَذابِ على أولَئك

يُساقُ المشركون مدفوعين دفعًا إلى هاوية مهلكة، ويُحشر المتَّقون إلى دار الكرامة ركبانًا

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ورد).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 72.
(3) الراغب، المفردات: (شفع).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 486، و21/ 211.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (شفع).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شفع).

الكافرينَ، إنَّما نَعُدُّ الأعوامَ والشُّهورَ والأيَّامَ، فنُمهلُهم ونؤخِّرُ تَعذيبَهم إلى أجَلٍ معدودٍ مَضبوطٍ، فإذا جاءَ الوقتُ المحدَّدُ لذلك أهلَكْناهم، واذكُرْ يا محمَّدُ ﷺ يومَ القيامةِ حين نجمعُ الَّذين اتَّقَوا اللّهَ بامتثالِ ما أمرَ، واجتنابِ ما نهى، فنقودُهم إلى الرَّحمنِ راكبينَ في رِفعةٍ وعلوٍّ، فيَقدَمونَ إلى جنَّته، ومحَلِّ ضيافته، ودارِ كرامته ورِضوانِه، ونسوقُ الكُفَّارَ والعُصاةَ إلى جَهنَّمَ عِطاشًا مُشاةً؛ إذلالًا لهم، فليس للكافرينَ من الشَّفاعةِ شَيءٌ يومَ القيامةِ، ولا يَشفَعونَ لأحَدٍ، ولا يستَحِقّونَ أن يشفَعَ لهم أحدٌ، لكنْ من كان مؤمِنًا باللّه موحِّدًا ومطيعًا له؛ فإنَّه يشفعُ لِغَيرِه، وينتَفِعُ بشَفاعةِ غَيرِه له(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمَّا قبلَها:

استئنافٌ بيانيٌّ كــاشــفٌ عـن مصيرِ الكافرين

قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ استئنافٌ بيانيّ مؤسّسٌ على سؤالٍ كانَ يراودُ الرّسولَ ﷺ من إضلالِ الكافرينَ جماعَتَهُم وآحادَهُم، وإيغالَهُم في ذلكَ، ثمّ ما جرّهُ عليهم من سوءِ العاقبةِ، ونهايةِ المصيرِ(2).

ولَمَّا كانت الآياتُ السَّابقةُ دالّةً على الإمهالِ في الدّنيا، والوعيدِ في الآخرةِ، فقدْ جاءتْ هذه الجملةُ تذييلًا لتلكَ الآياتِ، وتقريرًا وتوكيدًا لمضمونِها بتشخيصِ أحوالهم، ولَمَّا كانتْ تلكَ الآياتُ تتضمّنُ إمهالًا في عذابِ أولئكَ كانتْ هذه الآيةُ تسليةً للرّسولِ ﷺ(3).

بلاغةُ الاستهلالِ بالاستفهامِ:

الاســتــفــهــامُ مـــحـــمـــولٌ عــلى الــتَّــقــرير والــتَّــعــجــبِ من حالِ الكافرين

استهلَّتِ الآيةُ بالاستفهامِ وهو محمولٌ على التَّعجبِ من حال الكافرين، وهوَ ممَّا يشيعُ في لسانِ العربِ بجعلهمُ الاستفهامَ على

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 632، و634، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 153، و154، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 264، و265.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165.

نفي فعلٍ، وإرادةِ ضدّه، فيحثُّ المخاطبَ على أنْ يهتمَّ بتحصيله فيكونُ معنى الاستفهامِ: كيفَ لم ترَ ذلكَ؟[1].

أو التقرير بوصفه أداة فاعلةً في التواصل والتبليغ، حيث تصوّرُ تقريرَ الرؤية وتحقيقها؛ وذلك أن مؤدى دخول همزة الاستفهام على حرف النفي تصييرُ الكلام تقريرًا[2]، فجاء الاستفهام في الآية لتقرير الرؤية، وتحقيقها، وهو الغرض الأصلي من الاستفهام، ولتعجيب الرسول ﷺ لا من الإرسال، وإنّما من آثار إغواء الشياطين للكافرين، ومن حال الكافرين وكبرهم، وعنادهم، وتمردهم، واستهزائهم.

بلاغةُ اختيارِ فعل الرّؤيةِ:

تـنـزيـلُ عـلـمِ إرســـالِ الشّياطينَ على الكافرينَ منزلةَ الـشَّيءِ المـرئيّ المشاهدِ

دلالةُ الرّؤيةِ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تخييليةٌ، ففي إرسالِ الشّياطينِ على الكافرينِ لبيانِ آثاره، تنزيلًا له منزّلةَ الشّيءِ الّذي تراهُ وتشاهدهُ؛ فكانَ التّعجيبُ من رؤيته واقعا بقوله: ألم ترَ ذلكَ؟[3].

وليستِ الرّؤيةُ حقيقيةً بالعينِ الباصرةِ، بل هي رؤيةُ القلبِ والخاطرِ[4]، أي: انظرْ بقلبِك وتمعّنْ، وليكن منك العجبُ لأمرِ هؤلاءِ، وهي دالةٌ على العلمِ والمعرفةِ والإدراكِ؛ لأنّ الرّسولَ ﷺ لم يشهد هذه الحادثةَ[5]، أي: ألم تعلم يا خيرَ الخلقِ أنَّا أرسلْنا الشّياطينَ على الكافرين بفعلِنا وقدرتِنا؛ فالحقّ سبحانَه يضلّ من يشاءُ، ويهدي من يشاءُ، فإذا علمتَ ذلك ففوّضِ الأمرَ للّه تعالى[6].

وفي خطابِ الحقّ سبحانَه لرسولِه بالرّؤيةِ العلميةِ لا الرّؤيةِ البصريةِ؛ للدّلالةِ على أنَّ إخبارَ اللّه لكَ أصحُّ وأوثقُ منْ أخبارِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/ 249.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 32.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9187.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 132.

عينِكَ الحاسّةِ، فلعلَّ العينَ تخدعُ، أمَّا إعلامُ اللّه فهوَ الصَّادقُ الّذي لا يخدعُكَ أبدًا[1].

فائدةُ الإفرادِ في الخطاب:

بناءُ القدوةِ في العلمِ والاعتبارِ

جاءَ الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ بصيغةِ الإفرادِ، فهو خطابٌ للرّسولِ ﷺ قصدًا إلى تثبيتِه وتطمينِه[2]، وإنشاء الخطابِ له ﷺ لا للاختصاصِ، بل لجعله قدوةً لأمّته في التَّعجب من شأن أولئك الكافرين.

بلاغةُ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

تنشيط المخاطَبِ وإدخالُ المهابةِ في نفوسِ المخالفينَ

بعدَ أن كانَ الكلامُ جاريًا مجرى الغيبةِ بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، رجعَ إلى صيغةِ الخطابِ بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تنويعًا وتنبيهًا وتطريةً لنشاطِ المخاطبِ بالقرآنِ ببناءِ الكلامِ على خاصيةِ الانزياحِ اللّغوي والالتفاتِ[3] صيانةً لهُ من السّآمةِ، وكسرًا لأفقِ التّوقّعِ عندهُ، والتّعبيرُ بالخطابِ بعدَ الغيبةِ قصدًا إلى ضميرِ التّعظيمِ والإجلالِ، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ المخالفينَ، وتحذيرًا من عاقبةِ العاصينَ.

موقع جملة ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ جملةٌ واقعةٌ موقعَ مفعولي فعلِ الرّؤيةِ ﴿تَرَ﴾[4]، والتّقديرُ ألم ترَ إرسالَنا واقعًا أو حاصلًا.

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ العظمةِ:

إظهارُ القدرةِ الإلهيةِ والعظمةِ الرَّبانيّةِ

في قوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ابتدأَ كلامَه بـ﴿أَنَّآ﴾ الدَّالّ على العظمةِ[5]، وفيه إظهارٌ لقدرته المطلقةِ، وعظمتِه الباهرةِ، ومهابتِه

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9187.
(2) دروزة، التفسير الحديث: 3/ 182.
(3) هو "انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه، إلى معنى آخر" ابن المعتز، البديع في البديع، ص: 152.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 337.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 12/ 245.

السَّاميةِ في أنّ كلّ شيءٍ بأمرِه؛ فهو القادرُ على أن يرسلَ مَنْ يشاءُ على ما يشاءُ تخويفًا وتحذيرًا.

نكتةُ عدم التَّصريح باللفظِ الجليل:

مناسبة الترفّع عن ذكر لفظ الجمال والجلال في مع التصريح برموزِ الجحدِ والاستكبار

يناسبُ جوّ التنبيه، والدعوة الى التفكّر التي ضوَّعها في النصّ أسلوب الاستفهام التقريري في الآية المباركة حشدُ المؤكدات المضمَّنة إيَّاها بدءًا من استعمال التعبير ﴿أَنَّآ﴾ المكوّن من حرف التوكيد (أنّ)، وضمير التعظيم، والتفخيم (نا) المناسب للذات الإلهية، والعدول به - مقدّمًا - عن التصريح باسمه ﷻ مع رموز الجحد والإنكار: ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في موضع ذكر دناءة الفعال، وضِعَة الخصال؛ تنزّهًا، وترفّعًا فتعالى اللّه عمَّا يصفون.

دلالةُ التعبيرِ بالماضي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

إرسال الشياطين على الكافرين حدثٌ واقعٌ وفعل ناصع

استعملَ صيغةَ الفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ إيذانًا منهُ بوقوعِ الإرسالِ وتحقّقه، فإذا ما علمَ المخاطبُ بذلكَ لزمَ الحذرَ؛ مخافةَ تكرارِ هذا الفعلِ على مَنْ كفرَ مِنْ عباده، فهوَ ليسَ أمرًا مفترضًا، أو تهديدًا مظنونًا، بلْ هو فعلٌ واقعٌ متحقّقٌ.

بلاغةُ اختيارِ مفردة الإرسال:

لما رفض الكافرُ إرسالَ النبيين أُرسلَ عليه الشياطين

أوردَ النَّظم الكريم فعلَ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنّه على معنى التّخليةِ، أي: أنّنا خلّينا بينَهم وبينَ الّذين كفروا وعصوا ربّهم، فلم نعصمهم[1]؛ لإيصالِ رسالتِهم إليهم بمخالفةِ أوامرِه تعالى، وفيه تعريضٌ بالكافرين وتشنيعٌ عليهم، فإنّهم لمَّا رفضوا إرسال الرسل، قبلوا ورضوا بإرسال الشياطين، فكلٌّ يعمل على شاكلته.

بلاغةُ التّضمينِ في الفعلِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

تضمينُ الإرسالِ معنى التّسليطِ بدليل التعدية بحرف الاستعلاء

معنى إرسالِ الشّياطينِ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تسخيرهُم لها؛ فإنّهم لم ينتفعوا من الإرشادِ النّبويِّ، وهوَ

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 386.

الطّريقُ للخلاصِ منْ حبائِلها بموجبِ كفرهم وصدّهم، وإعراضهم عن الاستماعِ إلى مواعظِ الوحي[1]، وما نزلَ على الرّسولِ ﷺ.

ومعنى الإرسالِ في كلامِ العربِ إطلاقٌ للمحبوسِ، وبعثٌ للمطلقِ، وقدْ ضُمِّن هنا معنى التسليط لاقترانه بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ دونَ (إلى)؛ فإنَّ إرسالَ الشّياطينِ هنا بمعنى تسليطِهم على بني البشرِ[2].

بلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظمةِ:

التصريحُ بالمرسلِ يورِّث الهيبة والتعظيم

أسندَ الفعلَ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظمةِ (نا)؛ للإيذانِ بأهميةِ الأمرِ وعظمته؛ إذِ التصريح بأنَّ الذي تولَّى الإرسال هو اللّه ﷻ؛ فتدخلُ الرّهبةُ والخوفُ والفزعُ قلوبَ الّذينَ أرسلَ إليهم؛ فضميرِ التّعظيمِ للتّهويلِ والتّخويفِ؛ فعذابُ العظيمِ عظيمٌ، وغضبُ الحليمِ وخيمٌ.

وفي تكرار ضمير التعظيم، والتفخيم (نا) مع الفعل (أرسل) تأكيدٌ لقصدية العدول عن ذكر اسمه الأعظم مع التصريح بالشياطين والكافرين.

مناسبةُ لفظِ الشياطين مع السياق:

إبعادُ البعيدِ لون في التأكيد وضربٌ من التحقيق

التّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الدال على معنى البعد، معَ لفظِ الإرسالِ المؤذنِ بالعلوِّ المضمّنِ معنى التّسليطِ؛ مناسبةٌ لا تخفى، إذ تسليط البعيدِ على البعيد طردٌ وإبعاد، وتوكيد للذهاب في طرق الضلالة البعيدة، ما يندى له جبين المتأمل.

معنى التّعريفِ بـ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

كلّ شيطانٍ مؤهّلٌ لأن يتسلّطَ على الكافرين

التعريفُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ للاستغراقِ والجنسِ؛ فإنّ الحقّ سبحانَه يرسلُ أيًّا من الشّياطينِ على الكافرين، فكلّ شيطانٍ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165 - 166.

(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 151.

مؤهّل لأن يتسلّطَ على بني الإنسانِ ممّن حادَ عن طريقِ الحقّ، وتنكّبَ عن الصّراطِ المستقيمِ.

دلالةُ جمع ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

التعبير عن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ بصيغة جمع الجمع للدلالة على كثرتها، والكثرة مدعاة للتخويف والحذر، وعدم الأمان من كيدهم، ووسوستهم فهم في ذلك بعضهم ظهيرٌ بعض.

بلاغةُ استعمالِ حرف ﴿عَلَى﴾:

الشّياطين لهم استعلاءٌ على الكافرين وتمكّنٌ منهم

استعمال حرف ﴿عَلَى﴾ دالٌّ على الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لإفادةِ التّسليطِ[1] والتّمكّنِ والقوّةِ لزمرةِ الشّياطينِ على فئةِ الكافرين؛ فهم متسلّطون عليهم؛ فهذا هو نصيبُ الكافرِ وجزاؤه أن يكونَ ذليلًا مستضعفًا.

وفي معنى التسليط مضامين دالّةٌ على الثقل، والتبعية، والقهر؛ المعبّرة بمجموعها عن تمكّن الشياطين من الكافرين، واستيلائهم على إراداتهم، وقدرتهم على غوايتهم، وإضلالهم، وإهلاكهم، فلا انفكاك من ثمَّ، ولا افتراق، والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل إليه من لوازم هذا المعنى ولا يتم التسليط إلا به[2].

بلاغة الاستعارة في ﴿عَلَى﴾:

مــن يـخـضـع للشيطان يصبح دابّته يقودها أنّى شاء

يفصح هذا الصّوغ المُعبّر عنه بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الدَّالّ على التّسلّط عن (استعارة مكنية) قوامها تشبيه الكافرين بالدّواب التي تساق سوقًا، والمطايا التي تُعتلى، وتُقاد؛ لتوردَ إلى الهَلَكة، والخسران، وحسبهم بذلك ضعة، ومهانة، وإذلالًا.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 32.
(2) ابن القيم، شفاء العليل: 1/ 63.

دلالةُ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تعيينُ المقصودِ دفعٌ للتأويلِ وعدل في التبيين

لَمَّا تلقّت الفئةُ الّتي أرسلتْ إليها الشّياطينُ بالقبولِ منْ تسخيرِها، والوقوعِ في حبائلِها، مختارينَ غيرَ مجبرينَ، وبصدّهم عنْ مواعظِ الوحي عدلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ، فقالَ: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إشارةً لذلكَ المعنى[1] الدَّالِ على الإصرار على الكفرِ، والإفراطِ في العنادِ، والإظهار هو مقتضى الحال.

وقد عدل عن الإضمار إلى الإظهار مع ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وعيّنه بالتعريف بـ(ال) العهدية؛ لأنّ مورد الذّكر في مواطن الخيبة والخسران والعقوبة، إذلالٌ، ومهانةٌ يناسبه التّصريح؛ ولكونه يوائم قصدية إرسال الشّياطين وإطلاقهم، وتوجيههم التّوجيه المتّصف بالإهمال من خلال ذكر المرسَل، والمرسَلِ عليهم.

سرّ ذكر وصفِ الكفر الثابت فيهم:

فإنْ قيلَ كيفَ جاءَ بلفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وظاهرُ الآيةِ أنّ الكفرَ منهم سابقٌ على إرسالِ الشّياطينِ؟ فالجوابُ أنّ المرادَ بالكافرين هم الصَّابرون من الكفرِ[2] الثَّابتون عليه.

علّةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على غيره:

عمومُ لفظِ الكفرِ يشملُ جحودَ الوحدانيةِ، والنّبوةِ، والشّريعةِ

الكفر: اسم جامع لعديد الذّنوب، وهو يقع على ضروب منه، والكافر بحسب ما تقدّم من تأصيل لغوي (الجاحد لأنعم اللّه التي لا تحصى)، وهو على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجحد الوحدانية، أو النّبوة، أو الشّريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال كَفَرَ لمن أخلّ بالشّريعة، وترك ما لزمه من شكر اللّه، في حين أنّ الشرك هو: إثباتُ شريك للّه، وذلك أعظم كفر، أو مراعاةُ غير اللّه في بعض الأمور"[3]؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165 - 166.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 132.
(3) الراغب، مفردات القرآن، ص: 374.

فهو ضربٌ واحد من الذّنوب على عِظَم شأنه، وفداحة وصفه؛ لذا فهو أخصُّ؛ ومن هنا فاختيار لفظ الكافرين الدَّالّ على العموم يناسب سياق الآية المباركة من حيث إنّ الكافرين المعنّتين جاحدون للوحدانية، والنبوة، والشريعة؛ فناسبهم اللّفظ الأعمّ.

دلالةُ التعبير باسمِ الفاعلِ:

العريقونَ في الكفرِ لا الطارئونَ عليه

عبّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لما يدلّ عليه اسمُ الفاعلِ من الثّبوتِ؛ فهم العريقونَ في الكفرِ[1] لا الطَّارئونَ عليه، فيما لو عبّرَ بالاسمِ الموصولِ والفعلِ؛ لأنّهُ يكونُ حينئذٍ معلّلًا بما في حيّزِ الصّلةِ.

فإيثارُ لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بصيغة (اسم الفاعل) للدّلالة على إيغالهم في الكفر، ورسوخهم فيه، واستمرائهم له، واستمرارهم عليه، ويعضد هذا الصّوغ التّعبير عن (الأزّ) بهيئة المضارع ترسيخًا لديمومة التّهييج والإغراء، وتجدّد الإزعاج والإغواء.

سرّ فصلِ ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ عمَّا قبلَها، وموقعُها:

حالُ الشَّياطين لمن سأل هو إغراءُ الكافرين وتهييجُ شهواتهم

فصَلَ جملةَ: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ عمَّا قبلَها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيّ يقعُ جوابًا لما وقعَ في أوّلِ الكلامِ منْ إرسالِ الشّياطينِ؛ فينشأ سؤالٌ ماذا تفعلُ الشّياطينُ بالكافرين؟ فيكونُ الجوابُ أنّها تؤزّهم، أيْ: تغريهم وتهيّجُهم على المعاصي بالوساوسِ وتسوّلُ لهم[2].

وقولهُ تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ جملةٌ واقعةٌ موقعَ الحالِ[3]، وهي جملةٌ مستأنفةٌ مفصولةٌ عمَّا قبلَها، وفي الحالِ تقييدٌ للإرسالِ؛ لأنَّ الشّياطينَ ترسلُ إلى النَّاسِ كافةً، غيرَ أنَّ الحقَّ سبحانهُ يحفظُ أولياءهُ المؤمنينَ منْ كيدِهم بحسبِ ما أوتيَ المؤمنُ منْ قوةِ إيمانٍ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 245.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 281.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 390.

وصلاحِ عملٍ[1]؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42]، وفي جعل جملة ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ حالًا مقيّدًا للإرسال؛ ملمحٌ بيانيٌّ آخر يُشار فيه عدم انتفاع الكافرين بالإرشاد النبويّ المُنقذ من حبائل كيد الشيطان، وإعراضهم عن الاستماع لمواعظ الوحي.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾:

شبّهَ اضطراب اعتقادهم وأقوالهم واختلاقَ أكاذيبهم بالغليانِ صعودًا وانخفاضًا

التّعبيرُ بالأزّ، وهو الاستفزازُ الباطنيّ في قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ استعارةٌ؛ فقد شبّهَ اضطرابَ معتقدهم، واختلافَ أقوالهم وتناقضَها، وما اختلقوا من الأكاذيب، شبّهَ ذلكَ كلّه بالغليانِ المأخوذِ من أزيزِ القِدْرِ باشتدادِ غليانِها صعودًا وانخفاضًا، وفرقعةً وهدوءًا[2].

وهو استعارة مكنيَّة تصوّر مشهدًا قَلِقًا مشحونًا بالتّوتر والضجيج، شُبِّهَ فيه المعنويّ بالمحسوسِ المرئيِّ المُشاهدِ تهويلًا له، وتنفيرًا منه، وتأكيدُه بالمصدرِ ترشيحٌ، وهو أقوى أنواعِ الاستعارة، وأشدّها مبالغةً؛ إذ يقومُ على تناسي التّشبيه، وذكرِ ما يلائمُ المشبّهَ به[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾:

الشياطين لا تملُّ من أزِّها ولا تتوانى عن هزِّها

عبّرَ عن فعلِ الأزّ ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ بصيغةِ المضارعِ الدّالِ على التّجدّدِ؛ فهي تهيّجُهم على ارتكابِ المعاصي مرةً بعدَ أخرى، "كلّما فتروا أو ونوا أزعجتْهم الشّياطينُ، وأزّتهم وأثارتْهم؛ فلا تزالُ بالعبدِ تقودُه إلى الذّنبِ، وتنظّمُ شملَ الاجتماعِ بألطفِ حيلةٍ، وأتمّ مكيدةٍ"[4] في تجدّدٍ واستمرارٍ، فلا يجدوا للتّوبةِ والهدى سبيلًا.

لطيفةُ التّضعيفِ في الفعلِ ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾:

وردَ الفعل ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ مضعّفًا دالًّا على التّكثيرِ تناسبًا معَ مادّتِه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 166.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165.

(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 99.

(4) ابن قيم الجوزية، تفسير القرآن الكريم، ص: 673.

فعلُ الأزِّ دالٌّ على شدّةِ الإزعاجِ المناسبِ للتّضعيفِ الدَّالِ على التّكثيرِ

اللّغويةِ، والمعنى تحرّكُهم تحريكًا شديدًا وتزعجُهم في المعاصي والموبقاتِ إزعاجًا عظيمًا على قباحتِها وشناعتِها حتّى يكونوا كالشّررِ المتطايرِ المنافي لطبعِ الإنسانِ الطّينيِّ، الملائمِ لطبعِ الشّيطانِ النَّاريِّ[1].

ولَمَّا كانَ معنى الأزّ هو شدّةُ الإزعاجِ والاستفزازِ[2]، كانَ مناسبًا أن يعبّرَ عن ذلكَ بالصّيغةِ الدَّالةِ على التّضعيفِ؛ لما في هذه الصّيغةِ من معنى التّكثيرِ، والتّكثيرُ قرينُ الشّدّةِ.

دلالةُ التّأكيدِ بالمفعولِ المطلقِ ﴿أَزًّا﴾:

التّعبيرُ بالتّعبيرُ بالمصدرِ ترشيحٌ للاستعارةِ في فعلِ الأزّ

التّعبيرِ بالمصدرِ في قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا﴾ توكيدٌ للاستعارةِ[3] في فعلِ الأزّ الصَّادرِ من الشّياطين؛ فهي استعارةٌ مرشحةٌ بأن يأتيَ بعدَ الاستعارةِ الأولى ما يناسِبُها، ويتعلّقُ بها، وبما يناسبُ المستعارُ منه[4].

وفي تأكيدِ الفعلِ المضارعِ بالمفعولِ المطلقِ (المؤكّدِ لنوعه) - الحاملِ قصد إبعادِ الشّكِ، وإثباتِ صحّةِ الكلامِ - دلالةٌ على شدّةِ تأثيرِهم على الكافرين؛ وليناسبَ - بجماعِ التّأكيداتِ - جوَّ الاضطرابِ، والانفعالِ، والغليانِ والتّدافعِ، وتصوّرُ كلّ ذلك يمنحُ الأسلوبَ قوةً، والصّورةَ جذبًا، والمنظرَ تأمّلًا، والمشاعرَ تحرّكًا، والعقلَ تدبّرًا، والنّفسَ تشويقًا.

بلاغةُ التّناسبِ الصّوتيّ في لفظِ (الأزّ):

الصّفةُ الصّفيريّةُ في الزّاي ناسبت فعلَ التّهييجِ إلى المعاصي

ممَّا يُلتفتُ إليه هنا إسهامُ صوتِ الزَّاي المضعّفِ المكرّرِ في اللّفظين ﴿تَؤُزُّهُمۡ﴾، و﴿أَزًّا﴾ في تقويةِ المعنى بملمحِه الصّفيريّ الذي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 246.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 281.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 165.

(4) التّرشيح أن يأتي باستعارة بعد الاستعارة الأولى بما يناسبها، ويتعلّق بها، وما يلائم المستعار منه كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: 16]، فبعد ذكر الاشتراء عقّبه بذكر الربح، وهو مناسب له، يُنظر: يحيى العلوي، الطراز: 1/ 111.

يشتدُّ وقعُه في الآذانِ؛ وهذا يناسبُ فعلَ التّهييجِ إلى المعاصي؛ فهي جهودٌ كادّةٌ لا تكادُ تتوقّفُ من لدنِ الشّياطينِ وهم يروحون ويغدون من أجلِ تضليلِ أوليائِهم، وصمِّ آذانِهم بالوساوسِ، وإغرائِهم بالمعاصي، إضافة إلى الصورة الذهنية المُتصوَّرة لحركةِ ترنّحِ المشركين، وتخبّطِهم بسببِ تسليطِ الشّياطينِ عليهم.

دلالةُ الفاءِ التَّفريعيَّة:

النّهيُ عن العجلةِ متسببٌ عمَّا اتّصفوا به من سفهِهم وطيشِهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ دالةٌ على التّفريع[1]؛ إذ فرّعَ على ما سبقَ من الجملةِ الاستئنافيةِ، وفي هذه التّسليةِ النّهيُ عن أن يعجلَ عليهم، أي: فلا تستعجلِ العذابَ، ولا تستبقهُ؛ فإنّنا نعدّ لهم عدًّا[2].

ولَمَّا كانَ من شأنِ الشّياطينِ أنّها تؤزّ الكافرينَ وتحركَهم وتزعجَهم "تسبَّبَ عنهُ النّهي عمَّا اتّصفوا به من خفةِ السّفه، وطيشِ الجهل"[3]؛ فجاءَ بالفاءِ المؤذنةِ بالسّببِ والعلّةِ بقولِه: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾.

بلاغةُ النّهي ودلالته:

إمهالُ الكافرين إهمالٌ لشأنِهم ووضعٌ لاعتبارِهم وإمدادٌ بعذابِهم

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ﴾ نهيٌ[4]، حيث نهى الحقّ سبحانهُ نبيَّه ﷺ أن يطلبَ بتعجيلِ هلاكِهم وفنائهم في إشارةٍ إلى أنّ دعاءَهُ مقبولٌ عندَ ربّه، وأنّه لو دعا عليهم بالهلاكِ والاستئصالِ؛ لأهلكَهُم اللّهُ كيلا يردّ دعوةَ رسوله ﷺ[5].

وفي نهيه ﷺ عن أن يُعجّلَ لهم تهكّمٌ وتوبيخٌ لهم؛ فإنّ الحقّ

(1) الفاء التفريعية هي الفاء التي تربط جملتين، فيكون ما قبلها علّة لما بعدها، وما بعدها فرع عنه، ينظر: الصبَّان، حاشية على الأشموني: 3/ 142.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 166.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 246، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4686.

(4) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 251.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 166.

سبحانَه لم يتركْ هلاكَهم المعجّلَ لأجلِ خيرٍ يبتغيه لهم، ولكن كيما يزدادوا من الآثامِ والذّنوب(1).

توجيه المتشابه في لفظي العجلةِ والاستعجال:

النّهي عن العجلةِ للتأجيل يوم بدر والاستعجالُ عذابُ الآخرة

ذكرَ في هذه الآيةِ ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ﴾، وذكرَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: 35]، والفرقُ بينهُما أنّه أرادَ هنا استعجالَ الاستئصالِ والإهلاكِ في يومِهم الموعودِ، وهو يومُ بدرٍ، فكأنَّه قال له: لا تعجل فموعدهم يوم بدر، أمَّا العذابُ المقصودُ في آيةِ الأحقافِ فهو عذابُ الآخرةِ؛ لوقوعه في سياقِ الوعيدِ لهم بعذابِ النَّارِ(2).

لطيفةُ إفرادِ ضميرِ المخاطبِ:

دعاءُ النّبيِّ مستجابٌ لمكانته عند ربِّه

وحّدَ ضميرَ المخاطبِ بالفعلِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ﴾، والمرادُ الدّعوةُ عليهم بالهلاك، وهو مقدّرٌ أنّه حاصلٌ على يدِ الرّسولِ ﷺ؛ فالخطابُ موجّهٌ له، ولو دعا عليهم لأهلكَهم اللّهُ تعالى(3).

نكتةُ القيدِ بالجارّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡۖ﴾:

تنزيلُ النبيِّ منزلةَ المستعلي على الكافرين وهلاكُهم بيده

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ اقترنَ حرفُ الجرِّ (على) بالفعلِ (عجلَ) إكرامًا للرّسولِ ﷺ بتنزيله منزّلةَ المستعلي؛ بموجبِ حرفِ الاستعلاءِ (على)، فمعنى (عجلَ على فلانٍ بكذا)، أيْ: أسرعَ بأنَ سلطهُ عليه، ومكّنهُ منه(4).

مرجعُ الضّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡۖ﴾:

الضّميرُ المتصلُ بحرفِ الجرّ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ يعودُ على الكافرين الّذين كانَ يتعجّلُ الرّسولُ ﷺ بهلاكِهم أو إبادتِهم؛ كي يستريحَ هو والمسلمينَ من شرورِهم وأذاهُم(5).

(1) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4592.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 166.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 166.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 166.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 564.

علّة فصلِ جملةِ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾:

تعليلُ النّهي بالإمهال المعدود له

لَمَّا كانت جملةُ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ تعليلًا لما سبقَها من سببِ النّهي ببيانِ أنّ هلاكَهم قريبٌ[1] من قوله: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ فصلَها عنها؛ فهي سببُ النّهي عن أن يعجلَ عليهم بدلالةِ إنّما المركّبة من (إنّ) مع (ما) الّتي تفيدُ التّعليلَ[2].

بلاغةُ القَصْرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾:

يأتي القصرُ بقصدِ التَّهديدِ والوعيد

جيء بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾؛ لإفادةِ القصرِ، والمعنى أنّ الحقّ سبحانهُ لم يكنْ إلّا ليعدّ لهم؛ فهو من بابِ قصرِ الموصوفِ على الصّفةِ قصرًا إضافيًا، فنحنُ نعدّ لهم من غيرِ نسيانٍ لهم كما يظنّونَ، ولن نتركَهم من العذابِ إنّما هم مؤخّرونَ ليوم موعودٍ[3].

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ مفردةِ العدِّ:

زمانٌ وجيزٌ يُعدُّ فماذا يرجو منه العبد

إذا كانَ ناصرُ الإنسانِ وهو الحقّ سبحانَهُ في مراقبته لعدوّه في حركاتِه وسكناتِه ممَّا يشفي الوليّ ويفرحُهُ، وممَّا يزعجُ العدوّ ويخيفُهُ ويقلقُهُ؛ علّلَ ذلك بذكرِ فعلِ العدِّ ليدلَّ على أنَّ زمنَهم قصيرٌ[4]، وعصرَهم حقيرٌ؛ فلينتبهوا وليحذروا.

ففي قولِه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ كنايةٌ عن سرعةِ تقضّي أجلهم، وقيلَ للقليلِ: معدودٌ؛ لأنّ الكثيرَ يمنعُ من عدّه كثرتُه[5]؛ فالعدّ كنايةٌ عن القلّةِ، وقد يجعلُ كنايةً عن التّناهي، وقلّتُه لتقضّيه وفنائِه[6].

فمن لطائفِ التّعبيرِ بالعدّ والإحصاءِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 281.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 167.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 167.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 246.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 104.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 293، والآلوسي، روح المعاني: 6/ 333.

﴿نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أنّهُ أوردَه موردَ المجازِ في تقصيرِ المدّةِ وحصرِها؛ لأنّ الشّيءَ القليلَ يحسبُ ويعدّ ويحصى؛ وفي ذلكَ تنبيهٌ وإنذارٌ باقترابِ عذابِهم واستئصالهم(1).

دلالةُ التعبيرِ بالمضارع ﴿نَعُدُّ﴾:

استمرار صدور الأعمال القبيحة زيادةٌ في العذاب الأليم

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿نَعُدُّ﴾؛ لتحقيقِ الاستمرارِ التّجدّدي؛ فإنَّ الحقَّ سبحانَهُ يعدُّ لهم كلَّ ما يصدر عنهم من أعمالٍ شنيعةٍ، وتصرفاتٍ قبيحة، فمهما صدرَ عنْ أولئكَ النَّاكبينَ عنْ طريقِ الحقِّ؛ فإنّهُ تعالى لهؤلاءِ القاسيةِ قلوبُهم بالمرصادِ، فهوَ يعدّ لهم ويمهلُهم، ويحفظُ أعمالَهم في كتابٍ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً ليجازيهم عليها.

لطيفةُ إسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظمةِ في ﴿نَعُدُّ﴾:

التّعظيمُ دالّ على شدّة الغضب

تشتملُ جملةُ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ على تهديدٍ ووعيدٍ ظاهرٍ(2)، فإذا ما جاءَ فعلُ العدّ مسندًا إلى الضّميرِ الدَّالّ على التّعظيم كانَ في ذلك مزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ لهؤلاءِ، فيأخذُهم الحقّ سبحانَه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ؛ فإنّ للّه في الانتقامِ من أعدائه لأوليائه سننًا ماضيات، وعوائد مقضيات.

بلاغةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ على المصدر:

تنزيلُ المشركين منزلة المخصوصِ بالعذابِ للتّهديد والوعيد

قُدِّمَ الجارّ والمجرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ زيادةً في إفادةِ الاختصاصِ والقصرِ المستفادِ من الأداةِ ﴿إِنَّمَا﴾؛ فكأنّ العدّ مختصّ بهؤلاءِ الموصوفينَ بالكفرِ لا يتجاوزُ إلى غيرهم، "فما أردْنا بإملائِنا لهم إلَّا إشقاءَهم وإرداءَهم، لا تنعيمَهم وإعلاءَهم، فهو من قصرِ الموصوفِ على صفته إفرادًا"(3)، وفيه توكيد تهديدٍ ووعيدٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 167.
(2) محمد الهلال: تفسير القرآن الثري: 16/ 120.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 246.

معنى اللّامِ ودلالتها:

إفادةُ الاختصاص ودفعُ توهم الخلاص

اللامُ فيما قيّدَ من الجارّ والمجرورِ ﴿لَهُمْ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ[1]، والمتعلّقُ بمعنى الاستقرارِ، أيّ: ما استقرَّ لهم من العدّ، أيّ: نعدّ لهم أنفاسَهم فما فوقَها من غيرِ غفلةٍ ولا نسيانٍ، فإذا حلّ الأجلُ استأصلْناهُم، ومحونا آثارَهم وديارَهم[2].

نكتةُ القيدِ بالمفعولِ المطلقِ ﴿عَدًّا﴾:

يحصي عليهم أعمالَهم فلا يزادون عليها ولا ينقصون منها

عبّرَ بالمفعولِ المطلقِ المؤكّدِ[3] في قولِه: ﴿عَدًّا﴾؛ فيحصي عليهم أنفاسَهم وأعمارَهم وأعمالَهم؛ حتّى يستوفوا آجالَهم من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ[4]؛ فإنّ اللّهَ تعالى لا ينسى، ولا يخفى عليه شيءٌ.

تعدُّد العاملِ في الظّرفِ ﴿يَوْمَ﴾:

تنوُّع تقدير العاملِ دليلُ سعةِ العبارة وكثرة الدلالات

﴿يَوْمَ﴾ في قولِه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ منصوبٌ على الظّرفيةِ، متقدّمٌ على عاملِه؛ إشعارًا بضيقِ العبارةِ عنْ حصرِه، والإشارةِ إليه، وبيانِه وشرحِه، لما يقعُ فيه من كمالِ الفظاعةِ من الطّامّةِ التّامّةِ، والدّواهي العامّةِ[5].

ويحتملُ أن يكونَ عاملُه ﴿نَعُدُّ﴾، فالعدّ يكونُ في ذلكَ اليوم، أو ظرفًا لانتفاءِ الملكِ؛ فلا يملكون الشّفاعةَ ذلكَ اليومَ، أو ظرفًا لمضمرٍ، أي: نفعلُ بهم في ذلكَ اليومِ، أو أن يكونَ مفعولًا على تقديرِ: اذكرْ ذلكَ اليومَ[6].

ويحتمل أن يكون جوابًا ناشئًا عن سؤالٍ على طريقةِ الاستئناف البياني، كأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقيل: يكون يوم يُحْشَرُ[7].

(1) وهو أعم معاني اللام في كلام العرب، ينظر: الرماني، معاني الحروف: 50 - 51.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 246.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 390.
(4) العليمي، فتح الرحمن: 4/ 273.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 281.
(6) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 391.
(7) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 641.

بلاغةُ التعبير عن القيامة بحشرِ المتقين:

جاء بيان يوم القيامة بجملةِ ﴿نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مؤثرًا إيَّاهُ على يومِ القيامةِ؛ لأنَّ هذه الوفادةَ على الحقِّ ﷻ إنّما تحصلُ بعد انتهاءِ الحسابِ، وهيَ للنّهوضِ والقيامِ إلى الجنّةِ[1]، وما أعدّ لهم الرّحمنُ من الإكرامِ والتّبجيلِ، فالحشر هو حشد الجموع للحسابِ، بعد أن كانت منفلتةً في دار الفناءِ.

بعدَ انقضاءِ الحسابِ ينهض المتّقون إلى الجنّةِ

بلاغةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَحۡشُرُ﴾:

عبّرَ النظم الكريم بفعلِ الحشرِ في قولِه: ﴿نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالمضارعِ؛ لكونِ الحشرِ حاصلًا في المستقبل، ولما فيه من تصويرِ المتقين وهم يُحشرون إلى الجنة.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الحشرِ إلى ضميرِ العظمةِ:

لَمَّا كانَ من أخصّ خصائصِه تعالى الحشرُ والنّشورُ، وهو دالّ على عظمتِه وجبروتِه وقدرتِه وإحاطتِه بكلّ شيءٍ، عبّرَ عن فعلِ الحشرِ بصيغةِ (نفعلُ) بالنّونِ الدَّالةِ على هذه العظمةِ، وتلك القدرةِ، وفيها إيماءٌ إلى اختصاص ذلك به ﷻ.

الحشرُ من صفاتِه العلى وعظمتِه وجبروتِه وقدرتِه

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

الألفُ واللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ جنسيةٌ لاستغراقِ جميعِ منْ يتّصفُ بهذه الصّفةِ من عباده؛ فإنّهُ تعالى يحشرُهم إليه محفوفينَ بالكرامةِ والهيبةِ والشّرفِ؛ بما كانَ منهم منْ حسنِ عملٍ في الدّنيا.

لطيفةُ التّعريفِ بالاسمِ الظَّاهرِ دون الموصول:

وفي قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ عبّرَ باسم الفاعل الظَّاهرِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ دونَ الاسم الموصولِ (الّذين اتّقوا)؛ لإرادةِ العراقةِ في التّقوى[2]، والثّبوتُ عليها؛ لكونها راسخة فيهم، خلافَ الموصولِ الدَّالّ على أنّه علّةٌ للخبرِ.

الإيماءُ إلى عراقة المتقين وثبوتهم فيها

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 32.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 246.

توجيه تخصيص المتقين بالذكر:

تبجيل المؤمنين والتَّعريض بالخاسرين

اختارَ النظم الكريم وصفَ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في الآيةِ دونَ غيرِها من الأوصافِ؛ لما يمثلُه هذا الوصفُ من التّبجيلِ[1] والمدحِ والتّوقيرِ، جزاءً بما كانوا يفعلون في حياتِهم الدّنيا، ولَمَّا أرادَ مدحَ أوليائِه الّذينَ تسربلوا سرابيلَ التّقوى، وتلفعوا بأرديةِ الورعِ، اصطفى لهم وصفَ المتّقينَ دونَ غيره من الأوصافِ؛ لما يشتمله هذا الوصفُ على اتّقاءِ الشّركِ والنّفاقِ، والامتثالِ لأمرِ اللّه تعالى، والانتهاءِ عمَّا نهى عنهُ[2]، وفيه تعريضٌ بمن لم يتقِّ اللّه تعالى في الدنيا الفانية، وآثر شهواته وملذاته.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

المتقون على مراتب والجميع يُحشر إلى الرحمن

في التّعبيرِ بلفظِ الجمعِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنّهم على درجاتٍ في التَّقوى، ولبيان أنَّ التفاوت بين المتقين لا ينزع عنهم وصف الحشر إلى الرحمن، ففيه تربيةٌ بالتدريج.

دلالةُ حرفِ انتهاء الغاية:

مَنْ كان منتهى غايته في الدُّنيا الرَّحمن فهي كذلك في الآخرة

لَمَّا كانَ حرفُ الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ دالًّا على انتهاءِ الغايةِ[3]، جاءَ به في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إعلامًا بأنّ منتهى غايتِهم وحركتِهم يكونُ عندَ الرّحمنِ[4]، وخاتمةَ آمالهم أن يكونَ الحقّ سبحانَه وجنّتُه المحطّةَ الأخيرةَ الّتي يستريحون فيها من عناءِ الدّنيا وكدّها؛ فعُدّيَ ﴿نَحۡشُرُ﴾ بـ ﴿إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ تعظيمًا لهم، وتوقيرًا وتشريفًا[5] بما كانَ من تقواهُم وإيمانِهم حتّى نالوا المنزلةَ العاليةَ عندَه تعالى.

توجيه تخصيص اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالذِّكر:

خُصَّ ذكرِ اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ من دونِ أسمائِه الحسنى؛ للإشعارِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 42.
(2) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 547.
(3) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 1/ 236.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 565.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 298.

خوفُ هيبةِ الحشر يدفعه اسم الرحمن

بأنَّ حشر المتقين سيكون إلى الرحمن، فإنَّ النَّصَّ على هذه الصفة بذكر الاسم الكريم أوضح معنًى من ذكر غيرِه، وللدّلالةِ على عموم رحمتِه تعالى[1]، فيدخلُ في رحمتِه عمومُ المؤمنين، وعمومُ الصَّالحين، وفيه ذكر كرامة لهم؛ فإنَّ فعلَ الحشرِ معناهُ الجمعُ منْ أماكنَ متفرقةٍ، وأقطارٍ بعيدةٍ نائيةٍ قهرًا لهم؛ فتأتي صفةُ الرّحمانيةِ؛ لتأذنَ بأنّهم صائرونَ إلى منْ يرحمُهم ويرأفُ بهم[2]، و"لأنّ شوقَهم إليه، ورجاءَهم فيه، فدلّهم إليه لتسكنَ نفوسُهم"[3] فجاءَ خطابُه خطابَ المطيعِ بما هو مشتاقٌ إليه.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرورِ على ﴿وَفۡدٗا﴾:

مقتضى التَّقديم الإكرام ومقتضى تأخير (وفدًا) التشويق

قُدِّمَ الجارّ والمجرورُ ﴿إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ما قيّدَ من الحالِ[4]، فلم يقل: (نحشر المتقين وفدًا إلى الرحمن)؛ لإفادةِ التّخصيصِ والقصرِ المقتضي إكرامَ هؤلاءِ الّذين اتّقوا ربّهم؛ فأنالَهم أعظمَ الدّرجاتِ؛ فهم يفدون على الرّحمنِ لا على غيرِه، ومَنْ أفضلُ حظًّا ممّن وفدَ على الرّحمنِ، بالإضافة إلى ما في التَّقديم من الإكرام، وما في تأخير ﴿وَفۡدٗا﴾ من التشويق.

احتمال المجازِ بالحذفِ:

قولُه تعالى: ﴿إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يحتمل المجازَ بالحذفِ، فالأصلُ في حشرِهم أنّ أمرَهم يؤولُ إلى ما وعدَهم الرّحمنُ من الثّوابِ والكرامةِ، والجزاءِ الحسنِ[5].

علّة إيثار لفظ ﴿وَفۡدٗا﴾:

تصوير المتقين بالوفدِ القادمِ في ضيافةٍ وإكرامٍ

في اختيار لفظ ﴿وَفۡدٗا﴾ في التعبيرِ عن المتقين ما يدلّ على

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 247.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 298.

(3) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 547.

(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 338.

(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 260، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 565.

إكرامِ اللّه إيَّاهم؛ فقد صوّرَهم بصورةِ القادمين في إسراعٍ ورفعةٍ وعلوّ، مثلَما تُشاهَدُ الوفودُ عندَ مقدمِها على الملوكِ، يحفّها الإكرامُ، وتحيطُها الضّيافةُ[1]؛ فكانَ الّذينَ اتّقوا ربّهم يحشرُهم إليه على الغايةِ من الإكرامِ، ولهم عندَ ربّهم منزلةٌ عظيمةٌ[2].

علّةُ إفرادِ ﴿وَفۡدٗا﴾:

أغنى جمعُ المتقين عن جمع الوفد

استعملَ ﴿وَفۡدٗا﴾ على هذه الصّيغةِ المفردةِ معَ أنّه حالٌ من ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المجموعِ جمعَ مذكرٍ سالمٍ؛ لأنّه في الأصلِ مصدرٌ، ثمَّ أصبحَ يطلقُ على الأشخاصِ كلفظِ الضّيفِ، ومعنى الوفدِ الجماعةُ الوافدون[3].

استنباط التّشبيه في لفظ: ﴿وَفۡدٗا﴾:

وفدُ الرحمن قارٌّ ثابت لا كوفود الدُّنيا آيبون من حيث أتوا

في قولِه تعالى: ﴿وَفۡدٗا﴾ تشبيهٌ بالوفودِ؛ لأنَّ الموصوفينَ سراةُ النَّاسِ، وألطفُهم شكلًا، وليستْ وفادتُهم جاريةً على الحقيقةِ؛ لأنَّ منْ عاداتِ الوفودِ على الملوكِ الانصرافَ عنهم بعدَ وفادتِهم، وهم مقيمونَ قارّون أبدًا، متقلّبونَ في ثوابِ ربّهم[4].

معنى الواوِ ودلالتها:

لَمَّا ذكرَ ما يدلّ على كرامةِ أوليائِه عطفَ عليه ما يدلّ على إهانةِ أعدائِه

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالّةٌ على العطفِ[5]؛ فإنّه لَمَّا ذكرَ من إكرامِه لعبادِه المؤمنين بأن يردوا عليه وفدًا، أتبعَه عطفًا بذكرِ حالِ أعدائِه المجرمين النَّاكبين وإهانتِهم[6] بأن يُساقوا إلى جهنّمَ مستقرًّا لهم.

وعطفُ سوقِ المجرمينَ على حشرِ المتّقينَ لهُ غايةٌ أخرى، وهيَ زيادةُ عذابِ المجرمينَ المحكومِ عليهم بالإهانةِ في ذلكَ اليومِ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 247.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 260.
(3) ابن عادل، اللباب: 13/ 144.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 298.
(5) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 251.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 247.

لما يرونهُ من الإكرامِ والإنعامِ الّذي ينالُ فيه الأتقياءُ أعطياتِهم العظيمةَ، وما يبلغونَ منْ آمالِهمُ المنشودةِ، بما وعدَهم إياها ملكُ الملوكِ[1]؛ فإكرامُ المتّقين فيه مزيدُ حسرةٍ للمجرمين.

نكتة إيثار الفعلِ ﴿وَنَسُوقُ﴾:

إهانةُ المجرمين في سَوْقِهم كما تُساق البهائمِ سوقًا عنيفًا مزعجًا حثيثًا

آثر النَّظم استعمال مفردة السوق في قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لما فيه من الإيذان بأنّ هذا الفعلَ إنّما يحصلُ على كرهٍ وتمنّعٍ من المساقين[2]، كما يفعلُ سائقُ البهائمِ العنيدةِ؛ فيجرّها جرًّا؛ فبعدَ أن أكرمَ اللّٰه تعالى عبادَه المتّقين بوفادتِهم إلى الرّحمن عبرَّ بالفعلِ الدَّالّ على بهيميّةِ المجرمينَ منْ أعدائه فقالَ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: أنّهم "يساقونَ إلى النَّارِ بإهانةٍ واستخفافٍ كأنّهُم نَعَمٌ عِطاشٌ تساقُ إلى الماءِ"[3]، ولَمَّا كانوا أضلَّ من البهائم[4] في الانحيازِ عنْ طريقِ الهدى والحقِّ كانَ وصفُهم بالسَّوْقِ أليقَ وأنسبَ.

بلاغةُ التعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَنَسُوقُ﴾:

تصويرُ المجرمين حالةَ سوقِهم إلى جهنم

المقرّرُ في كلامِ العربِ أنْ يدلَّ الفعلُ المضارعُ على الحركةِ والتّجدّدِ، وتصويرِ الحالةِ بحدوثه شيئًا بعدَ شيءٍ، ومرةً بعدَ أخرى[5]؛ كأنّها واقعةٌ مشاهَدةٌ؛ فجاءَ فعلُ السّوقِ هنا تحقيقًا لذلكَ الأمرِ بقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، في صورةٍ حيّةٍ ترى فيه المجرمينَ وهم يُساقونَ كالبهائمِ إلى جهنّمَ بموجبِ إشراكِهم وتمرّدِهم.

لطيفةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظمةِ:

إظهارُ الجبروتِ أليقُ بعقابِ المجرمين والنّكايةِ بهم

في إسنادِ فعلِ السّوقِ ﴿وَنَسُوقُ﴾ إلى النّونِ الدَّالّةِ على الحقّ سبحانَه بطريقِ الجمعِ دلالةٌ على إظهارِ عظمتِه وجبروتِه

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 177.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 260.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 565.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 6/ 397.
(5) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 316.

وسطوتِه تعالى، وهي صفاتٌ تليقُ بالمقامِ، مقامِ عقابِ المجرمين، والنّكايةِ بهم.

علّةُ اختيار مفردة الإجرام:

الإجرامُ أوضحُ صورِ الكفرِ بشاعةً لما فيه من دوافعِ الفساد

أتى النَّظم بصفةِ الإجرامِ في قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لهذه الفئةِ النَّاكبةِ عن طريقِ الحقّ والهدى بالإجرام؛ إشعارًا بالعِلّيَّةِ، فما كانَ مصيرُهم هذا إلَّا بسببِ إجرامِهم، وآثَرَها على صفة الشرك والكفر لما تحمله من المعاني الدَّالة عليهما، ولما لهذه الصّفةِ مِنْ بروزٍ وظهورٍ في حالِهم؛ فهيَ لازمةٌ مِنْ لوازمِ الإشراكِ باللّه؛ لأنَّ المشركَ مجرمٌ آثمٌ[1].

والمجرم مشتقّ من الجَرْم، وهو القطعُ، فالمجرمُ مَنْ قطعَ جميعَ صلاتِه بالحقّ سبحانَه؛ فتمرّدَ على أوامرِ اللّه ونواهيه؛ فارتكبَ الذّنوبَ، وأصرّ على المعاصي[2].

تعريفِ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

أوردَ لفظَ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ معرفةً، والألفُ واللَّامُ فيها لاستغراقِ جنسِهم؛ ليعمّ كلّ المجرمين في كلّ الأزمانِ، كلًّا بحسبِ جرمِه، ومعصيتِه، وسوءِ فعلِه، وطبيعةِ ذنبِه.

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعل ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

الإيماءُ إلى رسوخِ صفة الإجرام فيهم

جاء التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لأنّ وصفَهم بالإجرام دالّ على ثبوتِهم على هذه الصّفةِ لا بسببٍ مخصوصٍ، وإنما بسبب عراقتِهم وثباتِهم على الإجرامِ الموصلِ بهم إلى مستقرّهم في جهنّمَ، وبئسَ المصير.

بلاغةُ تقييدِ السَّوْقِ بالجارّ والمجرور:

قيّدَ فعلَ السّوقِ بالجارّ والمجرورِ بقولِه: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 770.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 7/ 98.

﴿جَهَنَّمَ﴾، فجاءَ الفعلُ معدًّى بهذا الحرفِ؛ تفظيعًا لهم، وتبشيعًا لما آلَ إليه أمرُهم، وما استقرَّ عليه حالُ مقرّهم[1].

سيقوا إلى حالِ مقرّهم الموصوفِ بالفظاعةِ والبشاعةِ

معنى حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالته:

قد تبيّنَ في مواضعَ كثيرةٍ دلالةُ حرفِ الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ على انتهاءِ الغايةِ، فجاءَ به في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ إيذانًا بأنّ منتهاهُم ومستقرّهم جهنّمُ؛ فهي محطّتُهم القارّةُ يلاقون فيها جريرةَ أفعالهم من الكفرِ والجحودِ والعصيانِ.

جهنّم منتهى المجرمين ومستقر المتكبرين

سرّ إيثارِ اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ بالذكر:

"سُمّيتْ جهنَّمَ لبعدِ قعرِها، يقالُ بئرٌ جهنامٌ إذا كانت بعيدةَ القعرِ، وهي تحتوي على حرورٍ وزمهريرٍ ففيها الحرّ والبردُ على أقصى درجاتِها"[2]، ومن هنا اختصّ لفظُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ بالتّعبيرِ عن عذابِ الآخرةِ حصرًا، فلم تستعملْ في التّعبيرِ عن أيّ غرضٍ من أغراضِ الدّنيا كما هو الحالُ في لفظِ (النّارِ)، فضلًا عن أنّ الموضوعاتِ التي وردَ لفظُ النَّارِ في سياقِها أكثرُ من الموضوعاتِ التي وردَ لفظ جهنّم في سياقِها؛ لكونِ النَّارِ عقابًا لأصغرِ الذّنوبِ، بخلافِ جهنّمَ التي لا يعذّبُ فيها ولا يخلّدُ إلَّا المشركون.

جهنّمُ قعرٌ مختصّةٌ بالمشركين المخلّدين

بلاغة المجاز في لفظ ﴿وِرۡدٗا﴾:

قيّدَ الحقّ سبحانَه مساقَ الكافرين إلى جهنّمَ بالحالِ ﴿وِرۡدٗا﴾[3]، ومعنى الوردِ هم الجماعةُ الّتي تردُ الماءَ بمدعاةِ عطشِها؛ فإنّه لا يردُ أحدٌ الماءَ في الغالبِ إلّا بعدَ الشّعورِ بالعطشِ والظّمأِ[4]؛ فهو من بابِ المجازِ العقليّ؛ إذ أطلقَ الوِرْدَ على العطاشِ من بابِ تسميةِ الشّيءِ بسببِه[5].

الوردُ الجماعةُ الّتي تردُ الماءَ ولا يردُ أحدٌ الماءَ إلَّا بعدَ العطشِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 298.
(2) الخلوتي، روح البيان: 3/ 280.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 391.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 196، والزمخشري، الكشاف: 3/ 43.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 298.

علةُ فصلِ جملةِ ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ استئناف مسوقٌ لتقرير حال الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم ولا علاقة لها بالفريقين المتقدمين[1].

معنى ﴿لَّا﴾ في جملةِ ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ﴾:

انتفاءُ الشّفاعةِ لهم أو منهم لغيرِهم في ذلكَ الموقفِ

﴿لَّا﴾ في قولِه: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ دالةٌ على النّفي في الحالِ وهذا هوَ معناها في كلامِ العربِ؛ لأنَّ نفيَ الشّفاعةِ هنا أنّها ليستْ لهم في هذا المقامِ، وهوَ مقامُ الحسابِ؛ فلا شفاعةَ لهم منْ غيرِهم، ولا شفاعةَ منهم لغيرِهم[2].

نكتة التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَمۡلِكُونَ﴾:

تصوير مشهد القيامة لقطع كلِّ رجاءٍ

التّعبيرِ بصّيغةِ المضارع في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ﴾؛ للدّلالةِ على الاستمرارِ التّجدّديّ المراد في المستقبل، أي: هم لا يملكون الشفاعة في المستقبلِ، فإنّه قد نفى عنهم أن يملكوا الشّفاعةَ في ذلكَ الوقتِ، وهو يومُ الحسابِ، وكأنّه حاضرٌ مشاهدٌ، وفيه تصوير المشهد لقطعِ كلِّ رجاءٍ متخيَّل.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ:

تنوُّعُ احتمال مرجع الضمير دليل العموم والشمول

مرجعُ الضّميرِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ يجوزُ أن يكونَ عائدًا على الملائكةِ المكرمين، ويجوزُ أن يكونَ عائدًا على عبادِه المؤمنين المتّقين[3]، ويدلّ عليه ذكرُ هؤلاءِ العبادِ فيما تقدّمَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الضّميرُ عائدًا على ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ فيكونُ على هذا التّقديرِ المشركونَ خاصّةً، أيْ: أنّهم لا يملكونَ أنْ يشفعَ لهم؛ فيكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ من بابِ الاستثناءِ المنقطعِ، فمن اتّخذَ عهدًا يشفعُ له[4].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 154.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 565.
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 315.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 32.

بلاغةُ الكنايةِ:

كيف لمن لا يملكُ أمرَ نفسِه أن يشفعُ؟!

معنى قولِه تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾، أي: لا يستطيعون فعلَ شيءٍ منه؛ فنفيُ الملكِ كنايةٌ عن نفي الاستطاعةِ؛ لكونِهم لا يملكون في هذا اليومِ من أمرِهم شيئًا، فلا يستجيبون لنداءٍ، ولا لكلامٍ؛ لأنّهم لا يستطيعون، وذلك على حدّ قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ [القلم: 42][1].

نوعُ التّعريفِ في لفظ ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾:

للعهدِ فهي شفاعةُ الخلقِ بعضِهم لبعضٍ في ذلك اليوم

التّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ دالٌّ على العهدِ، وليسَ مطلقَ الشّفاعةِ، فالمعنى الشّفاعةُ في النّجاةِ من العذابِ والغفرانِ عمَّا كانَ منهم؛ لأنَّ الشّفاعةَ اسمٌ يقعُ على الكثيرِ ممَّا في معناها، والمرادُ هنا شفاعةُ الخلقِ بعضهم لبعضٍ في يومِ القيامةِ.

نكتةُ إيثارِ اسم ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ على الفعل (أن يشفعوا):

آثرَ النّظم الكريم استعمالِ الاسم ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ على الفعلِ (أن يشفعوا) في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾؛ لما في الاسم من صفةِ الثّبوتِ، وما في الفعلِ من صفةِ الحدوثِ، ولَمَّا كانت ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ هنا في سياقِ النّفي أوردَها اسمًا لا فعلًا؛ لينفيها على سبيلِ الثّبوتِ واللّزوم، فلا يملكُها مطلقًا إلّا من كان مؤهلًا لها.

نوعُ ﴿إِلَّا﴾ ودلالتها:

تحتمل (إلا) الانقطاع والاتصال

تحتمل ﴿إِلَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ أن تكون منقطعة، وهو نوعٌ يستثنى الشّيءُ من غيرِ جنسِه، فالمتّخذون العهدَ عندَه تعالى هم الصّالحون، وفاقدو الشّفاعةِ الّذين لا يملكونها هم الكافرون[2]، فإنَّ من يتّخذُ عندَ الرّحمنِ عهدًا؛ فإنّه ممّن يملكُ الشّفاعةَ عندَه تعالى[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/ 1525.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 16/ 123.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 246.

ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿إِلَّا﴾ دالةً على الاستثناءِ المتّصلِ على إرادةِ أنْ يعمَّ لفظُ المجرمينَ العصاةَ والكفرةَ، ثمَّ أخبرَ أنّهُ لا يملكُ الشّفاعةَ إلّا العصاةُ المؤمنونَ، فهم يشفعُ فيهم[1].

علّةُ التّعريفِ بالموصولِ:

أوردَ الّذين اتّخذوا عندَ الرّحمنِ عهدًا معرّفًا بالاسم الموصول بقولِه: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾، ولم يعبّرْ بالاسم المعرّفِ بـ(أل)؛ فيقولُ (المتّخذون) إشعارًا لما في الاسم الموصولِ من العلّيّةِ والسّببِ، فاتّخاذُهمُ العهدَ عندَ الرّحمنِ سببٌ لأنْ يملكوا الشّفاعةَ عندَهُ تعالى.

لطيفةُ التّعبيرِ بالاتّخاذِ:

اتّخاذُ العهدِ عندَ الرّحمن شأنٌ يتوفّرُ على المشقّةِ والمكابدةِ

جاءَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ﴾، وهي صيغةٌ دالةٌ على الكلفةِ والاجتهادِ في الأخذِ[2]؛ للإشارةِ إلى أنّ اتّخاذَ العهدِ عندَ الرّحمنِ ليسَ أمرًا يسيرًا، بل يتوفّرُ على المشقّةِ والمكابدةِ، فلا يكونَ أخذًا يسيرًا.

بلاغةُ تقييدِ الاتّخاذِ بالعِنْديَّةِ:

اتخاذُ العهود عند الحقِّ المعبودِ طريق الشّفاعة

اتّخاذُ الشّفاعةِ مشروطٌ بمَن اتّخذَ عندَ الرّحمنِ عهدًا، واختصّ بذلك، مجتهدًا في تحصيلِ ذلك الفضلِ، وهذا الشّرفِ بالإيمانِ باللّه ورسولِه، بأن يشهدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللّهُ، وأنّ محمّدًا رسولُ اللّه، ويتبرّأَ إلى اللّه من الحولِ والقوّةِ، ولا يرجو إلَّا اللّهَ، ويعملَ بطاعته[3]، وليسَ العهد متاحًا لكلّ أحدٍ؛ فلا يشفعُ إلَّا المأمورُ بالشّفاعةِ، المأذونِ له فيها.

سرّ تقديمِ الظّرفِ على المفعولِ:

القبول مرهونٌ برضا الرحمن

في اتّخاذِ العهدِ قدّمَ الظّرفَ ﴿عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على المفعولِ ﴿عَهۡدٗا﴾، وسرّ ذلكَ الإشارةُ إلى الاختصاصِ والحصرِ؛ فإنّ من

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 32.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 247.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 255.

يملكُ الشّفاعةَ في ذلكَ اليوم مختصّ بمن اتّخذَ عندَ الرّحمنِ لا عندَ غيرِه عهدًا، فلا عهدَ مقبولٌ عندَ غيرِه تعالى.

سرّ اصطفاءِ اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

لاختيارِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في هذا الموضع سببٌ؛ فإنَّ سياقَ الحديثِ عنْ تعدّدِ النّعم الكبيرةِ، وشرحِ حالِ الشّاكرينَ والكافرينَ على السّواءِ، فالمعنى أنّنا نحشرُ المتّقينَ إلى مَنْ غمرَهم برحمته، وشملَهم برأفتِه، وعوّدَهم عليها، وذلكَ منْ أعظمِ البشاراتِ لديهم[1].

مِن عظيمِ رحمةِ اللهِ بعبادِهِ الشّفاعةُ لمستحقيها

دلالةُ التّعبيرِ بالعهدِ مع الشّفاعةِ:

جاءَ التّعبيرُ بالعهدِ في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ مقترنًا بالشّفاعةِ؛ لأنّ اتّخاذَ العهدِ من لوازمِ الشّفاعةِ؛ فالعهدُ هو كلمةُ التّوحيدِ، والإيمانُ بها، والقيامُ بحقّها، وهو الإيمانُ بالحقّ سبحانَه وحدَه وكتبِه ورسلِه والملائكةِ، ثمّ العملُ الصّالحُ قولًا وفعلًا[2]، فمَن كانَ هذا عهدُهُ معَ اللّه تعالى حقّت له الشّفاعةُ، وكانَ قمينًا بها.

اتخاذ العهدِ لازم الشّفاعة وقرين النجاة

غرضُ تنكيرِ ﴿عَهۡدٗا﴾:

لَمَّا كانَ معنى العهدِ هو اللّفظُ الّذي يجمعُ المعانيَ الجمّةَ، مثل كلمةِ التّوحيدِ (لا إلهَ إلَّا اللّهُ)، أو الطَّاعةِ أو العملِ الصَّالحِ أو حفظِ كتابِ اللّه، أو الإذنِ بالشّفاعةِ لمن يشاءُ[3]؛ جاءَ به بصيغةِ التّنكيرِ؛ فإنّ النّكرةَ دالّةٌ على العمومِ.

العهدُ لفظٌ جامعٌ للإيمانِ والأعمالِ الصّالحةِ

بلاغةُ الاحتباكِ:

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾، وقولِه: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ احتباكٌ[4]؛ ففي الآيةِ الأولى ذكرَ

ذكرُ الرّحمنِ دليل على تقدير المنتقمِ وذِكْرُ جهنّمَ دليل على تقدير الجنّةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 451.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 16/ 136.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 299.
(4) الاحتباك نوع عزيز فيُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول، ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 204.

لفظَ الرّحمنِ مستدلًا به على لفظِ المنتقم الجبَّارِ المحذوفِ ثانيًا، وفي الآيةِ الثَّانيةِ ذكرَ لفظَ جهنّمَ ثانيًا دليلًا على حذفِ الجنّةِ أولًا[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشيطان وإبليس:

الشيطان وصفٌ يستغرق شياطين الجان والإنس، وإبليس علمٌ على أحد شياطين الجن

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عبّرَ عمّن يوسوسُ لبني آدمَ ويغويهم بلفظِ الشّياطينِ، واشتقاقُه منْ شطَنَ، إذا بعُدَ وتفرّقَ، وشياطينُ الجنِّ وشياطينُ الإنسِ هم مَرَدَتُهم، أمَّا إبليسُ فهوَ المقصودُ بمنْ أغوى آدمَ حتّى أخرجَهُ من الجنّةِ منْ أبلسَ، إذا يئسَ، ولمَّا لعنهُ اللّهُ، وغضبَ عليه أبلسَ من رحمةِ اللّه تعالى[2]، والمعنيُّ في الآيةِ عمومُ الشّياطينِ الّذينَ يؤزّونَ الكافرينَ منْ بني آدمَ، ولا يرادُ منهم إبليسُ كبيرُهم الّذي أغوى أباهم آدمَ عليه السلام.

ويردُ لفظُ (إبليس) في القرآنِ الكريم على أنّه اسمُ علم للذي عصى اللّهَ، وامتنعَ من السّجودِ لـ(آدم) عليه السلام، وهو مأخوذٌ من شدّةِ اليأسِ؛ لأنّ اللّه أبْلسَهُ من الخيرِ كلّه، أي: آيَسَهُ منه[3]، ولمَّا كانت صفةُ إبليسَ كذلك سُمّي شيطانًا لبُعده عن الخيرِ، أو الحقّ، أو عن رحمةِ اللّه، أو لهلاكِه، والشيطنةُ من فعلِ إبليسَ، لكن إذا ذُكرَ امتناعُ إبليسَ من السّجودِ جاءَ بلفظِه؛ لأنّه يعودُ إلى ذاتِه ونفسِه، وأمَّا إذا ذُكرتْ وسوستُه وإغراؤه وأزّه؛ ذُكر لفظُ الشّيطان[4].

الأزّ والتّهييجِ والهزّ:

الأزّ عملٌ لقصدٍ معيّنٍ، والتّهييجُ لمطلقِ الثّورانِ

ذكرَ فعلَ الشّياطينِ مع الكافرين في قولِه تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾، ومعناه تزعجُهم وتحركُهم وتدفعُهم إلى المعاصي[5]، أمَّا التّهييجُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 247 - 248.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 23.
(3) الخليل، العين: (صلت).
(4) خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 282.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 23.

فيستعملُ لما ثارَ وهدرَ، ولما كانَ فيه مشقّةٌ وضررٌ"[1]، والأصلُ في معناه هو ثورانُ الشّيءِ[2]، فثمّةَ فرقٌ بينَ الأزّ والتّهييج، فالأولُ عملٌ لقصدٍ معينٍ، وهو التّحريكُ المتضمنُ معنى الإغواءِ والتّعجيلِ لأجلِ المعصيةِ، فهي تسوقُهم وتزعجُهم إلى المعاصي والكفرِ باللّه سوقًا وإزعاجًا[3]، والثّاني لمطلقِ الثّورانِ.

والأزُّ أشدّ من الهزّ؛ فهو تعبيرٌ عن التّحريكِ الشّديدِ للنّفوسِ بالتّهييجِ، والإقلاقِ، والإزعاجِ، والإغراءِ بالمعاصي، أمَّا الهزّ فمعناه مطلقُ التّحريكِ من المحسوساتِ؛ وكأنّهم خصّوا هذه المعاني بالهمزةِ؛ لأنّها أقوى من الهاءِ، وهي أعظمُ في النّفوسِ، وأوقعُ من الهزّ؛ لأنّك قد تهزّ ما لا بالَ له، كالجذعِ وساقِ الشّجرةِ[4].

استعملَ الحرفَ القويُّ مع المعنى القويّ وهو تحريكُ النّفوسِ، وإزعاجُها

وممَّا يصوغُ دلالةَ قوة الأزّ وشدّتَه، وخفّةَ الهزّ ولينَه تأثيرُ صفتي الصّوتين أنفسهما؛ فالهمزةُ حرفٌ قويٌّ؛ إذ هو نبرةٌ في الصّدرِ شديدٌ مجهورٌ؛ فاستُعملَ مع المعنى القويّ وهو تحريكُ النّفوسِ، وإزعاجُها، في حينِ يوصفُ الهاءُ بأنّه حرفٌ مهتوتٌ ضعيفٌ لا يكادُ يبينُ في النّطقِ؛ لأنّ صفتَه الرّخاوةُ، والهمسُ؛ فاستُعملَ في المعنى الضّعيفِ، وهو مطلقُ التّحريكِ كهزّ الأشياءِ[5]؛ ولذلك اختيرَ مع فعلِ هزّ السّيدةِ مريمَ عليها السلام النّخلةَ؛ مراعيًا ضعفَها جرّاءَ الحملِ، قالَ تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25].

(1) الخليل، العين: (هيج)، والجوهري، الصحاح: (هيج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هيج).
(3) ابن القيم، طريق الهجرتين: 1/ 404.
(4) ابن جني، الخصائص: 2/ 148.
(5) خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 282.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾ [مريم: 88 - 91]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبطلَ مطلقَ الشّفعاءِ وكانَ الولدُ أقربَ شفيعٍ أبطلَ دعواهُم بنسبةِ الولدِ إليه سبحانهُ

لَمَّا كانَ منْ شأنِ الآيةِ السَّابقةِ إبطالُ الشّفعاءِ على وجه الإطلاقِ، وكانَ الولدُ أقربَ شفيعٍ، أبطلَ هنا دعواهُم نافيًا ما يكونُ من الشّفعاءِ خاصِّهم وعامِّهم؛ فيكونُ كلُّ عزٍّ أرادوهُ بشفاعةِ آلهتهم مردودًا، وقد ادّعوا منْ قبلُ أنّ لهُ ولدًا سبحانهُ، وهو من أعظم القولِ والافتراءِ على اللّه سبحانهُ، فإنّ ثقلهُ لا تتحملهُ السّمواتُ والأرضُ والجبالُ؛ لأجلِ أن دَعَوْا له ولدًا، وكلّ ما سواهُ هو من نعمِه وأفضاله[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِدّٗا﴾: أَصلُ الأَدِّ: الشِّدَّةُ والثِّقَلُ[2] الإِدُّ: الأَمرُ الفَظيعُ العَظيمُ، يُقال: أَدَّني الأَمرُ، يَؤُدُّني، أَدًّا: إذا أَثْقَلَني وعَظُمَ عليَّ[3]. ويأْتي بمعنى الغَلَبَةِ والقوَّةِ، والإِدُّ أيضًا: القَويُّ، ويُستَعْمَلُ لِمَعاني أُخْرَى مِنْها: العَجَبُ، والمُنْكَرُ، والشَّنيعُ، والصَّعْبُ، وجَمعُه: إِدَدٌ، وآدادٌ[4]، والمراد بالإدِّ في الآية: الأمرُ المُنكر، الَّذي يُثقِلُ كاهل صاحبه، ويقصم ظهره[5].

2) ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾: (فطر) أَصلُ يَدُلُّ على فتْح شَيءٍ وإِبرازِه[6]، فطَرَ الشَّيءَ يَفطُرُه فطراً فانْفَطَر وفطَّرَه: شَقَّهُ، وتَفَطَّرَ الشَّيءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أدَّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أدد).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أدد).
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 771.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).

تَشَقَّق، والفَطْرُ: الشَّقُّ، وجَمعُهُ فُطور، ويُقالُ أيضًا: فطَرَ البِئرَ، يَفطُرها، فطْرًا، أي: شَقَّها وحَفَرَها، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم[1] والمرادُ بالتَّفَطُّرِ في الآية: الاِنْشِقاقُ، وهو مُطاوِعُ التَّفْطيرِ الَّذي هوَ تَكْريرُ الشَّقِّ[2].

3) ﴿وَتَنشَقُّ﴾: (شقّ) أَصْلٌ واحِدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه ويُشتَقُّ منه على معنى الاستِعارَة، تَقولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبيَدِه شُقوقٌ، وبالدَّابَّةِ شُقاقٌ، والأَصلُ واحدٌ، والشِّقَّةُ: شَظيَّةٌ تُشظَّى مِنْ لَوْحٍ أَوْ خَشَبَةٍ[3]، ومِنَ البابِ: الشِّقاقُ: الخِلافُ والعَداوةُ، يُقالُ: شاقَّه، مُشاقَّةً وشِقاقًا: إذا خالَفَهُ[4]، والشِّقُّ أَيْضًا: النَّاحيَةُ مِنَ الجبَلِ، وهو الشَّقيقُ أيضًا، يُقالُ: هَذا أَخي وشَقيقي وشِقُّ نَفْسي، والمَعْنَى أَنَّهُ مُشَبَّهٌ بِخَشَبَةٍ جُعِلَتْ شِقَّيْنِ، والشُّقَّةُ: مَسيرٌ بَعيدٌ إِلَى أَرْضٍ نَطيَّةٍ، تَقولُ: هَذِهِ شُقَّةٌ شاقَّةٌ[5] والمقصودُ بالشَّقِّ في الآية: الإِبْعادُ بَيْنَ ما كانَ مُتَّصِلًا[6].

4) ﴿وَتَخِرُّ﴾: (خرّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ[7] فالخَريرُ: صَوت الماءِ والرّيحِ والعُقابِ وغيرِ ذلك ممَّا يسقط من علوّ[8]، وخَرَّ للّه ساجِدًا يَخِرُّ خُروراً، أَي: سَقَطَ سقوطًا يُسمَعُ منه خَريرٌ[9] وخَرَّ الحَجَرُ يَخُرُّ خُروراً: صَوَّتَ في انْحِداره، بِضَمِّ الخاءِ، مِنْ يَخُرُّ، والخارُّ: الَّذي يَهْجُمُ عليْكَ مِنْ مَكانٍ لا تَعْرِفُهُ؛ يُقالُ: خَرَّ علَيْنا ناسٌ مِنْ بَني فُلانٍ، وخَرَّ الرَّجلُ: هَجَمَ عليْكَ مِنْ مَكانٍ لا تَعْرِفُهُ[10] والمراد بالخُرورِ في الآية: السُّقوطُ، أَيْ سُقوطُ الهَدْمِ، وهو أَنْ يَتَساقَطَ شَظايا وقِطَعًا[11].

5) ﴿دَعَوۡاْ﴾: (دعو) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً، والدَّعْوَةُ إِلَى الطَّعامِ بِالفَتْحِ، والدِّعْوَةُ في النَّسَبِ بِالكَسْرِ، قالَ

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (فطر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170، و25/ 30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقّ).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (شقّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقَّ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 131.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرَّ).
(8) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (خرَّ).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرر).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (خرر).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70، و71.

أَبو عُبَيْدَةَ: يُقالُ في النَّسَبِ دِعْوَةٌ، وفي الطَّعامِ دَعْوَةٌ[1]، والدَّعْوَى: الادِّعاءُ، قالَ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ [الأعراف: 5][2] قالَ الخَليلُ: الادِّعاءُ أَنْ تَدَّعيَ حَقًّا لَكَ أَوْ لِغَيْرِك[3] تقولُ ادَّعى حَقًّا، أَوْ باطِلًا، والدَّعْوَى أيضًا: الدُّعاء، قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: 10][4] والمقصود بـ﴿دَعَوْاْ﴾ في الآية: نَسَبوا، وهو قَولٌ يَطْلُبُ به الإنسانُ إثْباتَ حَقٍّ على غَيْرِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريرُ التَّوحيد، وإثباتُ العبوديَّة الخالصة لله، وإنكارُ اتِّخاذ الله ولدًا

يستطرد السّياق القرآني، إلى حكاية أقوال أخرى، من أقوال الكافرين الباطلة، وهي زعمهم أنَّ لله تعالى ولدًا، فقال سبحانه: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخذَ الرَّحمنُ ولدًا له، لقد قلتُم قولًا عَظيمًا مُنكَرًا، بافترائِكم على اللّه أنَّ له ولدًا، تكاد السَّمواتُ على عَظَمتِها وإحكامِها تتشَقَّقُ قِطَعًا عند سماعِها ذلك القَولَ العَظيمَ المنكَرَ؛ إعظامًا للرَّبِّ، وإجلالًا له سُبحانَه، وتكادُ الأرضُ تتصَدَّعُ؛ تعظيمًا له سُبحانَه، وتكادُ الجِبالُ على صلابتِها تسقُطُ سَريعًا، فتندَكُّ وتتفَتَّتُ، من أجلِ أنَّ المُشرِكينَ نَسَبوا للرَّحمنِ ولَدًا[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطف القصَّةِ على القصَّة:

المعاني السياقيةُ آخذٌ بعضها بعُرى بعضٍ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ تدلّ على العطفِ؛ فهو عطفٌ على ما تقدّمَ من قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ [مَرْيَم: 66]، أو على قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (دعا).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

(4) الراغب، المفردات: (دعا).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 635، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 265، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 169، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 501.

تتميمًا لحكايةِ أقوالِهم بأنّ للّه ولدًا، وقولِ المشركين إنّ الملائكةَ بناتُ اللّه[1]؛ فهي من عطفِ القصَّةِ على القصّة؛ لأنّ هؤلاءِ مشتركون في الضّلالةِ، فكان أنْ حكى الحقّ سبحانَه جنايتَهم، وما ادّعوه بعدَ جنايةِ عبدةِ الأصنام[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿وَقَالُواْ﴾:

إدانـةٌ عـقديَّةٌ مـلـزمـةٌ لقيل الباطلِ

التّعبيرُ بالفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ دالٌّ على الثّبوتِ والتّحقّقِ فلا يستطيعون إنكارَ ما قالوه من إشراكِهم باللّه باتخاذِه الولدَ، وأن جعلوا الملائكةَ بناتَه بناتِه، تعالى اللّهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا، وفي ذلك إدانةٌ عقديَّةٌ لما صدر عنهم من قيل الباطلِ.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ في ﴿وَقَالُواْ﴾:

الضـمـيرُ راجـعٌ إلى المشـركـين أصالةً وغيرهم ممن شابههم تبعًا

يرجع الضّميرُ في الفعلِ: ﴿وَقَالُواْ﴾ إلى هؤلاءِ الكفرةِ بعدَ قولِهم الشركيّ وإنكارِهم البعثَ والنّبوّةَ[3]؛ للإشارةِ إلى أنّ قولَ المشركين هذا ليسَ محضَ إخبارٍ عنهم، أو تعليمَهم، ولكن تفظيعًا لقولِهم، وتشنيعًا له[4].

ويشملُ الضّميرُ في الفعلِ: ﴿وَقَالُواْ﴾ جميعَ من أطلقَ هذا القولِ الباطلِ، وتفوّهَ به سواءً أكانَ قولَ اليهودِ في عُزيرٍ، والنّصارى في المسيحِ، والمشركين في الملائكةِ[5].

بلاغةُ التّعريضِ بالنّصارى:

مـشـابـهـةُ الـنّـصـارى المـشـركـيـنَ في نسبةِ الولدِ إلى الله

في عودِ الضّميرِ في الفعلِ: ﴿وَقَالُواْ﴾ على المشركين عامّةً، تعريضٌ بالنّصارى لمشابهتِهم المشركين في أنّهم نسبوا الولدَ للّه تعالى، وهو تكملةٌ لما أبطلَه الحقّ سبحانَه من قولِهم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ [مَرْيَم: 35][6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 196.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 364.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 178.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 169.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 73.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.

نكتةُ التّعبيرِ بالقولِ عن الاعتقادِ:

القول كنايةٌ عن الاعتقادِ

فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾ دالٌّ على الاعتقادِ واليقينِ من لدنِ هؤلاءِ؛ فقولُهم مبنيٌّ على الإيمانِ بذلكَ، والاعتقادِ بوقوعِه، فلم يصدرْ عنهم هذا القولُ إلّا تأييدًا لفظيًّا لما عبدوه حقيقةً من غيرِ اللّه تعالى كالمسيحِ ونحوِه، فهو كنايةٌ عن معتقدهم.

دلالةُ جمعِ الضمير في ﴿وَقَالُواْ﴾:

القائلونَ جمعٌ وهم مشركو العربِ واليهودُ والنّصارى

أسندَ فعلَ القولِ إلى الواوِ الدّالّ على الجمعِ؛ لأنَّ القائلينَ جمعٌ، وهم مشركو العربِ بقولهم: الملائكةُ بناتُ اللّه، وهم اليهودُ بقولِهم: عزيرٌ ابن اللّه، والنّصارى بقولِهم: المسيحُ ابن اللّه؛ فالفعلُ ﴿وَقَالُواْ﴾ يشملُ هؤلاءِ القائلينَ[1] جميعًا.

سرّ إيثارِ صيغة الاتّخاذِ:

أمارةُ فسادِ اعتقادهم زعمُهم أنَّ اللّه اتّخذ ولدًا بتكلف عملٍ زائد

صيغةُ (أخذَ) إذا لم تكنْ ثلاثيةً مجردةً بأن دخلَ عليها تاءُ الافتعالِ؛ فإنّ المعنى يصبحُ محصورًا في الجعلِ مع إضافةِ هذا الجعلِ إلى المتّخذِ نفسِه بأن يخصّ هو الشّيءَ المتَّخَذَ بالولاءِ، أو الاستئثارِ به[2]؛ فهم متّخذوه من عندِ أنفسِهم متكلّفين في القيامِ به، مجتهدين في إثباتِه.

وجاءَ النَّظم بلفظِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾ تعريضًا بالاستهزاءِ بهم بأنّ كلامَهم لا يلتئمُ لأنّهم أثبتوا ولدًا للرّحمنِ، ويقولون اتّخذه الرّحمن، والاتّخاذُ الاكتسابُ وهو ينافي الولديةَ؛ إذ الولديةُ تولّدٌ بدونِ صنعٍ، فإذا جاءَ الصّنعُ جاءت العبوديةُ لا محالةَ، وهذا التّخالفُ هو ما يعبّرُ عنه في علمِ الجدلِ بفسادِ الوضعِ، وهو أن يستنتجَ وجودُ الشّيءِ من وجودِ ضدّه كما يقولُ قائلٌ: القتلُ جنايةٌ عظيمةٌ فلا تكفِّر مثلَ الرِّدّةِ[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 261.
(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/ 355.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 684.

دلالةُ الماضي في الفعلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

تقبيح دعوى المشركين بزعمهم الباطل بتحقُّقِ وثبوت ما افتروه

لَمَّا أراد المشركون تحقيقَ بغيتِهم في التّجنّي على الحقِّ سبحانَهُ، والافتراءِ عليه بما ينصرُ مذهبَهم، عبّروا بالفعلِ الماضي ﴿ٱتَّخَذَ﴾، وكأنَّ الأمرَ حاصلٌ لا محالةَ، وفي ذلكَ تبكيتٌ وتقبيحٌ لدعواهُمُ الّتي ساقوها منْ غيرِ دليلٍ، وهي محضُ افتراءٍ وبهتانٍ، ولوْ سيقَ الكلامُ بالفعلِ المضارعِ لكانَ أقلَّ شناعةً؛ لأنّهُ محتملُ الوقوعِ، فالكلام هنا جارٍ على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيُغيِّر كيانها.

بلاغةُ اختيارِ اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ:

من أنكر معرفةَ الرَّحمنِ كيف يدَّعي معرفةَ اتخاذِه ولدًا

لَمَّا أنكر المشركون لفظَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ولا يقرّون به، وما كانَ من شأنِ إنكارِهم له بقولِه تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، لَمَّا كانَ ذلكَ كذلكَ ذكرَ اسمَ الرّحمنِ، ونصّ عليه هنا من دونِ اسمِ الجلالةِ؛ قصدًا لإغاظتِهم بذكرِ الاسمِ الّذي أنكروه، وإيماءً إلى منافاةِ وصفِ الرّحمنِ بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[1]، أي: (الرّحمن الذي ما عرفتموه هو الرحمن الذي ادّعيتم أنَّه اتخذ ولدًا).

غرضُ تنكيرِ ﴿وَلَدًا﴾:

لاشتمال الإنكار والنفي لكل افتراءٍ حاصلٍ

والتّعبيرُ بالولدِ منكّرًا في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾؛ لاشتمال الإنكار والنفي لكلِّ ما زُعم أنَّه ولدٌ للّه تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا؛ فإنّ اليهودَ قالوا: إنّه عزيرٌ، وقالت النّصارى: إنّه المسيحُ، وقالت مشركةُ العربِ: إنّها الملائكةُ[2].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿وَلَدًا﴾:

لا يستنكف الكافر أن يُلقي الفرية على الواحد الأحد

في قولِه تعالى: ﴿وَلَدًا﴾ قرأَ حمزةُ والكسائي ﴿وُلۡدًا﴾ بضمِ الواوِ وإسكانِ اللّامِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(3) الداني، جامع البيان: 3/ 1346.

فعلى قراءةِ الجمهورِ (الوَلَدُ) اسمُ جمعٍ لمفرده، أمَّا قراءةُ الضّمّ والسّكونِ (وُلْد) فهو جمعٌ مكسّرٌ جمعُ (وَلَد) مثل (أَسَدٌ) و(أُسْدٌ)[1]، والقراءتانِ متكاملتانِ تكمّلُ إحداهُما الأخرى؛ فالولدُ على قراءةِ الجمهورِ بمعنى اسمِ الجمعِ، وعلى قراءةِ غيرهم دالّ على الجمعِ.

ومن لطيف التوجيه هنا قول الأخفش إن (الولَد) بالفتح: الابن والابنة، و(الوُلد) بالضم: الأهل[2]، وقد رمى المشركون الذات العلية بهاتَين الفريتَين في محكم التنزيل. فأدَّتْ كلُّ قراءةٍ وظيفتَها في خطابِ النَّاس.

بلاغةُ فصلِ جملةِ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾:

جملةٌ مستأنفةٌ لبيانِ شناعةِ وفظاعةِ دعواهُم اتّخاذِ الرّحمنِ ولدًا

جاءتْ جملةُ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ مفصولةً عمَّا سبقَها من كلام؛ لأنّها جملةٌ مستأنفةٌ تبيّنُ ما تقتضيه جملةُ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ من التّبشيعِ والتّفظيعِ والتّقبيحِ[3]، ولأنّها ردّ لمقالتِهم المنكرةِ الباطلةِ، وتهويلٌ منها؛ فإنّهم قد بلغوا بذلكَ القولِ غايةَ الوقاحةِ، ونهايةَ الجهلِ، وقصارى الجراءةِ[4].

بلاغة الالتفات من الغَيْبةِ إلى الخطاب وفائدته:

الإيماءُ إلى تناهي الغضب في بيانِ اجترائِهم وكبير افترائهم

لَمّا كانَ خطابُه غَيْبَةً في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾، وجّهَ كلامَه إليهم مباشرةً بقولِه: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ في التفاتٍ في الكلامِ من الغيبةِ إلى الحضورِ، يرمي إلى إبلاغِهم التّوبيخَ بطريقٍ شديدِ الصّراحةِ بما لا لبسَ فيه من بيانِ المرادِ[5]، على أن قائلاً مثل قولهم، ينبغي أن يكون موبَّخا، وتوبيخ الحاضر أبلغ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(2) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 282.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.

الإهانة من الغائب[1]، وفيه إيماءٌ إلى تناهي الغضب، وشدّته منه تعالى[2]، وفيه زيادة التسجيل على قائلي هذا القول بالجرأة على اللّه، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه.

وفائدةُ هذا الالتفات تحقيق غرضَيْن: **الأول**: تَثْبيتُ المؤمنين على عقيدة تنزيه اللّه عمَّا لا يليق به سبحانه؛ فيدخل في باب الإيقاظ والتنشيط، **الثاني**: تَأْنيبُ المفترين على اللّه بأنَّهم ارتكبوا أمرًا بالغ النكارة والفظاعة والشناعة، مع الاقتصاد والإيجاز في العبارة[3].

نوعُ اللَّامِ ودلالتها:

قَسَمٌ دالٌّ على فظاعةِ ما جاؤوا بـه وعـظـمـةِ ما نطقوا به

في قولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾؛ لَمَّا أرادَ الإشارةَ إلى أنّهم أتوا شيئًا فظيعًا، وقولًا عظيمًا باتّخاذه سبحانهُ ولدًا، جاءَ باللَّامِ الواقعةِ في جوابِ قسم محذوفٍ تقديرُه: (وعزّتي)[4]؛ فالقسمُ يؤتى به لما عظمَ من الأمورِ، ولا أعظمَ ممَّا أتوا به من هذا الكلامِ الفظيعِ العجيبِ المنكرِ الّذي تَقشعِرُّ لهولِه الأبدانُ[5].

بلاغةُ التّوكيدِ بـ﴿لَّقَدْ﴾:

تـوكـيـدُ صـدورِ الفظائع يزيدُها شناعةً وبشاعةً

ادّعاؤهمُ اتّخاذَ الحقِّ سبحانهُ الولدَ منْ أعظمِ الأقوالِ وأنكرِها، وممَّا قيلَ كذبًا وزورًا[6]؛ فكانَ وصفهُ بالشيءِ العظيمِ العجيبِ ممَّا به حاجةٌ للتّوكيدِ؛ فجاءَ بـ﴿لَّقَدْ﴾ الّتي تفيدُ التّوكيدَ والتّحقيقَ[7]؛ لبيانِ بشاعةِ ما ارتكبوه، وفظاعةِ ما نسبوه.

مناسبةُ استعمالِ فعلِ المجيءِ:

الافــــتراء على درجـــاتٍ منها الـيـسـير ومنها الصعب العسير

في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ آثرَ استعمالَ فعلِ المجيءِ

(1) قحطان، الالتفات في البلاغة العربية، ص: 180.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(3) الميداني، البلاغة العربية: 1/ 493، وينظر: يحيى العلوي، الطراز: 2/ 73.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 73.
(6) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 387.
(7) ابن مالك، شرح التسهيل: 1/ 29.

على فعلِ الإتيانِ، والسّرّ في هذا الاستعمالِ أنّ المجيءَ يستعملُ لما فيه صعوبةٌ ومشقّةٌ ولأيٌ[1]، ولَمَّا كانَ ما جاؤوا به شيئًا عظيمًا منكرًا كانَ من المناسبِ التّعبيرِ عنه بالمجيءِ؛ فإنّه كاشفٌ أنَّ صدورَ مثل هذا الأمر لم يكن سهلًا؛ فإنَّه ما كان أن يُنسبَ الولدُ إليه سبحانَه، تعالى اللّهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ إلا بطول تفكيرٍ وقوة افتراء، فلمَّا تمكّن منهم الافتراء جاؤوا به.

دلالةُ جمعِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿جِئۡتُمۡ﴾:

المفترون جمعٌ من اليهودِ والنّصارى والعربِ

معنى ما جاؤوا به هوَ دعواهُم باتّخاذِه ﷻ الولدَ، وأنّ فاعلي هذا الفعلِ جمعٌ، منهم اليهودُ والنّصارى والمشركون من العربِ[2] وغيرُهم؛ فقد جعلَ الفاعلَ جمعا بقولِه: ﴿جِئۡتُمۡ﴾ تعبيرًا عن تلكَ الجموعِ، وتقريعًا لما كانَ من فعلِها الجمعيّ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿جِئۡتُمۡ﴾:

الأفعالُ المتحقّقةُ أشدُّ ذمًّا من مجرَّدِ الأقوالِ

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿جِئۡتُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على وقوعِ الحدثِ وتحقّقِه على وجه اليقينِ بلا ريبٍ أَوْ شكٍ، وفيه ذمٌّ لفعلِهم هذا، وكمالُ السّخطِ الواقعِ عليهم؛ فالمعنى أنّكم فعلْتم فعلتَكم هذه الّتي تكادُ السّمواتُ يتفطّرنَ منها؛ لقبحِها وعظمِها، فهم قالوا ابتداءً، ثم تحول قولهم إلى أفعالٍ واعتقاداتٍ يُدافَع عنها.

فائدةُ تعدية فعل المجيء بذاته:

بيانُ أنَّ المفترين فعلوا الافتراء بعد أن لم يكن موجودًا

في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ تعدّى الفعل ﴿جِئۡتُمۡ﴾ إلى المعمول ﴿شَيۡـًٔا﴾ من غيرِ واسطةِ حرفِ الجرّ، وهو من بابِ الحذفِ والإيصالِ؛ فالمعنى جئتم بشيءٍ إدّ، أي: فعلتُم أمرًا عجيبًا منكرًا بالغَ العظمة[3]، وفائدته تصوير أنَّهم جاؤوا الشَّيء ذاته؛ فهم صنعوه وفعلوه بعد أن لم يكن موجودًا.

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 97.
(2) السيوطي، الدر المنثور: 3/ 334.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 454.

دلالةُ تنكيرِ ﴿شَيۡـًٔا﴾:

في تنكيرِ ﴿شَيۡـًٔا﴾ دلالةٌ على التّعظيم والتّهويلِ لهذا الافتراءِ والبهتانِ، الّذي اضطربتْ له السّمواتُ والأَرضُ حتّى كادتا أن تزولا تفطّرًا وتشقّقًا وهدًّا.

بلاغةُ الوصفِ بـ﴿إِدًّا﴾:

الافتراءات النادرة العجيبة تُناسبها ألفاظٌ غريبةٌ

لَمَّا كانت مقالتُهم تلكَ من الشّناعةِ والقبحِ ما لا يحيطُ به الوصفُ عُبِّرَ عن ذلكَ بالإدِّ، ومعناه الشّيءُ العجيبُ العظيمُ المنكرُ، ومنه الإدّةُ بمعنى الشّدّةِ والثّقلِ[1]؛ فيدلُّ اللفظ على التّناهي في المنكرِ، والغايةِ في الفظاعةِ، وهوَ أمرٌ مستبشعٌ ثقيلٌ منْ أدّهُ الأمرُ، إذا أثقلَهُ، ولم يقوَ على تحمّله[2]، وهو المناسب لافترائهم، وهذا اللفظ من أفراد القرآن الكريم، وذكرَ في معناهما: العجبُ، أو هو المنكرُ العظيمُ، والأَدّ بمعنى الشّديد، وأدّني الأمرُ وآدني أثقلني[3]، فهو قولٌ منهم منكرٌ ثقيلٌ تكادُ أن تتفطّرَ منه السّمواتُ، وتنشقّ الأرضُ.

ولَمَّا كانَ الإدّ هوَ الدَّاهية، أو الشّيء العظيم أجرى الكلامَ على المبالغةِ تهويلًا وتخويفًا منْ فظاعةِ هذا القولِ؛ بما يجعلُهُ يبلغُ الجماداتِ العظيمةَ؛ فيقلبُ جوهرَها، ويغيّرُ صميمَها، ويبدّلُ كيانَها[4].

سرّ فصلِ جملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

استئنافٌ بيانيّ لتقريرِ عظيمِ شأنِه في الشّدّةِ والهولِ

قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ إما أن يكون صفةً لإدًّا، أو جملةً مفصولةً عمَّا سبقَها من كلام؛ لأنّها استئنافٌ لبيانِ عظيمِ شأنِه في الشّدّةِ والجسامةِ والهولِ[5] ناشئٌ عن سؤالٍ مفترضٍ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 44.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9193.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 566.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 282.

عن وصفِ مقالتِهم بالإدّ، أنْ: ماذا يحصلُ من مقالتِهم العظيمةِ المنكرةِ تلك؟ فالجوابُ أنّ السّمواتِ تكادُ تتفطّرُ منه.

ولأنّ قولَه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ لكونه إدًّا، فهوَ مرتبطٌ بما قبلهُ، وسببٌ لهُ، فمقاربةُ تفطّرِ السّمواتِ؛ لأنّهم أطلقوا تلكَ الكلمةَ الشّنيعةَ، فلمَّا كانَ كالتّأكيدِ فصَلَ الجملةَ[1].

بلاغةُ التعبيرِ بفعل المقاربة (كاد):

لولا رحمةُ الله لانفطرت السّماوات من عظيم القول

معنى فعل ﴿تَكَادُ﴾ مقاربة الشّيءِ، ودُنوُّ حصوله، أي أنّ الحقّ سبحانَه قاربَ أن يفعلَ هذا بالسّمواتِ والأرضِ والجبالِ غضبًا منه لما لهذه الكلمةِ من الهولِ، ولمن تفوّه بها، ولم يستعظمها[2]؛ فالجملةُ هنا منْ بابِ الاستعارةِ؛ لبشاعةِ وعظم هذا القولِ المنكرِ، فهذا هوَ حقّهُ لوْ قُدِّرَ للجماداتِ أنْ تفهمَ قدرَه[3].

بلاغةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

الإشارة إلى وحدةِ السّماوات في الغضبِ لأمرِ الله تعالى

جمعَ السّمواتِ لكونهنّ سبعًا، وتعدادُها في سياقِ الآيةِ، ونسبةُ التفطّرِ إليهن يرادُ به شدّةُ الغضبِ الإلهيّ، لهولِ ما ادّعوه، وعظيم ما افتروه؛ فالمتفطّرُ ليست سماءً واحدةً، بل هي السّماواتُ السّبعُ؛ ففي إسنادِ التّفطّرِ إلى جميعِ السّمواتِ دلالةٌ على هولِ مقالةِ السّوءِ منهم، بما يجعلُ السّماواتِ جميعًا لا تسلمُ ممَّا يحصلُ لها، حتَّى قيلَ إنَّ أعداءَ اللّه المتقوّلينَ كادوا أنْ يقيموا علينا السَّاعةَ[4].

نكتةُ التّعبيرِ بمفردة التّفطُّر:

التّعبيرُ بالتّفطّرِ في قولِه تعالى: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ على معنى "يتشقّقنَ مرةً بعدَ أخرى من عِظمِ ذلكَ الأمرِ"[5]؛ فالفعلُ دالٌّ على التّكثيرِ كنايةً عن هولِ مقالتِهم وبشاعتِها.

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 298.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 44.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 300.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 282.

استحضارُ الصّورةِ فكأنّ تفطّرَ السّمواتِ محسوسٌ مشاهدٌ الآنَ

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ المضارع المضعّف في قولِه: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾، وهي صيغةٌ دالّةٌ على التّجدّدِ والاستمرارِ[1] إن وقعت، وهي تصوِّر قوّة الحدث وتكراره، واستحضار الصّورةِ؛ فكأنّ مقالتَهم القبيحةَ المنكرةَ تلكَ أحدثت تفطّرًا في السّماواتِ يشاهدُه ويشعرُ به كلّ مَن سمعَ تلكَ المقالةَ الشنيعةَ.

في فظاعةِ الاعتقادِ الباطلِ خرابُ العالمِ وتفكُّكُ نظامِه

بلاغةُ الكنايةِ في لفظ التفطّرِ والانشقاقِ:

لولا حلمُه تعالى، ولطفُه بعبادِه، وعدمُ معاجلتِهم بالعقوبةِ لكان من فظاعَةِ تلكَ المقالةِ السّوءى في استجلابِ الغضبِ والسّخطِ، أن خُرّبَ العالمُ، وبدّدت قوائمُه من سماواتٍ وأرضين بالانفطارِ والانشقاقِ، بمدعاةِ الغضبِ على مَن نطقَ بذلكَ القولِ المنكرِ العظيم[2].

وجاءَ بجملتي تفطّرِ السّمواتِ، وانشقاقِ الأرضِ كنايةً عنْ هولِ تلكَ المقالةِ الشّنعاءِ، واستعظامًا لها؛ وتصويرًا لأثرِها في الدّين؛ فإنّها تهدمُ أركانَه، وتقوّضُ قواعدَه، وأنّ مثلَ أثرِها في المحسوساتِ مثلُ الأجرامِ العظامِ الّتي هي قوامُ العالمِ؛ فيصيبُها الخرابُ انفطارًا وانشقاقًا وخرابًا[3].

القراءاتُ القرآنيةُ متضافرةُ المعاني متلاقيةُ الدلالاتِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قرئَ قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ﴾ بالياءِ ﴿يَكَادُ﴾، وهي قراءةُ نافع والكسائيّ[4] من غيرِ الاعتدادِ بالتّأنيثِ لتجرّدِ الفعلِ من الضّميرِ المتّصلِ، وقرأ الجمهور بالتأنيث.

وقرأَ أبو عمرو وابنُ عامرٍ وشعبة وحمزةُ ويعقوب وخلفٌ ﴿يَنفَطِرۡنَ﴾ بالنّونِ[5] من (انفطرَ) المطاوعِ، كقولِه تعالى: ﴿إِذَا

(1) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.
(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 413.
(5) ابن مهران، المبسوط، ص: 291.

﴿ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: 1]، أمَّا قراءةُ نافع وابن كثير وحفص والكسائي وأبي جعفر ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ فهي من بابِ التّضعيفِ الدَّالِّ على تكرارِ الفعلِ[1].

معنى حرفِ (من) ودلالته:

سببُ تفطّرِ السّماواتِ القولةُ القبيحةُ

أفاد حرف الجرّ (من) في قولِه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ التّعليلَ والسّببية؛ فإنّ تفطّرَ السّمواتِ حاصلٌ بسببِ مقولتهم؛ فالضّميرُ راجعٌ إلى قولِه: ﴿شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، الذي هو القول المستفادِ من: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾[2]، وهو الأولى بالقبولِ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَتَنشَقُّ﴾:

الإيماءُ إلى أحداث القيامةِ وكيفيَّة حصولها

لهولِ هذه الكلمةِ صوّرَ الحقّ سبحانَهُ المشهدَ كأنَّ الأرضَ تنشقّ نصفينِ، وهذا هوَ شأنُ الصّيغةِ المضارعيةِ في تصويرِ الحدثِ كأنّهُ حاصلٌ اللّحظةَ، تقريبًا لصورته إلى أذهانِ المخاطبينَ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الأمر سيكون في نهايةِ العالم، فاللّه ﷻ لا يخبر عن أمرٍ بالكادِ وقوعه في الدُّنيا إلا واحتمال وقوعه حاصلٌ في المستقبل.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة الانفعال للأرض والتفعّل للسماوات:

عبّرَ عنْ تأثرِ الأرضِ بما ادّعوهُ من القولِ الدَّالِّ على الشّناعةِ والقباحةِ والجرأةِ باتّخاذه ولدًا ﷻ عنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ فاختارَ صيغةَ الانفعالِ (الانشقاق) للدّلالةِ على انتفاءِ الكثرةِ في المفعولِ[3]؛ لأنّ التشقّق دالّ على الكثرةِ، ولا كثرةَ هنا.

وعبّرَ عمَّا يحدثُ للسّماواتِ بموجبِ كلمتِهم العظيمةِ المنكرةِ فقالَ: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾[4]، فيما جاءَ معَ الأرضِ بقولِه: ﴿وَتَنشَقُّ﴾،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 454.
(4) على قراءة من قرأ بصيغة التفعّل لا بصيغة الانفعال، كما تقدّم.

والجوابُ عن ذلكَ أنّ التفطّر تفعُّلٌ يدلّ على تكثيرِ الفعلِ وهو أوضح مع السّماواتِ وذلك لقداستِها، وعدمِ حصولِ العصيانِ فيها، فلم يكنْ لها عهدٌ بالمعصيةِ؛ فتأثّرُها أكبرُ من تأثّرِ الأرضِ بالمعصيةِ[1]، كما أنَّ الانفطار مستعمل فيها.

نكتة تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على الانفطار وتأخير ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ عن الانشقاق:

قدّمَ السماوات على الفعل للتشويقِ وأخّر الأرض باعتبارِ هول الحدث

قُدِّمَ ذكرُ السّماواتِ - التي هي موضعُ العنايةِ الإلهيّةِ - على الفعلِ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ لبيانِ صعوبةِ الحدثِ، وهولِ المشهدِ، وعظمِ المقولةِ التي جاؤوا بها حتّى لكأنّ السّماواتِ على عظمتِها وسعتِها وتعدّدِها يتفطّرن منه، وتقديم السماوات يفيد التشويق لمعرفة الخبر، فلما جاء الإخبار عن الأرض بدأ بالفعل باعتبار توقعه، ومعرفة الذي سيُقال قياسًا على السماوات.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

السّماواتُ مقترنةٌ بالتّفطّرِ الدّالِّ على الكثرة والانشقاقُ معَ الأرضِ بالإفرادِ

جاءَ التّعبيرُ عن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ جمعًا، فيما جاءَ عن ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مفردًا، وسببُ ذلكَ أنَّ السّموات من أجناسٍ مختلفةٍ؛ فكلُّ سماءٍ منْ جنسٍ مختلفٍ عنْ الأخرى، أمَّا الأرضُ فكلّها منْ جنسٍ واحدٍ وهوَ التّرابُ.

وفي مخالفةِ الإفرادِ والجمعِ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ و﴿ٱلْأَرْضُ﴾ لطيفةٌ، وهيَ مجانسةُ اللفظِ لقرينِه؛ فإنّهُ أوردَ السّمواتِ جمعًا؛ لاقترانه بفعلِ التّفطّرِ المضعّفِ الدَّالِ عادةً على الكثرةِ فتشابها منْ هذه الجهةِ، فيما أوردَ الأرضَ مفردةً؛ لاقترانِها بفعلِ الانفطارِ الّذي لا يدلُّ على الكثرةِ؛ فإنَّ الانفطارَ هوَ الانشقاقُ نصفينِ فتشابها منْ هذه الجهةِ.

معنى تعريفِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ ودلالته:

الاعتقاد الباطل يؤول إلى الفساد العام

أوردَ لفظَ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ معرفةً تعريفًا للعهدِ، أي: الأرضُ التي يعيشون عليها، ويعهدونَها مستويةً ينتفعون

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 454.

منها، فكيف لو انشقّت بمدعاةِ قولِهم المنكرِ العظيم باتّخاذِه سبحانَه ولدًا تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فالاعتقاد الباطل يولِّد الفساد الدائم.

معنى (الواو) ودلالتها:

عطفٌ على ما سبقَ أي تكادُ الجبالُ أن تسقطَ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ عاطفةٌ، فهذه الجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على تقديرِ تكادُ الجبالُ تسقطُ[1]؛ زيادةً في بيان هَول الموقفِ، ومبالغةً في التّقبيحِ عليهم؛ بالجمعِ بينَ تشقّقِ الأرضِ، وسقوطِ الجبالِ.

بلاغةُ الكنايةِ في فعلِ ﴿وَتَخِرُّ﴾:

سقوطُ الجبالِ دفعةً واحدةً دليلُ الغضبِ المهولِ

عبّرَ عن السّقوطِ المهولِ بالخرورِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾؛ لأنّ الخرورَ هو السّقوطُ دفعةً واحدةً مثلَما يخرّ الحائطُ[2]، وما ذاكَ إلّا لعظم المؤثّرِ وهولِه، كنايةً عن تلكَ الكلمةِ العظيمةِ المنكرةِ في ادّعائِهم اتخاذَ الحقّ سبحانَه ولدًا.

دلالةُ التعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَتَخِرُّ﴾:

تصويرٌ لسقوطِ الجبالِ كأنّه حاصلٌ اللّحظةَ

صوّرَ المشهدَ المتحرّكَ في سقوطِ الجبالِ تصويرًا رائعًا، فجاءَ بصيغةِ المضارعِ الدّالّ على الحالِ بقولِه: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾، فكأنّ الجملةَ قد بلغت من وضوحِها وخصوصيتِها أنّ الجبالَ تخرّ وتسقطُ الآنَ أمامَ الأعينِ النّواظرِ بفعلِ قولِهم الّتي تنكرُه العقولُ، وتشمئز منه النفوس، وتعافه القلوب، مع الإيماء إلى احتمال وقوع ذلك في المستقبل إن بقوا على مقالتهم تلك دون ارعواءٍ عنها.

تعريف ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، وجمعها:

خرورُ الجبالِ مستغرقٌ لجميعِ جبالِ الأرضِ

التعريف في لفظِ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ للاستغراق؛ ففظاعةُ كلمتِهم تجعلُ الجبالَ أيَّ جبالٍ، تخرُّ منها، وإنْ تعدّدت مجموعةً، والذي يظهر أنَّ الجمع يستغرق جميع جبالِ الأرض، كما أنَّ الأرض كلَّها ستتشقق.

(1) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل: 7/ 68.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 134.

بلاغةُ القيدِ بالمصدرِ ﴿هَدًّا﴾:

ارتباطُ الفسادِ المحسوسِ بالفسادِ الاعتقاديّ

الهدُّ من قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ بمعنى أن يُهدمَ البناءُ، وهو مصدرٌ للفعلِ هددتُ[1] منصوبٌ على أنّه مفعولٌ مطلقٌ بيانًا لنوعِ الخرورِ والسّقوطِ، أي: سقوطُ الهدمِ شظايًا وقطعًا[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ قولهم المأفوك هو سبب هدم الجبالِ، كما أنَّ فيه إشارةً ناصعةً إلى أنَّ ما يحصل في المحسوسات من فسادٍ فهو ناشئٌ عن فسادٍ اعتقاديٍّ.

توجيه اختلافِ النّحاةِ في إعراب ﴿هَدًّا﴾:

حالٌ أو مصدرٌ أو مفعولٌ له حاصلُه تقريرٌ لوصفِ الإدّ

اختلف النحاة في الاسمِ المنصوبِ من قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾، بين أنْ يكون حالا للجبالِ، وهو مصدرٌ مؤكّدٌ لمحذوفٍ على معنى (تُهدّ هدًّا)، وبين أن يكون مصدرًا من المبنيِّ للمفعولِ، مؤكّدًا لتخِرُّ معناه التّهدّمِ، كأنّه قيلَ: وتخِرّ الجبالُ خرورًا، وبين أنْ يكونَ مصدرًا منصوبًا على الحاليةِ بمعنى المفعولِ على تقديرِ مهدودةً، وبين أن يكون مفعولًا لأجلِه دالًّا على العلّةِ، أي: لأنّها تُهَدّ، وحاصلُ خلافِهم أنّه تقريرٌ وتحقيقٌ لكونِه إدًّا، وهو الدّاهيةُ والأمرُ العظيمُ[3].

تعليلُ جملةِ ﴿أَن دَعَوۡاْ﴾ للأفعالِ المتقدّمةِ:

رُبَّ مقالةٍ ذميمةٍ بشأنها تقع أحداثٌ جسيمةٌ

تقعُ جملةُ ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ موقعَ التّعلقِ بكلٍّ من جملةِ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾، وجملةِ ﴿وَتَنشَقُّ﴾، وجملةِ ﴿وَتَخِرُّ﴾ على أنّ حرفَ الجرّ محذوفٌ وهو اللّامُ[4]، والمعنى حصولُ كلّ هذه الأفعالِ المهولةِ من التّفطّرِ والانشقاقِ والخرّ بسببِ مقالتِهم الذّميمةِ في ادّعائِهم أنّ للّه ولدًا.

---

(1) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 461.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 282.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

معنى ﴿أَن﴾ ودلالته:

﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ حرفٌ مصدريّ[1]، جيءَ به لمعنى التّأكيدِ ممَّا أفيدَ من الجارّ والمجرورِ من قولِه: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾، وزيادةُ بيانٍ لمرجعِ الضّميرِ المجرورِ اعتناءً به[2].

مناسبة استعمالِ مفردةِ ﴿دَعَوۡاْ﴾:

مشابهةُ (دَعَوْا) لمعنى نسبوا الولَد

لَمَّا كانَ معنى ﴿دَعَوۡاْ﴾ هو نسبةُ الولدِ إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهو كالادّعاءِ إلى بني فلانٍ وفلانٍ، وهو الانتسابُ إليهم كقولِه تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: 5][3]، استعملَ هذا الفعلَ، ولم يستعملْ غيرَه ممَّا يرادفُه في المعنى، مثل (زعموا) و(ادّعوا) وغيرهما.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغَيْبَة:

التفاتٌ فيه تحقيرٌ لشأنِهم لجرأتهم وتنبيهٌ على عِظَم قولهم

لَمَّا خاطبَهم الحقّ سبحانَه بقولِه: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ عدلَ عن خطابِه إلى الغَيبةِ بقولِه: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ على طريقةِ الالتفاتِ، وتلوينِ الخطابِ القرآنيّ، والغايةُ من هذا العدولِ الإعراضُ عن خطابِ هؤلاءِ، وتحقيرًا لشأنِهم، و"زيادةُ تسجيلٍ عليهم بالجرأةِ على اللّه، والتّعرضِ لسخطه وتنبيهٌ على عظيمِ ما قالوا"[4]، وما كانَ منهم بدعواهُم اتّخاذه سبحانه ولدًا.

دلالةُ لام الجرّ، وغرضُ تقديم ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ على المفعولِ:

تفظيعُ أن يكون للرحمن ولدٌ وتشنيعٌ على قائليها

اللّامُ تدلّ على المِلكِ، وقدّمَ الجارّ والمجرورَ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ والحصرِ، فكأنّهم دعوا للرّحمنِ لا لغيره الولدَ، مبالغةً في ذمّهم وتقبيحِ فعلِهم؛ لأنَّ اختصاصَ الحقِّ سبحانَهُ باتّخاذِ الولدِ فيه من الشّناعةِ

---

(1) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 681.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 300.

والفظاعةِ ما لا يكونُ لوْ لم يقدّمه، بأن يقالَ: أن دعوا ولدًا للرّحمنِ، فيحتملُ المعنى غيرَ الحصرِ، ففيه توبيخٌ وتفظيع أن يكون ذلك للرحمن ﷻ عمَّا يقولون.

لطيفةُ اصطفاءِ اسمِ ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ في تقييدِ دعواهُم الولدَ:

رحمةُ الله سبحانَه وسِعَت العالمين فكيفَ يكونُ مختصًّا بولدٍ

اصطفى النظم الكريم اسمَ الرّحمنِ في تقييدِ دعواهُم، مع تكريره مراتٍ عدّةٍ، وفائدتُه أنّهُ هوَ الرّحمنُ وحدَهُ، فهوَ الجديرُ بهذا الاسمِ؛ فالنّعمُ كلّها منهُ أصولًا وفروعًا، وهوَ منْ أوجدَ العالمينَ، وأوجدَ لهم جميعَ ما معهم، فهلَّا انكشفَ بصرُكَ بأنّك وجميعَ ما عندكَ عطاءٌ منْ عطاءاته(1).

ولَمَّا كانَ الحقّ سبحانَه رحيمًا بالجميعِ ذكرَ في الآية بوصفِ الرّحمةِ البالغةِ بقولِه: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، فمنْ كانَ هذا وصفُه كيفَ يكونُ مختصًّا بالولدِ أو بغيرِه، ورحمتُه شاملةٌ للعالمين(2).

دلالةُ حذفِ المفعولِ الأوّلِ للفعلِ ﴿دَعَوۡاْ﴾:

اقتصرَ على الثاني طلبًا للعمومِ والإحاطةِ

وفي قولِه: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ حذفَ المفعولَ الأولَ للفعلِ ﴿دَعَوۡاْ﴾ بمعنى: سمّوا، تقديرُه: (سَمَّوْا معبودَهُم ولدًا للرّحمنِ)(3)، فاقتصرَ على أحدِ المفعولينِ؛ لإرادةِ العمومِ؛ وليدخلَ في هذا القولِ كلّ من ادّعى له ولدًا.

سرّ إفرادِ ﴿وَلَدٗا﴾ وتنكيرِه:

أُفرِدَ لفظُ الولدِ في قولِه تعالى: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾؛ لأنّ هذه اللّفظةَ تقعُ على الواحدِ والاثنينِ والجماعةِ(4)؛ ليكونَ شاملًا عامًّا لكلَ من يدّعي للّه ولدًا على مرّ العصورِ والأزمانِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4689.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 302.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 997.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الخرّ والهويّ والسقوط:

خرُّ الجبالِ سقوطٌ مقترنٌ بالصّوتِ والهويُّ نزولٌ أو هلاكٌ أو عذابٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ عبّرَ عن سقوطِ الجبالِ بهذه الطّريقةِ المروّعةِ فزعًا منْ كلمتِهمُ المنكرةِ العظيمةِ باتّخاذه سبحانَهُ ولدًا تعالى اللّهُ عنْ ذلكَ علوًّا كبيرًا؛ فأسندَ الخرّ للجبالِ، ولم يعبّرْ بالسّقوطِ؛ لأنَّ الخرّ هوَ السّقوطُ المقترنُ بالصّوتِ الّذي يسمّى خريرًا[1]، فهوَ ليسَ سقوطًا مجرّدًا، فلا يحسنُ التّعبيرُ عنْ ذلكَ المشهدِ بالسّقوطِ حسب، ولم يعبّر عنهُ بالهوىِّ معَ أنّهُ مقاربٌ لهُ في المعنى، فهوَ الخلوّ والسّقوطُ، وهوَ الذّهابُ في انحدارٍ، وأصلُه من الهواءِ بينَ الأرضِ والسّماءِ[2]، يقولُ تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النجم: 1]، وعمومُ لفظِ الهوي وما اشتقّ منه في القرآنِ الكريمِ يكونُ بمعنى النّزولِ أو الهلاكِ أو الذّهابِ[3]، وليسَ ذلكَ منْ هذه المعاني مناسبًا لخرّ الجبالِ بمعنى سقوطِها بمدعاةِ ما تفوّهَ به الكافرونَ الظّالمونَ.

الإدّ والداهية:

الإدّ تعجّبٌ مشوبٌ بالإنكارِ العظيمِ والدّاهيةُ اسمٌ جامعٌ لما عَظُمَ من الأمورِ

قالَ تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ عبّرَ عن العجبِ المنكرِ من الأمرِ الشّديدِ بالإدِّ، والعجبُ هوَ أنْ يُستعظَمَ الشّيءُ؛ لأنَّ سببهُ يخفى عليكَ[4]، أمَّا الدَّاهيةُ فاسمٌ عامٌّ لكلِّ ما عظمَ من الأمورِ، فقيلَ عن الفاقرةِ داهيةٌ، وقيلَ عن الصَّاخّةِ داهيةٌ، وكذا الطَّامةُ فهيَ تطمّ كلَّ شيءٍ، أيْ: تعمّه وتغطيه[5]، ويفهمُ منْ ذلكَ وقوعُها على معانٍ كثيرةٍ، وربّما تجاوزَ ذلكَ إلى المدحِ، وعامّةُ هذه المعاني غيرُ مقصودةٍ في الآيةِ، إنّما القصدُ التّعجبُ المشوبُ بالإنكارِ العظيمِ؛ فإنّهم قالوا

---

(1) الراغب، المفردات، ص: 277.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).

(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 638.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 31.

(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 320.

قولًا عظيمًا منكرًا تكاد تزول منه الجبال الرواسي من شنع مقالتهم وتفاحش جهالتهم[1].

الانفطار والانشقاق:

انشقاقُ الأرضِ واحدٌ وتفطّرُ السّماواتِ متعددٌ متكاثر

جاءَ بفعلين متباينين في قولِه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾، فأسندَ التّفطّرَ للسّموات، فيما أسندَ فعلَ الانشقاقِ للأرضِ، والأصلُ في التّفطّرِ الإخراجُ من العدم إلى الوجودِ، كأنّه يشقُّ عنه فيخرجُ، فيقالُ تفطّرَ الشّجرُ إذا تشقّقَ بالورقِ[2]، فالتّفطّرُ هو مبتدأُ الانشقاقِ، والانشقاقُ مؤذنٌ بانقسامِ الأرضِ نصفين، فيما يكونُ التّفطّرُ للسّمواتِ قصدًا لكثرةِ الشّقوقِ فيها بما يعطيه الفعلُ المضعّفُ من خاصيةِ الكثرةِ، فانشقاقُ الأرضِ واحدٌ، وتفطّرُ السّمواتِ متعدّدٌ.

الهدّ والهدم:

الهدّ هدمٌ مع الشّدّةِ والصّوتِ كنايةً عن عظمِ مقالتِهم

عبّرَ عن سرعةِ تفتتِ الجبالِ بعدَ الخرورِ والسّقوطِ بالهدّ في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾، فالهدمُ هو إسقاطُ البناءِ على الغايةِ من القوّةِ والشّدّةِ، والفرقُ بينَهما أنّ الهدّ هدمٌ لكنّه متّصفٌ بالوقعِ الشّديدِ لثقلِه[3]؛ فيصدرُ عنه الصّوتُ الشّديدُ، وما صدور الصّوتِ المفزعِ إلّا لانهدامِ البناءِ وتفرّقِه في تسارعٍ[4]، وما ذاكَ إلّا كنايةٌ عن عظمِ مقالتِهم الشّنيعةِ تلك، فخلاصةُ الفرقِ بين اللفظينِ أنّ الهدّ مشتملٌ على الهدمِ وزيادةٍ.

(1) العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 1/ 112.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 407.
(3) الراغب، المفردات: (هدد).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم: 92 - 95]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

اتّخاذُ الولدِ محالٌ عليه سبحانهُ فكلّهُم يأتونهُ منقادين فرادى أذلّاءَ طوعًا أو كرهًا

لَمّا هوّلَ السياقُ السابقُ ما يَفتريه الجاهلون ظلمًا وعدوانًا على الحقِّ سبحانهُ باتّخاذه ولدًا، فإنَّ السّماواتِ والأرضَ تكادُ تنشقّ وتخرُّ الجبالُ بمدعاةِ افترائهم، فإنّهُ ما يصحُّ ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يكونَ للّه سبحانهُ منْ ولدٍ، فإنّهُ ﷻ غيرُ محتاجٍ للولدِ بوجهٍ، وكلّ شيءٍ من العقلاءِ منقادٌ إليه طوعًا أوْ كرهًا، ونفى ظنونَ منْ يظنُّ أنَّ أحدًا يفلتُ منهُ تعالى؛ فقد أحاطهُم عدًّا، وكلّهم يأتونهُ فرادى أذلاءَ منْ غيرِ مالٍ ولا ولدٍ، فكيفَ يتصوّرُ بعدَ ذلكَ أنْ يكونَ لهُ تعالى ولدٌ أوْ شريكٌ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنۢبَغِي﴾: (بغي) أَصلٌ، وهو طَلَبُ الشَّيْءِ، تَقول: ابْتَغَيْتُ الشَّيْءَ، وبَغَيْتُهُ، أَبْغيه بُغْيَةً وابْتِغاءً، أيْ: طَلَبْتُهُ[2]، والباغي: الَّذي يَطْلُبُ الشَّيْءَ الضالَّ، وأَبْغاهُ الشَّيْءَ: طَلَبَهُ لَهُ وأَعانَهُ على طَلَبِه[3]، وقيل: الابْتِغاءُ هو الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ[4]، وهو أيضًا: الإرادَةُ والقَصْدُ، يُقالُ: ابْتَغَيْتُ الأَجْرَ في عَمَلي، أي قَصَدْتُهُ، ويأْتي بِمعنى الاتِّخاذ، تَقول: ابْتَغَيْتُ البَيْتَ سَكناً لي، أيْ: اتَّخَذْتُهُ[5]، والانْبِغاء: مُطاوِعُ فِعْلِ بَغَى الَّذي بِمَعْنَى طَلَبَ، ومَعْنَى، مُطاوَعَته: التَّأَثُّرُ بما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248 - 250.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي، بغا).
(4) الراغب، المفردات: (بغي)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 35.
(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (بغا، بغي).

طُلِبَ مِنْهُ، أَي اسْتِجابَةُ الطَّلَبِ، ومَعْنَى (يَنْبَغي) مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ المَقام فيُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى: يَتَأَتَّى، ويُمكِنُ، ويَسْتَقيمُ، ويَليقُ، والمقصود بالانبغاءِ في الآيةِ: ما يَتَأَتَّى، أَوْ ما يَجوزُ(1).

2) ﴿أَحۡصَىٰهُمۡ﴾: أصلُ الإحصاءِ: العَدُّ والحِسابُ، وهو كِنايَةٌ عَنِ الإِحاطَةِ والضَّبْطِ وعَدَمِ تَخَلُّفِ شَيْءٍ عَنِ الذِّكْرِ والتَّعْيينِ؛ لِأَنَّ الإِحْصاءَ والحِسابَ يَسْتَلْزِمُ أَنْ لا يَفوتَ واحِدٌ مِنَ المَحْسوباتِ(2)، ويُقالُ: أَحْصَيْتُ الشَّيْءَ، إذا عَدَدْتَهُ وأَطَقْتَهُ(3) وقولهم: نحنُ أكثر منهم حَصىً، أي عدداً(4) وفي أسماءِ اللّهِ تَعالَى: المُحْصي؛ هوَ الَّذي أَحْصَى كلَّ شيءٍ بِعِلْمِه فلا يَفوته دَقيق مِنْها ولا جَليل(5)، والمرادُ بالإحصاءِ في الآيةِ: حِسابُ الأَشْياءِ لِضَبْطِ عَدَدِها، وهو كِنايَةٌ عَنِ الضَّبْطِ والتَّحْصيلِ(6).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا ينبغي لواحد من المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شؤونه ولدًا من جنسه

ذَكَرَ الحقُّ سبحانه الَّذين فجَروا وكذَبوا عليه فقال تعالى: وما يصِحُّ ولا يليقُ بالرَّحمنِ أن يتَّخِذَ ولَدًا؛ فلا مِثلَ له من خَلقِه، ولا احتياجَ له إليهم؛ فجميعُ الخلائقِ عَبيدٌ له، وهو الغنيُّ الحميدُ، وما مِن أحدٍ من أهلِ السَّماواتِ ومن أهلِ الأرضِ إلَّا سيأتي إلى الرَّحمنِ يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا، مقرًّا له بعبوديَّته، فكيف يكونُ أحدٌ من خَلقِه ولدًا له، والحالُ أنَّ الجميعَ مِلكُه وعَبيدُه، يتصَرَّفُ فيهم كما يشاءُ؟ أمَّا هم فليس لهم من المُلكِ والتصَرُّفِ شيءٌ، فلقد أحصى الرَّحمنُ عَدَدَ خَلْقِه كُلِّهم؛ ذَكَرِهم وأُنثاهم، وصَغيرِهم وكبيرِهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 356.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حصا، حصي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حصي).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حصي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 41.

فلا يخفَى عليه أحَدٌ منهم، وكُلُّ واحدٍ مِن الخلائِقِ سيأتي إلى اللّه يومَ القيامةِ بعدَ بَعثِه مِن الموتِ وحيدًا، لا أولادَ معه، ولا مالَ له، ولا أنصارَ، فليس معه إلا عَمَلُه، فيقضي اللّهُ فيه بحُكمِه، ويُجازيه، ويوَفّيه حسابَه، فكيف يُتصوَّرُ في بالٍ أو يَقعُ في خيالٍ أن يكونَ شَيءٌ مِن خَلْقِه وعَبيدِه له ولدًا، أو معه شريكًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتها:

عطفٌ على ما تفوّهَ به الضَّالون من افتراء اتخاذِ الولَدِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾[2] من جهةِ أنّ هذه الجملةَ تنفي ما تفوّهَ به الضّالونَ من افتراءٍ وبهتانٍ في مقالتِهم، مع شدّةِ جرأتِهم.

غرضُ النفي بأداة ﴿وَمَا﴾:

تقريرُ بطلانِ مقالةِ الجاهلين واستحالةِ تحقّقِ مضمونِها

و﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ دالَّةٌ على النّفي[3]، ومعناها أن ما يتأتّى، أو ما يجوزُ، أو ما يليقُ بالحقّ سبحانَه اتّخاذُ الولدِ[4]، ويُؤتى بما لزيادةِ الاهتمامِ بالنّفي[5].

وفي النّفيِ هنا تقريرٌ لبطلانِ ما قالوا وادّعوا، واستحالةِ تحقّقِ مضمونِ قولِهم ذاكَ، فالحالُ أنّهُ لا يليقُ بالحقِّ ﷻ اتّخاذُ الولدِ، ولا يتطلّبُ لهُ؛ فهوَ مستحيلٌ في نفسه[6].

بلاغةُ نفي الانبغاءِ:

لا يجوزُ للرّحمن أن يتّخذَ ولدًا لا لعجزِه بل لأنَّه لا يليقُ بجلالِه وعظمتِه

نفيُ الانبغاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ دالٌّ على أن لا يليقَ بجنابِه تعالى أن يوصفَ بما وصفَه المبطلون؛ فإنّ الولدَ شبيهُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 640، 641، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 158، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 267، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 501.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 3/ 132.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 172.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 283.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 283.

أبيه، ويستعانُ به، ويحتاجُ إليه، واللّهُ ليسَ كمثلِه شيءٌ، غنيٌّ عن كلّ شيءٍ، منزّهٌ عن صفاتِ المخلوقين(1)، وهو مبنيٌّ على أنّهُ لا يجوزُ للحقّ سبحانَهُ أنَ يتّخذَ ولدًا مخلوقًا؛ فإنَّ المخلوقاتِ جميعًا مباينةٌ لذاته تعالى، وهيَ مستويةٌ في كونِها مخلوقةً عابدةً لهُ، وفي ذلكَ منافاةٌ للبنوّة؛ فإنّها جزءٌ من الألوهيّة(2)؛ لقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١﴾ [الزخرف: 81].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ نفيٌ للولدِ؛ فإنّ الرّحمنَ ليسَ له شبيهٌ، والولدُ شبيهُ والدِه ومن جنسِه، وهو محالٌ في حقّ الرّحمنِ؛ فهو لا شبيهَ له ولا مثلَ، فوجودِ الولدِ أمرٌ لا يكونُ ولا ينبغي، وهو مستحيلٌ وممتنعٌ في حقّه سبحانَه(3).

بلاغةُ نفي الانبغاءِ دون نفي الحدث:

نفيُ انبغاءِ أن يكونَ له ولدٌ سبحانه أبلغُ من نفي وقوعه أصلًا

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ عبّرَ عمَّا لا يليقُ ولا يصلحُ لجلالِه تعالى بنفي الانبغاءِ، والفعلُ منه البغيُ، وهو الطّلبُ والحاجةُ، ومنه ابتغي لفلانٍ، أي: صلحَ له(4)، فنفى الانبغاءَ هنا ولم ينفِ الكونَ الدَّالَ على الحدثِ، وثمّةَ فرقٌ بين نفي الانبغاءِ ونفي الحدثِ، كقولِه تعالى في رسولِه الكريمِ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس: 69]؛ فنفى عنه الحدثَ، ونفى عنه الانبغاءَ وهو قولُ الشّعرِ، وفي هذه الآيةِ نفى انبغاءَ أن يكونَ له ولدٌ ليسَ لعجزِه تعالى سبحانَه؛ فإنّ المولى لو أرادَ أن يكونَ له ولدٌ لكانَ له ذلك(5) لكنّه لا يصلحُ له ولا يليقِ به ﷻ.

بلاغةُ وضع الظَّاهر موضع المضمر:

الإشعارُ بعلّةِ الحكمِ فكلّ ما سواهُ نعمةٌ أو مُنْعَمٌ عليه

وفي قولِه: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ وضعٌ للظَّاهرِ موضعَ المضمرِ؛

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 179.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 172.
(3) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4600.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ص: 192.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9195.

إشعارًا بعلّةِ الحكمِ، وتنبيهًا على أنّ كلّ ما سواهُ تعالى؛ إمَّا نعمةٌ، أو مُنْعمٌ عليه؛ فلا يتسنّى أن يجانسَ من هو أصلُ النّعمِ ومبدؤها حتّى يتوهّمَ أن يتّخذه ولدًا[1].

في ذكرِ الرّحمنِ مرةً بعدَ مرةٍ دليلٌ على غباوتِهم، وتسجيلٌ لها[2]؛ فإنَّ وصفَهُ بالرّحمنِ دالٌّ على عموم رحمته، وأنّه غمرَ بها عبادَهُ كلّهم؛ لأنّهم مفتقرونَ إليها، ووجودُ الولدِ ممَّا يناقضُ هذه الحقيقةَ.

بلاغةُ الاستئنافِ البياني:

جميعُ الثّقلين داخلون في عبوديته مختارين أو مكرهين

فصلَ قولَه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ عمَّا قبلَها لأنّها في موضعِ الاستئنافِ البيانيّ لسؤالٍ مؤسسٍ على نفيِ الانبغاءِ، أيْ: فماذا يكونُ بعدَ نفيِ أنْ يكونَ له ولدٌ؟ فالجوابُ أنَّ الجميعَ داخلونَ تحتَ وصفِ العبوديةِ له سبحانه برضاهُم أو مكرهينَ.

نوع ﴿إِن﴾ ومعناها:

نفيٌ استغراقيٌّ لإثباتِ الخضوعِ الشَّاملِ

﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للنّفي، أي: ما كل من في السموات والأرض إلا سيأتيه عبدًا خاضعًا مذعنًا له تعالى؛ فجميعهم خاضعٌ له بالعبودية، الأحياء منهم والأموات[3]، أي: كلّهم يأتونَه يومئذٍ عبيدًا خاضعين مُذعنين.

نكتةُ استعمال ﴿كُلُّ﴾ في سياق النفي:

ما من أحدٌ في السّموات والأرضِ إلّا ويأتيه عبدًا طائعًا أو مقهورًا

﴿كُلُّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ نكرةٌ واقعةٌ موقعَ الرّفعِ من ﴿إِن﴾ النَّافيةِ العاملةِ عملَ (ليسَ)[4]، فإذا وقعتِ النّكرةُ في سياقِ النّفي الدَّالّ عليه ﴿إِن﴾ أفادتِ العمومَ؛ لأنّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 283.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 173.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4692.

(4) ابن مالك، شرح التسهيل: 1/ 375.

النّكرةَ في سياقِ النّفي تعمّ[1]؛ ففيه إشارةٌ إلى أنّه ما من أحدٍ في السّماواتِ والأرضِ إلّا ويأتي الحقّ سبحانَه عبدًا منقادًا له، طائعًا أو مكرهًا في الأحوالِ كلّها، مسخّرًا مقهورًا خائفًا راجيًا[2].

نوعُ ﴿مَن﴾ ودلالة كلِّ نوعٍ:

إما أن تكون (مَنْ) نكرةً موصوفةً أو موصولةً وعلى النّوعين فمفيدةٌ العمومَ

﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نكرةٌ موصوفةٌ لوقوعِها بعدَ ﴿كُلُّ﴾، والجارّ والمجرورُ والمعطوفُ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفتها[3]، والمرادُ منه غايةُ الشّمولِ والعمومِ في مجيءِ المخلوقين له عابدين بوجودِ ﴿مَن﴾ الدّالةِ على العمومِ وعدمِ التّعيينِ، ودلالةُ ظرفِهما السّماواتُ والأرض.

ويجوزُ في ﴿مَن﴾ أنْ تكونَ موصولةً بمعنى الّذي، أيْ: (ما كلُّ الّذي في السّمواتِ)، وهنا يؤوّلُ الموصولُ بالعمومِ كيْ يصحَّ إضافةُ كلٍّ إليه؛ لأنّهُ لوْ كانَ معهودًا بعينه فالإضافةُ لا تصحُّ[4]، وهي هنا على معنى العمومِ؛ فيدخلُ فيه جميعُ الخلقِ من الملائكةِ والثّقلين.

دلالةُ ظرفية ﴿فِي﴾:

جميعُ مَنْ في السّمواتِ والأرضِ يأتونه عبيدًا مذعنين

التّعبيرُ بالظّرفِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ للإيذانِ بأنّ ذلكَ الحكمَ يشملُ كلّ من اتّخذوه معبودًا سواء أكانَ في السّماواتِ كالملائكةِ، أو في الأرضِ كعزيرٍ وعيسى ونحوهم[5]، ثمّ لِتشملَ جميعَ من كانَ فيهما من الجنّ والإنسِ؛ فكلّهم يأتونه عبيدًا خاضعين لا يندّ أحدٌ منهم.

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ءَاتِي﴾:

جاءَ باسمِ الفاعلِ من فعلِ الإتيانِ في قولِه تعالى: ﴿ءَاتِي

---

(1) ابن فرحون، العدّة في إعراب العمدة: 1/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 249.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 113.
(4) ابن عادل، اللباب: 13/ 157.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 303.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾، وهو هنا إتيانٌ مجازيّ على معنى الإقرارِ والإذعانِ والاعترافِ[1]؛ فكلّهم راجعٌ إليه معترفٌ ومُقِرٌّ بعبوديتِه.

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

العبادُ صائرون إلى الرّحمن عبيدًا خاضعين

أُضيفَ اسمُ الفاعلِ إلى اسمِه تعالى في قولِه: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾؛ لإرادةِ الصّيرورةِ، أي: أنّه صائرٌ إليه بعدَ انقضاءِ حياتِه، وانتقالِه بعدَ موتِه، فهو يعيشُ عبدًا، ويحشرُ عبدًا، فلا تشوبهُ نسبةُ البنوّةِ البتّةَ، لا في الدّنيا، ولا في الآخرةِ[2].

لطيفةُ تكرارِ اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

إيماءٌ إلى أنّ اسم الرّحمن ينافي ادّعاءَ الولدِ لمساواتِه في الألوهيةِ

كرّرَ لفظَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في سياقٍ متقاربٍ في ثنايا هذه الآياتِ دونَ الاسمِ الجليلِ (اللّه)؛ إيماءً إلى أنّهُ وصفٌ ثابتٌ للّه لا ينكرُهُ المشركونَ، وإنْ أنكروا لفظَهُ؛ فهوَ ينافي مضمونَ فريتِهم باتّخاذِه سبحانَهُ الولدَ؛ لأنَّ الرّحمنَ صفةُ مبالغةٍ يدلُ على عمومِ الرّحمةِ وشمولِها، فكلّ موجودٍ مخلوقٌ مفتقرٌ إلى رحمته، ولا يكونُ ذلكَ إلّا بالعبوديةِ، فوجودُ الولدِ فيه استغناءٌ عنْ رحمته؛ لحصولِ المساواةِ في الألوهيةِ، وفي ذلكَ منافاةُ كونِ الحقّ سبحانَهُ مفيضَ الرّحماتِ كلّها[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بمفردةِ ﴿عَبۡدٗا﴾:

تنويهٌ بعبوديّة من ادَّعيَ أنَّه إلهٌ

أوردَ النَّظمُ الكريمُ وصفَ العبوديةِ في قولِه: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾؛ على إرادةِ الحاليةِ؛ لأنّ العبدَ معترفٌ للحقّ سبحانَه بأنّه الإلهُ الواحدُ، وأنّه غيرُ مستقلّ عنهُ في شيءٍ عندَ تلبسِه في حالتِه العبديةِ[4]، وللإيماءِ إلى أنَّ ما زعمتموه ولدًا للّه تعالى سيأتيه عبدًا لا إلهًا كما افتريتم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 173.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 173.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 173.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 173.

غرضُ لامِ القسم والتوكيد بـ(قد):

توكيدٌ لتهديدِ قائلي مقالةِ الفريةِ والبهتانِ العظيم

اللّام في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ واقعةٌ في جوابِ قسمٍ[1]، والجملةُ هذه معطوفةٌ على قولِه: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، وهي مسوقةٌ لتهديدِ قائلي هذه المقالةِ[2]، واللّامُ لتوكيدِ ذلكَ؛ لأنَّ شأنَ القسم أن يكونَ للتّوكيدِ.

ودخولُ ﴿لَّقَدۡ﴾ على الفعلِ الماضي يفيدُ التّحقيقَ والتّوكيدَ[3]، فمعنى ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ توكيدُ الوعيدِ في إحصاءِ أقوالِهم وأفعالِهم بتسليطِ الملائكةِ عليهم، ومراقبتِهم إيَّاهم[4].

دلالةُ التّعبيرِ بالإحصاءِ:

الإحاطةُ بالأقوالِ والأعمالِ برهانُ الحسابِ وبريدُ العقاب

التّعبيرُ بالإحصاءِ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ فيه دلالةٌ على إحاطةِ الحقّ ﷻ، ومعرفته بعبيدِه[5]، وما يصلحُ لهم وما لا يصلحُ؛ بأن سجّلَ عليهم أعمالَهم.

وفعلُ الإحصاءِ مشتقٌّ من اسمه الكريمِ وهوَ المحصي، وهوَ الّذي لا تشغلُهُ الكثرةُ عن العلمِ، كضوءِ النّورِ، وشدّةِ الرّياحِ، وسقوطِ الأوراقِ؛ فهوَ يعلمُ أجزاءَ الحركاتِ في كلِّ ورقةٍ، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ وهوَ الخالقُ العليمُ[6].

دلالةُ الماضي ﴿أَحۡصَىٰهُمۡ﴾:

سجّلَ عليهم أفعالَهم على وجهِ التّحقّقِ والثّبوتِ

لَمَّا كانَ الفعلُ الماضي دالًّا على التّحقّقِ والثّبوتِ في كلامِ العربِ، وأنّه حصلَ وانصرمَ فلا رادّ له؛ استعملَه هنا تخويفًا وتهديدًا بأنّ أعمالَهم مُسَجَّلَةٌ عليهم، فإنّه لا يَعۡزُبُ عن علمِه معلومٌ، ولا ينفكُّ عن قدرتِه موهومٌ.

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 264.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 174.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 433.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 262.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 160.

إحصاؤهم وعدّهم يشمل كلّ من ادّعى اتّخاذه سبحانَه ولدًا

تعيينُ مرجعِ ضمائرِ الجمعِ:

ضمائرُ الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ تعودُ على مرجعِ الضّميرِ نفسِه في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾، وهم كلّ من ادّعى اتّخاذَه سبحانَه ولدًا افتراءً وبهتانًا[1] من اليهودِ والنّصارى ومشركي العربِ ومن سواهُم.

عطفُ الوسيلةِ على الغاية لدفعِ توهم الأوهامِ

براعةُ تقديمِ الإحصاءِ على العدّ:

جاء تقديم فعل الإحصاءِ على العدّ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾؛ لأنّ معنى الإحصاء هو حصرُهم والإحاطةُ بهم، فلا يخرجُ أحدٌ منهم من علمِه وقدرتِه وملكوتِه، أمَّا عدّهم فهو عدّ أشخاصِهم وأنفاسِهم وأعمالِهم وحركاتِهم[2]، فإذا جعلنا معنى ﴿أَحۡصَىٰهُمۡ﴾: جمعهم، فالترتيب على حقيقته، فيكون جمعهم ثم عدَّهم، أما إذا جعلنا الإحصاء غايةً للعدِّ، فيكون قد بدأ بالغاية وعطف عليها الوسيلة، أي: أحصاهم بعد أن عدَّهم، ويكون عطف ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ لدفع تَوَهُّمِ أنَّ الإحصاء جاء بالشمولِ الكليِّ، لا بالتدقيق الجزئيِّ، فيكون لدفع توهم فوت شيءٍ من المرادِ إحصاؤه.

لَمَّا كانَ عدُّ أنفاسِهم وأفعالِهم ممَّا لا يُتصوَّر أكّدهُ بالمصدرِ

بلاغةُ التّقييدِ بالمفعولِ المطلقِ ﴿عَدّٗا﴾:

التّقييدِ بالمفعولِ المطلقِ في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ من غيرِ وصفٍ أو عددٍ يرادُ منه توكيدُ الفعلِ في لسانِ العربِ[3]، وتوكيدُ الأمرِ إشارةٌ إلى ثبوته وأهميته، فقولُه: ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ توكيدٌ لفعلِ العدّ، وتحقيقٌ له[4] دفعًا لوهم متوهّم أنّه تعالى غافلٌ عمَّا يفعلون، وإذا كانتْ قدرتُه تعالى واقعةً من غيرِ شكّ ولا ريبٍ في أنّهُ محيطٌ بهم على وجه الإحصاءِ؛ فإنَّ عدَّ أنفاسِهم وحركاتِهم وأفعالِهم ممَّا لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 174.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 283.
(3) ابن جني، اللمع في العربية، ص: 48.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34.

يكادُ يتصوره متصوِّرٌ لكثرتِهم؛ أكّدَ فعلَ العدِّ بالمصدرِ المنصوبِ ﴿عَدًّا﴾ لدفعِ هذا الشّكِّ[1].

دلالةُ العمومِ في ﴿وَكُلُّهُمۡ﴾:

توكيدٌ لإحصائِه وعدّه تعالى بفائقِ قدرتِه وعظيمِ جبروتِه

بعد أنْ أحصاهُم ﷻ بفائقِ قدرتِه وعظمتِه، وعدَّ عليهم أنفاسَهم وحركاتِهم وأعمالَهم، وأنّه إلههم ومولاهُم أكّدَ ذلكَ[2] بأنّ جميعَهم عبيدٌ لهُ، يأتونهُ خاضعينَ مذعنينَ مقهورينَ يومَ القيامةِ.

غرضُ التقييدِ بالظّرفِ:

قيّدَ إتيانَهم بالظّرفِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنّ منهم المعتدّ بقومِه، أو عشيرتِه، أو ملكِه، ومن على هذه الشّاكلةِ في الحياةِ الدّنيا؛ فخصّصَ كونَه فردًا في ذلكَ اليومِ.

سرّ تقديمِ الظّرفِ على الحالِ:

انفرادُ يومِ القيامةِ بأمورٍ لا تكونُ في غيرِه من الزّمانِ

قُدّمَ الظّرفُ على الحالِ في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ لإفادةِ التّخصيصِ والحصرِ؛ فإنَّ جميعَ المشارِ إليهم فيما سبقَ منْ آياتٍ يأتونهُ تعالى فردًا في ذلكَ اليومِ؛ لجوازِ ألَّا يكونوا كذلكَ في غيره، في إشارةٍ إلى الاهتمامِ بذلكَ اليومِ، وهوَ يومُ القيامةِ.

دلالةُ ذكرِ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دونَ غيرِه:

يأتونَه فرادى بعدَ بعثِهم وقيامتِهم من الموتِ

في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ ذكرَ ذلكَ اليومَ بوصفِ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دونَ اليومِ الآخرِ، أو غيرِه من الأوصافِ والأسماءِ؛ لما فيه من معنى القيامِ والبعثِ؛ فإنّهم يأتونَه فرادى بعدَ بعثِهم[3]، وقيامِهم من قبورِهم.

نكتةُ استعمالِ مفردة الفرد دون الواحد:

الفردُ هو انفرادٌ وانعزالٌ عن القرنِ؛ فيقالُ: فلانٌ فردٌ في دارِه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 249.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 16/ 131.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 250.

دحض أيِّ وهمٍ من شأنه الاستيلاء على العقول بإمكانيَّة النَّصير

أمَّا الواحدُ فهو متعلّقٌ بالصّفةِ؛ فيقالُ فلانٌ واحدُ أهلِ عصرِه؛ لانفرادِه بصفةٍ لا توجدُ عندَهم[1]، ويكون سرّ إيثارِ الفرديةِ في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ - بالنّظر إلى الفريق أصحاب المقالة الباطلة من أنّه سبحانه اتّخذ ولدًا - ، هو إبطالُ غرضهم من هذه المقولة الشنيعة؛ فإنّهم زعموا أنّ معبوداتِهم من الملائكةِ والجنِّ سيكونونَ شفعاءَهم عندَ اللّه تعالى يومَ القيامةِ، فأيأسَهُم الحقُّ سبحانَهُ مّما يتوهّمونَ، وأنّ كلّ واحدٍ منهم يأتي فردًا لا نصيرَ لهُ ولا ظهيرَ[2]، فالتّعبيرُ بالفردِ أنسبُ في هذا المقامِ من التّعبيرِ بالواحدِ.

دلالةُ القيدِ بالحالِ ﴿فَرْدًا﴾:

كنايةٌ عن الإهانةِ فإتيانهم كإتيانِ الأعزلِ إلى منْ يتمكَّنُ منه انتقامًا

في قوله: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ التّعبيرُ بالفرديةِ فيه تعريضٌ بأنّهم يأتونَ في ذلكَ اليومِ، فيقابلونَ ما يكرهونَ من العذابِ والشّقاءِ والإهانةِ والمساءةِ، كما يأتي الأعزلُ إلى منْ هوَ أقوى منهُ؛ فيتمكّنُ منهُ ثأرًا وانتقامًا[3]، وهو دالٌّ على مجيئه على صفةِ الذّلِّ؛ بأن يورثَ مالُهُ وولدُهُ الّذي أعطاهُ اللّهُ في دنياهُ؛ ليكونَ لهُ قوةً وعزًّا، فلا موجودَ غيرُه قادرٌ على حراستِه من الفناءِ، فلا يتصوّرُ في بالٍ أوْ يقعُ في خيالٍ أنْ يكونَ الحقُّ سبحانهُ متّخذًا ولدًا أوْ شريكًا[4].

وفيه إيماءٌ إلى أهوالِ يوم القيامةِ؛ فإنَّ النَّاسَ يأتونَ في ذلكَ اليومِ "لا أنصارَ لهم ولا أعوانَ ولا مالَ ولا ولدَ، كلُّ امرئٍ مشغولٌ بنفسِه لا يهمّهُ غيرُهُ"[5] من هولِ ذلكَ اليومِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 400.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 174.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 174.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 250.
(5) الحداد، تفسير الحداد: 4/ 226.

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الإحصاء والعدّ:

الإحصاءُ متضمّنٌ على العدّ وزيادةٍ وهي العدّ مع الحفظِ والإحاطةِ

أوردَ فعلي الإحصاءِ والعدّ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ وهما وإنْ كانا بمعنى متقاربٍ إلّا أنَّ بينَهما فرقًا دقيقًا: فالعدُّ سردُ بعضِ الأشياءِ الواحدِ إثرَ الآخرِ، أمَّا الإحصاءُ فهوَ عدٌّ معَ الحصرِ لبلوغِ آخرِ شيءٍ منه[1]، والإحصاءُ يشتملُ على العدِّ وزيادةٍ، وهيَ العدُّ معَ الحفظِ، فأوردَ الفعلينِ لبيانِ الضّبطِ معَ الحفظِ والإحاطةِ.

الولد والابن:

الولدُ يقعُ على الذّكرِ كادّعاءِ اليهودِ والنّصارى وعلى الأنثى كادّعاءِ مشركةِ العربِ

عبّرَ بالولدِ دونَ الابنِ في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ معَ أنّه مقاربٌ له في المعنى، إلَّا أنّ بينهما فرقًا؛ فإنّ الابنَ يقعُ على الذّكرِ، أمَّا الولدُ فواقعٌ على الذّكرِ والأنثى[2]؛ لدخولِهما تحتَ صفةِ الوليدِ؛ ولأنَّ دعواهُم في اتّخاذِ الولدِ يشملُ الذّكرَ والأنثى عبّرَ به، فقدْ ادّعى اليهودُ أنّ عزيرًا ابنُ اللّه، وادّعى النّصارى أنَّ المسيحَ ابنُ اللّه، وهما داخلانِ تحتَ وصفِ الذّكوريةِ، فيما ادّعتْ طوائفُ منْ مشركةِ العربِ باتّخاذه سبحانهُ الملائكةَ بناتِ اللّه[3] بحسبِ زعمِهم، فاستعملَ لفظَ الولدِ ليدخلَ فيه جميعُ ممَّا ادّعوهُ منْ اتّخاذه الولدَ، تعالى اللّهُ عمَّا يقولونَ علوًّا كبيرًا.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عدد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 13.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 155.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ أحوالِ المؤمنينَ بعدَ ذكرِ أحوالِ الكفَّارِ

لَمَّا فُصِّلتْ قبائحُ أحوالِ الكفرة؛ عُقِّبَ ذلك بذكْرِ مَحاسنِ أحوالِ المُؤمنين، ولَمَّا ردَّ اللّه تعالى على أصناف الكفرة، ولَمَّا فصَّل البيان القرآني في شرح أحوالِهم في الدّنيا والآخرة؛ أتبعَه بذكر أحوالِ المؤمنين، فجاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ اللّه تعالى عن إتيان كلِّ مَنْ في السّماوات والأَرْض في حالة العبوديّةِ والانفرادِ في قولِه: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم: 95]، فعمَّ ذلك المؤمنَ والكافرَ؛ أنَّسَ المؤمنين بأنَّ حالَهم سيكونُ على العكسِ من حالِ الكافرين، فإنَّه تعالى سيجعلُ للمؤمنين في الدُّنيا والآخرةِ وُدًّا، فيَجزيهم بالمحبَّةِ والقَبولِ في الدّنيا والمغفرةِ يومَ القيامةِ والألفةِ بينهم في الجنَّة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وُدّٗا﴾: يدور معنى الوُدِّ على المحبَّة مع رفقٍ ولينٍ، فيقال: ودِدْتُ الرّجلَ أَوَدُّه وُدًّا؛ إذا أحببتُه، والودُّ المحبَّةُ، ويَكونُ في جَميعِ مَداخِلِ الخَيْرِ، والتَّوَدُّد: التَّحَبُّبُ، وفي الودِّ معنى الصِّلةِ والاتِّصال، فيكون الودُّ أخصَّ منَ المحبَّة؛ لأنَّه محبَّةٌ مع تآلفٍ وتواصُلٍ، وكلمةُ ﴿وُدّٗا﴾ في الآية بمعنى المحبَّةِ، أي: محبَّةٌ في قلوب العبادِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عن نعمِه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمانِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 567.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 174.

(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 276، وابن الهائم، التبيان، ص: 225.

والعملِ الصَّالحِ، فيقولُ: إنَّ الذين آمنوا باللّه، وصدَّقوا برُسلِه، وبما جاؤوهم به من عندِه، وعملوا به، فأحلّوا حلالَه، وحرَّموا حرامَه، سَيُحدِثُ لهم اللّهُ محبَّةً في قلوبِ عبادِه المؤمنين من غيرِ تعرُّضٍ منهم لأسبابِها[1].

إذا أقبلَ المؤمنُ على الله رزقَه محبّةَ المؤمنين ومودَّتَهم

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

جاءتِ الآيةُ بالفصلِ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، وبيانُه أنَّه تعالى لَمَّا ذكرَ أحوالَ الكافرين، وذُلَّهم في الدُّنيا والآخرة، كأنَّ أحدَهم سألَ، وقال: فما حالُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ فجاءتِ الآيةُ استئنافًا بيانيًّا[2] جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ منَ السّياق.

المقارنةُ بين أحوالِ المؤمنين والكفّارِ مجالٌ للاعتبارِ والاتّعاظِ

فائدة تتابعِ التأكيدِ في الآية:

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ الخبر؛ وبيانُه أنَّه لَمَّا كانتِ الآيةُ مكّيَّةً، وكان المؤمنون في العهدِ المكّيِّ ممقوتين بين المشركين؛ فكانَ الظَّاهرُ الإنكارَ على أن يوضعَ لهم الودُّ بين النَّاس، فيكونوا محبوبين؛ عبَّرَ بحرف التّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ للرَّدِّ على من يُنكر الأمرَ، وفيه تثبيتُ المعنى وتقريرُه في نفوس المؤمنين، ليَستبشروا، وتتابعَ التّأكيدُ بمجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً مفيدةً تقويَةَ الحُكم كما سيأتي، فالخبرُ في الآية إنكاريٌّ إن حُمِلَ على الرَّدِّ على المنكرين؛ لأنَّه يضعُ للمؤمنين الودَّ والقَبولَ في الدّنيا مع قلَّتِهم وضعفِهم وهو خبرٌ ابتدائيٌّ إن حُمِلَ على تثبيت المعنى في المؤمنين، ولا مانع من الحمل على كليهما باعتبار المقام ونوع المخاطَبين.

جوازُ حمل الكلام على الخبر الإنكاريِّ والابتدائيِّ

دلالة الاسم الموصول في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لفظٌ عامٌّ، فيشملُ كلَّ المؤمنين من وقت

المدحُ والثّناءُ لعموم المؤمنين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 261، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 21.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 250.

نزول الآيةِ إلى يومِ القيامةِ، ويدخلُ فيه المؤمنون في العهدِ المكّي دخولًا أوّليًّا، والتَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا أفاد معانيَ المدحِ والثَّناءِ عليهم.

غرضُ التَّعبير بالموصول وصلتِه في الآية:

نجدُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّه لمَّا كانت صلةُ الموصول معلومةَ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليه معلومٍ في أذهانِ المخاطَبين؛ أفادت أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ معروفون بأعمالِهم مشهورون بها بينَ النَّاس، حيث أفاد التَّعبيرُ بالأفعالِ الماضيَةِ وقوعَ الإيمان والعمل الصَّالحِ منهم منذ اللَّحظةِ الأولى، كما أفادتْ صلةُ الموصول أنَّ الحكمَ في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ مبنيٌّ على كونِهم آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ، وأنَّه مسبَّبٌ عليه، ليُؤْذِنَ بدخولِ مَن فعلَ مثلَ فعلِهم في مثلِ وصفِهم وجزائِهم.

الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ سببٌ لحصولِ الودِّ والقَبولِ في الأرضِ

نُكتةُ التَّعبير بالعملِ دونَ الفعل:

عُبِّرَ بالعملِ دونَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ هو إيجادُ الشَّيءِ من غيرِ نظرٍ إلى الأثرِ، وأمَّا العملُ؛ فهو إيجادُ الأَثر في الشَّيْءِ، ففيه إيذانٌ بأنَّ المقصودَ هو العملُ الصَّالحُ الذي يظهرُ أثرُه في النَّفسِ وفي الواقع، فضلًا عن أنَّ العمل يُقال لِما كان عن قصدٍ ونيَّةٍ، ولِما يمتدُّ زمانُه بخلافِ الفعلِ.

العملُ الصَّالحُ يظهرُ أثرُه في النَّفسِ وفي الواقعِ

معنَى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

(أل) هنا يمكنُ أن تكونَ للعهدِ بمعنَى الأعمالِ الصَّالحةِ التي هي معهودةٌ للمؤمنين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن يميِّزُ بإيمانِه بين العملِ الصَّالحِ وغيرِه، فيكونُ الصَّالحُ معهودًا معروفًا عنده، ويمكنُ أن تكونَ للجنسِ الاستغراقيِّ لتعمَّ كلَّ ما يصلحُ أن يكونَ عملًا صالحًا.

أبوابُ العملِ الصَّالحُ معهودةٌ عندَ المؤمنين معروفةٌ لديهم

فائدةُ حذفِ موصوفِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

لَمَّا كان تقديرُ الكلام: (وعملوا الأعمالَ الصَّالحات)؛ كان على حذف الموصوفِ، وذلك للإيجازِ لِما يدلُّ عليه الفعلُ ﴿وَعَمِلُوا۟﴾

من أنَّ المرادَ عملوا الأعمالَ الصَّالحةَ، كما أنَّه لو ذُكِرَ الموصوفُ؛ لكانتِ الصِّفةُ مقيَّدةً لأحد نوعَيِ العمل، بمعنى أنَّ منَ المؤمنين من يعملُ العملَ الصَّالحَ، ومنهم من يعملُ العمل السّيّئَ، فلمَّا حذفَ الموصوفَ؛ دلَّ على أنَّ مقتضى الإيمان ألَّا يَعملَ المؤمنُ سوى العملِ الصَّالحِ، كما أنَّ نظمَ القرآن يقتضي حذفَ الموصوفِ، فلو ذُكِرَ؛ ضَعُفَ التّأليفُ، وانخرمت قلادةُ النَّظم، كما هو ظاهرٌ في اللّفظ.

مقتضى الإيمان ألَّا يَعملَ المؤمنُ سوى العملِ الصَّالحِ

نُكتةُ جمعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

لمَّا لم يقل: (وعملوا صالحًا)، وجاء النَّظمُ الكريمُ بصيغة الجمع؛ أفاد تكثيرَ الصَّالحات، وفيه إشعارٌ بالحثِّ على تكثيرِها والزّيادةِ منها، كما أنَّ في إفرادها تحقيقًا للمشقَّة التي تنزَّهَ الشَّرعُ عنها، حيث إنَّ اشتراطَ الصَّلاح لكلِّ عملٍ فيه حرجٌ للمكلَّفين، فاقتضى الجمعُ أن تكون هذه الأعمالُ في جملتها صالحةً.

الحثُّ على تكثيرِ الصَّالحاتِ والزّيادةِ منها

معنَى السّين في الفعل ﴿سَيَجۡعَلُ﴾:

السّين تفيدُ وجودَ الجعل المذكورِ لا محالةَ، فهي تؤكِّد الجعلَ، يعني: أنَّه تعالى سيجعلُ لهم ودًّا، وإن تباطأَ ذلك، وتأخَّرَ، ففيه إيذانٌ بِتَحَقُّقِه عِنْدَ المخبَر به، وهم الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ، وعبَّر بصيغة السّين الدَّاخلةِ على الفعل المضارع دون التَّعبير بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على تحقُّق الوقوعِ؛ ليكونَ جعلُ الودِّ للمؤمنين محلَّ رجاءٍ لهم، كما تفيدُ السّين الوعدَ في المستقبل، ولم يُقَيَّدِ الوعدُ في المستقبل بوقتٍ معيَّنٍ، ليدلَّ على وقوعِه مطلقًا، فيتناولُ جعلَ الودِّ لهم في الدّنيا والآخرة على العموم[1]، بمعنى أنَّه تعالى سيجعلُ لهم ودًّا في الدّنيا، فيحبُّهم المؤمنون، كما سيجعلُ لهم ودًّا في الآخرة، فينزعُ اللّه ما في صدورهم منَ الغلِّ، فلا يكونُ بينهم تباغضٌ،

بِشارةُ المؤمنين بوضعِ القَبولِ لهم وإن تأخَّرَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 458.

فتبقى المحبّةُ المحضةُ والودُّ الخالصُ[1]، وقد جاء الحديثُ مؤكِّدًا معنَى الآية، فعن أَبي هُرَيْرَةَ ﵁ قال: قال رَسولُ اللَّه ﷺ: "إنَّ اللَّه تَعالى إذا أَحَبَّ عَبْدًا؛ دَعا جِبْريل ﵇، فقالَ: إنّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّهُ، فيُحِبُّهُ جِبْريلُ، ثُمَّ يُنادي في السَّماءِ، فيَقولُ: إنَّ اللَّه يُحِبُّ فُلانًا، فأَحِبّوهُ، فيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، ثُمَّ يوضَعُ لَهُ القَبولُ في الأَرْضِ، وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا؛ دَعا جِبْريلَ ﵇، فيَقولُ: إنّي أُبْغِضُ فُلانًا، فأَبْغِضْهُ فيُبْغِضُهُ جِبْريلُ، ثُمَّ يُنادي في أَهْلِ السَّماءِ: إنَّ اللَّه يُبْغِضُ فُلانًا؛ فأَبْغِضوهُ فيُبْغِضونَهُ، ثُمَّ توضعُ له البغضاءُ في الأرض"[2].

نُكتةُ التَّعبير بلفظِ ﴿سَيَجۡعَلُ﴾:

الودُّ للمؤمنين أمرٌ يُحدثُه الله في القلوب

الجعلُ هنا بمعنَى الخلقِ، وعُبِّرَ بالجعلِ دونَ الخلقِ؛ للإشعارِ بأنَّه أمرٌ عظيمٌ، لا يقدرُ عليه إلَّا اللّه تعالى، فهو بمنزلةِ الإحداثِ لا على أمرٍ سابقٍ، أي: إنَّه تعالى سيَحدثُ لهم في القلوب مودَّةٌ، ويغرسُها لهم فيها من غير توددٍ منهم ولا تعرُّضٍ للأسباب التي توجبُ الودَّ، ويكتسبُ بها النَّاسُ مودَّاتِ القلوب، من قرابةٍ أو صداقةٍ أو اصطناعٍ بمبرّةٍ أو غيرِ ذلك، فالودُّ ليس أمرًا كسبيًّا إنَّما هو هبة منه ﷻ ابتداءً اختصاصًا منه لأوليائِه بكرامةٍ خاصَّةٍ، كما قذفَ في قلوب أعدائِهم الرّعبَ والهيبةَ إعظامًا لهم وإجلالًا لمكانِهم، فالمحبَّةُ ليست كسبيَّةً[3].

بلاغةُ مجيءِ المسنَدِ فعلًا في الآية:

لا يَجعلُ الودَّ للذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ إلَّا الرَّحمنُ

في قولِه تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ جاء المسنَدُ (يجعل) فعلا لإفادةِ تَقوّي الحكم وتحقيقِه، بمعنى تحقيق الجعْلِ المذكورِ وأنَّه لا يجعلُ الودَّ للَّذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ إلَّا الرَّحمنُ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 47، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/ 557، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 21، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 418.

(2) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2637).

(3) الخطَّابي، البيانُ في إعجاز القرآن، ص: 45، والزمخشري، الكشاف: 3/ 47.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

مـن إشــاراتِ الإعجازِ الإعلامُ بظهورِ الإسلامِ

في الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ كنايتان: إحداهما أنَّه تعالى بشَّر المؤمنين بظهور الإسلامِ وظهورِهم على الكفَّار؛ لأنَّ السّورةَ مكّيَّةٌ، وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرةِ، ومن أشدِّ الآلام على النَّفس وأشقِّها أن يعيش الإنسانُ بين قومِه مبغوضًا مهجورًا، مزهودًا فيه، فكان وعدُهم بذلك كنايةً عن ظهورِ الإسلام، فكانت هذه الآيةُ من آيات الإعجازِ بالإعلام بما يتحقَّقُ في الاستقبال ممَّا هو كالمُحال في الحال، فكان على وفقِ ما وعدَ وقال[1]، والثَّانية أنَّه تعالى يحبُّهم، فلولا أنَّه أحبَّهم؛ لَمَا كان سيجعل لهم ودًّا في قلوب المؤمنين، فيكونُ جعلُ الودِّ لهم دالًّا بلازمه على أنَّ لهم ودًّا عنده تعالى، وعلى أنَّ ودَّ اللّه تعالى لهم سبق جعلَه في قلوب المؤمنين، ولهذا كان المعنَى: "يُحِبُّهُمُ اللّه، ويُحَبِّبُهُم إِلى عِبادِه المُؤمِنينَ"[2].

معنى اللَّام في ﴿لَهُمُ﴾:

لا يكونُ الودُّ من اللـه في الدّنيا والآخـــرة إلاّ للمؤمنين

اللَّام مفيدةُ الاختصاص، بمعنى: أنَّه تعالى يختصُّهم بجعل الودِّ لهم، ففيه إظهارُ منَّةِ اللّه تعالى عليهم، وإفرادُ الودِّ بالوعدِ للمؤمنين واختصاصُهم به من بين ما سيُؤْتَون يومَ القيامة منَ الكرامات السَّنيَّةِ يفيدُ بلازمه أنَّ الذين كفروا سيجعل لهم بُغضًا وكراهيَّةً وتقاطعًا في الدُّنيا كما أنَّهم يَوْمَ القيامَة يَكْفُرُ بَعْضُهُم بِبعْضٍ، ويَلْعَنُ بَعْضُهُم بَعْضًا، وفي النَّارِ أَيْضًا يَتَبَرَّأُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ[3]، فليخفِ المرءُ على نفسه؛ إذا رأى النَّاس يبغضونَه أن يكون ذلك من سوء عمله.

(1) ابن باديس، تفسير ابن باديس، ص: 340.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 257.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 304، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 284.

الودُّ الحقيقيُّ لا يكون إلَّا للذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ

بلاغةُ تقديمِ ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

قُدِّمَ الجارّ والمجرورُ ﴿لَهُمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ للعنايةِ والاهتمام باختصاصِهم بالودِّ، كما يفيدُ التَّخصيصَ، بمعنى أنَّ الودَّ لا يكون إلَّا للذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، ويلزمُ منَ التَّخصيص تأكيدُ الوعدِ وتقريرُه.

نعمةُ الودِّ من آثار رحمانيتِه تعالى للمؤمنين

إيثار التَّعبير بصفة الرَّحمن:

التّعرُّضُ لعنوانِ الرّحمانيّةِ في الآية دونَ لفظِ الجلالة (اللّه) لِلإيذانِ بأنَّ جَعْلَ الودِّ للذين آمنوا وعملوا الصالحات هو من آثارِ رحمانيَّتِه[1]، ولمَّا كان وصفُ الرّحمن مختصًّا باللّه تعالى، ويجري مجرَى العلم[2]، وفيه مبالغةٌ في الاتِّصاف بالرَّحمة؛ دلَّ على عظَمِ هذه النِّعمةِ، وأنَّه لا يقدرُ عليها إلَّا اللّهُ تعالى المختصُّ بوصفِ الرَّحمانيَّة، ففيه تذكيرٌ بنعمةِ اللّه العظيمةِ على المؤمنين، فضلًا عن أنَّ السّورة الكريمةَ غلبَ فيها جوُّ الرَّحمة؛ فقد وردت فيها لفظةُ (الرّحمن) نحو ستَّ عشرةَ مرَّةً.

الـودُّ يجمعُ معانيَ الأُلفةِ والمحبَّةِ

نُكتة التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وُدّٗا﴾:

عُبِّرَ بالودِّ؛ لإفادة معنَى المحبَّة والألفةِ والقَبولِ والطُّمأنينةِ في المعاملةِ والصُّحبةِ، ويُشعر بلازمِه الخُلوِّ عن إرادة المكروه[3]؛ فالودُّ يجمعُ معانيَ الأُلفةِ والمحبَّةِ وغيرِها.

التَّعبيرُ بالمصدرِ لإفادة عُموم تعلُّقِ الوُدِّ

سببُ إيثارِ التَّعبير بالمصدر: ﴿وُدّٗا﴾:

لم يقل: (إن الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات سيجعلهم اللّه ودودين)؛ ليكونَ الودودُ على معنَى المفعول، فآثر التَّعبيرَ بالمَصْدَرِ ليَفي بِعِدَّةِ مُتَعَلِّقاتٍ بِالوُدِّ[4]، أي: ليقرِّر معنَى عموم الودِّ الشَّاملِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 283.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 601.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 251.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 175.

للدّنيا والآخرة، ويفيدَ عمومَ متعلّقاتِه، أي: يجعلُ لهم ودًّا في قلوبِ المؤمنين، وفي قُلوبِ أَهْلِ الخَيْرِ عمومًا، ويجعلُ لهم ودًّا عندَ الملائكةِ، ويجعلُ لهم ودًّا وتسهيلًا في أمورِهم وأحوالِهم.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿وُدًّا﴾:

أفادَ التَّنكيرُ تعظيمَ الودِّ وتفخيمَه، بمعنى: أنَّه ودٌّ ليس كسائرِ الودادِ المعروفِ بين النَّاسِ؛ لأنَّ هذا الودَّ هو بجعْلِ الرَّحمن ﷻ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفرقُ بين الوُدِّ والحبِّ:

قـد يـحـبُّ الإنـسـانُ ما لا يَصحَبُه، وأمَّا الـودُّ؛ فيقتضي صحبةً مع رِفقٍ ولينٍ

الحبُّ يكونُ فيما يوجبُه ميلُ الطِّباعِ والحكمةِ جميعًا، والودُّ من جهة ميلِ الطّباعِ فقط، فتقول: أحِبُّ فلانًا، وأودُّه، وأحبُّ الصَّلاةَ، ولا تقول: أودُّ الصَّلاةَ، وتقول كذلك: أود أنَّ ذاك كان لي، إذا تمنَّيت ودادَه، وأودُّ الرَّجلَ ودًّا ومودَّةً، والودُّ والوديدُ مثل الحبِّ، وهو الحبيب[1]، كما أنَّ الحبَّ لا يستلزمُ الصُّحبةَ، فقد يحبُّ الإنسانُ ما لا يُصحَبُ، وأمَّا الودُّ؛ فيقتضي صحبةً واتِّصالًا مع رفقٍ ولينٍ في المعاملةِ[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حبب، ودد).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

[مريم: 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـودُّ بـشـارةٌ لـلـمـؤمـنـين والبُـغـضُ إنـذارٌ للكافرين

لَمَّا كان إنزالُ هذا القولِ الثَّقيلِ لعظمِ قدرِه وجلالةِ أمرِه، ثمَّ تيسيرِه حفظًا وعملًا سببًا لِما جُعِلَ لأهلِ الطَّاعةِ في الدُّنيا مِنَ الودِّ بما لهم مِنَ التّحلّي والتَّزيُّنِ بالصَّالحاتِ، والتَّصوّنِ عنِ السَّيِّئاتِ، الدَّالِّ على ما لهم عند مولاهم من عظيمِ العزِّ والقُربِ، وكان التَّقديرُ بذكر المقابلِ: والذين كفروا ليُكسبَنَّهم الجبَّارُ بُغضًا وذِلًّا، فأخبر كلًّا مِنَ الفريقين بما له بشارةً ونذارةً، قال اللّه تعالى مسبَّبًا عن إفصاحِ ذلك وإفهامِه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ الآية.

وأيضًا لَمَّا احْتَوَتِ السّورَةُ على عِبَرٍ وقَصَصٍ وبشاراتٍ ونُذُرٍ؛ جاءَ هُنا في التَّنْويه بِالقُرْآنِ وبَيانِ بَعْضِ ما في تَنْزيلِه مِنَ الحِكَمِ، وفيها إيذانٌ بانتهاءِ السّورة، فإِنَّ شَأْنَ الإِتْيانِ بِكَلامٍ جامِعٍ بَعْدَ أَفْنانِ الحَديثِ أَنْ يُؤْذِنَ بأَنَّ المُتَكَلِّمَ سَيَطْوي بِساطَهُ، وذَلِكَ شَأْنُ التَّذْييلاتِ والخَواتِمِ، وهيَ ما يُؤْذِنُ بانْتِهاءِ الكَلامِ(1).

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾: (يسر) أصلان، يدلّ أحدهما على عضو من الأعضاء، والثَّاني: على انْفتاحِ شَيْءٍ وخِفَّتِه ولين انقيادِه، وجَريان الشَّيءِ بسهولةٍ بلا عوائقَ، ومنه اليُسْرُ الذي هو ضِدُّ العُسْرِ، ويُقال: إنَّه ليَسْرٌ خفيفٌ، وتَيَسَّرَ كذا، واسْتَيْسَرَ، أي: تسهَّل، وتهيَّأ، والياسرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 175.

منَ الغِنى والسَّعة، وأَيْسِرْ أَخاك، أَي: نَفِّس عليْه في الطَّلب، ولا تُعَسِرْه، ومن الباب يَسَّرَتِ الغَنَمُ؛ إذا كَثُرَ لَبَنُها ونَسْلُها، واليَسيرُ والمَيْسورُ: السَّهلُ، كما يأتي اليسيرُ بمعنى الشَّيءِ القليلِ، ولوحظ في تسمية اليدِ اليسرى مساعدتُها أختَها اليُمنى في ضمِّ الأشياء وإمساكِها، وهذا تيسيرٌ وتسهيلٌ وتمكينٌ[1].

2) ﴿بِلِسَانِكَ﴾: (لسن) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على طولٍ لَطيفٍ غَيْرِ بائِنٍ، في عُضْوٍ أَوْ غَيْرِه، مِنْ ذَلِكَ اللِّسانُ، وهو الجارحةُ المعروفةُ التي تُستخدمُ للكلامِ وغيرِه، والمتبادرُ استعمالُ اللِّسانِ للكلامِ، ويُطلَقُ اللِّسانُ على اللُّغةِ؛ لأنَّه أبرزُ آلاتها، فيقال: لكلِّ قوم لِسْنٌ أو لسانٌ، أَي: لُغَة يتكلَّمون بها، ويُقال: رجلٌ لَسِن بيِّنُ اللَّسَن؛ إذا كانَ ذا بَيانٍ وفصاحة، وذهبَ بعضُ اللُّغويّين إلى أنَّ اللِّسان يُذكَّرُ ويؤنَّث، فمَن أنَّثه؛ جَمَعه أَلسُنًا، ومَن ذكَّره؛ جمعَه أَلسِنَةٌ، وذهب آخرون إلى أنَّ اللِّسانَ مُذَكَّرٌ، والجَمعُ أَلْسُنٌ، فإذا كَثُرَ؛ فهيَ الأَلْسِنَةُ، وعلى القولين إذا أريدَ باللِّسانِ اللُّغةُ أو الرِّسالةُ؛ أُنِّثَ، ويُقال: فلانٌ يتكلَّم بلسانِ قومِه، أي: بلُغتِهم[2].

3) ﴿لُّدًّا﴾: (لدد) أَصْلانِ صَحيحانِ: يدلُّ أَحَدُهُما على خِصامٍ، والآخَرُ على ناحيَةٍ وجانِبٍ، والألدُّ الخصيمُ الشَّديدُ التَّأبّي الذي لا يرجعُ إلى الحقِّ، ولا يفارقُ رأيَه مهما بان له بُطلانُه، وجمعُه: لُدٌّ، وأصلُ الألدِّ: الشَّديدُ اللَّدَد، واشتقاقُه من لَديدَي الشَّيءِ، مثل لديدَي الوادي، وهما جانباه ولديدَي العنق، وهما صَفْحتاه، وتأويلُه أنَّه في أيِّ وجهٍ أَخَذَ مِنْ يَمينٍ أَوْ شِمالٍ في أَبْوابِ الخُصومَةِ غَلَبَه في ذَلِك، أو أنَّه لا يمكن صرفُه عمَّا يريدُه، ومنه فلان يَتَلَدَّدُ، أي: يتلفَّتُ[3]، و﴿لُّدًّا﴾ في الآية جمعُ الأَلَدِّ، وهو الشَّديدُ الخُصومةِ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن الله تعالى في هذه الآية الحكمة التي من أجلِها يسَّرَ القرآنَ، فقال: فإنَّما يسَّرْنا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (يسر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لسن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لدد).
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 347، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 405، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 225.

تيسيرُ القرآن لبشارةِ المتَّقين وإنذارِ أهلِ الباطلِ الكافرين

هذا القرآنَ بِلسانِك العربيِّ - يا محمَّدُ ﷺ - لتبَشِّرَ به المتَّقينَ بأنَّ لهم الجنَّةَ في الآخرةِ، والكرامةَ في الدُّنيا، وتخوِّفَ به المكَذِّبينَ الظَّالمين شَديدي الخُصومةِ بالباطِلِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

تعظيمُ شأنِ البشارةِ والنِّذارة إذ هما محورُ التّبليغِ

يجوزُ أن تكون الفاءُ هي الفَصيحَةَ الدالَّة على تعليلِ أمرٍ ينساقُ إليه النَّظمُ الكريمُ، لتُؤذنَ بِكَلامٍ مُقَدَّرٍ يَدُلُّ عليْه المَذْكورُ، فيكون السَّببُ محذوفًا، كَأَنَّهُ قيلَ: بلِّغْ ما أَنْزَلْنا إِلَيْكَ، أو بشِّرْ به، وأنذِرْ، فإنَّما يسَّرناه بلسانِك العربيِّ المبينِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ الفاءُ لِلتَّفْريعِ على ما تقدَّم من وعيدِ الكافرين الذي فيه النِّذارة، بِقَوْلِه: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مَرۡيَم: 94 - 95]، ووَعْدِ المُؤْمِنينَ الذي فيه البشارةُ بِقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾، فالمُفَرَّعُ هو مَضْمونُ البشارةِ والنّذارة، أَيْ: ذَلِكَ أَثَرُ الإِعْراضِ عَمَّا جِئْتَ به مِنَ النِّذارَةِ، وأَثَرُ الإِقْبالِ على ما جِئْتَ به مِنَ البِشارَةِ مِمَّا يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ، فإِنَّا ما أَنْزَلْناهُ عليْكَ إِلَّا لِذَلِكَ[1].

بلاغةُ القصرِ في الآية:

من تمام إقامةِ الحجّةِ تيسيرُ تبليغِ القرآن وحفظِه وفهمِه

في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ عُبِّرَ بـ﴿فَإِنَّمَا﴾ التي يُؤتَى بها للقصرِ مع المُثبِتِ غيرِ المُنكرِ منَ المخاطَبين، ولم يقل: (ما يسّرناه إلَّا بلسانِك) بالاستثناء بعد النَّفيَ، وهو أسلوبٌ للقصر يُؤتَى به مع المُنكِرين في الغالب؛ للإيذانِ بأنَّ تيسيرَ اللّٰه تعالى القرآنَ لرسولِه ﷺ بلسانِه ولغتِه ليبشِّرَ المتَّقين، ويُنذرَ قومًا لدًّا هو أمرٌ

---

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 10/ 116، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 284، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 176 - 177.

واضحٌ لا يحتاج إلى تحقيقٍ أو دليلٍ، وأنَّ هذا الخبر من شأنِه ألَّا يجهلَه المخاطَبون، ولا ينكروه؛ لأنَّه في نفسِ الأمرِ جليٌّ وبيِّنٌ، فليس على السَّامعين إلَّا أن يتلقَّوه بالقَبول.

كما أفاد القصرُ أنَّ نزولَ القرآن باللّغة العربيَّة هو بتيسير اللّه على معنى: أنَّه لو لم يكن بالعربيَّة؛ لَمَا تيسَّر القيامُ بتبليغِه، ولا تيسَّر حفظُه ولا فهمُه ولا القيامُ بأوامرِه واجتنابُ نواهيه.

نُكتةُ التّعبير بالماضي في قولِه: ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾:

كـانَ الـقـرآن وما زالَ سهلًا ومُيسّرًا حفظًا وفهمًا

دلَّ التَّعبيرُ بصيغة الماضي أنَّ تيسير القرآن أمرٌ مقطوعٌ به، وأنَّه قد نفذَ، وثبتَ كما أخبرَ، وعُبِّرَ باليُسر للإشعار بأنَّه تعالى سهَّل القرآنَ، وهيَّأه، ويسّره بلغةِ رسولِ اللّه ﷺ، وهي العربية.

فائدةُ حذفِ متعلِّقِ الفعل ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾:

خَـصـوصـيَّـةُ القرآنِ في تيسير حفْظِه وسهولةِ فهمِه

لَمَّا تعلَّق الفعلُ ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ بالضَّمير العائدِ إلى القرآن، وكان تيسيرُ القرآن على أنواعٍ، وكان الغرضُ منَ التَّيسير هو ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾؛ كان التَّيسيرُ على معنى العموم، والمعنى: (يسَّرنا قراءَته وذِكرَه، ويسَّرنا النُّطقَ والتَّكلُّمَ به بالعربيَّة، ويسَّرنا تبليغَه بلغتِك، وسهَّلنا فهمَه، ففهموه، وعقَلوه، ووقفوا على إعجازه، وسهَّلنا حفظَه بلغتِك)، فهو ليس كسائر الكتب المتقدمة، فإنَّهم كانوا لا يقدرون على حفظِها وقراءتِها عن ظهر قلبٍ[1].

فائدةُ التَّعبير بضميرِ العظمةِ في قولِه: ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾:

لَمَّا قال اللّه تعالى: ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ بإسناد الفعلِ إلى ضمير العظمةِ العائدِ إلى اللّه تعالى؛ أفاد أنَّ هذا التّيسيرَ لا يقدرُ عليه إلَّا اللّه الملكُ الواحدُ الأحدُ، فتَيسيرُ اللّه للعظيم أمرٌ عظيمٌ لا يقدرُ عليه إلّا العظيمُ.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 264.

عودُ ضميرِ المفعول به في ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾:

ضرورةُ حضورِ القرآن في أذهان المؤمنين دائمًا

يعودُ الضَّميرُ على القرآن من غيرِ تصريحٍ سابقٍ بدلالةِ السّياق، ونُكتتُه الإشعارُ بأنَّ القرآنَ حاضرٌ في أذهانِهم لظهورِه، أو ممَّا يجب أن يكون حاضرًا في الأذهان دائمًا، ونبَّه به إلى عظمة القرآنِ وعجيب تأثيرِه، فإنَّ الكلامَ واحدٌ والخطابَ واحدٌ، وهو لقومٍ تيسيرٌ، ولآخرين تخويفٌ وتحذيرٌ(1).

معنى الباء في ﴿بِلِسَانِكَ﴾:

مادامَ القرآنُ يُقرأُ باللّغة العربيَّة فهوَ ميسَّرٌ

تحتملُ الباءُ أن تكون مضمَّنَةً معنى (على)، أي: يسَّرنا القرآنَ على لسانِك، ليفيد الكلامُ الإشعارَ بعُلوِّ القرآن تنزيلًا ورفعةً ومكانةً، وتحتملُ أن تكون للإلصاق بتضمين الفعل ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ معنى الإنزالِ، أي: يسَّرنا القرآنَ مُنزلين له بلغتِك، ليفيدَ الكلامُ أنَّ تيسيرَه ملاصقٌ لكونِه بلُغةِ رسولِ اللّه ﷺ، ففي الإلصاق معنى السَّببيَّة والمُصاحبة(2).

نُكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿بِلِسَانِكَ﴾:

رسولُ الله ﷺ أفصحُ النَّاس لسانًا وأبيَنُه

لمَّا كان المخاطَبُ هو رسولَ اللّه ﷺ؛ أفادت الإضافةُ تشريفَ المضافِ بسبب إضافتِه إلى المضاف إليه، أي: تشريفَ اللّغةِ العربيَّةِ بكونِها لغةَ رسولِ اللّه ﷺ، وأنَّه لولا أنَّ رسولَ اللّه ﷺ يتكلَّم بهذه اللّغة لَما كان القرآنُ ميسَّرًا، وفي الإضافة إيماءٌ إلى أنَّ لسانَ رسولِ اللّه ﷺ أفصحُ لسانٍ وأبْيَنُه.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في الآية:

التَّعبيرُ باللِّسان عنِ اللُّغةِ منَ المجازِ المرسلِ

لمَّا عُلِّقَ تيسيرُ القرآن بلسانِ رسولِ اللّه ﷺ؛ كان المرادُ منَ اللّسان اللُّغةَ، وهو مجازٌ مرسلٌ مشهورٌ بذكرِ الآلةِ، وهي اللِّسانُ وإرادةُ اللُّغةِ، ولهذا وُحِّدَ لفظُ اللِّسانِ.

---

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 444.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 284، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 176.

بديعُ الإدماجِ في قولِه: ﴿بِلِسَانِكَ﴾:

لَمَّا كان المرادُ من ﴿بِلِسَانِكَ﴾ اللُّغةَ العربيَّةَ كان في الكلام إدماجٌ بالثَّناء على هذه اللُّغة وكونِها أفضلَ اللغاتِ وأفصحَها في الفَهم والإفهام، فإنَّ نُزولَ القُرآنِ بأَفْصَحِ اللُّغاتِ وأبلغِها هوَ مِنْ أَسْبابِ فضْلِه على غَيْرِه مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّة، وهو من أسبابِ تَسْهيلِ حِفْظِه الذي لَم يُسَهَّلْ مِثْلُهُ لِغَيْرِه مِنَ الكُتُبِ[1].

نـزلَ القـرآنُ بالعربيّةِ فتميّزَ عن غيرِه منَ الكتبِ السّماويّةِ

معنى اللَّامِ في ﴿لِتُبَشِّرَ﴾:

اللَّامُ هي للتَّعليل، أي: هي لبيان الغرضِ من تيسيرِ القرآنِ بلسانِ رسولِ اللّه ﷺ، ولمَّا كان القصرُ إضافيًّا، وكان قد قصرَ الغرضَ من تيسيرِ القرآن على غرضَيْن، هما قولُه: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾؛ كان المرادُ مِنَ القصرِ تعظيمَ شأنِ المقصورِ عليه، أي: تعظيمَ شأنِ تبشيرِ رسولِ اللّه ﷺ المتَّقين وإنذارِ القومِ المكابرين المجادِلين بالباطِلِ.

جاءتِ الرّسالةُ النّبويّةُ تبشيرًا للمؤمنين وإنذارًا للكافرين

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لِتُبَشِّرَ﴾ و﴿وَتُنذِرَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ الإيذانَ باستمرارِ رسولِ اللّه ﷺ على تبشيرِ المتَّقين وإنذارِ الكافرين المبطلين، وبتجدُّدِ هذين الأمرَين منه ﷺ حالًا فحالًا ووقتًا فوقتًا.

مهمّةُ رسولِ اللّه في التّبليغِ لا ترتبطُ بحالٍ أو وقتٍ

معنَى الباء في ﴿بِهِ﴾ في الموضعَين:

تفيدُ الباءُ الإلصاقَ بمعنى أنَّ تبشيرَكَ المتَّقين وإنذارَكَ القومَ اللُّدَّ مُلتصقٌ بتيسيرِ القرآن، أي: إنَّ القرآن ميسَّرٌ للأمرَين، وفي الإلصاقِ معنى المُصاحبةِ بمعنى مُصاحبةِ القرآنِ للبشارةِ والنِّذارة، ففيه إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما جاء به القرآنُ قائمٌ على التَّبشيرِ والإنذار.

كلُّ ما جاءَ به القرآنُ قائمٌ على التَّبشيرِ والإنذارِ

بلاغةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِ﴾ في موضعِ البِشارة والنِّذارةِ للاهتمامِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 176.

أكملُ البِشارةِ والنِّذارةِ يكونُ بالقرآنِ

بالقرآن والعنايةِ به وللإشعار بأنَّه ينبغي أن يكونَ نُصبَ عينِ المخاطَبين في البشارة والنِّذارة بما اقتضاه التَّعبيرُ بـ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾، وفي التَّقديم كذلك تخصيصُ البشارة والنِّذارة بالقرآن، بمعنى أكملِ البشارة والنِّذارة يكونُ بالقرآن.

نكتة تكرير ﴿بِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾:

طريقةُ القرآنِ في البشارة تغايرُ طريقتَه في الإنذارِ

كُرِّرَ الجارُّ والمجرور مع الإنذار لِما يقتضيه النَّظمُ ولتأكيدِ الاهتمام والعنايةِ بالقرآن، وفي التَّكرير كذلك إشعارٌ بأنَّ طريقةَ القرآن في البشارة تغايرُ طريقتَه في الإنذار، فلكلٍّ لفظُه وأسلوبُه.

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

(أل) هنا للاستغراق، فيشملُ اللَّفظُ جميعَ المتَّقين، فكلُّ مَنْ له منَ التَّقوى قسطٌ، له منَ البشارة نصيبٌ.

معنى الواو في ﴿وَتُنذِرَ﴾:

أسلوبُ البشارةِ يخالفُ أسلوبَ النِّذارةِ لفظًا ومعنًى وأداءً

تدلُّ الواوُ على التَّشريك في الحُكم، بمعنى: أنَّ اللّٰهَ تعالى يسَّرَ القرآنَ للبشارةِ وللإنذار، وفيه إشعارٌ بأنَّ الذي يبلِّغُ القرآنَ لا يقتصرُ على تبشيرِ المؤمنين، بل يضمُّ إليها إنذارَ الظَّالمين المُبطلين، ولمَّا كانتِ الواوُ تفيدُ معنَى المغايرة؛ دلَّت على أنَّ أسلوبَ البشارة يُخالفُ أسلوبَ النِّذارةِ لفظًا ومعنًى وأداءً.

بديعُ الطِّباق في قولِه: ﴿لِتُبَشِّرَ﴾ و﴿وَتُنذِرَ﴾:

البشارةُ إخبارٌ بالمسرَّة وضدُّها الإنذار

في الآية طباقٌ بين الفعلَيْن ﴿لِتُبَشِّرَ﴾ و﴿وَتُنذِرَ﴾؛ لأنَّ تبشيرَ المتَّقين بمعنى إخبارِهم بما يَسُرُّهُم، وبما يَكونُ لَهُم مِنَ الثَّوابِ على تَقْواهُم، وإنذارَ القوم اللُّدِّ بمعنى إخبارِهم بما يَسوؤهم وبما يكونُ لهم منَ العذاب على كفرِهم ومجادلتِهم بالباطل، وفائدةُ الطِّباقِ الإيذانُ بالفرقِ بين الحالين عندَ اللّٰه وفي الدُّنيا والآخرة.

نكتةُ حذفِ المفعول الثَّاني في ﴿لِتُبَشِّرَ﴾ و﴿وَتُنذِرَ﴾:

لم يَذْكُرِ المبشَّرَ به لإفادة عمومِ البشارة، أي: لتبشِّرَ المتَّقين بحسنِ

حذفُ المفعولِ لإفادةِ عمومِ البشارةِ والنِّذارةِ

العاقبةِ منَ الجنّة وبأنواعِ النَّعيم الدَّائم يومَ القيامة وبالعزِّ في الدُّنيا، ولم يذكرِ المنذَرَ به للتَّهويل[1]، فتتصوَّرَ النَّفسُ كلَّ ما يهولُ من سوءِ العاقبة منَ العذاب والذّلِّ للمنذَرين الذين لا يؤمنون بالله ورسولِه.

نكتة تنكير ﴿قَوۡمٗا﴾:

الألدُّ المعاندُ يَنشُدُ العِزَّ في لَدَدِه وهيهات

كان الظَّاهر أن يأتي مقابل ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ معرفةً؛ لأنَّ المقصود معلومٌ، وهم مشركو مكَّة المكذبون المعاندون لكنَّه جاء باللفظ المقابل نكرةً؛ لِتحقير القوم اللُّدِّ والاستهانةِ بهم، فيكون أبلغَ في ذمِّهم وتوبيخِهم وتبكيتِهم؛ لأنَّ الألدَّ المعاند ينشد العزَّ في لددِه.

بلاغة التَّعبير في ﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾:

شأن أهلُ المكابرة المراءُ والمخاصمةُ بالباطلِ

لمَّا تعلَّقَ الإنذارُ بالقوم، ثمَّ وصفَهم باللُّدِّ؛ أشعرَ بأنَّ الصِّفةَ الَّتي تَقوَّمَتْ مِنها قَوْميَّتُهُم، وأنَّ قوامَ اجتماعِهم هو اللَّدَدُ والمكابرةُ بالباطلِ، أي: إنَّهم أَهْلُ إيغالٍ في المِراءِ والمُكابَرَةِ وأهل تصميم على الباطل، وأفادتِ الصِّفةُ ﴿لُّدّٗا﴾ التي جاءت وصفًا للنَّكرة تقييدَ الموصوفِ، بمعنى أنَّ شأنَهم هو اللَّدَدُ[2]، وعُبِّرَ بلفظة: ﴿لُّدّٗا﴾ للإشعار بخصومةِ القوم الفاجرةِ الباطلةِ، فإنَّه لا يلدُّ إلَّا المُبطلُ[3].

بلاغة المقابلة بين المتَّقين والقوم اللُّدِّ:

الألدُّ هو الذي لا يقبلُ الحقَّ ويَتَمَسَّكُ بالباطِلِ

لمَّا كان المتَّقون همُ الذين يَنقادون لأمرِ الله، ويخافون نواهيَه، فالتَّقْوَى امتثالٌ وطاعةٌ، قابلَهم بمن هو في مخالفة التَّقوى أبلغُ، وأبلغُهم الألدُّ، وهو الشَّديدُ الخصومةِ العسيرُ الانقيادِ الذي لا يقبلُ الحقَّ، ويَتَمَسَّكُ بِالباطِلِ، ويُجادِلُ فيه، ويَتَشَدَّدُ، فخُصّوا بالإنذار؛ لأنَّهم إذا قامت عليهمُ الحجَّةُ صار غيرُهم لاحقًا بهم، من أجلِ أنَّ الَّذي لا عِنادَ عندَهُ يَسْهُلُ انْقيادُهُ[4].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 303.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 176 - 177.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 35.

(4) الواحدي، البسيط: 14/ 342، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 568، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 162.

كُفرُ القومِ اللُّدِّ عَنْ عِنادٍ وتمسُّكٍ بالباطلِ

بلاغةُ التَّعريضِ في قولِه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾:

في الكلامِ تَعريضٌ بِأَنَّ كُفْرَهُم عَنْ عِنادٍ وتمسُّكٍ بالباطلِ، وبأنَّهم يَعلَمونَ أَنَّ ما جاءَ به سيِّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ هوَ الحَقُّ، كَما قالَ تَعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33].

البشارةُ الخاصَّةُ مضمَّنَةٌ معنى النِّذارةِ، والبشارةُ المطلقةُ لايكونُ فيها معنى النِّذارةِ، والعكسُ صحيح

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ:

وردت في القرآن الكريم البشارةُ والنّذارةُ بصوَرٍ مختلفةٍ، فقال تعالى في هذه السورة: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: 2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: 11]، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]، فمرَّةً ذكرَ النِّذارةَ للنَّاسِ جميعًا، ومرَّةً للذين اتَّبعوا الذِّكرَ، ومرَّةً للذين ظلموا خاصَّةً، والأصلُ في النِّذارةِ والبشارةِ: أنَّ البشارةَ إذا كانت خاصَّةً لأحد؛ فهي له على شرط الدَّوام على الوصْفِ الذي استحقَّ به البشارةُ، وفيها النِّذارة له إنْ لم يدُم، وكذلك النِّذارةُ الخاصَّةُ لأحدٍ لدوام الوصْفِ الذي استحقَّ به الإنذارَ ملتزمًا بما أُنذرَ به، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾، بمعنى: أنَّا نُهلكهم إنْ لم يرجعوا عن لددِهم، فإنْ تابوا، ورجعوا عن ذلك، فلهم فيها البِشارةُ، وعلى هذا تكون البشارةُ الخاصَّةُ مضمَّنةً معنَى النِّذارةِ، والنِّذارةُ الخاصَّةُ مضمَّنةً معنَى البشارة، وأمَّا البشارةُ المطلقةُ؛ فهي بشارةٌ لا يكونُ فيها النِّذارة، وكذلك النِّذارةُ المطلقةُ لا يكونُ فيها البشارةُ، وعلى هذه الأقسامِ يُخرَّجُ البشارةُ والنِّذارةُ في القرآن(1).

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 264.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفرقُ بين اللُّدِّ والخَصمِ:

الخصومةُ تكون بالحقِّ، وتكون بالباطلِ، فهي أعمُّ من اللَّدَدِ

اللُّدُّ والخَصمُ كلاهما منَ المعاني التي تقتضي جانبَين، والخصمُ هو النِّزاعُ، والمخاصمةُ هي المنازعةُ، فكأنَّ كلَّ واحدٍ يتعلَّقُ بخصمِ الآخر، أي: بجانبِه، ويَجذبُه إليه، والمخاصمةُ لا تقتضي أن يكونَ الخصمانِ على باطلٍ، وقد يرجعان إلى الحقِّ بعد تبْيينه وإيضاحِه، بمعنَى قد يكونُ أحدُ الخصمين على حقٍّ، كما في قولِه تعالى: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: 19]، وقصدَ به اخْتِصامَ فريقَي المُؤْمِنينَ وغَيْرِهم، فالمذمومُ في الخصومةِ ما كان خصومةً في الباطل برفعِ حقٍّ أو إثباتِ باطلٍ، وأمَّا اللُّدُّ؛ فهو وصفٌ، ومنه الألدُّ، وهو الخصيمُ الشَّديدُ التَّأبّي الذي لا يرجعُ إلى الحقِّ، ولا يفارقُ رأيَه مهما بان له بُطلانُه، فاللُّدُّ لا يكونُ إلَّا ذمًّا، والألدُّ مذمومٌ دائمًا[1].

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خصم، لدد).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ٩٨﴾ [مريم: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّذكيرُ بأحوال الأمـمِ السابقة للاعتبار والاتّعاظ

لَمَّا ذُكِّروا بالعنادِ والمكابرةِ؛ أُتْبِعَ بالتَّعْريضِ بِتَهْديدِهم على ذَلِكَ بِتَذْكيرِهم بِالأُمَمِ الَّتي اسْتَأْصَلَها اللّه لِجَبَروتِها وتَعَنُّتِها؛ لِتَكونَ لَهُم قِياسًا ومَثَلًا، فجاءَتْ هذه الآيةُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرْنٍ﴾: (قرن) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على اجتماعِ شيئَين أو أشياء في معنًى مِنَ المعاني، ومنه القِرانُ، وهو الحَبَلُ يُقْرَنُ به شَيْئانِ، والقَرَنُ في الحاجِبَيْنِ: إذا التَقَيا، والقَرْنُ: مَثْلُكَ في السِّنِّ، والقَرْنُ: القومُ المُقْتَرِنونَ في زمنٍ واحد، أي: أَهلُ كلِّ زَمانٍ، مأْخوذ مِنَ الاقْتِران، فكأَنَّه المِقْدارُ الَّذي يَقْتَرِنُ فيه أهلُ ذَلِكَ الزَّمانِ في أعمارِهم وأَحوالِهم، فيُعبَّرُ به عنِ الجيل مِنَ النَّاس، والَّذينَ يأْتون مِنْ بَعْدِهم ذَوو اقْتِرانٍ آخَرَ، فالقرن الجماعةُ أوِ الأمَّةُ، ويُطْلَقُ على الزَّمانِ الَّذي تَعيشُ فيه الأُمَّةُ، وشاعَ تَقْديرُهُ بمِئة سَنَةٍ، وجَمعُ قَرنٍ: قُرونٌ[2].

2) ﴿تُحِسُّ﴾: الحِسُّ هو العِلمُ الحاصلُ بالحاسَّةِ، والحاسَّةُ هي القوَّةُ التي بها تُدرِكُ الأعراضُ الحسيَّةُ، والحواسُّ: المشاعِرُ الخمسُ، وهي طرقُ علمٍ مخصوصٍ لكلِّ واحدٍ منها، وأحسَّ الرَّجلُ الشَّيءَ إحساسًا بمعنَى علمَ به، ويتعدَّى بنفسِه مع همزةِ التَّعديةِ، كما قال تعالى: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: 52]، وربَّما زيدت فيه الباءُ؛ فقيل: أحسَّ به، على معنى: شعر به عن طريق إحدى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 253، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 177.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرن).

الحواسِّ، وذهب بعضُ اللّغويين إلى أنَّ أَصْلَ الإِحْساسِ الإِبْصارُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في الوِجْدانِ والعِلْمِ بأيِّ حاسَّةٍ كانَتْ، و﴿تُحِسُّ﴾ في الآيةِ بمعنى: هل تجدُ بحاسَّتك أحدًا منهم، أو بمعنى المعاينة والنَّظرِ، أي: هل رأيتَه، وأبصرتَه؟[1].

3) ﴿رِكۡزَۢا﴾: يدور معنَى الرِّكْزِ على رسوخ الشيء أو أصلِه في أثناء ما يكتنفُه، كقطعة الجوهر في الأرض، والنَّخلةِ في الأرض بعد نقلِها، ففيه معنَى الخفاءِ والاستتار، ومنه الرِّكازُ للمال المدفون؛ لأنَّه مستورٌ مخفيٌّ، وركَزَ الرّمحَ؛ إذا غيّبَ طرفَه في الأرض، وركَزْتُ كذا، أي: دفنْتُه دفنًا خفيًّا، والرِّكزُ الصّوتُ الخفيُّ دون نطقٍ بحروف، وإنَّما هو صوتُ الحركات، الرِّكزُ هو الصّوتُ الذي حُبِست شدَّتُه، وأُمسِك حتى يَخْفى[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الاعتبارُ بأحوال الأمم السَّابقةُ مِنَ الهلاك والاندثارِ

يخبرُ البيان الإلهي في هذه الآية مُعرِّضًا بمشركي قريشٍ، بتهديدِهم على كفرهم وتكذيبهم وعنادِهم على الباطل بتذكيرهم بالأمم التي أهلكها، فيقول: وأهلكنا كثيرًا منَ الأمم الماضية قبل مُشركي قريش؛ إذ كفروا، وكذَّبوا، وعاندوا، فهل تحسُّ أنت منهم أحدًا يا محمَّدُ ﷺ، فتراه، وتعاينُه، أو تسمعُ لهم صوتًا، بل بادوا، وهلكوا، وخلتْ منهم دورُهم، وأوحشت منهم منازلُهم، فكذلك قومُك هؤلاءِ، صائرون إلى ما صار إليه أولئك، إنْ لم يرجعوا إلى التَّوبةِ قبل الهلاكِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو في الآية:

جاءتِ الآيةُ بالوصل بالواو لتكونَ معطوفةً على قولِه تعالى:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (حسس).
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 347، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ركز).

إنذارُ الكافرين المعاندين بشارةٌ للمؤمنين وإنذار للمشركين

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾؛ لِما بين الجملتين من اشتراكٍ في الجهة الجامعةِ، فإنَّه تعالى لَمَّا أخبر عن عنادِ القوم المشركين وغُلوِّهم في الباطل والمكابرةِ عليه، وأنَّهم مُنذَرون؛ هوَّن اللّه على النّبيِّ ﷺ خصامَهم وعنادَهم في هذه الآية، فإنَّ في إنذارِهم بشارةً للمُؤمنين باقترابِ إراحتِهم من ضُرِّهم، وتنبيهٌ للمشركين إلى ما هم صائرون إليه إنِ استمرّوا على عنادِهم.

معنى ﴿وَكَمۡ﴾:

سنّةُ الإهلاك جرت على كثيرٍ من الأممِ السَّابقةِ

﴿وَكَمۡ﴾ هنا خبريَّةٌ يُكَنَّى بها عنِ العددِ الكثير؛ لتفيدَ تكثيرَ الأفرادِ والفعلِ لِما دخلت عليه، وبهذا فارقت لفظ (كثير) في الاستعمال؛ لأنَّ لفظَ (كثير) يستعملُ في الأفراد فقط، فلمَّا قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾؛ أفاد تكثيرَ الأمم المُهلكَةِ وتكثيرَ فعلِ الإهلاكِ صراحةً لا ضمنًا، والمعنى: (وكثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء من قرنٍ لمخالفتِهم أنبياءَهم وعنادِهم لهم).

فائدةُ تقديمِ مفعولِ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

توجيهُ أذهانِ السَّامعين إلى كثرةِ الإهلاكِ وتكرُّرِه

تقدَّم المفعولُ به ﴿وَكَمۡ﴾ على الفعل ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾؛ لأنَّ ﴿وَكَمۡ﴾ لها الصَّدارةُ في الكلامِ، وهو مع كونِه على الأصلِ من وجوب تقديم ما له الصَّدارةُ في الكلامِ، لكنَّه لا يخلو من فائدةٍ بلاغيَّةٍ، وهي توجيهُ أذهانِ السَّامعين من أوَّل الخبرِ إلى كثرة ما وقعَ عليه فعلُ الإهلاكِ، وكثرةِ الإهلاكِ وتكرُّرِه، فالنَّظرُ إلى كثرةِ الفعلِ الذي يفيد تكرُّره، وليس إلى أصلِ وقوعِ الفعلِ فقط.

بلاغةُ الإخبارِ بلازمِ فائدةِ الخبرِ في الآيةِ:

مَن سار على منهجِ الأممِ الهالكةِ لقيَ المصيرَ نفسَه

في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾؛ ليس المرادُ مجرّدَ الإعلامِ بأخبار الأمم الماضية؛ لأنَّ المخاطَبين كانوا على علمٍ بهلاكِها، ولأنَّ آثارَ بعضِ ديارِهم باقيةٌ، بلِ المرادُ لازمُ الفائدة، وهو تخويفُ الكافرين المكذِّبين المعاندين، وإنذارُهم والاعتبارُ بهم

ليتركوا الكفرَ والجدالَ بالباطلِ، والإيذانُ بأنَّهم إنِ استمرّوا على فعلِهم، فسيكونُ حالُهم مثلَ حالِ الذين أهلكهم اللّه من قبلِهم[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

الإهـلاكُ هـو الـعـذابُ عـلـى مـعـنَـى الاستئصالِ

لَمَّا كان الإهلاكُ يفيدُ أمرًا واحدًا، أي: استئصالَ المُهلَكين وفناءَهم، وكانَ العذابُ الذي هو الإيجاعُ والأذَى على أنواع، وقد ينتهي العذابُ بالكشفِ عنِ المعذَّب ورفعِه عنه؛ كان التَّعبيرُ بـ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ هنا على معنَى الاستئصالِ بالعذاب[2] أنسبَ للمقام وأقضى لحقِّ البلاغةِ، وذهب الفخرُ الرَّازي إلى أنَّ الإهلاكَ هنا بمعنى الانقراضِ بالموتِ[3]، ليكونَ التَّعبيرُ بالإهلاكِ من باب الوعيدِ لمشركي مكَّةَ المعاندين، ومن كان مثلَهم بأنَّهم ميّتون زائلون، فحالُهم مثلُ حالِ الذين قد خلَتْ منهم دورُهم، وأوحشت منهم منازلُهم، وصاروا إلى دارٍ لا ينفعُهم فيها إلَّا صالحُ من عملٍ قدَّموه؛ ليعتبروا، ويتَّعظوا بهلاكِ من كان قبْلَهم، ولم يَعدَّ الرَّاغبُ الإهلاكَ هنا منَ المواضع التي وردت فيها مادَّةُ (هلك) بمعنَى الموت، ويؤيِّدُه السّياقُ؛ إذ هو في مقام الوعيدِ والتَّخويفِ والإنذارِ للمكذِّبين المعاندين[4].

دلالةُ الإسنادِ في ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

أُسندَ الفعلُ إلى ضمير العظمةِ للإيذانِ بهولِ الهلاكِ وعظمتِه، وأنَّه لا يقدرُ عليه إلَّا اللّه الملكُ الواحدُ الأحدُ، ونسبةُ الأمرِ إلى العظيمِ يدلُّ على عظمتِه.

فائدةُ مجيءِ الظّرفِ منصوبًا في قولِه: ﴿قَبۡلَهُم﴾:

جُرّدَ الظّرفُ عن حرفِ الجرِّ لإفادةِ التَّعميم، فلمَّا كان المرادُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 48، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 305.

(2) بو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 249، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 305، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 284.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 568.

(4) الراغب، المفردات: (هلك)، والزمخشري، الكشاف: 3/ 48.

من الخبرِ التَّعميمَ في إهلاكِ اللّه تعالى لكلِّ الأمم الماضيةِ المكذِّبةِ المعاندةِ من غيرِ تعيينٍ لوقتٍ معيَّنٍ؛ أُثبت الظّرفُ مجرَّدًا عن حرف الجرِّ (مِن)[1].

دلالة الضَّمير في قوله: ﴿قَبْلَهُم﴾:

النّكرةُ الموصوفةُ لها حكمُ المعرفةِ

يعودُ الضَّميرُ على ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾[2]، فيكونُ الضَّميرُ عائدًا على اسم نكرةٍ، أي: ﴿قَوْمًا﴾، وهو في حكم المعرفةِ بما اتَّصف به منَ الوصف في قولِه: ﴿لُّدًّا﴾، وبسبب مقابلتِه للمتَّقين؛ ولأنَّ المقصود معلومٌ بدلالة الواقعِ كما تقدَّمَ.

فائدةُ تقديمِ الظَّرفِ على تمييز ﴿وَكَمْ﴾:

قُربُ إهلاكِ المكذِّبين إن استمرّوا على شركِهم وعنادِهم

قُدِّمَ ظرفُ الزَّمان ﴿قَبْلَهُم﴾ على تمييز ﴿وَكَمْ﴾ الخبريةِ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾؛ لتنبيه المشركين المعاندين إلى زمن إهلاكِ الأمم السَّابقةِ، بوصفِ القبْليَّة، ولمَّا كان لفظُ ﴿وَكَمْ﴾ يفيدُ تكثيرَ إهلاكِ الأمم السَّابقةِ المستلزم إهلاكَ الأمَّة المكذِّبة، ومن جاء بعدَها منَ الأمم المعاندةِ؛ كان التَّعبيرُ بلفظِ ﴿قَبْلَهُم﴾ للتَّنبيه على قربِ إهلاكِهم إنِ استمرّوا على شركِهم وعنادِهم.

سِرُّ مجيءِ تمييز ﴿وَكَمْ﴾ مفردًا:

تنوُّع مناسباتِ مجيءِ التَّمييزِ مفردًا

لَمَّا قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ جاء ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ مميِّزًا لـ﴿وَكَمْ﴾، فكانت ﴿مِّن﴾ بيانيَّةً[3]، وكان التمييزُ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ مفردًا؛ للإشعارِ بأنَّ كثرةَ الإهلاكِ كانت في كلِّ قرنٍ واحدًا واحدًا وليس على المجموع، أي: ليست كثرةُ الإهلاكِ بالنَّظر لمجموعِ القرونِ بل هو كثيرٌ في كلِّ قرنٍ، ففيه مبالغةٌ في التَّخويفِ والتَّرهيب، وفي إفرادِ التَّمييزِ مناسبةٌ لِلإفراد في قوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، وفائدةُ التَّمييزِ في الكلام

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 12/ 253.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 305.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 178.

هي توخّي التَّفصيل بعد الإجمالِ الذي تضمَّنَه لفظُ ﴿وَكَمۡ﴾ لتقرير المعنَى وتأكيدِه، فهو نوعٌ منَ الإطناب لمزيدِ الإيضاحِ والبيانِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿قَرۡنٍ﴾ وتنكيرِه:

اللهُ تعالى لا يُعجزه إهلاكُ الأممِ المغترَّةِ بقوَّتِها الكثيرِ عددُها

لم يقل: (وكم أهلكنا قبلَهم من أمَّةٍ)؛ لأنَّ لفظَ القرنِ مُشعرٌ بالقوَّة[2] لامتدادِ الزَّمن بهم، وهو المناسبُ هنا لوعيدِ القومِ اللُّدِّ المعاندين بالباطل المغرورين بقوَّتِهم، أي: كانوا أشدَّ منهم قوَّةً، وأكثرَ وأوثقَ عدَّةً، فلم يبقَ إلَّا سماعُ أخبارِهم، ومشاهدةُ آثارِهم[3]، ويفيدُ التَّنكيرُ هنا التَّكثيرَ المناسبَ لدلالة ﴿وَكَمۡ﴾ على التَّكثيرِ، والمعنى: (قرنًا كثيرًا)[4].

بلاغةُ الفصل في قولِه: ﴿هَلۡ تُحِسُّ﴾:

تأكيدُ المعنى بطريق الوجدانِ والإحساسِ أبلغُ في تقريرِ المعنى والإذعانِ له

لمَّا كانت جملةُ ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ خبرًا عن هلاك كثيرٍ من الأمم الماضيةِ؛ جاءت جملةُ ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ على الفصلِ لتفيدَ تأكيدَ مضمونِ ما قبلَها وتقريرَه بطريق الوِجدانِ والإحساسِ، فيكونَ أكثرَ إقرارًا وإذعانًا، والمعنى: (لا تحسُّ منهم من أحدٍ، ولا تسمعُ لهم صوتًا خفيًّا)، كما تضمَّنتِ الجملةُ التي جاءت على طريق الفصل معنَى الدّليلِ والحجَّة للجملة التي سبقتْها؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ إذا لم يُحِسَّ منهم أحدًا برؤيةٍ أو إدراكٍ أو وِجدانٍ، ولا يسمعُ لهم رِكزًا - وهو الصَّوتُ الخفيُّ - دَلَّ ذلك على انقراضِهم وفنائِهم بالكُلّيَّةِ[5].

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿هَلۡ تُحِسُّ﴾:

الاستفهامُ بمعنى النَّفيِ لتقريرِ نفيِ الإحساسِ بالقومِ المُهلَكين

الاستفهامُ هنا بمعنى النَّفي[6]؛ ليفيدَ تقريرَ الأمر، أي: لا تحسُّ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 279.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 254.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 284.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 568، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 265، والراغب، المفردات: (هل)، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 305، وإسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 360، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 459.

منهم من أَحَدٍ، ولم يقل: (لا تُحِسُّ) بالنَّفيِ الصَّريح؛ لِما يدلُّ عليه الاستفهامُ من تقليبِ النَّظر المستلزم لِلاعتبار المناسب للاتِّعاظِ بما حصلَ للقوم السَّابقين، وإنَّما قلنا: هو بمعنى النَّفي وليس استفهامًا إنكاريًّا، كما ذهبَ إليه بعضُ المفسِّرين[1]؛ لأنَّ الاستفهامَ جاء لتقرير حقيقةِ إهلاكِ الله للأمم الظَّالمةِ السَّابقةِ من دون أن يدّعي المخاطَبُ، وهو الرَّسولُ ﷺ الإثباتَ، أو أن يكونَ له موقفٌ يخالفُ ما يُخبِر به اللهُ تعالى، بل لا يوجد أحدٌ يدّعي أنَّ عادًا وثمودَ وأصحابَ الأيكة وقومَ لوطٍ لهم أثرٌ ممتدٌّ إلى عصرِ الرِّسالةِ، ويمكنُ حملُ كلام المفسِّرين الذين ذهبوا إلى أنَّ الاستفهامَ إنكاريٌّ على الإنكار الوقوعيِّ[2] لا الإبطاليِّ ولا التَّوبيخيِّ، بمعنى إنكارِ وقوع الشُّعورِ بأحدٍ منهم، ليفيدَ المبالغةَ في النَّفيِ، ولا يستلزمُ أن يكون المخاطَبُ مدَّعيًا خلافَه.

دلالةُ الخطابِ في قولِه: ﴿تُحِسُّ﴾ و﴿تَسْمَعُ﴾:

تصويرُ حالةِ نفيِ الإحساسِ بالمُهلَكين لكلِّ من يتأتّى منه الإحساسُ أبلغُ في الإذعانِ والتَّسليم

الأصلُ في الخطاب أن يكونَ مع معيَّن، وجاء هنا لخصوص النبي ﷺ ويدخل فيه عموم المخاطبين، تَبَعًا لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ وقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، ونُكتةُ التَّعبيرِ بخطاب المفرد تصويرُ حالةِ النَّفيِ لكلِّ من يتأتَّى منه الإحساسُ والسَّمعُ، فهو أبلغُ في الإقرارِ والإذعانِ والتَّسليم.

بلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿تُحِسُّ﴾:

أهمُّ الحواسِّ وأوثقُها حاسَّةُ العين التي بها تكونُ الرّؤيةُ

لَمَّا تعدّى الفعل ﴿تُحِسُّ﴾ إلى المفعولِ ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، وكان الأظهرُ في نفيِ الشُّعور بهم هو رؤيةُ العين؛ كان المعنى: (هل ترى منهم من أحدٍ؟) ليفيدَ نفيَ المعاينةِ والرُّؤيةِ، فيكونَ التَّعبيرُ بالحسِّ عن حاسَّة العين من ذكر الكلِّ وإرادةِ الجزء للمبالغةِ في نفيِ الشُّعورِ بكلِّ الحواسِّ، وأهمُّها وأوثقُها حاسَّةُ العين التي بها تكونُ الرّؤيةُ.

(1) سليمان الجمل، حاشية على الجلالين: 3/ 81، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 178.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 121/ 304.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿تُحِسُّ﴾:

التَّعبيرُ بالحِسِّ دونَ الوِجدانِ لاقتضاءِ المقامِ

عُبّرَ بالحسِّ في قولِه: ﴿هَلۡ تُحِسُّ﴾ للإيذانِ بنفيِ الشُّعورِ بهم وإدراكِهم بأيِّ حاسَّةٍ من الحواسِّ، ولم يقل: (فهل تجدُ؟)؛ لأنَّ المقامَ للحضور الحسّي، وهو إهلاكُ القرون السَّابقةِ، ويدلُّ على الإهلاكِ آثارُهم وبقايا بيوتِهم، كما أنَّ الرِّكزَ لايكونُ إلَّا في المحسوساتِ، والوِجدانُ قد يتعلَّقُ بالمحسوساتِ، وقد يتعلَّقُ بالمعاني، كما أنَّ الوجدانَ يكونُ للعلم المتيقَّنِ، والحسُّ يكونُ لأدنى أثارةٍ من علم، ليكونَ التَّعبيرُ أبلغَ في نفيِ الشُّعور بأيِّ واحدٍ منهم.

نُكتةُ تقديمِ شبه الجملةِ ﴿مِنۡهُم﴾:

لَمَّا تقدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنۡهُم﴾ على المفعول ﴿مِّنۡ أَحَدٍ﴾؛ كان على معنَى الحالِ، أي: هل ترى حالَ كون الإهلاكِ منهم أيَّ أحدٍ، ليفيد التَّقديمُ زيادةَ تقريرٍ لنفي رؤيتِهم.

معنى ﴿مِّنۡ﴾، ونُكتةُ تنكيرِ ﴿أَحَدٍ﴾:

الجرّ والتنكير أفادا تأكيد نفي رؤية المصير

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِّنۡ أَحَدٍ﴾ زائدٌ للتَّوكيد، ليفيدَ النَّصَّ على استغراقِ العُموم لكلِّ أحدٍ، وهو الأنسبُ لمعنى استئصالِهم جميعًا، وقد جاء اللّفظُ ﴿أَحَدٍ﴾ نكرةً ليفيد العمومَ، بمعنى نفيِ رؤيةِ أيِّ واحدٍ منهم.

معنى ﴿أَوۡ﴾:

تفيدُ ﴿أَوۡ﴾ التَّرديدَ بين الأمرَين على معنى منعِ الخُلوِّ، ولمَّا عطفَ السَّمعَ على الحسِّ؛ تأيَّدَ أن يكونَ ﴿هَلۡ تُحِسُّ﴾ بمعنَى هل ترى؟

نُكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

لَمَّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ على ﴿رِكۡزَۢا﴾؛ كان على معنى الحالِ، ليفيدَ التَّقديمُ زيادةَ تقريرٍ للنَّفيِ، اللَّام في: ﴿لَهُمۡ﴾ للاختصاص، بمعنى أن يكون الرِّكزُ منسوبًا إليهم مختصًّا بهم.

التَّعبيرُ بالرِّكزِ أنسبُ بالمقامِ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿رِكۡزَۢا﴾:

عُبِّر بلفظِ ﴿رِكۡزَۢا﴾ دون الهمسِ أو أيِّ لفظٍ يدلُّ على صوتٍ خفيٍّ؛ لأنَّ الرِّكزَ في الأصل لِما يكونُ مستورًا مخفيًّا، ومنه الرِّكازُ للمال المدفون، ولمَّا كان الكلامُ في سماعِ أصواتِ القوم المهلَكين، والذين دُفِنوا، وقُبِروا؛ كان التَّعبيرُ بالرِّكز أولى وأنسبَ بالمقام؛ لأنَّ الرِّكز صوتٌ خفيٌّ ينطلقُ من داخل الأرضِ أو من عمقٍ، كأنْ يكونَ في بئرٍ أو قَبوٍ، فالتَّعبيرُ عن صوتِ مَنْ يكونُ في القبرِ، إنْ عبِّرَ عنه يكونُ بلفظِ الرِّكزِ، وليس بلفظِ الهمسِ، وأفاد مجيء ﴿رِكۡزَۢا﴾ منكرًا: العمومَ، لمجيئه في سياق النَّفي، وفائدتُه نفيُ سماعِ أيِّ صوتٍ خفيٍّ.

من انتهى لازمُ وجودِه انتهى وجودُه

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

نجدُ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ أنَّ نفيَ رؤيتهم وسماع صوتِهم الخفيِّ كِنايَةٌ عَنِ اضْمِحْلالِهم، كُنِّيَ بِاضْمِحْلالِ لَوازِمِ الوُجودِ عَنِ اضْمِحْلالِ وجودِهم[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

اختلافُ القرنِ عنِ القومِ بملاحظةِ الاقترانِ الزَّمني والاعتدادِ في لفظِ القرنِ

القرن والقوم:

القرن اسْمٌ يَقع على من يكونُ مِنَ النَّاس في عصرٍ مُقترنين فيه، ويفيدُ معنى القوَّة والاعتدادِ، فيكونُ معنى الزَّمن ملحوظًا لمعنى الجيل مِنَ النَّاس، والقَوْمُ همُ الرِّجالُ الَّذين يقوم بَعضُهم مع بعضٍ في الأُمور ولا يَقعُ على النِّساء إلَّا على وجه التّبعِ، ولا يُلحظُ في القوم معنى الاقتران في الزَّمن ولا الاعتدادِ[2].

الرِّكزُ والهَمس:

الهمسُ: الصّوتُ الخفيُّ، والأصلُ فيه أن توصفَ به الأقدامُ، وهَمسُ الأقدام أخفى ما يكونُ من صوتِ وطئِها على الأرضِ، ثمَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 178.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 280.

الهمسُ صوتٌ خفيٌّ في الفمِ، والرِّكزُ صوتٌ خفيٌّ يكونُ من عُمقٍ كبئرٍ ونحوِه بحيث لا يكادُ يُسمَعُ لاستتاره

أطلقَ الهمسُ على ما يُسَرُّ منَ الكلام، ويُخفى، ويطلقُ الهمسُ على صوتِ مضَغِ الطَّعام، والفمُ منضمٌّ، فالهمسُ حِسُّ الصَّوْتِ في الفَم مِمَّا لا إِشْرابَ لَهُ مِنْ صَوْتِ الصَّدْرِ ولا جهارَةَ في المَنْطِقِ، ولَكِنَّهُ كَلامٌ مَهْموس في الفَم كالسِّرِّ، وأمَّا الرِّكز؛ فهو الصَّوتُ الخفيُّ الذي يكونُ من عمقٍ كبئرٍ أو غيرِه بحيث لا يكادُ يُسمَعُ لاستتاره[1].

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ركز، همس).

سُورَةُ طه

سُورَةُ طه

التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

الأصحُّ أنَّ سورةَ طه كلَّها مكّيَّةٌ

سورةُ طهَ منَ السّوَرِ المكّيَّةِ عند جمهور العلماء[1].

وهي السّورةُ العشرون في ترتيب المصحف الشَّريفِ، وهو التَّرتيبُ الثَّابتُ، والمُعوَّلُ عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيقِ، جاءت بين سورتَيْ مريمَ والأنبياءِ، وعددُ آياتها مئة وثلاثون وآيتان عند البصريّين، وأربعٌ وثلاثون عند المكّيّين والمدنيّين، وخمسٌ وثلاثون عند الكوفيّين، وأربعون عند الشاميّين[2].

وأمَّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فهي الخامِسَةُ والأَرْبَعونَ في تَرْتيبِ النُّزولِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ مَرْيَمَ وقَبْلَ سورَةِ الواقِعَةِ[3]، والحقُّ أنَّ التَّرتيبَ النُّزوليَّ ليس قطعيًّا في ثبوته لافتقادِه إلى صحَّة الرِّوايات، ومؤازرةِ السّياق.

من فضائل السورة:

في صحيح البخاريِّ عن عبد الله بن مسعود أنَّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: "إنَّهنَّ من العتاق الأوَل، وهنَّ من تلادي"[4].

(1) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 25، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 452، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 532، وذكر بعض المفسّرين استثناء آياتٍ منها، يُنظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 50، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 186، ومثله في: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 180.

(2) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 183.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 180.

(4) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب تأليف القرآن، حديث رقم: (4708)، والعِتاق: جمع عتيق وهو القديم، وكذلك التالد بمعنى القديم، والمراد أنهن نزلن في أول ما نزل من القرآن وهو صغير، يُنظر: مكي، الهداية: 4/ 352.

❁ أسماءُ السّورة الكريمة وسببُ التَّسميَةِ:

اسم هذه السورة هو (طه)، سُمّيت به في جميع المصاحفِ، وكُتُب التَّفسير والسُّنَّة، وهو اسمُها الثابتُ رِوايةً وشُهرةً(1).

وذكر السّيوطيُّ أنَّ بعضهم قال: كادَ القُرْآنُ أَنْ يَكونَ كلُّه موسى، وكانَ أَوْلَى سورَةٍ أَنْ تُسَمَّى به سورَةُ طه أَوِ القَصَصِ أَوِ الأَعْرافِ؛ لِبَسْطِ قِصَّتِه في الثَّلاثَةِ ما لَمْ يُبْسَطْ في غَيْرِها ... فانْظُرْ في حِكْمَةِ ذَلِكَ، وسَمَّاها الهُذَليُّ في كامِلِه سورَةَ موسَى(2).

وذكر السّخاويُّ أَنَّ سورَةَ طهَ تُسَمَّى سورَةَ الكليم(3).

وأمَّا عنِ اعتلاق هذا الاسم المشتهرِ لها بمحور السّورة المرتبطِ ببيان منهجِ القرآن في تحقيق السَّعادة للبشريَّة إن هي اتَّبعت الحقَّ، وعمَّا ينتظرُها منَ الشَّقاء إن هي تنكَّبت الجادَّةَ، فإنَّ تسميتَها بهذَيْن الحرفَيْن المُقَطَّعيْن الدَّالَّيْن على إعجازِ القرآن الكريم، لهو إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآن هو المنهجُ الذي تتحقَّق به سعادةُ البشريَّة، فهو وحدَه السَّببُ في السِّعادة ومخالفتُه هي السَّببُ في الشَّقاء، وهذا ما أكَّدته آياتُ السّورة منذ بدايتها: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: 124 - 126].

يقول البقاعيُّ في محاولة ربطِ موضوع السّورةِ بحروفها التي بدأت بها: "لَمَّا كان ختامُ سورة مريمَ حاملًا على الخوف من أن تهلك أمَّتُه ﷺ قبل ظهور أمرِه الذي أمرَ اللّه به اشتهارَ دعوته، لقلَّة من آمن به منهم؛ ابتدأه سبحانه بالطَّاء إشارةً بمخرجِها الذي هو من رأس اللِّسان وأصولِ الثّنيَّتين العُلويَّتين إلى قوَّة أمرِه وانتشارِه، وعلوِّه وكثرةِ أتباعه؛ لأنَّ هذا المخرجَ أكثرُ المخارج حروفًا، وأشدُّها حركةً وأوسعُها انتشارًا، وبما فيها من صفات الجهرِ والإطباقِ والاستعلاءِ والقلقلةِ إلى انقلابِ ما هو فيه منَ الإسرار جهرًا، وما هو فيه منَ الرِّقَّة فخامةً؛ لأنَّها من حروف التَّفخيمِ، وأنَّه يَستعلي أمرُه، وينتشرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 179.
(2) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 199.
(3) السّخَّاوي، جمال القرَّاء: 1/ 199.

ذكرُه، حتى يُطبّقَ جميعَ الوجود، ويُقلقلَ سائرَ الأمم، بما تشيرُ إليه الهاءُ بمخرجها من أقصى الحلْقِ، على حدِّ بُعدِه من طرف اللِّسانِ مع طولٍ كبيرٍ وتمادٍ كثيرٍ، وبما فيها من صفات الهمسِ والرّخاوةِ والانفتاحِ والاستفالِ والخفاءِ مع مخافةٍ وضعفٍ كبيرٍ، وهدوءٍ وخفاءٍ عظيم، ومقاساةِ شدائدَ كبارٍ، مع نوعِ فخامةٍ واشتهارٍ، وهو وإن كان اشتهارًا يسيرًا يغلبُ هذا الضّعفَ كلَّه، وإن كان قويًّا شديدًا"[1].

الموضوعاتُ الرّئيسةُ للسّورة:

مَـدارُ السّـورةِ حـولَ قصّتيْ موسى وآدم عليهما السلام بما ينسجمُ مع المقصودِ الذي سيقتا لأجلِه

أوّلًا: التّحدّي بالقرآنِ بذكر الحروفِ المقطّعةِ في مُفتتحِها.

ثانيًا: التّنويهُ بأنّه تنزيلٌ منَ اللّه لهدْيِ القابلين للهدايةِ، فأكثرُها في هذا الشّأنِ.

ثالثًا: التّنويهُ بعظمة اللّه تعالى، وإثباتِ رسالةِ محمّد ﷺ بأنّها تماثلُ رسالةَ أعظمِ رسولٍ قبْله شاع ذكرُه في النّاس، فضُرب المثلُ لنزول القرآنِ على محمّد ﷺ بكلام اللّه موسى عليه السلام.

رابعًا: بسطُ نشأةِ موسى وتأييدِ اللّه إيّاه، ونصرِه على فرعونَ بالحجّةِ والمعجزاتِ وبصرفِ كيدِ فرعونَ عنه وعن أتباعِه.

خامسًا: ذكرُ إنجاءِ اللّه موسى وقومَه، وغرقِ فرعون، وما أكرمَ اللّه به بني إسرائيلَ في خروجهم من بلد القِبط.

سادسًا: ذكرُ قصّةِ السّامريّ وصُنعِه العجْلَ الّذي عبده بنو إسرائيلَ في مغيبِ موسى عليه السلام.

وكلُّ ذلك تعريضٌ بأنّ مآل بعثةِ محمّد ﷺ صائرٌ إلى ما صارت إليه بعثةُ موسى عليه السلام منَ النّصر على مُعانديه، فلذلك انتقلَ من ذلك إلى وعيدِ من أعرضوا عنِ القرآن، ولم تنفعْهم أمثالُه ومواعظُه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 256.

سابعًا: تذكيرُ النَّاس بعداوةِ الشّيطان للإنسان بما تضمّنتْه قصّةُ خلقِ آدم.

ثامنًا: رُتّبَ على ذلك سوءُ الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتَهم بيد الشّيطانِ وإنذارُهم بسوء العقابِ في الدّنيا.

تاسعًا: ذكرُ تسليةِ النّبيّ ﷺ على ما يقولونَه وتثبيتِه على الدّين.

وتخلّل ذلك إثباتُ البعث، وتهويلُ يوم القيامة وما يتقدّمُه منَ الحوادثِ والأهوالِ(1).

۞ بيانُ محورِها العامِّ والموضوعاتِ التي تأتلفُ منها وتلتفُّ حوله:

السّورةُ في معانيها ومبانيها تتّجهُ إلى إسعادِ الإنسان

تُغطّي السّورةُ ملمحًا محوريًّا، وهو بيانُ وظيفةِ النَّبيِّ ﷺ وحدود تكاليفِه في تبليغ منهجِ اللّه، وبيانُ سموِّ منزلةِ القرآن الكريم، وأنَّه ليس شقوةً كُتبت عليه، وليس عناءً يُعذَّبُ به، إنَّما هي الدَّعوةُ والتَّذكرةُ، وهي التّبشيرُ والإنذارُ، وأَمرُ الخلقِ بعد ذلك إلى اللّه الواحد الذي لا إله غيرُه، المهيمنُ على ظاهر الكونِ وباطنِه، الخبيرُ بظواهر القلوبِ وخوافيها، الذي تَعنو له الجباهُ، ويرجعُ إليه النَّاسُ، طائعُهم وعاصيهم(2).

ويمكنُ جمعُ ذلك في عنوانٍ جامعٍ، وهو الاتِّجاهُ إلى إسعاد الإنسانِ، وجعلِه يتذوّقُ طعمَ اللَّذة والسّعادةِ حتى في تلاوتِها، فلا تفارقُه لذَّةُ تلاوتِها منذ أن تُطالعَه آياتُها الأولى(3).

وخلاصةُ ما سبق تبيَّن أنَّ المحورَ الرّئيسَ هو تقريرُ أنَّ اتِّباعَ منهج اللّه تعالى يحقِّقُ السَّعادةَ في الدَّارَين، وأنَّ اتِّباعَ منهج الباطلِ يجلبُ الشَّقاءَ في الدُّنيا والآخرة، فكلُّ مقاطعِ السّورة ذاتُ اعتلاقٍ بالمحور الرّئيسِ، وذلك بعلاقة المنهجِ المتّبعِ الموصلِ إلى السّعادة أوِ الشقاءِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 181 - 16/ 182.
(2) شحاته، أهداف كلّ سورة ومقاصدها، ص: 225.
(3) طهماز، محمد عبد الحميد، سبيل السّعادة في سورة طه، ص: 8.

ابتُدِئَتِ السّورةُ بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾ [طه: 2]، فاللّه سبحانه وتعالى يُطمئن رسولَه وأمَّتَه من بعده أنَّ هذا المنهجَ لم يأتِ حتى يشقى النَّاسُ به، إنَّما هو منهجٌ يضمنُ السّعادةَ لمن تبعَه وطبَّقه، وإنَّما هو سببُ السّعادة في الدّنيا والآخرة، ونجدُ هذا بارزًا في القصَّتيْن اللَّتيْن ذكرتهما السّورةُ الكريمةُ.

ففي قصَّة موسى عليه السلام والتي أخذت أكثر من ثلثَي السّورة بيَّنت ما جرى مع قوم موسى عندما تنكَّبوا هذا المنهجَ والعهدَ الذي أُخِذ عليهم، فعبدوا العجلَ الذي صنعه السَّامريُّ لهم، فلحقَهم الشِّقاءُ والتّيه، وكذلك نجدُ في القصَّة الثَّانية التي ذكرتها السّورةُ الكريمةُ لأبينا آدم عليه السلام وما جرى معه في الجنَّة حيث خاطبه ربُّه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]، وهو ما أوصى به ذرّيَّته من بعده: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 123 - 124]، واشتركت القصَّتان في ذكر النّسيانِ سببًا للعصيان، فقالت عنِ السَّامريِّ: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: 88]، وذكرتِ السّورةُ عن آدمَ عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]، وإن كان بين النِّسيانَيْن بونٌ عظيمٌ.

وذكرتِ السّورةُ أنموذجَيْن لأشقى الأشقياءِ منَ الإنس والجنّ، فكان فرعونُ منَ الإنس، وكان إبليسُ منَ الجنِّ، وكان الجامعُ بينهما الإعراضَ عن منهج اللّه، ممَّا أوقعَهم في الشَّقاء، قال تعالى في حق فرعون: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦﴾ [طه: 56]، وقال تعالى في حق إبليس: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾ [طه: 116].

وذكرتِ السّورةُ عقوبةَ المُعرضين عن ذكر اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه: 124 - 126].

۞ بيانُ المناسبةِ بين السّورةِ وسابقتِها ولاحقتِها:

أوَّلًا: إنَّه لمَّا ذكر في سورة مريمَ قصصَ عددٍ منَ الأنبياء والمرسلين، بعضَها بطريق البسط والإطناب كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وبعضَها بين البسطِ والإيجاز

السّورةُ متَّصلةٌ تمامًا بسورتَيْ مريمَ والأنبياءِ مضمونًا وأسلوبًا

كقصّة إبراهيمَ عليه السلام، وبعضها موجزٌ مجملٌ كقصَّة موسى عليه السلام، ثم أشار إلى بقيَّة النَّبيِّين بالإجمال - ذكر هنا قصَّةَ موسى التي أُجملت فيما سلف، واستوعبَها غايةَ الاستيعاب، ثمَّ فصَّل قصَّةَ آدمَ عليه السلام، ولم يذكرْ في سورة مريمَ إلَّا اسمَه فحسب.

ثانيًا: إنَّه روى عنِ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ هذه السّورةَ نزلت بعد سالفتِها، فهي متمِّمةٌ لِما ورد فيها.

ثالثًا: إنَّ أوَّل هذه السّورةِ متَّصلٌ بآخر السّورةِ السَّابقةِ ومناسبٌ له في المعنى؛ إذ ذكر في آخر تلك أنَّه إنَّما يسَّر القرآنَ بلسانه العربيّ المبين، ليكونَ تبشيرًا للمتَّقين وإنذارًا للمعاندين، وفي أوائل هذه ما يؤكِّدُ هذا المعنى[1].

والحقُّ أنَّ السّورتَيْن مكّيَّتان، وقد فصَّلت سورةُ طه ما أجملتْه سورةُ مريمَ منَ الإشارة إلى قصَّةِ موسى عليه السلام، وفصَّلت هنا المرحلةَ الأولى من حياته حتّى خرج من مصرَ، ثمَّ بيَّنت حرصَ موسى عليه السلام على نقل هذا الإرثِ العقديِّ في عائلته: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ [طه: 25 - 35]، وبيَّنت سورةُ طه الشّقاءَ الذي يلحقُ من يتنكَّبُ هذا الإرثَ العقديَّ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه: 124 - 127].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 93.

وأمَّا وجهُ اتِّصالها بسورة الأنبياء؛ فيقولُ البقاعيُّ: لَمَّا خُتِمت طهَ بإنذارِهم بأنَّهم سيعلَمون الشقيَّ والسَّعيدَ، وكان هذا العلمُ تارةً يكونُ في الدُّنيا بكشف الحجابِ بالإيمان، وتارة بمعاينةِ ظهور الدّين، وتارةً بإحلال العذابِ بإزهاق الرّوحِ بقتلٍ أو غيرِه، وتارةً ببعثِها يوم الدّين؛ افتُتِحت هذه بأجلى ذلك، وهو اليومُ الذي يتمُّ فيه كشفُ الغطاء، فينتقلُ فيه الخبرُ من علم اليقينِ إلى عين اليقينِ، وحقُّ اليقين هو يومُ الحساب، فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ [الأنبياء: 1]، أي: عامّةً، أنتم وغيرُكم، ﴿حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1]، أي: في يوم القيامة[1].

وأضاف المراغيُّ: "إنَّ سورة طهَ خُتِمت بأنَّ النَّاسَ قد شغلتهم زهرةُ الدُّنيا التي جعلها اللّه لهم فتنةً، وأنَّ اللّه نهى رسولَه أن يتطلَّعَ إليها، وأمرَه بالصَّلاة والصَّبر عليها، وأنَّ العاقبةَ للمتَّقين - وبُدِئَت سورةُ الأنبياء بمثل ما خُتِمت به سورةُ طه، فذكر فيها أنَّ النَّاسَ غافلون عنِ السَّاعة والحساب، وأنَّهم إذا سمعوا القرآنَ؛ استمعوه، وهم لاعبون، وقلوبُهم لاهيةٌ عنه"[2].

الخصائصُ الموضوعيَّةُ والأسلوبيَّةُ لسورة طهَ

الخصائصُ الموضوعيَّةُ:

أوّلًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمةُ باشتمالِها على القصص في معظم آياتِها؛ إذ شغلت القصَّتان منها نحو مائة وثلاث آيات من أصل مائة وخمس وثلاثين آية في العدِّ الكوفيِّ، فقد ذُكرت قصَّةُ موسى في نحو إحدى وتسعين آية، وذُكِرَ اسمُ موسى عليه السلام سبع عشرة مرّةً في السّورة[3]، من أصل مائة وستّ وثلاثين مرّةً[4]، وهو في هذه السّورة في التَّرتيب الثَّاني في العدد بعد سورةِ الأعراف، والتي ذكر فيها العدد واحدٌ وعشرون مرَّة، ثمّ البقرة ثلاث عشرة مرَّة، وهذا الذِّكرُ من دلالته العنايةُ والاهتمامُ بقصَّة أكثرِ الأنبياء معاناةً وصبرًا على المحن والمصائبِ أثناء اتِّباعِه لمنهج اللّه، فظُنَّ أنَّ الشَّقاء كان في المنهج واتّباعِه، لكنَّ موسى عليه اللام كان في سعادةٍ منَ اللّه وأُنْسٍ ورضًى باتّباعِ منهجِ اللّه تعالى.

وقد تناولت السّورةُ قصَّةَ موسى عليه السلام في أثناء عودتِه إلى مصر بعد غيابه عنها نحوَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 378 - 379.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 3.
(3) في الآيات: 9، 11، 17، 19، 26، 40، 49، 57، 61، 65، 67، 70، 77، 83، 86، 88، 91.
(4) محمد زكي محمد، معجم كلمات القرآن الكريم، ص: 35.

عشرِ سنين، ثمَّ اصطفاءَه بالنُّبوَّة وبتكليم اللّه له، ثمَّ استعرضت جلَّ الأحداث التي جرت معه في مصرَ مع فرعونَ والسَّحرةِ، ثمَّ خروجَه منها بعد فلقِ البحر له ولقومِه، ثمَّ عرضت السّورة باقتضابٍ لِما جرى بينه وبين قومه في التّيه، فكانت المشاهدُ المعروضةُ منَ القصَّة في هذه السّورة متناغمةً مع مقصودِها ومحورِها الذي قامت عليه.

ثانيًا: احتلَّت قصَّةُ آدمَ عليه السلام نحو اثنتي عشرة آية، وانفرد هذا الجانبُ من قصَّة آدمَ عليه السلام بذكر قضايا لم تردْ في غيرها منَ السّوَر، مثل أنَّ اللّه تعالى أخبره أنَّه لن يجوعَ في الجنَّة، ولا يشقَى، وبيَّنت أنَّ سببَ أكلِه منَ الشَّجرة هو النِّسيانُ دونَ العزمِ على المعصية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]، والعجيبُ أنَّ لفظةَ النِّسيان قد تكرَّر ذكرُها في السّورة أربعَ مرَّات، فقد جاءت على لسان موسى عليه السلام، وهو ينفي النّسيانَ عن ربِّه بقوله: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ [طه: 52]، وجاءت في معرض الحديثِ عن صنيع السَّامريِّ مع قومه: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: 88]، وجاءت أخيرًا في الحديثِ عن جزاء المُعرضِ عن ذكر اللّه تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه: 126].

ثالثًا: تفرَّدتِ السّورةُ الكريمةُ كذلك بذكر اسمِ السَّامريّ وقصَّتِه وحوارِه، وهذا لم يرد في أيِّ سورة أخرى، حيث ورد ذكرهُ ثلاث مرَّات[1]، لكنَّ غيرَها منَ السّور ذكرت اتّخاذَ عبادة العجلِ دون تفاصيل صُنعِه، كقوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢﴾ [البقرة: 92]، وفي تفرُّد ذكرِ السَّامريِّ وقصَّته وحوارِه مع موسى عليه السلام ارتباطٌ وثيقٌ مع محورِ السّورة المُرتكزِ على بيانِ أنَّ الكفرَ باللّه يترتَّبُ عليه الشَّقاءُ الدُّنيويُّ والأخرويُّ، حيث تُعدُّ قصَّةُ موسى مع بني إسرائيل في التّيه أنموذجًا لأولئك الذين تنكَّبوا طريقَ السِّعادة، وجلبوا الشَّقاوةَ لهم بكُفرهم وعنادِهم، فالسَّامريُّ وبنو إسرائيلَ الذين عبدوا العجْلَ صنعوا إلهًا لهم بأيديهم ظانّين أنَّ السّعادةَ تتحقَّقُ لهم بتلك الصّنيعةِ، فجلبَ صنيعُهم الشَّقاءَ عليهم في الدّنيا والآخرة.

(1) الآيات: 85، 87، 95.

رابعًا: تميَّزتِ السّورةُ بحديثِها المتنوِّعِ عن يوم القيامةِ من زوايا مختلفةٍ، وذلك على اعتبار أنَّها دارُ سعادةٍ أو شقاءٍ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾ [طه: 15]، وقال عن البعث: ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: 55]، وقال في حقِّ المُعرض عنِ الذِّكر: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾ [طه: 100 - 101]، وقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾ [طه: 102 - 103]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: 124].

الخصائصُ الأسلوبيَّةُ:

أولًا: تفرَّدتِ السّورةُ الكريمةُ في أسلوبها بذكر مادَّة (علا) ومشتقَّاتِها نحو أربع مرَّات، قال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ [طه: 75]، وجاءت لفظةُ (الأعلى) [طه: 68] في سياق مبارزة موسى للسَّحرةِ، قال تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: 68]؛ للدَّلالة على عِظم منهجِ اللّه الموصلِ للسَّعادة، وجاءت لفظةُ ﴿ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾ [طه: 64] الدَّالّ على المبالغةِ - بزيادة الألف والتَّاء - في الاستعلاء بمنهج الشّقاء، في سياق التَّحدّي لفرعونَ وجندِه، قال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾ [طه: 64].

ثانيًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبها بذكر مادَّة (قول) إحدى وستين مرَّة، خمسًا وأربعين مرَّة منها بصيغة الماضي (قال) و(قالا) و(قالوا) و(قلنا)، وستَّ مرَّات بصيغة المصدر (قول)، وخمس مرَّات بصيغة الأمر (قل) و(فقولا)، وخمس مرَّات بصيغة المضارع (تقول) و(يقول) و(يقولون)، وما هذه الكثرةُ إلَّا للدَّلالة على الحوارِ المُقنع بين موسى وفرعونَ، الآخذِ برسْم منهجِ اللّه في السَّعادة، ومنهجِ الباطلِ في الشَّقاء.

ثالثًا: تميَّزتِ السّورة بقصَرِ آياتها، وبتشابه فواصلِها رغم كثرتها، حيث جاءت على الألف الممدودةِ والمقصورةِ، ممَّا يُعطيها إيقاعًا خاصًّا في تلاوتِها وسماعِها، ومن شأن ذلك كلِّه أن يُسهِّلَ حفظَها.

رابعًا: من ميزاتِ السّورة الأسلوبيَّةِ أنَّها تشابهت كثيرًا مع سورة الأعلى في فاصلتِها، وفي ألفاظِها، وفي تراكيبِها، فضلًا عن معانيها كذلك، كما أشار لذلك بعضُ الكتَّاب[1]، فمن بعضِ ذلك:

في سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلى: 1 - 3].

وهنا: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ [طه: 68]، و﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50].

وهناك: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾ [الأعلى: 6 - 9].

وهنا: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ [طه: 52]، و﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾، و﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99] و﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾ [طه: 113].

وهناك: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨﴾ [الأعلى: 17 - 18].

وهنا: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: 127]، و﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: 73]، و﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾ [طه: 133].

وغيرها من المواطن.

خامسًا: تكرَّرت في السّورة بعضُ الألفاظ مثل العَيْن واليمِّ، ففي حقِّ موسى عليه السلام جاء قولُه تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]، وجاء قولُه: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ [طه: 40]، وفي معرض التَّوصيةِ لنبيِّنا ﷺ قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: 131]، فضلًا عن مجيء لفظة ﴿بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه: 35، 125] والتي وردت مرَّتَيْن[2]، وهذا

(1) إبراهيم، عوض، سورة طه: دراسة لغويّة أسلوبيّة مقارنة، ص: 127 - 140.
(2) الآيتان: 35، 125.

يدلُّ على العنايةِ والرِّعايةِ منَ اللّه لمن سار على منهجه، فحقَّق له السَّعادةَ في الدَّارَيْن، وأمَّا كلمةُ اليمِّ؛ فقد وردت أربع مرَّات[1] في سياق قصَّةِ سيِّدنا موسى عليه السلام بما يدلِّل على النِّعم التي سخَّرها اللّه له.

سادسًا: حظيتِ السّورةُ الكريمةُ بألفاظٍ تفرَّدت بها عن غيرها مِنَ السّور من جهة الجَذر والمادَّة، وهذه الألفاظ هي: ﴿ٱلثَّرَىٰ﴾ و﴿فَٱخْلَعْ﴾ و﴿نَعْلَيْكَ﴾ و﴿وَأَهُشُّ﴾ [طه: 18] و﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 39] و﴿تَنِيَا﴾ [طه: 42] و﴿بِلِحْيَتِي﴾ [طه: 94] و﴿زُرْقًا ۝١٠٢﴾ [طه: 102] و﴿أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: 107] و﴿هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه: 108] و﴿وَعَنَتِ﴾ [طه: 111] و﴿ضَنكًا﴾ [طه: 124] و﴿زَهْرَةَ﴾ [طه: 131]، وإنَّ الجامعَ بين هذه الألفاظ الاثنتي عشرةَ التي تفرَّدت بها السّورةُ، أنَّها ذاتُ اتِّصالٍ مباشرٍ بمحورِ السّورةِ القائم على بيانِ أنَّ منهجَ اللّه سعادةٌ، وأنَّ منهجَ الباطل شقاءٌ، فهذه الألفاظُ الفريدةُ ارتبطَ بعضُها بقدرة اللّه وعلْمِه، وبعضُها ارتبطَ بقصَّةِ سيِّدنا موسى عليه السلام على أنَّه الأنموذجُ الأمثلُ لأولي العزمِ منَ الرُّسل في مواجهةِ رمزِ الطُّغيانِ الأكبرِ فرعونَ، في معرضِ الصِّراع بين أهل السِّعادةِ وأهل الشِّقاءِ، وبعضُ هذه الألفاظ ارتبطَ بوعيدِ اللّه تعالى لأهل الشَّقاءِ في يوم الحساب، وبعضُها ارتبط مباشرةً بمنهج أهلِ الشَّقاء، كقوله: ﴿ضَنكًا﴾ [طه: 124] و﴿زَهْرَةَ﴾ [طه: 131].

(1) الآيات: 2، 39، 78، 97.

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ [طه: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ تيسيرِ القرآنِ الذي نَزلَ لسعادةِ النَّاسِ لا لشقائِهم

لَمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى تَيْسيرَ القُرْآنِ بِلِسانِ الرَّسولِ ﷺ، أَيْ: بلُغَتِه، وكانَ فيما عُلِّلَ به قَوْلُهُ: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾؛ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طه﴾: ذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿طه﴾ منَ الأحرف المقطَّعة، وهو القولُ الأنسبُ والمعتمدُ، وذهبَ الطبريّ إلى أنَّ اللّفظ على جهة النِّداءِ، ومعنى ﴿طه﴾ رجلٌ - في اللّغة الأعجميّة - فالتّقديرُ: (يا رجل)، وقيل: هو اسمٌ من أسماء اللّه تعالى، وقيل: اسمٌ من أسماءِ رسولِ اللّه ﷺ، وقيل: أصلُ ﴿طه﴾ طأ، فقُلبتِ الهمزةُ هاءً، فيكونُ اللّفظُ منَ الوطءِ، أو يكونُ ﴿طه﴾ على القراءة المشهورة بمعنى طأها، أي: طَأْ بقدميك الأرضَ، لِما كان يُعانيه ﷺ بكثرة القيام والصَّلاة؛ إذ كان يراوحُ بين قدمَيه من شدَّة التَّعبِ[2].

2) ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على التّعب البدنيِّ المُستدعي لأقصى الطَّاقة، وأصلُ الشَّقاء منَ الشَّاقي وهو حَيْدٌ منَ الجَبل طويلٌ لا يُسْتَطاع ارْتِقاؤُه، فالشّقاءُ هو العناءُ والتَّعبُ الشَّديدُ، ومنه قولهم: شقيتُ في كذا، ولا يُعبَّرُ عنِ التّعب بالشّقاوة إلَّا إذا كان فيه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 309.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 268، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 349، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 5 - 6، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 309.

شدَّةٌ وعناءٌ، والشّقاوةُ خلافُ السَّعادة، وكلُّ شَقاوَةٍ تعبٌ شديدٌ، وليس كلُّ تعبٍ شديدٍ شقاوةً، فالتَّعبُ أعمُّ منَ الشَّقاوة[1].

3) ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾: تارةً يقال، ويرادُ به هيئةٌ للنَّفس بها يمكنُ للإنسان أن يحفظَ ما يَقتنيه منَ المعرفة، وهو كالحفظِ إلَّا أنَّ الحفظَ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشَّيءِ في القلب أوِ القول، والذِّكرُ قد يكون عن نسيانٍ، وقد يكون لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ حفظ، والتَّذْكِرَةُ: ما يُتذكَّرُ به الشَّيءُ، أو تُستذكَرُ به الحاجةُ، وهو أعمُّ منَ الدِّلالة والأمارة، وكثيرٌ من صيَغ (التَّذكير) و(التَّذكُّر) تصلحُ لِما هو ضدُّ النّسيان ولمعنى الوعظِ وهو منه؛ لأنَّه إذا تذكَّر قد يزدجرُ، فيخشى الوقوعَ في الخطأ.

4) ﴿يَخۡشَىٰ﴾: الخشيةُ خوفٌ يشوبه تعظيمٌ وإجلالٌ وتوقيرٌ لمن يخشاه، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾، وفي الخشيةِ معنى التَّنبُّه للخاشي منَ الذي يخشاه، وكلُّ ما في القرآن من مادَّة الخشيةِ؛ فهو بمعنى الخوفِ المَشوبِ بالتَّعظيم والتَّنبُّه لأمرٍ أو أمورٍ[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

القـرآنُ سبيلٌ للسّعادةِ والرَّاحةِ لمن ينتفعُ منه

جاءتِ الآيةُ تسليَةً لرسول اللّه ﷺ عمَّا كان يُلاقيه من جهة المشركين منَ التَّعب والأذى، فيقول اللّه تعالى: ما أنزلنا عليك - يا محمَّد ﷺ - القرآنَ لِنكلِّفك ما لا طاقةَ لك به منَ العمل، ولِتَتْعَبَ بالمبالغة في مكابدةِ الشّدائدِ في مقاولة العُتاةِ وفرْطِ التأسُّف على كفرهم به والتَّحسُّرِ على أن يؤمنوا، ما أنزلنا عليك هذا القرآنَ إلَّا

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شقو).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشيَ).

لتبلِّغ، وتذكِّرَ من يخشى اللّه، فيتَّقيَه بأداء فرائض ربِّه واجتناب محارمِه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النَّفيِ بـ﴿مَآ﴾:

القرآن سبيل السعادة في الدنيا والآخرة للنبيّ وللمؤمنين

لَمَّا كان (ما فعل) نفيًا لـ(لَقد فعل)[2]؛ دلَّ النَّفيُ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾ على أنَّ قولًا قد قيل بأنَّ القرآنَ أورثَ المشقَّةَ لرسولِ اللّه ﷺ، كما ورد أنَّ قريشًا لَمَّا نظرت إلى عيشِ رسول اللّه ﷺ وشظَفِه وكثرةِ عبادتِه؛ قالت: (إنَّ محمدًا ﷺ مع ربِّه في شقاء)[3]، فكان قولُهم بمنزلةِ أن يقال: (لَقد أشقاكَ نزولُ القرآن)، على التّوكيد باللَّام الموطِّئة للقسم.

أو يقال: لَمَّا كان تعبُ رسولِ اللّه ﷺ وجهدُه في تبليغ الدَّعوة والتَّوحيد بمنزلةِ أن يقال له: (لقد أشقاك نزولُ القرآن بفرطِ تأسُّفك عليهم وعلى كفرِهم وعنادِهم، وتحسُّرِك على أن يؤمنوا)؛ جاء النَّفيُ بـ﴿مَآ﴾، وبالجملة فإنَّ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ ردٌّ على ما قد يُتوهَّمُ من أنَّ القرآن فيه شقاءٌ لرسولِ اللّه ﷺ ولمن يتَّبعُه منَ المؤمنين.

بلاغةُ النَّفيِ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾:

القرآنُ لا شقاءَ فيه ولا شقاءَ للعاملين به

لَمَّا وقع الفعلُ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ في سياق النَّفيِ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، وكان الفعلُ بمنزلة الاسمِ النَّكرةِ، وكان نفيُ الإنزالِ منصبًّا على قيدِه، وهو ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ اقتضى عمومَ مدلولِ الفعل مع قيدِه، ليفيدَ نفيَ عمومِ كلِّ إنزالٍ على رسولِ اللّه ﷺ فيه شقاءٌ له، ليلزمَ منه نفيُ كلِّ شقاءٍ يتعلَّق بالمنزَّل، أَيَ: نفيُ جَميعِ

(1) ابن جرير، جامع البيان، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 3.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 255، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 37.

أَنْواعِ الشَّقاءِ، فلا يَكونُ إِنْزالُ القُرْآنِ سَبَبًا في شَيْءٍ مِنَ الشَّقاءِ لِلرَّسولِ ﷺ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإنزالِ دونَ التَّنزيلِ:

نفيُ الشَّقاءِ عن عمومِ القرآنِ يفيدُ أنَّ السَّعادةَ في عمومِ سوَرِه وآياتِه

عبَّر بالإنزال دون التنزيل؛ لأنَّ الإنزالَ يكون دفعةً واحدةً والتَّنزيلَ يكونُ بالتَّدريجِ وعلى دفعاتٍ، فآذن التَّعبيرُ أنَّ القرآنَ كلَّه لم ينزلْ على رسولِ اللَّه ﷺ ليشقَى به، ولو قال: (ما نزَّلنا)؛ لاحتمل أن يكون الحكمُ، وهو نفيُ الإنزال لأجلِ الشَّقاء مخصوصًا بما نُزِّل فعلًا، وأمَّا ما سيُنزَّلُ؛ فقد يكون مُتعِبًا، ويلقَى منه رسولُ اللَّه ﷺ الشَّقاءَ به، فلمَّا أراد نفيَ الشَّقاءِ عن عمومِ القرآن؛ قال: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَنزَلْنَا﴾:

مِن إعجازِ القرآنِ الإخبارُ عنِ المستقبلِ بنزولِه كلِّه كاملًا

لَمَّا كانت السّورةُ مكّيَّةً بالإجماع أو على قولِ جمهور المفسِّرين، وهي ليست آخرَ سوَر القرآن نزولًا بالإجماع قطعًا كان التَّعبيرُ بصيغة الفعلِ الماضي لتنزيلِ ما سيقعُ منزلةَ المتحقَّقِ الوقوعِ؛ للإيذانِ بالقطعِ في أنَّ القرآن سينزلُ كاملًا على رسولِ اللَّه ﷺ، ففيه إشعارٌ بالإعجازِ بالإخبارِ عنِ المستقبل.

فائدةُ إسنادِ الإنزالِ إلى ضميرِ العظمة:

وجوبُ تعظيمِ القرآنِ لأنّ من أنزله له العظمةُ الكاملةُ

لَمَّا أسند الفعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ إلى ضمير العظمة؛ أفاد أنَّ إنزالَ القرآن لا يقدر عليه إلَّا اللَّهُ الملكُ المُطاعُ، وفيه تشريفٌ للقرآنِ وتعظيمٌ له ولإنزالِه، فيُشعر التَّعبير بوجوب تعظيمِه والعنايةِ به؛ لأنّ من أنزله له العظمةُ الكاملةُ.

نُكتةُ تعديةِ الإنزالِ بـ(عَلى):

عُبِّرَ بحرف الجر (على) الذي هو لِلاستعلاء للإيذانِ بعلوِّ مكانةِ القرآن وشرف المنزَّل عليه ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 185.

نُكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعولِ:

إفادةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور الإيجازَ والعنايةَ والتَّخصيصَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعول ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لإظهار الاهتمامِ برسول اللّٰه ﷺ والعنايةِ به، ولإفادة تخصيصِ إنزالِ القرآن على رسولِ اللّٰه ﷺ، وتنحلُّ جملةُ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ إلى جُملتَين من حيث المعنَى، أي: (ما أنزلنا القرآنَ إلَّا عليك، وما أنزلناه عليك لتشقَى)، فأفاد تقديمُ ﴿عَلَيۡكَ﴾ الإيجازَ مع إفادته العنايةَ والتَّخصيصَ.

بلاغةُ الإدماجِ في إنزالِ القرآن:

سَعدَ رسولُ اللّه ﷺ بنزولِ القرآن فأراد إسعادَ البشريّة كلِّها به

لَمَّا نفَى أن يكون إنزالُ القرآن لأجل الشَّقاء؛ كان تخصيص الإنزالِ على رسولِ اللّٰه ﷺ منفيًّا عنه وصف الشَّقاءِ، ليفيدَ الإدماجَ بتضمين الكلامِ جلالةَ قَدْرِ المُنزَل والمُنزَلِ عليه والتَّنويهَ بأنَّ القرآنَ أُنزِلَ على رسولِ اللّٰه ﷺ، وأنَّه هو الذي جاء به، وزاد الأمرَ تقريرًا بقولِه: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾، كما سيأتي.

دلالةُ عوْدِ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡكَ﴾:

الإقبالُ في الخطابِ تسليةٌ للمخاطَبِ وملاطفةٌ له

لَمَّا عُبِّرَ بضمير الخطاب؛ أفاد أنَّ الكلامَ على وجه مخاطبةِ اللّٰه لرسولِه ﷺ، ففيه إشعارٌ بالإقبالِ؛ ليفيدَ الخطابُ تسليةَ الرَّسول ﷺ وملاطفتَه لِما يلقَى منَ المشركين منَ الأذى والعنادِ على كفرِهم وتكذيبِهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾:

القرآنُ الكريمُ جمعَ كلَّ معاني الكتبِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ وزادَ عليها

عبَّر بالاسم العلَم على الكتابِ المنزَّل على سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ للإشعار بخَصوصيَّةِ المنزَّل، وأنَّه قد جمع كلَّ معاني ما في الكتبِ السَّالفةِ منَ الأحكام أصولًا وفروعًا، والمواعظِ والرّقائقِ، والمعارفِ والآدابِ، وأخبارِ الأولين والآخرين، ومصالحِ الدَّارين، وزيادته عليها بما شاء اللّٰه؛ لأنَّ كثرةَ الأمَّة على قدرِ جلالة الكتابِ، فهو

أعظمُ الكتب والجامعُ لكلّ خيرٍ، والدَّافعُ لكلّ ضيرٍ، وهو الذي يسّرناه بلسانك[1].

معنَى اللّامِ في ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾:

الشّقاءُ كلُّ الشّقاءِ في إعراض المشركين عن هدايات القرآن

عبَّرَ بلام التَّعليلِ دون أن يقول: (لأن تشقى)؛ للإيذانِ بأنَّ الشَّقاءَ لم يكن واقعًا وللنَّصّ على أنَّ إنزال القرآن عليك ليس لأجل أن تشقَى به، وللإشعارِ بأنَّ مآلَ ما كان يحصلُ لرسولِ اللّه ﷺ من المبالغة في التَّبليغ وشدَّةِ أسفِه وحزنِه من إعراضِ قومِه عنِ القرآن والإيمانِ هو الشَّقاءُ، ولو قيل: (لأن تشقى)؛ لأفاد أنَّ الشقاءَ قد وقعَ، وهو لا يناسبُ نزولَ القرآن، وليس له صلةٌ به[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾:

إنزالُ القرآنِ سعادةٌ للمؤمنين الذين يَخشون ربَّهم ويَخافون عقابَه

لَمَّا كان الشَّقاءُ هنا بمعنى التَّعبِ الشّديد والعناءِ، وكان نفيُه لازمًا لإفادة ضدِّه؛ أفاد التَّعبيرُ بـ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ نفيَ أن يكون إنزالُ القرآن مورِثًا أيَّ نوعٍ من أنواعِ التَّعب الشَّديد والعناء، ليشملَ التَّعبَ الجسديَّ والنَّفسيَّ، وأفاد بلازمِه أنَّ إنزالَه سعادةٌ للمؤمنين الذين يَخشون ربَّهم، ويَخافون عقابَه.

بلاغةُ حذْفِ متعلِّقِ الفعلِ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾:

نفيُ الشَّقاءِ الرّوحيِّ والجسديِّ عنِ العملِ بالقرآن

لَمَّا حُذفَ متعلِّقُ الفعل ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ أفاد العمومَ، والمعنى: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى بفرطِ تأسُّفك عليهم وعلى كفرِهم وعنادِهم، وتحسُّرك على أن يؤمنوا)، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الكهف: 6]، ولتشقَى بحملِ النَّفسِ على الشّدائدِ والمُؤَنِ العظامِ وإجهادِها حتَّى تصلَ إلى حدِّ الشّقاءِ، فيكونَ اللّفظُ قد جمع بين التَّعبِ الرّوحيِّ والجسديِّ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 266.

(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 353.

فائدةُ الجملةِ الخبريَّةِ في الآية:

الحـــثُّ على الاجتـهادِ في تبليغِ القرآنِ بشرطِ ألّا يصلَ إلى حدِّ الشَّقاء

في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ يحتملُ المعنى: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لتتعبَ في حياتِك ولتتأسَّفَ على كفرِهم ولِتبلغَ منَ الجهد ما بلغتَ)، ففي النَّفيِ معنى النَّهيِ، أي: (لا تُتْعِبْ نفسَك تعبًا تصلُ به إلى حدِّ الشّقاءِ في العبادة والدّعوةِ)، فيكونُ المرادُ طلبَ الاجتهادِ في التّبليغ والتَّذكير بألّا يصلَ إلى حدِّ الشّقاء، أي: (ما عليك إلَّا أن تبلِّغَ، وتذكِّرَ، ولم يَكتبْ عليك أن يؤمنوا لا محالةَ)، ويَحتمِلُ وجهًا آخر: وهو أنَّ الكفَّارَ لمَّا عيَّروا رسولَ اللّه ﷺ أنَّ اللّه تعالى ألزمَه اجتهادًا بالتَّبليغ والتَّذكرةِ يشقَى به في دنياه بالتّعب والسّهرِ، أو أرادوا أن يُنفِّروه، ويُنفِّروا أتباعَه؛ أنزل اللّه تعالى هذا يبيِّنُ له أنَّ القرآن ليس سببًا للشَّقاء بل هو يَسعدُ به، ويَقتدي به غيرُه، فيكونُ له مثلُ أجورهم، فالشَّقاءُ الذي تتوهَّمونه بالتَّبليغ والعبادةِ هو نعيمُ النَّفس ولا شقاءَ مع ذلك، فيكون هذا أمرًا بالثّبات على التَّبليغ والعبادةِ والازديادِ منهما[1].

نُكتةُ العُدولِ عن نفيِ التَّعب إلى نفيِ الشَّقاءِ:

لم ينزلِ القرآنُ إلاّ لإسعادِ البشريّة الحائرة

نُكتةُ العُدولِ عن أن يقول: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لِتَتعبَ أو لِتَعْنَى) إلى أن يقول: ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ للإشعار بأنَّه أنزل عليه ليسعدَ، فإنَّ نفي الشَّقاء يتبادر منه ثبوتُ ضدِّه، وهو السّعادةُ، وهذا من أسرار البلاغة القرانية؛ فلمَّا نفَى أن يكون إنزالُه للشقاوة؛ دلَّ على أنَّ إنزالَه للسَّعادة وهي جامعةٌ لكلِّ مرادٍ، والمعنى: (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقَى، بل أنزلناه لتسعدَ به في الدُّنيا والآخرةِ)[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 267، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 258 - 259، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 22، والشهاب، حاشية على البيضاوي: 6/ 325.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 267، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 258 - 259، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 22، والشهاب، حاشية على البيضاوي: 6/ 325.

من لم يؤمنْ بالقرآن، ولم يعملْ به، فهو الشَّقيُّ حقًّا

تنوُّعُ وجهَي الاستثناء يقتضي تنوُّعَ المعنَى

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ أفاد هذا الخبرُ بلازمِه أنَّ من لم يؤمنْ بالقرآن، ولم يعملْ به؛ فهو الشَّقيُّ حقًّا، وأنَّ السَّعادةَ لا تكونُ بدون القرآن.

معنَى الاستثناء في ﴿إِلَّا﴾:

للاستثناء في الآية وجهان: **أحدُهما** أن يكونَ تقديرُ الكلام: ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى، ما أنزلناه إلا تذكرةً لمن يخشى، فأضمر (ما أنزلناه) لدلالةِ ما قبْله عليه، ليكونَ الاستثناء مُفرَّغًا، ويكونَ استثناءً من أعمِّ أحوالِ تنزيلِ القرآن، أي: ما أنزلناه في أيِّ حالٍ من الأحوالِ ليشمل نفيَ حالِ الشَّقاءِ والتَّعبِ إلَّا تذكرةً لمن يخشَى، فيفيد الاستثناءُ بـ﴿مَآ﴾ و﴿إِلَّا﴾ القصرَ الادِّعائيّ، ويكون من قصرِ الموصوف على الصّفة، تعظيمًا لما في القرآن منَ التَّذكرة بمواعظِه وبيانِه، ويكونَ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾ و﴿تَذۡكِرَةً﴾ متعلِّقًا بفعلٍ مضمرٍ تقديرُه: (ما أنزلناه)، دلَّ عليه المذكورُ، **والثَّاني**: أن يكونَ ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً﴾ متعلِّقًا بالفعلِ المذكورِ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾، فيكونَ الاستثناءُ منقطعًا؛ لأنَّ التّذكرةَ ليست منَ الشَّقاوة في شيءٍ، لاختلاف جنسِ التَّذكرة عن جنس الشّقاوةِ، فلا يكون قولُه: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾، استثناءً لشيءٍ من قوله: ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾، والمعنى: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى، لكن أنزلناه تذكرةً لمن يخشى)، فيكونُ ﴿تَذۡكِرَةً﴾ متعلِّقًا بالفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾ الذي دلَّ عليه السّياقُ، ولا يكونُ في الكلام قصرٌ، فإن قيل: مَنِ المُذَكِّرُ؟ فجوابُه: أنَّه على الوجه الأول، - أي الاستثناءُ مفرّغ - : يكونُ المذكِّر هو اللّهَ تعالى المنزِّلُ القرآنَ، وعلى الوجه الثاني، - أي الاستثناءُ منقطع - : يشملُ المُنَزِّلَ، وهو اللّه جلَّ ذكرُه، والمُنَزَّلَ عليه، وهو رسولُ اللّه محمَّدٌ ﷺ[1].

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 174، والواحدي، البسيط: 14/ 352، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 399.

التَّوجيه النَّحويُّ لقوله: ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾:

مَن يخشَى الله يداومُ على قراءة القرآنِ واستحضارِ معانيه

يحتمل أن يكون قولُه: ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ مفعولًا لأجلِه للفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾ المقدَّرِ، أي: ما أنزلناه إلَّا تذكرةً، أو لكنْ أنزلناه تذكرةً، وفائدةُ ذكرِ الغاية من تنزيلِ القرآن بيانُ أهميَّةِ القرآن ليكونَ تذكرةً للمؤمنين، ولمن يخشى اللّه تعالى، بالمداومةِ على تذكُّره بقراءته واستحضار معانيه، وذهب بعضُهم إلى أنَّه مَصۡدَرٌ في موضع الحالِ من ضميرِ الفعل المقدَّر (أنزلناه)، أي: أنزلنا القرآن حالَ كونِه مذكِّرًا، وعبَّر بصيغةِ المصدر للمبالغة، فكأنَّ القرآن عينُ التَّذكرة، أو يكونُ حالًا منَ الكاف في عليك، ليكون المُذَكَّرُ هو رسولُ اللّه ﷺ(1).

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾:

التَّوحيدُ مُسْتَقِرٌّ في الفِطْرَة والإشراكُ مُنافٍ لَها

لمَّا كان لفظُ التَّذكرةِ يفيدُ خطورَ الشَّيء بعدَ نسيانه وإدامةَ حفظِه والوعظَ به؛ عبَّرَ بلفظ ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ للإشعار بأنَّ اللّه تعالى أنزل القرآن ليذكِّر النَّاسيَ بما استقرَّ في فطرته منَ التَّوحيد، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ التَّوحيدَ مُسْتَقِرٌّ في الفِطْرَة، والإشْراكُ مُنافٍ لَها، فالدَّعْوَةُ إلى الإسْلامِ تَذْكيرٌ لما في الفِطْرَةِ أوْ تَذْكيرٌ لِمِلَّةِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ(2).

معنَى اللَّام في ﴿لِّمَن﴾:

مَن يخشَى الله هو المُنتفِعُ بالقرآنِ

تحتملُ اللَّام أن تكونَ للاختصاص، وخُصَّ الخاشي بالتَّذكرة، وإن كان الإنذارُ والتَّبليغُ للكلِّ؛ لأنَّ الخاشيَ هو المنتفِعُ بالتَّذكير بالقرآن، وهو كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 45]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ [النازعات: 45]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: 11]، فيكونُ من باب تنزيلِ غيرِ المنتفعِ بالتَّذكرة بالقرآن منزلةَ العدمِ، وظاهرُ كلامِ الزَّمخشري أنَّ اللَّام للعاقبة، أي: هو تذكرةٌ لمن يؤول أمرُه

(1) العكبري، التبيان: 2/ 884، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 22، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 311.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 185.

إلى الخشية؛ لأنَّ القرآن تذكيرٌ للنَّاس كلِّهم الخاشي وغيرِ الخاشي، وخُصَّ الخاشي؛ لأنَّه المنتفعُ به[1].

معنى ﴿لِّمَن﴾:

من نعمِ الله على أمَّةِ سيِّدنا محمَّدٍ كثرةُ الخاشين فيها

يفيدُ الاسمُ الموصولُ العمومَ لكلِّ من يخشى، فيَدْخُلُ في العموم الرَّسولُ ﷺ دخولًا أوَّليًّا؛ لِأَنَّهُ في الخَشْيَةِ والتَّذْكِرَةِ بِالقُرْآنِ فوْقَ الكُلِّ، فيكونُ ذكرُ لفظِ العموم إيماءً إلى كثرة الخاشين في هذه الأمَّةِ[2].

دلالةُ لفظِ ﴿يَخْشَىٰ﴾:

لا خشيةَ نافعةٌ يومَ القيامةِ من غير انتفاعٍ بالقرآن

قد يقالُ: إذا كانت الخشيةُ حاصلةً؛ فما فائدةُ أن يكون القرآنُ مذكِّرًا لمن يخشى؟ وجوابُه: أنَّ المرادَ منَ الخشية المُسْتَعِدُّ لِلتَّأَمُّلِ والنَّظَرِ في صِحَّةِ الدِّين، وهوَ كُلُّ مَنْ يُفَكِّرُ لِلنَّجاةِ في العاقِبَةِ، فالخَشْيَةُ هُنا مُسْتَعْمَلَةٌ في المَعْنَى العَرَبيِّ الأَصْليِّ[3]، ويكونُ القرآن حينئذٍ نافعًا في تحصيلِ الخشيةِ التي هي منَ الإيمانِ، أو أنَّ المرادَ من يؤولُ أمرُه إلى الخشيةِ، كما ذهب إليه الزَّمخشريُّ في توجيه أن تكونَ اللَّامُ للعاقبة في قولِه: ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَخْشَىٰ﴾:

استمرارُ الخشيةِ وتجدُّدُها دليلُ الانتفاعِ بالقرآن

عبَّر بصيغة المضارع لإفادةِ الحثِّ على استمرارِ الخشية وتجدُّدِها حالًا فحالًا؛ لأنَّها أمارةُ الانتفاعِ بالقرآن.

بلاغةُ حذفِ مفعول ﴿يَخْشَىٰ﴾:

حذفُ المفعول لتكثير المعنَى مع مُراعاةِ الفاصلةِ

يحتملُ أن يكون حذفُ المفعول لإفادة العموم، بمعنى أنَّ القرآن تذكرةٌ لمن يخشى اللّه، ويخشى عقابَه، أي: يخشى كلَّ ما ينبغي الخشيةُ منه، أو يكون المفعولُ مقصودًا معلومًا، لجلائه ووضوحه، أي: (يخشى اللّه)، وقد حُذفَ لدلالة السّياق عليه، كما يحتملُ أن

---

(1) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1391، والزمخشري، الكشاف: 3/ 51، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 37، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7، والشهاب، حاشية على البيضاوي: 6/ 327.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

يكون الحذفُ لإثبات معنَى الخشيةِ في نفسِها للخاشي، أي: إنَّ اللّٰه تعالى أنزل القرآن تذكرةً لمن هو من شأنِه أن يكونَ خاشيًا، أو أنزلَه تذكرةً لمن لا يكونُ منه إلَّا الخشيةُ، كما أنَّ في حذف المفعولِ إيجازًا ورعايةً للفاصلةِ.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

مَـنْ لـم يؤمـنْ بـالـقـرآن ولـم يـنـتـفـعْ بـه لا خشيةَ له وإنِ ادَّعاها

في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ لَمَّا جاء الكلامُ بالقصر على أنَّه تعالى ما أنزل القرآنَ إلَّا تذكرةً لمن يخشى، أوِ المعنى: (ما أنزلناه لتشقى لكن تذكرةً لمن يخشى)، أفادَ بلازمِه أمرين: **أحدُهما**: التَّنويهُ بِشَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنَّهُم كانوا مِنْ أَهْلِ الخَشْيَةِ، ولَوْلا ذَلِكَ؛ لَما ادَّكَروا بِالقُرْآنِ[1]، **والثَّاني**: نفيُ أصلِ الخشيةِ وحقيقتِها عمَّن لم ينتفع بالقرآن، ولم يعملْ به.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّنك والشَّقاء:

الـشَّـقـاءُ يـعـمُّ الـرّوحَ والجسدَ والضَّنكُ مختصٌّ بالجسدِ

الضَّنكُ هو الضّيقُ والشِّدّةُ مطلقًا، وكلُّ ما ضاقَ؛ فهو ضَنْكٌ، ومنه ضَنَكَتْ عيشتُه، أي: ضاقت، وأمَّا الشَّقاءُ؛ فهو ضدُّ السّعادة، ويُعبَّر به عنِ التَّعب الشَّديد والعناءِ؛ ليشمل الشَّقاءَ الجسديَّ والرّوحيَّ، وقد يكونُ الشَّقاء لضنكِ العيش أو لغيره، فالشَّقاء أعمُّ منَ الضَّنك، والضدُّ بالضِّد كذلك، أي: السَّعادة أعمُّ منَ السَّعة في العيش[2].

الخشية والخوف:

الخوفُ أعمُّ منَ الخشيةِ

الخوفُ: فراغُ باطنٍ قريبٌ من الرُّعْب والفَرَق، وأمَّا الخشيةُ؛ ففيها استشعارُ النَّفس حِدَّةً تقعُ لا مَهرَبَ منها؛ إذا اسْتوجبَت، والخشيةُ: خوف يشوبُه تعظيمٌ، وفي الخشية معنى التَّنبُّه للخاشي مِنَ الذي يخشاه، ففي الخوف تتألَّم النّفسُ منَ العقاب المُتوقَّع،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 184.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شقي، ضنك).

والخشيةُ حالةٌ تحصلُ عند الشّعورِ بعظمةِ الذي يُخشى منه، كما أنَّ الخوفَ يتعلَّقُ بمن يفعلُ المكروه، وبما لا يكونُ منه مكروه، تقول: خِفتُ زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النَّحل: 50]، وتقول: خِفتُ المرضَ، والمرضُ لا يكونُ منه مكروهٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، والخشيةُ تتعلَّقُ بمن يفعلُ المكروهَ، فيقال: خشيتُ اللّه، ولا يقال: خشيتُ عقابَ اللّه، ويقال: خشيت زيدًا، ولا يقال: خشيت ذهابَ زيدٍ، ولا يسمَّى الخوفُ من نفس المكروه خشيةً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]، فعلَّق الخشيةَ به سبحانَه والخوفَ بسوءِ الحساب، فالخوفُ أعمُّ منَ الخشية[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 4 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تعظيمُ القرآنِ يقتضي تعظيمَ منزِّله

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى السّببَ الذي لأجلِه أنزل القرآنَ أعقبه بالإشارة إلى تفخيم هذا المنزَّلِ لنسبتِه للمتفرِّد بصفاتِه وأفعالِه، فقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾، ولمَّا وصف ذاتَه سبحانه بالقدرةِ العظيمةِ؛ أعقبَه بذكرِ ما هو أعظمُ الخلقِ وأجلُّه، فأخبرَ عن عظمتِه وكبريائِه، المقتضي تعظيمَ القرآنِ المنزَّلِ ليكونَ على وجه التَّرقّي في بيانِ عظمتِه سبحانه، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعُلَى﴾: يدورُ معنى الكلمة على السّموِّ والارتفاع بحيث يكونُ فوق شيءٍ هو تحته أو أدناه، والعلوُّ: ضدُّ السُّفل، ومنه قولُهم: تَعالى النَّهارُ، أي: ارْتَفَعَ، وتَعالى اللّه سبحانه، بمعنى: تَرَفَّع، فتنزَّه في ألوهيَّتِه، ويُقالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَعْلو: عَلا يَعْلو، فإنْ كانَ في الرِّفْعَةِ والشَّرَفِ؛ قيلَ: عَلِيَ يَعْلَى، والعُلَى جمعٌ، مفردُه العُلْيا للمؤنَّث، ومذكَّره الأعلى، كالأكبر والكُبرى[1]، و﴿ٱلْعُلَى﴾ في الآية بمعنى الأشرفِ والأرفع والأفضل بالإضافة إلى هذا العالم[2].

2) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾: يَدُلُّ العرشُ على ارْتِفاعٍ في شيءٍ مسقَّفٍ، وجمعُه عُروشٌ، وسمّيَ مجلسُ السُّلطانِ أو الملك عَرْشًا اعتبارًا بعُلوِّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، ثُمَّ يُسْتَعارُ العرشُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علا).
(2) الراغب، المفردات: (علا)، وابن الهائم، التبيان، ص: 226.

في غَيْرِ ذَلِكَ، فكُنّي به عنِ العزِّ والسُّلطان والمملكةِ، قيل: فلان ثُلَّ عَرْشُهُ، وعَرْشُ اللّه: ما لا يعلمه البشرُ على الحقيقة إلَّا بالاسم، وليس كما تذهبُ إليه أوهامُ العامَّة، فإنَّه لو كان كذلك؛ لكان حاملًا له تعالى عن ذلك لا محمولًا[1].

3) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: يَدور معنى الكلمة على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هَذا لا يُساوي كَذا، أَيْ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هَذا الأَمرِ، أَيْ: سَواء، ومِنَ البابِ السَّواءُ: وسَطُ الدَّارِ وغَيْرِها، وسُمّيَ بِذَلِكَ لِاسْتِوائِه، واسْتَوَى يقال على وجهين: **أحدُهما:** يُسنَدُ إليه فاعلان فصاعدًا، نحو: اسْتَوَى زيد وعمرو في كذا، أي: تَساوَيا، **والثَّاني:** أن يقال لاعتدال الشّيء في ذاته واستقامته، ويختلفُ معنَى (استوى) باختلاف حرف الجرِّ المتعلِّق به، فإذا قيل: (استوى إلى) كان بمعنى عمدَ وقصدَ، وإذا قيل: (استوى على)؛ كان بمعنى العلوِّ أوِ الاستيلاء والتَّمكُّن[2]، هذا من حيث اللّغة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّنويهُ بالقرآنِ بِذكرِ عظيمِ خلقِ الله وقُدرتِه العظيمةِ

يقولُ تعالى ذكرُه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: هذا القرآن نُزِّلَ عليك تنزيلًا من ربِّك الذي خلق الأرضَ، والسّماواتِ العُلا، والمرادُ بهما ما في جهة السُّفلِ والعلوِّ، ويستتبع ذلك كلَّ ما يتعلَّقُ بهما، وهو الرَّحمنُ على عرشه ارتفع وعلا على ما يليقُ بجلالِه وقدْرِه.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿تَنزِيلًا﴾:

لَمَّا كان لفظُ ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدرًا كان على معنى التّأكيد لفعلٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوي).

تقريرُ التَّنويه بالقرآن للعنايةِ به

محذوفٍ تقديرُه: (نُزِّلَ تنزيلًا)، لتكونَ الجملةُ تأكيدًا وتقريرًا لمضمون قولِه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، ويحتملُ أن يكون منصوبًا على الحالِ من ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾، فيكونَ حالًا ثانيةً للقرآن بعد الحال الأولى في قولِه: ﴿تَذْكِرَةً﴾ على القولِ بأنَّه حالٌ - كما تقدَّم - كما يحتمل أن يكونَ منصوبًا على المدحِ، أي: مدحًا لتنزيلِ القرآن المتضمِّن مدحَ المنزَّل، وعلى الأوجه الثلاثة، فإنَّ تنكيرَ المصدر ﴿تَنزِيلًا﴾ فيه من الإيذانِ بفخامةِ التَّنزيل ما لا يخفى[1]، والمَقصودُ التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ والعِنايَةُ به.

نُكتةُ العُدول في قولِه: ﴿تَنزِيلًا﴾:

نـزل القـرآن مُنجّمًا لحِكَمٍ عظيمةٍ منها التَّرفُّقُ بالمؤمنين وتيسيرُ العملِ به

لمَّا قال اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾؛ كان الظَّاهرُ أن يقال: (إنزالًا ممن خلقَ الأرض)، فعُدِلَ إلى ﴿تَنزِيلًا﴾ الذي هو مصدرُ (نزَّلَ) للإشارةِ إلى أنَّه كما أنَّ خلقَه العظيمَ للأرض والسَّماوات العُلا يُؤذِنُ بالحكمة، وكان تدريجًا؛ فإنَّ تنزيلَ القرآن بالتَّدريج هو بحكمةٍ أيضًا، فيتمهَّلُ اللّه تعالى على عبادِه في التَّنزيل ترفُّقًا بهم، وتيسيرًا للعملِ به، وإزالةً لشُبَهِهم، وشرحًا لصدورِهم، وتسكينًا لنفوسِهم، ومدًّا لمدَّة البركةِ فيهم بتردُّد الملائكةِ الكرام إليهم، وأمَّا التَّعبيرُ بالإنزالِ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾؛ فلأنَّه كان السّياقُ في بيانِ أنَّه أنزله كلَّه لينذرَ به، ويبشِّرَ، لا ليشقى، والقرآنُ كلُّه تذكرةٌ، فكان التّعبيرُ بالإنزال في موضعه منَ النّزول في جملتِه لا في تفصيله، أمَّا هنا؛ فإنَّه يَحكي الواقعَ، وهو التَّنزيلُ شيئًا فشيئًا[2].

معنَى (مِنْ) في ﴿مِّمَّنْ﴾:

ابـتـداءُ نـزول الـقـرآن من عـنـد العظيم سبحانه

تفيدُ (مِنْ) الابتداءَ، بمعنَى: أنَّ ابتداءَ تنزيلِه منَ اللّه الذي خلقَ الأرضَ والسّماوات العلا، للإشعارِ بعظمةِ المنزِّل ﷻ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 267، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4705.

بلاغةُ التّعبيرِ في قولِه: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾:

نصرُ الله وتأييدُه لعباده القائمين بتبليغِ القرآن

عبَّر بالاسمِ الموصولِ (مَنْ) لِما تُؤْذن به الصِّلةُ من تعظيم الموصولِ الذي ابتدأ تنزيلُ القرآن منه سبحانَه؛ ليَنْتَقِلَ مِنْ ذَلِكَ إِلى الكِنايَةِ بِأَنَّ الَّذي أَنْزَلَهُ عليْكَ بِهَذِه المنزلةِ منَ العظمة والقُدرة، فلا يَتْرُكُ نَصرَكَ وتَأْييدَكَ في تبليغِ القرآن، كما يُؤذن التَّعبيرُ بالاسم الموصول (مَنْ) أنَّ الذي خلقَ الأرضَ والسّماواتِ واحدٌ أحدٌ، فيتحتَّمُ إفْرادُه بِالعِبادَةِ[1]، وأفادتِ الصِّلةُ التي تكونُ معلومةَ الانتساب عند المخاطَبين إلى مشارٍ إليه معيَّنٍ أنَّ المخاطَبين جميعًا يعلمون أنَّ اللّه هو الذي خلقَ الأرضَ والسّماواتِ وما بينهما، أو أنَّه نُزِّلَ منزلةَ المعلومِ لشدَّةِ وضوحِه.

التَّوجيه النَّحويُّ في الآية:

تعظيمُ القرآن يوجبُ العنايةَ بـه بـتـدبُّـرِه والـتَّـأمُّـلِ في معانيه وحقائِقِه

نجدُ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أنَّه لَمَّا جاءت هذه الجملةُ متعلِّقةً بقولِه ﴿تَنزِيلٗا﴾ أفادت تعظيمَ شأنِ المنزَّلِ وتفخيمَهُ، وهو القرآنُ بالدَّليلِ والحُجَّةِ، فإنَّه لَمَّا نسبَه إلى أنَّه تنزيلٌ ممَّن خلق الأرضَ، وخلقَ السّماوات على علوِّها؛ أفاد تعظيمَ اللّه تعالى الذي يظهر بِتَعْظيمِ خَلْقِه ونِعَمِه، ولَمَّا عظَّم اللّه تعالى؛ دلَّ على تعظيم المنزَّلِ، وإنَّما عَظَّمَ القُرْآنَ تَرْغيبًا في تَدَبُّرِه والتَّأَمُّلِ في مَعانيه وحَقائِقِه، وذَلِكَ مُعْتادٌ في الشَّاهِدِ، فإِنَّهُ تَعْظُمُ الرِّسالَةُ بِتَعْظيمِ حالِ المُرْسَلِ؛ ليَكونَ المُرْسَلُ إِلَيْه أَقْرَبَ إِلَى الامتِثالِ[2].

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

تـنـوُّعُ دلالاتِ الالتفاتِ وبراعةُ معانيه

انتقل الكلامُ من لفظِ المتكلِّم بنون العظمةِ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ إلى لفظ الغائب بذكر الاسم الموصول (مَنْ) في قولِه: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7.

﴿ٱلۡعُلَى﴾، فجاءت نسبةُ التنزيلِ إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة؛ لِبيان فخامتِه تعالى بحسب الأفعالِ بذكر خلق الأرضِ والسماوات العلا، وبحسبِ الصِّفات بذكرِ الاستواءِ على العرشِ إثرَ بيانها بحسب الذَّاتِ عند التَّعبيرِ بنون العظمة، ليكون الكلامُ بطريق الإبهامِ ثمَّ التّفسيرِ، وفوائدُه أمورٌ؛ **أحدُها**: التَّفنُّن في الكلام وتصريفِ القولِ وما يُعطيه منَ الحسن والرّوعة، **وثانيها**: زيادةُ تحقيقٍ وتقريرٍ بمجيء الكلام على الإطناب بذكرِ عظمة الخلقِ، **وثالثُها**: أنَّه عبَّر بضمير المتكلِّم بنون العظمة ليكونَ من قبيل التَّسليةِ والملاطفةِ والرِّفقِ بالنَّبيِّ ﷺ، وهو الذي يكونُ منه التَّكليف، فكأنَّه سبحانه يقول - ولكلامه المثلُ الأعلى -: (ما أنزلتُ القرآنَ، وكلَّفتُكَ ما فيه لتشقَى، فهوِّن عليك، ولا تأسَ على القوم الكافرين)، وأمَّا في هذه الآية؛ فهو يبيِّن صفاتِه سبحانَه وأفعالَه، فيناسبُها حديثُ الغَيْبَة، **ورابعُها**: تفخيمُ المنزَّل من وجهين إسنادِ إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأنِ المطاعِ، فقال أوَّلًا: ﴿أَنزَلۡنَا﴾، ثم ثنَّى بالنِّسبة إلى المختصِّ بصفات العظمةِ والتّمجيد، لِلتَّنبيه على أنَّه واجبُ الإيمان به والانقيادُ له من حيث إنَّه كلامُ من هذا شأنُه، فضوعِفتِ الفخامةُ من طريقين[1].

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الله خالقُ الأرضِ التي تُقلُّ النَّاسَ والسّماءِ التي تُظلُّهم

(أل) في الموضعين للعهدِ، أي: الأرضُ المعهودةُ لكم بالعيش فيها والسّماواتُ المعهودةُ التي ترونها فوقكم، ليفيدَ أنَّ خلقَهما واضحٌ معهودٌ عندَ المخاطَبين، وأنَّ خالقَهما هو الله الواحدُ الأحدُ.

نُكتةُ تقديم ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ على ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

قُدِّمتِ الأرضُ على السّماوات؛ لأنَّه لمَّا قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4705.

تشريفُ الأرضِ بالقرآنِ وبسيِّدنا محمَّدٍ ﷺ

﴿عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ كان الكلامُ عن تنزيل القرآنِ على الأرضِ، فشرُفَتِ الأرضُ بالتَّقديم لَمَّا جاءت في سياق ذكرِ المنزَّلِ عليه القرآنُ، وهو سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ الذي يبلِّغ القرآنَ على الأرض، ولكونِ الأرضِ موضعَ سكنِ المخاطَبين، كما أنَّه لَمَّا كان الكلامُ مسوقًا في بيانِ عظيم رحمتِه بتنزيل القرآن وإنعامِه على النَّاس، وكان الإنعامُ عليهم بخلق الأرض أظهرَ وأتمَّ، فهي أقربُ إلى الحسِّ، وأظهرُ عندهم منَ السّماوات، قُدِّمت الأرضُ، والمقامُ مقامُ حثٍّ على النَّظر والاعتبارِ، فقُدِّم الأقربُ لهم حسًّا، ومن نُكَتِ التَّقديم كذلك: أنَّ المشركين وغيرَهم منَ الطُّغاة يدَّعون السّلطانَ في الأرض وتمكُّنَهم فيها، فبيَّن اللّه تعالى أنَّه خالقُها، فهو لها أَملكُ، وسلطانُه عليها[1].

نُكتةُ إفرادِ الأرضِ وجمعِ السّماوات:

عطفُ جنسِ السّماوات على جنسِ الأرضِ لإظهارِ عظمةِ الله وقدرتِه

لَمَّا عطف ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغةِ الجمع على ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ دلَّ على أنَّ العطفَ من عطفِ الجنس على الجنس؛ لأَنَّ التَّعريفَ مصروفٌ إلى الجنسِ، لا من عطف الجمعِ على المفرد حتى يَلزَمَ ترْكُ الأَولى من رعاية التَّطابُقِ بين المعطوف والمعطوفِ عليه[2]، فالمقصودُ النَّظرُ إلى جنس الأرضِ وجنس السّماوات، وإظهارُ عظيم قدرتِه وملكِه وإحاطتِه به، كما أنَّ لفظَ التَّنزيل يُشعِر بالاهتمامِ بإظهار سموِّ العلوِّ، فجاء لفظُ ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمعًا، وللتَّوصُّلِ إلى رعاية الفاصلة بمجيء الصّفة ﴿ٱلۡعُلَى﴾ بصيغة الجمع.

بديعُ الطِّباق بين الأرض والسّماواتِ:

مَنْ خلقَ السّماواتِ والأرضَ لا يكونُ إلَّا إلهًا واحدًا

ورد الطِّباقُ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ على سبيل المقابلةِ بين الأسفل والأعلى لتنبيه المخاطَبين إلى سَعةِ خلقِه وعظيم

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 363، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 468، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4705.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 363.

قدرتِه، وللإشعارِ بأنَّ من هذا شأنُه لا يكونُ إلَّا إلهًا واحدًا أحدًا، فينبغي توحيدُه بالعبادة وتعظيمُ القرآنِ الذي نزَّله.

نُكتةُ وصْفِ السّماوات بـ﴿ٱلْعُلَى﴾:

عِـظَـمُ خـلـقِ السّـمـاواتِ وعـلـوُّها دليـلٌ عـلى عـظـمـةِ الخالقِ

وصَفَ ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بـ﴿ٱلْعُلَى﴾ وهي صفةٌ كاشفةٌ تأكيدًا لفخامةِ السّماوات، وزيادةً في تقريرِ عظمة خالقِها، وإيذانًا بعظَم قدرةِ من يخلقُ مثلَها في علوِّها وبُعد مُرتقاها مع رعاية الفواصلِ[1]، كما أنَّه لمَّا كان وصفُ السّماوات باعتبار مقابلتِها بالأرضِ، أشعرَ بأنَّها الأشرفُ والأرفعُ بالإضافة إلى هذا العالم الذي نعيشُ فيه.

بلاغةُ فائدةِ الخبرِ ولازمِها في الآية:

النَّظرُ في خلقِ السّـمـاواتِ والأرضِ والاعتبارُ بهما عبادةٌ

في قولِه تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ فائدةُ الخبرِ هي الإخبارُ بأنَّ القرآن منزَّلٌ من عندِ اللّٰه تعالى الذي خلق الأرضَ والسّماوات العُلا، ولازمُ الفائدة أمورٌ، منها: تعظيمُ شأنِ القرآن لظهور عظمةِ منزِّله، والحثُّ على الاعتبارِ، وتقريرُ أنَّ القرآنَ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى بالتَّذكيرِ بآثار خلْقِه، وتحقيرُ الأوثان التي يعبدونَها، وحثُّ المخاطَبينَ على النَّظرِ في هذا الخلقِ العظيم[2].

نُكتةُ تخصيصِ خلقِ الأرض والسّماواتِ بالذِّكر:

السّـمـاواتُ والأرضُ مـن أعظمِ مُشاهداتِ خلقِ الله تعالى

تخصيصُ خلْقِ الأرضِ والسّماوات بالذِّكر مع أنَّ المرادَ خلْقُهما بجميع ما يتعلَّقُ بهما، كما يُفصحُ عنه قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، لأصالتِهما واستتباعِهما لِما عداهما، ولِكَوْنِهما أَعْظَمَ ما يُشاهدُهُ العبادُ مِنْ مَخْلوقاتِه ﷻ، أو للإيماء إلى ما في جهة السُّفلِ والعلوِّ، ويستتبعُ ذلك كلَّ ما يتعلَّقُ بهما[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 8، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 37.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 416، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 95.

وصفُ الرَّحمن لا يُسمّى به إلَّا الله ولا يليقُ إلاّ به سبحانه

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

جاءت جملةُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ على طريق الفصلِ؛ لأنَّها تأكيدٌ لمضمونِ ما قبلَها، والجملةُ كلامٌ تامٌّ، ولفظُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بالرَّفعِ، فإمَّا أن يكون رفعًا على المدح[1]، بحذف المسنَدِ إليه الذي يقعُ في الكلامِ البليغ[2]، فإنَّه لمَّا أخبرَ عن عظيم خلقِه وقدرتِه؛ أخبرَ عن ذاتِه سبحانه بوصفٍ عظيم جليلٍ بحذفِ المسنَدِ إليه إيذانًا بأنَّ هذا الوصفَ لا يصلحُ إلَّا له سبحانه، كما أنَّ في الحذفِ تعويلًا على شهادةِ العقل واللَّفظِ، وفي الحذفِ كذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ استواءَه تعالى على العرشِ برَحمانيَّتِه، فكان حذفُ المبتدأ أبلغَ وألطفَ وأفيدَ، والتَّقديرُ: (هو الرّحمنُ هو على العرش استوى)، ليفيدَ تعدُّدَ الخبر من حيث المعنى الدَّالُّ على تعظيم شأن المسنَدِ إليه، وهو اللّٰه تعالى المخبَرُ عنه بأنَّه خلقَ الأرض والسّماوات العُلا، ويحتملُ أن يكونَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأً خبرُه ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾.

الإطنابُ مَسوقٌ لتعظيمِ شأنِ المنزِّلِ ﷻ والمنزَّل وهو القرآنُ

بلاغةُ الإطنابِ في الآية:

لمَّا أخبرَ اللّٰه تعالى عن عظيم خلقِه في قوله: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾؛ جاءت جملةُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ تأكيدًا لمضمون عظمةِ خلقِه وتقريرًا له - كما تقدَّم - وكلُّ الذي ذُكِرَ من قولِه: ﴿تَنزِيلٗا﴾ إلى قولِه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ إطنابٌ مَسوقٌ لتعظيمِ شأنِ المنزِّلِ ﷻ المُستتبِعِ تعظيمَ شأنِ المنزَّلِ الدَّاعي إلى تربيةِ المهابةِ في نفوسِ المخاطَبين وإدخالِ الرَّوعةِ المؤدّيةِ إلى استنزال المُتمرِّدين عن رُتبة العتوِّ والطّغيان واستمالتِهم نحو الخشيةِ المُفْضية إلى التَّذكرة والإيمان[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، وابن عطية، المحرر الوجيز، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 312.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 147، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 176.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4.

نُكتةُ التَّعبيرِ بوصفِ الرَّحمن دونَ غيره:

لَمَّا كان وصفُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مختصًّا بالله تعالى، ويجري مجرَى العلم[1]؛ آذنَ باختصاصِ وصْفِ الاستواء على العرشِ به سبحانه، ولَمَّا جاء الوصفُ إثرَ وصْفِه بخالقيّةِ السّماوات والأرض أظهرَ بأنَّ خلقَهما من آثار رحمته تعالى؛ لِما في خلقهما من مصالحِ العباد، فإنَّ أكثرَ مصالحِ العالمِ الجسمانيّةِ متعلِّقةٌ بالأرض والسّماء[2]، فكلُّ ذلك منَ الرحمة، وعُبِّرَ بقولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هنا دون (الرَّحيم)؛ لأنَّه لَمَّا كان وصفُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على زنةِ (فَعْلان) المفيدِ المبالغةَ في الوصف بالرَّحمةِ وسَعةِ المعنى وثبوتِ جميع معناه الموصوفِ به؛ كان الإخبارُ باستوائه سبحانه على عرشِه المحيطِ بالمخلوقات مُؤذنًا بأنَّ رحمتَه تعالى محيطةٌ بالخلقِ، وأنَّها تسعُهم، وأنَّ تدبيرَه تعالى وتصرُّفَه في الخلقِ بحكم رحمتِه، فاسْتَوى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسَعِ الصِّفات؛ فلذلِكَ وسِعَت رَحمتُه كلَّ شَيءٍ، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156].

الـرَّحـمـنُ على العرش استوى، ورَحمتُه وسعتْ كلَّ شَيءٍ

بلاغةُ التَّعليق بقولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

تعليقُ الإخبار بالاستواء على العرشِ على المسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يفيدُ أنَّ استواءَه تعالى على العرشِ برَحمانيَّته، وأنَّه ﷻ مدبِّرُ عرشِه بمقتضى الرّحمةِ التي تعمُّ الوجودَ كلَّه، فكلُّ ما يكونُ هو من عينِ رحمتِه العظيمةِ، حتى عذاب العصاة يكونُ رحمةً ليستقيم ميزانُ الوجود كلّه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه مع عُلوِّه وعظمَتِه مَوصوفٌ بالرَّحمة، كما أنَّ فيه تذكيرًا بأنَّ تنزيلَ القرآن من رحمتِه البالغةِ على العباد، وأنَّ إفرادَهُ بالعِبادَةِ شُكْرٌ على إحْسانِه برَحمانيَّتِه[3].

كـلُّ ما يـقـعُ في هـذا الخـلـقِ هو مـن عـيـنِ رحمـةِ الـلـه الـواسـعـةِ العظيمةِ

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 601.

(2) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 1/ 527.

(3) السخاوي، تفسير القرآن: 1/ 528، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4706.

تعليمُ النّاسِ أنَّ الله له وصْفُ الرَّحمن؛ ولو أنكره المشركون

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

اللام في لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ للعهد، مشارًا به إلى قوله تعالى: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾، ففيه إطنابٌ في التَّعريف باللّه وصفاته، ولتَعليمِ النَّاسِ به؛ لأنَّ المُشرِكين أنْكَروا تَسميتَه تعالى الرَّحمنَ، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60][1].

التّقديمُ للعنايةِ والاهتمامِ إذ هو أعظمُ المخلوقاتِ وأشرفُها

بلاغةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾:

أفاد التَّقديمُ كمالَ العناية والاهتمامِ بذكر أعظم مخلوقاتِ اللّه وأشرفِها، الذي يظهرُ بذكرِه سَعةُ خلقِ اللّه تعالى وعِظمُ شأنِه، وفي التَّقديم تخصيصٌ للوصفِ، بمعنى: أنَّ الرَّحمنَ استوى على العَرشِ، استواءً يليقُ بجلال وجهه وعظيمِ سلطانِه.

عرشُ الرّحمنِ أعظمُ مخلوقاتِ الله وأجلُّها

نُكتةُ ذكرِ ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾:

خُصَّ العرشُ بالذِّكر؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقات وأجلُّها وأرفعُها وأوسعُها على ما هو معروفٌ من إضافة الأمورِ العظيمةِ إلى أعظم الأشياءِ، فنبَّه بذكرِ العرشِ على ما دونَه من سائر المخلوقاتِ، وفهَّمَنا اللّه تعالى انفرادَه بالملك والعظمة بذكر العرش والاستواءِ عليه[2].

ذكـرُ العـرشِ تنويهٌ بسَعةِ سُلطانِ الله تعالى

دلالةُ التَّعبير بالاستواء:

ذِكْرُ الاسْتِواءِ على العرشِ تعبيرٌ عَنْ شَأْنٍ عَظيم من شؤون عَظَمَةِ الخالِقِ تَعالى وصِفةٌ من صفاتِه العلا، وزِيادَةٌ في تَصْويرِ عَظَمَةِ اللّه تَعالَى وسَعَةِ سُلْطانِه بَعْدَ قَوْلِه: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، وإسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 268، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 10/ 260.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾

[طه: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعظيمُ شأنِ الله تعالى بذكرِ عظيمِ خلقِه وملكِه

لَمَّا ذكرَ اللَّه تعالى سَعةَ ملكِه، وأنَّه هو الملكُ لهذا الخلْق، ولمَّا كان المَلِكُ قد لا يكونُ مالِكًا؛ قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، فقرَّرَ ملكَه تعالى وعظيمَ سلطانِه على جميع خلقِه[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ تَعالى أنَّه خلقَ السّماواتِ والأَرْضَ، وأَنَّهُ اسْتَوَى على العَرْشِ؛ ذَكَرَ أَنَّهُ تَعالى لَهُ مُلْكُ جَميعِ ما حوتِ السّماواتُ وما في الأَرْضِ وما بَيْنَهُما وما تَحْتَ الثَّرى[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلثَّرَىٰ﴾: يدورُ معنى الكلمة على تخلُّل النّدى ونحوه أثناءَ جِرمٍ باسترسالٍ، كالماء في أثناء تراب الثَّري النَّديّ، والثَّرى اسمٌ للتّراب النّديِّ، فإن لم يكن نديًّا؛ فهو ترابٌ، ولا يقال له حينئذٍ: ثرى، وقد ثَريت الأرض: نَديَتْ ولانت بَعْد الجُدوبة واليُبْس، وأَثْرَى المَطَرُ: بلَّ الثَّرَى، وثَرَّى فُلانٌ التّرابَ والسَّويقَ؛ إذا بَلَّه، ويُقالُ: ثَرِّ هَذا المكانَ، ثُمَّ قِفْ عليه، أَي: بُلَّهُ، وأَرض مُثْرِيَةٌ؛ إذا لَم يجِفَّ ترابُها[3]، و﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ بمعنى ما تحت الأرض ممَّا هو في باطنِها[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

إيجازُ ذكرِ جميع خلقِ الله تعالى في هذه الآية

يقول اللَّه تعالى ذكره: للَّه وحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السّماوات،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 269.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 312.
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ثري).
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 350.

وجميعِ ما في الأرضِ، وما بينَهما وما تحتَ التُّرابِ ممَّا في باطِنِ الأرضِ مِنَ المخلوقاتِ، وهو المتصَرِّفُ فيهم بتدبيرِه ومشيئتِه وحْدَه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

الاستدلالُ على كمالِ قُدرةِ اللهِ وإرادتِه

جاءتِ الآيةُ على طريقِ الفصلِ لكمالِ الاتِّصالِ؛ تفصيلًا لِما دلَّ عليه خلقُ اللهِ تعالى للأرضِ والسّماواتِ العلا من أنَّهما ملكُ اللهِ تعالى، ففصَّل ببيانِ ملكِه سبحانَه؛ ليكونَ الكلامُ من بابِ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ، وفيه تقريرٌ للمعنى وتأكيدٌ له، كما أنَّ الآيةَ جاءت كالدّليلِ على الآيةِ السَّابقةِ، أي: على كمالِ قُدرتِه وإرادتِه[1]، فتكونُ الآيةُ بيانًا وإيضاحًا لِما سبقَها.

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ ﴿لَهُۥ﴾ على المسنَدِ إليه:

اللهُ تعالى وحدَه المتصرِّفُ في هذا الكونِ المدبِّرُ له

أفادَ تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ الواقعِ مُسنَدًا في قولِه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التَّخصيصَ بطريقِ القصرِ، ليفيدَ تخصيصَ ملكِ كلِّ المخلوقاتِ والتَّصرُّفِ بها إحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا به سبحانَه، أي: له تعالى وحده دون غيره، ولا شريكَ له سبحانَه، وفي مجيءِ الكلامِ بطريقِ القصرِ ردٌّ على زَعْمِ المُشْرِكينَ أَنَّ لِآلِهَتِهم تصرُّفاتٍ في الأَرْضِ، وأَنَّ لِلْجِنِّ اطِّلاعًا على الغَيْبِ، ولِتَقْريرِ الرَّدِّ ذُكِرَتْ أَنْحاءُ الكائِناتِ، وهيَ السّماواتُ والأَرْضُ وما بَيْنَهُما وما تَحْتَ الثَّرَى[2].

فائدةُ مجيءِ المُسندِ إليه اسمًا موصولًا:

قصورُ الخلقِ مِنَ النَّاسِ وغيرِهم عنِ الإحاطةِ بجميعِ مخلوقاتِ اللهِ

لَمَّا كان السّياقُ في بيانِ عمومِ ملكِه تعالى وعمومِ مطلقِ تدبيرِه وتصرُّفه في الخلقِ، وأنَّ الخلقَ لا يملكون مِنَ الأمرِ شيئًا، ولَمَّا كانت ﴿مَا﴾ اسمًا موصولًا من ألفاظِ العمومِ، وهي من أكثرِها عمومًا؛ لأنَّها

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 188.

مبهمةٌ تقعُ على كلِّ شيءٍ؛ أشعرَ التَّعبيرُ بقصورِ علْمِنا عنِ الإحاطةِ بجميعِ المخلوقاتِ المقتضي لعجْزنا، فعبَّرَ هنا بـ﴿مَا﴾ دونَ (مَنْ).

معنَى الظَّرفيَّة:

في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أفادت ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّةَ، للإشعارِ بأنَّه تعالى يملك كلَّ ما تحويه السَّماواتُ، وأنَّه تعالى هو المتصرِّفُ والمتمكِّنُ فيه وعبَّر بـ﴿فِي﴾ مع ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ - مع أنَّ المرادَ ما على الأرضِ وما فيها ممَّا يليها - ؛ للإشعار بتمكُّن ملكِه وتصرُّفِه في كلِّ الذي على الأرضِ.

لا مُتصرِّفَ ولا متمكِّنَ في هذا الكونِ سوى الله تعالى

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

يفيد العطفُ المغايرةَ بين جنسِ ما في السّماوات وجنسِ ما في الأرضِ، كما يفيدُ التَّشريكَ في الحكم، بمعنى إثباتِ ملكِ الأرضِ وما فيها له تعالى وقصْره عليه.

اختلافُ السّموات عن الأرض، ولكنّ الكلَّ من خلق الله وخاضعٌ لله

نُكتةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

قدَّم ذكرَ السّماواتِ على الأرضِ في هذه الآية بخلاف التي سبقتْها؛ لأنَّ هذه الآيةَ جاءت إطنابًا في بيان سَعةِ ملك الله تعالى وتدبيرِه وتصرُّفه فيه وقصْرِ الأمرِ عليه سبحانه، فلمَّا ذكرَ العرشَ الذي هو أعظمُ المخلوقاتِ وأفخمُها، وذكرَ استواءَه عليه؛ أعقبَه بذكرِ العالَمِ العُلويِّ، وهو السّماواتُ لظهورِ أمرِ الملك فيه أكثرَ من غيرِه؛ لأنَّه أوسعُ من ما في الأرضِ وما تحتَ الثَّرى.

العالَمُ العلويُّ وهو السّماواتُ أوسعُ من ما في الأرضِ وما تحتَ الثَّرى

نُكتةُ إفرادِ الأرضِ وجمعِ السّماوات:

القرآنُ الكريمُ دائمًا ما يُفردُ الأرضَ، ويجمعُ السّماواتِ، وقيل في سبب ذلك: إنَّ الأرض واحدةٌ، والسّماواتِ سبعةٌ، وإنَّ ما ورد في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12] لا يدلُّ على مثليَّة العددِ، وإنَّما مثليَّة الإتقانِ والإبداعِ.

الأرضُ جرمٌ واحدٌ، والسّماواتُ طبقاتٌ متعدّدةٌ

بديعُ الطِّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ورد الطِّباقُ في ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على سبيل المقابلةِ بين الأسفل والأعلى لتنبيه المخاطَبين إلى سَعةِ خلقِه وعظيمِ قدرتِه، وللإشعارِ بأنَّ من هذا شأنُه لا يكونُ إلَّا إلهًا واحدًا أحدًا، فينبغي توحيدُه بالعبادة وتعظيمُ القرآنِ الذي نزَّله.

مَنْ خلقَ (السّماواتِ) و(الأرضَ) لا يكونُ إلَّا إلهًا واحدًا

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

أفاد العطفُ المغايرةَ في جنسِ ما في السماوات وما في الأرض عن ما بينهما، كما أفاد التَّشريكَ في الحكم، بمعنى إثباتِ ملك ما بين السماوات والأرضِ للّه تعالى، وقصرَه عليه، فيتناولُ كلَّ ما يكونُ بين السّماء والأرضِ منَ الهواء ومن عجائب المخلوقاتِ التي لا تُحصى.

بين السّماواتِ والأرضِ مخلوقاتٌ أخرى لا عدَّ لها ولا حصْرَ

نُكتةُ تتابعِ التَّعبير بـ(ما) في الآية:

تتابعَ ذكرُ (ما) أربعَ مرَّات في الآية، لتفيدَ شمولَ ملكِه العظيم الذي لا يخرجُ عنه شيءٌ، ولبيانِ أنَّ أجناسَ المخلوقات مختلفةٌ في كلِّ موضعٍ منَ المواضعِ المذكورةِ، فما في السّماوات منَ المخلوقات يختلفُ عن ما في الأرضِ، وهما يختلفان عنِ الذي بينهما، وكلُّ نوعٍ ممَّا ذُكِرَ يختلفُ عنِ الذي تحتَ الثَّرى، فيكونُ عطفُ ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِلاختلافِ في جنسِ المخلوقاتِ ونوعِها التي تكون تحتَ الثَّرى من أعماقِ الأرضِ وباطنِها، وقيل: عطفُ ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة التّقريرِ؛ لأنَّ ﴿فِى﴾ تفيد الظَّرفيَّةَ[1].

تنوُّعُ أجناسِ المخلوقاتِ مع انتظامِها دليلٌ على الألوهيَّة والوحدانيّة

دلالةُ قوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾:

لَمَّا كان لفظُ ﴿تَحْتَ﴾ منَ الظّروف المكانيّةِ المبهمةِ التي لا حدودَ لها؛ أفاد التَّعبيرُ بـ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ دخولَ كلِّ ما هوَ باطِنُ الأَرْض[2].

كلُّ ما في باطنِ الأرضِ هو ممَّا تحت الثَّرى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 188.

معنى (أل) في ﴿ٱلثَّرَىٰ﴾:

أل هنا جنسيةٌ بمعنى جنسِ التُّراب المبتلّ، فلا يقصدُ ترابًا دونَ آخر، فيستغرقُ اللفظُ كلَّ الثَّرى الذي على الأرضِ، وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿ٱلثَّرَىٰ﴾ الطبقةُ التُّرابيَّةُ منَ الأرضِ، وهي آخرُ طبقاتِها[1].

استغراقُ اللّفظ لكلّ ما على الأرض من ترابٍ

نُكتةُ التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلثَّرَىٰ﴾:

في التَّعبير بـ﴿ٱلثَّرَىٰ﴾ دون التُّرابِ تنبيهٌ إلى أثر رحمةِ اللّه ونعمتِه على عبادِه، بأنْ جعلَ هذا التُّرابَ مبتلًّا[2]، ومن عادة التراب المبتلّ أن يكون تحت الطّبقة السّطحية من الأرض، فالتراب فوقَ الثّرى، والثرى في باطنه من المخلوقات العديدة ما هُو أضعافُ أضعافِ ما في التراب الجافّ، والذي تحت الثرى مما في باطن الأرض هو ممّا لا يعلم به إلا اللّه تعالى، ويشمل عوالم الدنيا من مخلوقات وعوالم البرزخ من قبور ومدفونات.

آثارُ رحمةِ الله بخلقِه ونعمتِه عليهم

بلاغةُ التَّعبيرِ بفائدةِ الخبرِ ولازمِها في الآية:

فائدةُ الخبر في قوله ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ إثباتُ أنَّ ما في السّماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى كلُّه ملكٌ له وفي قبضته، وتحت قهره وقدرتِه وأمرِه، ولا يمتنِع شيءٌ منه عمَّا يصرِّفه عليه، ولازمُها حثُّ الخلقِ على أن يصرفوا طمعَهم ورجاءَهم مِنَ الخلق إلى خالقِهم، وألَّا يُطمعَ، ولا يُرجى غيرُه سبحانه، والتَّنبيهُ على الخالق المنعم، وأنَّ كلَّ موجودٍ محدَثٍ هو للّه بالملكِ والاختراعِ، ولا قديمَ سواه تعالى، فما على الإنسان العاقلِ إلَّا أن يسلِّمَ وجهَه للّه، بصفته جزءًا من هذا العالَمِ الفسيحِ المملوكِ للّه تعالى، وكأنَّه سبحانه يلفتُ

دعوةٌ إلى الانتفاع ممَّا هيّأه الله على هذه الأرض من منافعَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ثري).

أنظارَ خَلْقه إلى ما في الكون من مُقوِّمات حياتِهم المادّيةِ ليبحثوا عنها، ويَستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرارٍ وثرواتٍ في السّماوات وفي الأرض وتحت الثَّرى(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الثَّرى والتُّراب:

الثرى هو التراب المبتلّ

الثَّرى هو التُّرابُ النَّديُّ، أوِ الَّذي إذا بُلَّ؛ لم يصِرْ طينًا، ولهذا يقال: ثَرَّى فُلانٌ التُّرابَ والسَّويقَ؛ إذا بَلَّه بللًا خفيفًا، ويُقالُ: ثَرِّ هَذا المكانَ، ثُمَّ قِفْ عليْه، أَي: بُلَّهُ، وأَرضٌ مُثْرِيَةٌ إذا لَم يجِفَّ ترابُها، ويقال أيضًا: مَكانٌ ثَرْيانٌ وأَرض ثَرْيا؛ إذا كانَ في تُرابِها بَلَلٌ ونَدًى، وأمَّا التُّرابُ؛ فهو معروفٌ ممَّا يكونُ على ظاهر الأرضِ، ويكونُ جافًّا(2).

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 270، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 37، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9219.

(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترب، ثرى).

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إحاطةُ علمِ الله بجميعِ الأشياء كما أنَّ قدرتَه محيطةٌ بجميعِ الكائنات

لَمَّا ذكرَ ملكَه تعالى بقولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ والملكُ لا ينتظمُ غايةَ الانتظام إلَّا بالقُدرةِ وبإحاطة العلم، ولمَّا ذكرَ قدرتَه وعظيمَ خلقِه في قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾؛ أعقبَه بذكر علمِه سبحانه في هذه الآية، فبيَّنَ إحاطةَ علمِه تعالى بجميع الأشياء إثرَ شمولِ قدرته لجميعِ الكائناتِ[1]، وأيضًا لمَّا كانتِ الآيةُ السَّابقةُ في بيانِ قدرةِ اللّٰه وعظيمِ خلقِه، وكانت القدرةُ تابعةً للإرادةِ، وهي لا تنفكُّ عنِ العلم؛ عقَّب ذلك بإحاطةِ علمِه تعالى بجليَّاتِ الأمورِ وخفيَّاتِها على سواءٍ، فجاءت هذه الآيةُ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَجۡهَرۡ﴾: يدورُ معنى الجهرِ على إعْلانِ الشَّيْءِ وكَشْفِه وعُلوِّه، ويقال: الجهرُ لظهور الشّيءِ بإفراط حاسَّة البصر أو حاسّة السّمع، فأمَّا البصرُ؛ فنحو: رأيتُه جِهارًا، وأمَّا السَّمع؛ فيُقالُ جَهَرْتُ بالكَلام: أَعْلَنْتُ به، ورَجُلٌ جهيرٌ؛ إذا عُرِف بشدَّةِ الصوتِ وعُلوِّه، والصَّباحُ جَهْرٌ لظهورِ الأشياء فيه وكشفِها بعد ظلامِ اللّيل[3]، و﴿تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾: ترفعُ صَوْتك به[4].

2) ﴿ٱلسِّرَّ﴾: يدورُ معنى الكلمة على إخْفاءِ الشَّيْءِ، والسِّرُّ ضدُّ الإعلانِ، ويُطلقُ السِّرُّ على مسارة الآخرِ بقولٍ، فيقال: أَسْرَرْتُ إلى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 10، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 477.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جهر).
(4) السجستاني، غريب القرآن، ص: 148، وابن الهائم، التبيان، ص: 226.

فلان حديثًا، أي: أفضيتُ إليه في خفية، كما يُطلقُ على ما يُسِرُّه المرءُ في نفسِه، أي: الحديثُ المكتَمَ في النَّفس، وذهب بعضُ اللّغويين إلى أنَّ السرَّ من ألفاظ الأضداد، فيقال: أَسَرَّ الشَّيْءَ: بمعنى: كَتَمَهُ، وبمعنى: أَظهره، فإذا جاء على مقابلة الجهر؛ فلا يكون إلَّا بمعنى الإخفاء والكتمان[1].

3) ﴿وَأَخۡفَى﴾: خفيَ الشَّيءُ وأخفيتُه؛ إذا سترتَه، ولم تردْ إبداءَه وإعلانَه، وأصلُ الكلمة منَ الخوافي جمع خافيةٍ، وهي ريشاتٌ في مقدَّم جناحِ الطَّائر، إذا ضمَّ جناحيه؛ خَفيت، ويقال: أَخْفَيْتُ الصَّوتَ، أي: لم تظهره، ويتعدَّى الفعلُ مجرَّدًا ومع همزة التَّعدية، فيقال: خَفاه هوَ وأَخْفاهُ، أي: سَتَرَه وكتَمَه، والإخفاءُ يقابلُه الإبداءُ والإعلانُ[2]، ومعنَى ﴿وَأَخۡفَى﴾ ما حدَّثت به نفسَك[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

علـمُ اللـه بـسرِّ الخلـقِ وعلانـيَتِهـم يقتضي استدامة اليَقظةِ والحذرِ

وَإنْ تُعلِنْ بِالقوْلِ، أَوْ تُخْفِ به، فسَواءٌ عِنْدَ رَبِّكَ، فإنَّهُ لا يَخْفَى عليْه ما تسرُّه في نَفْسِكَ، فلَم تُبْدِه بجَوارِحِكَ، ولَم تَتَكلَّم بلِسانِكَ، ولَم تَنْطِقْ به، ويعلمُ الَّذي هوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ ممَّا حَدَّثَ به المَرْءُ نَفْسَهُ، ولَم يَعْمَلْهُ، فوصفَ اللّٰه تعالى ذاتَه بالعلمِ في الغيبِ والسِّرِّ والعلانيةِ جميعًا؛ ليكونَ النَّاسُ أبدًا على حذرٍ وخوفٍ ويقظةٍ في جميع أفعالِهم وأقوالِهم[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو في الآية:

كما أنَّ قدرةَ اللـه عظيمةٌ في خلقِه؛ فإنَّ علمَه تعالى مُحيطٌ بجميعِ خلقِه

عُطِفت الجملةُ ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ على جملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سرر).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 277.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 13، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 269.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لاشتراكِهما في كونِ الجملتَين خبريَّتين وفي الجهة الجامعةِ، فإنَّ هذه الجملةَ تدلُّ على سَعَةِ عِلْمِه تَعالى، والجملةُ المَعْطوفُ عليْها تدلُّ على عَظيمِ سُلْطانِه وقُدْرَتِه(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(إنْ) الشَّرطيّةِ:

الاستدلالُ على علمِ الله بالجهرِ بالقولِ سواء أ كان قليلًا أم كثيرًا

عُبِّرَ بـ(إنْ) الشَّرطيّةِ التي هي في الأصل لِما يكونُ الشَّرطُ فيه نادرَ الوقوعِ مع أنَّ الجهرَ بالقولِ يقعُ في غالبِ المخاطبات وأنواعِ الكلامِ للإيذانِ بأنَّه وإنْ فُرِضَ بأنَّ الجهرِ بالقولِ يكونُ نادرًا، ويقلُّ وقوعُه، فإنَّ اللّٰه يعلمُه، فكيف إذا كثر وقوعُه، ففي التَّعبير استدلالٌ على علمِ اللّٰه بالجهر بالقولِ سواء أ كان قليلًا ونادرًا أم كثيرًا وشائعًا.

بلاغةُ خلافِ مقتضى الظَّاهرِ في الآية:

علمُ الله تعالى بالواحدِ منَ المخلوقاتِ وبالجميعِ سواءٌ

عُبِّر بصيغة الخطابِ في قولِه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ﴾، وحقُّ الخطابِ أن يكون لمخاطَبٍ معيَّنٍ، لكنَّه هنا جاء لكلٍّ من يكونُ منه الجهرُ؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، ونُكتتُه القصدُ إلى أنَّ علمَه تعالى بالجهرِ لا يختصُّ واحدًا دونَ واحدٍ، وأنَّ علمَه بالواحدِ وبالجميعِ سواءٌ، ولمَّا كان الخطابُ للنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ دخل في الخطاب دخولًا أوَّليًّا، للإشعارِ بحفظِ اللّٰه تعالى للرَّسولِ ﷺ في جهرِه بدعوتِه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿تَجْهَرْ﴾:

الجهرُ يشملُ جهرَ الإنسانِ مع غيرِه ومع نفسِه

عبِّرَ بـ﴿تَجْهَرْ﴾ للإشعار بظهورِ الصَّوتِ وعلوِّه بحيث يكون مسموعًا واضحًا معلنًا به، ولمَّا جاء الفعلُ في سياق الشَّرط؛ كان على معنى العُموم؛ لأنَّ الفعلَ في حكمِ النَّكرة، فيشملُ اللَّفظُ الجهرَ بحيث يسمعُه الآخر والجهرَ مع نفسِه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 188.

نُكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ﴾:

عُبِّرَ بصيغة المضارع للإيذانِ باستمرار علم الله تعالى في كلِّ وقتٍ يتجدَّدُ فيه الجهر بأنواعِه، ولتصويرِ الحالةِ، فتورثُ حالةً من استشعار مراقبة اللّه للعبدِ.

استشعارُ مراقبةِ الله للعبدِ؛ لأنَّه تعالى يعلمُ الجهرَ منَ القولِ ويعلمُ السِّرَّ وأخفى

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

الباء هنا للإلصاق، بمعنى التصاقِ الجهرِ بالقولِ، ويحتملُ أن تكون للآلة على اعتبارِ أنَّ القولَ مع الجهر كالكتابةِ مع القلمِ في مثلِ قولنا: كتبتُ بالقلم.

ارتباطُ الجهرِ بالقولِ

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

(أل) جنسيةٌ، فيشملُ اللَّفظُ أيَّ قولٍ، وإن كان قليلًا ولو حرفًا واحدًا، فلفظُ القولِ لفظٌ عامٌّ.

دلالةُ قولِه: ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

القَوْلُ: مَصْدَرٌ، ويراد به هنا الحاصلُ بالمصدر بقرينة تعلُّقه بالجهر، فيشملُ كلَّ قولٍ لفظيٍّ منَ القراءة والدُّعاء والكلامِ العاديِّ، ممَّا هو مفيدٌ وله معنى؛ لأنَّ الحسابَ يكون على القولِ الذي له معنى، ويدخلُ في القولِ قراءةُ القرآن دخولًا أوَّليًّا لمناسبةِ مجيئه في سياق قوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[1]، وذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالقولِ هنا خصوصُ الدُّعاء والذكرِ وقراءة القرآن، بحمل لفظِ القولِ على الفردِ الأكملِ منه، لمناسبتِه لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، وللتَّنبيه على أنَّه لم يُشرَعِ الجهرُ بالذكر والدّعاءِ والقراءةِ لإعلام الله تعالى، أو لإسماعِه سبحانه، بل لإثباتِ صورتِه في النَّفس بالذّكر ورسوخِه فيها ومنْعِها عنِ الاشتغال بغيره وهضْمِها بالتّضرُّع والجؤارِ[2].

الجهرُ بالذّكر مظهرٌ منَ الإقبالِ على الله بالتّضرُّع والجُؤارِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 191.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 315.

مناسبةُ تقييدِ الجهرِ بـ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

لَمَّا كان الجهرُ يطلقُ على ظهورِ الشَّيءِ بإفراطِ حاسَّة البصرِ أو حاسَّةِ السَّمعِ؛ تعلَّق الفعلُ ﴿تَجۡهَرۡ﴾ هنا بالقولِ دون ما يكونُ بالبصرِ، معَ أنَّ علمَ اللّٰه تعالى محيطٌ بالمسموعاتِ والمرئيَّاتِ والملموسات وغيرِها، فاخْتيرَ في إِثْباتِ سِعَةِ عِلْمِه تَعالى خُصوصُ عِلْمِه بالمَسْموعاتِ، وقيِّدَ الفعلُ بالجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ لِأَنَّ السِّرَّ في القولِ أَخْفَى الأَشْياءِ عَنْ عِلْمِ النَّاسِ في العادَةِ[1].

السِّرُّ في القولِ أَخْفَى الأَشْياءِ عَنْ عِلْمِ النَّاسِ في العادَةِ

معنى الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

لَمَّا كان الجزاءُ على معنى اقترانِه بالشَّرط، وكانت الفاء واقعةً في جوابِ الشَّرط وجزائِه؛ أفادت الفاء تعلُّقَ علم اللّٰه تعالى بالجهر بالقولِ وبالسِّرِّ وأخفى على معنى الاقترانِ به، وأمَّا إفادةُ الفاء معنَى التَّرتُّب والتَّعقيب؛ فهو جارٍ في التَّرتّب بين الجزاء والشَّرطِ، بمعنى ترتُّبِ ذكرِ الجزاء على ذكرِ الشَّرطِ.

اقترانُ علمِ الله تعالى بالقول سواءٌ أكانَ جهرًا أو أم خُفيةً

فائدةُ تتابعِ التَّأكيدِ في الآية:

في قولِه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ جاءت جملةُ الجزاء مؤكَّدةً بثلاثة مؤكِّدات: أحدُها (إنَّ)، والثَّاني الجملةُ الاسميَّةُ التي جاء مسندُها جملةً فعليَّة، والثَّالثُ تَكرارُ ذكرِ المسنَد إليه المُضمرِ في الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ ليكون الخبرُ إنكاريًّا، ونكتتُه أنَّه لَمَّا كان بعضُهم يظنُّ أنَّ اللّٰه تعالى يعلمُ الجهرَ منَ القولِ دونَ ما يكون سرًّا، ولمَّا كان المشركون يُسرّون أقوالهم فيما بينهم لإلحاقِ الأذى برسولِ اللّٰه ﷺ؛ جاء الخبرُ في جملة الجزاء إنكاريًّا؛ ليكون ردًّا على إنكارِهم أو ما هو في حكمه من أنَّ اللّٰه يعلم السِّرَّ وأخفى.

الرَّدُّ على من يُنكرُ علمَ الله بالسِّرِّ وما هو أخفَى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 190.

بلاغةُ مجيءِ المسنَد جملةً فعليَّةً في الآية:

لا يعلمُ السّرَّ وأخفَى إلّا الله سبحانه

لَمَّا جاء المسندُ جملةً فعليَّةً في قولِه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾؛ أفادت تَقوّي الحكمِ وتحقيقَه، بمعنى تحقيقِ أنَّ اللّه يعلمُ السِّرَّ وأخفى، وأنَّ العلمَ بهذا الأمرِ لا يكون إلَّا منه سبحانه.

بلاغةُ المذهبِ الكلاميّ في الآية:

من يَعْلَمُ السِّرَّ مِنَ القولِ وأخفى؛ فأَحْرَى أَنْ يَعْلَمَ الجَهْرَ منه

جاء الشَّرطُ في قوله تعالى ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ بأسلوب المذهبِ الكلاميّ الذي هو سوقُ الخبر مضمِّنًا الحجَّةَ والدَّليلَ على وقوعِه وصحَّةِ معناه، وبيانُه أنَّ أَصْلَ النَّظْمِ: ويَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى إِنْ تَجْهَرْ بالقولِ، فصيغَ النَّظْمُ بأسلوب الشَّرْطِ والجَزاءِ زيادةً في تَحْقيقِ المعنى مع تضمينِه الدَّليلَ، والمَعْنَى أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى مِنَ السِّرِّ في الأَحْوالِ الَّتي يَجْهَرُ فيها القائلُ بالقَوْلِ لإِسْماعِ مخاطِبِه، وتقديرُ الكلام: وإن تجهرْ بالقول؛ فإنَّه يعلمُه؛ لأنَّه يعلمُ السِّرَّ وأخفى، وإذا كانَ يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفى؛ فأَحْرَى أَنْ يَعْلَمَ الجَهْرَ، ويحتملُ أن يكون تقديرُ الكلامِ: وإن تجهر بالقولِ؛ فإنَّه غنيٌّ عن جهرك، فإنَّه يعلم السِّرَّ وأخفى منه، فيكون المرادُ منَ القولِ ذِكْرَ اللّه بأنواعِه، ويعلمُ منه حالَ القول الجهريِّ بغيرِ ذكرِ اللّه، وعلى التَّقديرين أُقيمت علَّةُ الجزاءِ مقامَه لإثباتِ الأمرِ بالحجَّة والدّليل؛ لأنَّ علمَه تعالى بالسِّرِّ وأخفى ثابتٌ قبل الجهرِ وبعدَه وبدونِه، فلا يصلُحُ أن يكون جوابًا للشَّرطِ؛ ليكون الكلامُ على أسلوب المذهب الكلاميّ كما تقدَّم[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَعۡلَمُ﴾:

دلالةُ الفعلِ المضارعِ على تحقُّقِ المعنى في جميعِ الأزمنةِ

لا يرادُ بصيغة المضارعِ الدّلالةُ على زمنِ الحالِ ولا الاستقبال، بل المرادُ تحقُّقُ علمِه تعالى بالسِّرِّ وأخفى في جميعِ الأزمنة، وهذا

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 52، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 315، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 189.

كما يقال: فلان يُحسنُ إلى الفقراء لا يرادُ حالٌ ولا استقبالٌ، وإنَّما يرادُ وجودُ الإحسان منه وإثباتُه في جميع الأوقات، فعِلمُه تعالى بالسرِّ وأخفى مستمرٌّ دائمٌ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلسِّرَّ﴾:

شمولُ لفظِ السِّرِّ لكلِّ ما يكونُ على جهةِ الإسرارِ

(أل) هنا جنسيَّة لتفيدَ الاستغراقَ لكلِّ ما يُسمَّى سرًّا منَ القولِ، فيشملُ اللَّفظُ ما يتكلَّم به الإنسانُ لغيرِه على جهة الإسرارِ، سواء بالغَ في الإسرارِ أم لا، فيكون مقابلًا للفظِ الجهر[1].

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَأَخۡفَى﴾:

علمُه تعالى في ما هو سرٌّ وما هو أخفى منه سواءٌ

أفاد العطفُ التّشريك بين المعطوفَين في الحكم، بمعنى أنَّ علمَه سبحانه في القول الذي هو سرٌّ، وفي الذي هو أخفى من السِّرِّ سواءٌ.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ التَّفضيل ﴿وَأَخۡفَى﴾:

ما أُضمِرَ في الصُّدور هو أشدُّ خفاءً ممَّا أُظهر إلى الآخرين سرًّا

لَمَّا كان اسمُ التّفضيل يفيدُ المفاضلةَ في المعنى؛ دلَّ لفظُ ﴿وَأَخۡفَى﴾ على أنَّ السِّرَّ منَ الخفاء، وأنَّ هناكَ ما هو أكثرُ خفاءً منَ السِّرِّ، وهو المفضَّلُ عليه، وحُذِفَ المُفَضَّلُ عليّه لإفادةِ العموم ليشملَ كلَّ ما كانَ أخفى منَ السِّرِّ، وتحقيقًا لإحاطةِ علم اللّه تعالى بكلِّ شيءٍ، ويؤيّده مجيءُ لفظِ ﴿وَأَخۡفَى﴾ نكرةً كما سيأتي، كما أنَّ المقامَ يدلُّ على المحذوفِ، أيِّ: يعلمُ السِّرَّ وأَخْفَى مِنَ السِّرِّ، والمُرادُ بأَخْفَى مِنْهُ ما يَتَكَلَّمُ به اللِّسانُ مِنْ حَديثِ النَّفْسِ ونَحْوِه مِنَ الأَصْواتِ الَّتي هيَ أَخْفَى مِنْ كَلامِ السِّرِّ؛ إذ ما أُضمرَ في الصُّدور أشدُّ خفاءً ممَّا أُظهر إلى الآخرين سرًّا، ويدخلُ فيه ما يكون مخطورًا بالبالِ من غير أن تتفوَّهَ به أصلًا، ودخلَ في المفضَّل عليه (أَخْفَى منه) ما سَيَسِرُّهُ فيما سيأتي[2].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 315.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 313، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 315، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 191.

يأتي اللّفظ نكرة معطوفا على المعرفة للمبالغة

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿وَأَخۡفَى﴾:

لَمَّا كان لفظُ ﴿وَأَخۡفَى﴾ معطوفًا على ﴿ٱلسِّرَّ﴾؛ كان الظَّاهرُ أن يكون معرفةً، وجاء نكرةً للمبالغةِ في الخفاء[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الجهر والإعلان:

الإعلانُ خلافُ الكتمان، وهو إظهارُ المعنى للنَّفس، ولا يقتضي رفعَ الصَّوتِ به، فيكفي في الإعلان الإظهارُ، وإن كان من غير صوتٍ، والجهرُ يقتضي رفعَ الصَّوت بالقول لإظهار الأمر وعلوِّه، ومنه يقال: رجل جَهير وجَهْوَريٌّ؛ إذا كان رفيعَ الصوتِ عاليَه[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جاءت هذه الآية تذييلًا لِما قبلها؛ لأنَّ ما قبْلها تضمَّن صفاتٍ من فعلِ اللّه تعالى ومن خلقِه ومن عظمتِه، فجاءت هذه الآية تذييلًا بما يجمعُ صفاتِه لبيانِ أَنَّ المَوصوفَ بِالقُدرَةِ وبِالعِلمِ على الوَجه الَّذي تَقَدَّمَ واحِدٌ لا شَريكَ لَهُ، وهوَ الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره[1].

لا شريكَ لله تعالى ولا منازِعَ له في ألوهيَّتِه، فهو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصَّمدُ

وأيضًا لَمَّا كان من هو بهذه الأوصاف من تمام العلم والقدرة ربَّما ظُنَّ أنَّ له منازعًا؛ نفى ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ مُعلِمًا أنَّ هذا الظنَّ باطلٌ قطعًا لا شُبهةَ فيه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عن ذاتِه بأنَّه هو المعبودُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلَّا له، فما ذُكِرَ من صفاتِ الكمالِ التي تقدَّمتْ ليسَ بأهلٍ لها إلَّا ذلك المعبودُ الحقُّ الذي لا ربَّ غيرُه، ولا إلهَ سواه، وله الصِّفاتُ الحسنى الدَّالَّةُ على التَّقديسِ والتَّمجيدِ، والأفعالِ التي هي غايةٌ في الحكمةِ والسَّدادِ، فإنَّ له سبحانه الأسماءَ الحسنى[3].

صفاتُ الكمالِ والجلالِ لا يَستحقُّها إلَّا الله ﷻ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الآية:

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيلَ: مَنِ الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ من عظيمِ المُلْكِ والقدرةِ والعلمِ الكاملِ؟ فجاءتِ الجملةُ مسوقةً لبيانِ أنَّ ما ذُكِرَ

التّنبيهُ إلى عِظَمِ شأنِ ما يُذكَرُ لتقريرِ الإذعانِ والتَّسليمِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 11، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 191.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 270.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 96.

من صفات الكمالِ موصوفُها ذلك المعبودُ بالحقِّ الموصوفُ بالصِّفاتِ الجليلةِ[1]، وفي الاستئنافِ البيانيِّ استدرارٌ لأسماعِ المخاطَبين، وتنبيهٌ إلى عظم شأنِ ما يُذكرُ، لتقريرِ الإذعانِ والتَّسليمِ.

بلاغةُ مجيء لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

الله تعالى واحدٌ بذاتِه وإنِ افترقت عباراتُ صفاتِه

يحتملُ أن يكون لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مرفوعًا على المدحِ بحذف المسنَدِ إليه الذي يقع في الكلام البليغ[2]، جَرْيًا على ما تَقدَّمَ عِنْدَ قَوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ فإنَّه لمَّا أخبر عن صفاتِ الكمالِ في تنزيله القرآنَ، وما أُسنِدَ إليه تعالى من خلق جميعِ الموجوداتِ ومنَ الرّحمانيّةِ ومن ملكِه التَّامّ لجميعِ المخلوقاتِ والعلم الشَّاملِ؛ أخبرَ عن ذاتِه بالاسم الجليلِ الجامعِ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ بحذفِ المسنَدِ إليه إيذانًا بأنَّ هذه الأوصافَ لا تصلحُ إلَّا للّه ﷻ، وأنَّه تعالى واحدٌ بذاته وإنِ افترقت عباراتُ صفاتِه، للرّدِّ على قولِهم: إنَّك تدعو آلهةً حين سمعوا أسماءَه تعالى، فيكونُ التَّقديرُ: (هو اللّه لا إله إلَّا هو)، فيكونُ الضَّميرُ المحذوفُ متضمِّنًا كلَّ الأوصاف المذكورةِ، ويكونُ لفظُ الجلالة خبرًا عنه، ويحتملُ أن تكون جملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ خبرًا ثانيًا، وجملةُ ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ خبرًا ثالثًا، ليفيد تعدُّدُ الخبر تعظيمَ شأنِ المسنَدِ إليه المتضمِّن معانيَ الصِّفاتِ المذكورة، كما يُحتمَل أن تكون الجملتان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ و﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ حاليتَين من اسم الجلالةِ، على معنى الحالِ المقترنةِ، بمعنى: أنَّ كلَّ أوصافِه وأفعالِه غيرُ منفكَّةٍ عن حالِ توحيدِه سبحانه وحالِ كمالِ الإحسانِ.

ويُحتَملُ توجيهٌ آخرُ، بأن يكون لفظُ الجلالة مسندًا إليه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 313، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 147، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 176.

(مبتدأً)، وأخبرَ عنه بجملتَين هما ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ و﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، ويجري في هذا التَّوجيه فائدةُ تعدُّد الخبرِ كذلك[1].

فائدةُ الخبرِ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

تضمَّن الخبرُ التَّعريضَ بمن اتَّخذوا من دون الله شركاءَ

جاءت هذه الجملةُ تحقيقًا للحقِّ وتصريحًا بما تضمَّنه ما قبْله من اختصاصِ الألوهيّةِ به سبحانه، فإنَّ ما أُسند إليه تعالى من خلق جميعِ تنزيلِ القرآن واستوائِه على العرشِ برحمانيَّتِه وملكِه التَّامِّ لجميعِ المخلوقات والعلم الشَّاملِ ممَّا يقتضي أنَّه الإلهُ الواحدُ الأحدُ اقتضاءً بيّنًا، أي: ما ذُكِرَ من صفاتِ الكمال الَّتي تقدَّمت ليس بأهلٍ لها إلَّا ذلك المعبودُ الحقُّ الذي لا ربَّ غيرُه ولا إله سواه[2].

بلاغةُ القصْرِ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

لا معبودَ يستحقُّ العبادة إلَّا الله ﷻ

جاءتِ الجملةُ على القصرِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، من قصر الصِّفة على الموصوف، ليفيدَ اختصاصَ المقصورِ بالمقصورِ عليه حقيقةً وواقعًا، بطريق النَّفي والإثباتِ، مع تضمُّنِه معنى التَّأكيدِ والإنكارِ على المكذِّبين الذين يُصرّون على خطئِهم في إشراكِهم باللّه سبحانه، ليفيدَ القصرُ نفيَ الألوهيَّة عن أيِّ معبودٍ وإثباتَها له سبحانه، بمعنى: لا معبودَ يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو ﷻ؛ وليفيدَ الكلامُ قصرَ وصفِ الألوهيّة عليه سبحانه، ونفيَ أيِّ معبودٍ بحقٍّ غيره، مع إثباتِ أوصافٍ أخرى له سبحانه؛ ولهذا أعقبه بقولِه: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

بلاغةُ نفيِ الجنسِ والاستثناء في الآية:

ما يعبدُ المشركونَ ليسَ إلهًا على الحقيقةِ، بل هو ادِّعاءٌ وكذبٌ

في قولِه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ تدلُّ ﴿لَآ﴾ على نفيِ الجنسِ، بمعنى أنَّها نصٌّ في نفيِ الجنسِ المقتضي نفيَ كلِّ أفرادِ ذلك الجنسِ، بمعنى أنَّها تنفي أيَّ معبودٍ بحقٍّ، ولمَّا اقترن النَّفيُ بـ﴿إِلَّا﴾؛ أفادَ إثباتَ ألوهيَّة اللّه تعالى وحدَه، أو يقال: إنَّ ﴿لَآ﴾ هنا نَفَتْ أيَّ إلهٍ موجودٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 313.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 96.

- على اعتبار أنَّ ما يعبدُه المشركون ليس إلهًا على الحقيقةِ بل هو ادِّعاء وكذبٌ - وجاء الاستثناءُ لإثبات ألوهيَّةِ اللّٰه وحدَه.

معنى اللام في ﴿لَهُ﴾:

لا تختصُّ الأسماءُ الحُسنى إلَّا باللّٰه ﷻ ولا تليق إلَّا به

يعود الضَّمير على الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ الجامع لصفات الجلالِ والكمالِ، وتفيد اللام معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّ الأسماء الحسنى مختصَّةٌ به ﷻ.

بلاغةُ التّقديم في قولِه: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

ليس لأحدٍ الأسماءُ الحُسنى إلَّا للّٰه ﷻ

قُدِّمَ المسندُ، أي: الجارُّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ على المسنَدِ إليه ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ لِلاخْتِصاصِ وللاهتمام المفيدِ تأكيدَ استحقاقِ هذه الأسماء الحسنى للّٰه تعالى، والتَّقديرُ: (ليس لأحدٍ الأسماءُ الحسنى إلَّا له سبحانَه)، فيفيدُ التَّقديمُ إثباتَها له سبحانه ونفيَها عن غيرِه، أَيْ: له الأسماءُ الحسنى لا لِغَيْرِه؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ إِمَّا أَنْ يَكونَ اسْمُهُ مُجَرَّدًا مِنَ المَعاني المَدْلولَةِ لِلأَسْماءِ مِثْلَ الأَصْنام، وإِمَّا أَنْ تَكونَ حَقائِقُها فيه غيرَ بالِغَةٍ مُنْتَهى كَمالِ حَقيقَتِها كاتِّصافِ البَشَرِ بِالرَّحْمَةِ والمُلْك، وإِمَّا أَنْ يَكونَ الِاتِّصافُ بِها كَذِبًا لا حَقيقَةً، كاتِّصافِ البَشَرِ بِالكِبْرِ؛ إِذْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْكِبْرِ والجَبَروتِ والعِزَّةِ[1]، وقَدِ الْتُزِمَ مِثْلُ هَذا التَّقْديم في جَميعِ الآيِ الَّتي في هَذا الغَرَضِ مثل قَوْلِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: 180]، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: 110]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: 24].

دلالةُ التَّقييد بالصِّفة في قولِه: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

كلُّ أسماءِ اللّٰه حسنى

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ صفةٌ كاشفةٌ؛ لأنَّ كلَّ أسمائِه حسنى، وفائدةُ مجيءِ الصّفةِ الكاشفةِ مدحُ الأسماءِ ولزيادةِ البيانِ والإيضاحِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 192.

براعةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تَأْنيثُ الأَحْسَنِ، وجاءت الصِّفَةُ مؤنَّثةً؛ لأنَّ الصفةَ المُؤَنَّثَةَ المُفْرَدَةَ تَجْري على جَمعِ التَّكْسيرِ، وحَسَّنَ ذلِك كَوْنُها وقَعَتْ فاصِلَةً، ومعنى الأَحْسَنيَّةِ في أسمائِه سبحانه كَوْنُها تَضَمَّنَتِ المَعاني الَّتي هيَ في غايَةِ الحُسْنِ والشَّرف والفضلِ مِنَ التَّقْديسِ والتَّعْظيم والرُّبوبيَّةِ، وتضمَّنتِ الأَفْعالَ الَّتي لا يُمكِنُ صُدورُها إلَّا مِنْهُ، ولا يكونُ منها إلَّا الأحسنُ، وقصورُنا عن إدراك حسنِ أفعالِ اللّٰه لقصور علْمِنا بها وبمآلِها، وحُسْنُ الأسماء يَرْجِعُ إلى مَعْنَى الإحْسانِ، فاسْمُ الجبَّارِ والغفَّارِ والرَّحيم إنَّما كانَتْ حسنى؛ لِأَنَّها دالَّةٌ على مَعْنَى الإحْسانِ، وكلُّ أسمائِه كذلك، ومن حُسنِها أنَّها كلَّها أسماءٌ دالَّةٌ على المدحِ، فليس فيها اسمٌ لا يدلُّ على المدحِ والحمدِ، ومن حسنِها أنَّها ليست أعلامًا محضةً، وإنَّما هي أسماءٌ وأوصافٌ، ومن حسنِها أنَّها دالَّةٌ على الصِّفاتِ الكاملةِ وأنَّ له من كلِّ صفةٍ أكملَها وأعمَّها وأجلَّها، ومن حسنِها أنَّها متنوِّعةُ الأوصافِ، والمعاني الحسنى جامعةٌ لها، ومن حسنها أنَّه أمرَ العباد أنْ يدعوه بها؛ لأنَّها وسيلةٌ مقرِّبةٌ إليه يحبُّها، ويحبُّ مَنْ يحبُّها، ويحبُّ مَنْ يحفظُها، ويحبُّ مَنْ يبحثُ عن معانيها، ويتعبَّدُ له بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: 180][1].

كـلُّ ما يفعلُه الـلـه هـو على الوجْه الأحسنِ؛ لأنَّ له الأسماءَ الحُسنى

فائدةُ الخبرِ في جملةِ ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

تقدَّم أنَّ هذه الجملةَ تحتملُ أن تكون خبرًا ثانيًا عن لفظ الجلالة، وأن تكون خبرًا ثالثًا عنِ المسنَد إليه المحذوفِ، وعلى كلا الوجهين فإنَّ مجيء هذه الجملةِ بيانٌ لكون ما ذكرَ مِنَ الخالقيّةِ والرّحمانيّةِ والمالكيّةِ والعالَميّةِ أسماءَه وصفاتِه من غير تعدُّدٍ في

كـلُّ أوصـافِ الـلـه تـعـالى في غاية الحُسنِ، وكـلُّ أفعالِه في غـايـةِ الحـكـمـةِ والسَّدادِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 15، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 314، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 501.

ذاته ﷻ، وأنَّ ما ذكر من صفات الكمالِ التي تقدَّمت ليس بأهل لها إلَّا اللّٰه الذي لا إله إلَّا هو الذي له الصّفاتُ الحسنى الدَّالَّة أنَّ كلَّ أوصافه في غاية الحُسنِ، وأنَّ أفعالَه في غايةِ الحكمةِ والسّداد[1].

لله تعالى صفاتُ الكمال والجلال التي لا يَشوبُها نقصٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ في الآية:

لَمَّا كانتِ الجملةُ الاسميّةُ تفيدُ الثّبوتَ؛ أفاد التَّعبيرُ بها في قولِه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّه تعالى متَّصفٌ بصفات الكمال التي لا يصحُّ، ولا يُتصوَّرُ أن يشوبَها نقص ما، وأنَّ اتِّصافَه بها أمرٌ ثابتٌ، بأنَّه تعالى متِّصف بها دائمًا اتِّصافًا حقيقيًّا لا يمكن انفكاكُه، كما يكون لغيره منَ الاتِّصاف ببعض المحاسن في بعض الأحايين، ثمَّ يعجزُ عنه في وقت آخرَ أو بالنسبة إلى زمان آخرَ[2].

جمعُ أوصافِ اللّٰه تعالى العَليا مع كمالِها في هذه الآية

بلاغةُ التَّذييل:

جاء قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تَذْييلًا للكلام قبله، ولهذا ابتدأ الكلامُ بعدَه بقصَّةِ موسى ﷺ، وبيانُ التَّذييل أنَّ ما قبله تَضَمَّنَ صِفاتٍ مِنْ فِعْلِ اللّٰه تَعالى ومِنْ خَلْقه ومِنْ عَظَمَته وعموم ملكه وكمالِ علمِه، فجاءَ هَذا التَّذْييلُ بِما يَجْمَعُ صِفاتِ اللّٰه تعالى العُليا مع كمالِ وصفِ المدحِ لذاتِه وصفاتِه، وفي جملة التَّذييل معنى الكلّيَّةِ، وهي تجري مجرَى المثَل في حكايتِه وعمومِه.

---

(1) أبو السعود إرشاد العقل السليم: 6/ 6، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 96.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 270.

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠﴾ [طه: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تسليةُ قلبِ الرَّسول ﷺ وتصبيرُه على تحمُّل الشَّدائد

لَمَّا عَظَّمَ اللّه تعالى القُرْآنَ، وتضمَّنَ تعظيمَ رسولِه ﷺ فيما كَلَّفَهُ؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بذكر قصّة موسى تقويةً لقلبِ رسولِه ﷺ، وليتأسَّى به في تحمُّل أعباءِ النُّبوَّةِ وفي الإبلاغ، وليُصَبِّرَهُ على تَحَمُّلِ المَكارِه ومقاساةِ الشَّدائد والمصاعب، وليُسَلِّيَ قلبَ الرَّسولِ ﷺ بِذَلِكَ بأنَّ الذين كذَّبوه، سيكون جزاؤهم جزاءَ مَنْ سلفَهم منَ المكذِّبين، فقال تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَدِيثُ﴾: يدور معنى اللّفظ على كَوْنِ الشَّيْءِ بعدَ أن لَم يَكُنْ، يُقالُ: حَدَثَ أَمرٌ بَعْدَ أَنْ لَم يَكُنْ، والحَديثُ مِنْ هَذا؛ لأَنَّهُ كلامٌ يَحْدُثُ مِنْهُ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ، وكلُّ كلام يبلغُ الإنسانَ من جهة السّمع أوِ الوحي في يقظته أو منامه؛ يقال له: حَديث، والحديثُ: الخبرُ، يأتي على القليل والكثير، والحديثُ في الآية بمعنى ما حُدِّث به موسى عليه السلام وعومل به حين ناداه ربُّه[2].

2) ﴿لِأَهۡلِهِ﴾: أهلُ الرجل من يجمعُه وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلدٍ، وأهلُ الرّجل في الأصل: من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 15، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 192، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 193.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حدث).

يجمعُه وإياهم مسكنٌ واحدٌ، ثم تُجوِّز به، فقيل: أهلُ الرّجل لمن يجمعُه وإيَّاهم نسب، ثمَّ خُصَّ، فأُطلقَ على أخصِّ النَّاسِ به من زوجٍ وولدٍ، كما يطلقُ على امرأة الزَّوجِ فقط، ومنه التَّأَهُّلُ بمعنى التَّزَوُّجِ(1).

3) ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾: (مكث) يدورُ على ثباتٍ وانْتِظارٍ مدَّةً منَ الزَّمن، والمُكْثُ بضمِّ الميم وكسرِها: الإِقامةُ مع الانْتظارِ والتَّلبُّث في المَكانِ، ويقال: مَكُثَ ومَكَثَ وتَمَكَّثَ؛ إذا انتَظَر أَمرًا، وأَقام عليه، ومنه المَكيثُ، وهو الرَّزينُ الَّذي لا يَعْجَل في أَمره، و﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ في الآية بمعنى طلبِ المُقام مع الانتِظارِ(2).

4) ﴿ءَانَسۡتُ﴾: (أنس) يدورُ على ظُهورِ الشَّيْءِ ورؤيتِه والإحساس به، والأُنسُ خلافُ النُّفور والاستيحاشِ، وأَنِسَ الإنْسانُ بالشَّيْءِ؛ إذا لَم يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ، والإيناسُ: الإِبْصارُ البَيِّنُ الَّذي لا شُبْهَةَ فيه، ومِنْهُ إِنْسانُ العَيْنِ، أي: ناظرُها، فإنَّهُ يَبينُ به الشَّيْءُ، وقيلَ: سُمّي الإِنْسُ إنسًا لِظُهورِهم وإدراكِ البصر إيَّاهم، ولأنَّه يُؤنَسُ بهم، كما أنَّ الجنَّ سمّوا كذلك لِاسْتِتارِهم، وإيناسُ النَّار هو رؤيتُها من بعيد(3)، و﴿ءَانَسۡتُ﴾ في الآية بمعنى أبصرتُ، يقال للذي أبصر الشّيءَ من بعيد، فسكنَ إليه: آنسه(4).

5) ﴿بِقَبَسٍ﴾: القبسُ هو الشعلةُ التي تؤخذُ منَ النَّار، واقْتِباسها الأخذُ منها، والقابسُ طالبُ النَّار ليأخذ منها شعلةً، وقبستُه نارًا جئته بها، ويُستعار الاقتباسُ للعلم والمال وغيرِهما، بمعنى أخذِ جزءٍ من مجموعٍ عظيمٍ(5)، و﴿بِقَبَسٍ﴾ في الآية النَّارُ في طَرَفِ العود أوِ القصبة التي تُؤخذ للانتفاعِ منها(6).

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

جاءت هذه الآياتُ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ بما ناله من أذى قومِه وتذكيرًا له بما حصل لموسى عليه السلام من تحمُّله الشَّدائد وصبره على التَّبليغ، فقال مبيِّنًا جانبًا من قصَّةِ موسى عليه السلام: وهل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أهل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مكث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أنس)، والزمخشري، الكشاف: 3/ 53.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 21، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 364، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 226.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبس).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 276، وابن الهائم، التبيان في تفسير القرآن، ص: 226.

تسليةُ المؤمنين بذكر قصصِ الأنبياء والمرسلين

بلَغكَ يامحمَّد ﷺ حديثَ موسى بنِ عمران، إذ رأى نارًا؛ فقال لأهله مبشِّرًا لهم: أقيموا مكانَكم، وانتظروا؛ لأنّي أبصرتُ نارًا من بعيدٍ، واستأنستُ بها - وهم في وحشة ظلام حالكٍ وليلٍ بهيم - وسأذهب إليها لعلّي أجيئكم منها بشعلةٍ على رأس عود أو نحوِه تشعلون بها نارًا تُضيء لكم، ويكشفُ لكم الظُّلمةَ الحالكةَ، أو أجدُ خبرًا هاديًا يدلُّني على الطّريق الذي أضللناه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو في الآية:

أمرُ التَّوحيدِ مُستمرٌّ في دعوة الأنبياءِ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ تفيدُ العطفَ؛ لربط هذه القصَّةِ بما تقدَّم من أوَّل السّورة إلى هذا الموضع، فهو من عطف القصَّةِ على القصَّة[2]، لاشتراكِهما في معنى الخبريَّة، فإنَّ ما تقدَّم أخبارٌ، والمعطوفُ إنشاءٌ في اللّفظ خبرٌ في المعنى كما سيأتي، وللمناسبة في المعنى، وهو تقريرُ أمرِ توحيد اللّه تعالى وبيانِ أنَّه مستمرٌّ بين الأنبياء وتَثْبيتُ الرَّسولِ على التَّبْليغِ بذكرِ قصَّة موسى ليتأسَّى به في الصَّبر وتحمُّل أعباءِ الرِّسالة.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ في الآية:

تنوُّعُ معاني الاستفهامِ المجازيِّ وتكثُّرُ دلالتِه

الاستفهامُ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ليس على حقيقتِه؛ لأنَّه صادرٌ منَ اللّه تعالى، فهو استفهامٌ على معنى تقرير الخبر، و﴿وَهَلۡ﴾ بمعنى (قدْ)، ولمَّا كانت (قدْ) مع الماضي تفيدُ تحقيقَ الخبرِ في الزَّمن الماضي؛ ذكر المفسِّرون لهذا المعنى احتمالَين: فإن كان هذا أوَّلَ ما نزل من قصّة موسى - والسّورة من أوائل ما نزل من القرآن - فمعناه: لم يأتِكَ حديثُ موسى إلى

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 275 - 277، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 98.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 480.

الآن؛ فقد أتاك الآن، فاسمعه، فاعتبِرْ به، وإن كان نزل قبله من قصَّة موسى شيء؛ فهذا تذكيرٌ به[1]، ويلوحُ في الأفق أنَّ ﴿وَهَلۡ﴾ بمعنى (قد) بمعنى التَّقريب، وفيها معنى التَّقرير، مثل (قد قامت الصلاة)، ولهذا أعقب الاستفهامَ ذكرُ قصَّة موسى مباشرةً، ولمجيء التَّقرير بصيغةِ الاستفهام دون أن يقال مثلًا: (قد أتاك حديث موسى)؛ فوائدُ بلاغية:

أحدُها: تثبيتُ الخبر في نفس المخاطَب وتقريرُه، فإنَّ ﴿وَهَلۡ﴾ معبِّرَةٌ عن (قد)، أو يقال: (هَلۡ) في الِاسۡتِفۡهامِ مِثۡلُ (قَدۡ) في الإِخۡبارِ في معنى التَّأكيدِ.

ثانيها: تشويقُ المخاطَبِ إلى معرفة الخبر والتَّطلُّع إلى الإصغاء إليه أتمَّ الإصغاء؛ لأنَّه ينتظر الجوابَ منَ السَّائل، فالاستفهامُ ليس على حقيقته.

ثالثُها: تنبيهُ النَّفس إلى استماع ما يورَدُ عليها، وهذا كما تبدأ الرّجلَ إذا أردت إخبارَه بأمر غريب عجيبٍ؛ فتقول: أعلمتَ كذا وكذا؟ ثم تبدأ تُخبرُه.

رابعُها: بيانُ أنَّ مثل هذا الخبرِ ممَّا ينبغي ألَّا يخفَى على المخاطَب لحاجتِه إلى معرفته.

خامسُها: تفريغ أذنِ المخاطَب لسَماعِ الخبرِ وتهيئةِ قلبِه للوعيِ العظيمِ.

سادسُها: تشريفُ المخاطَبِ به[2].

قصَّةُ موسى ممَّا ينبغي التَّحدُّثُ بها لِما فيها مِنَ العظاتِ الجسيمةِ

نُكتة التَّعبيرِ بلفظ ﴿حَدِيثُ﴾:

الظَّاهرُ أنَّ المرادَ من ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ما يُتحدَّثُ به عن موسى؛

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 271، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 362، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 314، وإسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 368.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 362، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 256، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 263، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 38، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.

لأنَّ القصَّة فيها إخبارٌ عن موسى عليه السلام وكلامٌ له، فيكونُ التَّعبيرُ بـ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ إيجازًا عن كلِّ ما أخبرت به القصَّةُ، فالحديثُ هو الخَبَرُ، وهوَ اسْمٌ لِلْكلامِ الَّذي يُحْكَى بِه أَمرٌ حَدَثَ في الخارِجِ[1]، ونكتةُ التَّعبير بالحديث دون الخبر هو الإشعارُ بأنَّه ممَّا يُتحدَّث به، ويُشاعُ بين النَّاسِ لأهميَّتِه لِما فيه منَ العِبَرِ والعظاتِ الجسيمةِ ولتنبيه المخاطَبين إلى الإصغاء إليه.

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾:

شَرُفت قصّةُ موسى لارتباطِها واختصاصِها بموسى عليه السلام

الإضافةُ إمَّا أن تكون على معنى اللَّام، فتفيدُ الاختصاصَ، أو أن تكونَ لأدنى ملابسةٍ، وعلى الوجهين، فالإضافةُ تفيدُ تشريفَ المضافِ ﴿حَدِيثُ﴾ لشرفِ المضافِ إليه ﴿مُوسَىٰٓ﴾، وأنَّ كلَّ تفصيلٍ للقصَّة هو من ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

إسنادُ الفعلِ إلى غيرِ ما يكونُ منه

لمَّا أُسند الحديث إلى الفعل ﴿أَتَىٰكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؛ دلَّ على أنَّ الإسناد غيرُ حقيقيّ؛ لأنَّ الحديث لا يكونُ منه إتيانٌ، ففي الكلام استعارة مكنيَّةٌ؛ إذ شبَّه الحديثَ بالعاقل ذي الإرادةِ والقدرةِ إشعارًا بعلوِّ شأنِ ما يُحدَّثُ به وللاعتناء به ولإظهار فخامتِه، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، وأقيم المشبَّهُ مقامَه، والقرينةُ إسنادُ الفعل ﴿أَتَىٰكَ﴾ إلى لفظِ ﴿حَدِيثُ﴾، أي: إسنادُ الفعل إلى غير ما يكونُ منه.

بلاغةُ التّقديم في: ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾:

رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أوّلُ المخاطَبين بقصَّة موسَى للانتفاعِ منها

قُدِّمَ المفعولُ به على الفاعل مع أنَّه واجبُ التَّقديم أصلًا لاتِّصالِ الضَّمير بالفعلِ؛ لتشريف الرَّسول صلى الله عليه وسلم المقصودِ بالخطاب، وللإشعار بأنَّه هو الأولى أن يعلم خبرَ قصَّة موسى عليه السلام، وما وقع له حين رأى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 193.

النَّار، وما جرى له بعد ذلك، كما أنَّ في تقديم المفعول رعايةً للفاصلة، ببنائِها على الألف المقصورة في﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ و﴿مُوسَىٰٓ﴾؛ لإثراء المعنى ولجمال النَّغم الصَّوتيّ في رؤوس الآي، ممَّا ييسِّرُ تلاوتَه وحفظَه وجذبَ السَّمع إليه حين يُتلى ويُرتَّلُ ترتيلًا، وهو من تمام إعجاز القرآن وبراعة نظمِه.

بلاغةُ الفصلِ في: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾:

بيانُ المجملِ لتشويق المخاطَبين واستدرارِ سمعِهم

جاءت جملةُ ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ على طريق الفصلِ للإيذانِ بأنَّها بيانٌ لِما أُجمِلَ في قوله: ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؛ لأنَّ ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ لفظٌ مجملٌ أوجزَ فيه الكلامُ، ثمَّ فصَّل المجملَ، وبيَّنَه بقولِه: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾، لتشويق المخاطَبين واستدرارِ سمعِهم إلى استعلام كُنْه الحديث وتفصيله؛ لِأَنَّ رُؤْيَةَ النَّارِ تَحْتَمِلُ أَحْوالًا كَثيرَةً[1]، وعلى هذا التَّوجيه يكونُ ﴿إِذۡ﴾ ظرفًا لفعلٍ يقتضيه السّياقُ، تقديرُه (اذكر)، أو ظرفًا لمضمرٍ، أي: حين رأى نارًا كان كذا وكذا ممَّا أخبرَ عنه في القصَّة، وهذا الأسلوب شائعٌ في القرآن وفي الكلام البليغ، ويحتملُ أن يكون ﴿إِذۡ﴾ ظرفًا لـ﴿حَدِيثُ﴾؛ لأنَّه حدثٌ بمعنى التَّكلُّم؛ فهو اسمٌ للكلامِ، فلا فصلَ بين الآيتين؛ لأنَّه من تمام قولِه: ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، والمعنى: (هل أتاك ما تحدَّثَ به موسى حين رأى نارًا)[2]، ولعلَّ التَّوجيهَ الأوّلَ، أي: أن يكون الكلامُ على الفصلِ أولى؛ لأنَّ الحديث يكون بمعنى الخبر، فيكونُ أعمَّ؛ إذ يتناول كلامَ موسى عليه السلام وما أُخبِرَ به عنه، كما أنَّ وصف القصةِ أوِ الخبرِ بالإتيان وتفصيل ذلك الإتيانِ أولى من وصف التَّحدُّثِ والتَّكلُّم به؛ لأنَّ التَّكلُّمَ حدثٌ ليس له أجزاء تقتضي التَّفصيلَ، ولهذا اقتصر عليه النَّسفيّ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 194.

(2) بن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 38، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 233/ 53، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 318 - 319.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 358، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 480.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿إِذۡ﴾:

في التَّعبير بـ﴿إِذۡ﴾ إشعارٌ بالحدثِ الخطير الذي وقع في ذلك الحين، وتنبيهٌ إلى أنَّ مايُذكر بعد ﴿إِذۡ﴾، ينبغي الاهتمامُ به والإصغاءُ إليه، ولا يأتي هذا الظَّرفُ في افتتاح كلامٍ إلَّا إذا كان فيه حدثٌ له أهميَّةٌ بالغةٌ للمخاطَب.

الظَّرفُ (إذْ) لا يأتي في صدرِ كلامٍ إلَّا لأمرٍ بالغِ الأهمّية

فائدةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿رَءَا نَارٗا﴾:

عُبِّرَ بالرُّؤية إيذانًا بالجزم برؤيته نارًا، ولمَّا دخل ظرفُ الزَّمان على جملةِ ﴿رَءَا نَارٗا﴾؛ أفادَ أنَّ مبدأ عِظَم القصَّة وموردَ علوِّ شأنِ ما يُخبَرُ عنه هو رؤيةُ موسى النَّارَ، فأراه اللّٰه تعالى النَّارَ حتَّى خرج من أهله يطلبُها، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم، فإظْهارُ النَّارِ لموسَى رَمزٌ رَبَّانيٌّ لَطيفٌ؛ إذْ جَعل اجْتِلابَهُ لِتَلَقّي الوَحْيِ باسْتِدْعاءٍ بِنورٍ في ظُلْمَةٍ رَمزًا على أَنَّهُ سَيَتَلَقَّى ما بِهِ إنارَةُ ناسٍ بِدينٍ صَحيحٍ بَعْدَ ظُلْمَةِ الضَّلالِ وسوءِ الاعْتِقاد[1].

ألاحَ الله تعالى لموسى النَّارَ لتكونَ مبدأَ عِظَمِ قصَّةٍ ما يأتي بعدَها

نُكتةُ الإضمارِ في قوله: ﴿رَءَا﴾ و﴿فَقَالَ﴾:

يعودُ الضَّميرُ في الموضعَين على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ في قولِه: ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، ولم يأتِ الفاعلُ ظاهرًا؛ لأنَّ الإضمارَ أبلغُ للإيجاز ولظهورِ المعنى، كما أنَّه يُشعرُ أنَّ مدارَ القصَّة عليه، وليس على أهله، ولهذا لم يقل: (إذ رأى هو وأهلُه نارًا، فقال لهم: امكثوا) مع أنَّ النَّارَ إذا كانت في ليلٍ؛ تظهر لكلِّ ناظرٍ.

مدارُ القصَّةِ على موسى عليه السلام وليس على أهلِه

نكتة تنكير ﴿نَارٗا﴾:

التَّنكيرُ للإيذانِ بأنَّها نارٌ لم يكن يعرفُها، ولم يرَها من قبلُ، أي: هي غيرُ معيَّنةٍ ولا معلومةٍ، وربَّما أفاد التَّنكيرُ تعظيمَ شأن هذه النَّار وتفخيمَها، لا سيَّما وهو يبحث عن شيءٍ يُطمئن نفسَه في وحشة سفره.

التّنكيرُ للإبهامِ، أو للتّعظيم والتّفخيم

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 195.

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَقَالَ﴾:

حاجةُ النَّاس أكثرُ إلى النَّار في اللَّيلة الشَّاتيةِ البارِدةِ

لَمَّا كانت رؤيةُ موسى النَّارَ في ليلٍ؛ فرَّع عليه قولَه لأهله، وأعقب رؤيتَه للنَّار قولَه لهم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ إشعارًا بشدَّة حاجتِهم للنَّارِ في تلك اللَّيلة الشَّاتيةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لِأَهۡلِهِ﴾:

خِدمةُ الرَّجُلِ أهْلَه إحسانٌ وصِلةٌ وتَواضُعٌ

عُبِّر بلفظ ﴿لِأَهۡلِهِ﴾، وهمُ الزَّوجُ والأولادُ للإيذانِ بأنَّ أهلَ موسى عليه السلام كانوا معهُ وأنَّه كان مهتمًّا بهم وساعيًا إلى الإحسانِ إليهم بأخذ قبسٍ منَ النَّار لحاجتِهم لها في ذلك الليل البهيم.

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾:

الحِرصُ على راحةِ الأهلِ والخوفُ عليهم من سُننِ الأنبياء والمرسلين

أمرهم عليه السلام بالمكثِ في مكانِهم؛ لئلَّا يتَّبعوه فيما عزم عليه منَ الذَّهاب إلى النار، كما هو المعتادُ، حرصًا على أهلِه وخوفًا عليهم؛ لا لئلَّا ينتقلوا إلى موضعٍ آخرَ؛ فإنَّه ممَّا لا يخطُر بالبال[1]، فالأمرُ هنا أفاد الوجوبَ، وهو حقٌّ للزوج على زوجته.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾:

منَ الإحسانِ إلى الأهلِ إخبارُهم بموضعِ الذَّهابِ وإيذانُهم بالرُّجوعِ

لَمَّا كان المكثُ بمعنى الإقامة في موضعٍ واللُّبثِ فيه مع الانتظار مدَّةً قليلةً منَ الزَّمن؛ عُبِّرَ به هنا دون أن يقول: (أقيموا)؛ لِأَنَّ الإِقامَةَ تَقْتَضِي الدَّوامَ، والمُكْثُ لَيسَ كذلك[2]، لكي يأمنَ أهلُه بذهابِه، ويُؤذنَهم أنَّه راجعٌ إليهم، ولن يطيلَ عليهم، وفيه تنبيهٌ لهم بألَّا يعجلوا، فيتَّبعوه عندَ ذهابِه إلى النَّار.

بلاغةُ الرَّبطِ والتَّعليلِ في الآية:

توفُّرُ وسائلِ الدِّفءِ للإنسانِ تدعوه إلى الاستقرارِ والاطمئنانِ

في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ جاءت ﴿إِنِّيٓ﴾ تعليلًا للأمر بالمُكثِ ولربطِ هذه الجملةِ وما يليها بما قبلَها، أي: إنَّه أمرهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 6.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 172.

بالإقامة في مكانِهم؛ لأنَّه آنس نارًا، أو يكون سببُ مكثِهم هو أنَّه آنسَ نارًا، فالجملة تعليلٌ للأمرِ أو للمأمور(1)، ولذلك لم تُعطف على سابقتها لكمال اتِّصالِها بها.

فائدةُ تتابعِ التّأكيدِ في الآية:

من الإحسانِ بالأهلِ تبشيرُهم بزرعِ الأمنِ والطُّمأنينةِ في نفوسِهم

لَمَّا وجَدَ موسى ﵇ مِنْ نفسِه الإيناسَ، وكان مقطوعًا به عندَه متيقَّنًا؛ لأنَّ إيناسَ النَّار بمعنى رؤيتِها من بعيدٍ بالبصرِ؛ حققَّه لهم، وأكَّدَهُ بكلمةِ ﴿إِنِّيٓ﴾ وبالجملة الاسميَّةِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، وبمجيءِ المسندِ جملةً فعليَّةً تضمَّنت تَكرارَ ذكرِ المسنَد إليه؛ لتوطينِ أنفسِهم، ولِقَصْدِ الاهْتِمام به بِشارَةً لِأَهْلِه؛ إِذْ كانوا في الظُّلْمَةِ، فليس مجيءُ الخبرِ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ للردِّ على تردُّدٍ من أهلِه أو إنكارٍ منهم على رؤيتِه النَّارَ وعزمِه الذَّهابَ إليها(2).

بلاغةُ مجيءِ المسنَدِ جملةً فعليّةً في الآية:

بثُّ الأمنِ في نفوسِ الأهلِ دفءٌ وراحةٌ لهم

أفاد مجيءُ المسنَد في قولِه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ جملةً فعليَّةً تقويةَ الحكمِ، والمقامُ مقامُ توكيدٍ وتحقيقٍ؛ ليُطمئِنَ أهلَه، ويبثَّ فيهم الأمنَ في ذلك اللَّيل المُظلم والشّتاء البارد، وجاء الفعلُ بصيغة الماضي للقطعِ بإيناسِه النَّارَ.

نُكتةُ الإسنادِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾:

نسبة المسبَّب إلى السببِ

أشعر الإسنادُ إلى ضمير المتكلِّم المقصودِ به موسى ﵇ أنَّ الإيناسَ وُجِدَ منه، وكانَ مُنْتَفيًا عن أهلِه حَقيقَةً(3)؛ تمهيدًا للقيام بالمهمَّة وإيذانًا بأنَّه هو المطلوبُ.

نُكتة العُدولِ إلى لفظِ ﴿ءَانَسۡتُ﴾:

عبَّرَ أوَّلًا بالرّؤية في قولِه: ﴿رَءَا نَارٗا﴾؛ لأنَّ المرادَ حصولُ الرّؤية

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 6، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 481.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16، والشهاب، حاشية على البيضاوي: 6/ 331، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 481، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 149.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.

لفظُ (أنسَ) يفيدُ حصولَ الرُّؤيةِ من غيرِ شبهةٍ مع الأُنسِ بالمرْئيِّ

بالعين، ثمَّ عدلَ إلى الإيناس لمناسبة المقام، فإنَّ لكلِّ كلمةٍ في القرآن مع أختِها مقامًا، وسببُ العُدول إلى ﴿ءَانَسۡتُ﴾ هو إعلامُ موسى أهلَه أنَّه أبصرَ النَّارَ إبصارًا بيِّنًا لا شبهةَ فيه، وأنَّه أحسَّ بها، ويُلمَحُ في اللّفظ شعورُه بالأُنسِ بها والسَّكنِ إليها في وحشةِ الليل وشدَّة البرد[1]، كما أفاد اللّفظُ أنَّ النَّارَ بعيدةٌ عنهم، كما تقدَّم في شرح مفردةِ ﴿ءَانَسۡتُ﴾؛ ولهذا أعقبَ إيناسَه بالنَّار رجاءَه بحصولِ الخير لهم من ذهابه، فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

نُكتةُ إعادةِ لفظِ ﴿نَارٗا﴾:

لمَّا اختلف مقامُ الكلام؛ تكرَّر لفظُ النَّارِ نَكرةً

ذُكر اللّفظُ أوَّلًا عند قوله: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾؛ لأنَّه من إخبار اللّه تعالى، ثمَّ أعيدَ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ لأنَّه مقولُ قولِ موسى عليه السلام لأهلِه، فلمَّا اختلف الإخبارُ؛ أُعيد اللّفظُ زيادةً في تقريرِ المعنى وبيانًا لأهميَّة ما سيقع عندَ النَّار، ولاختلافِ الإخبار جاء اللّفظُ نكرةً في الموضعين، ويحتملُ أنَّ موسى عليه السلام كانَ قدْ أبصرَ النَّار وحدَه، فلمَّا أخبرَ أهلَه؛ جاء اللّفظُ نكرةً، فاللّفظُ ذُكرَ لأوَّل مرَّةٍ مع أهلِه، وهي نارٌ غيرُ معروفةٍ ولا منسوبةٍ لأحدٍ فاستحقَّ اللّفظُ التَّنكيرَ.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالأداةِ ﴿لَّعَلِّيٓ﴾:

لا تَعِدْ ما لم تتيقَّن بالوفاءِ به

لَمَّا كانَ الإيناسُ بالقَبَسِ ووُجودِ الهُدَى مُتَرَقَّبَيْنِ مُتَوَقَّعَيْنِ، وكان حصولُهما مترتِّبًا؛ بُني الأمرُ فيهما على الرجاء، فقالَ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾، ولَم يَقطَعْ، فيَقولُ: (إنّي آتيكُم)؛ لِئَلَّا يَعِدَ ما لَم يَتَيَقَّنِ الوَفاءَ بِه، بخلاف الإيناس، فإنَّه كان محقَّقًا؛ ولذلك أكَّدَه لهم ليوطِّنوا أنفسَهم عليه كما تقدَّم[2].

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 363، وأبو البقاء الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1396.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 53، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 24.

فائدةُ التَّعبيرِ بالإيتاء:

الإيتاءُ يدلُّ على سهولةِ الحصولِ على الشّيءِ

عبَّرَ بالإيتاءِ على معنى توقُّع تحصيل القبس وسهولةِ الإتيانِ به إلى أهلِه.

معنى ﴿مِّنۡهَا﴾:

(مِنْ) هنا تبعيضيَّة، بمعنى آتيكم بشعلةٍ مقتبسةٍ من معظمِ النَّار التي آنستُها.

غرضُ تقديمِ ﴿مِّنۡهَا﴾:

الإشعارُ بأهمّيّة النَّار التي آنسها موسى عليه السلام

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡهَا﴾ على ﴿بِقَبَسٍ﴾ ليكون حالًا منَ القبس، والغرضُ منَ التَّقديم الإشعارُ بأهميَّة النَّار التي آنسَها، وأفادَ التَّقديمُ أنَّ القبس يكونُ منَ النَّار التي آنسَها، وليس من غيرِها.

معنَى الباءِ في قوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾:

الباء للإلصاقِ بمعنى أنَّ إتيانَ موسى أهلَه يكون ملتصقًا بالقبس غير منفكٍّ عنه.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿بِقَبَسٍ﴾:

الحرصُ على إيناسِ المستوحشِ ولو كان قليلًا

جاء لفظُ ﴿بِقَبَسٍ﴾ نكرةً للإشعارِ بأنَّه يأتي أهلَه بأيِّ قبسٍ، ولو كان قليلًا.

معنَى ﴿أَوۡ﴾:

الواوُ لتحصيلِ أحدِ الأمرين أو كليهما

﴿أَوۡ﴾ هنا لمنعِ الخُلوِّ[1]، بمعنى: أنَّه يتوقَّعُ تحصيلَ أحدهما أو كليهما معًا.

سببُ العطفِ في قولِه: ﴿أَوۡ أَجِدُ﴾:

ظهورُ النَّار وعُلوُّها لا يخلو من أهلٍ لها وناسٍ عندها

قد يقالُ: ما سببُ عطفِ قولِه: ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ على الإتيانِ بقبسٍ منَ النَّار؟ وجوابُه: أنَّه أراد الأمرَين، كما تقدَّم في

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 6، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 319.

معنى ﴿أَوْ﴾، ولأنَّ النَّارَ لا تخلو من أهلٍ لها وناسٍ عندها[1]، ولأنَّ إضاءةَ النَّار العظيمةِ أقوى وأظهرُ في الدّلالة على الطَّريقِ.

نُكتةُ حرفِ الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

الاستعلاءُ على معنى الإشرافِ على النَّارِ والقيامِ عليها

الظَّاهرُ أنَّ لفظةَ ﴿عَلَى﴾ هُنا على بابِها مِنَ الاسْتِعْلاءِ، ومَعْنَاهُ: أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَسْتَعْلُونَ المَكانَ القَريبَ مِنْها الملاصقَ لها، ولأَنَّ المُصْطَلِينَ بِها والمُسْتَمتِعِينَ إِذا تَكَنَّفوها، وأحاطوا بها قيامًا وقُعودًا، كانوا مُشْرِفينَ عليْها[2]، وذهب بعضُ اللّغويّين والمفسِّرين إلى أنَّ ﴿عَلَى﴾ مضمِّنةٌ معنى عندَ، والمعنى: (أو أجدُ عندَ النَّار مستشرفًا عليها هدًى)[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

(أل) هنا عهديَّةٌ، بمعنى أجدُ على النَّار التي آنستُها هدًى، والمرادُ النَّارُ التي آنسها موسى عليه السلام.

غرضُ تقديمِ ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

التّقديمُ للاهتمامِ ورعايةِ الفاصلةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ على المفعول ﴿هُدًى﴾ للاهتمام بالنَّار؛ لأنَّها موضعُ حاجتِه، فإمَّا أن يأتي منها بقبسٍ، أو يجدَ عليها هدًى يرشدُه إلى الطَّريق، كما أنَّ في التَّقديم رعايةً للفاصلةِ.

فائدةُ الإظهارِ في قولِه: ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾:

الهُدى هو المقصودُ الأوَّلُ طلبًا وعنايةً

لمَّا قال: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾؛ كان الظَّاهرُ أن يقال: (أو أجد عليها هدًى)، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ جاء على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فأظهرَ في موضع الإضمارِ للإشعارِ بأنَّ الهدى هو المقصودُ، وهو الأوَّلُ طلبًا والأَولى عنايةً، وأنَّ هداه المطلقُ سيكون على النَّار التي آنسَها.

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 365.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 53، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.

(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 264، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 24، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 315.

نُكتةُ التَّعبير بلفظِ ﴿هُدَى﴾ وتنكيرِها:

الهُدى اسمٌ لكلِّ ما يُهتدَى به من طريقٍ أو مُرشدٍ هادٍ أو دليلٍ أو علامةٍ

لَمَّا كان الهُدى اسمًا لكلِّ ما يُهتدى به من طريقٍ أو مُرشدٍ هادٍ أو دليلٍ أو علامةٍ؛ عُبِّرَ بالمصدر النَّكرةِ، للإشعارِ بأنَّه كان قد ضلَّ الطَّريقَ في تلك اللّيلة الباردةِ، أو يكونُ قد استقبلته الطُّرقُ، فلم يعلم الطَّريقَ الذي له من غيره، وكان يريدُ أيَّ هدًى يهتدي به، وإن لم يكن بشرًا مخبرًا هاديًا للطَّريق، وإن كان المرادُ منَ المصدر خصوصَ اسمِ الفاعل، أي: هاديًا يدلُّني على الطَّريق؛ أفادَ أنَّه مصدرٌ سمّيَ به الفاعلُ مبالغةً في الهداية أو حُذف منه المضافُ، أي: ذا هدايةٍ أو على أنَّه إذا وُجد الهادي؛ فقد وُجِدَ الهُدى، والوجهُ الأوَّلُ أولى؛ لأنَّ الهُدى يعمُّ المعانيَ كلَّها[1]، وجاءت لفظةُ ﴿هُدَى﴾ منكَّرةً تعظيمًا لشأنها، ولتفيدَ التَّعميمَ؛ لأنَّه كان يبحثُ عن أدنى هُدى.

توجيهُ المتشابه اللّفظيِّ:

لكلِّ عبارةٍ في القرآن مقامُها وسياقُها

أوَّلًا: جاء في سورة طه، وفي سورة القصص ذكرُ (لعلَّ)، فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾، وقال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: 29]، وفي سورة النَّمل أتى بالسّين، فقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: 7] وتوجيهُه أنَّ موسى عليه السلام ذكر معنّى السّين ولعلَّ في كلامِه، فكأنَّه قال: (سأذهب لعلّي آتيكم) للإشعارِ بأنَّه عزمَ على الذَّهاب، وتأكَّد عنده العزمُ، وكان متوقِّعًا حصولَ مقصودِه، ومناسبةُ التَّعبير بـ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل: 7] في سورة النَّمل أنَّه سبق الكلامَ على قصّةِ موسى قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النّمل: 6]، ففيه حَثٌّ على قوَّة التَّلقّي والثّباتِ عليه والدَّعوةِ إلى تبليغه بقوَّة، فناسبَه مجيءُ السّين التي تفيدُ التّأكيدَ، فهي أقوى في ثبوت الخبرِ في المستقبل من (لعلَّ)، للإشعارِ بأنَّ موسى عليه السلام كان قويًّا في

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 53، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 38، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 6.

عزمِه كذلك، كما أنَّه في سورتَيّ طه والقصص ذكرَ (لَعَلَّ) بعد الإخبار عن سيرِه وسفرِه المُؤْذِنِ بالتَّعبِ والمشقَّة، وفي سورة القصص ذُكِرَ فيها خوفُ موسى عليه السلام، فناسبه عدمُ القطع وذِكْرُ التَّوقُّع، وأمَّا في سورة النَّمل؛ فلم يتقدَّم القصَّةَ ذكرُ السَّفرِ والسَّيرِ بأهلِه، فبعد أن ذكر إثباتَ تلقّي رسولِ الله ﷺ القرآنَ من لدن حكيم خبير، قال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: 7]، فناسبَه مجيءُ السّين، فلكلٍّ موضع لفظُه ومناسبتُه.

ثانيًا: جاء في سورة القصص تكريرُ (لَعَلَّ) لفظًا وفي سورة طه والنَّمل ذُكر اللّفْظ مرَّةً واحدةً؛ لأنَّ ﴿أَوْ﴾ في قَوْله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ نائِبٌ عَن ﴿لَّعَلِّيٓ﴾، فالعطفُ على نيَّة تكرير (لَعَلَّ)، و﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ تَتَضَمَّن معنى ﴿لَّعَلِّيٓ﴾؛ لأَنَّ (لَعَلَّ) تتضمَّن معنى الاستقبال، فالتَّرجّي لايكونُ إلَّا في المستقبل(1).

ثالثًا: جاء في سورتَيّ طه والقصص ذكرُ ﴿ءَاتِيكُم﴾ [القصص: 29] مرَّةً واحدة، وتكرَّر الفعلُ في سورة النَّمل، فقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النّمل: 7]، ومناسبتُه أنَّه لمَّا اقترن الفعلُ الأوَّلُ بالسّين الدَّالَّة على تأكيد الفعلِ؛ ناسبه تكرارُ الفعل المفيدُ تقويةَ تأكيدِ عزمِه على الإتيانِ بأحدِ الأمرين أو بكليهما، وأمَّا الغرناطيّ؛ فقد وجَّهه توجيهًا آخر، فقال: "وأما تكرار: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ [النمل: 7] في سورة النمل؛ فليس فيه إلَّا تَكرارُ ما يُحرزُ التّأكيدَ، وتأكيدُ ما هو خبر ليس أمرًا ولا نهيًا إنَّما ثمرتُه وفائدتُه صدقُ الإخبار، وذلك حاصل هنا سواء تأكَّد أم لم يتأكَّد، وإذا كان الكلامُ على ما قلنا، والصّدقُ حاصل على كلّ حال؛ فلا يُنكَرُ إذا حُكي بمعناه، أو يؤكَّدُ مرَّةً، ولا يُؤكَّدُ أخرى، إذ لا زيادةَ للتّأكيد فيه سوى الجري على مُرتكبات العرب في مثله(2).

رابعًا: جاء في هذه السورة قولُه تعالى: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، وفي القَصَص ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: 29]، وفي النَّمل ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: 7]، فذكرَ القبسَ في سورة طه،

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 174.

(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 334.

والجذوةَ في القصص، والشِّهابَ من نارٍ في النَّمل، وتوجيهُ الآيات على العموم في اختلاف الألفاظ في كلِّ سورة مع اتِّحادِ الواقعة والقضيَّةِ، هو أنْ يقال: إنَّ الله تعالى لم يخبرْ أنَّه خاطبَ موسى عليه السلام باللّغةِ العربيّةِ بألفاظٍ إذا عدلَ عنها إلى غيرها ممَّا يخالفُ معناها كان اختلافًا في القرآن، بل معلومٌ أنَّ الخطابَ كان بغير هذه اللّغةِ[1]، وأنَّ قولَ موسى عليه السلام لم تردْ حكايتُه قطعًا إلَّا بالمعنَى لاختلاف اللّسانَين؛ لأنَّ موسى لم يتكلَّم العربيَّةَ مع قومِه، وإذا تقرَّر كونُها بالمعنى، والتَّرادفُ فيما بين اللّغتين في كلِّ لفظتَين يرادُ بهما معنًى واحدٌ غيرُ مطَّردٍ، فلا إشكالَ في أنَّ المعنى قد يتوقَّف حصولُه على الكمال على تعبيرَين أو أكثرَ، لا سيَّما مع ما في اللِّسانِ العربيِّ منَ الاشتراكِ والعمومِ والخصوصِ والإطلاقِ والتّقييدِ والحقيقةِ والمجازِ وغيرِ ذلك من عوارض الألفاظ، فكيف ينكرُ اختلافُ التّعبير عنِ المعنَى الواحد بألفاظٍ وعباراتٍ مختلفةٍ، بل نقول: إنَّه لو كان المحكيُّ قولًا عربيًّا، وحُكي بالمعنى؛ لَما استُنكِرَ اختلافُ العبارةِ، فكيف مع اختلافِ اللّسانَين؟[2] فهذا التّوجيهُ على العمومِ في كلِّ الألفاظ التي وردت مختلفةً في قصص القرآن مع اتِّحادِ الواقعةِ، وأمَّا خصوصُ مجيء القبس مرَّةً والجذوةِ والشّهابِ في موضعَين آخرين؛ فهو أنَّها كلَّها شيءٌ واحدٌ، فالجذوةُ منَ النَّار خشبةٌ في رَأسِها قبسٌ لَها شهابٌ، فهيَ في السّورِ الثَّلاثِ عبارَةٌ عَن معنًى واحِدٍ[3]، أو يقال: القبسُ هو النَّارُ التي تكونُ في رأس العود على معنى أخذِها للانتفاع منها، سواء أكانَ القبسُ جذوةً أم شهابًا، والجذوةُ هي قطعةٌ غليظةٌ منَ الحطب، فيها نارٌ لا لهبَ لها، أي: هي عودٌ قد احترقَ، فهي جمرةٌ ملتهبةٌ من نارٍ[4]، سواء أكانت صغيرةً أم كبيرةً، والشِّهابُ هو اللَّهبُ الذي فيه إضاءةٌ، فالقبسُ قد يكون جذوةً في بدايتِه، ويكونُ شهابًا بعد الجذوةِ أو بالعكس بأن يكونَ شهابًا عندَ النَّار، فإذا رجعَ إلى أهلِه؛ ضعفَ الشِّهابُ، وصار جذوةً، فلا تعارضَ في التّعبير، وأيضًا ذكر الجذوةَ والشِّهابَ مع الاصطلاء الذي هو الاستدفاءُ، لمناسبتِها له، وأمَّا في سورة طه؛ فقد ذكر اللّفظَ الأعمَّ؛ لأنَّه لم يذكرِ الاصطلاءَ، وإنَّما قصدَ مطلقَ الانتفاع.

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 891.

(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 337.

(3) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 174.

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 332، وأبو حيان، تحفة الأريب، ص: 91، والجوهري، الصحاح: (جذو).

خامسًا: جاء في سورة طه تقديمُ الإتيان بالقبس على إيجاد الهُدى، وفي سورتَي النَّمل والقصص، قُدِّم الإتيانُ بالخبر على الإتيان بالشّهاب أوِ الجذوة، وبيانُه أنَّه لَمَّا كان حالُ موسى وأهلِه في شدَّةٍ بسبب اللّيلِ البهيم وقسوةِ بردِ الشِّتاء، وكان في سفرٍ؛ قدَّمَ الإتيانَ بقبس من نارٍ؛ لأنَّه الأهمُّ لحالِهم، لعلَّهم يَصطلون بهذا القبس، ولأنَّ توقُّعَه الحصولَ على القبس أكثرُ؛ لأنَّه آنس النَّارَ، فقدَّم ما هو لأجلِهم ليأمنوا، ويَطمئنّوا، كما أنَّ في تأخير قولِه: ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ رعايةً للفاصلة[1]، وأمَّا في سورة النَّمل؛ فلم يتقدَّم ذِكْرُ السَّفر وتحمُّلِ أعبائه، فقدَّم ذِكْرَ إتيانه بالخبر الذي هو المقصدُ الأهمُّ لهم جميعًا على الإتيان بشهابٍ قبسٍ للاصطلاء، وأمَّا في سورة القصص؛ فقد تقدَّم ذكرُ مسيرِ موسى عليه السلام وأهلِه، ومع هذا قدَّم الإتيانَ بالخبر على الإتيانِ بالجذوة، والسَّببُ أنَّه تقدَّمَ الآياتِ ذكرُ تلقّيه أخبارًا، منها: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: 15]، وقولُه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: 22 - 23]، ولَمَّا ذكر رؤيتَه النَّارَ؛ قال: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: 29]، فروعيَ تقديمُ الإتيانِ بالخبر على الإتيانِ بالنَّار، للإشعار بأنَّ موسى كان يتلقَّى أخبارًا في كلِّ موضعٍ يأتيه، ومنَ اللّطائف أنَّه في سورة طه قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، ولم يقل: (أو أجد على النَّار خبرًا)، ومناسبةُ ذلك لِما بُنيت عليه سورةُ طه من تأنيس نبيِّنا ﷺ، وافتتاحِها بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، فناسبه ذكرُ وُجدان الهُدى، ومن تأمَّلَ ذلك؛ يَلُحْ له التَّلاؤمُ والتَّناسبُ[2]، والعباراتُ يكمِّل بعضُها بعضًا في إتمام المعنى وكمالِه.

سادسا: تنوُّع الإخبارُ في بيان قصَّة موسى، فقال تعالى في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، وفي النَّمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 319.

(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 335.

﴿بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٧﴾ [النمل: 7]، وفي القَصَص ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]، فهَذه الآياتُ تشْتَملُ على ذكر رُؤْيَة موسَى النَّارَ وأمره أَهلَه بالمكث وإخباره إيَّاهُم أنه آنس نارًا وإطماعِهم أن يأْتيهم بنارٍ يصطلون بها، أو بخَبَر يَهْتَدونَ به إلَى الطَّريق الَّتي ضلّوا عَنْها، لكنَّه نقَّص في النَّمل ذِكْرَ رُؤْيَته النَّارَ وأمرَ أَهله بالمكث اكْتِفاءً بِما تقدَّم، وزاد في القَصَص قَضاءَ موسَى الأَجَلَ المَضْروبَ وسيرَه بأَهْله إلى مصر؛ لأنَّ سورةَ القصص قد بُنيت على الإطناب في ذكر قصَّةِ موسى منذ بدايتها، قال تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ [القصص: 3]، وتوجيهُه عمومًا أنْ يقالَ: إنَّ الشَّيْء قد يُجمَلُ ثمَّ يُفَصَّلُ، وقد يُفَصَّلُ، ثمَّ يُجمَلُ، وفي سورة طه التي هي من أوائل سوَرِ القرآن فصَّلَ، وأَجمَلَ في النَّمل، ثمَّ فصّل في القَصَص، وبالغ فيه لِما تقدَّم من بنائِها على قصَّةِ موسى عليه السلام(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيناس والرؤية:

الإينـاسُ رؤيـةُ الـشَّيءِ بلا شُبهةٍ، والرُّؤيةُ إبـصـارُ الـشَّيء بالعينِ

الفرقُ بينهما: أنَّ الإيناسَ هو رؤيةُ الشّيء من بعيد رؤيةً واضحةً بيّنةً لا شُبهةَ فيها، وزاد الواحديُّ وغيرُه أنَّ الإيناسَ فيه معنَى السَّكنِ إلى المَرئيِّ والاستئناسِ به(2)، فلا يُؤتَى بلفظِ الإيناسِ إلَّا إذا أراد المتكلِّمُ تأكيدَ خبرِ الرّؤيةِ للشَّيء مع الاسئناسِ به والسَّكنِ إليه، وأمَّا الرّؤيةُ؛ فهي إبصارُ الشَّيء بالعين، وقد تُستعملُ بمعنى رؤيةِ القلب لتكونَ بمعنى العلم، كما تُستعملُ الرّؤيةُ بمعنى الظَّنِّ مجازًا(3).

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 174.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 363، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 1396.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 94.

الحديث والخبر:

الحديثُ فيه معنى الشّيوعِ والتَّحدُّث به، والخبرُ ليس كذلك

الخبرُ هو القولُ الذي يصحُّ وصفُه بالصّدقِ والكذبِ، ويكونُ الإخبارُ به عن نفسك وعن غيرك، وأصلُه أن يكونَ الإخبارُ به عن غيرك، والحديث في الأصل هو ما تُخبرُ به عن نفسك من غير أن تُسندَه إلى غيرك، وسمّي حديثًا لأنَّه لا تقدُّمَ له، وإنَّما هو شيءٌ حدثَ لك، فحدَّثتَ به، ففيه معنَى الإثارةِ والتَّنبيه إلى مزيدِ إصغاءٍ أكثرَ منَ الخبر، وفي الحديث معنَى شيوعِه بين النَّاس؛ لأنَّه يُتحدَّثُ به، ثم كثر استعمالُ اللَّفظين حتَّى سُمّي كلُّ واحدٍ منهما باسم الآخر، فقيلَ للحديثِ: خبرٌ وللخبرِ حديثٌ، ويجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ الحديثَ ما كان خبرَين، فصاعدًا؛ إذا كان كلُّ واحد منهما مُتعلِّقًا بالآخر، فقولُنا: رأيت زيدًا خبرٌ، ورأيت زيدًا مُنطلقًا حديثٌ، وكذلك قولُك: رأيت زيدًا وعمرًا حديثٌ مع كونِه خبرًا[1].

الأهل والآل:

الأهلُ يكونُ من جهةِ النَّسبِ والاختصاصِ والآلُ خاصَّةُ الرَّجلِ من جهةِ القرابةِ أوِ الصُّحبةِ والموالاةِ

الأهلُ والآلُ كلاهما جمعٌ في المعنى فردٌ في اللَّفظ، والفرقُ بينهما: أنَّ الأهل يكونُ من جهةِ النَّسبِ والاختصاصِ، فمِنْ جهةِ النَّسبِ، يقال: أهلُ الرّجل، لقرابتِه الأَدنين، ومِنْ جهةِ الاختصاصِ يقالُ: أهلُ البصرة وأهلُ العلم، وإذا قُصِدَ الزَّوجُ؛ فيقال: أهلُه، ولا يقال: آله، والآلُ خاصَّةُ الرَّجلِ من جهةِ القرابةِ أوِ الصُّحبةِ والموالاةِ، فيقال: آلُ الرَّجلِ لأهله وأصحابه، ولا يقالُ: آل البصرةِ وآل العلم، وقالوا: آل فرعون أتباعُه وكذلك آل لوط، وقالَ بَعضهم: الآلُ عيدان الخَيْمَة وأعمدتُها، وآلُ الرّجل مشبّهون بذلك؛ لأَنَّهم مُعْتَمدُه، كما أنَّ الآلَ مختصٌّ بالإضافة إلى الأشرافِ العقلاء الذُّكور، فلا يقال: آلُ الإسكافيِّ، ولا آلُ مكَّة، ولا آلُ فاطمة، ويقال: آل النَّبيِّ وآلُ السُّلطان[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281، والراغب، المفردت المفردات: (آل)، والكفوي، الكليات، ص: 172.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الوصولُ إلى الله تعالى أعظمُ الغاياتِ

لَمَّا أخبرَ اللّه تعالى عن موسى عليه السلام أنَّه أمرَ أهلَه بالإقامة في مكانِهم معلِّلًا ذلك بذهابِه إلى موضعِ النَّار ليأتيَهم منها بقبسٍ، أو يجدَ هدًى يهتدي به في سفرِه؛ أعقبَه بذكر وصولِه مطلوبَه ونداءِ اللّه له حينَ إتيانِه موضعَ النَّار، فجاءت هذه الآيةُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱخۡلَعۡ﴾: أصلُ الخَلعِ هو اللَّحْمُ يُؤْخَذُ مِنَ العِظام، ويطبخُ، ويُبزَّرُ، ثمَّ يُجعَلُ في وعاءٍ، يُقال لَهُ: القَرْف، ويُتزوَّد بِه في الأَسْفار، ويدورُ معنى اللَّفظِ على نزعِ الشَّيءِ الذي كان يشتملُ به أو عليه، والخِلْعةُ مِنَ الثّياب: ما خلعتَه، أي: نزعتَه، فطرحتَه على آخرَ أَوْ لم تطرحْه، ويُقال: أصابَه في بعض أَعْضائِه خَلْع، وهوَ زَوالُ المفاصل من غير بينونةٍ، والخليعُ: الَّذي قد خلعه أهلُه وتبرَّؤوا مِنْهُ، فإِنْ جَنَى؛ لَم يُطْلَبوا بِجِنايَتِه، وإِنْ جُنيَ عليْه؛ لَم يَطْلُبوا به[1]، و﴿فَٱخۡلَعۡ﴾ في الآية بمعنى: انزِع[2].

2) ﴿نَعۡلَيۡكَ﴾: النَّعْلُ ما جَعَلْتَهُ وِقايَةً لِقَدَمَيْكَ مِنَ الأَرْضِ عند المشي، يقال: نَعِلَ، يَنْعَلُ، فهو ناعِل، وانْتَعَل بكذا، ويدورُ معنى اللّفظ على حفظ الشّيءِ بلزوم مناسبٍ له يقيه الخشونةَ والتّآكلَ ونحوَهما، ومنه النِّعالُ، وهي الأَرَضون الصِّلابُ؛ لأنّها ليست خشنةً، ولا تؤثِّرُ في القدم حين ملامستِها، وقيل: يدورُ معنى اللّفظ على اطْمِئْنانٍ في

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خلع).

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 367.

الشَّيْءِ وتَسَفُّلٍ، ومِنْهُ النَّعْلُ المَعْروفَةُ؛ لِأَنَّها في أَسْفَلِ القَدَمِ، وتحيطُ بما يلي الأرضَ[1].

3) ﴿بِٱلْوَادِ﴾: يدورُ معنَى الودي على سيلانِ الشَّيء، ومنه الوادي: الموضعُ الذي يسيلُ فيه الماء، ومنه سُمّيَ المَفْرَجُ بين الجبلين واديًا، وجمعُه: أَوْدِيَةٌ، ويُستعارُ الوادي للطَّريقة كالمذهبِ والأسلوب، و﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ هو الموضعُ الذي كلَّم اللّه فيه موسى كما جاء في الآية.

4) ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: يدورُ معنى القُدس على الطُّهر الرَّوحاني أوِ الطُّهر الإلهيّ، وليس الطُّهرَ منَ النَّجاسة، ومنه: الأَرْضُ المُقَدَّسَةُ هيَ المُطَهَّرَةُ، والبَيت المُقدَّس، أي: المطهَّر الَّذي يُتَطَهَّرُ به، ومنه صفةُ اللّه تَعالى: القُدّوسُ، أي: المطهَّرُ المنزَّهُ عَنِ العُيوب والنَّقائص، ولأنَّ القدسَ بمعنى التَّطهيرِ الإلهيِّ جاء اللّفظُ بمعنى البركة؛ لأنَّ ما طهَّره اللّه هو مباركٌ، فقيل: أرضٌ مقدَّسةٌ، أيْ: طاهرةٌ ومباركَةٌ، والتَّقْديس: التَّطْهير والتَّبْريك[2]، ومعنى ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهَّرُ المباركُ[3].

5) ﴿طُوًى﴾: طَوَيْتُ الشَّيءَ طَيًّا، وذلك كَطَيِّ الدَّرَج، ومنه: طَوَيْتُ الفلاةَ، ويعبِّرُ بالطَّيِّ عن مُضيِّ العُمرِ، يقال: طَوَى اللّهُ عُمرَهُ، و﴿طُوًى﴾ هو اسمٌ للوادي، وقيل: إنَّ ذلك جُعل إشارةً إلى حالةٍ حصلت له على طريق الاجتباءِ، فكأنَّه طَوَى عليه مسافةً لو احتاج أن ينالَها في الاجتهاد؛ لبَعُدَ عليه.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى ما حدثَ عند اقترابِ موسى منَ النَّار، فلمَّا أتى موسى عليه السلام تلك النَّارَ؛ ناداه اللّه: يا موسى، إنّي أنا ربُّك الذي

مناجاةُ الله تقتضي طهارةَ النَّفس والمكانِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نعل).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قدس).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 280.

يخاطبُك، ويتكلَّمُ معك، فاخلَعْ نَعلَيك؛ احترامًا للبُقعةِ المقدّسةِ، وليحصلَ لقدميك البركةُ؛ لأنَّك بالوادي المطَهَّرِ المُبارَكِ ﴿طُوًى﴾.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الفاءِ في قوله ﴿فَلَمَّآ﴾:

تعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبِه وقتًا وحالًا

تفيدُ الفاء التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، بمعنى: أنَّه ﷺ أتى النَّار بعدَ أن أخبر أهلَه بالمسيرِ إليها، ولم يكن بين قولِه لأهلِه وإتيانِ النَّارِ أيُّ مهلةٍ، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبِه وقتًا وحالًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَلَمَّآ﴾:

ما حصل من مجيءِ موسى ونداءِ الله له قضاءٌ قضاه الله وسبق به علمُه

عبّرَ بـ﴿فَلَمَّآ﴾ الحينيةِ التي تفيدُ معنى الشَّرطِ دونَ غيرِها منَ الأدوات التي تدلُّ على الوقت؛ للإشعار بأنَّ موسى ﷺ مضى في سيرِه إلى النَّار بعدَ أن آنسها، وأنَّ سيرَه أخذ منه وقتًا، ولم يتوَقَّف، أو ينقطع عن سيرِه بعدَ أن أمرَ أهلَه بالمُكثِ في موضعِهم، ففي الكلامِ إيجازٌ بحذفِ ما هو مفهومٌ، ولا يتعلَّقُ بذكرِه غرضٌ، كما أفادَ التَّعبيرُ بـ﴿فَلَمَّآ﴾ أنَّ نداءَ اللّٰه تعالى لموسى كانَ في وقتِ إتيانه النَّار التي آنسها، تكريمًا وتشريفًا له ﷺ، وفيه تنبيهٌ إلى سرِّ قضاء اللّٰه وحكمتِه بأنَّ نداءَ اللّٰه تعالى لموسى وتكليمَه كان مرتَّبًا على مجيئِه إلى هذا الموضعِ المطهَّرِ المبارك.

دلالة قولِه: ﴿أَتَىٰهَا﴾:

إتيانُ الشّيء بمعنى الوصول إليه والقُربِ منه

لَمَّا كان إتيانُ كلِّ شيءٍ بحسبِه، وجاء الفعلُ متعدّيًا بنفسِه؛ أفادَ أنَّ موسى ﷺ قد أتى النَّارَ حتَّى صار قريبًا منها[1].

نُكتةُ بناءِ الفعل ﴿نُودِىَ﴾:

بُنيَ فِعْلُ النِّداءِ لِما لم يُسمَّ فاعلُه زيادَةً في التَّشْويقِ إلى اسْتِطْلاعِ القِصَّةِ، فإبْهامُ المُنادي يُشَوِّقُ سامِعَ الآيةِ إلى مَعْرِفتِه، فإذا فاجَأَهُ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 250.

تشويقُ المخاطَبِ واستدرارُ سمعِه لتمكين المعنَى في نفسِه وتقريرِه

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؛ عَلِمَ أَنَّ المُنَاديَ هوَ اللّه تَعالى، فتَمَكَّنَ في النَّفْسِ كَمالَ التَّمكُّنِ، ولِأَنَّهُ أَدْخَلُ في تَصْويرِ تِلْكَ الحالَةِ بِأَنَّ موسَى ناداهُ مُنادٍ غَيْرُ مَعْلومٍ لَهُ، فحُكِيَ نِداؤُهُ بِالفِعْلِ الَّذي لم يُسمَّ فاعلُه[1].

نُكتة التّعبيرِ بالنِّداء:

النِّـداءُ لتنبيه المُنادَى إلى كمالِ الإصغاءِ إلى المُنادي

عبَّر بلفظ النِّداء، فقال: ﴿نُودِيَ﴾، ولم يقل: (قيل: يا موسى)؛ لأنَّ موسى لَمَّا أتى النَّارَ كان بقصدِ أن يأتي أهلَه بقبسٍ من نارٍ أو أن يجدَ على النَّار هدًى يهديه إلى الطَّريق، فعُبِّرَ بالنِّداء لتنبيه موسى لسماعِ الكلامِ بعد أن كان مشغولًا ذهنُه بما قصدَه من إتيانه النَّارَ، وفي التَّعبير بـ﴿نُودِيَ﴾ إيذانٌ بعظمةِ المُنادي وما يُنادَى به، وهو كلامُ اللّه ﷻ، وفيه إشعارٌ بطلبِ إقبالِ المخاطَب، وهو موسى عليه السلام بكلِّيَّتِه إلى المنادي ﷻ وتنبيهه إلى كمالِ الإصغاء لِما يُلقَى إليه.

نُكتةُ النِّداء بـ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

تعيينُ الشَّخصِ بـالـنِّـداء في موضعِ الرَّهبةِ تـطـمـينٌ لـه وإيناسٌ

عبَّرَ بـ(يا) التي تكونُ لنداء البعيدِ للإشعارِ برفعةِ مكانةِ المأمورِ بسماعِه كلامَ اللّه تعالى وعلوِّ شأنِه، وأنَّه هو المقصودُ على الخصوص بالنِّداء والخطابِ، كما أنَّ في تعيين الشَّخصِ بالنِّداء في موضعِ الرَّهبةِ تطمينًا له وإيناسًا؛ لأنَّك إذا قلتَ: (يا فلانُ)، وهو خائفٌ وفي ليلٍ مظلم شاتٍ طمأنْتَه بلا شكٍّ؛ لأنَّه يقولُ: (هذا يعرفُني، ما ينالُني بسوءٍ)[2].

نُكتةُ الفصلِ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾:

التّعظيمُ لشأنِ المُنادي والمنادَى به

جاءت جُملَةُ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ وما بعدها بَيانًا لِجُملَةِ ﴿نُودِيَ﴾، تعظيمًا لشأنِ المنادي والمُنادَى به[3]، فالفصلُ لكمال الاتِّصالِ، أو للاستئناف البيانيِّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: بماذا نودي؟

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 195.

(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، سورة النّمل، ص: 64.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 196.

بلاغةُ تتابُعِ المؤكِّدات:

تتابُعُ المؤكِّدات لدفعِ الشُّبهةِ وتثبيتِ المعنى وتحقيقِ المعرفةِ

وردت ثلاثةُ مؤكِّداتٍ في الجملة هي ﴿إِنِّيٓ﴾ والضَّميرُ ﴿أَنَا۠﴾ الذي هو ضمير فصل، أو هو تأكيدٌ لاسمِ (إنَّ) والجملةُ الاسميَّةُ، وإذا كان ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأً، خبرُهُ ﴿رَبُّكَ﴾، والجملةُ خبرٌ لـ(إنَّ)؛ فيكونُ في الجملة ثلاثةُ مؤكِّدات أيضًا، هي ﴿إِنِّيٓ﴾ والجملةُ الاسميّةُ ومجيءُ المسنَد جملةً اسميَّة، وفائدةُ مجيءِ ثلاثةِ مؤكِّداتٍ هي تقريرُ مدلولِ الكلامِ وتحقيقُ المعرفة وتأكيدُ الخبرِ؛ لِأَجْلِ غرابَتِه دَفْعًا لِتَطَرُّقِ الشَّكِّ عَنْ موسَى وإماطةِ الشُّبهةِ في مَصْدَرِ هَذا الكَلامِ[1].

فائدةُ الإتيان بالضَّميرِ ﴿أَنَا۠﴾:

تـنـوُّعُ تـوجيه المعنَى لتنوُّعِ إعرابِ الضَّميرِ

تقدَّمَ أنَّه يُحتملُ أن يكونَ ﴿أَنَا۠﴾ ضميرَ فَصْلٍ أو تأكيدٍ لاسم (إنَّ)، وعلى الوجهَين يفيدُ الكلامُ الحصرَ، بمعنى: أَنَّ المتكلِّم هو ربُّك، وليس أحدًا غيرَه، وإن كان ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأً خبرُه ﴿رَبُّكَ﴾، والجملةُ خبرٌ لِـ (إنَّ)؛ أفادَتِ الجملةُ تقويةَ الحكم، فللضّميرِ ثلاثةُ احتمالاتٍ في الإعراب، ويترتَّبُ عليها ثلاثُ توجيهات، ويجمعُها مقصدٌ واحدٌ هو تَحْقيقُ المَعْرِفَةِ وإماطَةُ الشُّبْهَةِ، أي: إنَّ المتكلِّمَ هو اللّٰه تعالى[2].

سرُّ مجيءِ الضَّمائرِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾:

التَّطمينُ والتَّحبُّبُ وسيلةٌ لمواصلةِ الاستماعِ

عبَّر بياء المتكلّم وبالضَّمير ﴿أَنَا۠﴾ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إعلامٍ بالمُنادي قبلَ تلقّي المأموراتِ والمَنهيَّاتِ، وهو مقامُ تسكينٍ لنفسِ موسى عليه السلام؛ لعظمةِ نداءِ اللّٰه وهولِ الموقف، ففيه تطمينٌ لموسى عليه السلام عندَ سماعِه كلامَ اللّٰه العليِّ، وفيه تحبُّبٌ وتودُّدٌ، لمواصَلَةِ الاستماعِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 316، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 196.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 886، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 316.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّة والإضافةِ فيه:

شَأْنُ الرَّبِّ الرِّفْقُ بالمَرْبوبِ والإحسانُ إليه وتدبيرُ أمورِه

الإِخْبارُ عَنْ ضَميرِ المُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ رَبُّ المُخاطَبِ لِتَسْكينِ رَوْعَةِ نَفْسِهِ مِنْ خِطابٍ لا يُرَى مُخاطِبُهُ؛ فإنَّ شَأْنَ الرَّبِّ الرِّفْقُ بالمَرْبوبِ والإحسانُ إليه وتدبيرُ أمورِه، ففيه إشعارٌ بأنَّ إتيانَ موسى عليه السلام، وتكليمَ اللّه له إحسانٌ عظيمٌ إليه، وأنَّه يتجلَّى عليه بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ، والمعنى: (إنّي مالكُك ومدبِّرُك والمحسنُ إليك ومصرِّفك على ما أريدُ)، والغرضُ تسكينُ نفسِ موسى عليه السلام واستماعُه الخطابَ تمامَ الاستماعِ[1].

معنَى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ﴾:

مطلقُ الطَّاعةِ وكمالُ الانقيادِ واحترامُ البقعةِ المباركةِ

لَمَّا ترتَّبَ الأمرُ بخلعِ النَّعلَين على قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ بالفاءِ؛ أشعرَ بأنَّ ربوبيّتَه تعالى له عليه السلام من موجباتِ الأمرِ بخلعِ نعلَيه عندَ البُقعةِ المطهَّرةِ ودواعيه، كما أفادَتِ الفاءُ أنَّ مقتضى تكليمِ اللّه له هو أن يخلعَ نعلَيه؛ لأنَّه في الوادي المقدَّسُ طوًى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَٱخۡلَعۡ﴾:

المشيُ بدونِ نعلٍ في الموضعِ المطهَّرِ من أماراتِ التَّواضعِ

أَمَرَ اللّه تعالى موسى عليه السلام بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظيمًا مِنْهُ؛ لِذَلِكَ المَكانِ الَّذي سَيَسْمَعُ فيه الكَلامَ الإلَهيَّ، وليكونَ موسى عليه السلام أخضعَ وأكثرَ تواضُعًا؛ لأنَّ الحِفوةَ التي هي مشيٌ بدونِ نعلٍ في الموضعِ المطهَّرِ من أماراتِ التَّواضعِ، وليُباشِرَ بِقَدَمَيه بَرَكَةَ الوادي المُقَدَّسِ؛ لأنَّه وادٍ مقدَّسٌ، وفي تعقيبِ الأمرِ بالخلعِ بقولِه: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّه إنَّما أمرُه بخلعِهما لبركةِ المكانِ وقدسيَّتِه، فتَقْديرُ الكلامِ: اخْلَعْ نَعْلَيْكَ؛ لأَنَّكَ بِالوادي المُقَدَّسِ، فيَكونُ الأَمرُ بِخَلْعِ النَّعْلِ مَقْصورًا على تِلْكَ الحالِ في ذَلِكَ الوادي المُقَدَّسِ بِعَيْنِه[2].

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 265، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 196.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 279، والجصاص، أحكام القرآن: 3/ 287، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 266، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 196.

دلالةُ تفريعِ الأمرِ بخلعِ النَّعليْن:

حيثما كان كلامُ الله كان الطّهرُ والقُدسُ

تَفْريعُ الأمرِ بِخَلْعِ النَّعْلَيْنِ على الإِعْلامِ بِأَنَّهُ رَبُّهُ إشارَةٌ إِلى أَنَّ ذَلِكَ المَكانَ قَدْ حَلَّهُ التَّقْديسُ بِإظهارِ كَلامٍ مِنْ عِنْدِ اللّه فيه.

فائدةُ ﴿إِنَّكَ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ﴾:

في الأرض مواضعُ هي محلُّ الطّهرِ والبركةِ

تفيدُ ﴿إِنَّكَ﴾ تقريرَ مضمونِ الجُملةِ في نفسِ موسى ﷺ، للاهتمامِ بالموضعِ الذي هو فيه، لِما فيه منَ الطُّهر والبركةِ.

معنَى الباءِ في ﴿بِٱلۡوَادِ﴾:

ثبتَ موسى في الوادي فقدرَ على تحمّلِ سماعِ كلامِ الله

الباء هنا للإلصاق، بمعنى: أنَّ وجودَك الآن في مكانٍ ملتصقٍ بالوادي، ويُحتملُ أن تكون الباء مضمَّنَةً معنى (في)، للإشعارِ بثباتِ موسى في الوادي وتمكُّنِه منه، ولولا تمكُّنُ موسى في موضعِه لَما قدرَ على تحمُّلِ سماعِ كلامِ اللّه تعالى.

دلالةُ التّعبيرِ بالتّعريفِ والوصفِ:

نزولُ موسى بوادٍ مقدّسٍ وطاهرٍ

أل في ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ عهديَّةٌ، بمعنى: الوادي الذي أنت فيه الآن، وأفاد وصْفَ الوادي بالمقدَّس أنّه وادٍ ذو خصوصيّةٍ مكانيّةٍ وطاهرٌ مباركٌ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿طُوٗى﴾:

اسمُ الوادي الذي سمعَ فيه موسى كلامَ الله تعالى

﴿طُوٗى﴾ اسمُ الوادي عند جمهور المفسِّرين، ونقلَ الإجماعَ عليه الواحديُّ وغيرُه[1]، فإذا كان اسمَ علمٍ للوادي، فيكونُ بدلًا أو عطفَ بيانٍ[2]، وكونُه عطفَ بيانٍ أولى لكونِ اللّفظين مقصودَين، ولأنَّ ﴿طُوٗى﴾ اسمُ علمٍ للوادي، فهو أعلى مرتبةً في التَّعريف منَ المعرَّف بـ(أل)، والمقصودُ إيضاحُ المرادِ بالوادي، وإنَّما يُؤتَى بعطفِ البيانِ للإشعارِ بأهمّيَّة بيانِ المعطوف عليه وإيضاحِه للمخاطَبِ، وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّه مصدرٌ منَ الطَّوي للفظِ ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾، بمعنى

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 369.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 886، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 24.

التَّثنيةِ، أي: طُهِّرَ الوادي المقدَّسُ، وبورِكَ مرَّتين، أو يكونُ مصدرًا لـ﴿نُودِيَ﴾ بمعنى نودي مرَّتين(1).

توجيهُ القراءةِ في قولِه تعالى: ﴿طُوًى﴾:

طوى اسمُ علَمٍ للوادي أوِ البُقعةِ

قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو ويعقوبُ وأبو جعفر ﴿طُوَىٰ﴾ من غيرِ تنوين ممنوعًا من الصرف، وقرأ الباقون ﴿طُوًى﴾ بالتَّنوين، فمَن نوَّنه؛ كان بتأويل المكانِ، أي: يكونُ اسمَ علم لمكانِ الوادي، ويكونُ ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ اسمَ مكانٍ، ومن لم ينوِّنْهُ؛ جعلَه غيرَ مُنصرفٍ، ويكونُ اسمًا للبُقعةِ، وهي مؤنَّثةٌ(2).

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 55، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 24، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 316.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 316، وابن الجزري، النشر: 2/ 319.

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ [طه: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

اصطفاء الكليم جاء بعد اصطفاء المكان، فتناسبتِ الاصطفاءات

بعد أن ذكر اللّهُ تعالى اصطفاءَه للوادي المُقدّس طوًى ليكون محلًّا للمناجاة، ذكر اصطفاءَه للكليم ﷺ، قال البقاعيّ: "لَمَّا كان المعنى: (فإنّي اخترتُه تشريفًا له مِن بين البقاع لمناجاتك)، عطف عليه قوله: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾"[1]، فناسب اصطفاءُ المكان اصطفاءَ الكليم.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾: (خير) أصله العطف والميل، ثمّ يُحمل عليه، فالخير: خلاف الشّرِّ؛ لأنّ كلّ أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه، والاستخارة: أن تسأل خير الأمرين لك، وهي مِنَ الاستعطاف[2]، ومن ذلك: خارَ الشَّيءَ واختاره، أي: انتقاه واصطفاه؛ لأنَّه يطلب ما هو خير[3].

المَعنى الإجماليُّ:

الاصطفاء للنُّبوَّة مِنَ الله، والألوهيّة الحقَّة لله، والسَّاعة لا يعلمها أحدٌ سواه

يقول اللّه تعالى مخاطبًا عبدَه ونبيَّه ورسوله موسى ﷺ: وأنا اصطفيتُكَ يا موسى مِن بين النَّاس للنُّبوَّة والرِّسالة، فأنصت مُعْمِلًا سمعَكَ وقلبَكَ؛ كي تعيَ ما يوحَى إليكَ مِنَ الكلام.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

على علم منّي بك اصطفيتُك، وجرَّدتُك ونقَّيتُك

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ عاطفة[4]، حيثُ عطفت الجملةَ الكريمة على قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: 12]؛ فجُعل ذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 14.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرَّاغب، المفردات: (خير).
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 170.

مِن جملة النِّداء؛ أي: نودي بـ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ وبـ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾، وقد حسَّنَ الوصلَ كونُ الجملتين خبريَّتين، وكونُهما متغايرتين مع ما بينهما مِنَ الملاءمة والمجانسة.

لله تعالى في اختيار رسلِه حكمةٌ بالغة، وقد جعلهم على عباده حجّةً دامغة

دلالة التّعبير بالمُسنَد إليه بضمير المُتكلِّم الأعظم ﴿وَأَنَا﴾:

في تصدير الجملة بضمير المتكلِّم الأعظم ﴿وَأَنَا﴾ دليلٌ على التّفرُّد والوحدانيَّة، فإنَّ اختيار الله تعالى أنبياءَه ورسلَه ﷺ لا يكون إلَّا بحِكْمة، وفيه كذلك دليلٌ على التَّعظيم، وقد كُرِّر الضَّمير تأكيدًا لخطابه ﷺ، ولإيناسه عليه السلام وإزالةِ الاستغراب[1].

مناجاةٌ جليلةٌ فيها تقريبٌ وإيناس، تحارُ في إدراكها ألبابُ الخواصّ

بلاغة توالي المؤكِّدات في الآية الكريمة:

في الآية الكريمة جملة من المؤكِّدات، وهي: كون الآية معطوفةً على آية حافلة بجملة مِنَ المؤكِّدات، وتصديرها بضمير المتكلِّم الأعظم ﴿وَأَنَا﴾، وتقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفعليِّ المفيدُ للتَّقوّي، وصبُّ المعنى في قالب الجملة الاسميَّة الدَّالَّةِ على الثُّبوت، وهذه المؤكِّدات التي حفلت بها الآيةُ الكريمة، جاءت لِطَمأنةِ موسى عليه السلام، بأنّ ما يسمعُه هو كلامُ الله تعالى.

دلالةُ تقديمِ المُسنَد إليه على المُسنَد الفعليّ في ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾:

إيناس الأولياء في مقام الاجتباء ممَّا يعين على تثبيت القلب في التَّحمُّل والأداء

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ إخبارٌ عن اختيار الله تعالى موسى عليه السلام بطريق المسند الفعليِّ المُفيدِ تقويةَ الحُكم، لأنَّ المقام ليس مقامَ إفادةِ التَّخصيص، وسببُ التَّقوّي: هو غرابة الخبرِ ومفاجأتُه به؛ دفعًا لتطرُّق الشَّكِّ في نفسه عليه السلام[2].

دلالة قوله تعالى: ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ من حيثُ مادَّته وصيغته:

الاختيار: تكلُّف طلبِ ما هو خير، واستُعمِلَت صيغةُ التَّكلُّف

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4710.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 198.

في معنى إجادة طلب الخير[1]، وليكونَ ذلك ردًّا على المكابرين مِنَ المكذِّبين الذين يعترضون على رسلهم بدعوى أنَّ غيرهم كان أحقَّ منهم، كما قال كفَّار مكَّة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: 31]، ومجيء الفعل بصيغة الماضي - الدَّالَّةِ على التَّحقُّق - يفيد التَّوكيدَ، وأنَّ الأمر قد سبق في علم اللّٰه وقضائه، فكان ما قدَّره اللّٰهُ تعالى، ولا مُعقِّب لحكمه، وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ النُّبوَّة لا تحصل بالاستحقاق؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك المنصب العَليَّ إنَّما حصل لأنَّ اللّٰه تعالى اختارَه له ابتداءً، لا أنَّه استحقَّه على اللّٰه تعالى[2].

لا معقِّب لحُكم اللّٰه، ولا رادَّ لقضائه، وما أبلغَ حِكْمته في اختياره لأوليائه

سرُّ تنوُّع التَّعبير بينَ الاختيار والاصطفاء:

جاء قوله تعالى هنا: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ [الأعراف: 144]، ومادَّة الاختيار تدور حول معاني الميل لما فيه خيرٌ، سواء كان خيرًا في نفسه، أو خيرًا عند مَن اختاره[3]، أمَّا الاصطفاء فتدور مادَّتُه حولَ معاني الخُلوص منَ الشَّوب والكَدَر[4]، وكلٌّ من اللّفظين لاءَم سياقَه، فقولُه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ جاء في سياق المناجاة الأولى بين ربِّ العزَّة ﷻ وبين كليمه ﵇، ولم تكن على ميقات واعدَهُ اللّٰهُ تعالى موسى ﵇، أمَّا قوله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144] فلم يكن في المناجاة الأولى، بل كان بعدما أُرسل موسى ﵇ إلى فرعونَ الطَّاغيةِ، فلمَّا جاء إلى ميقات ربِّه حداهُ الشَّوق، وساقه الحُبُّ، وغشيَهُ الإجلال، وكلَّلَهُ التَّوقير، فسألَ اللّٰهَ تعالى أن يراهُ، فحَدَثَ ما حدث مِن تجلّي اللّٰه تعالى للجبل، وما ترتَّب على ذلك مِن اندكاكِ الجبل، وخُرورِ

الاصطفاء اختيارٌ وزيادة، فجاء الاختيارُ مع النُّبوَّة، والاصطفاء مع الكلام والرِّسالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 198.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 19.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (خير)، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 29.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (صفو).

موسى عليه السلام صعقًا، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]، فعند ذلك أخبره اللّه تعالى باصطفائه له على النَّاس برسالاته وبكلامه سبحانَه.

توجيه قراءة (وأنَّا اخترناك):

إنبـاء موسى بالاختيار الرّبانيّ العظيم

قرأ جمهور القرَّاء: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ بإسناد فعل الاختيار إلى ضمير المتكلّم المُفرد، وهذا يتّسق وينسجم مع بَدْء الخطاب بالإفراد؛ للتّأكيد على التّوحيد وتقريره ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: 12]، وقرأ حمزة بالجمع في المُسنَد والمُسنَد إليه: ﴿وَأَنَّا ٱخۡتَرۡنَٰكَ﴾[1]، وفي هذه القراءة عدولٌ من الإفراد إلى الجمع؛ تفخيمًا لاختيار موسى عليه السلام، وتعظيمًا لاصطفائه، وبيانًا لعَظَمة الموحي جلّ ثناؤه. وأتى أسلوب التوكيد فيها بـ(أَنَّ) إمعانًا في ترسيخ هذا المعنى في نفس موسى عليه السلام، وتمهيدًا لما سيسمعه من ربّه جل في علاه.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾:

فُرِّع على الإخبار بـاختـيـاره أن أُمِـر بالاستماع للوحي لأنَّـه أثر الاختيار

الفاء للعطف وللتَّرتيب والتَّعقيب، فهي لترتيب الأمر أو المأمور به على ما قبلَها[2]، فالاستماع لما يوحَى الأمرُ به مترتِّبٌ على الاختيار له، أو هو موضوع الاختيار ذاتُه[3]، فقد فُرِّع على الإخبار باختياره أن أُمِر بالاستماع للوحي؛ لأنَّه أثر الاختيار، إذ لا معنى للاختيار إلَّا اختياره لتلقّي ما سيوحي اللّهُ تعالى إليه[4].

دلالة فعل الأمر في ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾:

الأمر بالاستماع يـفـيـد نـهـاية الهيبة

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ على حقيقته؛ لأنَّه صادر منَ الأعلى إلى الأدنى، وغرضُه هنا: النُّصح والإرشاد، وفي أمر

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 320.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 8، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4710.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 199.

اللّه تعالى نبيَّه موسى ﷺ بالاستماع إشارةٌ إلى عِظَم ذلك، وأنَّه يقتضي التَّأهُّب له[1]، فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فيه نهاية الهيبة والجلالة، فكأنَّه قال: لقد جاءك أمرٌ عظيم هائل فتأهَّب له، واجعل كلَّ عقلِكَ وخاطرِكَ مصروفًا إليه، فقولُه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ يفيد نهايةَ اللُّطف والرَّحمة، وقوله: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ يفيد نهايةَ الهيبةِ، فيحصل له منَ الأوَّل نهايةُ الرَّجاء، ومنَ الثَّاني نهايةُ الخوف[2].

بلاغة إيثار التَّعبير بالاستماع دون السَّماع في ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾:

الاستماع أخصّ من السّمع، فهو سماع مقصود مع إنصات

السَّماع: إدراك الأصوات بالأُذُن، ويكون بقصد وبغير قصد، أمَّا الاستماع فهو تكلُّف السَّماع، فالقصد واضح فيه؛ ولذلك يستعمل في معنى الإصغاء، وهو الميل[3]، فالاستماع ها هنا محمول على الإنصات[4]؛ أي: فاستمع سماع قبول واستعداد ووعي لما يُنزّل عليك منَ الوحي، وجنِّد كلَّ جوارحك، وهيِّئ كلَّ حواسِّك لأن تسمع، واستحضر قلبَك لتعيَ ما تسمعُهُ، وتنفذَ ما طُلب منك[5]، لأنَّ بذلك يُنالُ الفَهْمُ عن اللّه تعالى[6].

معنى اللَّام ودلالتها في ﴿لِمَا﴾:

للوحي جلالٌ وتجلّيات، تقتضي إجماعَ القلب بالخشوع، وإلقاءَ السَّمع بالإنصات

اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ للتَّقوية في تعدية فعل ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ إلى مفعوله، فيجوز أن تتعلَّق بـ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾؛ أي: اخترتك للوحي فاستمع، معترضًا بين الفعل والمتعلِّق به، ويجوز أن يُضمَّن ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ معنى: أصغِ؛ أي: أصغِ لما يوحَى[7].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 19.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (سمع)، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 49.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 154.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9234.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 176.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 199.

المقصد من الأمر بالاستماع إنَّما هو تخصيص المسموع بإنصات واهتمام

سِرُّ تعدية الفعل باللَّام دون (إلى) في ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا﴾:

فعل الاستماع يتعدَّى تارةً بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر: 18]، وتارةً بحرف الجَرّ، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: 25][1]، أمَّا الفرق بين (اللَّام) و(إلى) فهو أنَّ (إلى) حرفٌ موضوع لانتهاء الغاية، وهذا هو الأصل فيه[2]، أمَّا اللَّام فموضوعٌ للاختصاص، إمَّا بالملكيَّة وإمَّا بغيرها كالاستحقاق[3]، وهذا الفرق المعنويُّ الدَّقيق بين الحرفين ترتَّب عليه فرق في المعنى بين (استمع له) و(استمع إليه)؛ فإنَّ (استمع إليه) تفيد انتهاء الاستماع إلى الصَّوت، حصل معه الإدراكُ أو لا، ولهذا كثُر في القرآن ورودُ هذا التَّركيب في الحديث عن حال الكافرين، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، أمَّا (استمع له) ففيها معنى الاختصاص؛ أي: أنصَتَ له خاصَّةً فلم ينشغل بغيره، ولذلك يأتي في القرآن عند الأمر بالاستماع بقَصْدِ الإصغاء والتَّدبُّر، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: 204].

معنى ﴿لِمَا﴾ ودلالتها في ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾:

حريٌّ بالوحي أن يُنصت له تعظيمًا لموحيه، وأن يُعمَل بما جاء فيه

﴿لِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ يجوز أن تكون موصولةً؛ أي: للذي يوحَى إليك، أو مصدريَّةً؛ أي: للوحي[4]، والفرق أنَّ في الأولى تخصيصًا لما أوحي إليه آنذاك، وفي الثَّانية تعميمٌ لكلِّ وحي سيوحَى إليه في ذاك الوقت وبعدَه.

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 140، والهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 373.
(2) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 463، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 16.
(3) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 463، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 64.
(4) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 55، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 121، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 418.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ مبنيًّا للمفعول:

بُني الفعل لما لم يُسمَّ فاعلُه للعِلْم بالفاعل، ولِما في الإبهام منَ التَّشويق لمعرفة المُبْهَم، ويُحَسِّنه مجيئُه فاصلةً، فلو كان مبنيًّا للفاعل لم يكن فاصلة[1]، فكان حُسْنًا على حُسْن.

كلَّم اللهُ موسى تكليمًا، وآتاه من لدنه فضلًا عظيمًا

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاختيار والاصطفاء والاجتباء:

اختيارك الشّيء أخذُكَ خيرَ ما فيه في الحقيقة أو خيرَه عندك، والاختيار: طلبُ ما هو خيرٌ وفعلُه، وقد يقال لما يراه الإنسانُ خيرًا وإن لم يكن خيرًا[2].

الاصطفاء تناولُ صفوِ الشّيء، والاختيار تناولُ خيرِه، والاجتباءُ تناولُ جبايتِه

أمَّا اصطفاء الشّيء، فهو أخذُ ما صفا منه، ثمّ كَثُر حتّى استُعْمِل أحدُهما موضعَ الآخر، واستُعْمِل الاصطفاءُ فيما لا صفوَ له على الحقيقة[3].

وأمَّا اجتباءُ الشّيء، فهو تناولُ جبايتِه، أي: جملتِه، أو تناولُ ما جمعتَه مختارًا له[4].

الاستِماعُ والإنصات:

الفرق بين الاستِماع والسّماع: أنَّ الاستماعَ لِما كان بقصد؛ لأنه لا يكون إلَّا بالإصغاء، وهو الميل، أمَّا السَّماع فيكون بقصد وبدونه[5]، أمَّا الإنصات: فهو السّكوت لاستماع الحديث[6].

الإنصات أقوى منَ الاستماع

والفرق بينَ الاستِماع والإنصات: أنَّ الإنصات في الظَّاهر بتَرْك التّحدُّث أو الاشتغال بما يشغل عنِ الاستماع، أمَّا الاستِماع فهو أن يُلقيَ الإنسانُ سمعَه، ويُحَضّرَ قلبَه ويتدبّرَ ما يستمع[7].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 317، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.

(2) الرَّاغب، المفردات: (خير).

(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 29.

(4) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (صفو).

(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 49.

(6) الخليل، العين، والأزهريّ، التّهذيب: (نصت).

(7) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 314.

والإنصات على هذا أقوى منَ الاستماع، وفيه منَ الاستعداد للقبول أو مِنَ الخشوع ما ليس في الاستماع الذي يتحقّق بمُجَرّد الاستعداد لوصول الصّوت إلى الأذن، وهذا ممَّا يفسِّر مجيء الإنصات بعد الاستماع في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: 204][1].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصت).

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾

[طه: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أول الواجبات معرفة الله فتوحيده فعبادته

لما خُتمتِ الآيةُ السَّابقة بقوله: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، جاءت هذه الآية عقيبها بما يفسّر الوحي، الذي جاء "بأوّل الواجبات، وهو معرفة اللّه تعالى، فقال مؤكّدًا لعِظَم الخبر وخروجه عن العادات ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾: أصل العبوديّةِ الخضوعُ والتّذلُّل[2]، والعبادة: الطَّاعة، يقال: عَبَدَ يَعْبُد عبادةً، لمن يعبد اللّه فقط، ومَن عَبَدَ مِن دونه إلهًا فهو من الخاسرين[3]، وعَبَدَ اللّهَ يَعبُده عبادة: تألَّهَ له[4].

2) ﴿وَأَقِمِ﴾: القيام: نقيض الجلوس[5]، وأقام الشَّيءَ: أدامه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][6]. "وكلُّ مَن ثبت على شيء وتمسَّك به فهو قائم عليه"[7].

3) ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾: الذِّكْر والذِّكرَى: خلافُ النِّسيان، وهو الحفظ للشَّيء وتذكُّرُه[8]، والذِّكْر: الصَّلاةُ للّه تعالى والثَّناءُ والدُّعاء له[9]، ومِن أنواع الذِّكْر: الصَّلاةُ، وقراءةُ القرآن، والتَّسبيحُ، والدُّعاءُ، والشُّكرُ، وجميعُ الطَّاعات[10].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 14.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عبد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قوم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التّفرّد بالألوهيّة يستوجب العبوديّة

يقول تعالى: إنّني أنا المعبودُ الذي لا تصلح العبادةُ إلّا له، لا إلَهَ إلّا أنا، فلا تعبد غيري، فإنّه لا معبودَ تجوز أو تصلح له العبادةُ سواي، فأخلص العبادةَ لي دونَ كلّ ما عُبِد من دوني(1)، واجعل الصّلاة هي العبادة التي تذكرني بها(2)، فإن ذِكْري كما ينبغي لا يتحقّق إلّا في ضمن العبادةِ والصّلاة، أو لتذكُرني فيها لاشتمالها على الأذكار، أو لذكري خاصّةً لا تشوبُه بذِكر غيري، أو لإخلاص ذِكري وابتغاءِ وجهي، لا تُرائي بها ولا تقصِدُ بها غرضًا آخرَ، أو لتكون ذاكرًا لي غيرَ ناسٍ(3)، وإذا تحقّق التّفرّد بالألوهيّة فقد وجبتِ العبوديّة، وقد جاء المعنى على طريق المقدّمة والنّتيجة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ عن سابقه:

أوّل واجب على المكلّفين هو التّوحيد؛ فإنّه حقّ الله على العبيد

وقع قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ موقع البدل من ﴿لِمَا﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾(4)، فالموحَى قولُه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآيات، وقد جاء ذلك تبيينًا وتفسيرًا للإبهام في قوله: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، فبينَ الجُملتين كمالُ اتّصال؛ لوقوع الثّانية بدلًا منَ الأولى، وكمال الاتّصال من دواعي الفصل، أو أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، فكأنَّه قيل: ما الذي يوحَى؟ فكان الجواب: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾(5)، غير أنَّ حمله على البدل أولى، ذلك أنَّ الله تعالى عظَّم أمرَ التّوحيد وفخَّم شأنه بالإبهام

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 283، 284.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 785.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 8.
(4) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 453، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 378، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 199.
(5) محمود صافي، الجدول: 8/ 353.

في قوله: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، والتَّوضيح بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وبالإبدال الدَّالِّ على أنَّ الوحيَ مقصورٌ على تقرير التَّوحيد، الذي هو نهاية العِلْم المُستلزِم لتخصيص العبادة بالله، الذي هو كمال العمل[1].

بلاغة توالي المؤكِّدات في الآية الكريمة:

في الآية الكريمة جملة من المؤكِّدات، منها: حرف التَّأكيد (إنَّ)، وضمير الفصل المُؤكِّد ﴿أَنَا﴾، والإخبار بالاسم العلم الأعلى الدَّال على الذَّات الإلَهيَّة، والقصر الحقيقيُّ بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، ولذلك كلِّه نُكتةٌ بليغة، فإنَّ تأكيد الجملة بحرف التَّأكيد (إنَّ) لدفع الشَّكِّ عن موسى، نَزَلَ منزلة الشَّاكِّ؛ لأنَّ غرابة الخبر تُعَرِّض السَّامعَ للشَّكِّ فيه، وتوسيطُ ضميرِ الفصل بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ لزيادة تقوية الخبر، وليس بمفيد للقصر؛ إذ لا مقتضى له هنا؛ لأنَّ المقصود الإخبارُ بأنَّ المتكلِّم هو المسمَّى: الله، فالحملُ حَملُ مواطأة لا حملُ اشتقاق، وهو كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: 72][2]، وأمَّا التَّعبير بالاسم العلم الأعلى الدَّالِّ على الذَّات العليَّة والمُعبِّر عن الإلَهيَّة، فللدِّلالة على أنَّ المتكلِّم قد جمع صفاتِ الكمال والجمال والجلال، وقد استحقَّ جميع المحامد؛ فحقيقٌ أن يُعبَد، وقَمِنٌ أن يُمَجَّد.

حقيق بالأحد الصَّمدِ أن يُعبَد، وحريٌّ أن يُعظَّم ويُمجَّد

دلالة تكرار ضمير المتكلِم المُفرد ﴿أَنَا﴾:

في تكرار ضمير المتكلِّم المفرد ﴿أَنَا﴾ دليلٌ على التَّفرُّد المناسب لمعنى الوحدانيَّة الذي سيقت لأجل تقريره الآيةُ؛ إذِ المقصود منه حصولُ العِلْم لموسى عليه السلام بوحدانيَّة الله تعالى[3]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ يدلُّ على أنَّ أوَّل واجب على المكلَّفين

لله سبحانه كمالُ الوحدانيَّة، وجلالُ الصَّمديَّة، وحقُّ الأُلوهيَّة

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 418.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 200.

إنَّما هو أن يعلموا أنَّه لا إله إلَّا اللّه، وحدَه لا شريك له[1]، ويضاف إلى ذلك ما يتوشَّحُ به هذا الضَّمير من جلال العَظَمَة، وظلالِ الهيبة، وكمالِ السُّموِّ.

بلاغة التَّعبير بأسلوب القصر بالاستثناء بعد النَّفي:

أُكِّدت عبارةُ التَّوحيدِ لكثرة منازعة الكافرين في ذلك، على كرِّ الدُّهور ومرِّ العصور

في قول اللّه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ قصرٌ مستفادٌ من مجيء الاستثناء بعد النَّفي، وهذا النَّوع منَ القصر أعمُّ أنواعِ القصر وأشملها؛ لأنَّه هاهنا نفى الأُلوهيَّةَ عن كلِّ أحد، وأثبتَها لنفسه سبحانه، فهذا أبلغ في التَّأكيد، إضافةً إلى ما تُفيده ﴿إِلَّآ﴾ من معاني الاختصاص[2]، وهذا الأسلوب يوجَّه عادة للمخاطَب المُنكِر، أو لمَن يُنَزَّل منزلتَه[3]، والمراد بالخطاب هنا قومُ موسى عليه السلام، وإن خوطب به هو، على غرار قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطّلاق: 1]، وإنَّما كان الأمر كذلك لأنَّ التَّوحيد هو أكثر ما نازع فيه الكافرون، ولا يخفى ما فعله بنو إسرائيل إذ عبدوا العجل بعد ما فرقَ اللّهُ تعالى بهمُ البحرَ فأنجاهم وأغرق آل فرعون وهم ينظرون!.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾:

علَت صفات الله تعالى عن أن يتَّصف بها سواه، فلا كامل إلَّا الله

وقع قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ في موقع الخبر الثَّاني للحرف النَّاسخ، فهي جملة اسميَّة في محلِّ رفع خبر ثانٍ لـ(إنَّ)[4]، وقد حَسُن أن تأتي بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ لمَّا كان هذا الاسم العلم جامعًا لجميع معاني الأسماء الحسنى، التي علت عن أن يتَّصف بها أو بشيء منها حقَّ الاتِّصاف غيرُه تعالى، فلذلك حَسُن تعقيبُه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[5]، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ عِلْم الأصول مقدَّم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 277.
(2) السَّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 249.
(3) الرَّازيّ، نهاية الإيجاز، ص: 226.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 170، ومحمود صافي، الجدول: 8/ 353.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 277.

على عِلْم الفروع؛ لأنَّ التَّوحيد من علم الأصولِ، والعبادةَ من علم الفروع[1]، وفيه دليل على إبطال عبادة النَّصارى وغيرهم القائلين في الأصنام: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]؛ لأنَّه ما ذَكَر العبادةَ إلَّا بعد تقديم التَّوحيد؛ فشرطُ المعبود وحدانيَّته[2].

توجيه المتشابه اللفظي بين آيات النمل والقصص وطه:

جاء النِّداء في كلِّ موضع مناسبًا لما ذُكر من أحداث القصَّة تفصيلًا وإجمالًا

اختلفت سياقاتُ القصَّة الكريمة في مواضعها منَ السّوَر الثَّلاث، ففي سورة طه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، وفي سورة النّمل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النّمل: 9]، وفي سورة القصص: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30].

فقد كان التَّركيز في سورة طه على بيان قصَّة موسى ﷺ منذ أن ناجاه ربُّه جلَّ في علاه، وأرسله إلى فرعون وقومه بشيرًا ونذيرًا، إلى ذكر ما كان من بني إسرائيل من عبادة العجل، حيثُ بيَّنت مناظرتَه فرعونَ، ثمَّ اتِّهامَ فرعونَ إيَّاه بالسِّحر، ثمَّ أمرَه بجمع السَّحرة في يوم الزّينة، ثمَّ إيمانَ السَّحرة بموسى ﷺ، ثمَّ بيانَ إهلاكِ فرعونَ وجنودِه، ثمَّ ما كان من بني إسرائيلَ من عبادة العجل الذي صنعه لهم السَّامريُّ لعنه الله.

أمَّا سورة القصص فقد كان التَّركيز فيها على بيان قصَّة موسى ﷺ منذ ولادته، ثمَّ نشأتِه في قصر فرعونَ، ثمَّ هروبِه من مصرَ بعد قتلِه القبطيَّ بالخطأ؛ خوفًا من فرعون وملئه، ثمَّ عملِه أجيرًا عند الرَّجُل الصَّالح وزواجِه من إحدى ابنتيه، ثمَّ سيرِه بأهله إلى أن آنسَ من جانب الطّور نارًا، إلى أن أرسلَه الله تعالى مع أخيه إلى فرعون.

ولمَّا أوجزت سورةُ طه قصَّة موسى ﷺ قبل الرِّسالة في مقابل

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 19.
(2) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 141.

تفصيلها بعدها، أوجزت سورةُ القصص قصَّة موسى عليه السلام بعد الرِّسالة في مقابل تفصيلها قبلَها.

أمَّا سورة النَّمل فقد اختُصِرت القصَّة فيها اختصارًا بحيثُ ذُكرت في ثماني آيات فقط، وهذا الذي تقدَّم يفسِّر سِرَّ تنوُّعِ التَّعبير في نداء موسى عليه السلام في السّوَر الثَّلاث.

فقد بدأت القصَّة في سورة طه بقول اللّه تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [طه: 9 - 10]، فلمَّا لم تذكر السّورةُ ما كان من موسى قبل المناجاة، فقد ناسب أن يُفصِّل فيها في التَّعريف بالذَّات الإلَهيَّة، فقال تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: 11 - 12]، ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾.

وذُكر فيها عنوان الرُّبوبيَّة: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: 12]، وعنوان الأُلوهيَّة: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، والأمر بالعبادة: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، والإخبار عن السَّاعة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، وهذا كلُّه مناسب لما فُصِّل بعدَه مِن ذكر دعوة موسى لفرعون، ومناظرته إيَّاه، بل إنَّه ناسب أيضًا ما فُصِّل مِن قصَّة العجل في آخر السّورة الكريمة.

أمَّا في سورة القصص فقد بدأت القصَّة بقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ [القصص: 3]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، فلمَّا ذَكَرتِ السّورة حالَ موسى عليه السلام مع ربِّه جلَّ ذكره قبلَ الرِّسالة، ودعاءَه إيَّاه في غير ما موقف، وذلك إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: 16]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧﴾ [القصص: 17]، وقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢١﴾ [القصص: 21]، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القصص: 22]، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القصص: 24] - لَمَّا ذكرتِ السّورةُ حالَ موسى عليه السلام مع ربِّه جل جلاله قبلَ أن يُشرِّفَه اللّهُ بالنُّبوَّة ويكلِّفَه بالرِّسالة، فقد ناسب أن يُجمَل فيها تعريف الذَّات الإلَهيَّة العليَّة، فقال سبحانه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]؛ أي: أنا ربُّك الذي كنتَ تدعوه وترجوه، وأنا ربُّك الذي حفظَكَ وليدًا، وربَّاك صغيرًا، ونجَّاك من القوم الظَّالمين، وأغناك بالمأوى والمال والزَّوجة، وهذا أيضًا مناسبٌ لما أُجمِل بعدَه من دعوة موسى عليه السلام لفرعون وقومه، فجاء النِّداء في كلِّ موضع بما يناسبه ممَّا ذُكر مِنَ القصَّة تفصيلًا وإجمالًا.

أمَّا قوله تعالى في سورة النّمل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: 9] فقد كان مسبوقًا بقوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾ [النمل: 8]، فقد تقدَّمه ذِكرُ الرُّبوبيَّة، غير أنَّه أوثِرَ التَّعبيرُ بالعزيز والحكيم في هذا الموضع الذي أوجز القصَّة وأجملها واختصرها لنُكتة، وهي أنَّ "تقديم هذا بين يدي ما سيُلْقى إليه منَ الأمر؛ لإحداث رباطة جأشٍ لموسى، ليعلم أنَّه خُلعت عليه النُّبوَّة إذ ألقيَ إليه الوحي، ويعلم أنَّه سيتعرَّض إلى أذًى وتألُّبٍ عليه، وذلك كنايةً عن كونه سيصير رسولًا، وأنّ اللّه يؤيِّدُه وينصره على كلِّ قويٍّ، وليعلمَ أنَّ ما شاهد منَ النَّار وما تلقَّاه منَ الوحي وما سيشاهده من قلب العصا حيَّةً ليس بعجيب في جانب حكمة اللّه تعالى، فتلك ثلاثُ كنايات؛ فلذلك أُتبِع هذا بقوله: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ [النّمل: 10]"[1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ سورة النّمل ذُكِر فيها قصصُ موسى، وداود، وسليمان، وصالح، ولوط عليهم السلام، وبيَّنت السّورةُ ما أنزله اللّهُ تعالى بالكافرين منَ العقوبات، وإنجاءَ الأنبياء ومَن آمن معهم، ثمَّ أتبعت ذلك بذِكْر جملةٍ من دلائل الألوهيَّة وأهوال القيامة.

ويُلحظ أنَّ هذه القصص المذكورة قد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النّمل: 6]، وقد عُقِّبت بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨﴾ [النمل: 76 - 78]، فتكرّر ذِكر العزيز والحكيم، وهذا ملحوظ في إهلاك الكافرين وأخذِهم بقوَّة، وفي دلائل الألوهيَّة، وفي إنزال القرآن، فجيء فيه بما يناسبه.

اختصاص الإلَهيَّة بالله سبحانه موجبٌ لتخصيصه تعالى بالعبادة

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾:

لَمَّا تسبَّب عن الإخبار بالوحدانيَّة وجوبُ إفرادِ اللّه سبحانه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 227.

بالعبادة، قال: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾؛ أي: وحدي[1]، فالفاء فيه لترتيب المأمورِ به على ما قبلَها؛ فإنَّ اختصاص الأُلوهيَّة به ﷻ مِن موجبات تخصيصِ العبادة به ﷻ[2]، فقد دلَّت الفاء على أنَّ إلَهيَّته سبحانه هي التي ألزمت العبادة[3]، وهذا هو تحقيق العلماء: أنَّ اللّه ﷻ هو المستحقُّ للعبادة[4].

دلالة الأمر في: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾:

الأمر للنُّصح والإرشـــاد، بـالـتَّـوجـيـه لـتـوحـيـد ربِّ العباد

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ على حقيقته لأنَّه صادر منَ الأعلى إلى الأدنى، فهو لطلب حصول فعل المخاطَب، على وجه الاستعلاء والتَّكليف[5]، وغرضُه هنا النُّصح والإرشاد.

علَّة عطف قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على سابقه:

منتهى العِلم هو التَّوحيد، وكمال العمل في عبادة ذي العرش المجيد

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ معطوف على قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ ويُعْرَبُ إعرابَه[6]، وهو من قبيل عطف الخاصِّ على العامِّ[7]، والمعنى: (أي حافظْ بعد التَّوحيد على الصَّلاة)، وهذا تنبيه على عظم قدر الصَّلاة، إذ هي تضرُّعٌ إلى اللّه تعالى، وقيامٌ بين يديه، وعلى هذا فالصَّلاة هي الذِّكر، وقد سمَّى اللّه تعالى الصَّلاة ذكرًا في قوله: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 9][8]، وقد حَسَّن الوصلَ هاهنا اتِّحادُ الجملتين في الإنشائيَّة، وكون كلٍّ منهما مصدَّرةً بفعل أمر موجَّه إلى مخاطَب مفرد، وليس ثمَّ ما يدعو للفصل بينهما، وهذا ما يُعرف بالتَّوسُّط بين الكمالين.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 277.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 8، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.
(3) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 10/ 143.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 19.
(5) حسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 62.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 170، ومحمود صافي، الجدول: 8/ 353، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل: 7/ 82.
(7) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 10/ 147.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 177.

فائدة الأمر بإقامة الصَّلاة دون الأمر بها مجرَّدًا:

في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمر بإقامة الصَّلاة لا بالصَّلاة مجرَّدة، فلم يقل: (صلِّ)، بل: أقم الصَّلاة)، ذلك أنَّ كلَّ موضع مَدَح اللّٰهُ تعالى فيه بفعل الصَّلاة أو الحثّ عليها ذُكِرَ بلفظ الإقامة، نحو: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النّساء: 162]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]، ولم يقل: (المصلّين) ونحوها مما لم يتصل بلفظ الإقامة، إلَّا للمنافقين، نحو قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: 4 - 5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ [التّوبة: 54]، وإنَّما خصَّ الصلاة بلفظ الإقامة تنبيهًا على أنَّ المقصود من فعلها توفيةُ حقوقِها وشرائِطها، لا الإتيانُ بهيئتها فقط[1]، فقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ مِن أقامَ الشَّيءَ؛ أي: جعله قائمًا على أسسٍ مُحْكَمة، فإقامة الصَّلاة أن تُؤدَّى مُحْكَمَةً، كاملةَ الأركان غير ناقصة[2].

المقصود من إقامة الصَّلاةِ توفيَةُ حقوقِها وشرائطها، لا الإتيانُ بهيئتها فقط

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استعارةٌ مَكْنيَّة، حيثُ شُبِّهت الصَّلاة ببناء لا بدَّ أن يُقام على أركان ودعائم، هي أركانها وشرائطها وحدودها ومواقيتها، فحُذِفَ المُشَبَّه به، وهو البناءُ أو الصَّرح، وأتى بأحد لوازمه وهو الإقامة، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وفي هذا ما فيه من تعظيم أمر الصَّلاة لدى المخاطَبين، وأنَّها ممَّا يجب أن تُرفَع.

لا بدَّ لصرح الصَّلاة أن يُؤسَّس على دعائم الإيمان، ويُرفَع بلبنات التَّقوى والإحسان

سرُّ إفراد الصَّلاة بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة:

عُطِفَ الأمر بإقامة الصَّلاة على الأمر بالعبادة في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وتخصيصُها بالذِّكرِ مِن بينِ سائر

الصَّلاة تاج العبادات، وأمُّ الطَّاعات، وأصل القُرُبات

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (صلا).

(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9242.

العبادات، وإفرادها بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة، تنبيهٌ على فضلِها وشرفها وإنافتها على الجميع، كعطف جبريل وميكال على الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 98]، ولذلك عَلَّلَ إفرادَها بالذِّكر بقوله: ﴿لِذِكْرِىٓ﴾، فإنَّها توجِبُ شغلَ القلبِ واللِّسانِ بذِكْر اللّه تعالى[1]، فقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ لفضله[2]؛ لأنَّ الصَّلاة تجمع أحوالَ العبادة[3]، فجُعِلت جنسًا أشرفَ وأعلى من سائر العبادات، ثمَّ نيط بها الذِّكر للعِلّيَّة؛ ليُؤْذِن بأنَّ الذِّكر مُخُّ العبادة[4]، فضلًا عن أنَّ الصَّلاة هي العبادة الدَّائمة التي لا تنحلُّ عنِ المؤمن، فلا عُذْرَ يبيح تركَها، كذلك فهي عبادة متكرِّرة: خمسُ مرَّات في اليوم واللَّيلة، وذلك بخلاف العبادات التي تسقط بالمَشقَّة، ولا تتكرَّر في الحَول[5].

معنى اللَّام ودلالتها في ﴿لِذِكْرِىٓ﴾:

الذِّكر الكامل لا يتحقَّق إلَّا ضمن العبادة والصَّلاة، حيثُ مناجاة العبدِ مولاه

اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ للتَّعليل[6]؛ أي: (أقم الصَّلاة لأجل أن تذكرني)؛ لأنَّ الصَّلاة تُذَكِّر العبدَ بخالقه، إذ يستشعر أنَّه واقف بين يدي اللّه لمناجاته، ففي هذا الكلام إيماءٌ إلى حكمة مشروعيَّة الصَّلاة[7]، فإذا ذُكرت الصَّلاة بادرت الحِكمة في شرعيَّتها في الذِّهن، فتكون الحكمة حاملة للمكلَّف على إقامتها، فصحَّ أن يكون وجودُ ذِكْرِ اللّه سببًا لإقامة الصَّلاة[8]، وفي تعليل الأمر بإقامة الصَّلاة بقوله: ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الذِّكر الكامل

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 419، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.
(2) البروسويّ، روح البيان: 5/ 371.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 200.
(4) الطّيبيّ، حاشية على الكشَّاف: 10/ 142.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/ 9240.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 503.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 201.
(8) الطّيبيّ، حاشية على الكشَّاف: 10/ 144.

لا يتحقَّق إلَّا في ضمن العبادة والصَّلاة[1]، ويجوز أن تكون اللَّام أيضًا للتَّوقيت؛ أي: أقمِ الصَّلاة عند الوقت الذي جعلتُه لذِكْري[2].

الموقع النَّحوي والبياني لشبه الجملة ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ الظَّاهر أنَّه متعلِّق بـ﴿وَأَقِمِ﴾؛ أي: أقم الصَّلاة لتَذكرني فيها؛ لاشتمالها على الأذكار، وقريب منه ما قيل: أي لتكون لي ذاكرًا غيرَ ناسٍ، فعلَ المخلصين، في جَعْلهم ذِكْرَ ربِّهم على بالٍ منهم، وتوكيلِ هممِهم وأفكارِهم به، وفُرِّقَ بينهما بأنَّ المراد بالإقامة على الأوَّل: تعديلُ الأركان، وعلى الثَّاني: الإدامة، وجُعلت الصَّلاة في الأوَّل مكانًا للذِّكر ومقرَّه وعلَّته، وعلى الثَّاني جُعلت إقامة الصَّلاة - أي: إدامتها - علَّة لإدامة الذِّكر، كأنَّه قيل: أَدِم الصَّلاةَ لتستعين بها على استغراق فكركَ وهمِّك في الذِّكر، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45][3].

جُعلت الصَّلاة علَّة للذِّكر ومقرًّا، فكانت لنعيم القلوب مستقرًّا

دلالة التَّعبير بـ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ من حيثُ مادَّتها وصيغتها:

الذِّكر: تارة يقال ويُراد به هيئة للنَّفْس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه منَ المعرفة، وهو كالحِفظ إلَّا أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكر يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشَّيءِ القلبَ أو القولَ، ولذلك قيل: الذِّكر ذِكران: ذِكْر بالقلب، وذِكْر باللِّسان[4]، وفي مجيئه على صيغة المصدر دون الفعل مبالغة وتأكيد؛ ذلك أنَّه جُرِّد عنِ الزَّمن الذي يصرفه لوقت دون وقت.

الذِّكر استحضار وتجديد، ومجيئه على صيغة المصدر مبالغةٌ وتأكيد

نُكْتةُ إضافةِ الذِّكر إلى ضمير المتكلِّم في: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ يجوز أن يكون المصدر مضافًا لفاعله؛ أي: لأنّي ذكرتُها في الكتب، أو لأنّي أذكرك، ويجوز أن يكون مضافًا

في إضافة الذِّكر لضمير المتكلِّم معنى الإخلاص، والتَّرفُّع عن مراءاة النَّاس

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 423، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 378.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 201.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.
(4) الرّاغب، المفردات: (ذكر).

لمفعوله؛ أي: لأَنْ تذكرَني[1]، وفي إضافته للمفعول ما يدلُّ على أنَّها مُخُّ العبادة وفصُّها[2]، وفيه كذلك معنى الإخلاص؛ أي: أقم الصَّلاة لذِكري خاصَّةً، لا تشوبه بذِكر غيري، أو لإخلاص ذكري وطلب وجهي، لا تُرائي بها ولا تقصد بها غرضًا آخر[3].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 19.
(2) الشّهاب، حاشية على البيضاويّ: 6/ 192.
(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 55.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وقـوع السَّاعة حـتـمٌ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره

لَمَّا ذكر اللّهُ تعالى الأمرَ بالعبادة وإقامة الصّلاة، ذكرَ الحاملَ على ذلك، وهو البعث والمَعاد للجزاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ وهي التي يظهر عندها ما عمله الإنسانُ وجزاءُ ذلك إمَّا ثوابًا وإمَّا عقابًا[1]؛ لأنّها وقتُ الإثابة ووقتُ المُجازاة[2]، فجملة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تعليل لما قبلَها من الأمر، أي: إنّ الساعة التي هي وقت الحساب والعقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة اللّه والصّلاة[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾: جزء من أجزاء الزّمان، يُعبَّر بها عن القيامة[4]، قال اللّه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، و﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأعراف: 187]، و﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزّخرف: 85] تشبيهًا بذلك لسرعة حسابه[5]، وسمّيت - أيضًا - بذلك لأنّها تفجأ النَّاس في ساعة، فيموت الخلقُ كلّهم بصيحة واحدة، قال اللّهُ تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ [يس: 29][6].

2) ﴿أَكَادُ﴾: كاد وضعت لمقاربة الشّيء[7]، قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾؛ أي: أريد أخفيها[8].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 318.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 21.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 424.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والرَّاغب، المفردات: (سوع).
(5) الرَّاغب، المفردات: (سوع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (كود)، والرَّاغب، المفردات: (كيد).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كود).

3) ﴿تَسۡعَىٰ﴾: السَّعْيُ: المَشْيُ السَّريع، ويُستَعْمَل للجِدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا[1]، وأكثر ما يُستعمَل السَّعيُ في الأفعال المحمودة[2]، وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾، فمعناه: تمشي وتنتقل بسرعة[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

إنّ الساعة التي يبعث اللّهُ فيها الخلائقَ من قبورهم لموقف القيامة جائيَةٌ[4] من غير تعيين لزمانها، أكاد ألَّا أُنبّئَ أحدًا عنها، وألَّا يقع في حساب النَّاس أنّها آتية، حتّى يعملَ كلٌّ بما في طبيعته، وحتّى يُجْزَى كلٌّ بما هو أهل له إذا جاء يوم الحساب، على غير حساب أو انتظار من النَّاس[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ عن سابقه:

في الإعلام بمجيء السَّاعة تحذير ووعيد

جملة ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ مستأنَفَة لابتداء إعلام بأصلٍ ثانٍ من أصول الدّين بعد أصل التَّوحيد، وهو: إثبات الجزاء[6]، أو هو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مترتِّب على قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، فكأنَّ سائلًا سأل عن السَّبب، فكان الجواب: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، فهو تعليلٌ لوجوب العبادة وإقامةِ الصَّلاة[7]، حيثُ علَّل الأمر بالعبادة بأنَّه لم يَخلقِ الخَلْقَ سُدى، بل لا بدَّ من إماتتهم، ثمَّ بعثهم لإظهار العظمة ونصب

(1) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (سعو).
(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (سعو).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 269، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 361، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 279.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 285.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 786.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 201.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 8، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.

موازين العدل، فقال مؤكِّدًا لإنكارهم، ومعبِّرًا بما يدلُّ على سهولة ذلك عليه جدًّا: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾؛ أي: لاريب في إتيانها، فهي أعظم باعث على الطَّاعة[1]، ففيه تحذير ووعيد؛ أي: اعبدني فإنَّ عقابي وثوابي بالمرصاد[2].

سرُّ التَّعبير عن القيامة بـ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ دون غيرها:

السَّاعة: علَمٌ بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب[3]، فهي اسم لوقتٍ تقوم فيه القيامة، سُمّي بها لأنَّها ساعةٌ حقيقةٌ يحدث فيها أمرٌ عظيم[4]؛ إذ هي ساعة، أو لحظة تهدم النِّظام الكونيَّ الحاليَّ، وتأتي بغتة في ساعة، والسَّاعة جزء منَ الزَّمان، من قبيل إطلاق الجزء على الكلِّ[5]، وفي التعبير بها دلالة على سرعة إتيانها وقرب وقوعها، وهو ملائم للسّياق بعدَها، المُعَبّر عن قُربها ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾.

السَّاعة آخِر أجزاء الزَّمان، والنَّاس مِن بعدها فريقان، إمَّا مُكْرَم أو مُهان

معنى (اللَّام) ودلالتها في ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾:

تُفيد (اللَّام) في ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ معنى العهد الذِّهني، فإنَّها ممَّا يعرفه النَّاسُ منَ النُّبوَّات السَّابقة، وهي كذلك ممَّا لا يخفى علمُه على الكليم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

السَّاعة معهودة لا تخفى على بصير، فكيف برسول نذير

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ من حيثُ مادَّتُها وصيغتها:

الإتيان: مجيء بسهولة، ويقال للمجيء بالذَّات وبالأمر وبالتَّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّرِّ، وفي الأعيان والأعراض[6]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾؛ أي: كائنةٌ لا محالة، وإنما عُبِّر عن ذلك بالإتيان تحقيقًا لحصولها؛ بإبرازها في معرِض أمرٍ محقَّقٍ

القيامة سهم قدِ انطلق من قوسه نحو نحور العباد يوشك أن يستقرَّ فيها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 277.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 201.
(4) البروسويّ، روح البيان: 5/ 371.
(5) الهلال، الثريّ الجامع: 7/ 66.
(6) الرّاغب، المفردات: (أتى).

متوجِّهٍ نحو المخاطَبين[1]، وفي التَّعبير باسم الفاعل ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ بدلًا من المضارع (ستأتي) تأكيدٌ لإتيانها، وهي ﴿ءَاتِيَةٌ﴾؛ أي: ليس مأتيًّا بها، مع أنَّ الحق ﷻ هو الذي سيأتي بها، لكنَّ هذا على سبيل الجزم بها، فكأنَّها من فرط تيقُّن وقوعها ومجيئها قد أتت بالفعل[2].

بلاغة توالي المؤكّدات في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾:

السَّاعة لا محالة آتية، ولا تزال قلوب العباد عنها لاهية

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ جملة من المؤكِّدات، ومنها: الحرف النَّاسخ ﴿إِنَّ﴾ الدَّالُّ على التَّأكيد، والقائمُ مقامَ تكرير الجملة، والتَّعبير باسم الفاعل: ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ الدَّالِّ على التَّحقُّق، والتَّعبير بالجملة الاسميَّة الدَّالَّةِ على الثُّبوت.

ووجود هذه المؤكِّدات إنَّما هو للمبالغة في تأكيد أمر السَّاعة، وأنَّها آتية وكائنة لا محالة، وهذا مستفاد من التَّأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميَّة[3]، وفي هذا تنزيل لغير الشَّاكِّ منزلةَ الشَّاكِّ؛ ليَصلُح توجيهُ الكلام له ولغيره.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين آيتي: غافر، وطه:

ليس توجيه الخطاب للمؤمن المطمئنِّ المُقرّ، كتوجيهه للكافر المكابر المستنكر

بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [غافر: 59] تشابهٌ لفظيّ، ولسائل أن يسأل عن سرِّ تخصيص آية [طه: 15] بقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾، ووصفها في سورة [غافر: 59] بقوله سبحانه: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾، وله أن يسأل كذلك عن سرِّ دخول لام التَّوكيد على كلمة (آتيَةٌ) في سورة غافر، وعدم دخولها في سورة طه، فهذان سؤالان.

والجواب: هو أنّ الآية (59) في سورة غافر جاءت في سياق الحديث عن منكري البعث والحساب، الذين يجادلون في آيات اللّه،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 8، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 485.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/ 9244.
(3) الشّهاب، حاشية على البيضاويّ: 6/ 193.

فكان منَ المناسب تأكيدُ الكلام بأكثر من مُؤكِّد، كونه موجَّهًا لمخاطَبين منكرين، فجاء التَّوكيد بـ(إنَّ)، واللَّام المزحلقة في ﴿لَآتِيَةٌ﴾، والوصف المزيل للشَّك: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾، فهذه ثلاثة مؤكِّدات.

أمَّا آية سورة طه (15) فقد كان فيها الخطاب موجَّهًا للكليم الكريم موسى عليه السلام، المؤمنِ المُخبتِ المصطفى، فلذلك لم يؤكَّد الكلامُ لا باللَّام، ولا بالوصف: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: 59]، بل اكتُفي فيه بالتَّوكيد بـ(إنَّ)[1].

وأمَّا الجواب عن سرِّ تخصيص آية [طه: 15] بوصف السَّاعة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، فهو أنَّ الخطاب في سورة طه كان لتأنيس النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وتسليته عن حال كفَّار قريش في توقُّفهم عن الإيمان، ثمَّ عرَّف نبيَّه صلى الله عليه وسلم بابتداء أمر موسى عليه السلام، إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، ولمَّا كان هذا الخطاب والتَّعريف للنّبيّ صلى الله عليه وسلم المنزَّه عن الارتياب في أمر السَّاعة، لم يحتج إلى نفي الرَّيب، إذِ المقام النَّبويُّ في الإيمانِ بها لا يدانَى، فلم يكن نفي الارتياب ليلائم ولا يناسب.

أمَّا آية غافر، في أكثر الخطاب المتقدِّم قبلها، من أوَّل السّورة إليها، فهو خطابٌ لقريش وسائر كفَّار العرب، وهم المجادلون في أمر السَّاعة، فقدَّم لهم قبل ذكر الآيات قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، فذُكِّروا بما لا يمكن لأحد منَ المخلوقين إلَّا الاعترافُ بعظيم أمره والعجز عنه، وهو بدخول اللَّام ونفي الرَّيب في ذلك، وذلك أوضح شيء في المناسبة، فكلٌّ منَ الآيتين وارد على أتمِّ مناسبة، ولا يمكن أن يقع الوارد في سورة غافر في سورة طه، ولا الوارد في سورة طه في سورة غافر[2].

أوثر الفصل بين الجملتين؛ لما بينهما من توسُّط بينَ الكمالَيْن

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ عن سابقه:

وقع قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ موقع الخبر للحرف النَّاسخ،

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/ 361، والهلال، الثّريّ الجامع: 7/ 66 - 67.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 335 - 336.

فهي جملة فعليَّة في محلِّ رفع خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾[1]، ويجوز أن تكون اعتراضيَّة لا محلَّ لها من الإعراب[2]، فبين هذه الجملة الكريمة وما قبلها توسُّط بين كمال الاتِّصال وكمال الانقطاع، مع قيام المانع منَ الوصل؛ إذ إنَّ النَّظم لو كان (آتية وأكاد أخفيها) لربَّما تُوهِّم أنَّ جملة (وأكاد أخفيها) صفة للسَّاعة الآتية وليس إخبارًا عنها.

دلالة التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿أَكَادُ﴾:

إعلام العباد بمجيء السَّاعة مع إخفاء وقت وقوعها مصلحة لهم

جيء بالمضارع للدّلالة على دوام الأمر، فـ﴿أَكَادُ﴾ هنا على بابها بمعنى أنَّها مقاربةُ ما لم يقع، لكنَّ الكلام جارٍ على استعارة العرب ومجازها، فلمَّا كانت الآية تعبيرًا عن شدَّة خفاء أمر القيامة ووقتها، وكان القطع بإتيانها مع جهل الوقت أهيَبَ على النُّفوس، بولغ في إبهام وقتها فقال تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾؛ حتَّى لا تظهر البتَّة، ولكنَّ ذلك لا يقع، ولا بدَّ من ظهورها[3].

وذُكر أنّ ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشَّيء يقولون: كتمت سرَّك من نفسي، أي: أخفيته غاية الإخفاء، واللّه عزَّ اسمُه لا يخفى عليه شيء[4]، لكن لمَّا خاطب تعالى العربَ بما تعرف وتستعمل فيما بينَها منَ المخاطبات - وقد كان الرَّجُل منهم إذا بالغ في الخبر على إخفاء شيء هو له مُسِرٌّ قال: كدت أخفيه من نفسي - لمَّا كان الأمر كذلك خوطبوا على أبلغ ما يعقلون[5]، والمعنى في إخفائها: التَّهويل والتَّخويف؛ لأنَّهم إذا لم يعلموا متى تقوم السَّاعة، كانوا على حذر منها كلَّ وقت[6]، فمَن لم يعلم متى يهجم عليه عدوُّه كان أشدَّ حذرًا[7].

---

(1) محمود صافي، الجدول: 8/ 353.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 7/ 82.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 40، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 4/ 47.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 267.
(5) مكّيّ، الهداية الى بلوغ النّهاية: 7/ 4623.
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 268.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 154.

معنى اللَّام ودلالتها في قوله: ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾:

لـولا وجـود الجزاء لفعل مَن شاء ما يشاء

اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾ هي لام (كي)[1]، وهي متعلِّقة بـ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، وهكذا يترتَّب الوعيد[2]، فقد بيَّن اللّه تعالى سبب الإتيان بها بقوله: ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾؛ أي: بأيسر أمر وأنفذه[3]، وهذا تعليمٌ بحكمة جعلِ يومٍ للجزاء[4]، وبيان العلل خطاب إقناع.

دلالة التَّعبير بـ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾ من حيث مادَّتُه وصيغته:

في إقامة الجزاء تـرغيـب لمَـنِ اهتدى، وترهيب لمَن حسِب أنَّه خُلِق سدى

قوله تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾ فيه غاية التَّرغيب للمؤمنين بأن ينالوا مكافأة عملهم بفضل من اللّه تعالى ورحمة، وفيه أيضًا نهاية التَّرهيب للكافرين من أن ينالوا جزاء أفعالهم وفاقًا، وبناء الفعل ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله للعلم بالفاعل، لأنَّ المجازي هو اللّه ﷻ، وفي هذا البناء ضرب من الإيجاز البليغ.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ﴾:

لا يكلِّف اللّه نفسًا إلَّا ما آتاها

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ﴾؛ يعني: من النُّفوس السَّاعية، بقرينة قوله: ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾، إذ السَّعيُ كنايةٌ عن الكسب[5]، فهذا عامٌّ مخصوص بالقرينة[6]، وفي الإضافة إلى النّفس بيانُ أنّها الدَّاعية للعمل، وأنّ الجوارح منقادة إليها.

الغرض من تنكير ﴿نَفۡسِۭ﴾:

لا يغادر الجزاء نفسًا، فيعمُّ المكلَّفين جِنًّا وإنسًا

جاءت كلمة ﴿نَفۡسِۭ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾ لإفادة العموم والشُّمول، غير أنَّه مخصوص بالقرينة، فلا جزاءَ إلَّا لمكلَّف، وخروجُه مخرجَ العموم للمبالغة في أنَّه لن يغادر الجزاءُ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 22.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 40.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 278.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 202.
(5) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 421.
(6) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 141.

نفسًا منفوسة، أو أنَّه على الحقيقة وأنَّ مَن رُفِع عنه القلم من أبناء الكافرين وذرِّيَّتهم سيُمتحَنون يوم القيامة، كما وردت بذلك الأحاديث(1).

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾:

الجزاء مُسبَّب عن السَّعي ومقابلٌ له، وكلُّ نفس بجزائها مقرونةٌ ومصحوبة

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ للمقابلة؛ أي: مقابل ما تسعى، أو تُجزَى بذات ما تسعى، وذلك لمساواة السَّعي مع الجزاء، فكأنَّه هو هو(2)، وقيل: الباء للسَّببيَّة(3)، وقيل: للإلصاق(4)، ولا تعارض بينها؛ فإنَّ الجزاء مسبَّبٌ عنِ السَّعي، فهو مقابِلٌ له أجرًا وثوابًا، أو تنكيلًا وعقابًا، فكلُّ نفس قدِ التصقت بجزائها، والتصق جزاؤها بها.

معنى ﴿بِمَا﴾ ودلالتها في قوله: ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾:

لا تزر وازرة وزر أخرى، ولو كانت خليلةً أو ذات قُربى

قوله تعالى: ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ متعلِّق بـ ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾، و﴿بِمَا﴾ يجوز أن تكون مصدريَّةً، أو موصولةً اسميَّة، ولا بدَّ من مضاف؛ أي: تُجزى بعقاب سعيها، أو بعقاب ما سعته(5)، فعلى تأويلها بالمصدريَّة دلالةٌ على العموم؛ أي: تُجزى بعموم العمل ثوابًا أو عقابًا، وعلى تأويلها بالموصوليَّة دلالةٌ على الخصوص؛ أي: تُجزَى بكلِّ عملٍ جزاءً مستقلًّا، ولا تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أُخرى.

بلاغة المجاز المرسل في قوله: ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾:

طوبى لمَن أجهد نفسه سعيًا فراضَها، ليُبنَى لها في الجنَّة نزلها

معنى قوله تعالى: ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾: بما تعمل، فإطلاق السَّعي على العمل مجازٌ مرسل(6).

والسَّعي - وإن كان ظاهرًا في الأفعال - فهو هنا يعمُّ الأفعالَ

(1) ابن القيّم، حاشية على سنن أبي داود: 12/ 323.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4711.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 523.
(4) الهلال، الثّريّ الجامع: 7/ 68.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 22.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 202.

والتُّروك، للقطع بأنَّ تارك ما يجب عليه معاقَب بتركه مأخوذٌ به[1]، ولكنَّ تخصيصَه في معرِض الغاية لإتيان السَّاعة، مع أنَّه لجزاء كلِّ نفس بما صدر عنها سواءٌ كان سعيًا فيما ذُكر، أو تقاعدًا عنه بالمرَّة، أو سعيًا في تحصيل ما يُضادُّه؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ بالذَّاتِ من إتيان السَّاعة هو الإثابةُ بالعبادة، وأمَّا العقابُ بتركها فمِن مُقتَضَيات سوءِ اختيارِ العصاة، وبأنَّ المأمورَ به في قوَّة الوجوبِ، والسَّاعةَ في شدَّة الهول والفظاعة، بحيثُ يوجِبان على كلِّ نفس أن تسعى في الامتثال بالأمر، وتَجِدَّ في تحصيل ما ينجّيها منَ الطَّاعات، وحينَئِذٍ تحترز عنِ اقتراف ما يُرديها منَ المعاصي[2].

دلالة العدول عن الفعل الماضي إلى المضارع:

يشمل الجزاء كلَّ عمل ابنِ آدم من لَدُن جريان القلم عليه إلى أن تفارقه التي بين جنبيه

كان ظاهر النَّظم أن يقال: (لتُجزى كلُّ نفس بما سعت)، غير أنَّ النَّظم القرآنيَّ البليغ البديع عدل عن الماضي إلى المضارع فقال: ﴿تَسۡعَىٰ﴾؛ للدّلالة على معانٍ لا يؤدّيها الماضي، منها: أنَّ التَّعبير بالمضارع يفيد الاستمراريَّة، وهذا يجعل صورة النَّفس وهي تعمل صورة حيَّة، فكأنَّنا نراها الآن وهي تعمل، وفي أعماقنا يتردَّد صدى هذا النِّداء القرآنيِّ الخالد، فنعلم أنَّها مجزيَّة بهذا العمل لا محالة، ومنها: أنَّ الجزاء الحسن منه ما يكون معجَّلًا في الدُّنيا، منَ الهداية والتَّوفيق والرِّزق الحَسن، كما تشهد به آيات عديدةٌ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: 17]، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]، وغير ذلك منَ الآيات، كما أنَّ الجزاء بالعقوبة منه ما يكون معجَّلًا في الدُّنيا، منَ الأخذ الشَّديد، كقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ الآية [العنكبوت: 40]، وقوله

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 425.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 8.

سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ [سبأ: 17]، وغير ذلك منَ الآيات، فالجزاء المعجَّل يناسبه التَّعبير بالمضارع لا الماضي.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإتيان والمجيء:

المَجيء أعمُّ منَ الإتيان

الفرق بينهما أنَّ المجيءَ أعمُّ منَ الإتيان؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل للسّيل المارّ على وجهه: أَتيّ[1]، وكلُّ مَسيل سُهِّل لماءٍ أَتيّ[2]، ويُستعمل المَجيء لما فيه صعوبة ومشقّة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: 27]، وقال ﷻ: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: 19]، وقال ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾ [عبس: 33]، وهذا كلُّه ممَّا فيه صعوبةٌ ومشقَّةٌ على النَّاس[3]، كما أنّ الإتيان يستخدم في سياق الأمور السّهلة والميسورة، أو التي لم تحدُث بعدُ[4]، وقد يكون باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، أمَّا المجيء فيُقال باعتبار الحصول[5].

الإخفاء والإسرار:

الإخفاء هو السّتر في الأمور الماديّة وغيرها، والإسرار خلاف الإعلان

الخاء والفاء والياء أصلان متباينان متضادَّان؛ فالأوّل: السَّتر، والثَّاني الإظهار، يقال: خفي الشيءُ يخفى، وأخفيتُه، وهو في خفية وخفاء، إذا سترته، وخفا البرق خفوًا، إذا لمع، ويكون ذلك في أدنى ضعف، ويقال: خفيت الشّيء، إذا أظهرتُه[6]، ويكون الإخفاء في الأمور الماديّة وغيرها[7]، والإسرار: خِلاف الإعلان[8]، وهو كتمُ الشّيء كأنَّه جُعِل في الجوف بعمق[9].

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (جيء)، و(أتي).

(2) الأزهريّ، التّهذيب، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).

(3) السَّامرائيّ، لمسات بيانيّة، محاضرات، ص: 75، 76، والهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 1/ 394.

(4) السَّامرائي، لمسات بيانيّة، محاضرات، ص: 1036، والهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 4/ 163، 164.

(5) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (جيء).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).

(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (سرر).

(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سرر).

السّعي والعمل:

السَّعي يُستعمل للجدِّ في الأمر[1]، والعمل يُستعمل في الأفعال الصَّالحة والسّيّئة[2]، وكذلك السّعي ولكنَّ أكثرَ استعمالِ السّعي في الأفعال المحمودة[3]، والعمل يعمُّ أفعالَ القلوب والجوارح[4]؛ فيدلّ هذا على أنَّ العملَ أعمُّ منَ السّعي في التّعبير عنِ الأفعال.

السّعيُ عمل جادٌّ ويكون في الخير، والعمل في الخير والشر

(1) الرَّاغب، المفردات: (سعي).
(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (عمل).
(3) الرَّاغب، المفردات: (سعي).
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 616.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ١٦﴾

[طه: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لما سبق التّحذيرُ من قُرب وقوع السَّاعة، فرّع عليها التّحذير من نسيانها وعدمِ العمل بمقتضى التّحذير منها، فأمر بمُداومة ذِكرها، والتّشمير عن ساعد الجِدّ للاستعداد لها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصُدَّنَّكَ﴾: الصَّدُّ: الإعراض والصُّدوف[1]، وصدَّه عنِ الأمر يصُدُّه صدًّا: منعه وصرفه، والصَّدُّ كذلك: الهُجْران[2].

2) ﴿هَوَىٰهُ﴾: الهَوَى: مَيْل النَّفْس إلى الشَّهوة وهواها، ويُقال ذلك للنَّفس المائلة إلى الشَّهوة، وقد غلب على المَيْل المذموم عند الإطلاق، وجمعه أهواء[3]، وسُمّي بذلك لأنَّه يَهْوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية[4].

3) ﴿فَتَرْدَىٰ﴾: الرَّدَى: الهلاك، والتَّردّي: التَّعرُّض للهلاك، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [اللّيل: 11]، أي: إذا مات وهلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾، أي: فتهلك[5]، ورجل رَدٍ، أي: هالك، وامرأة رَديَّة على وزن فعِلَة[6].

المَعنى الإجماليُّ:

المعنى: (لا يصرفنّك عنِ الإيمان بالسَّاعة والتّصديق بها، أو

أمـر السَّـاعـة يقتضي العملَ لـهـا، والنّجاة في مفارقة أهلِ الهَوى

(1) ابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (صدد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (هوى).
(4) الرَّاغب، المفردات: (هوى).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ردى).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ردى).

عن ذِكراها ومراقبتها، غيرُ المؤمنين بها، الذين انقادوا لأهوائهم وشهواتهم، ففي اتّباعهم هلاكك).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ للإفصاح، إذ تفصِحُ عن شرط مُقدَّر، تقديره: (إذا كانت السَّاعةُ آتيةً، وإن كان زمانُها خافيًا، فبيِّنْ للنَّاس وجوبَ الإيمانِ بها، ولا يَصدَّنَّكَ عنها مَن لا يؤمن بها فلا يؤمن بالبعث)[1]، وفُرِّع على كونها آتيةً وأنَّها مخفاةٌ التَّحذيرُ مِن أن يصدَّه عنِ الإيمان بها قومٌ لا يؤمنون بوقوعها؛ اغترارًا بتأخُّر ظهورها، فالتَّفريع على قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أوقع؛ لأنَّ ذلك الإخفاء هو الذي يُشَبِّه به الذين أنكروا البعثَ على النَّاس[2].

اغترَّ قوم بخفاء أمـر السَّاعة وتـأخـيرها فـفَـجَـروا، وأشـفـق مـنـها آخـرون فازْدَجَروا

دلالةُ النّهي في قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾:

﴿فَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ ناهيةٌ، والنَّهي هاهنا جاء على حقيقته بطلب الكفِّ عن الفعل، وهذا - وإن كان بحسب الظَّاهر نهي للكافر عن صدِّ موسى عليه السلام عنِ السَّاعة - لكنَّه في الحقيقة نهيٌ له عليه السلام عنِ الانصداد عنها على أبلغِ وجهٍ وآكدِه؛ فإنَّ النَّهي عن أسباب الشَّيء ومباديه المؤدّيةِ إليه نهيٌ عنه بالطَّريق البرهانيِّ، وإبطالٌ للسَّببيَّة مِن أصلها[3]، وهو كذلك خطابٌ لآحاد المكلَّفين؛ ألَّا تتَّبعوا سبيلَ مَن كذَّب بالسَّاعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتَّبع هواه، فمَن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر[4].

الـنَّـهـي عن أسباب الشَّيء المؤدّي إليه، نهيٌ عنه بالكليَّة، وإبطالٌ للسَّببيَّة

وقد أُكِّد الفعل المضارع ﴿يَصُدَّنَّكَ﴾ المسبوق بـ(لا) النَّاهية بنون

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4712.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 203.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 9.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 278.

التَّوكيد الثَّقيلة؛ للمبالغة في النَّهي عنِ الانصداد عنِ الإيمان بالسَّاعة، أو عنِ العمل لها والاستعداد لأجلها؛ فإنَّ خسرانها هو الخسران المبين، والصَّدُّ اعتراضٌ فيه قوَّةٌ، يؤدّي إلى الصَّرف والمنع(1).

توجيه عود الضّمير في قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾:

النَّهي للكليم الكريم عن قبول أسباب الصَّدّ، والأمر بمعاملة الكافرين بحزم وجِدّ

الظَّاهر أنَّ الخطاب في ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ لموسى عليه السلام، ولا يلزم منَ النَّهي عنَ الشَّيء إمكانُ وقوعه ممَّن سبقت له العِصمةُ(2)، فهو في الحقيقة نهيٌ له عليه السلام عنِ الانصداد، أو عن إظهار اللّين للكافرين(3)، أو هو نهيٌ عن قبول أسباب الصَّدِّ، وهو محاولة الكافرين منعَ الإيمان باليوم الآخر؛ أي: نهيٌ عن تمكينهم منَ الإغراء به، فكن صلبًا في بثِّ روح الإيمان باليوم الآخر، حتّى لا يطمع أحدٌ منَ الكافرين في أن تُصَدَّ عنه(4).

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾:

في النَّهي عنِ الانصداد عنِ السَّاعة حثٌّ على العبادة، ونهيٌ عنِ الرُّكون إلى الدُّنيا

صيغ نهيُ موسى عليه السلام عنِ الصَّدِّ عنِ السَّاعة، في صيغة نهي مَن لا يؤمن بالسَّاعة عن أن يَصُدَّ موسى عنِ الإيمان بها؛ مبالغةً في نهي موسى عن أدنى شيء يحول بينَه وبينَ الإيمان بالسَّاعة، وهذا الأسلوب من قبيل قولهم: لا أعرفنَّك تفعل كذا، ولا أرينَّك هاهنا(5)؛ أي: لا تكن هاهنا فأراك، ولا تكن بحيث يصدُّك الكفَّار؛ لأنَّ الفعل إنّما يُنهى عنه فاعلُه لا مفعولُه(6)، فجُعِلَ نهيُ الكافرِ وسيلةً إلى ذلك النَّهي، وهو كونه في رخاوةٍ وعدم تصلُّبٍ في الدّين، بحيثُ يهولُه وفورُ دهماء الكفرة، وفي هذا حثٌّ عظيم على الاشتغال بالعبادة، وزجرٌ بليغ عنِ الرُّكون إلى الدُّنيا ونعيمها(7).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صد).
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 320.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 425.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4712.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 203.
(6) السّخاويّ، تفسير القرآن: 1/ 530.
(7) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 10/ 149.

الغرض من تقديم شبه الجملة على الفاعل:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ﴾ تقديمٌ للجارِّ والمجرور ﴿عَنْهَا﴾ على قوله: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المؤخَّر، فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تبقى النَّفْسُ مستشرفة لهُ، فيتمكَّنُ عندَ ورودِه لها فضلُ تمكُّنٍ، ولأنَّ في المُؤخَّر نوعَ طولٍ، ربَّما يُخِلُّ تقديمُه بجزالة النَّظمِ الكريم[1].

النَّفسُ لمعرفة المتأخِّر أشوَقُ، وفضولُها باستشرافه أعلَقُ

سِرّ التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾ دون غيره:

التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾ يفيد عمومَ العاقلين الذين يصِحُّ وقوعُ الصَّدِّ منهم؛ إذ إنَّه يصدق على المفرد والمثنَّى والجمع، ويصدق كذلك على المذكَّر والمؤنَّث، ويصِحُّ إطلاقُه على الإنس والجانِّ، ولهذا كان أبلغَ في هذا الموطن منَ (الذي)، أو (التي).

الموصول (مَن) يفيد العموم ليشمَل كلَّ مَن يمكن وقوعُ الصَّدِّ منه

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾:

التَّعبير بالمضارع يفيد التَّجدُّد والاستمرار، فعدمُ الإيمان بالسَّاعة فعلٌ شنيع يتكرَّر وقوعُه منَ الكافر، وفي هذا دليلٌ على أنَّ التَّذكير بأمر السَّاعة وضرورةَ الإيمان بها - أيضًا - وقع متكرِّرًا، فكلمَّا تجدَّدت للكافر دعوةٌ أن يؤمن بالسَّاعة، جدَّد لها إعراضًا ونفورًا.

كلمَّا تجدَّدت دعوةُ الكافر أن يؤمن بالسَّاعة، جدَّد لها إعراضًا ونفورًا

نُكْتةُ عطفِ اتِّباع الهوى على المضارع عدمُ الإيمان بالسَّاعة:

قُرن بعدم الإيمان باليوم الآخر اتِّباعُ الهوى؛ وذلك لبيان أنَّ السَّبب في عدم إيمانهم بالبعث هو سيطرةُ أهوائهم عليهم[2]، ونبَّه بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ على أنَّ سلوكَ طريق العقلِ واتِّباعَ الحُجَّة يوجبُ التَّصديقَ بالبعث والسَّاعة، فإنكارُها والتكذيبُ بها إنَّما يكون لغلبة الهوى واتِّباعه[3].

براهين السَّاعة جليَّة، ولا ينكرها إلَّا صاحبُ نفس دنيَّة، وشهوةٍ دونيَّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 9.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4712.
(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 422.

نُكْتةُ المغايرة بين الماضي والمضارع:

ثبوتُ شجرة اتِّباع الهوى في القلب لا يُثمر إلَّا جحودًا وإعراضًا

في قوله: ﴿لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، لمَّا كان التَّعبير بالمضارع في ﴿لَّا يُؤۡمِنُ﴾ دالًّا على الاستمرار وتجدُّدِ الإنكار بتجدُّد الإنذار تشنيعًا على الكفَّار، فإنَّ التَّعبير بالماضي ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ يدلُّ على أنَّ انطواء النَّفس على اتِّباع الهوى هو الدَّافع لعدم الإيمان بالآخرة، وعُبِّر بما يفيد تحقُّقَهُ ووقوعَهُ، فهو كالشَّجرة الخبيثة النَّابتة في أعماق القلب، وكلّما أثمرت، أثمرت كفرًا وإعراضًا، فجاء كلُّ فعلٍ في موضعه.

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِهَا﴾:

جعل الكافرُ كفره ملاصقًا للسَّاعة، فحيثما دار التَّذكير بها فثَمَّ جحودُه

الباء للإلصاق، وهو أصل معانيها[1]، فكأنَّ هذا الكافر قد جعل عدمَ إيمانِه ملاصقًا للسَّاعة، فإذا ذُكِّر بها كَفَر، وإذا ووجِه بحقيقتها أنكر، وإذا تُليت عليه براهينُها ولَّى معرضًا واستكبر.

توجيه عود الضَّمير في قوله: ﴿عَنۡهَا﴾ و﴿بِهَا﴾:

عود الضَّمير إلى السَّاعة أوفق، وبشأن موسى عليه السلام أليَق

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿عَنۡهَا﴾ يعود على السَّاعة، والمراد: عن ذكرها ومراقبتها، وقيل: عن الإيمان بإتيانها، ورُجِّح الأوَّل لأنَّه الأليَق بشأن موسى عليه السلام، وإن كان النَّهيُ بطريق التَّهييج والإلهاب، ورجوع ضمير ﴿عَنۡهَا﴾ إلى السَّاعة هو الظَّاهر، وكذا رجوع ضمير ﴿بِهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾[2].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾:

الهوى حادٍ يقود إلى المهالك

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ استعارةٌ مكنيَّة، حيث شُبِّه فيها الهوى بإنسان متبوع مقتفى أثرُه، ثمَّ حُذِف المشبَّه به، وجيء بأحد لوازمه، وهو الاتِّباع، على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 488.

نُكْتةُ إضافة الهوى إلى ضمير الغائب: ﴿هَوَىٰهُ﴾:

في إضافة الهوى لضمير الغائب العائد على مَن حُذِّر منه موسى عليه السلام، إشارةٌ إلى أنَّه هوًى لصيقٌ بصاحبه، نابعٌ من سوء نيَّته، وخبث طويَّته، وأنَّه لو تَرك هواه لحظةً لهداه صائبُ تفكيره إلى ضرورة الإيمان بالسَّاعة، لكنَّه تماهى مع هواه، ولازَمَه ملازمة الغريم.

الهوى لصيق بصاحبه، نابعٌ مِن سوء نيَّته، وخبثِ طويَّته

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَتَرْدَىٰ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ للتَّفريع، حيثُ فُرِّع على النَّهي أنَّه إن صُدَّ عنِ الإيمان بالسَّاعة رَديَ؛ أي: هَلَكَ، والهلاكُ مستعار لأسوأ الحال، والتَّفريع ناشئ عنِ ارتكاب المنهيِّ لا على النَّهي؛ ولذلك جيء بالتَّفريع بالفاء، ولم يقع بالجزاء المجزوم، فلم يقل: (تَرْدَ)، لعدم صحة حلول (إنْ) مع (لا) عوضًا عنِ الجزاء، وذلك ضابط صحَّة جزم الجزاء بعد النَّهي[1].

التَّفريع ناشئ عنِ ارتكاب المنهيِّ، لا على النَّهي

دلالة التَّعبير بـ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ من حيثُ مادَّته وصيغته:

تدور معاني الرَّدى حولَ السُّقوط والتَّصادم والارتطام العنيف، وما يستتبع ذلك غالبًا منَ الهلاك[2]، وفي التَّحذير مِن عقوبة الانصداد عنِ السَّاعة بالرَّدى إشارةٌ إلى مكانة المؤمنين العَليَّة، ومنزلةِ الكافرين الدّنيَّة، فإنَّ مَن ترك السَّعيَ للآخرة فإنَّه يوشكُ أن يتردَّى مِن سموق التَّوحيد إلى درَك الجحود.

مَن ترك السَّعي للآخرة فإنَّه يوشك أن يتردَّى من ذروة المشاهدة إلى درَك المعاندة

بيان الموقع الإعرابيِّ للفعل: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾، ودلالتُه:

قوله تعالى: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ يجوز فيه أن ينتصب في جواب النَّهي بإضمار (أنْ)، وأن يرتفع على خبر ابتداء مضمر تقديره: (فأنت

الإغفالُ عن السَّاعة وعن تحصيل ما يُنجّي من أهوالها مستتبعٌ للهلاك لا محالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 203.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردى).

تردى)[1]؛ أي: تهلك وتشقى إنِ اتَّبعت طريقَ مَن يصُدُّ[2]؛ فإنَّ الإغفالَ عنها وعن تحصيل ما ينجّي من أهوالها مستتبِعٌ للهلاك لا محالة، وهو في محلِّ النَّصبِ على جواب النَّهي، أو في محلِّ الرَّفعِ على أنَّه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فأنت تردى[3].

لطيفة خطاب الله تعالى نبيَّه موسى عليه السلام بطريق الاستدلال:

مسالك الإيمان فطرة سليمة، وفكرة قويمة، وهداية مستقيمة

جاء خطاب اللّه تعالى لموسى عليه السلام بطريقة الاستدلال على كلِّ حُكم، وأمرٍ أو نهي، فابتُدئ بالإعلام بأنَّ الذي يكلِّمه هو اللّه، وأنَّه لا إله إلَّا هو، ثمّ فرَّع عليه الأمرَ في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، ثمّ عقَّب بإثبات السَّاعة، وعلَّل بأنَّها ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾، ثمَّ فرَّع عليه النَّهيَ عن أن يصدَّه عنها مَن لا يؤمن بها، ثمّ فرَّع على النَّهي أنَّه إنِ ارتكب ما نُهي عنه هلكَ وخَسِر[4].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّدُّ والمنع:

الصّدّ المنع عن قصد الشّيء خاصّة، والمنع أعمُّ منه

الصَّدُّ: هو المنع عن قصد الشّيء خاصّة، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنعون النَّاسَ عن قصْده، والمنعُ يكون في ذلك وغيره؛ فيقال: منع الحائطَ عن الميل، ولا يقال صدَّه عنِ الميل؛ لأنَّ الحائط لا قصدَ له، ويقال: صدَّني عن لقائك، أي: عن قصد لقائك[5]، ويُلحظ في المنع معنى الحَجز دون الوصول إلى شيء[6]، وفي الصّدِّ معنى المنع مصحوبًا بمعنى

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 23.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم، ص: 503.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 9، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 488.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 204.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (منع).

الصَّرف[1]، ولهذا يقال للجبل: صدٌّ[2]؛ لأنَّ الجبلَ لا يمنع السَّائرَ باتجاهه فقط، بل يمنعه ويصرفه ويَردّه، ليسيرَ إلى اتّجاه آخر[3].

الاتِّباع والاقتفاء:

اتِّبـاع الـشَّيء أشدُّ وأقوى مِن اقتفائه

المعنى المحوريّ لجذر الاقتفاء: اللّحاق بخَلْف الشّيء مِن أعلاه؛ فالاقتفاء: اتّباعٌ منَ الخَلْف[4]، وأصله منَ القفا؛ لأنَّ المتَّبِعَ للشّخص غالبًا يصير خلْفَه وتابعًا لقفاه[5]، ويدلُّ ما سبق على أنَّ الاتباعَ أعمُّ منَ الاقتفاء، وأمَّا المعنى المحوريّ لجذر الاتّباع فهو: لحوق الشّيء بمتقدِّم أو سابق بلا فصل، ومن ذلك التَّبيع: وهو ولد البقرة في أوَّل سَنَة، وذلك لأنَّه يتَّبع أُمَّه بعدوٍ ولا يفارقها[6]، ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ اتّباعَ الشّيء أشدُّ وأقوى مِن اقتفائه؛ لِما في الاتّباعِ منَ الالتصاق وعدم الانفصال والمفارقة، ولأنَّه أدلُّ على شدَّةِ تعلُّقِ المُتّبِع بالمُتَّبَع.

الرَّدى والهلاك:

الــذي يَــرْدَى يُصدَم بما يُهلكُه

ردي: أصل واحد يدلُّ على رمي أو ترامٍ وما أشبه ذلك، يقال: رديته بالحجارة أرديه: رميته، والحجر مِرداة، والرّدى: الهلاك، ورَدي يَرْدَى ردًى: هلك، فهو رَدٍ، والرّديّ: الهالك، وأرداه اللّهُ وأرديته، أي: أهلكته، والرّدى: الموت، والتَّرَدّي: التَّهَوُّر في مَهْواة، ورَدَيْتُه: صدمته، ورَديْتُ فلانًا بِحجرٍ أَرْديته رَديًا، إذا رَمَيْتَه به، ورَدَيْتُ الحجر بصخرةٍ أو بمِعْوَلٍ، إذا ضربْتَه بها لتكسره، والمِرْدى: حجرٌ يُرمَى به[7]، والمعنى المحوريّ لجذر الرَّدَى: صدم بشدّة وثقل عظيمين[8].

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (صدد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (صدد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قفو).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قفو).
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ردي).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردي).

وهلك: يدلُّ على كسر وسقوط، ومنه الهلاك: السّقوط، ولذلك يقال للميت: هَلَك، واهتلكت القطاةُ خوفَ البازي: رمت بنفسها على المهالك[1]، والمعنى المحوريّ لهلك: فراغ جوف الشّيء مما هو حقيقته وجوهره، كفراغ الأرض منَ الخصوبة، والجيفة منَ الرّوح، والمَهواة منَ الصّخر، والسّحابة من المطر[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هلك).

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾ [طه: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

يسأل سبحانه وهو العليم؛ لتهدئة نفس الكليم، وطمأنة قلبه السَّليم

لَمَّا غلبت الدّهشةُ على موسى ﷺ في الحضرة الإلَهيّة أراد سبحانه إزالتها؛ فسأله عنِ العصا؛ استجماعًا لقلبه المتوجّس، وتهدئةً لنفسه الحائرة في هذا المقام العليّ، وليبيّن له أنه سبحانه سيجعل لتلك الخشبة التي ليس لها خطرٌ كبير ولا منفعةٌ عظيمة، جليلَ المزايا والفوائد التي لم تكن تخطر له على بال، كانقلابها حيّةً تسعى، وضربِ البحر بها حتّى ينفلق، وضربِ الحجر حتّى يتفجّر منه الماء، ولينبّهه بهذا الطّريق إلى كمال قدرته، وبالغِ عظمته؛ وليعرفَ نقصانَ البشريّة، وأنَّ عقولهم عاجزةٌ عن فهم أغلب ما حولهم منَ الأشياء، وأنّهم محتاجون دائمًا إلى توفيقه سبحانه وهدايته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِيَمِينِكَ﴾: اليمين: أصله الجارحة، وهي اليد اليمين منَ الإنسان وغيره، واليمين: القوَّة أيضًا[2]، وقيل للحَلِف: يَمِينٌ باسم يمين اليد؛ لأنَّهم كانوا يَبسُطون أيمانهم إذا حلفوا أو تحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا[3].

2) ﴿عَصَايَ﴾: العصا: العود، مؤنثة[4]، وفلان يَعتَصي بالعصا: يَتَوَكَّأُ عليها، ويَعتَصي بالسَّيف: يجعله عصا[5]، وجمع العصا:

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 24، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 317، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 277.

(2) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (يمن).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (يمن).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عصو).

(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).

عُصيٌّ وعِصيٌّ[1]، ويقال للرَّاعي إذا كان قَويًّا على إبله ضابطًا لها: صلب العصا، وشديد العصا[2].

3) ﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾: الوِكاء: رباط الشَّيء، وكذلك كلُّ خيط يُشدُّ به الشَّيء، وأَوْكَيْته بالوكاء إيكاءً، إذا شددتُّه[3]، وأصل (وكأ) يدلُّ على شدِّ شيءٍ وشِدَّةٍ[4]، وتوكَّأ على العصا: اعتمد عليها وتشدَّد بها وتحامل عليها في المشي، ورجلٌ تُكَأَةٌ: كثير الاتّكاء، واتكأ على الشّيء فهو متكِئ، والموضع مُتّكَأٌ[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾[6].

4) ﴿وَأَهُشُّ﴾: الهشُّ: يقارب الهزَّ في التَّحريك، ويقع على الشَّيء اللَّين، يقال: هَشَشْت الورقَ أَهُشُّه هَشًّا، أي: خبطته بالعصا ليتحاتَّ، ومنه قال تعالى: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾[7]، أي: أضرب بها الشَّجر اليابس ليسقط ورقُها، فترعاه غنمُه[8].

5) ﴿مَـَٔارِبُ﴾: الأَرَب: فرطُ الحاجة المقتضي للاحتيال لدفعه، فكلُّ أرَب حاجة، وليس كلُّ حاجة أرَبًا[9]، وقد أرِب إلى كذا: احتاج إليه حاجة شديدة، وأَرِب إلى كذا أَرَبا وأُرْبَة وإِرْبَة ومأربة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[10]، وتأرَّبت في حاجتي: تشدَّدت[11]، ولا أَرَب لي في كذا، أي: ليس بي حاجة شديدة إليه[12].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يعرض السّياق القرآنيُّ حوارًا وسؤالًا استفهاميًّا تقريريًّا من ربِّ العزَّة ﷻ لعبده موسى عليه السلام، على سبيل الإيناس والتَّشريف والتَّنبيه؛ لما سَيُريه سبحانه منَ العجائب والمعجزات الدَّالّة على قدرته، حيثُ يقول: وما هذه الَّتي في يدك اليمنى يا موسى، فيجيب عليه السلام

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عصو).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (وكأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكا).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (وكأ).
(6) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (وكأ).
(7) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (هشش).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (هشش).
(9) الرَّاغب، المفردات: (أرب).
(10) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (أرب).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أرب).
(12) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (أرب).

منافع العصا عديدة، وآيات الخلَّاق باهرة وفريدة

مسترسلًا بقوله: هي عصاي أعتمد عليها في المشي، وأهزُّ بها الشَّجر ليتساقط ورقه فترعاه غنمي، ولي فيها منافع ومصالح أخرى[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَمَا تِلۡكَ﴾:

في بعض السُّؤال تعليم واستدلال

الواو في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تِلۡكَ﴾ عاطفة، وعطف الجملة على ما قبلها انتقالٌ إلى محاورة أراد اللّهُ منها أن يريَ موسى كيفيَّة الاستدلال على المرسَل إليهم بالمعجزة العظيمة، وهي انقلاب العصا حيَّةً تأكل الحيَّات التي يظهرونها؛ وإبرازُ انقلاب العصا حيَّة في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى عليه السلام، ودفعِ الشَّكِّ عن أن يتطرَّقَه لو أمره بذلك دون تجربة؛ لأنَّ مشاهد الخوارق تسارع بالنَّفس بادئ ذي بدء إلى تأويلها، وتُدخل عليها الشَّكَّ في إمكان استتار المعتاد بساتر خفيٍّ أو تخييل[2].

بلاغة الاستفهام بـ﴿وَمَا﴾:

سيق الاستفهام للتَّنبيه والتَّقرير والإعلام

أوثِر الاستفهام بـ﴿وَمَا﴾؛ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ﴾؛ لأنَّها تكون للسُّؤال عن ذوات ما لا يعقل، وأجناسه، وصفاته[3]؛ ولذلك ناسب أن يُسأل بها عنِ العصا لأنَّها ممَّا لا يعقل.

وهو استفهام تقريريٌّ سيق من أجل أن يوقن موسى عليه السلام أنَّه ممسك بعصاه حتَّى إذا انقلبت حيَّة لم يشكَّ في أنَّ تلك الحيَّة هي التي كانت عصاه؛ فهو لتأكيد حقيقة العصا؛ وليطمئنَّ قلب موسى عليه السلام بأنَّه في مقام الاصطفاء، وأنَّ الكلام الذي سمعه كلامٌ من قِبَل اللّه بدون واسطة متكلِّمٍ معتاد، ولا في صورة المعتاد[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 246.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 204.

(3) السَّامرائيّ، معاني النحو: 4/ 261.

(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 24، والماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 399، والخازن، لباب التأويل: 3/ 202، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 205.

سر اختيار اسم الإشارة للبعيد ﴿تِلْكَ﴾:

أومِئَ بالتَّعبير باسم الإشارة للبعيد إلى أنَّ السُّؤال عن أمر في شأن العصا غريب

أوثِر التَّعبيرُ باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ وهو للبعيد؛ إيماءً إلى أنَّ السُّؤال عن أمر غريب في شأنها؛ ولذلك أجاب موسى عليه السلام عن هذا الاستفهام ببيان ماهيَّة المسؤول عنه جريًا على الظَّاهر، وببيان بعض منافعها استقصاءً لمراد السَّائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده؛ لأنَّ شأن الواضحات ألَّا يُسأل عنها إلَّا والسَّائلُ يريد من سؤاله أمرًا غيرَ ظاهر، وليُقرِّر في نفس موسى عليه السلام المباينةَ البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبِّهَهُ على قدرته الباهرة[1].

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾:

جاء الكليم لبقعة المناجاة متوكِّئًا على عصاه

الباء في قوله تعالى: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ للظَّرفيَّة أو الملابسة[2]، والأخير هو المراد إذ إنَّ موسى عليه السلام كان ممسكًا بها بيمينه، إذ إنَّه جاء إلى شاطئَ الوادي الأيمن منَ البقعة المباركة منَ الشَّجرة متوكِّئًا على عصاه، رفيقةِ دربه.

دلالة التَّعبير باليمين عنِ اليد وسرّ التقييد به:

أوثِر التَّعبير باليمين دون اليد ليكون السُّؤال نائيًا عنِ الغموض والبُعد

قوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال، وسرُّ التَّعبير باليمين والعدول عنِ التَّعبير بكلمة (بيدك)؛ احتمالُ أن يكون في يساره خاتمٌ أو شيء آخر، فلو عبَّر بكلمة (بيدك) فربَّما يلتبس عليه الجواب[3]، فكان السُّؤال بأوضح لفظ وأجلاه؛ وذلك لإذهاب الخوف والهيبة التي عالجها موسى، إذ علِمَ أنَّ مخاطِبَه هو الله ربُّ العالمين سبحانه وبحمده.

سرّ التَّعبير بأداة النِّداء (يا) دون غيرها:

الغرض منَ النِّداء بـ(يا) تنبيه موسى لما سيكون من شأن عصاه

الأصل في (يا) أنَّها لنداء البعيد أو مَن هو بمنزلته من نائم أو ساهٍ، فإذا نوديَ بها مَن عداهم فلحرص المنادي على إقبال المدعوِّ

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 204.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 206.

(3) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 2/ 714، وابن كمال باشا، تفسير القرآن الكريم: 6/ 423.

عليه، ومفاطنته لما يدعوه له[1]؛ فلذلك قالوا: إنَّها تُستعمل للقريب والبعيد، والمستيقظِ والنَّائم، والغافل والمُقبِل[2].

سرُّ إيثار النِّداء بالاسم العلم ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

في إيثار الاسم العلم في النِّداء دليلُ محبَّة وتشريف وإدناء

آثر سبحانه مناداةَ كليمِه باسمه العلم ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ إدناءً له وتحبُّبًا إليه، وليشعرَه بما له مِن مكانة عنده سبحانه[3]، ولإزالة ما كان يجده موسى عليه السلام مِن رهبة وخشية وهيبة، قد تذهب بلبِّه عن إدراك ما يخاطَب به.

علَّة فصل ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ عن سابقه:

من شأن جُمَل المحاورات أن تَرِد مفصولةً؛ لتمييز كلِّ ردٍّ ومقولة

الجملة وقعت جوابًا عن سؤاله عمَّا بيمينه[4]، كما أنَّ من شأن المحاورات أن يُفصل بعضُها عن بعض.

نُكْتةُ التَّعبير بالضَّمير المنفصل ﴿هِيَ﴾:

ذُكر المسندُ إليه لبسط الكلام وإطالته، والحرص على تجويد الجواب وبلاغته

عُبِّر بالضَّمير المنفصل ﴿هِيَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ وهو المسند إليه، مع أنَّ غالب الاستعمال حذْفُه في مقام السُّؤال؛ للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولًا، تناسبًا مع ما وجده موسى عليه السلام من لذَّة المناجاة في حضرة الإله، فعَمَد إلى بسط الجواب بما لا يُخِلُّ بالأدب، أو يجنح إلى الحشو المناكد للبلاغة[5]، وثَمَّ ملمَحٌ آخر، وهو أنَّه لمَّا وقع في السُّؤال قوله: ﴿تِلْكَ﴾ وكان السُّؤال عنِ العصا يكفي فيه أن يقال: (وما بيمينك)، زاد موسى عليه السلام في الجواب ﴿هِيَ﴾؛ لمناسبة اسم الإشارة في السُّؤال؛ ليجتهد وسعَه في الإجابة عن السُّؤال بأبلغ وجه ممكن، وبما يسمح به الأدبُ مع العليِّ العظيم.

---

(1) الزّمخشريّ، المفصّل، ص: 413.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/ 49.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4714.
(4) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 186.
(5) أحمد شعيب، علوم البلاغة، ص: 261.

سرّ إضافة العصا إلى ضمير الملكيَّة في قوله: ﴿عَصَاىَ﴾:

أجاب موسى عليه السلام عن عصاه ببيان ماهيَّتها، ونسبها لنفسه تحقيقًا لملكيَّتها

في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ نسب موسى عليه السلام العصا إلى نفسه تحقيقًا لوجه كونها بيمينه، وتمهيدًا لما يعقبُه منَ الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام[1]، فبدأ ببيان ماهيَّتها، ثمَّ نسبها لنفسه لتحقيق ملكيَّتها.

بلاغة القصر بتعريف طرفي الإسناد في قوله: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾:

من أغراض القصر التَّوكيد والحصر

لمَّا سُئل عليه السلام عمَّا بيمينه أجاب بقوله: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ بجعل المسند إليه معرفة، وهو الضمير المنفصل ﴿هِىَ﴾، وبتعريف المسند وهي (العصا) بإضافتها إلى ضمير المتكلِّم؛ ليؤكِّد ملكيَّتَه للعصا، وليخبرَ أنَّ هذه الملكيَّة مقتصرة عليه هو، وأنَّها ليست لغيره، وليس له فيها شريكٌ[2].

علَّة فصل ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ عن سابقه:

أدلى موسى بعلَّة اتِّخاذه العصا؛ خوفًا أن يكون باتِّخاذه إيَّاها ممَّن عصا

فُصِل قوله: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ عن سابقه؛ لأنَّها جملة مستأنفة[3]، وقعت جوابًا لسؤال مقدَّر، بعد: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾، تقديره: (فما تصنع بها؟) قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ الآية[4]، فهو استئناف بيانيٌّ، وبين الجملتين شبه كمال الاتِّصال، ويجوز أن يكون قوله: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ خبرًا ثانيًا لـ ﴿هِىَ﴾[5]، فتكون جزءًا منَ الجُمَل، وقد جاء جوابُ موسى عليه السلام مبيِّنًا الغرضَ منِ اتِّخاذه عصاه؛ لعلَّه أن يكون هو قصد السَّائل[6].

سرُّ البَدء بذِكر التَّوكُّؤ قبل غيره من فوائد العصا:

بُدئ في ذِكر منافع العصا وتعديدها ببيان أكثر الأغراض الدَّاعية لاتِّخاذها

ابتدأ موسى عليه السلام بذكر التَّوكُّؤ قبل غيره؛ لأنَّه الأصل الذي تُتَّخذ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 269.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 30.
(3) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 411.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 321.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 24.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 20.

العصا لأجله، فالاتِّكاء يراوح فيه الإنسان بين قدميه، فيُريح القدمَ التي تعبتْ، وينتقل مِن جنب إلى جنب[1]، ولمَّا قال: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ بذكر نسبتها إليه ﷺ بدأ في ذكر منافعها بمصالح نفسه، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾، ثمَّ ثنَّى بمصالح رعيَّته، فقال: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ الآية[2]، ويضاف إلى ذلك أنَّه إنَّما جاء إلى المناجاة ماشيًا منفردًا، ولم يكن بصحبته ثمَّ غنم، فابتدأ بذكر التَّوكُّؤ لقُرب عهده به[3].

معنى (على) ودلالته في ﴿عَلَيْهَا﴾:

(على) هنا مستخدَمٌ في معنى الاستعلاء المجازيِّ[4]، فكأنَّه يُصَوِّر أنَّ موسى ﷺ باتِّكائه على عصاه، أنَّه فوقها مستعلٍ عليها، وفيه دليل على التَّمكُّن منها.

علَّة وصل قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ بسابقه:

تتعدَّد منافعُ العصا وتختلف، فأوثِرَ الوصلُ جمعًا بينَ المؤتلف

العلَّة في وصل قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ بسابقه هو اشتراكُ اللَّفظين ﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾، و﴿وَأَهُشُّ﴾ في الإخبار عن وظيفة العصا، ولقصد تشريك الجملتين، وعدم وجود ما يدعو إلى الفصل بينهما، وقد حسَّن الوصلَ هنا وجودُ التَّغاير بينَ التَّوكُّؤ على العصا، والهَشِّ بها على الغنم، مع وجود التَّلاؤم الفكري بينَ الغرضين، إضافة لاتِّفاق الجملتين في الخبريَّة والفعليَّة، واتِّفاقِ فعليهما في المضارعيَّة، وإسنادهما إلى فاعل واحد[5].

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِهَا﴾:

أفاد الباء معنى الإلصاق والاستعانةِ

الأصل في معنى الباء أنَّه حرف موضوع للدَّلالة على معنى الإلصاق، فهذا هو الأصل في معناها، ويدخلها معنى الاستعانة[6]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/ 9249.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 525.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 490.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 206.
(5) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 181، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 164.
(6) الزّمخشريّ، المفصّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 474، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 19.

وهذا هو المراد هنا، فإنَّ موسى عليه السلام يقبض عصاه ملصقًا بها يدَه الشَّريفة، مستعينًا بها في خبط أوراق الشَّجر لتسقطَ فترعاها غنمه.

دلَّ الحرف على الاستعلاء، وأفاد كاملَ الرِّعاية وغاية الإرفاق

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿عَلَىٰ غَنَمِي﴾:

استُعملت ﴿عَلَىٰ﴾ هنا بمعنى الاستعلاء المجازيِّ، كقولهم: هو وكيل على فلان، والمعنى أنَّه عليه السلام يخبط على رأس الغنم خبطًا خفيفًا، ليُبعدِه عن مواطن تضرُّه، وذلك من هشِّ الورق إذا خبطه خبطًا يسيرًا لينظمه، وفي ذلك دلالة على الرِّفق بهذا الحيوان الضَّعيف، وتوجيهه بأقلَّ ما يكون من توجيه، من غير ضرب ولا زجر[1].

ضُمِّن (وأَهُشُّ) معنى أُقبل، وفي التَّضمين إيجازٌ بتكثير المعنى وتقليل الألفاظ

نُكْتَة تعدية الفعل ﴿وَأَهُشُّ﴾ بـ (على) دون تعديته بنفسه:

عُدّي الفعل ﴿وَأَهُشُّ﴾ بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون تعديته بنفسه في قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾؛ لتضمين الفعل ﴿وَأَهُشُّ﴾ معنى الإنحاء والإقبال، والمعنى: (وأزجُرُ الغنمَ بها منحّيًا ومُقبلًا عليها)[2]، وفي هذا التَّضمين ضربٌ منَ الإيجاز؛ إذ إنَّه عبَّر عن كثير المعاني بقليل الألفاظ.

يفيد المضارع معنى التَّجدُّد والدَّوام، وهو مناسب لما سيق له الكلام

دلالة التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَأَهُشُّ﴾، و: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾:

أفاد التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّدِ والتَّكرير، وهو مناسب للمعنى المراد تمام المناسبة؛ فالرَّاعي دائمُ البحث عن مراعٍ طيِّبة لأغنامه، وهو دائم الانشغال بتوفير ما يطعمها إيَّاه ويسقيها، إبقاءً لحياتها، واستدامةً للمنافع المرجوَّة منها، من أكل لحم، أو شرب لبن، أو صنع لَبوس، إلخ، وهو إذ يفعل ذلك كثير الحركة، كثيرُ التَّوكُّؤ، فاستخدامُه عليه السلام العصا للأغراض التي ذكرها، هو استخدام متجدِّد ومستمرٌّ ومتكرِّر، فجيء بالمضارع لإفادة هذا المعنى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 206، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4713.

(2) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 206.

دلالة التعبير بـ﴿وَأَهُشُّ﴾:

في دلالة التَّركيب على معنى اللّين إشارة للُّطف، وإلماحٌ للرِّفق بالمدعوّين

تدور معاني الهَشِّ حولَ الرَّخاوة واللّين[1]، ومعنى قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾؛ أي: أَخْبِطُ بها، وأضرب أغصان الشَّجر ليسقط ورقُها على غنمي لتأكله[2]، ومفعوله في الآية محذوف، وهو الوَرَق؛ أي: اليابس[3]، وفي التَّركيب دلالةٌ على اللّين وغاية رفقِ الكليم عليه السلام بغنمه، وتلك إشارةٌ إلى أنَّه سيرفُق كذلك بقومه ورعيَّته.

سرُّ تنوُّع التَّعبير بين الاسميَّة والفعليَّة:

في التَّعبير بالفعليَّة معنى التَّجدُّد والاستمرار، وفي الاسميَّة معنى الثُّبوت والقرار

جاء التَّعبير عن منافع العصا متنوِّعًا بينَ الاسميَّة والفعليَّة في قوله: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾، ﴿وَأَهُشُّ﴾، ﴿وَلِيَ فِيهَا﴾، وهو موائم للتَّفصيل والإجمال في تعديد تلك المنافع؛ ذلك أنَّه لمَّا أوثِرَ التَّفصيلُ بذِكر أكثر ما تُستخدم فيه العصا، وهو التَّوكُّؤ والهَشُّ على الأغنام، وكان هذا المذكور متكرِّرًا بتكرُّر المشي ورعي الأغنام، ناسب أن يُصاغ ذلك في قالب الجملة الفعليَّة الدَّالَّة على التَّجدُّد، ولمَّا أوثِرَ الإجمالُ في ذكر بقيَّة المآرب، وكان منها ما يقع متجدِّدًا، ومنها غيرُ ذلك، وكانت هذه المآرب مستقرَّة في نفس موسى عليه السلام صيغ التَّعبير عنها بالجملة الاسميَّة الدَّالَّة على الثُّبوت.

الغرض مِن تقديم شبه الجملة على المبتدأ:

في التَّقديم تخصيص متَّشح بالتَّعليل

قوله: ﴿وَلِيَ﴾ شبه جملة، خبر مقدَّم، و﴿فِيهَا﴾ حال، و﴿مَـَٔارِبُ﴾ جمع مأربة - بتثليث الرَّاء - مبتدأ مؤخَّر، و﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لـ﴿مَـَٔارِبُ﴾[4]، وقد قُدِّم هنا المُسنَد وهو شبهُ الجملة ﴿وَلِيَ﴾ الواقعُ خبرًا، على المبتدأ المُؤخَّر ﴿مَـَٔارِبُ﴾؛ لإفادة التَّخصيص؛ أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هشش).
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 25، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 206.
(3) الشّهاب حاشية على البيضاويّ: 6/ 194.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 175.

تخصيص المآرب التي في العصا بموسى عليه السلام، وهذا يقوم مقامَ التّعليل لاتِّخاذه العصا، فكأنَّه قال: اتَّخذتها لتلك الحاجات الخاصَّة بي فيها، مع أنَّه لم يُسأل عن ذلك، ولكنَّه فُهم ذلك منَ السُّؤال، فبادر إلى الجواب بما يستوعب ما يمكن تقصّيه مِن أغراض السُّؤال.

معنى اللَّام ودلالتها في قوله: ﴿وَلِيَ﴾:

أفاد اللّام معنى الاختصاص بالملكيَّة، وفيه إلماح للعِلّيَّة

الأصل في اللَّام أنَّه حرفٌ موضوع لإفادة الاختصاص، إمَّا بالملكيَّة وإما بالاستحقاق[1]، وقوله: ﴿وَلِيَ﴾؛ أي: أنَّ هذه المآربَ التي طَويتُ ذِكْرها بالإجمال هي حاجاتٌ لي خاصَّة، اتَّخَذْتُ من أجل تحقيقها هذه العصا، فكأنَّه استشعر أنَّه قد يُلام على اتِّخاذها، فبادر بذِكْر ما قد يعذره عند ربِّه.

معنى (في) ودلالتها في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

كأنَّ العصا صارت وعاء يحوي الفوائدَ والمنافع

الأصل في الحرف (في) أنَّه يدلُّ على معنى الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانت الظَّرفيَّةُ أم زمانيَّة[2]، وقد دلَّ ذلك على أنَّ هذه العصا التي هي خشبةٌ يابسة لم تَعُد كذلك عنده عليه السلام، بل صارت كالوعاء الذي يحوي المتاعَ الذي لا يستغني عنه المسافرُ، فكذا صارت العصا وعاءً أو ظرفًا للعديد منَ المنافع التي اتَّخذها موسى عليه السلام لأجلها.

الغرض من تقديم شبه الجملة على المبتدأ:

يفيد التَّقديم نوعَ اهتمامٍ، ورُجِيَ منه تطويلُ الكلام

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على المبتدأ ﴿مَـَٔارِبُ﴾؛ للاهتمام والتَّخصيص، ويُضاف إلى ذلك أنَّ هذا التَّقديم أتاح إتباع النَّعت ﴿أُخۡرَىٰ﴾ منعوته ﴿مَـَٔارِبُ﴾ بلا فصل بينهما؛ مراعاةً لنَظْم الكلام، ورعايةً للفاصلة، وثمَّ ملمح آخر، وهو أنَّ موسى عليه السلام أخَّر ذكرَ المآربِ

(1) الزّمخشريّ، المفصّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 479، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 64.

(2) الزّمخشريّ، المفصّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 471، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 57.

رجاءَ أن يسأله ربُّه عنها، فيسمع كلامَه مرَّةً أخرى، وتطول بهذا مناجاتُه سبحانه[1].

دلالة التَّعبير بـ﴿مَـَٔارِبُ﴾:

الأَرَب احتياجٌ شديد، والجمع للتَّكثير والتَّعديد

التَّعبير عن الحاجات بالمآرب يدلُّ على شدَّة الحاجة الدَّاعيةِ لاتِّخاذ العصا، ومجيئُها على صيغة الجمع يدلُّ على التَّكثير؛ أي: هي حاجات ضروريَّة وكثيرة.

سِرّ جمع ﴿مَـَٔارِبُ﴾، ونُكْتةُ تنكيرها:

الجمع والتَّنكير يفيدان التَّكثير

الغرض من تعبيره عليه السلام في قوله: ﴿مَـَٔارِبُ﴾ بلفظ الجمع، وجعلها نكرةً هو التَّكثير؛ ليخبر عليه السلام أنَّ له في هذه العصا مآربَ أخرى كثيرةً لم يذكرها؛ ومنافعُ عديدةٌ غير ذلك، كحمل الزَّاد والسَّقي، وطردِ السِّباعِ عنِ الغَنَم، وتعليقِ المتاع بها على الكتف، ووصلِ رشاء البئرِ بها إن قَصُر عنِ الوصول للماء، إلخ[2].

سرّ تقييد المآرب بقوله: ﴿أُخۡرَىٰ﴾:

كأنَّ الحاجات صارت واحدة، يجمعها الأرَب وإن كانت متعدِّدة

وُصِفَت المآرب وهي جمع بقوله: ﴿أُخۡرَىٰ﴾ وهي مفردة، وذلك حملًا على تأنيث الجمع، لأنَّ ﴿مَـَٔارِبُ﴾ في معنى: جماعة، فكأنَّها جماعات منَ الحاجات الأُخرى[3]، وهذا هو السَّبيل المتَّبَع في توابع جمع ما لا يعقل[4]، وقد حَسَّن ذلك مراعاةُ فواصلِ الآيات، ولو قال: (مآرب أُخَر) لفات ذلك الرَّونقُ البديع في نظم الآيات[5].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المأرَب والحاجة:

كلُّ أرَب حاجةٌ، وليس كلُّ حاجة أربًا

الحاجة: من حوج، وهو أصل واحد، يدلّ على الاضطرار إلى

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 103، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 206.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 103، وأحمد مطلوب، أساليب بلاغيّة: 1/ 157.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 355.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 41.
(5) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 2/ 714، وابن كمال باشا، تفسير القرآن الكريم: 6/ 424.

الشّيء[1]، أو الفقر إليه مع محبته[2]، والمعنى المحوريّ لجَذْر الحاجة: نقص منفعة أو طُلبة، أو التّعوّق عنها، ويلزم عنه طلبها؛ والحاجة من ذلك النَّقص والعَوْق، فهي تعبير عنهما، وعمَّا يشعر المرءُ بأنَّه مَعوقٌ عنه أو عمَّا ينقصه من مال أو غيره[3].

والمأرَبة والمأرُبة والإِرْبة، كلّ ذلك الحاجة[4]، والأَرَب: فرط الحاجة المقتضي للاحتيال في دفعه، فكلُّ أرب حاجة، وليس كلُّ حاجة أربًا، ثمّ يستعمل تارةً في الحاجة المفردة، وتارةً في الاحتيال وإن لم يكن حاجة، كما يقال: فلان ذو أرب، وأريب، أي: ذو احتيال، وقد أرِب إلى كذا، أي: احتاج إليه حاجةً شديدة[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوج).
(2) الرَّاغب، المفردات: (حوج).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حوج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أرب).
(5) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (أرب).

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: 19 - 21]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مَن كان في حضرة مولاه؛ لا يُشغَل بما سواه

لَمَّا قال موسى عليه السلام: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾؛ أمره اللهُ بإلقاء العصا؛ ليُعْلِمَه أنَّ فيها ما لا يَفْطَن له وما لا يَعْرِفه، وأنّ ما خفي عليه مِن مآربها وأسرارها أعظمُ ممَّا قد عرفه وتفطّن إليه؛ وكذا ليكونَ توالي الكرامات سببًا لزوال الوحشة عن قلبه؛ ولمَّا كانت عادةُ الإنسان الانشغالَ بالأشياء؛ أمره سبحانه بإلقاء العصا كما أمره من قبل بخَلْع النَّعلين؛ ليشعرَه سبحانه بجلال الموقف وهيبته، وأنّه مَن كان في حضرة مولاه؛ لا يُشْغَل بما سواه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَيَّةٞ﴾: الحَيَّةُ: الحَنَش المعروف، واشتقاقها مِنَ الحياة، وتكون للذَّكر والأُنثى، وإنَّما دخلتْه الهاءُ؛ لأنَّه واحد من جنس، كبطَّة ودجاجة، وتجمع على حَيَّات[2].

2) ﴿سِيرَتَهَا﴾: السَّير يَدُلُّ على الذَّهابِ والمُضيِّ في الأرض نهارًا وليلًا، أمَّا السُّرَى فلا يكون إلَّا ليلًا، تقول: سار يسير سَيرًا ومَسيرًا ومَسيرَةً: ذهب[3]، وأصل (سير) يدل على مضيّ وجريان[4]، والسّيرة: الطَّريقة في الشَّيء وفي السُّنّة، والسّيرة أيضًا: الهيئة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾[5].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 204.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حيي).
(3) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (سير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سير).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يثبّت الله الأنبياء بالبراهين، ويؤيّدهم بخوارق القوانين

في هذا الاستئناف القرآنيِّ يبيِّن المولى ﷻ أنَّه لمَّا ذكر موسى عليه السلام منافعَ العصا المتعدِّدة، أمرَه في هذه الآية بنبذها وإلقائِها؛ ليريَه معجزتَه فيها، فقال سبحانه: ألقها يا موسى، فطرحها عليه السلام، فإذا بها قد تحوَّلت بقدرة اللّه تعالى إلى ثعبان عظيم يتحرَّك ويمشي بسرعة من مكان إلى آخر، فلمَّا رآها موسى ولَّى هاربًا، فثبَّتَ اللّهُ فؤادَه وطمأن نفسَه فقال: خُذْها يا موسى بيمينك غيرَ خائف منها؛ فإنَّا سنردُّها بقدرتنا إلى هيئتها وحالتِها الأولى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل قوله: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾:

عجائب الله تعالى لا تُعدّ، وقدرته سبحانه لا تُحدّ

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾ عن سابقه باعتباره استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤال ينساق إليه الذِّهنُ، كأنَّه قيل: فماذا قال ﷻ؟ فقيل: قال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لترى من شأنها ما ترى، ممَّا لم يخطر ببالك منَ الأمور[2]، فبين الآية وما قبلَها شِبهُ كمالِ اتِّصال.

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

يتودّد الله تعالى إلى أوليائه، ويُقرّب إليه صفوة أصفيائه

الضَّمير المُستترُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾ عائدٌ إلى اللّه تعالى، على طريقة الالتفات منَ التَّكلُّم الذي في قوله سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وقد دعا إلى الالتفات وقوعُ هذا الكلام حوارًا مع قول موسى عليه السلام: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ الآية[3].

دلالة الأمر في قوله: ﴿أَلْقِهَا﴾:

أراد الله تعالى أن يُري كليمَه عجيبَ قدرته، وعظيمَ حكمته

الأمر في قوله تعالى: ﴿أَلْقِهَا﴾ على بابه؛ إذ هو طَلَبُ الفعل على جهة الاستعلاء، وإنَّما أمر اللّهُ تعالى نبيَّه موسى عليه السلام بإلقاء العصا؛

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 269 - 270، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 96 - 97.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 491، والبروسويّ، روح البيان: 5/ 375.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.

لأنَّه ﷺ أضافها إلى نفسه بقوله: ﴿عَصَايَ﴾، فأراد الله تعالى أن يقطعها عنه، ويريَه الخارقَ بعد إخراجِه من سلطانه وتدبيره؛ ليعلمَ أنَّه بمحض صنع الله، لا دخل فيه لفعل العبد(1)، ويتَّضحُ بهذا الأمر أنَّ السُّؤال كان ذريعةً إلى غرض سيأتي، وهو القرينةُ على أنَّ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ مستعملٌ في التَّنبيه إلى أهميَّة المسؤول عنه(2).

سرُّ الإضمار والإظهار في التَّعبير عنِ العصا بين: ﴿أَلْقِهَا﴾، و: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾:

للعصا مآرب دعويَّة، ودلائل على القدرة الإلَهيَّة

جاء التَّعبير عنِ العصا هنا بالإضمار؛ لتقدُّم ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، فلمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُريَ موسى ﷺ جانبًا من قدرته في تحويل العصا التي قال عنها موسى ﷺ: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ إلى حيَّة ذات حياة كاملة قال: ﴿أَلۡقِهَا﴾، فالضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَلۡقِهَا﴾ يعود إلى العصا؛ أي: ألقِ ذات العصا التي بيدك، وهي العود منَ الخشب، فانظر كيف ينقلب ذلك العود إلى مخلوق آخر(3)، أمَّا في سورة الأعراف [117] والنَّمل [10] والقصص [31]، فلم يتقدَّم للعصا ذِكرٌ حتّى يشار إليها بضمير يعود عليها.

بلاغة الإطناب بتكرار النِّداء في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

في تكرير النِّداء إيناسٌ وإدناء وتشريفٌ وإعلاء

في تكرير النِّداء تأكيدٌ للتَّنبيه والاهتمام بشأن العصا(4)، كما أنّ فيه إيناسًا لموسى ﷺ(5)، وإدناءً إليه، وتحبُّبًا له وتقريبًا(6).

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 425.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4714.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 491.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4714.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا﴾:

يبادر الأصفياء إلى تنفيذ أمر الله ذي الجلال، دون تلعثُم أو جِدال

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا﴾ للتَّرتيب والتَّعقيب والسُّرعة؛ أي: فتسبَّب عن هذا الأمر المُطاع أنَّه عليه السلام ألقاها ريثما قيل له: ﴿أَلۡقِهَا﴾، ولم يتلعثم[1]، وفي هذا دليلٌ على سرعة إجابة موسى عليه السلام أمرَ ربِّه جل جلاله، فلم يفكِّر في الأمر، ولم يسأل عن العِلَّة.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾:

إذا أراد اللهُ شيئًا فإنَّما يقول له كن فيكون، فأنَّى يُلْحد المبطلون

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ عاطفة[2]، وقد أفادت مع ما بعدَها سرعةَ تحوُّلِ العصا إلى حيَّة، وأنَّ ذلك لم يستغرق وقتًا، بل كان سريعًا مفاجئًا دالًّا على عظيم قدرة اللّه تعالى.

دلالة التَّعبير بـ﴿فَإِذَا﴾ الفجائيَّة في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ﴾:

انقلاب العصا من جماد إلى حيوان كان كلمح البصر، مُدهشًا للبشر

﴿فَإِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ للمفاجأة، وكانت المفاجأة في أنَّها تحوَّلت من خشب جامد إلى حيٍّ متحرِّك[3]، وقد أفادت سرعةَ حصول ذلك، وكأنَّه كان كلَمحِ البصر، أي: صارت العصا في الحال حيَّةً عظيمة[4].

نُكْتةُ التَّعبير بالضَّمير المنفصل ﴿هِيَ﴾:

سبحان مَن يجعل الجماد حيوانا، ويخلق من الطّين إنسانًا

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: في الحال ظاهرًا وباطنًا[5]، حيثُ خرجتِ العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام، فلم تَعُد للتَّوكُّؤ والهَشِّ على الغنم[6]، فقد تحوَّلت العصا الملقاة من يد موسى عليه السلام حيَّةً كبيرة، سريعةَ الحركة بفعل اللّه عز وجل القادرِ على خَرْق العوائد، فقلب تعالى أوصافَها وأعراضَها، وكذلك عادت الحيَّةُ عصا إلى حالتها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 491.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 175، ومحمود صافي، الجدول: 8/ 358.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4714.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 279، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(6) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9252.

الأولى بفعل اللّه تعالى، وكلُّ ذلك كان معجزةً لموسى ﵇، وبرهانًا حسّيًا قطعيًا على نبوَّته، فالحاصل: أنَّ التَّعبير بالضَّمير ﴿هِيَ﴾ ليدلَّ على أنَّ العصا بنفسها قدِ انقلبت حيَّة بقُدرة اللّه تعالى، فلم تكن في حالتها العَصَويَّة حيَّةً، ولا كانت في حالتها الثُّعبانيَّة عصا.

لطيفة انقلاب العصا حيَّة:

يـثـبِّـت الـلـه قـلـوبَ أنبيائه في دعـوتـهـم ومـواجـهـتـهـم لأعدائه

في وجه الفائدة في إظهار هذه الآيةِ لموسى ﵇ ليلةَ المخاطبة لطائف؛ **إحداها**: أنَّه تعالى قَلَبَها حيَّةً لتكون معجزة لموسى ﵇ يَعْرِف بها نبوَّةَ نفسِه، **والثَّانية**: تأنيسُه بهذا المعجز الهائل؛ لئلَّا يخافَ منها إذا ألقاها بين يدي فرعون، فلا يلحَقُه ذُعرٌ منها في ذلك الوقت، إذ قد جرت له بذلك عادةٌ، وتدريبُه في تلقّي تكاليفِ النُّبوَّة ومشاقِّ الرِّسالة[1]، **والثَّالثة**: ليريَه أنَّ الذي أبعثُكَ إليه دونَ ما أريتُكَ، فكما ذلَّلْتُ لكَ الأعظَمَ وهو الحيَّةُ، أُذلِّلُ لكَ الأدنى[2]، **والرَّابعة**: أنَّ النِّداء كان إكرامًا له، فقَلْبُ العصا حيَّةً مزيدًا في الكرامة؛ ليكون توالي الخُلَع والكرامات سببًا لزوال الوحشة عن قلبه[3].

الغرض من تنكير ﴿حَيَّةٌ﴾:

آيـــات الـلـه عظيمةٌ، وآلاؤه جـسـيـمـةٌ، وقدرتُه لا تُحاط

أفاد تنكير كلمة ﴿حَيَّةٌ﴾ معنى التَّعظيم؛ أي: انقلبت العصا حيَّةً عظيمة جدًّا[4]، فرأى موسى ﵇ أمرًا فظيعًا لم يَرَ مثلَه قطُّ؛ فلا جرم ولَّى مُدبرًا لمَّا رآها ولم يُعَقِّب، وامتلأ مِن هولها رعبًا[5].

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ:

كـانـت الـعـصـا حيَّةً في مناجاة موسى، وثعبانًا في دعوة فرعون ومـحـاجَّـتـه وترهيبه

أخبر اللّهُ تعالى عن تحوّل عصا موسى ﵇ هنا بقوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، وأمَّا في سورتي الأعراف والشّعراء فقال:

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 323.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 156.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 27.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 296.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 107، والشعراء: 32]، وفي سورتي النّمل والقصص: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النّمل: 10، القصص: 31]، والعصا التي ألقاها موسى عليه السلام إنّما كانت واحدةً، وكان إلقاؤها مَرَّةً كذلك، فما وجه اختلاف الإخبار عنها؟[1].

والجواب عن ذلك: أنَّ الحيَّة اسم يصدُق على الصَّغير والكبير، والذَّكر والأُنثى منَ الثّعابين، وأمَّا الثُّعبان فهو العظيمُ منَ الحيَّات، وأمَّا الجانُّ فهو الدَّقيق منها، وقدِ انقلبت العصا حين ألقاها موسى عليه السلام ثعبانًا، وهو العظيم منَ الحيَّات كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 107، الشعراء: 32]، وتشبيهها بالجانِّ، وهو الدّقيق منها في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: 10، القصص: 31] من حيثُ الجَلادة وسرعةُ الحركة، لا من حيثُ صغرُ الجثَّة، فلا منافاة بينهما، وعبِّر عنها بالاسم العامِّ للحالين وهو الحيَّة[2]، وقيل: الجانُّ عبارة عنِ ابتداء حالها، فإنَّها كانت حيَّة على قدر العصا، ثمَّ كانت تتورَّم وتنتفخ حتَّى صارت ثعبانًا، والثُّعبان: عبارةٌ عنِ انتهاء حالها، وقيل: إنَّها كانت في عِظَم الثُّعبان وسرعة الجانِّ[3]، وأمَّا عن سرِّ إيثار التَّعبير عن انقلاب العصا بالحيَّة في آية [طه: 20]، والتَّعبير عن ذلك بالثُّعبان في آيتي [الأعراف: 107، والشعراء: 32]: فهو أنَّ السّياق في سورة طه كان يحكي ما حدث أثناءَ مناجاة اللّه تعالى نبيَّه موسى عليه السلام، وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي يرى فيها موسى عليه السلام عصاه تنقلب إلى حيَّة، وقد جمعت بين عِظَم الحجم وخِفَّة الحركة، فعُبِّر بالحيَّة ليجمعَ المعنيين.

وأمَّا سياق آيتي الأعراف والشُّعراء فكان يقصُّ ما حدث في المناظرة التي جرت بين موسى عليه السلام وفرعون، فكان الأنسب أن يعبَّر بأعظم حالات الحيَّة، وهو الثُّعبان الذي هو أعظم الحيَّات؛ وذلك لإثبات المعجزة، وإدخال الرَّهبة، ونفي السِّحر، وقد زاد ذلك بوصف الثُّعبان بالمُبين، أي: ثعبان بيِّن الثُّعبانيَّة، كاملُ الحياة، لا تمويه فيه ولا تخييل، فكان كلُّ لفظ مناسبًا لسياقه تمامَ المناسبة.

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 156.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492.

(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 269.

نُكْتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَسۡعَىٰ﴾ بعد الماضي ﴿فَأَلۡقَىٰهَا﴾:

وُصِفت الحَيَّةُ بقوله تعالى: ﴿تَسۡعَىٰ﴾؛ لإظهار أنَّ الحياة فيها كانت كاملةً بالمشي الشَّديد، والسَّعي: المشي الذي فيه شِدَّة[1]، فهي حيَّةٌ تسعى، ليست جامدةً ميِّتة[2]، وفي هذا الوصف إزالةٌ لوهم يمكن وجودُه، وهو أنْ يُظنَّ أنَّها تخييلٌ لا حقيقة، فكونها ﴿تَسۡعَىٰ﴾ يزيلُ هذا الوهمَ[3]، وفي التَّعبير بالمضارع إفادةٌ لمعنى التَّجدُّد الذي يناسب الحركة المُتجدِّدة في الحيَّة، واستحضارٌ لصورة حركتها، وكأنَّها تتحرَّك الآن، وتراها العينان.

لم تكن الحيَّة تخييلًا ولا سِحرًا، بل حقيقةً تسطع كالشَّمس ظُهرًا

علَّة فصل قوله: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾ عن سابقه:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾ عن سابقه لأنَّه استئناف بيانيٌّ[4]، وذلك أنَّه لَمَّا كان انقلابُ العصا حيَّةً أمرًا مخيفًا، استشرفَ السَّامعُ إلى ما يكون مِن حال موسى عليه السلام عند مِثْلِ هذا بعدَ ذلك، فكأنَّه سأل: وماذا كان بعدَ ذلك؟ فاستأنف إخبارَه بقوله: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾[5]، ويضاف إلى ذلك أنَّ فعل: ﴿قَالَ خُذۡهَا﴾ قد أُعيدَ بدون عطف؛ لوقوعه في سياق المحاورة[6]؛ إذ مِن شأن المحاوراتِ أن يستشرفَ السَّامِعُ ما قالَه كلٌّ مِنَ المتحاورَيْن ردًّا على الآخر.

مِن شأن الاستئناف البيانيِّ أن يُفصَل عن سابقه

دلالة الأمر في قوله: ﴿خُذۡهَا﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿خُذۡهَا﴾ على بابه، إذ هو طلب بالفعلِ صادرٌ مِنَ الأعلى إلى الأدنى، وقد سيقت جملة الأمر لتعليل وجوبِ الامتثال له وعدم الخوف؛ أي: خذها، ولا تخف منها، فإنَّ هذه الحيَّةَ سنرجعُها عصًا كما كانت من قبل[7].

أراد الله تعالى أن يدرِّب موسى في المناجاة؛ كي لا يخافَ عند فرعون وملئِه الطُّغاة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/ 9253.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 504.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492، والبروسويّ، روح البيان: 5/ 376.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 281.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 97.

علَّة وصل قوله: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ بسابقه:

في عطف النَّهي على الأمر إشعارٌ بأنَّ عدم النَّهي عنه مقصودٌ لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط[1]، فما كان لموسى عليه السلام - وهو مضطرب بسبب المفاجأة لهذا الانقلاب - أن يمدَّ يدَه إليها ليأخذها إلَّا بعد الاطمئنان وقرارِ النَّفس؛ ولذا قرن سبحانه وتعالى الأمرَ بأخذها بالنَّهي عنِ الخوف؛ لتقرَّ نفسُه وتطمئنَّ، وبيَّن له أنَّ ما أزعجك منَ الانقلاب زائل[2].

ما أحلمَ اللهَ في تطمين قلب الكليم، وإذهابِ خوفه العظيم

معنى ﴿وَلَا﴾ ودلالتها في قوله: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾:

﴿وَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ هي النَّاهية الجازمة[3]، والنَّهي فيها على حقيقته، وقد سيقت جملةُ النَّهي لبيان العلَّة من امتثال النَّهي؛ أي: ليس القصد تخويفَك، بل إظهارُ ما فيها من استعدادِ قبول الحياة، ومشاهدةُ معجزةٍ، وبرهانٌ لك[4]، وكأنَّه ضَمَّن صيغةَ التَّكليفِ صيغةَ التَّكوين[5].

ليس القصدُ التَّخويف، بل التَّعليم والتَّعريف

بلاغة الحذف في الآية بعدم ذِكْر خوفِ موسى عليه السلام بعد إلقائه العصا:

لم يُذْكَر خوفُ موسى عليه السلام في هذه السّورة كما ذُكِر في سورة [القصص: 31] في قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، ولكنَّ قولَه سبحانه هاهنا: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ يدلُّ على خوفه عليه السلام[6]، فهو إيجازٌ بالحذف؛ وذلك أنَّ موسى عليه السلام أوجسَ في نفسه خيفةً؛ أي: لحِقَه ما يلحق البشرَ[7]، فإنَّ البشر بمقتضى طبعِه يخاف عند مشاهدة مثلِ ذلك، وهو لا ينافي جلالةَ القدرِ[8]، وذلك الخوفُ من أقوى الدَّلائل

كان الخوف علامةَ صدقٍ، وأمارةَ حقّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 10، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4715.
(3) محمود صافي، الجدول: 8/ 359، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل: 7/ 86.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 123.
(5) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 426.
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 382.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 190، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 492.

على صدقه في النُّبوَّة؛ لأنَّ السَّاحر يعلم أنَّ الذي أتى به تمويهٌ، فلا يخافه البتَّة[1].

علَّة فصل قوله: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ عن سابقه:

وعد الله تعالى بالإعادة، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد

فُصِل قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ عن سابقه باعتباره استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن سؤال مُقدَّر يطرأ في ذهن السَّامع بعد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَفۡ﴾، فكأنَّه قيل: وكيف يأخذها ولا يخاف وهي حيَّة عظيمة تسعى؟ فكان الجواب معلِّلًا له النَّهي عنِ الخوف بقوله سبحانه: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾[2]، وهو مع كونه استئنافًا مسوقًا لتعليل الامتثال بالأمر والنَّهي، فإنَّ إعادتَها إلى ما كانت عليه - مِن موجبات أخذها وعدمِ الخوف منها - عِدَةٌ كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه السلام، وإيذانٌ بكونها مسخَّرةً له عليه السلام؛ ليكون على طمأنينة من أمره، ولا يعتريه شائبةُ تَزلزُلٍ عند محاجَّة فرعون[3].

دلالة التَّعبير بحرف التَّسويف في قوله: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾:

توالت المعجزات للكليم، تثبيتًا منَ الله العظيم

يفيد حرفُ التَّسويف بيان أنَّ الفعل المقرونَ به سيقع في المستقبل - قريبًا أو بعيدًا -، والمستقبل هاهنا هو ما سيحدث بعد تناول موسى عليه السلام للحيَّة، فدلَّ النّظم القرآني على أنَّ إعادة الحيَّة إلى العصا تالٍ لتناول موسى عليه السلام إيَّاها، وليس سابقًا له، وهذا أقرب للكرامة لأنَّه كما كان انقلابُ العصا حيَّةً معجزةً، فكذلك إدخالُ يده عليه السلام في فمها من غير ضرر معجزةٌ، وانقلابُها خشبًا معجزٌ آخر، فيكون فيه توالي المعجزات، فيكون أقوى في الدّلالة[4].

دلالة التَّعبير بالإعادة ﴿سَنُعِيدُهَا﴾:

ما أعظمَ قدرةَ الله تعالى على الخَلْق والإعادة

عبّر بالإعادة في قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ للدّلالة

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 27.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 11.

(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 27.

عن ردِّ الحيَّة إلى سابق هيئتها إذ كانت عصا، ويُلمَح في الإعادة معنى التَّكرير والاستمرار[1]، وهذا يُفيد أنَّ هذه الآيةَ المُبهِرَةَ المعجزة لم تحدث مرَّةً واحدة فقط، بل إنَّها ستتكرَّر بتكرُّر الأمر الإلهيِّ بإلقائها، فما أعظمَ قدرةَ اللّه تعالى!

سِرّ إسناد الفعل إلى نون العظمة في قوله: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾:

آيــات الله العظيم توجب الإيمانَ والتَّعظيم

أُسنِد الفعل ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ لنون العَظَمة؛ لأنَّه دالٌّ على أمر عظيم منَ الخَلْق والتَّكوين والإعادة من حال إلى حال؛ ومن هنا ناسَب أن يُعبَّر عنها بالنّون الدَّالَّة على العَظَمة؛ أي: سنُعيدها بعظمتنا عند أخذك لها، بوعد لا خُلْفَ فيه[2].

نُكْتَةُ تعديةِ الفعل بنفسه دونَ تعديته بالحرف (إلى):

قــدرة الله واضحة جليَّة في سرعة إعادة العصا بعد انقلابها حيَّة

حرف الجَرِّ (إلى) موضوع لانتهاء الغاية، وهذا المعنى فيه دلالةٌ على وجود سبيل مسلوكة، ماديَّةٍ أو معنويَّة، ويقع ما دخلت عليه (إلى) في نهايتها، فمتى نُزِع هذا الحرفُ دلَّ ذلك على اختصار تلك السّبيل اختصارًا يوحي بعدم وجودها، ودلَّ كذلك على تحقُّق هذه الغاية بلا جهد وبلا وقت، فلو كان النَّظم: (سنعيدها إلى سيرتها) لكان دلَّ على أنَّ إعادةَ الحيَّة إلى سابق هيئتها - إذ كانت عصا - سيستغرق وقتًا، أمَّا إفضاءُ الفعل إلى مفعوله مباشرةً فقدِ اختصرَ كلَّ هذا الوقت اختصارًا، فكما انقلبت العصا حيَّةً في الحال، وهو ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، كذلك إعادتُها عصًا بعد انقلابها حيَّة كان سريعًا كذلك، فلم يُعبَّر عنه بـ (إلى)، بل بالإفضاء المباشَر إلى الفعل ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾، هذا إلى جانب ما في نزع الخافض منَ الإيجاز بتقليل اللَّفظ وتكثير المعنى، وهذا ما يحقِّقه هذا الأسلوب بالاستغناء عنِ الفضول واستثمارِ أقلِّ ما يمكن منَ الألفاظ لأداء المعنى المراد[3].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عود).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.

(3) يوسف الأنصاريّ، من أسرار نزع الخافض في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى: ج16، ع28، ص: 741.

دلالة التَّعبير بالسّيرة من حيثُ المادَّةُ والصّيغة:

قوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أي: سنعيدها في طريقتها وهيئتها الأولى؛ أي: في حال ما كانت عصا[1]، والتَّعبير بها خصوصًا دون غيرها من مرادفاتها للدّلالة على ما يشبه العادةَ؛ أي: الحالةَ التي اعتدتَها يا موسى من عصاتك حيثُ تتوكَّأ عليها، وتهشُّ بها على غنمك.

الله القدير ذو الجلال يُبدِّل الأشياء من هيئة إلى هيئة، ومن حال إلى حال

توجيه نصب كلمة ﴿سِيرَتَهَا﴾ وثراء المعنى:

في نصب كلمة (سيرة) أوجه[2]؛ **أحدها**: بنزع الخافض؛ يعني: (إلى سيرتها)، فلمَّا نُزِعَ الخافض أفضى الفعل إلى مفعوله فنصبَه، **وثانيها**: أن يكون ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ مستقلًّا بنفسه غيرَ متعلِّق بـ ﴿سِيرَتَهَا﴾، بمعنى أنَّها كانت أوَّلًا عصا، فصارت حيَّة، فسنجعلها عصًا كما كانت، فنصب ﴿سِيرَتَهَا﴾ بفعل مضمَر؛ أي: (تسير سيرتَها الأولى)؛ يعني: سنعيدها سائرةً بسيرتها الأولى حيثُ كنتَ تتوكَّأ عليها ولكَ فيها المآرب التي عرَفْتَها، **وثالثها**: أن تكون منصوبةً على الظَّرف؛ أي: (في سيرتها)؛ أي: طريقتها، **ورابعها**: أنَّها منصوبة على أنَّها بدل منَ (الهاء) في ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ بدلُ اشتمال؛ لأنَّ السّيرةَ الصِّفةُ؛ أي: سنعيدها صفتَها وشكلَها.

تتعدَّد الأوجه الإعرابيَّة بين الحاليَّة والظَّرفيَّة ونزع الخافض والبدليَّة

سرّ وصف السّيرة بـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾:

لمَّا أُمِر موسى عليه السلام بقبض الحيَّة قبضَها فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يدُه في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بينَ الشُّعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أي: إلى حالها التي تعرِف قبلَ ذلك[3]، فهذه آية بيِّنة على أنَّ الذي يخاطبك

أعاد الله تعالى إلى موسى عصاه، لتكونَ حجَّةً على مَن كفر بالله وعصاه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 58، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 493.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 58، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 28، والعكبريّ، التّبيان: 2/ 889.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 280.

هو ربُّك الذي له الأسماء الحسنى، فنزلت عليه السَّكينةُ، وبلغ من طمأنينته أن أدخل يدَه في فمها وأخذَ بلحيتها، فإذا هي عصاه، ويدُه بين شُعبتيها(1).

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإلقاء والقذف والرَّمي:

القذف يكون بشدَّة وسُرعة، وفيه معنى البُعد، ويكون بدون معرفةِ المسافة التي يصل إليها، أو المكانِ الذي يصل إليه، أمَّا الإلقاء فيكون بخِفَّةٍ وتمهُّل(2)، وهو طرح الشّيء حيثُ تلقاه، أي: تراه(3)، وأمَّا الرَّمي فتُعرَف فيه المسافة والمكان الذي يُرمَى إليه(4).

الأخذ والتّناول والالتقاط:

الأخذ أعمُّ منَ التّناول والالتقاط

التّناول أخذُ الشّيء للنّفس خاصّة؛ فلا يقال: تناولت الشّيء لِزَيد، كما يقال: أخذته لزيد، والتّناول يقتضي أخذَ شيء يُستعمَل في أمر من الأمور(5)، وهو كذلك أخذُ القليل المقصود إليه؛ ولهذا لا يقال: تناولت كذا من غير قصدٍ إليه، ويقال: أخذتُه من غير قصد(6)، أمَّا الالتقاط: فهو أخذُ شيءٍ عُثِر عليه من غير طلبٍ له ولا احتساب(7)، ممَّا يدلّ على أنَّ الأخذَ أعمُّ منَ التّناول(8) والالتقاط.

الإعادة والرَّدّ:

في الإعادة تكرير وتجديد، وفي الرَّدّ عكس اتّجاه

ممَّا يدلُّ عليه جذرُ الإعادة التّثنيةُ في الأمر(9)؛ لذا فإنَّ إعادة الشّيء إلى حالٍ تقتضي أن تكون إلى حالٍ كان عليها أوَّلًا، ويدور

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 7/ 121.
(3) الرَّاغب، المفردات: (لقي).
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 7/ 121.
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 145.
(6) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 145.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزابادي، البصائر، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقط).
(8) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 145.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عود).

معناه المحوريّ حول تكرير الشّيء وتجديده، أمَّا الرّدُّ فجذرُه أصلٌ واحدٌ، وهو رَجعُ الشَّيء، ومعناه المحوريّ يدور حولَ صدّ استرسال الشّيء وعكسُ اتّجاهه، ومنه: ردَّ الشّيءَ: رجعَه، أي: بعدما ذهب مسترسِلًا[1].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردد).

﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣﴾ [طه: 22 - 23]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

حَـمـلُ رسـالـةِ الـتَّـوحـيـد إلى المستكبر العنيد، يـتطلَّب مـزيـدًا مِنَ المَدَد والتَّأييد

لَمَّا عَلِمَ ربّ العزّةِ سبحانه أنّ ملاقاة فرعون الطَّاغية، وملاقاةَ سحرتِه المَهرة في السّحر - من بعد ذلك - أمرٌ عظيم وجليل؛ أراد سبحانه أن يُريَ موسى آياتٍ عظيمة؛ ليتمرّنَ عليها؛ حتّى إذا تحدّى فرعونَ وقومَه عمل مثلَها أمامَهم دونَ توجّسٍ أو تخوّف؛ ولَمَّا تطلّب الأمر مزيدًا مِنَ التّأييد؛ أراه سبحانه آيةً في نفسه، كما أراه من قبلُ آيةً في عصاه؛ ليُثبّتَ جنانَه، ويزدادَ إيقانُهُ، ولَمَّا كان البرصُ أبغضَ شيءٍ إلى العرب، وطباعُهم تنفر منه، ومِن سماعه، كنَّى عنه بالسّوء، حيثُ إنَّ نفي السّوء يشمل نفيَ البرصِ وغيرِه مِنَ الأمراض التي تُصيب الإنسان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾: الضَّمُّ: الجمع بين شيئَين فصاعدًا، يقال: ضممت الشَّيء إلى الشَّيء فانضمَّ إليه، وضامَّه، وتضامَّ القوم، إذا انضمَّ بعضُهم إلى بعض[2]، ويقال: ضاممت فلانًا، إذا أقمتُ معه في أمرٍ واحد[3].

2) ﴿جَنَاحِكَ﴾: الجَناح: جَناحُ الطَّائر، وهو ما يحقّق به الطَّيران، وجمعه أجنحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38][4]، وجناحا الإنسان لجانبيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 42، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 324، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 283.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (ضمم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضمم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (جنح).

﴿جَنَاحِكَ﴾، أي: جانبك، وهو عبارة عن اليد؛ لكون الجناح كاليد، وقولُه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: أَلِن لهما جانبَك[1].

3) ﴿بَيۡضَآءَ﴾: البَياض في الألوان: ضدُّ السَّواد، يقال: ابْيَضَّ يَبْيَضُّ ابْيِضاضًا وبياضًا، فهو مُبْيَضٌّ وأَبْيَضُ، وجمع الأبيض: بيض[2]، وقد كُنّي بالبياض عنِ السُّرور، وبالسَّواد عن الغمِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: 106]، فابيضاضُ الوجوه عبارةٌ عنِ المَسَرَّة، واسودادها عبارةٌ عنِ الغمِّ[3]، والبياض أشرفُ الألوان؛ لأنَّه قابل لجميعها، وأمَّا قوله تعالى: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾، فمعناه: نيِّرةٌ مشرقةٌ مُشِعَّة[4].

4) ﴿ٱلۡكُبۡرَى﴾: (كبر) أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[5]، والكُبْرى: تأْنيث الأَكْبَر، والجَمعُ الكُبَرُ، وجَمعُ الأَكْبَرِ: الأَكابِرُ والأَكْبَرون[6]، و﴿ٱلۡكُبۡرَى﴾ في الآية: مُسْتَعارٌ لِقوَّةِ الماهيَّةِ، أي: لنُريه آياتنا القَويَّةِ الدّلالة على قُدْرَتنا[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

معجزات الله للأنبياء فيها أعظمُ دليل لصحّة دعواهم أمامَ الأعداء

يعرض السّياق القرآنيُّ دليلًا وبيانًا آخَرَ مِنْ دلائل قدرة الله ووحدانيّته، وذلك مِنْ خلال هذا الأمرِ الإلهيِّ الثَّاني للكليم موسى عليه السلام؛ حيثُ يقول الحَقُّ سبحانه مخاطبًا إيَّاه: وأدخل يدَك اليُمنى يا موسى إلى جنبك الأيسر تحت عضدك، تخرجْ نيِّرةً مشرقةً مِنْ غير بَرصٍ؛

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (جنح).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بيض).
(3) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (بيض).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 270، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 26.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 209.

لتكونَ معجزةً أُخرى دالَّةً على صدقك غيرَ العصا؛ ولنُريَكَ بذلك بعضَ معجزاتنا العُظمى الدَّالَّة على عظيم قُدرتنا وانفرادنا بالوحدانيِّة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة عطف قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾ على سابقه:

تتوالى الآيات المثبِّتات لموسى من ربِّ البريَّات

وُصِل قولُه تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ﴾ بما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ﴾؛ لاتِّحاد الجملتين في الإنشائيَّة، ولعدم وجود ما يقتضي الفصلَ بينهما، وقد حسَّن الوصلَ هنا مجيءُ الجملتين فعليَّتين، ومجيءُ فعليهما على صيغة الأمر الموجَّه إلى مخاطَب مفرد، مع قصد التَّشريك بينهما في الحُكم؛ ذلك أنَّ اللّه ﷻ "لمَّا أراه آية في بعض الآفاق، أراد أن يريَه آية في نفسه، فقال: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ﴾"[2]. فهذه معجزةٌ أخرى علَّمه اللّهُ إيَّاها، حتَّى إذا تحدَّى فرعونَ وقومَه عمل مثلَ ذلك أمامَ السَّحرة.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾:

جمع الله تعالى لنبيِّه موسى عليه السلام بين السَّكينة ومعاينة الآية العظيمة

تدور معاني الضَّمِّ حولَ الجمع والقبض، جمعِ شيء إلى شيء، أو قبضِ شيء إلى شيء[3]، وأوثِرَ التَّعبيرُ بالضَّمِّ هنا لأنَّ كلَّ مرعوبٍ من ظُلمة أو نحوِها، فإنَّه إذا ضَمَّ يدَه إلى جناحه فترَ رُعبُه، ورَبُطَ جأشُه، فجمع اللّهُ لموسى عليه السلام تفتير الرُّعب مع الآية في اليد[4]، والأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾ على حقيقته، لأنَّه صادر منَ الأعلى إلى الأدنى، وقد أراد اللّه سبحانه وتعالى أن يضُمَّ موسى عليه السلام يدَه إلى جناحه ليقوى جأشُه، ولتظهرَ له هذه الآية العظيمة في اليد[5]، فيجمع له معَ الأمن والسَّكينة مشاهدةَ الآية العظيمة.

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 270، والهرريّ، الحدائق: 17/ 274.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، البصائر، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضمم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 42.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 324.

نُكْتةُ العدول عنِ اليمين إلى اليد في قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ﴾:

لليمين الشَّرف، وللقرينة التَّقييد، وللسّياق التَّرجيح

إنَّما قال تعالى في الأولى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ﴾؛ لأنَّ الغرض كان السُّؤال التَّقريريَّ عنِ العصا التي كان يمسكها موسى عليه السلام بيمينه، ولو كان السُّؤال: وما تلك بيدك؟ لربَّما كان ممسكًا بيده الأخرى غرضًا خفيفًا من أغراضه، فكان سيحار من فرط الدَّهشة والرَّهبة، فجاء السُّؤال بأوضح لفظ وأجلاه، لذلك لم يتلعثم عليه السلام، وقال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، أمَّا هاهنا فلمَّا كانتِ اليمنى هي المستخدمة غالبًا فيما كان شريفًا كالتَّسبيح والمصافحة وتناول الطَّعام وغير ذلك، ولمَّا كانت اليسرى هي المستخدمة فيما دون ذلك كالاستنجاء ونحوه، وكان إدخال اليد في الجيب وملامستها للإبط استجابةً لأمر اللّه تعالى هو ممَّا يَشْرُف، كان إدخالُ موسى عليه السلام - وهو الكريم الكليم في حضرة اللّه العظيم - يمينَه دونَ شمالِه هو الأصل، فمِن ثَمَّ لم يكن لتقييد اليمين هاهنا حاجة؛ إذ هو ممَّا عُرِف بالقرينة، لا سيَّما أنَّها محلُّ الآية الكبرى، وذلك في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾، واليمين بالآيات أنسب، وهذا أمر لا يخفى على الكليم الكريم عليه السلام، ويُضاف إلى ذلك أنَّه قد تقدَّم ذكرُها في السُّؤال عنِ العصا، وكونُها أكثرَ استعمالًا منَ اليسرى، فهذا كلُّه يصرف المقصود باليد إلى اليمنى دون اليُسرَى.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾:

دلَّ اللّه الحليمُ عبدَه موسى لما يسكِّن به رَوعَه، ويُذهب به فزعَه

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ الدّلالة على انتهاء الغاية، وهذا هو أصل معناه[1]، والمقصود بها هنا إيصالُ اليد إلى الجانب، منتهًى بها إليه، وهذا يُفيد معنى الإلصاق الذي يحصل به تسكينُ الرَّوع، وإبرازُ الآية الباهرة.

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 463، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 16.

دلالة التَّعبير بالجناح:

الجناح ملتقى الذِّراع بالأضلاع

أوثر التَّعبير بالجناح في قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ دون الجَنْبِ، كون الجنبِ يصدق على الشِّقِّ كلِّه، بخلاف الجناح الذي يكون مخصوصًا بموضع التقاء الذِّراع مِنَ الجَنْب، وموضع وجود الأضلاع، فالمراد: اضمم يدكَ إلى جنبك تحت العضد، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ﴾[1]، فلولم يكن دخول لم يكن خروج[2]، وهذا هو الموضع الذي أراد الله تعالى من موسى عليه السلام أن يضمَّ يدَه إليه دون غيره.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿جَنَاحِكَ﴾:

تشبيه يدا الإنسان بجناح الطَّائر

التَّعبير عنِ الجنب بالجناح استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيثُ حُذِفَ فيها المشبَّهُ (الجنب)، وصُرِّح بالمشبَّه به (الجناح)؛ لأنَّ يدَيِ الإنسانِ يشبهان جناحي الطَّائر[3].

علَّة فصل قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ عن سابقه:

آيات الله باهرة، ومعجزاته قاهرة

قوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ مضارع مجزوم لأنَّه جواب الطَّلب[4]، وفي الكلام حذف؛ إذ لا يترتَّب الخروج على الضَّمِّ، وإنَّما يترتَّب على الإخراج، والتَّقدير: (واضمم يدَك إلى جناحك تنضمَّ وأخرجها تخرجْ)[5]، ومن هنا كان الفصل أولى مِنَ الوصل، كونُ الجملة الثَّانية واقعةً موقعَ جوابِ الشَّرط للأولى، فكما لا يُعطفُ الجزاءُ الصّريح على الشّرط، كذلك ما كان في معناه.

الغرض مِن تنكير ﴿بَيْضَآءَ﴾:

كان بياض اليد من نوع مخصوص، قَصْدُ الإعجازِ يَزينُه، ولا عيبَ يَشينُه

جاءت كلمة ﴿بَيْضَآءَ﴾ نكرةً؛ لأنَّها وقعت حالًا مِنَ المنويِّ في

(1) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 59.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 324.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 28.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 7/ 87.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 325.

﴿تَخۡرُجۡ﴾ الرَّاجع إلى اليد[1]، وقد أفاد التَّنكير إرادةَ نوعٍ منَ البياض، وهو البياضُ المشرقُ أو المنيرُ، على وجه الإعجاز، ليس فيه ما يَشين، فهو بياضٌ مخصوص.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ كنايةٌ بديعة؛ حيثُ دلَّت بالبياض على الإنارة والإشراق، ووجه الإعجاز في كون موسى عليه السلام أسمرَ اللَّون[2]، فأدخل يدَه في جيبه ثمّ أخرجها بيضاء - خلاف ما كانت عليه منَ الأَدَمةِ - نيِّرةً مشرقة[3].

كانت كفُّ موسى عليه السلام كأنَّها الشَّمس أو القمر، من غير ما تخييل أو ضرر

بلاغة الاحتباك في قوله: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ لا بدَّ له من تقدير محذوف؛ إذ لا يترتَّب الخروج على الضَّمِّ، وإنَّما يترتَّب على الإخراج، والتَّقدير: (واضمُم يدك إلى جناحك تنضمَّ وأخرجها تخرجْ)[4]، فحذف منَ الأوَّل والثَّاني، وأبقى مقابليهما ليَدُلَّا على ذلك إيجازًا واختصارًا[5]، وبسط المعنى: (اضمم يدَكَ إلى جنبك تحت العضد تنضمَّ على ما هي عليه من لونها وما بها، وأخرجها تخرجْ بيضاء مشرقة نيِّرة)، فالآية من باب الاحتباك[6].

الحُجّة والبرهانُ سلطانُ الأنبياء والمرسلين بعد تأييد ربِّ العالمين

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ هي التَّعليليَّة، والجارّ والمجرور متعلِّق بـ﴿تَخۡرُجۡ﴾ أو بـ﴿بَيۡضَآءَ﴾؛ لأنَّه في تأويل (ابيضَّت)[7]. وقد تكون على بابها في الدّلالة على ابتداء الغاية، ويكون المعنى أنَّ

كانت السَّلامة لليد ملازمة، وللآية ملائمة

(1) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 413.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 7/ 4629.
(3) القنوجيّ، فتح البيان: 8/ 226.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 325.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 27، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 494.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 282.
(7) الشّهاب، حاشية على البيضاويّ: 6/ 196.

سلامة اليد منَ السّوء كائنٌ مِن ابتداء الإخراج، فتكون تلك السَّلامةُ ملازمةً لليد دائمًا؛ تعظيمًا لشأن الآية.

آيات الله كاملة في الجلال، بديعة في الجمال

نُكْتةُ الإطناب بالاحتراس في قوله: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾:

السّوء هاهنا بمعنى: البرص[1]، وقوله تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ في موضع النَّعت لـ﴿بَيۡضَآءَ﴾، وهو إطناب بالاحتراس؛ لأنَّه لو اقتصر على قوله: ﴿بَيۡضَآءَ﴾ لأوهم أنَّ ذلك من بَرَص أو بهق[2]، فلمَّا قال: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ أفاد نفيَ أن يكون بياضُها لِعلَّة، بل هي آيةٌ بيِّنة تخرج عن طوق البشر، والغرض من هذا الاحتراس دفعُ توهُّمِ غيرِ المراد[3].

سلمت يد الكليم من كلِّ سوء وأيِّ شين

الغرض من تنكير ﴿سُوٓءٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾؛ أي: من غير بَرَص ولا مُثلَة، بل هو أمرٌ ينحسر ويعود لحُكم الحاجة إليه[4]، وجاءت كلمة ﴿سُوٓءٍ﴾ نكرةً للدّلالة على التَّعميم، إذِ المعنى أنَّ اليد خرجت منَ الجيب بيضاءَ من غير أيّ سوء، فتشمل كلَّ ما يصِحُّ أن يندرجَ تحتَ كلمة السّوء، فهي نكرة للعموم والشُّمول.

من أدب القرآن البراعة في التَّكنية عمَّا تستقبحه في الأذن أو تمجُّ سماعه

بلاغة الكناية في قوله: ﴿سُوٓءٍ﴾:

السّوء: الرَّداءة والقبح في كلِّ شيء، فكنَّى به عنِ البرص، كما كنَّى عنِ العورة بالسَّوْأة، والبَرصُ أبغضُ شيء إلى العرب، وبهم عنه نفرةٌ عظيمة، وأسماعُهم لاسمه مجَّاجَة، فكان جديرًا بأن يُكنَّى عنه، ولا نرى أحسنَ ولا ألطفَ ولا أحَزَّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه[5].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين آيتي القصص، وطه:

بين قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 270.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 325.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 28.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 42.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 59.

أوجز في مقام الإيجاز بطيّ مظهر الرُّعب، وبُسط بذكر ضمِّ الجناح من الرَّهب

سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾، وقوله: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾ [القصص: 32] تشابه لفظيّ، فقد جاء في سورة طه الأمرُ بضمِّ اليد – وهي الكفُّ اليمنى – إلى الجناح – وهو ما بين أسفل العَضد إلى الرُّفغ، وهو الإبط[1] – وذلك لتحقيق غرضين؛ **الأوَّل**: بيان الآية الباهرة في اليد، **والثَّاني**: إذهاب الخوف والفَرَق ممَّا عاينه من هول الثُّعبان المنقلب عنِ العصا بقدرة اللّه تعالى، فجاء الغرضان مجموعيْن في أمر واحد، وهو: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إيجازًا واختصارًا[2].

أمَّا في سورة القصص فقد جاء هذان الغرضان مفرَّقيْن على أمرين؛ **الأول**: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ [القصص: 32]؛ لأجل بيان الآية الباهرة في اليد، **والثَّاني**: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص: 32]؛ لأجل إذهاب الخوف والفرَق ممَّا عاينه مِن انقلاب العصا ثعبانًا عظيمًا لم يرَ مثله[3]، وهنا يبرز سؤالٌ عن سرِّ إيثار الإيجاز في آية [طه: 22]، واختيار التَّفصيل في آية [القصص: 32]؟

والجواب عن ذلك: أنَّ سياق القصَّة في سورة طه لم يُذكر فيه الخوفُ مفصَّلًا، بل أُشير إليه إشارةً موجزة بقوله تعالى: ﴿خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ﴾، أمَّا سياق القصَّة في سورة القصص فقد ذُكر فيه الخوفُ مفصَّلًا، وذلك في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ﴾ [القصص: 31]، فمن أجل ذلك عُبِّر في كلِّ سياق بما يناسبه، فقال في [طه: 22] موجزًا: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ وهذا الإيجاز يناسبُ الإيجازَ في ذِكر

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 306.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 42.
(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 408 - 409.

الخوف، وقال في [القصص: 32] مفصّلًا: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص: 32]، ففرَّق بينَ السَّلْك الذي هو الإدخال[1]، والضَّمِّ الذي هو الإلصاق[2]، وهذا التَّفصيل يناسب التَّفصيل في ذِكر الخوف.

الموقع النَّحويُّ والدّلاليُّ لقوله: ﴿ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾:

إنَّما تنفع الصَّادقين الذِّكرى وتكفيهم الإشارات، أمَّا المجرمون فما تغني عنهم الآيات

في قوله تعالى: ﴿ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾، آية: حالٌ ثانية منصوبة بالفتحة، أو بدلٌ منَ الحال الأولى ﴿بَيۡضَآءَ﴾، أو منصوبةٌ بفعل محذوف بتقدير: (خذ آية)، أو: (نؤتيك آية)، لأنَّه لمَّا قال: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ دلَّ على أنَّه قد آتاه آيةً أخرى، فالكلمةُ مفعول به بفعلٍ مضمر، حُذف لدلالة الكلام عليه، وقد تعلَّق بهذا المُضمَر المحذوفِ قولُه تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ﴾؛ أي: خُذ هذه الآيةَ أيضًا بعد قلب العصا حيَّةً؛ لنريك بهاتين الآيتين بعضَ آياتِنا الكبرى، أو لنُريَكَ بهما الكبرى من آياتنا، أو لنريَكَ مِن آياتنا الكبرى فعلْنا ذلك، و﴿أُخۡرَىٰ﴾: صفة لـ﴿ءَايَةً﴾ منصوبةٌ، وعلامة نصبها الفتحة المقدَّرة على الألف للتَّعذُّر[3].

الغرض من تنكير ﴿ءَايَةً﴾:

في التَّنكير معنى التَّعظيم

جاءت كلمة ﴿ءَايَةً﴾ نكرةً، وقد أفاد التَّنكير معنى التَّعظيم، أي: هي آية عظيمة جليلة، حتّى إنَّ ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: "كانت يدُ موسى أكبرَ آياته"[4].

سرّ وصف الآية بقوله: ﴿أُخۡرَىٰ﴾:

آيات الله قاهرة، وسلطانه فوق سلطان الجبابرة

قوله تعالى: ﴿أُخۡرَىٰ﴾ صفةٌ لـ﴿ءَايَةً﴾[5]؛ أي: وهذه علامةٌ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سلك).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 208.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 191، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل: 7/ 87.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 270.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 176.

أخرى غير الآية التي أريناكَها من قبل، من تحويل العصا حيَّة تسعى، تدلُّ على صدقك فيما بعثناك به منَ الرِّسالة لمن بعثناكَ إليهم[1]، فدلَّ وصف الآية بالأخرى على تعداد الآيات الدَّالَّة على صدق موسى عليه السلام[2].

معنى اللَّام ودلالتها في ﴿لِنُرِيَكَ﴾:

أرى اللهُ كليمَه بعض آياته إكرامًا له، وتثبيتًا لقلبه على مناظرة فرعون وجُنده

اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ﴾ للتَّعليل[3]، وهو متعلِّق بمضمَر ينساق إليه النَّظم الكريم، كأنَّه قيل: فعلنا ما فعلنا منَ الأمر والإظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى، أو نريكَ بذلك من آياتنا ما هي كبرى[4]، وهذا التَّعليل راجع إلى تكرير الآية؛ أي: كرَّرنا الآيات لنريَكَ بعضَ آياتِنا، فتعلمَ قدرتَنا على غيرها[5]، وهاتان الآيتان (العصا، واليد) حقُّهما أن يَظهرا بعد التَّحدّي والمناظرة، ولكن قيل: لنريَكَ أوَّلًا بعضَ آياتنا الكبرى، فيقوى قلبُك على مناظرة الطُّغاة[6].

دلالة التَّعبير بالمضارع:

تدوم المعيَّة الإلَهيَّة والعنايَّة الرَّبَّانيَّة لأصحاب الرِّسالات السَّماويَّة

يدلُّ المضارع في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ﴾ على تجدُّد الإراءة واستمرارها، فالمعنى: (نريك في جميع أيَّام نبوَّتِك)[7]، وفي هذا طمأنة عظيمة بدوام المعيَّة الإلَهيَّة، والعنايةِ الرَّبَّانيَّة.

سِرّ إسناد الفعل ﴿لِنُرِيَكَ﴾ لنون العَظَمَة:

الآيات العظيمة دالّةٌ على تقدير إلهٍ عظيم، وتدبير ربٍّ حكيم

في الآيات السَّابقة جاء التَّعبير عنِ الذَّات الإلهيَّة بالإفراد؛ لأنَّ المقام اقتضاه ودعا إليه، إذ كان في سياق تدعيم ركائز

(1) المراغيّ، تفسير القرآن: 16/ 105، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 9/ 98.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4717.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4717.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 11.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 208.

(6) تفسير القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 123.

(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 283.

التَّوحيد وإفراد الألوهيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾، أمَّا في مقام إراءة موسى ﷺ الآياتِ الباهراتِ، التي ستُخضِع أعناقَ المكذِّبين لها، وستجعلُ السَّحرةَ يخرّون بعدها سجَّدًا، فيَحْسُن التَّعبيرُ بصيغة التَّعظيم؛ لمناسبة عظَمة الآيات التي وُصفت بأنَّها ﴿ٱلۡكُبۡرَى﴾.

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾:

آيات الله كلُّها عظيمة، وآلاؤه جليلة جسيمة

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ إمَّا أن تكون للتَّبعيض؛ أي: بعضَ آياتِنا الكبرى، فكلٌّ مِنَ العصا واليد منَ الآيات الكبرى، وهي تسعٌ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ [الإسراء: 101][1]، وإمَّا أن تكون للبيان؛ أي: لنريَكَ بهما الكبرى من آياتنا[2]، وهو متعلّق بمحذوفٍ حال منه، وتقديم الحال - مع أنَّ صاحبه معرفة - لرعاية الفواصل[3].

الغرض من مجيء (آيات) جمعًا مضافًا لنون العَظَمة في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

الإضافة للعظيم تقتضي التَّشريفَ والتَّعظيم

الآية هنا تعني: المعجزة، أو الشَّيء الخارق للعادة، أو العلامة، وقد أضاف سبحانه الآيات إليه لعِظَمها وشرفها، ولم يقل: (لنريك من الآيات الكبرى)، وقوله: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: منَ الآيات التِّسع وغيرِها منَ الآيات الكونيَّة والمعجزات[4]، فالجمع للتَّكثير والتَّدليل على تعدُّد هذه الآيات، والإضافة للتَّشريف والتَّعظيم.

سرّ وصف الآيات بـ ﴿ٱلۡكُبۡرَى﴾:

كبُرت آيات الله تعالى قدرًا، وجلَّت ذِكرًا

خُصَّت هاتان الآيتان (العصا واليد) لأنَّهما أكبر الآيات،

(1) البروسويّ، روح البيان: 5/ 377.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 161.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 494.
(4) الهلال، الثّريّ الجامع: 7/ 71.

فكأنَّه قال: لنريك الكبرى[1]، ولم يقل: (الكُبَر) لموافقة رؤوس الآي، أو لأنَّ فيه إضمارًا، وتقديره: (لنريك من آياتنا الآيةَ الكبرى)، ودليله قول ابن عباس رضي الله عنهما: "كانت يدُ موسى أكبرَ آياته"[2]، أو لأنَّ فيه تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: (لنريَك الكبرى من آياتنا)[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 42.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 270.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 156.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّكريم والتّشريف يعقبه التّكليف

لمَّا أرى اللّهُ تعالى موسى عليه السلام المعجزتين العظيمتين (العصا واليد في نفسه وفيما يُلابسه وهو العصا، بيَّن سبحانه الغرضَ مِنْ هاتين المعجزتين، وأمره بالذّهاب إلى فرعون رسولًا من عنده تعالى، فقال: اذهب إلى فرعون، وادعه إلى عبادتي، وحذِّره نِقْمَتي؛ كونه قد جاوز الحدَّ في عصيانه وتمرُّده بقوله: أنا ربُّكم الأعلى(1)، وخَصّ فرعون وإن كان مبعوثًا إليهم كلهم؛ لأنّه رأسُ الكفر، ومدّعي الإلَهيّة، وقومُه تباعه(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَغَىٰ﴾: طغي يطغى طغيانًا، وطغا يطغو طغوانًا، وأطغاه المال: حمله على الطّغيان، فجعله طاغيًا، وهو تجاوز الحَدّ والقدر في العصيان، وغلا في الكفر، وكلُّ مجاوزٍ حدَّه في العصيان فهو طاغ، قال اللّه جل جلاله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾(3)، واستُعير الطّغيان للطّوفان؛ لما فيه من تجاوز الماء للحدِّ، إذا ارتفع وعلا على كلِّ شيء فاخترقه، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11](4)، والطّاغوت: كلُّ معبود من دون اللّه، وكلُّ رأس في الضّلالة، ويطلق على الواحد والجمع، قال اللّه تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: 256](5).

المَعنى الإِجْماليُّ:

من رحمة اللّه مواجهة الطّغيان بالرّسل أوّلًا

اذهب يا موسى إلى فرعون لأنّه تجاوز الحَدّ في العصيان

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 270، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 326، والهرريّ، الحدائق: 17/ 274.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 326.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (طغى).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طغى).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (طغى).

والكفر، وهكذا يرحم الله البشر ويسقط أعذارَهم، ويقيم الحُجّةَ عليهم بالرّسل.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ عن سابقه:

فُصل قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ عن سابقه باعتباره استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن سؤال مقدَّر، فكأنَّه قيل: لماذا يُفعل بي هذا؟ فقيل: لنرسلك إلى بعض المهمّات ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: لتردَّه عن عتوِّه[1].

قامت حجَّة الله تعالى على خلقه بالهداية، فلكلِّ قومٍ هادٍ، ولكلِّ هادٍ آية

غرض الأمر في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ على حقيقته؛ لأنَّه صادرٌ منَ الأعلى إلى الأدنى على جهة الاستعلاء والإلزام، والذَّهابُ المأمور به ذهابٌ خاصٌّ، قد فهمه موسى عليه السلام من مقدِّمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرَّح اللّهُ تعالى له به وطوى ذكره هنا على طريقة الإيجاز، على أنَّ التَّعليل الواقع بعدَه يُنبئ به[2].

بعث الله تعالى الرُّسلَ مبشِّرين ومنذرين، لتقوم الحجَّةُ على العصاة والكافرين

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾:

﴿إِلَىٰ﴾ حرف موضوع للدّلالة على انتهاء الغاية، وهذا هو أصل معناه[3]، وقد يدخل المُغيَّا في حدِّه وقد لا يدخل، وهو يدلُّ على وجود مسافة مكانيَّة، أو مدَّة زمنيَّة بين حدَّي الغاية: المبتدأ والمنتهى، وقد يصاحب هذه المسافةَ أو المدَّةَ نوعُ جهد، فقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ يدلُّ على انتهاء غاية الذِّهاب، ويعني ذلك أنَّ موسى عليه السلام أُرسِل إلى فرعون ومَلَئِه وقومِه خصوصًا؛ لينذرَهم ويحذِّرَهم، فتقومَ حجَّةُ اللّه تعالى عليهم بإرسال الرَّسول.

ما أحلمَ الله حتَّى بالطُّغاة! يخصُّهم بالنّذارات، ولا يعاجلهم بالعقوبات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 210.
(3) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 463، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 16.

في الذَّهاب معنى الانطلاق والمُضيِّ، وفي (إلى) تحديدٌ لنهايته، وتبيينٌ لغايته

نكتة تعدية الفعل بـ﴿إِلَىٰ﴾ دون (اللام) في قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾:

لَمَّا كان الأصل في معنى اللَّام الاختصاص، وقد ترد لمعاني التَّعليل، والغاية، والعاقبة ... إلخ[1]، وكان الأصل في معنى (إلى) انتهاء الغاية زمانيَّة كانت، أم مكانيَّة[2]، وكان الغرض من إرسال موسى عليه السلام تبليغَ رسالةِ ربِّ العالمين لفرعونَ وقومِه، وكان مكان موسى إذ ذاك بعيدًا عن مكان فرعون، كانت تعديةُ الفعلِ ﴿ٱذْهَبْ﴾ بـ﴿إِلَىٰ﴾ دون اللَّام أنسبَ في هذا الموضع لتأدية المعنى الذي أُريدَ منه؛ لأنَّه لا يصلح أن يكون فرعونُ علَّةً للذَّهاب، أو عاقبةً له، ولا أن يكون الذَّهاب مخصوصًا لفرعون؛ لأنَّه قد جاء صريحًا في موضع آخر: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشّعراء: 10 - 11]، كما أنّ الأمر بالذَّهاب في القرآن تارةً يتعدَّى بالباء، نحو: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ [النمل: 28]، و: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ [يوسف: 93]، و: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الشعراء: 15]، وتارة يتعدَّى بإلى، نحو: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ [الفرقان: 36]، و: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: 43].

وتارةً يأتي لازمًا، نحو: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87]، و: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: 97]، ولكنَّه لم يأتِ متعدّيًا باللَّام في القرآن.

في ذِكر اسم العلم تعيين وتبيين

نُكْتةُ التَّعبير بالعلم ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجتَ فارًّا منه وهاربًا، فادعه إلى عبادة اللّٰه وحدَه لا شريك له[3]، ففي ذِكْره باسمه العلم تعيينٌ للمُرسَل إليه، وتبيينٌ لحدود مهمَّة الرَّسول، وكشفٌ لأعباء التَّكليف قبلَ البَدء في تنفيذه، وقد أرسله

(1) الرّمانيّ، منازل الحروف، ص: 21، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 479، والمالقيّ، رصف المباني، ص: 293.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 463، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 16.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 280.

اللّهُ تعالى إلى فرعون أوَّلًا؛ لأنَّ فرعون فعل فعلًا فظيعًا، حيثُ ادَّعى الألوهيَّة، وهي القمَّة في الاعتداء، ثمَّ استعبد بني إسرائيل[1]، فخصَّه اللّه تعالى بالذِّكر لأنَّ قومه وملأه تبعٌ له[2]، وهو يمثِّلهم[3]، فكان هو الأصل المبعوث إليه، وقومُه تبعٌ له، وهم كالمَذكورين معه[4].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ عن سابقه:

لا يحبُّ اللّه السّوء، ولا يرضى لعباده الكفر

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ عن سابقه كونَه استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال مقدَّر، فكأنَّه قيل: وما علَّة الذَّهاب إلى فرعون؟ فيأتي الجواب: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، فهذا تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به؛ أي: جاوَزَ الحدَّ في التَّكبُّر والعتوِّ والتَّجبُّر، حتَّى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الرُّبوبيَّة[5]، وإنَّما صلحت الجملة للتَّعليل لأنَّ المراد ذهابٌ خاصٌّ، وهو إبلاغ ما أمر اللّهُ بإبلاغه إليه من تغييره عمَّا هو عليه من عبادة غير اللّه[6]، وفيه كذلك تحذيرٌ لموسى عليه السلام من بطش فرعون، وتنبيهٌ على صعوبة ما ابتُلِيَ به؛ ليتلقَّاه بجميل الصَّبر وحُسنِ الثَّبات[7].

بلاغة توالي المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾:

اللّه تعالى يُملي للظَّالم دون أن يتركه، فإذا أخذه قصمه وأهلكه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ توكيدٌ بالحرف النَّاسخ، وبالجملة الاسميَّة الدَّالَّة على الثُّبوت، ووقوعها موقع التَّعليل للأمر بالذَّهاب، وقد حَسُن مجيئُه مؤكَّدًا؛ لأنَّ طغيان أحدٍ بالنِّسبة إلى شيء ممَّا للمَلِك الأعلى ممَّا يُستبعد[8]، ولم يكن التَّوكيد مسوقًا؛ لأنَّ المخاطَبَ كان شاكًّا أو متردِّدًا - حاشاه - ولكن للتَّأكيد على طغيان فرعون، ولبيان أنَّ هذا الطُّغيان مستلزِمٌ للذَّهاب إليه لتحذيره، ولإنهاء إفساده.

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/ 9256.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 429.
(3) الهلال، الثّريّ الجامع: 7/ 72.
(4) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 175.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 11، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 495.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 210.
(7) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 430.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 283.

بلاغة الحذف بعدم ذكر صفة الذَّهاب وغايته:

براعة الإيجاز من دلائل الإعجاز

في الآية محذوف مفهوم من السّياق؛ لأنَّ المعنى: (اذهب إلى فرعون نذيرًا فادْعُهُ إلى توحيد الله ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾)؛ فهو مأمور بالذَّهاب إليه، وأن يدعوه إلى التَّوحيد[1]، ولم يذكر ما يدعوه إليه، اكتفاءً بوصفه الذي وصفه تعالى به: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: إنَّه تجاوز الحدَّ في طغيانه، وبلغ ذلك أن ادّعى الرّبوبيّة!

براعة التَّخلُّص في قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾:

يخاطب القرآنُ العقولَ السَّليمة، والفطرة القويمة، بأدلَّة صحيحة مستقيمة

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ تخلُّص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدِّمات السَّالفة، فُصِل عمَّا قبلَه منَ الأوامر إيذانًا بأصالته؛ أي: اذهب إليه بما رأيته منَ الآيات الكبرى، وادْعُه إلى عبادتي وحذِّره نِقْمَتي[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذّهاب والانطلاق:

الانطلاق أخصّ مِنَ الذّهاب، وهو انتقال باندفاع

المعنى المحوريّ لجذر الذَّهاب: انتقالُ الشّيء أو خلوّ حيّزه منه إلى حيّز آخر، والذّهاب من ذلك؛ لأنَّه انتقالٌ من مكان إلى آخر[3]، أمَّا الانطلاق فيدور معناه حول الاندفاع بابتعاد[4]، وهو مشتقّ مِنَ الإطلاق وهو ضدّ التّقييد؛ لأنَّ الدَّابة إذا حُلَّ عقالها مشَت، فأصلُه مطاوع أطلقه[5]، والانطلاق: سرعةُ الذهاب في المِحنة[6]؛ وفي هذا معنى الاندفاع الذي ذُكِر.

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 387.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 11، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 495، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 123.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذهب).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طلق).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374.

(6) الخليل، العين: (طلق).

﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه: 25 - 28]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

أوامر الله سبحانه مصحوبةٌ برعايته، ومحوطة بحفظه وعنايته

لَمَّا أظهر اللّهُ له الآيتين علمَ بذلك أنَّه مؤيَّد منَ اللّه تعالى، وعرفَ أنَّه كُلِّف أمرًا عظيمًا، وخطبًا جسيمًا، وهو مواجهة أعظم ملوكِ الأرض يومَئِذ بالموعظة، ومكاشفتُه بفساد حاله، وهو ما يحتاج إلى احتمال ما لا يحتمله إلَّا ذو جأش رابط، وصدر فسيح؛ فسأل ربّه أن يشرح صدرَه؛ فيجعلَه حليمًا حمولًا؛ ليحتملَ ما يَرد عليه منَ الشّدائد التي يضيق لها الصّدر، وأن يُسَهِّلَ عليه أمرَه الذي هو خلافة اللّه في أرضه وما يصحبها من مُزاولة عظائم الشّؤون، ومقاساة جلائل الخطوب، وأن يُطلق لسانَه بالنّطق؛ ليفهموا قوله حين تبليغ الرّسالة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱشۡرَحۡ﴾: أصلُ الشَّرْحِ: بسط اللَّحم ونحوه، يقال: شَرَحْتُ اللّحمَ، وشَرَّحْتُهُ، ومنه: شَرْحُ الصّدر، أي: بسطُه بنور إلهيّ وسكينةٍ من اللّه وروح منه، وفي التَّنْزِيل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: 125][2]، والشَّرْحُ: الكَشْفُ[3]، وعليه: فالشَّرْحُ في الآية حَقيقَتُهُ إزالَةُ ما في نَفْسِ الإنْسانِ مِنْ خَواطِرَ تُكَدِّرُهُ، أَوْ توجِبُ تَرَدُّدَهُ في الإقدامِ على عَمَلٍ ما، تَشْبيهًا بِتَشْريحِ اللَّحْمِ، بِجامِعِ التَّوْسِعَةِ[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 60، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 327، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 496.
(2) الرَّاغب، المفردات: (شرح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شرح).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 210.

2) ﴿صَدۡرِي﴾: الصَّدْرُ: أَعلى مُقَدَّم كُلِّ شَيْءٍ وأَوَّلُه[1]، وهو الجارحة، وجمعه: صُدور، وقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ سؤالٌ لإصلاح قِواه، وكذلك قوله: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ [التّوبة: 14] إشارةٌ إلى اشتفائهم، وقولُه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46]، أي: العقول التي هي مندرسة فيما بين سائر القوى وليست بمهتدية[2].

3) ﴿وَيَسِّرۡ﴾: أصلُ الكلمَة يَدُلُّ على انْفِتاحِ شَيْءٍ وخِفَّتِه، فاليُسْرُ: ضِدُّ العُسْرِ والمَشَقَّةِ[3]، والتَّيسيرُ: التَّسْهيلُ، وقَدْ يَسَّرَه اللّه لليُسرى، أَي: وفَّقَه لَها[4]، والمُرادُ بالتَّيْسيرِ في الآية: جَعْلُ الشَّيْءِ يَسيرًا، أي: ذا يُسْرٍ[5].

4) ﴿وَٱحۡلُلۡ﴾: (حَلَّ) فتْحُ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَلَلْتُ العُقْدَةَ أَحُلُّها حَلًّا: فتَحْتُها ونَقَضْتُها فانْحَلَّتْ[6]، والحَلّ في الآية مراد به: فتحُ وسَلامَةُ آلَةِ التَّبْليغِ، وهو اللِّسانُ، أي: أَنْ يَرْزُقَهُ فصاحَةَ التَّعْبيرِ والمَقْدِرَةَ على أداءِ مُرادِه بأَوْضَحِ عِبارَةٍ[7].

5) ﴿عُقۡدَةٗ﴾: عُقْدَةُ اللِّسانِ: ما غَلُظَ مِنْهُ، وفي لِسانه عُقْدَةٌ وعَقَدٌ، أي: التواء، ورَجُلٌ أَعْقَدُ وعَقِدٌ، أي: في لِسانِه عُقْدَةٌ أَو رَتَجٌ؛ وعَقِدَ لسانُهُ يَعْقَدُ عَقَدًا[8]، ويُقالُ لَها حُبْسَةٌ أيضًا، والمراد بالعُقدَةِ في الآية: عُسْر النُّطْقِ بالكَلام، أَوْ بِبَعْضِ الحُروفِ[9].

6) ﴿يَفۡقَهُواْ﴾: (فقه) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على إِدْراكِ الشَّيْءِ والعِلْمِ بِه[10]، ويأْتي الفِقْهُ بمعنى الفَهْمِ[11]، يُقال: فقِهْتُ الحَديثَ، أَيْ: فهمتُهُ، والفِقْهُ أيضًا: الإِدْراكُ والعِلْمُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ: فقُهَ الرَّجُلُ فقاهَةً وفِقْهًا، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أَيْ: تَعَلَّمَ[12]، ثُمَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صدر).
(2) الرّاغب، المفردات: (صدر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يسر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حلَّ - حلل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عقد).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).

خُصَّ بِه عِلْمُ الدّينِ؛ لِشَرَفِه على جَميعِ العُلومِ[1]، والمقصودُ بالفِقْه في الآية: الفَهْمُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا لم يكن عونٌ مِنَ الله للفتى فأوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُه

في هذا النصِّ القرآنيِّ المبارك يرشدنا المولى ﷻ إلى أمر ذي أهمّيَّة عظيمة، وهو اللّجوء إليه والاستعانة به في كلِّ أمرٍ، وذلك مِنْ خلال ما يحكيه على لسان نبيِّه الكريم موسى عليه السلام، حيثُ تضرعَّ إلى ربِّه قائلًا: ربِّ وسِّعْ صدري وأَفْسِحْه لتحمُّل أعباء الرِّسالة، وسهِّل لي ما أمرتني به، وأزل هذه الحُبْسَةَ والرَّبطةَ الَّتي في لساني؛ كي يفهموا قولي عند تبليغ هذه الرِّسالة الَّتي كلَّفْتَني بها، إنَّك على ما تشاء قدير[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ عن سابقه:

من دلائل الإخبات والإنابة سرعةُ التّسليم والاستجابة

فُصل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ عن سابقه، لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مُقدَّر؛ فكأنّه بعد أن قيل له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ قيل: فماذا قال؟ فكان الجواب: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾؛ فلم يُعطَف بينَ الجملتين جريًا على طريقة المحاورات، وليدلَّ كذا على سرعة استجابة موسى عليه السلام لأمر ربّه تعالى؛ فحين أُمر بتبليغ الرّسالة لم يتردَّد، بل تلقَّى الأمر وسأل اللّه الإعانةَ عليه، بما يؤولُ إلى رباطة جأشه، وخَلْقِ الأسباب التي تُعينُه على تبليغه، وإعطائِه فصاحةَ القولِ للإسراع بالإقناع بالحُجّة[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 52 - 54.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 429، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 12، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 496.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة دونَ الأُلوهيَّة:

ربّ العالمين هو الله، ولا فعَّال في الكون سواه

سِرُّ إيثار التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ دونَ الأُلوهيَّة، هو أنّ سؤال موسى ﷺ شرحَ صدره، وتيسيرَ أمرِه، وحَلَّ عقدةِ لسانِه، كلُّ هذا من متعلّقات الرّبوبيّة؛ فالرّبُّ هو الصَّاحب والمُدبّر والمُتصرّف؛ فلذا آثَر موسى ﷺ لفظَ الرّبوبيّة دونَ غيره، وأيضًا، لأنّ فرعون كان قد جاوز حدّ العبوديّة إلى دعوة الرّبوبيّة؛ فعبّر موسى بلفظ الرّبوبيّة؛ ليثبتها للّه، وينفيها عنِ الدّعيّ فرعون عليه لعنة اللّه، وقد بيّن اللّه سبحانه له فيما سبق كلّ ما يتعلق بالأديان من معرفة الرّبوبيّة والعبوديّة وأحوالِ المعاد، وكل ما يتعلّق بشرح الصّدر في باب الدّين[1].

دلالة حذفِ أداةِ النِّداء من ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾:

يقابل سبحانَه السّؤالَ والدّعاءَ بالقبول والعطاء

لم يذكر موسى ﷺ أداةَ النِّداء في سؤاله ربَّه ﷻ بقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ﴾، وأصل الكلام: (يا ربّ اشرح لي صدري)؛ للتَّعبير عن مدى قربه منَ اللّه، وقربِ اللّه سبحانه منه، فهو سبحانه السَّميعُ المحيط بالمسموعات، والبصيرُ المحيط بالمبصَرات، وهو مع عباده المؤمنين أينما كانوا[2].

الغرض منَ التّعبير بفعل الأمر في: ﴿ٱشۡرَحۡ﴾:

من دعائم الإصلاح الثَّبات وقتَ الأزمات، والصّبرُ عند اشتداد الكربات

الغرض منَ الطّلب في قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ الدّعاءُ؛ والغرضُ من هذا الدُّعاء إظهارُ كمالِ الافتقار إلى اللّه سبحانه، والإعراضُ عنِ الأنانية بالكليَّة؛ ليستطيعَ تحمُّلَ أعباءِ الرِّسالة، وليكون عليمًا بشؤون الحقِّ وأحوال الخَلْق، حليمًا حمولًا يستقلُّ ما عسى يَرِد عليه منَ الشَّدائد والمكاره، بجميل الصّبر، وحُسْن الثَّبات، ويتلقَّاها بصدر فسيح، وجأش رابط، وأن يَسْهُل عليه - مع ذلك

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 30، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 430.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 32.

- أمرُه الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمُها، وأصعبُ الخطوبِ وأهولُها، بتوفيق الأسباب ورفع الموانع(1).

سِرّ تقييد الفعل في قوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾:

الحِلْم والأناة سبيلُ المُصلِحين والدّعاة

الشَّرح هنا متعلّق بكلمة: ﴿صَدۡرِي﴾، والغرض من ذِكْر هذا المُتعلَّق هو رفع الإبهام عنِ الكلام، فلو قيل: (اشرح لي) دونَ ذِكْر الصَّدر؛ لعُلِمَ أنَّ ثَمَّ مشروحًا، ولكنّه غيرُ معلوم، لكنّه لمَّا ذُكِر الصّدرُ؛ كان ذلك آكدَ لطلبِ الشَّرح لصدره(2).

سِرُّ تقديم سؤال الشَّرح على غيره ممَّا سُئل:

شرح الصَّدر مبتدأُ الأمر، وعلامةُ التَّسهيل واليُسر

قُدِّم سؤالُ الشَّرح على غيره ممَّا سأله موسى عليه السلام؛ لأنَّه رتّب الأشياءَ التي سألَ ربّه في كلامه على حسب ترتيبها في الواقع؛ فقدّم الشّرح، ويعني به إزالةَ ما في النّفس مِن خواطرَ تُكَدِّرُه أو توجِبُ تَرَدُّدَه في الإقدام على الأمر العظيم الذي كُلِّفَ به، وهو تبليغ رسالاتِ اللّه التي أُنزِلَت إليه إلى النَّاس، مع تحمّل ما يلقاه منهم مِن أذًى في حِلْم وصبر، وهذا أوَّل ما يَبْتَدِئ به المُصلحون(3).

معنى اللَّام ودلالتها في قوله: ﴿لِي﴾:

مَن كَثُر دعاؤه، وطالَ رجاؤه؛ زاد عطاؤه، وكثُرت نعماؤه

اللَّام في قوله: ﴿لِي﴾ لام التَّبيين، التي تُفيد تقويةَ البيان؛ أو زيادةَ الطَّلب وضوحًا، فإنَّه منَ الواضح أنَّ الشَّرح والتَّيسير متعلّقان بكلمتي: ﴿صَدۡرِي﴾، و﴿أَمۡرِي﴾؛ وقوله: ﴿لِي﴾ زيادةُ بيان، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشّرح: 1]؛ تعبيرًا عن إلحاحه عليه السلام في الدّعاء لنفسه(4).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 12، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 430، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 496.

(2) القنوجي، فتح البيان: 8/ 227، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4719.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 210.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4719.

بيده سبحانه تصاريفُ العباد، ومنه العونُ والإمداد

بلاغة الإطناب ذِكر شبه الجملة ﴿لِي﴾ في قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾:

زيادة ﴿لِي﴾ بعد: ﴿ٱشۡرَحۡ﴾ في قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ إطنابٌ؛ حيثُ إنَّ الكلام يكون تامًّا ومفيدًا بدونه، ولكنَّه جيء به لإفادة معنى العِلَّة أوِ التَّخصيص؛ أي: اشرح صدري لأجلي؛ للدّلالة على أنَّ منفعة شرحِ الصَّدرِ راجعةٌ إليه، أو أنَّه يطلب منَ اللهِ أن يشرح صدرَه شرحًا خاصًّا يتّسع لتلقّي المهمَّةِ الثَّقيلة المُلقاةِ عليه، وذلك حتَّى يقومَ بها على خير ما ينبغي؛ مبالغةً في الاستجابة لأمر اللّه تعالى[1].

في التَّقديم تأكيد للحُكم وتقوية، لبيان أهمّيَّة حصول التَّزكيَة

الغرض من تقديم شبه الجملة على المفعول به:

أفاد تقديم شِبْه الجملة على المفعول به في قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾، تقويةَ الحُكم عن طريق تكرُّر الإسناد؛ لإفادة حصول الإجمال ثمّ التَّفصيل، كما أنّه يُفيد التَّأكيدَ على أنّ شرح الصَّدرِ راجعٌ إليه عليه السلام[2].

ذهاب الكدر والمنغّصات؛ بداية التَّبليغ ومنطلقُ حَملِ الرِّسالات

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾:

في قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ استعارة تصريحيّة؛ حيثُ إنّ الشَّرح هو تقطيعُ ظاهر شيء ليِّن، واستُعير هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطرَ تكدّرُه أو توجبُ تردُّدَه في الإقدام على أعتى ملوك الأرض، وأكثرِهم فسادًا، تشبيهًا بتشريح اللّحم، بجامع التّوسعة[3].

رحابةُ المَحلِّ دليلٌ على اتِّساع الحالِّ فيه

سِرُّ إيثار التَّعبير بالصَّدر دون القلب:

آثَر موسى عليه السلام التَّعبيرَ بالصَّدر دون القلب في قوله: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾؛ لأنَّ الصّدر هو الوعاء الذي يحوي القلب، فكلّما اتّسع الوعاءُ كان ذلك أرحبَ للمظروف فيه، وهو (القلب)؛ أو أنّ فيه

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 328، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 210.

مجازًا مرسلًا علاقته المحلّيَّة؛ حيثُ ذُكِر المَحلّ (الصدر)، وأراد الحالّ فيه (القلب)؛ والغرضُ منه المبالغةُ في الشَّرح أو التَّوسعة.

عِلَّة وصلِ قوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ بسابقه:

وُصِلَ قولُه: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ بسابقه؛ لاتِّحاده معه إنشاءً ومعنًى، فكِلْتا الجُملتين دعاءٌ يترتَّب بعضُه على بعض، وليس ثَمَّ ما يقتضي الفصل، وقد حسَّن الوصل دون الفصل وجودُ المغايرة بينَ الجملتين مع التَّلاؤم الفكري بينهما؛ حيثُ إنّ الطلب الأوَّل كان خاصًّا بشخصه، والثَّاني كان خاصًّا برسالته التي حُمِّلَها وكُلِّفَ بها عليه السلام[1]، مع كون الجُملتين فعليَّتين، فعلُهما دعاءٌ.

الله تعالى يجعل العسيرَ يسيرًا

الغرض منَ التّعبير بفعل الأمر: ﴿وَيَسِّرۡ﴾:

جاء الفعل ﴿وَيَسِّرۡ﴾ على صورة الأمر، ولكنَّ الغرض منه هاهنا هو الدُّعاءُ؛ لأنَّه صادر منَ الأدنى إلى الأعلى، والغرضُ من هذا الدُّعاءِ إظهارُ كمالِ الافتقار إلى الله سبحانه، ونهايةِ التَّضرُّعِ والتَّذلُّلِ له جل جلاله، وذلك ليَسْهُل على موسى عليه السلام القيامُ بما كُلِّف به من أعباء الرِّسالة، وتحمّل ما فُرِض عليه منَ الواجبات[2].

لا يجعلُ الحَزنَ سهلًا إلَّا اللهُ، ولا يدفعُ المكروهَ أحدٌ سواه

بلاغة الإطناب بذِكر شبه الجملة ﴿لِيٓ﴾ في قوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾:

زيادة ﴿لِيٓ﴾ بعد قوله: ﴿وَيَسِّرۡ﴾ في قوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ إطنابٌ؛ حيثُ إنَّ الكلام يكون تامًّا ومفيدًا بدونه، ولكنّه عليه السلام جاء به هنا لإفادة معنى العِلّة أو التَّخصيص؛ أي: يسِّر أمري لأجلي؛ للدّلالة على أنّ منفعة تيسير أمر دعوته راجعٌ إليه، أو أنّه يطلب منَ الله تيسيرًا خاصًّا يناسب هذه المهمّةَ الجليلة التي أُنيطت به؛ حيثُ إنّه سيواجه دولةً فرعونيَّةً مليئةً بالطُّغيان والاستبداد، والاستكبار والعِناد[3].

سبحانه بكلّ جليل كفيل، وهو على شيء وكيل

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4719.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 12، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 430، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 496.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 328، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

سِرّ إضافة الأمر إلى ضمير المتكلّم في قوله: ﴿أَمۡرِى﴾:

تلقَّى موسى أمرَ ربِّه بالطَّاعة، وكمالِ الدّيانة، وسأل الله الإعانةَ

أُضيف الأمرُ إلى ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿أَمۡرِى﴾؛ لإفادة مزيدِ اختصاصِ الرِّسالة به عليه السلام[1]، وفي هذا دليلٌ على تلقّي موسى عليه السلام أمرَ ربِّه بالسَّمع والطَّاعة، فلمَّا قال اللّهُ تعالى له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، جعله موسى عليه السلام أمرًا خاصًّا به، وبادر بحمله، ورجا منَ اللّه أن يشدَّ أزرَه وعضدَه بأخيه، فأجابه اللّهُ لما سأل، وحقَّق له ما أمَّل.

علَّة وصل قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ﴾ بسابقه:

لهج لسانُ الكليم بالدُّعاء أن يعينَه الله في التَّحمُّل والأداء

وُصِلَ قولُه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ بسابقه لما بينَ الجُملتين منَ المناسبة المعنويَّة، واتِّفاقِهما في الإنشائيَّة، مع ما بينَ الجملتين منَ المغايرة في وجود التَّلاؤم الفكريّ بينهما، فكلتا الجملتين دعاءٌ وطلب؛ كان الطّلب الأوَّل خاصًّا بالتَّحمُّل، وكان الطَّلب الثَّاني خاصًّا بالأداء[2]، وقد حَسَّن الوصلَ مجيءُ الجُملتين فعليَّتين، فِعْلُهما دعاءٌ.

الغرضُ منَ التّعبير بفعل الأمر في: ﴿وَٱحۡلُلۡ﴾:

أخلص الكليمُ في دعائه ربَّه والتَّوكُّلِ عليه، وأظهر كمالَ الافتقارِ إليه

الغرض منَ الطّلب في قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ هو الدُّعاء، رغمَ مجيءِ الفعل على صورة الأمر، ولكنَّه لَمَّا كان صادرًا منَ الأدنى إلى الأعلى على جهة التَّضرُّع والتَّذلُّل، كان الغرض منه الدُّعاء؛ والغرضُ من هذا الدُّعاءِ إظهارُ كمالِ الافتقار إلى اللّه سبحانه، والإخلاصُ في التَّوكُّل عليه، والتَّبرُّؤُ منَ الحول والقوَّة لديه.

سِرُّ التَّعبير بالصّيغة ﴿وَٱحۡلُلۡ﴾ دون (حُلَّ):

في فكِّ التَّضعيف والشَّدَّة إلماحٌ لحلِّ العقدة والشِّدَّة

سرُّ التَّعبير بالصّيغة ﴿وَٱحۡلُلۡ﴾ دون (حُلَّ) هو أنّه توالي الحركة والسُّكون يُشعِر بنوع تغلغل وتخلخل وتفكُّك، وكأنَّ شيئًا كان مُصمتًا ومعقودًا دخلَه ما فرَّقه وفكَّ عُقدَه، وهذا هو المناسب هاهنا، فلو قال: (حُلَّ) لم يكن لفظُه هذا لائقًا أو مناسبًا بالمعنى المُراد؛ لما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4719.

في التَّضعيف الذي في آخر الفعل من دلالةٍ على الشَّدِّ والعقد الذي هو نقيض ما أراده موسى عليه السلام من حلِّ العُقدة من لسانه، لكن لمَّا قال: ﴿وَٱحۡلُلۡ﴾ فقد فكَّ تضعيف اللَّام إلى حرفين، أوَّلهما مضموم، والآخر ساكن؛ للدّلالة على حلِّ العُقدة، وإزالة الشِّدَّة.

الغرض من تنكير ﴿عُقۡدَةٗ﴾ وتوجيه المراد بها:

التّبليغ إنّما يَحْسُن من البليغ

جاء لفظُ ﴿عُقۡدَةٗ﴾ في قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ نكرةً؛ والغرض منه التَّعظيم؛ أي: إنَّها عقدةٌ شديدة، ولمَّا كانت تلك العقدة عارضةً لآفة حادثة، كان المناسب لحالها التَّنكيرُ، حيثُ لم تكن من جنس ما هو المعهود(1)، وقيل: إنّما نُكِّرت لأنَّه لم يطلبِ الفصاحةَ الكاملة، وإنَّما طلب حَلَّ بعضِها إرادةَ أن يفهم سامعُه عنه فهمًا جيِّدًا؛ حيثُ إنَّ أمر التَّبليغ لا يتيسَّر إلَّا بذلك؛ وهذا المفهوم دلَّت عليه آياتٌ أُخر، كقوله تعالى عنه: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [القصص: 34](2).

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّن لِّسَانِي﴾:

إصلاح بعضِ عُقَد اللِّسان يكون قبلَ إصلاح البيان

جاءت ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن لِّسَانِي﴾ تحمل معنى الظَّرفيَّة؛ أي: احلل العقدة الكائنة في لساني، ويمكن اعتبارها ابتدائيَّة؛ أي: العقدةَ النَّاشئة من لساني، فيَنْصَبُّ الإصلاحُ على الآلة التي هي اللِّسان، قبلَ إصلاح البيان، ويمكن جعلُها تبعيضيَّةً؛ أي: احلل بعضَ عقدةِ لساني؛ لأستطيع إيصالَ الرِّسالةِ العظيمة التي حمَّلتَنيها(3).

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾:

لفصاحة اللّسان تأثير بالغٌ في النّفوس والوجدان

جاء لفظُ ﴿عُقۡدَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة؛ حيثُ شبَّه موسى عليه السلام عسرَ النُّطق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

(2) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 6/ 430، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 496، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 496.

بالكلام أو ببعض الحروف، المانعَ منَ الفصاحة، برَبط بعضِ الخيط أو الحبلِ ببعضه الآخر، المانعِ منَ الانطلاق في حال الحركة[1].

نُكْتةُ بناء الجملة على أسلوب الشَّرط ﴿وَٱحۡلُلۡ﴾: ﴿يَفۡقَهُواْ﴾:

حُسْن التِّبيانِ أداةُ القيادِ والإذعان

جاء الفعل ﴿يَفۡقَهُواْ﴾ في قوله: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ مجزومًا في جواب الأمر؛ لجعل الشَّيء المطلوب بمنزلة الحاصل، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: 30]، أي: إنَّه إن تكلَّم معهم دونما تلعثمٍ فهموا قولَه ومرادَه في الحال[2].

وبناء الجملة على أسلوب الشَّرط ممَّا يفيد التَّوكيد بتَحَقُّقِ المشروط متى تحقَّق الشّرط، فهو كالسَّبب والنَّتيجة، وهذا من شِدَّة حرصِ نبيِّ اللّه موسى عليه السلام على دعوة قومه، والقيام بأداء المهمَّة التي كلَّفه اللّهُ بها خيرَ قيام يُرضي عنه ربَّه سبحانه.

دلالة التَّعبير بالفقه من حيثُ المادَّةُ والصّيغة:

الفقه أخصُّ منَ الفهم، ويحصل به حوزُ أشرافِ العلم

التَّعبير بالفقه في قوله: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ أفاد أنَّ موسى عليه السلام لم يُرِد أن يفهم القومُ كلامَه فحسب، بل أن يعقلوه ويتدبَّروا ما فيه؛ وذلك أنَّ فرعون قد ملأ آذانهم بكلام تلقَّفوه عنه فأذعنوا له به، وتناقلوه فيما بينهم، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ [الزّخرف: 54]، ولو أنَّهم تفكَّروا فيه قليلًا لأدركوا تهافته، وموسى عليه السلام يعرف ذلك لأنَّه نشأ في قصر فرعون، فأراد موسى ما هو أخصُّ منَ الفهم، فعبَّر بالفقه.

نُكْتةُ إسناد القول لضمير المتكلِّم: ﴿قَوۡلِي﴾:

في الإضافة تخصيص وتحديد

في إضافة القول إلى ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ إفادةُ الاختصاص[3]، ذلك أنَّه لمَّا سأل حلَّ العُقدةِ من لسانه عليه السلام

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 327، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4720.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4720.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

وجعلها خاصَّة به، أتبعها كذلك بتخصيص القول بنفسه، ليشاكلَ ما كان في عقدة اللِّسان من تخصيص.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحلّ والفكّ:

أصلُ الحَلّ فتح الشّيء، وأصلُ الفكِّ الفصل بين الشّيئين

أصل الحَلّ فتح الشّيء[1]؛ يقال: حللتُ العقدةَ أَحُلُّها حَلًّا، أي: فتحتها[2]، وأصل الفكّ: الفَصلُ بينَ الشّيئين، وتخليصُ بعضِهما من بعض[3]؛ يقال: فككتُ الشّيءَ فانفكَّ، بمنزلة الكتاب المختوم تَفُكُّ خاتمَه، كما تَفُكّ الحَنَكين تفصِل بينهما، وكلُّ مُشتبكَين فصلتَهما فقد فككتَهما[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حلل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فكك).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فكك).

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي
٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا
٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه: 29 - 35]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

معاونة ذوي الودّ ترفع الهمم؛ وبها العزم يشتدّ

لَمَّا كانت المهمّةُ جليلةً وعظيمة، خاف موسى عليه السلام على نفسه العجزَ عنِ القيام بها؛ فطلب منَ الله المُعين، ولمَّا كان التّعاون على نشر الدّين مع خُلوص الودّ قربةً عظيمة للّه؛ طلب عليه السلام واحدًا من أهل بيته؛ ليحملَ معه أعباءَ الرّسالة، ويكونَ ظهيرًا له عند الشّدائد وحلولِ المكاره، ولمَّا كان التّعاون على الدّين منقبةً عظيمة، أراد ألَّا تحصُل هذه الدّرجة إلَّا لأقرب أهلِ بيته إليه؛ فطلب أخاه هارون عليه السلام ليكونَ كلٌّ منهما عونًا للآخر على عبادة اللّه وإقامةِ شريعته بين الخلائق(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزِيرٗا﴾: (وزر) أَصْلٌ يَدُلُّ على الثِّقَلِ في الشَّيْءِ، والوَزيرُ سُمّيَ به لِأَنَّهُ يَحْمِلُ الثِّقَلَ عَنْ صاحِبِه(2)، والوزير أيضًا: الَّذي يَستَوْزِرُه المَلِكُ، فيستعين برأيه، وحالته: الوَزارة(3)، وكانَ الأَصْمَعي يَقول: اشتقاق الوَزير من آزَرَه، وكانَ في الأَصْل أزير فقالوا: وزير(4)، فالمراد بالوَزير في الآية: المُؤازِرُ، وهو المُعاوِنُ المُظاهِرُ(5).

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 44، وابن عادل، اللّباب: 3/ 230، والخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 460.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزر).
(3) الخليل، العين: (وزر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (وزر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.

2) ﴿أَهۡلِي﴾: (أهل) أَصْلٌ يَدُلُّ على القَرابةِ والعَشيرَةِ، يُقالُ: وصَلَ أَهْلَهُ، أي: أَقارِبَهُ، وأَهْلُ الرَّجُلِ: زَوْجَتُهُ وأَخَصُّ النَّاسِ به[1]، وأَهْلُ الشَّيْءِ: أَصْحابُهُ وما يَخْتَصُّ به، ويَخْتَلِفُ معناهُ بِحَسَبِ ما يُضافُ إِلَيْه، فأَهْلُ البَيْتِ: سُكَّانُهُ، وأَهْلُ الإِسْلامِ: مَنْ يَدينُ به[2]، وجَمعُ الأَهْلِ: أَهْلونَ وأَهالٍ وأَهَلات[3]، والمراد بالأهل في الآية: العَشيرَةُ والقَرابَة[4].

3) ﴿أَشۡدُدۡ﴾: (شدّ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ، وفُروعُهُ تَرْجِعُ إليه، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أيْ: قَوَّيْتُهُ[5]، والشَّدُّ في الآية مرادٌ به: الإِمساكُ بِقوَّةٍ[6].

4) ﴿أَزۡرِي﴾: الأَزْرُ: الظّهر، وآزَرَهُ، أي: ظاهرَه وعاونه على أمر، وشدَّ فلانٌ أَزْرَه، أي: شَدَّ مَعقِدَ إزارِه، ولمَّا كانَ الظَّهْرُ مَجْمَعَ حَرَكَةِ الجِسْمِ وقِوامَ اسْتِقامَتِه، أُطْلِقَ اسْمُهُ على القوَّةِ إِطْلاقًا شائِعًا يُساوي الحَقيقَةَ، فقيلَ الأَزْرُ لِلقوَّة، والمِئْزَرُ: الإزارُ نفسُه[7]، وسُمّيَ الإِزارُ إِزارًا لَأَنَّهُ يُشَدُّ به الظَّهْرُ، والمراد في الآيَة: الظَّهْرُ لِيُناسِبَ الشَّدَّ[8].

5) ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾: الشَّريكُ: المُشارِك، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأَمرِ وشارَكْتُهُ: إذا انْضَمَمْتُ إِلَيْه وخالَطْتُهُ، وصِرْتُ شَريكًا لَهُ[9]، ويُقالُ: شَريك وأَشْراك[10]، والمُرادُ بالشّركة في الآية: أن يكونَ الشَّيءُ بينَ اثْنَيْنِ لا يَنفَرِدُ به أحدُهُما، أي: اجعله شريكًا معي في النُّبوة والرِّسالة[11].

6) ﴿نُسَبِّحَكَ﴾: أصلُ (سبح) يدلُ على جِنْسٍ مِنَ العِبادَةِ، وأَصْلُه مِنَ السَّبْحِ، وهو: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأَرْضِ، أي: أَبْعَدْتُ فيها[12]، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبْحانًا،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أهل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (أهل).
(3) الخليل، العين: (أهل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 85.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 254، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (شد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 213.
(7) الخليل، العين: (أزر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 85.
(9) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شرك).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح)، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.

أيْ: نَزَّهْتُه وبَرَّأْتُهُ مِن كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[1]، والمرادُ بالتّسبيح في الآيةِ: التَّنْزيهُ، أي: لكي ننزِّهك كثيرًا عمَّا لا يليق بك منَ الصِّفات والأفعال، وقال الكلبيُّ: نصلّي لك كثيرًا[2].

7) ﴿بَصِيرٗا﴾: أَصْلُ الكلمة يدلُّ على وُضوحِ الشَّيْءِ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدْراك والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[3]، والمراد بالبَصير في الآية: مُبالَغَةٌ في المُبْصِرِ، وهو المُطَّلِعُ والعالِمُ الَّذي لا يَخْفَى عليه الأَمرُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مصاحبة الأخيار في سبيل الدَّعوة إلى الله، خيرُ معين بإذن الله

يخبرنا المولى ﷻ في هذه الآيات أنَّه بعد أنْ سأل موسى عليه السلام ربَّه الإعانةَ والتَّيسيرَ فيما كلَّفه به، طلب منه أنْ يُشْرِكَ معه أخاه هارونَ عليه السلام في هذا السَّبيل؛ كي يكونَ مثبِّتًا ومعينًا له، فقال: واجعل لي معينًا وظهيرًا مِنْ خواصّي وأقربائي، ثمَّ بيَّن مَنْ هو فقال: هارون أخي، قوِّ به ظهري، وأشركْهُ معي في النُّبوَّة وتبليغِ الرِّسالة؛ كي ننزِّهَكَ كثيرًا عمَّا لا يليق بجلالك وجمالك، ونذكرَكَ كثيرًا فنحمدَكَ على كلِّ ما أوليتنا به مِنْ نِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، إنَّك كنتَ بنا خبيرًا عليمًا بكلِّ أحوالنا[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

لطيفة ترتيب سُؤْلِ موسى عليه السلام:

ما أفقَهَ الأنبياءَ في ترتيب مسائل الدُّعاء

رتَّب النّظمُ الكريمُ سؤالَ موسى عليه السلام على أبدع ما يكون وأفضلِه؛ ذلك أنَّه سأل اللّهَ سبحانه - أوَّلًا - أن يهيِّئَ له محلّ تلقّي التَّكليف؛ حتَّى يقومَ به على خير ما ينبغي، فسأل اللّهَ ﷻ أن يشرح له صدرَه، وذلك حتَّى يتَّسعَ لتلقّي أمرِ ربِّه، وينشطَ له دون أن يجد في نفسه ثِقلًا من أعباء التَّكليف، ثمَّ سأل اللّهَ تعالى - ثانيًا - أن يهيِّئَ له

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 272.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/ 59.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 271 - 272، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 504.

سبيلَ تنفيذ هذا التَّكليف، فدعا ربَّه بتيسير الأمر؛ ذلك أنَّ المكلَّف قد ينشط للاستجابة لأمر ربِّه، ويبادِرُ لتنفيذ ما كُلِّف به، ولكنَّه يجد أنَّ السُّبل لذلك قد سُدَّت، ثمَّ حرص ﷺ على إصلاح آلة تنفيذ هذا التَّكليف، فسأل ربَّه ومولاه - ثالثًا - أن يحُلَّ عقدةً من لسانه حتّى يفقَه المَدعوّون قولَه، فلمَّا انتهى مِنَ الدُّعاء لنفسه سأل اللّهَ سبحانه - رابعًا - أن يهبَه أخاه هارونَ وزيرًا ونبيًّا.

علَّة وصل قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾ بما قبلَه:

مناسبة طلبِ الوزارة وملاءمتُه لما قبلَه

أوثِرَ الوصلُ على الفصل في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾؛ لاتِّحاده بما قبلَه إنشاءً ولفظًا ومعنًى، فإنَّ كِلا الآيتين دعاءٌ للّه ﷻ بتحقيق المطلوب للكليم الكريم موسى ﷺ وليس هناك ما يقتضي الفصلَ بينَ الجملتين، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النّساء: 36].

معنى اللَّام ودلالتها في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي﴾:

اللَّام للاختصاص والتَّبيين، وليس كالأخ وزيرٌ ومُعين

معنى اللَّام في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ التَّبيين، وهي تفيد تقويةَ بيانِ المعنى، وتَدُلُّ على معنى العِلّيَّة[1]، وفيه كذلك معنى الاختصاص الذي هو أصل معاني اللَّام[2]، ويؤيِّد هذا الاختصاص أنَّ القرآن الكريم لم يَحكِ قصَّة أخوين نبيين إلَّا موسى وهارون ﷺ.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿لِّي﴾ على المفعول به:

قُدِّم شبه الجملة للاهتمام والاستئثار والعناية بالاستيزار

قُدِّمَ شبهُ الجملة على المفعول به في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾؛ للعناية بشأن المُتقدِّم؛ لأنَّه في دعائه لا يريد وزيرًا فقط، وليس هذا مُجرَّد طلبه، وإنَّما أن يكون هذا الوزير له هو؛ ليعينَه ويؤازرَه على ما كلَّفه اللّهُ به مِن تكاليف الدَّعوة والنُّبوَّة، فلأجل الاهتمام والعناية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 211.

(2) الزّمخشريّ، المفصّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 480، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 64.

بهذا المطلوب تحديدًا، الذي هو كون الوزير له هو، قُدِّمَ شبهُ الجملة على المفعول به للعناية بكونه له، والاهتمام بذلك[1].

الغرض من تنكير ﴿وَزِيرًا﴾:

المهامُّ العظيمةُ تحتاج إلى وزارة قادرة وحكيمة

لَمَّا كانت مطالبُ الدَّعوة إلى الله وتكاليفها كبيرةً، وتحتاج إلى إعانة عظيمة للقيام بأعبائها على أتمِّ وجهٍ وأكمله، جاء طلبُ نبيِّ الله موسى ﷺ للوزير في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا﴾ مُنَكَّرًا للتَّعظيم؛ لأنَّ موسى لا يطلب مجرَّد وزير، بل يطلب وزيرًا عظيمًا، قادرًا على تحمُّل أعباء الدَّعوة إلى الله معه، فناسبَ ذلك أن يأتيَ قولُه: ﴿وَزِيرًا﴾ نكرةً؛ لإفادة هذا الغرض.

الغرض من تقديم قوله: ﴿وَزِيرًا﴾ على ﴿هَٰرُونَ﴾:

العناية والاهتمام بشأن الوزارة، وأنَّها المقصود الأهمُّ

قُدِّم المفعول به الثَّاني وهو قوله: ﴿وَزِيرًا﴾، على المفعول به الأوَّل، وهو قوله: ﴿هَٰرُونَ﴾ للعناية والاهتمام بشأن الوزارة، وأنَّها المقصود الأهمُّ في مطلوبه ودعائه، فأفاد ذلك أنَّ اهتمامه الأكبر هو أن يكون له وزير، ثمَّ كونُ الوزير بعد ذلك هارون[2]، وقد جاء على صيغة فعيل بمعنى فاعل، كجليس بمعنى جالس؛ لإفادة المبالغة في المعاونة، ومشاركته في حمل ثِقل الدَّعوة معه[3].

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾:

يصلح فيها الابتداء والبيان والتَّبعيض

يصلح في معنى ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾ أن تكون للتَّبعيض أو البيان، ذلك أنَّ نبيَّ الله موسى ﷺ سأل اللهَ تعالى أن يُمدَّه بوزيرٍ معين يكون رِدءًا يُصدِّقُه، ثمَّ سأل أن يكون هذا الوزير من أهله؛ لوجود الثِّقة والمحبَّة والإشفاق الفطريِّ، ثمَّ زاد هذا البيان وضوحًا، فذكر أنَّه يريدُه من بعض أهله، بل من خاصَّة أهله، ثمَّ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 165.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 26، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 13، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 213.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 13.

عيَّنه بالعلَميَّة وخصَّه بالنِّسبة فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾، ويجوز أن تكون ﴿مِّنۡ﴾ على أصل معناها الذي هو ابتداء الغاية[1]؛ أي: أنَّ موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يجعل ابتداءَ حصولِ الوزير له من أهله، فهو لا يريد أيَّ وزير كان، بل يريد وزيرًا يكون ابتداءُ حصولِه وابتداءُ جَعْلِه وزيرًا من أهل موسى عليه السلام.

سِرّ تقييد ﴿وَزِيرٗا﴾ بالنّعت: ﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾:

النَّفس بذي القُربى أعلَق، وفي وزارتهم أوثق

جاء شبه الجملة ﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾ في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ في محلِّ نصب نعت لـ ﴿وَزِيرٗا﴾، فهو لا يريد مُجرَّد وزيرٍ يُعينُه ويُؤازرُه، بل يريد وزيرًا موصوفًا بكونه من أهله، لأنّه يبعث في نفسه اطمئنانًا أشدّ، وثِقَةً في إعانته ومناصرته ومؤازرته له آكد[2].

سِرّ إضافة الأهل لضمير المتكلّم في قوله: ﴿أَهۡلِي﴾:

أهلُ النَّبيِّ أهلُ الدّيانة، فهم مَظِنَّة النُّصح وتمام الإعانة

في الإضافة في ﴿أَهۡلِي﴾ تخصيصٌ؛ لأنَّ كونه أخًا له من أهله مَظِنَّة أن يُخْلِص النُّصحَ له، فلهذا أسند الأهلَ إلى ضمير المتكلِّم؛ لأنَّ كونَه من أهله مَظِنَّةُ النُّصحِ له، فوقَ ما فيه مِن تَحَقُّق الشُّروط[3].

نُكتةُ التَّعبير بالاسم العلم ﴿هَٰرُونَ﴾:

في ذِكر العلم في مقام الاصطفاء والتَّكليف تعظيمٌ وتشريف

جاء التَّعبير في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ﴾ بالعلم؛ لتعيينه من بين جميع أهله، وفي التَّعبير بالعلم تعيينٌ للمُسمَّى به وتشريفٌ له، إذ ذُكِرَ في حضرة ربِّ العالمين، وهو تشريفٌ يُناسِب شرفَ المُهمَّة التي رجا موسى عليه السلام أن يشاركَه فيها، وهي أن يكون رسولًا معه إلى فرعون.

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 458، 459، والسَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 75.

(2) البروسويّ، روح البيان: 5/ 379، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 498، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 186.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 212.

بلاغة الإطناب بذكر وصف الأُخوَّة بعد قوله: ﴿هَٰرُونَ﴾:

الإطناب في مناجاة المحبوب جنَّة روحيَّة لخواصِّ القلوب

في قوله: ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ إطناب بذِكر لفظ ﴿أَخِى﴾، وقد أفاد ذلك أمورًا:

أحدها: جعل الدُّعاء مشفوعًا بعِلَّته، وهو أنَّه يريد وزيرًا مخلِصًا أمينًا، يكون محلَّ ثقةٍ، وهو معلوم عنده بأصالة الرَّأي، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ صحبة الأخيار ومؤازرتهم مرغوبٌ للأنبياء فضلًا عن غيرهم[1]، ويكون هذا كتبيينه علَّة اتِّخاذه العصا بقوله: ﴿عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ الآية.

والثَّاني: بسطُ الكلام تلذُّذًا بالمناجاة مع ربِّ العالمين سبحانه وبحمده.

والثَّالث: الرِّعاية على الفاصلة، ممَّا زاد اللَّفظ حُسْنًا يضارع حُسْنَ المعنى، فكان نورًا على نور.

والرَّابع: الاحتراز، وذلك لا يُذهب إليه إلَّا إذا اعتُبر أنَّ في أهل موسى عليه السلام مَن يحمل اسمَ هارون، فعيَّنه بالأُخوَّة.

علَّة فصل قوله: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ عمَّا قبله:

وزارة الأخ تشدُّ الأزر، وتعين على الثَّبات في الأمر

جاءت جملة: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ على صيغة الدُّعاء، وفُصِلَت عمَّا قبلَها؛ لأنَّ بينها وبين ما قبلها تمامَ اتِّصال، فإنَّ شدَّ الأزر عبارةٌ عن جعله وزيرًا له[2].

سِرُّ التَّعبير بالصّيغة: ﴿ٱشْدُدْ﴾ دون (شُدَّ):

زيادة المبنى يدلُّ على زيادة في المعنى

زيادة المبنى في ﴿ٱشْدُدْ﴾ يدلُّ على زيادة في المعنى، ولا يبعد أن يكون ذلك لغرض التَّوكيد، كما أنّ التّعبير بالفَكّ، مع جواز الإدغام يُشير إلى أن يكون العونُ واضحًا جليًّا، كوضوح الدَّال منَ الدَّال في ﴿ٱشْدُدْ﴾.

(1) البروسويّ، روح البيان: 5/ 379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 212.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 13، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 499.

تنوّع القراءات القرآنيّة في قوله: ﴿أَشۡدُدۡ﴾:

في إسناد الفعل لـذي العـرش المجيد مبالغةٌ في تحقيقه وتوكيد

قرأ عامَّة القرَّاء ﴿أَشۡدُدۡ﴾ بإسناد الفعل إلى اللّه العظيم، وقرأ ابنُ عامر وابن وردان بخُلْفه ﴿أَشۡدُدۡ﴾ بإسناد الفعل إلى موسى عليه السلام(1)، فيكون المعنى على القراءة الأولى: أنَّ موسى عليه السلام سأل اللّهَ تعالى أن يُعينَه بوزارة أخيه هارون، وأن يَشُدَّ أزرَه بهارونَ أخيه، أمَّا على القراءة الثَّانية: فيكون المعنى أنَّ موسى عليه السلام سأل اللّهَ جل جلاله أن يُعينه بوزارة أخيه؛ ليقوم موسى بشَدِّ أَزْرِ نفسِه بأخيه هارون عليهما السلام، فالحاصل: أنَّ موسى عليه السلام - على القراءة الأولى - سأل اللّهَ تعالى مسألتين: الوزارةَ وشدَّ الأزر، وعلى القراءة الثَّانية: سأل اللّهَ سبحانه مسألةً واحدة، وهي الوزارة.

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِهِۦٓ﴾:

إلصاق المؤازرة يدلُّ على تمام المناصرة

الأصل في الباء أنَّها للإلصاق، وقد يُتوسَّع في معنى الإلصاق حتَّى يؤدّيَ معنى المقاربة وإن لم يكن بمخالطة، وقد يُتوسَّع بمعنى الإلصاق أيضًا حتَّى يدلَّ على الإلصاق المعنويِّ، كما يقال: رأفتُ به؛ أي: ألصقتُ رأفتي به(2)، والباء في هذه الآية تدلُّ على الإلصاق، فكأنَّه يقول: ألصِقْ شَدَّ أزري بهذا الوزير الذي هو أخي، على سبيل الاستعانة، فذلك آكَدُ في الإعانة.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦٓ﴾:

في التَّقديم دليلٌ على الاهتمام، وقد أدَّى إلى تجويد الكلام

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿بِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَزۡرِي﴾ لأجل الاهتمام به، ذلك أنَّه لمَّا كان من جملة مقصود نبيِّ اللّه موسى عليه السلام أن يكون له وزيرٌ يعينه ويناصره، وكذلك أن يكون هذا الوزيرُ المناصِرُ أخاه مِن أهله، فلاهتمامه بأن تكون النُّصرة وشَدُّ الأزر حاصلةً بأخيه، قدَّم شبهَ الجملةِ للاهتمام به، ويُضاف إلى ذلك ما ترتَّب على

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 97.

(2) السَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 19.

هذا التَّقديم منَ الرِّعاية على الفاصلة، ممَّا زاد اللّفظَ حسنًا فوقَ حُسْنِ المعنى.

أجاب اللهُ تعالى ضراعاتِ الكليم المُجتبَى، فأمدَّه بما أمَّل ورجا

علَّة وصل قوله: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ بما قبله:

أوثِرَ وصل قوله: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ بسابقه لاتِّحاده مع ما قبلَه في كونهما جميعًا دعاء للّه ﷻ، وكان هذا الاتِّحادُ في اللَّفظ والمعنى أيضًا، وليس هناك ما يقتضي الفصلَ، وقد حسَّن هذا الوصلَ اتِّفاقُ الجملتين في الإنشائيَّة، واتِّفاقُهما كذلك في الفعليَّة، مع وجود المغايرة بينهما.

الأليَقُ في مقام الدُّعاء إظهارُ الافتقار، واللهُ يبعثُ مَن يشاء ويختار

تنوّع القراءاتِ في قوله: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾:

قرأ عامَّة القرَّاء: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾ بإسناد الفعل إلى اللّه العظيم سبحانه، وقرأ ابنُ عامر وابن وردان بخُلْفه بإسناد الفعل إلى موسى عليه السلام: ﴿وَأُشۡرِكۡهُ﴾[1].

فيكون المعنى على القراءة الأولى: أنَّ موسى عليه السلام سأل ربَّه ﷻ أن يُشرِك معه أخاه هارون في أمر النُّبوَّة والرِّسالة.

وأمَّا على القراءة الثَّانية فيكون المعنى أنَّ موسى عليه السلام سأل اللّهَ سبحانه أن يجعل له أخاه هارون وزيرًا ليُشْرِكَهُ معه في أمر النُّبوَّة والرِّسالة.

فأراد موسى عليه السلام إظهار العلة التي وراء طَلَبِهِ والْتِماسه منَ اللّه أن يجعل له وزيرًا مِن أهله. وهي عِلّة لا تخفى على اللّه جل في علاه. وهاتان العِلّتانِ - المدعُوِّ بهما - هما أقصى ما يَتَمنّاه الأخ من أخيه؛ صلاح الدنيا بالمؤازرة، وصلاح الآخرة بالمناصرة.

لا حول ولا قوَّة للمكلَّف إلَّا بالله، ولا معين له إلَّا إيَّاه

الغرض منَ التَّعبير بالأمر:

جاء الفعلان: ﴿وَٱجۡعَل﴾، ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾ على صورة الأمر، ولكنَّهما هنا فعلا دعاءٍ؛ لأنَّهما صادران منَ الأدنى إلى الأعلى، وإنَّما طَلبَ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 320.

نبيُّ اللّه موسى عليه السلام - من ربِّه أن يجعل له وزيرًا من أهله، ويشركه في أمره، طلبًا على سبيل الدُّعاء؛ لأنَّه علم أنَّ مطلوبه لا يَقْدِر على تحقيقه، ولا يملك الإذن فيه إلَّا اللّه عز وجل؛ لأنَّه سبحانه هو الذي كلَّفه بهذه التَّكاليف، فسأل ما سأل لأجل أن يُعينَه اللّهُ عليها، من باب: (لا حول ولا قوَّة إلَّا باللّه)؛ وفي هذا ما فيه منَ الخضوع والافتقار إلى اللّه عز وجل في تحقيقه ما طُلب[1].

معنى ﴿فِيٓ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿فِيٓ أَمۡرِي﴾:

كأنَّ النُّبوَّة من ثقلها فُلكٌ في لُجَّة، وكأنَّها من شَرَفها حُلَّة أو جُبَّة

الأصل في معنى ﴿فِيٓ﴾ الظَّرفيَّة، ثمَّ تكون ظَرفيَّةً حقيقيَّة، أو ظَرفيَّة مجازيَّةً، ومن الظَّرفيَّة المجازيَّة ما يقال نحو: سأنظر في أمرك، أي: كأنّي سأجعل أمركَ وعاءً وظرفًا للنَّظر، وهنا المعنى كذلك، كأنَّه يقول: اجعل أمري وعاءً وظرفًا نتشارك فيه أنا وأخي[2]، وفيه إلماحٌ بأنَّ موسى عليه السلام من فرط شعوره بالمسؤوليَّة التي أُلقيت على عاتقه، رآها عظيمةً شاملة محيطة به من كلِّ جهة، فصارت كالظَّرف له، وكأنَّها - من ثقل المسؤوليَّة - فُلْكٌ عظيمة تمخر عُبابَ لجَّةٍ متلاطمة، فطَلَب عندَ ذلك مُعينًا ليصلَ بها إلى برِّ الأمان، أو كأنَّها - منَ الفضل والشَّرف - كساءٌ سابغٌ ورداء جليل، يشمل لابسَه، فأراد موسى عليه السلام أن يتجلَّل أخوه هارون بما تجلَّل به، فينالَ منَ الرِّفعة مثلَ ما نال هو.

سِرّ إضافة قوله: ﴿أَخِي﴾، ﴿أَزۡرِي﴾، ﴿أَمۡرِي﴾ لضمير المتكلّم:

من أدب النُّبوَّة إظهار الافتقار إلى الغنيِّ القهَّار، والتَّبرُّؤ منَ الحول والأنصار

في إضافة الكلمات: ﴿أَخِي﴾، و﴿أَزۡرِي﴾، و﴿أَمۡرِي﴾ لضمير المتكلِّم نُكْتةٌ بليغة؛ ففي ﴿أَخِي﴾ أن تحصل هذه المكانة الشَّريفة والدَّرجة المنيفة لأخيه دون غيره؛ لأنَّه معلوم عنده بأصالة الرَّأي[3]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 13.
(2) السَّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 57.
(3) البروسويّ، روح البيان: 5/ 379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 212.

وأمَّا الإضافة في ﴿أَزْرِى﴾ و﴿أَمْرِى﴾ فلاستشعار المسؤوليَّةِ والأمانة المُلْقاة على ظهره، التي يحملها هو لا غيرُه، فطلب أن يَشُدَّ اللّٰهُ تعالى بهارون أزرَه هو، وأن يُشركه معه في أمره هو، الذي كلَّفه اللّٰه ﷻ به، وشرَّفه به، فالإسناد إلى ضمير المتكلِّم يدلُّ على أنَّ الأزر الذي يُطلب شدُّه واحد، وأنَّ الأمر الذي تُطلَبُ المشاركة فيه واحد.

معنى ﴿كَىْ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ﴾:

غـايـة الأنـبـيـاء إدمان الثَّناء

معنى ﴿كَىْ﴾ في قوله: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ﴾ وما بعده أنَّها غايةٌ للأدعية الثَّلاثة السَّابقة، وهي: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾، فكأنَّه جعل ما بعد ﴿كَىْ﴾ هو غايته من هذه الأدعية، على أنَّ هناك جوابَ سؤال مقدَّر، وهو: لماذا سألتَ هذه المسألةَ؟ وما تفعل إن أجبتَها؟ فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿نُسَبِّحَكَ﴾:

كـلَّـما تـجـدَّدت في حقِّ الله ﷻ الافـــتـراءات، تـــجـــدَّدت له ســبــحـــانــه التَّنزيهات

أوثِرَ المضارع ﴿نُسَبِّحَكَ﴾ في هذا الموضع لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، فكما أنَّ الدَّعوة إلى اللّٰه التي أمر اللّٰه ﷻ بها نبيَّه موسى عليه السلام متجدِّدة، وهذه الافتراءات حادثة شيئًا بعد شيء ومتجدِّدة، فناسبَ ذلك أن يكون التَّسبيحُ - الذي هو تنزيه اللّٰه ﷻ عمَّا لا يليق به من هذه الافتراءات وغيرها - متجدِّدًا، وهو ما يدلُّ عليه الفعل المضارع في هذا المقام.

سِرُّ اختيار التَّسبيح دون غيره من كَلِمِ الذِّكْر:

أوثِـرَ التَّسبيح تنزيهًا للذَّات الـعـلـيَّـة عـمَّـا ادَّعـاه فرعـون الـسَّـفـيـه مـن الألوهيَّة

سِرُّ اختيار التَّسبيح دون غيره منَ الذِّكر؛ لأنَّ التَّسبيح تنزيه للّٰه ﷻ عمَّا لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله، وتنزيهه عن أيِّ نقص بأيِّ وجه منَ الوجوه، ولمَّا كان المقام أنَّهم ذاهبون إلى فرعون الذي

(1) البروسويّ، روح البيان: 5/ 380.

طغى، وادَّعى الألوهيَّة، ممَّا في ذلك من اتِّهام اللّه ﷻ بما لا يليق من كونه له شريك، ناسبَ ذلك أن يكون أوَّلَ ما يفعلانِه في هذا المقام هو تسبيح اللّه ﷻ وتنزيهه عمَّا يقول الظَّالمون؛ فلذا اختير التَّسبيحُ في هذا المقام دون غيره من كَلِم الذِّكر(1).

سِرّ التّقييد بالنّعت في قوله: ﴿كَثِيرًا﴾:

المــؤمــنــون يتنسَّمون الذِّكر تنسُّم الأنفاس، فيَحْيَونَ به في جَنَّة دون النَّاس

جاءت كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ في الموضعين نعتًا لمصدر محذوف، تقديره: (نسبِّحك تسبيحًا كثيرًا، ونذكرك ذكرًا كثيرًا)(2)، ودلَّ ذلك على كثرة تسبيحهم للّه، وكثرة ذكرهم له جلَّ في علاه، وهو ما يتناسب مع الوظيفة التي كلِّفوا بها، وهي النُّبوَّة، والدَّعوة إلى اللّه، فحالُ المؤمنين - بخلاف المنافقين - أنَّهم يذكرون اللّه كثيرًا، عملًا بقول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: 41]، أمَّا المنافقون فإنَّهم ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النّساء: 142]، ويضاف إلى ذلك أنَّ اللّه تعالى لَمَّا قال لموسى عليه السلام: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ فهم الكليمُ الكريم عليه السلام ما للذِّكر مِن قيمة عَليَّة في صرح العبوديَّة، فلذلك أراد أن تكون حياتُه كلُّها ذكرًا كثيرًا للّه تعالى، بل إنَّه رأى في نفسه قصورًا عن بلوغ ما نشطتْ نيَّتُه إليه، وعزمتْ عليه، فأراد أن يُشْرِك أخاه معه في ذلك الفضلِ والشَّرف؛ ليقوم بحقِّ اللّه عليه خيرَ قيام.

الغرض من تنكير ﴿كَثِيرًا﴾ في الموضعين:

أفـاد التَّـنـكـير معنى التَّكثير، فلا يحدُّه حدّ، ولا يحصيه عدّ

جاء الوصف ﴿كَثِيرًا﴾ في الآيتين: ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا﴾، ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ مُنَكَّرًا للتَّكثير، فكأنَّه قال: كي ننزِّهك عمَّا لا يليق بكَ من ادِّعاء فرعون الإلَهيَّة، وكونه شريكًا لك، ونَصِفَكَ بما يليق بك من صفات الكمال والجلال، فننزِّهَكَ عمَّا ذُكِرَ تنزيهًا كثيرًا في زمان

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 45.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 13، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 500.

كثير، ونَصِفَكَ بصفات الكمال والجلال وصفًا كثيرًا في وقت كثير[1]، ولمَّا كان قوله: ﴿كَثِيرًا﴾ دالًّا على الكثرة بأصل الوضع، وكان تنكيره مفيدًا للتَّكثير، فقد دلَّ هذا على معنى الكثرة الكاثرة التي لا يحدُّها حدّ، ولا يحصيها عدّ.

علَّة وصل قوله: ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ بما قبله:

اتّصال التّحلية بالتّخلية

لَّما كان قوله: ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ مُتَّحِدًا بما قبلَه في كونهما جميعًا دعاء للّه ﷻ، وكان هذا الاتِّحاد في اللَّفظ والمعنى أيضًا، وليس هناك ما يقتضي الفصل، كان اللَّائق بهذا الموضع أن يكون موصولًا بما بعدَه، لا سيَّما وبينهما منَ التَّلاؤم الفكريِّ ما يُحَسِّن الوصلَ في هذا المقام، وذلك التَّلاؤم أتى من كون التَّسبيح والتَّنزيه للّه ﷻ عمَّا لا يليق به كالتَّخلية، وذكره ووصفه بما يليق به كالتَّحلية، وكانت التَّخلية فقط ليست مدحًا وكمالًا محضًا ما لم تكن مصحوبة بالتَّحلية، فلأجل ذلك كان بين ذكر اللّه وتسبيحه منَ الملائمة ما يُحسِّن الوصل.

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿وَنَذۡكُرَكَ﴾:

المؤمن لسانه بالذِّكر رطبٌ نديّ، والمنافق عنه بعيد قصيّ

لَّما كان الذِّكر ممَّا لا يكون إلَّا شيئًا فشيئًا، وممَّا يوجد بعد عدم، فقد ناسب الإتيان بالفعل المضارع الدَّالِّ على التَّجدُّد في قوله: ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾؛ ليدلَّ على دوام الذِّكر على سبيل التَّجدُّد، وهو ما يناسب المقام من تَجدُّد الذِّكر ودوامه، وتجدُّدِ وصْفِ اللّه بالكمالات ودوامه، في مقابل افتراءات فرعون وقومه.

سِرُّ ذِكر الذِّكر بعد التَّسبيح مع أنَّه مضمَّن فيه:

قَدَّم ذكرَ التَّسبيح لأنَّه تنزيه للّه ﷻ عمَّا افتراه عليه الظَّالمون من فرعون وأعوانه، فهو تنزيه عن كلِّ ما لا يليق باللّه، ثمَّ أتى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 13، 14، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 500.

في ذكر الذِّكر بعد التَّسبيح جمعٌ بينَ التَّخلية والتَّحلية، والإنابة والتَّزكية

بالذِّكر بعده لأنَّه وصفُ اللّٰه سبحانه بالكمالات التي يستحقُّها، من صفات الجلال والجمال، فكان هذا زيادةً على مجرَّد التَّسبيح الذي هو تنزيه للّٰه ﷻ عمَّا لا يليق به، وكان في ذِكر الذِّكر بعد التَّسبيح زيادةٌ ليست في ذكر التَّسبيح وحدَه[1]، وأيضًا فالتَّسبيح محلُّه القلب؛ لأنَّه اعتقادُ كون اللّٰه مبرَّأً منَ النَّقائص ومنزَّهًا عنها، والذِّكر محلُّه اللِّسان؛ لأنَّه وصف للّٰه بالكمال، والوصف لا يكون إلَّا باللِّسان، فكان في الجمع بينهما مواطأةُ اللِّسان للقلب[2].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عن سابقه:

اللّٰه على كلِّ شيء قدير، وهو بعباده خبير بصير

فُصِل قوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عمَّا قبله؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعليلٌ لسؤاله وطلبِه منَ اللّٰه أن يشرح له صدرَه، وييسِّر له أمرَه، ويَحلُّ عقدةً من لسانه، ويجعل له وزيرًا من أهله، فكأنَّه قال: لأنَّك تعلم حالي، وحالَ أخي، فافعل لنا كذا وكذا ممَّا نطلبه منك؛ ليسهلَ علينا القيام بواجب الدَّعوة والنُّبوة الذي كلَّفتنا به[3].

نُكتة تأكيد الجملة بـ﴿إِنَّكَ﴾:

يقين الكليم بإحاطة علمِ اللّٰه به أكيدٌ، فناسب أن يوشَّح دعاؤه بالتَّوكيد

جاءت الجملة في قوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ مؤكَّدةً، مع أنَّه لا يوجد هنا متشكِّكٌ ولا منكِرٌ، فجاء الكلامُ على خلاف مقتضى الظَّاهر؛ ليبيِّن أنَّهم على يقين تامٍّ مِن أنَّ اللّٰه تعالى بهم بصير، فنَزَّل المتكلِّمُ نفسَه منزلةَ المُتردِّد؛ ليدفعَ عن نفسه أمامَ ربِّه أيَّ عُلَقةِ تردُّدٍ أو شكٍّ، فجاء التَّوكيد بمؤكِّد واحد لإفادة هذا المعنى.

دلالة التَّعبير بفعل الكون ماضيًا: ﴿كُنتَ﴾:

اللّٰه بصير بخلقه أزلًا وأبدًا، وأحصى علمُه كلَّ شيء عددًا

جاء التَّعبير بفعل الكون ماضيًا في سياق الجملة الاسميَّة المبدوءة بالحرف النَّاسخ (إنَّ)؛ ليجتمعَ عددٌ منَ المؤكِّدات في هذا النَّظم

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 45، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 500.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 329.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 214.

البديع، قليلِ المباني كثيرِ المعاني، فالتَّعبير بالماضي ﴿كُنتَ﴾ يدلُّ على تحقُّق الفعل واستمراره في زمن المضيِّ، وأنَّ ذلك كان عادة متَّصلة أو متكرِّرة في الماضي.

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِنَا﴾:

الأصل في الباء أنَّها للإلصاق، وهذا هو أصل معانيها، وقد يُتوسَّع في معنى الإلصاق أيضًا، حتَّى يدلّ على الإلصاق المعنويِّ، كما يُقال: رأفتُ به، أي: ألصقتُ رأفتي به[1]، والباء في هذه الآية تدلُّ على هذا النَّوع منَ الإلصاق، فكأنَّه يقول: إنَّ متعلَّقات صفة البصر قد أحاطتنا وشملتنا، حتَّى لكأنَّها التصقت بنا.

الله العظيم محيطٌ بكلِّ شيء علمًا، وسع سمعُه الأصوات، وأحاط بصرُه بالمبصَرات

الغرض من تقديم شبه الجملة على الخبر في قوله: ﴿كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾:

في تقديم شبه الجملة ﴿بِنَا﴾ على خبر النَّاسخ في قوله: ﴿كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ إشعارٌ بالتَّخصيص، مبالغةً في وصف العلم بالحال وتوكيدًا له، فالتَّقديم هنا ليس لأجل التَّخصيص الحقيقيِّ، فبَصرُ اللّه تعالى قد أحاط بجميع المُبصَرات، ولكنَّه تقديم من باب التَّقوية والتَّوكيد المناسبَين لتذييل الدُّعاء، فكأنَّه قال: يا ربِّ تلك مسائلُ لا يَقْدِر عليها إلَّا أنت سبحانك، وسألتُكها ليقيني بقدرتك عليها؛ فأكَّد ذلك بالحرف المُؤكِّد (إنَّ)، وبتقديم شبه الجملة، ويضاف إلى ذلك أنَّه لمَّا كانت الفواصل في الآيات السَّابقة منتهية بكلمة على زنة (فعيل)، مختومة بالرَّاء المفتوحة ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾، و﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، ناسب ذلك أن تُقدَّم شبه الجملة على كلمة ﴿بَصِيرًا﴾؛ لرعاية الفواصل[2].

أفاد التَّقديم التَّقوية والتَّوكيد، فليس ما سُئل على الله ببعيد

سِرُّ اختيار الاسم الجليل ﴿بَصِيرًا﴾ دون غيره:

اسم اللّه البصير يدلُّ على إحاطته سبحانه بفعلهم، وعِلْمِه بهم

---

(1) الزّمخشريّ، المفصّل، ص: 381، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 19.

(2) البروسويّ، روح البيان: 5/ 380، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 500.

علمًا تامًّا، وليس علمًا عن خبر يُحكَى له، بل عن رؤية ومشاهَدة لهم، فيكون نبيُّ اللّه موسى عليه السلام في سؤاله ودعائه مستحضرًا لكون اللّه معه، ومطّلعا عليه، لا بتبليغ مبلِّغٍ له، بل لأنَّه يراه، وكذلك أوثر هذا الاسمُ الجليل لأنَّه مناسب تمامَ المناسبة لما وجدَهُ موسى عليه السلام في المناجاة، فهو يناجي سميعًا له، بصيرًا به، عليمًا بحاله.

مَن بلغ مقامَ الإحسان استشعر مراقبةَ الله له في كلِّ آن

نُكْتةُ مجيء الاسم الجليل ﴿بَصِيرًا﴾ نكرةً، ومعنى المبالغة فيه:

جاء الاسمُ الجليل نكرةً في قوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ لإفادة التَّعميم؛ أي: إنَّك كنتَ بنا بصيرًا بكلِّ شيء نفعله، فقد أحاط بصرُكَ بكلّ مُبصَر، فأنتَ الذي تبصر تسبيحنا كلَّه، وذكرنا كلَّه، وعملنا كلَّه، ولا تخفى عليك خافية، سبحانك وبحمدك.

أفاد التَّنكيرُ عمومَ تعلّق بصرِ الله تعالى بكلِّ فعل

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الأهل والآل:

الأهل يكون من جهة النَّسب والاختصاص؛ فمِن جهة النَّسب يقال: أهلُ الرّجل لقرابته الأدنَين، ومن جهة الاختصاص يقال: أهل البصرة وأهل العِلم.

والآل خاصّة الرَّجل من جهة القرابة أو الصحبة؛ فيقال: آلُ الرّجل لأهله وأصحابه، ولا يقال: آل البصرة وآل العلم[1].

الأهل من جهة النَّسب والاختصاص، والآل من جهة القرابة أو الصحبة

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 84.

المحتويات

